THE LAST MUGHAL

ويليام داريمبل

المغولي الأخير

سقوط سلالة - دلهي 1857

ترجمة

صفا ممدوح - محمد عبد العزيز

فريق
متميزون
E-BOOK

KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE
كتوبيا

الترجمة الأولى والحصرية باللغة العربية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المغولي الأخير

سقوط سلالة – دلهي ١٨٥٧

ويليام داريمبل

ترجمة:

صفا ممدوح – محمد عبد العزيز

(الترجمة الأولى والحصرية باللغة العربية)

عن الكتاب..

"جاء الإمبراطور المغولي الأخير "ظفر" إلى العرش عندما كانت السلطة السياسية للمغول في حالة تدهور تام. ومع ذلك، فقد انشأ "ظفر" - وهو صوفي وشاعر وخطاط ذو إنجازات عظيمة - بلاطًا عظيمًا ليس له مثيل، وربما أدى إلى أعظم نهضة أدبية في تاريخ الهند الحديث. طيلة تلك الفترة، أخذ البريطانيون يستولون تدريجيًا على سلطة الإمبراطور. عندما أعلن "ظفر" كزعيم الإنتفاضة ضد البريطانيين في مايو 1857، كان عاجزًا عن المقاومة رغم أنه كان يشك بشدة في أن تلك الانتفاضة محكوم عليها بالفشل. بعد أربعة أشهر، استولى البريطانيون على العاصمة دلهي بنتائج كارثية. من خلال فهم غير مسبوق للتاريخ البريطاني والهندي، يقدم "دالريمبيل" سردًا مفصلًا وكاشفًا لواحدة من أكثر الاضطرابات دموية في التاريخ"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

يسرني أن أضع هذا الكتاب بين يدي القارئ العربي، للمؤلف وكاتب الرحلات المهتم بالتاريخ الإسلامي والشرق آسيوي، «وليام داريمبل» الحائز على العديد من الجوائز، أهمها جائزة «داف كوبر» لأفضل عمل أدبي تاريخي عن كتابه «المغولي الأخير» الذي نحن بصدده.

نتعرف سويًا على الطريقة التي سقطت بها سلالة المغول في حالة من الفوضى، وعلى النهاية التي لاقوها وكيف لفظت الحضارة العظيمة أنفاسها الأخيرة. كان الإمبراطور «بهادور شاه الثاني»، شاعرًا اشتهر باسمه المستعار «ظفر»، مهتمًا بالآداب والفنون والحدائق أكثر من اهتمامه بإمبراطوريته وقلعته مركز الحكم! وقد أنتج هذا أعظم فترات المغول أدبيًا، دون سلطة فعلية تتعدى حدود قلعته، بل لقد كان الإمبراطور سجين قلعته، حتى قررت الملكة فيكتوريا خلعه وإعلان نفسها إمبراطورة للهند.

ربما تكون هذه هي القصة المعتادة التي سمعها أو قرأ عنها أي مهتم بتاريخ المغول في الهند، لكن «داريمبل» يقوم بما هو أكثر من سرد للقصة! يقوم بتصويرها وكأنها لوحة سردية بالغة الإتقان، تنقلك إلى داخل البلاط فجأة، إلى عام ١٨٥٢، حيث كان الإمبراطور «ظفر» يحاول البقاء على أخر حقوق سلطته في اختيار وريثه!

ما أضفاه «داريمبل» على القصة، هو الوصف الإنساني، والمشاعر الداخلية للشخصيات، اعتمادًا على الرسائل الموثقة والموروث الشفهي والسجلات التي تعود إلى تلك الفترة بالإضافة لمخزون الكتب وأرشيف الصحف والقصائد التي أنتجها الناجون بغزارة، ويصطحبنا «داريمبل» معه في غرف البلاط وحكاياته، وخبايا حريمه ودسائس أمرائه، يجعلنا نقف وجهًا لوجه أمام المقارنة المشروعة بين عائلة الإمبراطور الحاكم الصوري، وعائلة «توماس ميتكالف» المقيم البريطاني وممثل الحكم الحقيقي لشركة الهند الشرقية.. ثم ينطلق بنا في أنحاء دلهي، واصفًا إياها كتاريخ، وثقافة، وعادات مليئة بالتسامح الديني المنبعث من البلاط نفسه.

لكن أبعاد هذا التسامح الديني الذي انتشر في عصره، لم تصل إلى الكنيسة البريطانية التبشيرية، حيث مثلت عمليات التبشير بها تهديدًا للشعب الهندوستاني، والتعايش المتداخل بين المسلمين و«المغول البيض» المصطلح الذي يطلق على البريطانيين الذين عاشوا وكأنهم من سكان دلهي المسلمين، إذ أعلنوا صراحة أن هدفهم هو نشر الديانة المسيحية في هذه البرية الوثنية.

عندما بدأت الاضطرابات في ميروت في العاشر من مايو ١٨٥٧، لم يكن «ظفر» على علاقة بها تمامًا، لكنَّ السيبويين أعلنوا التمرد على حكم شركة الهند الشرقية، وأتوا طالبين حماية الإمبراطور المغولي المسلم، بعدما أرغمهم البريطانيون على قضم الخراطيش المغطاة بدهن الأبقار والخنازير وهو ما يفسد عقيدة المسلمين والهندوس على حد سواء، وأكد مخاوفهم أن البريطانيين يستهدفون دينهم وينوون القضاء عليه وهو ما حولها إلى حرب دينية شعواء. وعندما اقتحموا دلهي، لم يكن ضحاياهم من البريطانيين فحسب، بل حتى مواطنيهم الذين تحولوا إلى المسيحية.

في هذه المرحلة كان «ظفر» مترددًا في الحيادية أو الانحياز للانتفاضة. بعد كل شيء، كان لدى المتمردين جيش فوضوي وخالٍ من الضباط من الجنود الذين لم يتلقوا رواتبهم، والذين يواجهون أكبر قوة عسكرية في العالم، لكنه لم يجد بدًا في أن يصبح زعيم الانتفاضة، وأن تطلق القلعة الألعاب النارية، للإعلان عن عودة السلطة المغولية وعودة احترام شعب دلهي للبلاط المغولي.. رغم أنه لم يكن لديه لا قوة ولا ذخيرة ولا نقود! لكن الجنود أخبروه أنهم سيكتفون ببركته! وهكذا ببركة «ظفر» المرتاب، انطلقت أكبر ثورة قابلها البريطانيون في القرن التاسع عشر الميلادي.

وانطلق السيبويين بفوضاهم في عمليات النهب والسرقة وإخلاء المدينة من البريطانيين تمامًا، الذين سيطروا عليها منذ هزيمة البريطانيين لاتحاد الماراثا عام ١٨٠٣. تجمع الناجون من البريطانيين في معسكرات التلال شمال الهند، بعدما خاضوا طريق الهرب المحفوف بالمخاطر من قبل السيبويين وقبائل الغجر التي تجمعت على الطريق لتجردهم من كل شيء حتى ملابسهم، واستمر حصارهم المشتت هذا لأشهر، فيما تجمع في البداية كل من الهندوس والمسلمين والمجاهدين المستقلين على قلب رجل واحد، تاركين خلافاتهم الدينية جانبًا لدحر الإنجليز، قبل أن تندثر هذه الروح أمام حرب شوارع خاضها المتعصبون من كلا الدينين، في الأزمة المعروفة بأزمة الأبقار، حيث قام الهندوس بذبح خمسة جزارين مسلمين اتهموا بذبح الأبقار في فترة عيد الأضحى.

في كل هذه الفوضى كان ظفر عاجزًا عن فعل أي شيء، فقد كان في النهاية عجوزًا صوفيًّا يقارب الثمانين لم يخض حربًا واحدة في حياته! فكان على «ميرزا مغول» أن يقوم بدور أبيه، حتى أنه أرسل الكثير من المراسلات لإعادة إحياء المدينة، والضرب بيد من حديد على يد النهب والسرقة، لكن كل محاولاته باءت هباءً.

أصبح «ظفر» أكثر اكتئابا وانعزالية، حيث شعر بفداحة ما أقدم عليه، وأدرك أن العنف سيؤدي إلى تدمير دلهي وِالسقوط النهائي للمغول، والبلاط

المغولي الحضاري المثقف المتسامح دينيًّا الذي جاهد لبنائه طيلة حياته، ولهذا بدأ في التواصل - بإيعاز من زينَّت محل - مع البريطانيين على التلال. لكن البريطانيين كانوا قد عزموا على الانتقام، ليس من المتمردين فحسب، بل من «ظفر» كذلك، وفي الوقت الذي أدرك «ظفر» فيه مدى عبثية تلك الثورة، كان البريطانيون الذين عانوا من الجوع والتشريد والفقد المرير لأشهر، قد أعدوا عدتهم وقادوا ثقل روح الانتقام المتعطشة للدماء إلى أبواب دلهي.

جاهد السيبويون في التوسل لـ«ظفر» ليقودهم في المعركة، لكن «ظفر» كان قد فقد حماسه لكل شيء، شق طريقه إلى الضريح الصوفي لنظام الدين، وسلم موروثاته هناك، عازمًا على الرحيل إلى مكة، متأكدًا من أنه المغولي الأخير من السلالة التيمورية العظيمة.. لكن بسبب ضمان «هودسون» لحياته وحياة «زينَّت محل» وابنها المفضل، عاد من رحلته، وجلس منتظرًا عند مقبرة همايون القريبة.. لم يكن هذا الضمان يشمل أبناء ظفر الشرعيين، حتى بعدما أعلنوا استسلامهم بنفس طريقة «ظفر" فتم اصطحابهم إلى منطقة معزولة وإعدامهم بدون محاكمة، ولم ينج منهم إلا اثنان اعتقلوهما في البداية لكنهما تمكنا من الفرار، تمامًا كما هرب السيبويون وجحافل من مواطني دلهي، ليخرجوا عبر نفس الطرقات التي خرج إليها البريطانيون قبل أربعة أشهر، ولم ينج منهم إلا القليل جدًا ليحكوا ما حدث لهم وكيف تشردت العائلة المغولية العظيمة، حتى أن الكثير من نسائها اللاتي لم تلمس حتى الشمس أجسادهن من قبل، اشتغلن بالدعارة والبغاء.

انتشرت المذابح الوحشية والانتقام الشخصي في كل شبر وكان الأكثر قيادة لها هو «ثيو ميتكالف» ابن المقيم البريطاني السابق «توماس ميتكالف»، فَعَلَتْ رائحة الموت وتعفن الجثث في كل أرجاء المدينة الصامتة. وجلس «ظفر" وحيدًا منعزلًا في محبسه، في حالة بائسة من الإعياء والألم، ينتظر محاكمته الهزلية باعتباره مركز التمرد وقائده، وهو ما جعل بعض البريطانيين وفقًا لـ«داريمبل» يشككون في شرعية تلك المحاكمة. إذ لا يمكن على حد تعبير مراسل صحيفة التايمز «ويليام هوارد راسل» لومه على رغبته يومًا في التخلص من العبودية التي عانى منها من قبل المقيم البريطاني الممثل لشركة الهند الشرقية.

استمرت المحاكمة لأسابيع، وغالبًا ما توقفت بسبب الحالة الجسدية للملك المريض، حتى صدر الحكم في النهاية في حق «ظفر» بأنه «مذنب» بالإجماع. وما منعهم من تنفيذ حكم الإعدام هو الضمان الذي قدمه «هودسون» لحياته.. تم نقله إلى بورما مع زوجته «زينَّت» وابنه الأصغر «ميرزا جيوان بخت»

والعديد من الأقارب الآخرين الذين تبعوه إلى المنفى.. حتى توفى «ظفر» أخيرًا في عام ١٨٦٢، لم يكن الأمر مفاجئًا حيث توقع الأطباء وفاته طيلة عقدين من الزمان، حتى توفي نتيجة لشلل تام في منطقة الحلق منعته من ابتلاع الطعام، ولم يكن الأمر مفاجئًا لأهل «دلهي» المتبقين الذي عانوا من الفقد كثيرًا وقد تأثروا بترحيل «ظفر» عن دلهي واعتبروه ميتًا من تلك اللحظة.

لحقت «زينَّت محل» بـ«ظفر» عام ١٨٨٢ وسرعان ما اختفت معالم قبرها هي الأخرى، وكذلك مات «ميرزا جوان بخت» في المنفى أيضًا، في أوائل الأربعينيات من عمره، في عام ١٨٨٤. وهكذا انتهت إمبراطورية المغول العظمى في الهند، بعد أكثر من ثلاثة قرون من الحكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشخصيات

المغول

أ - العائلة الإمبراطورية المغولية

- الإمبراطور «بُهادر شاه ظَفَر الثاني» (١٧٧٥ - ١٨٦٢):

أكبر أباطرة المغول، الابن الأكبر، وإن لم يكن المفضَّل لدى الإمبراطور «أكبر شاه الثاني» كان متعدِّد المواهب، خطَّاطًا، وشاعرًا صوفيًّا، وعالم دين، وراعيًا لرسَّامي المنمنمات، ومهتمًا ببستنة الحدائق. لكن مع حلول خمسينيات القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من بدايته القوية وبعض الأجواء الروحانية التي ارتبطت بسلالة المغول، بدأت سلطته تتراجع يومًا بعد يوم وصار من نواحٍ كثيرة مجرد صورة ظاهرية، كـملك حجريٍّ على رقعة الشطرنج. وبالرغم من أنه أصيب بالرعب في البداية من اقتحام السيبويين المحبطين قصرَه بالقوة في ١١ مايو ١٨٥٧، إلا إنه في النهاية وافق على منح مباركته للثورة، ظنًّا منه أنها الطريقة الوحيدة لإنقاذ مملكته العظمى من الانهيار؛ وهو ما ندم عليه بشدة فيما بعد.

- «زينَّت محل» ١٨٢١ حتى ١٨٨٢

أعلى زوجات «ظفر» شأنًا، هي الزوجة الوحيدة ذات الخلفية الأرستقراطية. عندما تزوجَا في ١٨٤٠ كانت في التاسعة عشرة من عمرها، بينما كان هو في الرابعة والستين. وبعد أن أطاحت بمنافستها «تاج محل» من موقعها كزوجة مفضلة، أنجبت ابنًا لـ«ظفر» أسمته «جيوان بخت»، وعملت بجد ليكون ابنها - صاحب الترتيب الخامس عشر بين أبناء «ظفر» الستة عشر - خلفًا لأبيه على العرش، وقد لوحظ أن «ظفر» كان تحت تأثير سيطرتها بالكامل، وقد تراجع تأثير هذه السيطرة خلال عام ١٨٥٧.

- «تاج محل»:

رأَست «تاج محل» - الجميلة ابنة عازف البلاط المتواضع - الاحتفالات التي صاحبت تنصيب «ظفر» على العرش في عام ١٨٣٧ بصفتها الزوجة المفضلة ورئيسة حريم الإمبراطور. وقد بدأت رحلة سقوطها منذ عام١٨٤٠، بعد زواج «ظفر» من «زينَّت محل» ذات التسعة عشر عامًا، وبحلول ١٨٥٧، سُجنت «تاج محل» بسبب الشك في وجود علاقة محرمة بينها وبين ابن أخ «ظفر» المدعو «ميرزا كمران»، وبهذا أُطيح بها بعيدًا عن «ظفر» و«زينَّت محل».

- «ميرزا فخرو»، اختصارًا لـ«ميرزا غلام فخر الدين» ١٨١٨ إلى١٨٥٦.

بعد وفاة «ميرزا دارا بخت» أكبر أبناء «ظفر» متأثِّرًا بالحمَّى عام ١٨٤٩، اعتقد البريطانيون أن الابن التالي لـ«ظفر» والمدعو «ميرزا فخرو» سيخلفه وليًّا للعهد، وقد كان «فخرو» شاعرًا ومؤرخًا معروفًا وموهوبًا، لكن «ظفر» الواقع تحت تأثير «زينَّت محل» بالكامل حاول دون جدوى إقصاءه لصالح «ميرزا جيوان بخت» ابن «زينَّت» البالغ من العمر خمسة عشر عامًا. تُوفي «ميرزا فخرو» عام ١٨٥٦ متأثرًا بالكوليرا، لكن كانت هناك شائعات قوية انتشرت في القصر أنه مات مسمومًا.

- «ميرزا مغول» (١٨٢٨ - ١٨٥٧).

الابن الخامس لـ«ظفر» من سيدةٍ من الأشراف (من نسل الرسول ﷺ) تُدعى «شرف المحل سيداني»، وكانت شخصية بارزة في حريم «ظفر». علَت مكانة «ميرزا مغول» في البلاط الملكي باعتباره أحد المُوالِين لـ«زينّت محل»، بعد العداء الذي أُعلن على «ميرزا فخرو» عام ١٨٥٢، وبعد وفاة «ميرزا فخرو» صار أكبر أبناء «ظفر» الشرعيين الباقين على قيد الحياة، وربما بدأ هذه المرحلة بالاتصال بالسيبويين الساخطين على حكم شركة الهند الشرقية ([1])، ولكنه واعتبارًا من ١٢ مايو فصاعدًا صار الزعيم الرئيس للثوار في العائلة المالكة، وعمل بِجِد شديد في الحفاظ على حكم دلهي وسط فوضى الثورة والحصار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ب - سكان قصر الإمبراطور

- «ميرزا خضر سلطان» (١٨٣٤ - ١٨٥٧)

تاسع أبناء «ظفر»، وهو ابن غير شرعي من إحدى محظيات القصر. وبحلول عامه الثالث والعشرين عام ١٨٥٧، اشتهر بكمالِه الجسدي وقدرته شاعرًا وراميًا لا بأس به.. ولكن بعد تورطه مع الثوار عام ١٨٥٧، لم يعد له ما يميزه، حتى إنَّه تقهقر خوفًا في معركة «بادالي كي سراي»، مما تسبب في حالة من الفوضى داخل صفوف الثوار. اشتهر بفساده خلال فترة الحصار، وكثيرًا ما انتُقِد بسبب الاعتقالات وتحصيل الضرائب من التجار دون أيَّة سلطة تخوله لفعل ذلك.

- «ميرزا أبو بكر» (١٨٥٧).

كان «ميرزا أبو بكر» - أكبر أحفاد «ظفر» سنًّا - فتى القصر سيء السمعة، وقد بدأت سمعته تزداد سوءًا في الالتماسات والشكاوى المرفوعة إلى الإمبراطور بتهم عديدة مثل الدعارة والسكر وجلد خدمه وضرب الحراس أو أي شرطي يحاول إلجامه عن أفعاله.. وقد تولى المسئولية - اسمًا فقط -

لسلاح الفرسان من الثوار ونهب «جورجاون» وضواحيَ مختلفة من «دلهي» قبل أن يشارك في قيادة الحملة الكارثية إلى «ميروت» التي انتهت بهزيمة الثوار في جسر «هندان» في ٣٠ و٣١ مايو.

- «ميرزا جيوان بخت» (١٨٤١ - ١٨٨٤)

هو الابن المفضل لـ«ظفر»، والوحيد الذي رُزقت به «زينَّت محل»، وعلى الرغم من كون ترتيبه الخامس عشر من بين ستة عشر ولدًا، فإن «ظفر» قد صمَّم على جعله وريثه الشرعي.. لم يكن لـ«ميرزا جيوان بخت» - المدلل والأناني - شعبية كبيرة، بخلاف والده وبعض المؤيدين القلائل، كما لم يكن لديه اهتمامٌ كبيرٌ بالتعليم، وفي أثناء الثورة أبعدته والدته عن الثوار، وكانت تأمل أن يُنَصَّب على العرش بعد هزيمة السيبويين.

- «ميرزا إله بخش».

حَمُو «ميرزا فخرو» وجَد «ميرزا أبو بكر»، وسواء قبل ١٨٥٧ أم بعدها كان أحد قادة الفصيل الموالي المتملق لبريطانيا في البلاط. كان على اتصال وثيق بـ«ويليام هودسون» طوال الحصار. وكان له دور فعَّال في إقناع «ظفر» بالاستسلام بعد سقوط المدينة، وفي الفترة التي تلت ذلك كان مسئولًا عن تحديد المتعاطفين مع الثوار من أقاربه، وقد أمَّن حياته في مقابل تسليم رقاب معظم أفراد عائلته بما في ذلك حفيده نفسه، فعُرف باسم «خائن دلهي».

- «الحكيم إحسان الله خان».

كان رجلًا فائق الذكاء، يتمتع بالحكمة والثقافة، وكان موضع ثقة «ظفر»، وعُيِّن ليكون رئيس وزرائه وطبيبه الخاص، قبل ١٨٥٧ كانت علاقة «الحكيم» بـ«زينَّت محل» متوترة، لكن في ١٨٥٧ توصَّلا إلى أرضية مشتركة، فاتحدَا ضد جيوش الثوار، وبدأ مراسلة البريطانيين.. عندما اكتشف الثوار خيانته قرروا قتله لكنه استنجد بحماية «ظفر». ثم واصل «الحكيم» الضغط على «ظفر» كي لا ينحاز لقضية الثوار، وأقنعه بتسليم نفسه إلى البريطانيين، لكن عندما فعل ذلك في النهاية قام إحسان الله بخيانته، وقدَّم أدلة ضد «ظفر» في محاكمته مقابل العفو عنه!

- «محبوب علي خان».

رئيس الخِصيان في القصر، والذراع القاسية التي لا ترحم لـ«زينَّت محل»، اشتهر بقسوته داخل خِدر الحريم، وكان - مثل «زينَت محل» - يشك في الثورة، وشغل مركز قيادة الفصيل الموالي لبريطانيا في أثناء الثورة. توفي

في ١٤ يونية ١٨٥٧ بعد مرض طويل، لكن سرت شائعات على نطاق واسع بأنه توفي مسمومًا.

- «ميرزا أسد الله خان» المشهور بـ«غالب» (١٧٩٧ - ١٨٦٩).

أعظم شاعر غنائي باللغة الأردية، وبعد وفاة منافسه الشرس «زوق» في عام ١٨٥٤، أصبح «شاعر البلاط الملكي» لدلهي المغولية. وكان - على الرغم من طباعه شديدة المجون وخُيَلائه - شديد المَيْل للصوفية، وقد سجَّل في كتاباته بعضَ أكثرِ القصائد تعقيدًا وحزنًا على تدمير «دلهي» في فترة الحصار وسقوط المدينة عام ١٨٥٧.

- «ظهير دهلوي» (١٨٣٥ - ١٩١١).

كان أحد الخدم الملاصقين لـ«ظفر» في البلاط المغولي، عمل في القلعة منذ سن الثالثة عشر. وبحلول عام ١٨٥٧ صار يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، وقد رُقِّيَ لمنصب الحارس الخاص لـجائزة «ماهي مراتب»([2]) كان أحد تلامذة الشاعر «زوق»، ومن أذكى رجال البلاط وأكثرهم ثقافة، فقد كان هو الآخر شاعرًا مخضرمًا. ويحكي كتابه «حكاية الثورة» الذي لم يترجم إلى الآن إلى اللغة الإنجليزية أو العربية، وصفًا عامرًا بالتفاصيل عن الحصار والثورة من وجهة نظر القصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ج - جيش الثوار:

- القائد «بخت خان».

كان «بخت خان» سوبحدار([3])، وضابطًا في المدفعية قبل عام ١٨٥٧، ومن المحاربين القدامى في الحروب الأفغانية. كان رجلًا طويل القامة بدينًا وضخم البنية، له شارب ضخم وسوالف بارزة. وقد أُنتخب قائدًا عامًّا لجيش «باريلي»، ووصل إلى دلهي في منتصف الحصار في ٢ يوليو عام ١٨٥٧ تسبقه سمعته كمسئول وقائد عسكري قوي، لذا عندما دخل دلهي بصحبة رجاله الـثلاثة آلاف، بدا كما لو أنه سيحقق انتصارًا سريعًا للثوار، لكن معاملة «بخت خان» غير اللائقة لقادة الثوار الآخرين، وخاصةً «ميرزا مغول» سرعان ما جعلتهما أعداء، بالإضافة إلى نزعته الدينية «الوهابية» التي لم تُحسَّن موقفه كثيرًا. وفي منتصف أغسطس، أدى فشله أمام القوات البريطانية إلى تقليص مكانته عند الثوار، وإعفائه من مهامه.

- القائد «سوداري سينغ» والقائد «حيرا سينغ»:

المنافسان الرئيسان لـ«بخت خان»، رفضَا قبول سلطة «بخت خان»، وعملَا على التقليل منه، خاصةً بعدما ترك قواتهما لمصيرها حين نصبت لهم قوات «نيكلسون» كمينًا في «نجفجارا» في الخامس والعشرين من أغسطس.

- الضابط «جوري شنكار صقل»:

قائد فيلق «هاريانا»، والذي صار أهم جاسوس بريطاني وعميل مندس داخل صفوف الثوار.

- «الشيخ سرفراز علي»:

عُرف سرفراز الشيخ الوهابي والمرشد الروحي لـ«بخت خان» بـاسم إمام المجاهدين.

قبل الثورة، أمضى سنواتٍ عديدة في دلهي وكان على صلة جيدة بـالبلاط الملكي والشعب، وهو واحد من أوائل رجال الدين الذين دعوا للجهاد ضد البريطانيين في الأيام التي سبقت اندلاع الثورة، ومع اشتداد الحصار وزيادة أعداد المجاهدين، نما نفوذه قائدًا للثوار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

د - آخرون من مدينة دلهي:

- «الجاسوس جيوان لال».

قبل اندلاع الثورة، عمل «جيوان لال» مساعدًا للسير «توماس ميتكالف» في الإقامة البريطانية لفترة طويلة، وعلى الرغم من أنه حبس نفسه في قبو منزله في أثناء معظم فترة الحصار، فقد قام بعملية جاسوسية ذات تأثير قوي من مخبَئِه، فيوميًّا كان يرسل اثنين من البراهميين واثنين آخرين من الجات - البراهميين والجات أسماء طوائف في الهند - بغرض معرفة ما يدور في صفوف الثوار في كل جهة، ثم يقوم بإرسال هذه الأخبار إلى «وليام هودسون» رئيس المخابرات البريطانية في «ريدج».

- المفتي «صدر الدين خان» المعروف باسم «أزوردا» ١٨٦٨:

كان المفتي «صدر الدين أزوردا» صديقًا مقرَّبًا لـ«ظفر» و«غالب»، وقد لعب دورًا مهمًّا في التقريب بين الجماعة البريطانية والمغوليين في الأيام الأولى للسيطرة البريطانية على «دلهي»، ووازن طوال ثلاثين عامًا بين دوره رئيسَ القضاة في المحكمة الإسلامية وبين دوره أديبًا بارزًا في البلاط الملكي، وبين دوره معلمَ مدرسةٍ رائع بنزعة بريطانية نوعًا ما. في عام ١٨٥٧، وبسبب نفوره من تشجيع البريطانيين للمبشرين، ألقى بمصيره مع الثوار، لكنه حافظ

على وسطيته وحاول التوفيق بين المجاهدين والبلاط الملكي والسيبويين خلال أزمة ذبح الأبقار التي حدثت في أثناء عيد الأضحى بتاريخ ١ أغسطس ١٨٥٧، وبالتالي تمكن من تجنب حرب أهلية وفتنة محتملة داخل صفوف الثوار.

- «معين الدين حسين خان»:

وقت اندلاع الثورة، كان «معين الدين حسين خان» هو رئيس قوات الشرطة في مركز شرطة «باهارجانج»، في الجنوب الغربي من المدينة الواقعة تحت الحصار. وكان من فرع عائلي ثانوي لنبلاء «لوهارو»، ومن بين أبناء عمومته كان «غالب» و«ضياء الدين خان». بعد أن تسبب في إنقاذ حياة «ثيو ميتكالف»، انضمَّ للثوار ورُقِّيَ لمنصب زعيم الحصار في أثناء معظم أحداث الثورة، قبل أن يُستبدَل به ـسعيد مبارك شاه. بعد قمع الثورة، تمكَّن الزعيمان من النجاة ليؤرِّخوا كتابات ممتازة باللغة الأوردية عن الحياة في المدينة خلال أشهر الحصار.

- «سارفار المُلك»:

شاب نبيل من أصول مغولية، على الأرجح كان في الثانية عشرة من عمره في أثناء الثورة، وخلالها، أصبح معلمه الأفغاني مجاهدًا، أما والده فكان عليه أن يدافع عن منزل العائلة ضد اعتداءات السيبويين. هربت أسرته من المدينة بعد ١٤ سبتمبر مباشرة، وتمكنت من الوصول بأمان إلى«حيدر أباد»، حيث كتب «سارفار المُلك» في النهاية وصفًا رائعًا للحصار في سيرته الذاتية، وسماها «حياتي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢. البريطانيون.

أ - عائلة «ميتكالف»:

«تشارلز ميتكالف» (١٧٨٥ - ١٨٤٦):

كان أول الواصلين إلى «دلهي» من عائلة «ميتكالف»، سحرته المدينة بالكامل، عمل في البداية مساعدًا للسير «ديفيد أوكترلوني» عام ١٨٠٦ ثم مقيمًا بريطانيًّا عام ١٨١١. وقد كان «تشارلز ميتكالف» متناغمًا مع متطلبات منصبه، وبنى لنفسه منزلًا في حدائق شاليمار المغولية وأنجب ثلاثة أبناء من سيدة من السيخ والتي - حسب تقاليد العائلة - تزوجت منه «بالطقوس الهندية المعتادة». وبحلول ١٨٢٦، حين عاد للعمل في دلهي مقيمًا تخلَّى عن زوجته، وبدأ يتخذ موقفًا مختلفًا تمامًا عن موقفه السابق تجاه الهند وتجاه المغول. وأرسل للورد «بنتينك» في رسالة عام ١٨٣٢: «لقد تخلَّيت عن ولائي السابق للسلالة التيمورية..»، وكان هذا بعد مغادرته دلهي بوقت قصير لتولي منصب عضو مجلس في «كالكوتا».

- «توماس ميتكالف» (١٧٩٥ - ١٨٥٣):

كان السير «توماس» قد وصل إلى دلهي عام ١٨١٣، مساعدًا أخاه الأكبر السير «تشارلز»، ثم رُقِّيَ ليصبح مقيمًا في عام ١٨٣٥، كان رجلًا منضبطًا من طراز خاص، وقد كرَّس جزءًا كبيرًا من حياته المهنية في تهيئة الحكم لشركة الهند الشرقية، وطرد العائلة المالكة من القلعة الحمراء بعد وفاة «ظَفَر». كان يكنُّ بعض المودة ناحية «ظفر»، لكن ليس إلى درجة الاحترام، فكان مصممًا على جعله آخر حكام الدولة التيمورية. وعلى الرغم من تهذيبه الظاهري ناحية «ظفر»، لكنه لم يكن يضمر الشعور نفسه داخله فكَتَب: «إن «ظفر» معتدلٌ وموهوبٌ، لكنه ضعيف بشكل مؤسف ومتذبذب، ومخدوع في أهمية شخصِه المحدودة». وبعد أن تفاوض على اتفاقية خِلافة «ميرزا فخرو» التي تستلزم مغادرة المغول القلعةَ الحمراء، تُوفي «ميتكالف» عام ١٨٥٣ بسبب اضطراب في جهازه الهضمي، يعتقد أطباؤه أنه من التسمُّم، واعتقدت عائلته أنه دُسَّ في طعامه بناءً على أوامر من «زينَّت محل».

- السير «ثيوفيلوس ميتكالف» المعروف بـ«ثيو» ١٨٢٨ - ١٨٨٣:

بدأ ثيو عمله قاضيًّا في خدمة شركة الهند الشرقية عام ١٨٥٧، وقد كان شديد الاختلاف عن والده. إن كان السير توماس متحفظًا تمامًا، فإن ثيو - على عكسه - كان اجتماعيًّا يتمتَّع بلباقة مذهلة وأسلوبٍ سحري. وإن كان الأب يميل إلى العُزلة ويكره النشاطات الترفيهية، فإن ثيو كان يميل إلى الصَخَب ومحبًّا الحياة المبهرجة، فكان يستمتع بالحفلات وتربية الكلاب وركوب الخيل.

وقد كان والده شديد الالتزام بالقانون وضبط النَّفْس، بينما «ثيو» يميل إلى اقتحام المغامرات والدخول فيما وصفه والده «مخاطرات بلا داعٍ». في أثناء اندلاع الثورة في الثاني من مايو ١٨٥٧، كان «ثيو» هو البريطاني الوحيد الذي استطاع تسلُّق الجدران والهروب بحياته، وبعد الانضمام إلى قوات دلهي الميدانية، أصبح قائد أعمال الانتقام المتعطِّشة للدماء.

السير «إدوارد كامبل» (١٨٢٢ - ١٨٨٢):

زوج ابنة السير «توماس ميتكالف»، تولَّى أمور الغنيمة في أثناء حصار دلهي. كان «كامبل» أحد الرعايا الموالين للسير «تشارلز نابير»، القائد العام السابق للجيش البريطاني في الهند، والذي كان السير «توماس» على خِلاف حادٍّ معه. وعلى الرغم من لقبه، كان «كامبل» مُفلسًا، وقد تسبب هذا بمحاولات السير «توماس» بإبعاد ابنته «جورجينا» المعروفة بـ«جي جي» عنه، ومعارضة خطبتهما. كانت دُفعة «كامبل» - الدفعة رقم ٦٠ - من حملة البنادق، وكانوا أول من جرَّبوا الطراز الجديد من بنادق «أنفيلد»، وبعد تمرُّد دفعته، انضم «كامبل» إلى قوات «دلهي» الميدانية، وفي نهاية الحصار اختِير ليكونَ جامعَ الغنائم، فكان مسئولًا عن إدارة عمليات السطو المشروعة للمدينة التي استُولِيَ عليها، الوظيفة التي لم تكن ملائمة للُطفِهِ وتديُّنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البريطانيون في دلهي:

- القس «ميدجلي جون جينينجز»:

جاء إلى الهند في عام ١٨٣٢، وعلى الرغم من إرساله في البداية إلى كنائس التلال الهادئة، فطالما حلُم بالقيام بعمل له أهميته في دلهي، عمل حقيقي كتبشير الوثنيين. وفي النهاية حصل على مراده كـقسيس في العاصمة المغولية عام ١٨٥٢، وانتقل مباشرة إلى وجهته الحقيقية، القلعة الحمراء نفسها، بعد أن دُعِيَ لمشاركة «دوجلاس» قائد حرس القصر في مسكنه «بوابة لاهور». لم يكتسب كثيرًا من الأصدقاء بسبب طريقته الفَظَّة التي افتقرت إلى اللباقة، واعتبرته معظم الجالية البريطانية في دلهي متعصِّبًا. وقد كان أهل دلهي يكرهونه بشدَّة، خاصة بعد أن نجح في تبشير اثنين من أهم الهندوسيين في دلهي، السيد «رامشاندار» والسيد «شيمان لال» في عام ١٨٥٢. استخدم «جينينجز» الترهيب أحيانًا، فأقنع عديدًا من أهل دلهي أن شركة الهند الشرقية سوف تستخدم جُلَّ قوتها العسكرية في تحويلهم إلى المسيحية إن لزم الأمر.

- «روبرت تايتلر» ت.١٨٧٢ - و«هارييت تايتلر» ت.١٩٠٧:

كان «روبرت» من أقدم المحاربين في فرقة المشاة الثامنة والثلاثين، ومولعًا تمامًا بـ«هندوستان»، وكان - كـصديق مقرَّب من السيبويين - قلقًا على سلامتهم بشدة. إذ يبدو أنه كان عطوفًا حسَّاسًا، أرملَ مع طفلين صغيرين، وقد تزوَّج مرة أخرى مؤخرًا من «هارييت» النشيطة خفيفة الحركة. كانت «هارييت» بنِصْف عمره تقريبًا، ولها المشاعر نفسها ناحية «هندوستان». ومعًا، تابع آل «تايتلر» الاثنان هواياتهما الفنية بحماسة، وأصبحَا - وبشكل غير متوقع لزوجين من الجيش - رائدين في فن التصوير. عند اندلاع الثورة، هرب الزوجان من «دلهي» إلى «أمبالا» حيث انضمَّا في النهاية إلى قوة «دلهي» الميدانية، وتُعَد مذكرات «هارييت» من بين أفضل المصادر عن الحياة في التلال في أثناء حصار «دلهي» ومصير المدينة بعد سقوطها.

- «إدوارد فيبارت»:

في عام ١٨٥٧، كان «إدوارد فيبارت» - من كتيبة مشاة البنغال - يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، وقد كان قائد سريَّة في دلهي، وقد رُبِّيَ لدى عائلة عسكرية هندية، فوالده كان ضابط سلاح الفرسان في «كانبور». في أثناء الثورة، قُتل والديْ «فيبارت» في المذبحة التي عُرفت بـاسم «مذبحة كانبور»، بينما نجح هو بصعوبة في الهروب خارج المدينة، ليشارك في الحصار واستعادة السيطرة. تُعَدُّ مذكراته ورسائله خاصة، من أفضل المصادر للجرائم

التي ارتكبها البريطانيون في أثناء محاصرة المدينة وخلال عمليات الانتقام الدامية التي تَلَت سقوطها.

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

قوة دلهي الميدانية.

- القائد العام السير «أركديل ويلسون» (١٨٠٣ - ١٨٧٤):

كان في الرابعة والخمسين من عمره، رجل ضئيل الجسم، تمتع بالأناقة والتهذيب. وقد كان أحد قادة مركز «ميروت» في أثناء اندلاع الثورة، وبعدها قاد مجموعة من الجنود التي هزمت «ميرزا أبو بكر» عند جسر «هندان» في ٣٠ و٣١ مايو. التقى بقوَّةِ دلهي الميدانية في «أليبور» قبل وقت قصير من خوض معركة «بادلي كي سيراي» في الثامن من يونية. ومنذ السابع عشر من يولية وبعد وفاة القائد «برنارد» واستقالة القائد «ريد»، تولى قيادة القوات البريطانية في حصار «دلهي». وقد استخدم خطة عسكرية دفاعية عُرِّضت حينها لانتقادات كثيرة، لكنها نجحت في الحفاظ على قوة البريطانيين حتى وصلت لهم التعزيزات قبل وقت قصير من الهجوم في ١٤ سبتمبر. في أثناء الاستيلاء على المدينة، انهارت أعصاب «ويلسون» وفقد السيطرة على نفسه، فهدده «جون نيكلسون» بإطلاق النار عليه إن فكر في أمر القوات بالتراجع.

- السير «جون نيكلسون» (١٨٢١ - ١٨٥٧):

كان رجلًا بروتستانتيًّا، من أصول أيرلندية، ويبدو صامتًا على الدوام. قيل إنه قام بقطعِ رأس زعيم عصابة بنفسه، ثم احتفظ بها فوق مكتبه! ملكَ حضورًا قياديًّا قويًّا؛ إذ بلغ طوله حوالي ستَّ أقدام وإنشين، مع لحية طويلة سوداء، كانت تتسع عيناه الرماديتان بحدقتيهما الداكنتين عند شعوره بالإثارة، وكأنه نمر. ولأسباب غير واضحة، قامت طائفة دينية تُدعى «نيكال سين» بعدِّه تجسيدًا للإله «فيشنو».

في أثناء الثورة، صار «نيكلسون» أسطورة بين البريطانيين، فقد توافر في شخصيته مزيجًا من الجاذبية والإخلاص والشجاعة التي تدفعه للتصرف بوحشية شديدة، وهي الصِّفات التي كانت تثبِّت عزم القوات البريطانية على التِّلال. لكن بالنسبة إلى قلة قليلة، لم يكن «نيكلسون» إلا قائدًا مجنونًا، وقد حصنوا أنفسهم ضد الانصياع خلف جنون عبادته.. بعد وقت قصير من وصوله إلى المدينة المحاصرة، قاد «نيكلسون» مسيرة إجبارية لنصْب كمين لمجموعة من السيبويين في «نجفجارا» في ٢٥ أغسطس، وفي ١٤ سبتمبر قاد الهجوم على المدينة، ومات متأثِّرًا بجراحه في اليوم نفسه.

- «ويليام هودسون» (١٨٢١ - ١٨٥٨):

قُبَيْل عام ١٨٥٧، كان معظم زملاء «ويليام هودسون» يعتبرونه بطَّة سوداء؛ ف«هودسون» - الطالب الجامعي - هو الابن النجيب لرجل دين، وقد صعد بسرعة ليكون مساعدًا لمجموعة المرشدين الجدد.. وكان عزله من منصبه أمرًا مفاجئًا للغاية، ففي عام ١٨٥٤ أُعفي «هودسون» من منصبه بعد تحقيق اتُّهِم فيه باختلاسه بعضَ أموال المجموعة.. في أثناء الثورة، أسسَ مجموعة غير رسمية لـسلاح الفرسان سماها «حصان هودسون»، وأدار جهاز المخابرات البريطانية فوق تلال دلهي بشكل مذهل. تفاوض على استسلام «ظفر» و«زينَّت محل» على مسئوليته الخاصة، وفي ٢١ من سبتمبر أحضرهم أسرى إلى دلهي، وفي اليوم التالي عاد لإحضار الأمراء «ميرزا مغول» و«خزر سلطان» و«أبو بكر»، ثم فصلهم عن حراسهم ونزع سلاحهم، قبل أن يجردهم من ملابسهم بالكامل ويعدمهم رميًا بالرصاص من مسافة قريبة. قُتل «هودسون» بعد مرور ثلاثة أشهر من هذه الواقعة، عند حصار «لكناو».

مسئولون بريطانيون آخرون.

- اللورد «كانينج» (١٨١٢ - ١٨٦٢):

كان سياسيًّا في أوائل الأربعينيات من عمره، وسيمًا ومجتهدًا - وإن كان متحفِّظًا إلى حد ما - كان قد قَبِل تعيينه لرئاسة حكومة الهند فقط بسبب إحباطه من فشله المستمر في الحصول على منصب رئيس الوزراء في لندن. لذا لم يكن له أي اهتمام بالهند أو سياستها، وبعد وصوله إلى هناك في فبراير ١٨٥٦، لم يتحمل حرارة ورطوبة «كالكوتا». وعلى الرغم من ذلك، لم يمنعه أي شيء من اتخاذ موقف مضاد ناحية المغول، ووضع خططًا لطرد المغول في غضون أسابيع قليلة من وصوله. بعد قمع الثورة، حاول الحد من الانتقام الدموي البريطاني، لكن النتائج كانت عكسية.

- السير «جون لورانس» (١٨١١ - ١٨٧٩):

كان الشقيق الأصغر للسير «هنري لورانس»، والذي كان رئيس المفوضين في «أفادا»، كان السير «جون» نائبًا سابقًا للسير «توماس ميتكالف» في دلهي. وقد رُقِّيَ بسرعة في رتب خدمة الحكومة الميدانية بفضل كفاءته وعمله الجاد. وفي عام ١٨٥٣ أصبح المفوض الرئيس لـ«البنجاب» المحتلة حديثًا. منع ضباطه من الصعود إلى تلال «دلهي» بسبب الطقس الحار. وأعلن عدم موافقته على مصطلح «رجل الكعك»، والذي يعني أن يكون الرجل - إلى جانب حُبِّه الكعكَ - دمثَ الأخلاق ومهتمًّا بالأناقة. في عام ١٨٥٧، أثبت أنه الأكثر قدرة من بين جميع المسئولين البريطانيين في نزع سلاح المتمردين

السيبيين.. فقد أنشأ مجموعات غير رسمية جديدة، وعمل على تهدئة الأوضاع في «البنجاب» بسرعة حتى يرسل عددًا كافيًا من القوات إلى تلال دلهي. وبعد سقوط «دلهي» عمل جاهدًا على تقليص أعمال الانتقام، وأنقذ المدينة بنفسه من خطة لتدمير المدينة بأكملها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملك على رقعة الشطرنج

انطلق موكب زواج الأمير «جيوان بخت» من بوابة «لاهور» في القلعة الحمراء في الساعة الثانية بعد منتصف ليلة صيفية حارة، في الثاني من أبريل عام ١٨٥٢، وانفتحت أمامه الأبواب المطلَّة على طريق «تشاندي تشوك» على مصراعيها، يصاحبه دوي البنادق المتمركزة على أسوار القلعة، والألعاب النارية والمفرقعات الاحتفالية من برجَيْ القلعة المضيئَيْن. قبل ظهور الموكب، تقدم «حاملو الهراوِي» المكلَّفون بتمهيد الطريق أمام الموكب وإبعاد الحشود المتسللة من شعب دلهي الذي لم يذعن لفكرة إبعاده عن المشهد فاخترق أسياج الخيرزان المزينة بمصابيح تضيء الطريق أمام موكب الزفاف. ثم بعد حاملي الهراوي ظهرت الأفيال الإمبراطورية المتثاقلة في خطواتها باضطراب ملحوظ تحت تأثير الألعاب النارية. ثم افتتح مسيرة الموكب اثنان من وزراء الدولة على ظهري خيول ضُفِّرت ذيولها بحلي من الصدف، بينما عُلِقت أجراس حول أعناقها وحواشبها، وقد أحاطهم الخدم من حملة المراوح، وخلفهم جاء دور فرقة المشاة المغول بـدروعهم السوداء وسيوفهم المعقوفة ورماحهم الطويلة والرايات التي ترفرف فوقهم بلونيها الذهبي والأخضر.

تبع ذلك ستة أفيال مزينة بالذهب وأغطية رأس بلون الزعفران الذهبي مطرزة بشعار الإمبراطورية المغولية، وحاملة هوادجَ مسئولة عن إعلاء رايات السلالة المغولية - التي اتخذها المغول شعارًا لهم منذ وصولهم إلى الهند قبل أكثر من ثلاثة قرون - الشعار الأول كان لوجه شمس مشرقة، والثاني لسمكتين ذهبيتين عُلقت كل منهما عند طرفي قوس ذهبية، والثالث لـرأس وحش يشبه الأسد، أما الرابع فكان ليد فاطمة الذهبية، والخامس رأس حصان، والأخير مظلة الإمبراطور، وجميعها مصنوعة من الذهب ومرفوعة فوق عصي تجر وراءها شرائط حريرية.

تقدمت بعد ذلك مجموعة من خدم القصر يرتدون عباءات حمراء ويحملون الأواني المغطاة من الطعام والهدايا لعائلة العروس، ومعهم قطيع من الإبل، يصاحبه دقات الطبول وصوت إطلاق البنادق في الهواء. ثم انطلقت مجموعة صغيرة من السيبويين البريطانيين([4])، يتألفون أساسًا من المشاة، ويسمون سباهية أو سيبويين وكان معظمهم يعمل لدى شركة الهند الشرقية البريطانية بقيادة كابتن «دوجلاس» قائد حرس القصر، وقد ارتدوا عمامات حمراء فوق رءوسهم وزيًّا باللونين الأزرق والزعفراني، تصاحبهم اثنان من المدافع الميدانية الخفيفة، ومجموعة من الفرسان يمتطون خيولهم مرتدين عباءات صفراء وأوشحة قرمزية تعلوها دروع مصفَّحة وخوذات تعود للعصور الوسطى.

ثم ظهرت مجموعة من العربات التي تجرها الثيران، جلست بداخلها فرق عازفي الطبول والمزمار والأبواق وقارعي الصاجات، تلتْها عربة خيول أوروبية زرقاء اللون حملَتْ كبار الأمراء، فيما انعكست أضواء الألعاب النارية على أرديتهم الذهبية فزادتها شيئًا من اللمعان. وبعد كل مجموعة كانت تظهر مجموعات من حاملي المشاعل، رافعين ألسنة اللهب عاليًا، ويتخللهم رجال يحملون الشموع في نواقيس زجاجية. بالإضافة إلى مجموعات من حاملي قِرب المياه الذين كانوا يفرغونها على الأرض الترابية محاولةً لتخفيف غبار الصيف العاصف بفعل الموكب.

وبخلاف عربة الأمراء الأوروبية الأولى، كان الأمراء الأصغر سنًّا يركبون فوق ظهور الخيول، وبينهم وفي المنتصف تمامًا كان العروس. الأمير «ميرزا جيوان بخت»، كان في الحادية عشرة من عمره فقط، صغيرُ السن للغاية حتى بالنسبة لمجتمع يميل إلى تزويج أبنائه في سن مبكرة من مرحلة المراهقة. خلْفُه مباشرةً، تمايل الفيل بهودجه الذهبي الذي ركبه الإمبراطور نفسه مرتديًا كامل زينته وحليَّه ورداءه الرسمي الثقيل على الرغم من حرارة الطقس الشديدة، وقد صاحبه خادمه الشخصي حاملًا له مروحة من ريش الطاووس، وتبع الموكب باقي أفراد البلاط الإمبراطوري سيرًا على الأقدام. فَبَدا الموكب بأكمله مثل طابور متعرج يمتد عبر «تشاتا تشوك» (سوق كبير) حتى «نقار خانة دروازا» (قاعة الاحتفالات) داخل القلعة. قبل ذلك بوقت قصير، وأمام الفنان النمساوي «أوجست شيفت»، جلس الإمبراطور «ظفر» برفقة «جيوان بخت» ليرسم لهما لوحة تخليدية لتلك المناسبة.

وتُظهر لوحة الإمبراطور «ظفر» رجلًا كبيرًا متحفِّظًا، وسيمًا إلى حد ما بأنفِه الدقيق ولحيته المشذبة بعناية، وعلى الرغم من بنيته العضلية القوية وطوله الفارع بشكل مدهش، فإن هناك لطفًا وحساسية في عينيه البرَّاقتين بلونهما البني، ورموشهما الطويلة ربما أكثر من المعتاد. في أيام المراهقة، كان «ظفر» يبدو دائمًا في لوحاته شخصًا مترددًا خجولًا بلحية خفيفة، ممتلئ الجسم، مريضًا بشكل واضح. ولكن مع تقدمه إلى نحو منتصف عمره ازدادت جاذبيته.. وبحلول السبعينيات من عمره اكتسب صفات الملوك وانخفض امتلاء وجنتيه، وصار أنفه أكثر بروزًا وشموخًا. وفي هذه اللوحة، يجلس «ظفر» أرضًا ويعُد على مسبحته بضجر، لكن مازال هناك التعبير الظاهر نفسه في لوحاته السابقة، حزنٌ كبيرٌ يظهر في عينيه الداكنتين، وفي شفتيه المتدليتين باستسلام.

أظهره «شيفت» كما لو كان غارقًا في ردائه الرسمي الذهبي، مثقلًا بهمومه أسفل قِطَع الياقوت الملونة وعقود اللآلئ الكبيرة التي يبلغ حجم كل لؤلؤة منها حجم بيضة السمان، فبدت كما لو أنها تسحب عنقه لأسفل، وكأنه سجين

مسئوليات منصبه. على الجانب الآخر، بدا أن الشاب «جيوان بخت» الابن المفضل للإمبراطور مستمتعًا بكل اللآلئ والأحجار الكريمة والخناجر المرصعة بالجواهر التي زُيِّن بها ببذخٍ يكاد يكون مساويًا لبذخ زينة الإمبراطور نفسه. حتى التعبير الواضح على وجهه كان مختلفًا، فبمعرفته شابًّا وسيمًا؛ بدا مغرورًا وواثقًا من نفسه بشكل غريب بالنسبة لصبي في الحادية عشرة من عمره، واثقًا من نفسه بشكل لافت للنظر مقارنة بأبيه المتردد بشدة. لكن افتقدت تلك اللوحات عنصرًا هامًّا، وكذلك موكب الزفاف، وذلك العنصر هو المرأة التي أنجزت كل شيء ممكن؛ لتنفيذ هذا الزواج، فَلِأَشْهر طويلة كانت زوجة «ظفر» المفضلة عنده «زينَّت محل» تستعد لهذا اليوم.

وإن كانت في التقاليد المغولية، ألا تصحب النساءُ الموكبَ الذي يصطحب العروس لزواجه، ولا حتى الأمهات والملكات؛ لكن كان وجودها واضحًا في كل تفاصيل الموكب الذي سبق وخططت له بالكامل. فـ«ميرزا جيوان بخت» كان ابن «زينَّت محل» الوحيد، وكل طموحها الذي تمسكت به طوال حياتها هو تنصيبه - على الرغم من كونه ابن «ظفر» الخامس عشر - على العرش خلفًا لـأبيه. ولرفع مكانة الأمير الصغير وتوطيد فخامة مكانتها الخاصة في الأسرة الحاكمة، خططت ليبدو الحفل شديد الفخامة. كانت عروسه «شاه زماني»، والتي على الأرجح لم تتجاوز العاشرة من العمر وقت الزفاف، هي ابنة أخت «زينَّت» ووالدها «وليداد خان» حاكم «مالجار» حليفًا مهمًّا للملكة. وعلى الرغم من أنه لا يُتوقع من الزوجين أن يتمَّا الزواج قبل عام أو عامين، أو حتى العيش معًا، فإنه لاعتبارات سياسية كان يجب أن يتم الزواج على الفور، دون الحاجة إلى انتظار وصول الزوجين إلى سن البلوغ. وكما تخيلت «زينَّت»، كان حفل زفاف «ميرزا جيوان بخت» حدثًا لا يُضاهيه أي حفل في ذاكرة سكان دلهي، وتفوَّق على أعراس جميع إخوة «جيوان بخت» الأكبر سنًّا.

حتى بعد مرور ستين عامًا، كان خادم البلاط الشاب «ظهير دهلوي» - المشرف على حماية جائزة «ماهي مراتب»([5]) - لا يزال يتذكر رائحة أواني الطعام من المطابخ الملكية التي أُرسلت إلى كل مسئول بالقصر، والعروض الترفيهية الرائعة التي سبقت الاحتفال الرئيس.. كتب بعد ذلك بسنوات عديدة في منفاه في «حيدر أباد»: «لم نرَ مثل هذه الفخامة والروعة من قبل، على الأقل ليس في حياتي. لقد كان احتفالًا لا يُنسى.»

بدأت الاحتفالات قبل ثلاثة أيام من الحفل الرئيس، بموكب انطلق من منزل «وليداد خان» إلى القصر محمَّلًا بهدايا الزفاف الرئيسة، مصحوبًا بالألعاب النارية، وكانت الهدايا عبارة عن قطيع رائع من الفيلة والإبل والخيول، وعدد من وسائل النقل المختلفة وفقًا لجريدة «دلهي جازيت». بعد ذلك كانت

مراسم الحِناء، حيث تُخَضَّب أيدي العروسين وضيوفهما بما في ذلك كل نساء القصر بالحنَّاء، وقد استمرت الاحتفالات سبعة أيام أخرى بعد مراسم الزواج؛ في ليلة الزفاف الموعودة، وفي بداية السهرة المستمرة حتى الصباح، أهدى «ظفر» عمامة زفاف مصنوعة من عقود اللآلئ والأحجار الكريمة إلى «جيوان بخت»، كما قام بإعداد حفلات مشابهة بالفخامة نفسها في جميع أنحاء القصر، وكل حفلة كان بها الموسيقيون والراقصات الخاصة بها، فكانت صفوة المجتمع تجلس في قاعة، وفي قاعة أخرى يجلس الطلاب وأطفال القصر، وكبار المسئولين في ثالثة، وفي الرابعة يجلس الأمراء.

وإذ لم تكن موارد «ظفر» المالية متماشية مع حجم إنفاقه، ناهيك عن إنفاق زوجته، لذا كان من أهم ترتيبات الحفل هو الترتيب لقروض من مقرضي المال في دلهي الذين عرفوا من تجاربهم السابقة أنه ليست هناك فرصة لاسترداد أموالهم مرة أخرى. فمنذ ديسمبر، امتلأت مفكرة المقيم البريطاني المتعلقة بتعاملات البلاط بـمحاولات «زينَّت محل» للحصول على قروض كبيرة، الشيء الذي تمكنت منه في النهاية بمساعدة من رئيس الخصيان في القصر القاسي سيء السمعة «محبوب علي خان»، وأُعِيدَ ترميم القصر وتنظيفه وتزيينه بشكل رائع بالمصابيح والثريات. ثم كان أمر الحصول على ألعاب نارية رائعة بما فيه الكفاية مصدرَ قلقٍ كبير كذلك، فاستُدْعيَ فنيُّو الألعاب النارية من جميع أنحاء هندوستان إلى القصر طوال شهري يناير وفبراير لعرْض مهاراتهم.. وظلت المفرقعات تضيء سماء القلعة الحمراء المبنية من الحجر الرملي بينما موكب الزفاف يتقدم ببطء غربًا أسفل قِمَّة سوق «تشاندني تشوك» بأشجاره، وتلألأت مياه القناة التي تقع بمنتصفه تحت ضوء المشاعل.

استمر الموكب في التقدم، متجاوزًا حدائق قصر «سومرو» - التي استحوذ عليها مؤخرًا بنك نيودلهي - ومارًّا بقرية «داريبا» التي تألقت تحت ضوء عشرة آلاف شمعة وفوانيس محاطة بهالة من الغبار، ثم توجَّهوا ناحية اليسار ومرُّوا أسفل النوافذ الشبكية لبيوت الطبقات الفقيرة من المحظيات التي تصطف على جانبي «كوتشا بولاجي بيجم»، وبعدها استدار مرة أخرى تحت قباب المسجد الجامع المصنوع من رخام أبيض يلمَع تحت ضوء القمر، ثم انحدروا لأسفل عند سوق «خاص»، والتفوا حول القباب الأصغر المذهبة لمسجد «سونهيري» المضاءة بشكل رائع، ومروا عبر سوق «فايز» إلى منطقة «دارياجانج» التي تعدُّ موقعًا لكل قصور المدينة الأرستقراطية، مثل قصر حاكم «جهاجار» والذي وفقًا للأسقف «هيبر» أسقف «كالكوتا»: «يتجاوز بعظمته أي شيء قد رأيته في موسكو». ومن بين تلك القصور، كانت وجهة الموكب الأخيرة قصر «وليداد خان».. وفي الطريق، وكما تقول يوميَّات القصر: «قدمت عديدٌ من المنازل التي مروا بها هداياهم لضباط الإمبراطور،

بينما تفقد جلالته الترتيبات على الطريق». وما يزال الطريق العظيم الذي مر به الموكب شاهدًا على عظمة المغول حتى الآن.

في عام ١٨٥٢، وبعد ١٥٠ عامًا من الانحدار والانتكاسات السياسية، في تلك الليالي، استعادت دلهي ما قبل الاستعمار عاصمة المغول ومقر سلطة الحكم وأكبر مدينة في الهند - وهي مكانة استعادتها مؤخرًا من مدينة «لكناو» - جمالَها، وكتب عنها الشاعر «مير»: «في مدينة جميلة كهذه، الشوارع ليست كأي شوارع، بل هي في جمال ألبوم رسام»، وقد أكَّد كاتب من دلهي في الفترة نفسها الفكرةَ، فوصف صفاء مياه قنوات حدائق دلهي على مخطوطة مضيئة: «مياهها كالزئبق، جدول من الفضة يجري فوق الصخور».

وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه الطبقة الحاكمة في «مرشد أباد» و«لكناو» تتجه نحو الصيحات الغربية الحديثة والعمارة الغربية، ظلَّت دلهي بشموخ وفخر مركزًا للطراز المغولي، وكان من المستحيل ظهور «ظفر» في البلاط الملكي مرتديًا زيَّ أميرال بريطاني أو كاهن من الكنيسة البريطانية كما اشتهر بين حاكمي «لكناو». ولم يكن هناك ظهور واضح للتأثُّر بالهندسة المعمارية الغربية في المباني التي بناها أباطرة المغول لاحقًا، مثل بوابة ظفر المبنية عند قصره الصيفي «ظفر محل» وجناحه الملكي في الحديقة العائمة في «مهتاب باغ»، والحديقة الليلية ذات الرائحة العطرة في القلعة الحمراء، كلتا الحديقتين كانتا على الطراز المغولي القديم لـ«شاه جهان».

وما ينطبق على البلاط الملكي كان ينطبق أيضًا على المدينة، باستثناء بنك دلهي - كان سابقًا قصر بيجوم سومرو الكبير المبني على الطراز البالادي - ([6])، وفي أثناء مرور الموكب بهذه المباني أظهرت قليلًا من التأثر بالهندسة المعمارية الأوروبية بالنوافذ الجورجية الزجاجية المربعة. وعلى الرغم من أن هذه المحاولات للمزج بين الحضارتين كان شائعًا منذ فترة طويلة في «لكناو» و«جايبور» فإن اللمسات البريطانية في دلهي عام ١٨٥٢ كانت مقتصرة على كنيسة مقببة - حُوِّلت إلى جامعة دلهي - ومخزن ذخيرة.. وكلاهما كانا يقعان على شمال القلعة الحمراء وبعيدًا عن مجال رؤية الموكب. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن الأوروبيون يشغلون عددًا كبيرًا من سكان دلهي، إذ كانوا تقريبًا أقل من مائة شخص، كما أكد الشاعر والناقد الأدبي «آزاد» لاحقًا: «في تلك الأيام كانت رؤية أوروبي في دلهي شيئًا غير عادي، معجزة غريبة من خلق الله، ويشير المواطنون لبعضهم بعضًا نحوه قائلين: «انظروا! أوروبي!»

لكن لم تكن تلك هي وجهة النظر السائدة الوحيدة، فبعضٌ كان أقل ترحيبًا بالأوربيين؛ حيث شاع بين سكان دلهي أن البريطانيين كانوا نتاج زيجة محرَّمة بين القردة ونساء سريلانكا، أو القردة والخنازير.. لدرجة جعلت رجل الدين المشهورِ «شاه عبد العزيز» يصدر فتوى أن هذا الكلام لا دليل عليه في

القرآن أو الأحاديث، وعلى الرغم من أن الأجانب يتصرَّفون بشكل غريب، لكنهم ليسوا بأقل من المسيحيين، فبالتالي هم أيضًا أهل كتاب. وما داموا لم يقدموا لهم النبيذ ولحم الخنزير، فمن الجائز مخالطتهم - إن كان هناك سببٌ لذلك - ومشاركتهم الطعام في المناسبات. ونتيجة لقلة الاتصال المنتظم مع الأوروبيين، ظلَّت دلهي مكانًا منغلقًا على نفسه، ومنسجمًا مع ثقافته وتميزه وحضارته العريقة، مدينة لم تعانِ من انهيار ثقتها بنفسها، الانهيار الذي يصحب دومًا الاستعمار الفكري، بل ظلت من نواحٍ كثيرة كفقاعة تحمي بداخلها التقاليد المغولية العريقة التي كانت قد بدأت تتغير في كافة أنحاء الهند الأخرى.

وعندما يمدح شخصٌ ما آخر في مدينة «شاه جهان آباد» فإنه يستعمل الأساليب البلاغية، مستخدمًا المجازات الشعرية القديمة فيقول: «كانت نساء دلهي طويلات ونحيفات مثل شجر السرو ورجال دلهي كرماء مثل فريدون([7]) ومتعلمون مثل أفلاطون، وحكماء مثل سليمان، وعلماؤهم الفيزيائيين في براعة «جاليلِيُو».» كما أوضح الشاب «سيد أحمد خان» فضائل مدينته وسكانها؛ فكَتَب: «ماء دلهي حلو المذاق، وهواؤها عليل، وبالكاد نمرضُ، وبفضل الله، سكانها حسنو المظهر، بهم جاذبية لا يضاهيها سكان المدن الأخرى، ورجالها مهتمون بالعلم والفنون، ويقضون أيامهم ولياليهم في القراءة والكتابة، وإذا قمنا بسرد خصالهم فستكون تلك أطروحة بعنوان «حُسن السلوك»».

ومثل سكان نيويورك المعاصرين، كان سكان دلهي في القرن التاسع عشر لا يولون اهتمامًا خارج عالمهم المعتاد المحبب، ومن الصعب عليهم تخيل أن أي شخص يريد العيش في مكان آخر كما قال الشاعر «زوق»: كيف يمكن لأي شخص يا «زوق» أن يفارق دلهي وشوارعها؟

كان يبالغ نوعًا ما، لكن كان هناك فخر حقيقي وواضح في كتاباته بمدينته العريقة التي اتسعت شهرتها مركزًا للعلوم والثقافة الروحانية حتى مع انحدار أوضاعها السياسية. كانت اللغة هي أكثر ما تفتخر به دلهي، فلغتها أنيقة وساحرة، ربما لـأن دلهي كانت مهد اللغة الأوردية، وهو ما وصفه الشاعر والناقد الأدبي «آزاد»: يتيمة وجدوها تتجول في أسواق «شاه جهان أباد». أما الشيخ «عبد الحق» فقال عنها: «لا يمكن اعتبار أي شخص لم يعِش في دلهي ناطقًا اللغة الأوردية، فدرجات المسجد الجامع هي بوابة إجادة اللغة، ولا يمكن لأيَّة مدينة أخرى منافستها في هذا، فنحن نتدارس ونناقش قصائد دلهي البليغة في كل بيت، ولأن «الإمبرطور نفسه كان شاعرًا وناقدًا للشعر» و«كانت اللغة المستخدمة داخل القلعة هي دُرة الدُّرَرِ وأحسنها على الإطلاق».

لم يكن التباهي بروعة اللغة مقتصرًا على الرجال فقط، بل حتى النساء، كن يستخدمن لهجة خاصة من اللغة الأوردية في مجالسهن، والمدهش أكثر أن القصائد الشعرية بشكل خاص كانت مصدر هوس ليس للطبقة الراقية فحسب، بل حتى للناس العاديين. هناك ديوان قصائد نُشر قبل عامين من زفاف «ميرزا جيوان بخت» باسم «بستان الشعر»، وهو مجموعة من القصائد الأوردية، ويحتوي على قصائد أنتجتها قريحةُ ما لا يقل عن أربعمائة وخمسين شاعرًا من دلهي، بدءًا من الإمبراطور نفسه، وخمسين عضوًا من عائلته، وحتى بائع مياه فقير في «تشاندني تشوك»، مرورًا بتاجر من بلدة «كاترا فراسو» بولاية «بنجاب»، وأحد المرتزقة اليهود الألمان الشيوخ - وهو واحد من العدد القليل من الأوروبيين في دلهي الذين توغَّلوا في ثقافة المغول - بالإضافة لمُصارع شاب، ومومِس وحلَّاق. من الواضح أن ما لا يقل عن ثلاثة وخمسين من هؤلاء الشعراء الأورديين لهم أسماء هندوسية. لذلك على الرغم من أن «وليداد خان» كان قد وضع أفضل الرَّاقصين في دلهي من أجل حفل الزواج في تلك الليلة، فإن ما ظل في الذاكرة لفترة أطول ونُوقِشَ بشغف أكثر لم يكن تلك الاحتفالات أو الولائم أو الألعاب النارية، بقدر ما كان لقصائد الزواج التي صاغها الشاعر «زوق»، ومنافسه «ميرزا نوشه»، المعروف الآن باسمه المستعار، «غالب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالنسبة لشخص أتى من الخارج مثل القائد المُعَّين حديثًا لحرس القصر الكابتن «دوجلاس»، الذي رافق الموكب حتى قصر «وليداد خان»، فقد بَدَا حفل الزفاف مُذهِلًا وطافحًا بالسعادة ومناسبة نُظِّمت بشكل مبهر. وبالفعل حسب ما ورد في مذكرات القصر، كان الحادث الوحيد المفاجئ في الحفل بأكمله هو ما حدث في رحلة العودة إلى القلعة في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. فكان «وليداد خان» قد قدَّم لضيوفه لتوه جزءًا من جهاز العروس، ثمانون صينية من الملابس الفاخرة، وصينيتان من المجوهرات، وسرير ذهبي وشرشف، وآنية من الفضة، وفيل وخيول تغطي ظهورها زخارف مطرزة، وناقتان، وكان «ظفر» عائدًا إلى القصر مع العروسين، عندما ألقى خبازٌ بقطعتين أو ثلاثة من البسكويت في طريق الفيل الذي كان يركبه «ميرزا جيوان بخت»، مما أثار فزع الفيل، وتسبَّب بارتباكه هذا في سجن الخباز.

لكن كَمُعظم حفلات الزفاف العائلية، كانت مظاهر الثقة والسعادة الكبيرة ووَحْدة الأسرة والحب تلكَ مُزيفةً إلى حد كبير، كقشرة علوية تكمُن تحتها توترات وصراعات وكراهية شديدة. كان الاهتمام الذي وضعه «ظفر» و«زينَّت» على الموكب لافتًا للنظر، فقد عدَّ المغول المواكب كتأكيد على سلطتهم وقوتهم.. قبل مائتي عام، وصف الرحالة والكاتب الفرنسي

«فرانسوا برينيه» في مذكراته الموكب الفخم العظيم الذي أخذ الأميرة «روشانارا» ابنة «شاه جهان» في نزهة صيفية إلى كشمير في أواخر أربعينيات القرن السابع عشر: «ليس هناك شيء أكثر مهابة وجلالة من مواكب المغول، وإن لم أكن أشاهد هذه العروض بنوع من الفلسفة الزاهدة لكنت صرت مهووسًا بمثل هذه الرحلات الخيالية التي تعتبر مصدرَ إلهام لمعظم شعراء الهند».

ولكن بعد ما كتبه «برينيه»، فقدَ المغول سيطرتهم على كشمير لفترة طويلة، في الواقع لقد مرَّ أكثر من قرن منذ أن تمكن المغول من التجول في أي مكان خارج «دلهي»، وهو ما قاله الشاعر الهزلي الشهير:

تمتد مملكة «شاه علم»

من دلهي إلى بالام

حتى داخل القصر نفسه، أزال الغازي الفارسي «نادر شاه» أعظم كنوز القلعة الحمراء في ١٧٣٩، وبعدها بنصف قرن تقريبًا، وعندما كان «ظفر» صبيًّا في الثالثة عشرة من عمره، في صيف ١٧٨٨، استولى اللص «غلام قادر» على المدينة، وفقأ عيني «شاه علم الثاني» - جَدُّ «ظَفَر» - بنفسه، وجعل الإمبراطور المستقبلي «أكبر شاه الثاني» - والد «ظفر» - يرقص له بخلاعة مهينة، ثم أهانهم أكثر عن طريق التخلص من مكتبة «شاه علم» الرائعة وباع معظمها إلى حاكم «أفادا» الشيء الذي أشعل غضب الإمبراطور الأعمى الذي ظل يحكم من أطلال قصره، كـ«ملك حجري على قطعة شطرنج» كما وصفه «آزاد». وبعد وفاته تقلَّصت سلطة المغول أكثر فأكثر، لدرجة أنها لم تعد تصل إلى «بالام» حتى، بل صارت لا تتعدى حدود قلعته، كما لو كان بابا الفاتيكان الذي لا تتجاوز سلطته مدينة «الفاتيكان» نفسها، وحتى هذا لم يكن صحيحًا، لأن - حتى - سلطته داخل القصر كانت مقيدة.

ومن جهة المقيم البريطاني، السيد «توماس ميتكالف»، فقد أبقى على علاقة وُدية، لكنها حازمة مع الإمبراطور «ظفر» وحياته اليومية، وكثيرًا ما منعه من ممارسة حقوقه التي عدَّها الإمبراطور شيئًا مقدسًا. فعلى سبيل المثال، لم يكن بإمكان أي من النبلاء القادمين من خارج «دلهي» من اجتياز حدود القلعة الحمراء إلا بإذن «ميتكالف» شخصيًّا! وليتمكن ظفر من ممارسة حقوقه داخل حقوق أرضه، كان عليه تقديم طلب إلى التاج البريطاني. ولم يكن بإمكانه إهداء الأحجار الكريمة الموجودة في تاجه المرصَّع بالجواهر حتى لأفراد عائلته بدون موافقة المقيم البريطاني، وأحيانًا يُطلب منه - بشكل مهين - استعادة الهدايا التي قدَّمها للآخرين في حالة حضور المسئول لتفقدها ولم يجدها، حتى الخِلَت([8]) لم يكن بإمكانه تقديمها للنبلاء خارج دلهي بدون

موافقة «ميتكالف»! ومثلًا، في اليوم التالي لزفاف «جيوان بخت»، قام الأمير «جولاب سينغ» حاكم «كولور» بزيارة البلاط ليقدم هداياه - عرضًا للولاء - والتي كانت عبارة عن سبعة أحصنة وسبعة أمهار ذهبية، وأعطاه «ظفر» خِلَعًا في المقابل، لكن «ميتكالف» جعل الأمير يعيدها مرة أخرى.

ففي نظر المقيم البريطاني، كان الأمير من الرعايا البريطانيين، ومن الخطأ أن يقدم ولاءه علنًا لحاكم مختلف. وقد ظهر مدى شعور «ظفر» بالإذلال من هذا في شعره الذي تعلم أن يترجم فيه شعوره بالإحباط الشديد والحبس. فتمتلئ غزلياته بصور طائر محبوس يطيل النظر إلى العالم من بين قضبان سجنه، وتقول الأبيات:

«أريد أن أحطم قضبان قفصي برفرفة أجنحتي

لكن وكأنني طائر محبوس في لوحة مرسومة

من المستحيل أن أتحرر

أَيَا نسيم الصباح، فلتخبر الحديقة أن الربيع والخريف بالنسبة لي سيان

أنَّى لي أن أعرف متى يأتي أحدهما ويذهب الآخر.»

وقد عبَّر في مواضع أخرى عن الفكرة نفسها بصراحة أكبر:

«من يدخل هذا القصر الكئيب،

يبقى أبد الدهر أسيرًا لدى الأوروبيين».

كان فقدان السيطرة الذي عاشه «ظفر» شيئًا جديدًا تمامًا، فعندما دخل البريطانيون «دلهى» لأول مرة عام ١٨٠٣، وهزموا اتحاد «الماراثا»، الذين كانوا في ذلك الوقت يسيطرون على معظم «هندوستان»، قاموا بالتظاهر بأنهم حماة «شاه علم» ومنقذوه، فكتب الحاكم العام، لورد «ويليسلي»: «لم نتحمل رؤية حرمان جلالة الملك من القوة والسيطرة والسلطة، وقد استمرت كل الولايات وطبقات الناس في الهند في عدِّه سيدًا للبلاد، وظلت العُملة الحالية التي يتعاملون بها هي تلك التي عليها اسم «شاه علم»»

ولم يضف - على الرغم من صِحَّة ذلك - أن ذلك يتضمن عملة الروبية، عملة شركة الهند الشرقية نفسها، بالإضافة إلى ذلك كان ختم الشركة منسوبًا قانونيًّا للمغول، وقد سُجِّلت لهذا الغرض باسم «ت.م.شاه علم»([9]). كتب «ويليسلي» أنه ارتعب من فكرة اتهام إنجلترا أو اتهامه شخصيًّا بأنه يرغب في استبدال عرش الإمبراطور بـشركة الهند الشرقية سواء أكان بشكل مباشر أم غير مباشر، وأمر اللورد «ليك» ليقدم ولاءه، وكل مظاهر الخضوع والاحترام والاهتمام لجلالة الإمبراطور. وقد تلقى المقيم الجديد التعليمات

الصارمة نفسها بتقديم الاحترام والتعامل بالطريقة نفسها مع جلالة الإمبراطور، بيد أن شهر العسل هذا لم يدُم طويلًا. فكان من تسبب بتقليص مكانة الإمبراطور هو الأخ الأكبر لـ«توماس ميتكالف»، السير «تشارلز»، الذي سبق توماس في العمل مقيمًا بريطانيًّا. وقد جَهَر «تشارلز» في رسالة عام ١٨٣٢: لقد تخلَّيْت عن ولائي للسلالة التيمورية.

ثم أقنع الحاكم العام أن يُعلن من جهته عن نهاية التقليد القديم في تقديم الهدايا الاحتفالية أو هدايا الولاء للإمبراطور - التي تمثل تأكيدًا علنيًّا لمكانة البريطانيين بصفتهم رجال الإمبراطور - تقبَّل «تشارلز ميتكالف» أن البريطانيين كانوا من الناحية الواقعية لا يزالون أدنى مرتبة من المغول، ولكن بالنظر إلى قوة بريطانيا وضعف المغول، فليس من المفترض الاعتراف بهذا علنًا. فكتب إلى الحاكم العام: «لقد تصرَّفنا منذ البداية مع الملك بكرم أخلاقي عالٍ، ولا أعتقد أبدًا أنه رجل حالم أو خيالي حتى لا يدرك الواقع الحالي» ثم تابع: «إذا رفض الإمبراطور قبول الحقائق الجديدة، فأعتقد أن أفضل سياسة لدينا في المستقبل هي السماح له بالغرق في ضآلته بدلًا من الحفاظ على كرامته كما اعتدنا أن نفعل»؛ ونتيجة لذلك، ففي العام التالي أُزيلَ اسم الإمبراطور من فوق عملة شركة الهند الشرقية، وعندما زار اللورد «أوكلاند» دلهي، لم يُزعِج نفسه حتى للقيام بالتواصل مع الإمبراطور «أكبر شاه الثاني» ولو من باب المجاملة. وبحلول عام ١٨٥٠، قام خلفه اللورد «دالهوزي» بحظر قَبُول رعايا بريطانيا لأي ألقاب من المغول، وقد وصف هذا بقوله: «تغطية الرعايا الإنجليز بأَرْدِيَة المغول الشرفية ليست إلا مهزلة رسمية!».

إذن فقد كان الأمر مختلفًا تمامًا عما وعد به اللورد «ويليسلي»، بلغت محاولات البريطانيين لإذلال الإمبراطور حد عدِّه مجرد رجل نبيل خاضع للسلطة البريطانية، وجُرِّد المغول من مزيدٍ من الحقوق والامتيازات، حتى إنه بحلول عام ١٨٥٢، لم يبق لـ«ظفر» إلا حدود قصره وسمعة سلالته الطيبة! لكن على الأقل ظلَّ مسموحًا له بالخروج بالمواكب، لذا حاول «ظفر» الانتقام من كل حقوقه الأخرى التي حُرِم منها، وكتعبير عن سيادته غير الملموسة قرر الاستفادة الكاملة من هذه المواكب. وفي المنمنمات التي تعود إلى عهد «ظفر» كان هناك عدد مهول من اللوحات عن المواكب، مثل رحلاته إلى الأضرحة الصوفية، والنزوح السنوي الجماعي إلى القصر الصيفي في مهرولي، وموكب صلاة العيد في مسجد «عيد جا» القديم، ورحلات مشاهدة احتفالات معرض الزهور في معبد «جوج مايا» القديم، وضريح «قطب صاحب» الصوفي. وانطلاقًا من هذا الأمر، في النهاية، لم يكن موكب الزواج الرائع والمذهل لـ«جيوان بخت» إلا رمزًا أخيرًا للقوة، ومحاولة يائسة لسلالة تحتَضر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تسهب الروايات الرسمية عن حفل الزفاف في الحديث عن الخلافات المختلفة التي اندلعت خلال الليل. أقل تلك الخلافات غرابة هي تلك التي وقعت بين اثنين من شعراء البلاط العظيم، «غالب» و«زوق». كان كل شيء بخصوص الرجلين تقريبًا يحمل بذورًا محتملة للخلاف، بدءًا بنمط الشخصية وحتى الخلفية الاجتماعية. كتب «زوق» قصائد بسيطة لدرجة مذهلة؛ بينما كان شعر «غالب» معقدًا بشكلٍ ملحوظ. وعلى عكس «غالب» الأرستقراطي الواعي بذاته، كان «زوق» من خلفية متواضعة إذ كان والده جنديًّا من المشاة. وقد اخْتِير «زوق» ليكون مدرسًا لـ«ظفر» في مادة الشعر، وكذلك حاز كشاعر على جائزة «مغول دلهي». وقد عاش «زوق» حياة هادئة وبسيطة، ينظِم أبيات الشعر من الغسق حتى الفجر، ونادرًا ما يبتعد عن الفناء الصغير الذي يعمل فيه، فيما كان «غالب» فخورًا للغاية بسمعته كشخص ماجِن. قبل الزفاف بخمس سنوات فقط، كان «غالب» قد سُجن بتهمة القمار، وبالرغم من أنه كان موقفًا شائنًا للغاية في ذلك الوقت، فقد صار يعده فيما بعد وسام شرف، وعندما أشاد رجل مرةً بشعر الشيخ «صاحب» الصالح في حضوره، رد «غالب» وقتها: «كيف يكون «صاحب» شاعرًا؟ لم يذق الخمر قط وما قامرَ في حياته. لم يُعرَّض للضرب بالنعال من قِبَل حبيباته، ولم ير جدران السجن من الداخل ولو مرة!»

في كل مكان، وحتى في خطاباته كان يتبجَّح بسمعته السيئة كـزير نساء. حتى إنه أجاب مرة صديقه الغارق في حزنه بسبب وفاة محظيته لتوِّها: «أيَا صاحبي «ميرزا»، الحق أنني لا أحبذ الطريقة التي تتعامل بها مع الأمر. في أيامِ شبابي الطائشة المفعمة بالحيوية نصحني رجل يتمتع بكامل الحكمة قائلًا: «أنا ضد تحريم ممارسة الجنس؛ ولا أمانع الغرق في المجون. كل واشرب وكن سعيدًا. ولكن تذكر أن الذبابة الحكيمة تستقر على السُّكَّر لا العسل». حسنًا، لقد تصرفت دائمًا بناءً على نصيحته. لا يمكنك الندم على موت شخصٍ آخر ما لم تعش الحياة وتعرفها بنفسك. احمد الله على حريتك، ولا تبتئس. عندما أفكر في الجنة وأتفكر كيف بي إن غُفِرت ذنوبي؟ وانتهى بي الأمر في قصر مع حورية من الجنة لأعيش إلى الأبد في صحبة امرأة لا مثيل لها؟ أشعر بالاضطراب.. كم هو مرهق أن تجد هناك دلالًا أكبر مما بوسع الرجل أن يتحمل. القصر المصنوع بالكامل من الزمرد؛ شجرة الفاكهة التي تُلقي بظلها. والحورية - حفظها الله من كل مكروه - التي لا تتقدم بالعمر بين ذراعي. عُدْ لعقلك يا أخي وخذ أخرى. خذ امرأة جديدة كل ربيع، فما تفعله بمثابة الوقوف عند روزنامة العام الماضي، وهو شيء بلا فائدة!»

كان الخلاف الذي قد بدأ مسبقًا في حفل الزفاف بسبب بيت واحد في «السيهرا» (أو الأغنية التي تصاحب طقوسِ رفع غطاء الرأس عن العروسين

في الزفاف) التي نظمها «غالب»، حيث أشار - بنعرة كبرياء - إلى أنه لا يمكن لشخص من الحضور أن ينظم أبيات من الشعر كالتي ألقاها هو. معظم النقاد اليوم يجادل بأن ذلك كان تفاخرًا له ما يبرره، ولكن في ذلك الوقت كان يُعدُّ إهانة، ليست إهانة لـ«زوق» فقط، ولكن لـ«ظفر» أيضًا، إذ كان بالطبع شاعرًا مهمًّا هو الآخر، والذي أعرب عن إيمانه بتفوق مواهب «زوق» عندما عيَّنه لتصحيح قصائده. وقدم له رداء «الخِلَت»، ووظيفة فخرية بأن يكون المشرف العام على حدائق القصر، بينما أغفل تقديم أي شرف من أي نوع لـ«غالب». كما قام «ظفر» بتشجيع «زوق» على الرد على «غالب» المتباهي بنفسه. تنتهي «السيهرا» الجميلة - التي ابتكرها الشاعر الحائز على جائزة - بمقطع يُفحم غالب، فيقول:

للشخص الذي يدعي امتلاكه المهارات الشعرية،

اقرأ له هذا وقل..

انظر، هكذا ينسج عمامة زفاف حقيقية.

بحسب رواية «آزاد»، الذي اعترف بأنه تلميذ من أنصار «زوق» ومعجبيه: «كان المغنون حاضرين، ووُزِّعت عليهم القصيدة في الحال. بحلول المساء كانت قد انتشرت في كل شارع وحارة في المدينة، وفي اليوم التالي تم نشرها في الصحف.» وهكذا انتهت هذه الجولة بالذات من العداء بين الشاعرين بفوز «زوق».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت إحدى المشكلات الرئيسة التي واجهت «ظفر» في فترة شيخوخته، هي العلاقة المتوترة بين ملكاته ومحظيَّاته المختلفات، فيبدو أن جميعهن كنَّ يَقُمْن بخيانته مع رجال أصغر سنًا، وقد شكلت هذه المشاحنات تيَّارًا خفيًّا قويًّا تحت مظاهر احتفالات الزفاف عام ١٨٥٢. فقبل خمسة عشر عامًا، أي في وقت تنصيب «ظفر» على عرش البلاد عام ١٨٣٧، كانت الزوجة الرئيسة «تاج محل» - الابنة الجميلة لعازف البلاط المتواضع - هي من ترأس احتفالات مراسم توليه العرش، ومع ذلك لم تتمكن من الاحتفاظ طويلًا بمكانتها، فبعد ثلاث سنوات فقط، قُدِّمت «زينَّت محل» - الأرستقراطية نسبيًّا - البالغة من العمر تسعة عشر عامًا إلى «ظفر» الذي كان يبلغ من العمر أربعة وستين عامًا وقتها. وخلال أشهر قليلة تمكنت من الزواج منه، مما أدى فعليًّا إلى الإطاحة بـ«تاج محل» من منصبها كرئيسة للحريم، وتمكنت الأخرى من الاحتفاظ بمنصبها زوجةَ «ظفر» المفضلة حتى وفاته. ولكن تلك السيطرة لم تكن سببًا كافيًا لـمنع «ظفر» السبعيني من عقد أربع زيجات أخرى من

طبقات متواضعة نسبيًا في السنوات التي تلت ذلك، أو إضافة عديدٍ من المحظيات الجدد.

في عام ١٨٥٣، كان خدر حريم ظفر ما يزال نشيطًا بالنسبة لرجل في الثمانينيات من عمره، إذ كان هناك على الأقل خمسَ نساء مرتبطات بـحجرة النوم الإمبراطورية، وهذا انطلاقًا من حقيقة أنه في يوليو من هذا العام، كان هناك على الأقل خمس مجموعات من الأقدام الفضية لـسرائرهن الخاصة، كما أنجب «ظفر» ما لا يقل عن ستة عشر ابنًا، وواحد وثلاثين ابنة، وأنجب ابنه الأخير «ميرزا شاه عباس» في أواخر عام ١٨٤٥، عندما كان الإمبراطور في السبعين من عمره. على الرغم من أنه لا توجد أي سجلات ضد تصرف «زينَّت محل» مع محظيات الإمبراطور، بل على العكس في الواقع، ساعدت «زينَّت محل» إحدى محظيات الإمبراطور «بيا باي» عندما حملت على يد «تانراس خان» عازف البلاط، فتدخلت لتجنيبها العقوبة الشديدة، إلا إن علاقتها بـ«تاج محل» كانت شديدة التوتر، وكأنهما كانتا في حالة حرب مستمرة، بل في مرحلة ما تسببت «زينَّت» في سجن «تاج» لاتهامها بوجود علاقة محرمة بينها وبين أحد أبناء أخي «ظفر» والمدعو «ميرزا كامران»، وعلى الرغم من إنكار «تاج محل» التهمة، سرت شائعات في القصر بأن سلوكها كان مشبوهًا، واستنادًا إلى ما ذُكر في سجلات البلاط، فمن الواضح أنها قضت وقتًا أطول من المعتاد في منزلها القديم بالمدينة، وكانت تدخل وتخرج من الباب الخلفي للقصر بشكل متخفٍّ ليلًا بشكلٍ مثيرةً الشبهات نحوها كملكة حكيمة مهتمة بالحفاظ على سمعة مملكتها! في الحقيقة، لم تكن تاج محل وحدها، بل كان خِدر حريم «ظفر» بشكل عام يعاني من مشكلة الأمن والانضباط، فعلى سبيل المثال، بخلاف «بيا باي»، والتي حملت من «تانراس خان»، كانت هناك عديد من محظيات الإمبراطور الأخريات التي اتهِمن علنًا بارتكاب مخالفات في عديدٍ من المرات. إذ كان هناك حمل آخر غير مشروع قبل زفاف «جيوان بخت» بشهرين. فقد استغل أحد السيبويين المتمركزين عند البوابة المائية المواجهة لنهر «يامونا» - الواقعة أسفل القصر - موقعه لإقامة علاقة غير شرعية مع جارية أخرى من محظيات الملك، وحُكِم عليه بالجلد والكَيّ بالنار لتنقيته من آثامه، بينما أفلتت الفتاة بحكم مخفَّفٍ فحكم عليها بطحن الحبوب فقط.

وبعد ثلاثة أيام من اكتشاف حمل الجارية، عُثِر على غرباء آخرين يتواجهون مع الحراس الخصيان، وحسب سجلات القصر في الأول من فبراير عام ١٨٥٢، قام «ظفر» بإرسال استيائه إلى منظِّم الغرف، بسبب سوء التنظيم داخل خدر الحريم، حيث إنه لا الحرس ولا حاملو الهراوي كانوا موجودين حين اقتحم الغرباء خدر الحريم، وقد أخبره «تشاند باي» أن «نبي بخش» قد اقتحم منزل «سلطان باي» بالقوة على الرغم من أن الحرس الخصيان

حاولوا صدَّه! شكل هذا حالة من الفوضى الكاملة في واحدة من أهم مؤسسات الإمبراطورية التي صارت غير قادرة على الحفاظ على خصائصها الأساسية في ظروف عادية، وهي بالتأكيد صورة مختلفة عن أسطورة خدر حريم المغول الخاضع لحراسة مشددة يصعب اختراقها في خيال المستشرقين.

ومن الواضح أنه مهما كانت مواهب «ظفر» الأخرى وصفاته الإدارية، فإن إدارة شئون القلعة الحمراء لم تكن من مواهبه أبدًا أو على الأقل في شيخوخته؛ فبالإضافة لمشكلات الخِدر، وعلى الرغم من أن حياة كبار الأمراء كانت مريحة للغاية، وقد تمتَّع أطفال «ظفر» بدرجة من الحرية في اختيار أساليب حياتهم ومتابعة اهتماماتهم الخاصة أو وسائل التسلية التي تروق لهم، سواء أكانت في اتجاهات علمية أم فنية، أم في صيد الحمام والسمان، على الرغم من هذا، كان هناك جانبٌ مظلمٌ من حياة القلعة الحمراء، ومصدر كبير في إحراجها، كان هذا الجانب يتمثل في أساليب حياة صغار السلاطين، أو الأمراء والأميرات المولودين في القصر؛ إذ كانت خياراتهم محدودة للغاية إلى جانب تلك المتاحة لكبار الأمراء.

إذ ضمَّ هذا الجانب أكثر من ألف أمير وأميرة، وأحفاد، وأبناء أحفاد الملوك السابقين تعيسي الحظ الذين عاش معظمهم حياة فقر مدقع في ربعهم المسور داخل القصر، في الركن الجنوب الغربي من المنطقة المأهولة بـ«ظفر» وعائلته الكبيرة، ولم يكن يسمح لهم بالخروج من بوابات القلعة، على الأقل إلا في بعض المناسبات مثل الاحتفالات العامة في «دارياجانج».

كتب أحد البريطانيين: «ويتكون ركن السلاطين هذا من سور عالٍ هائل لا يستطيع شيء آخر أن يعلوه. وبالداخل يوجد عديدٌ من الأكواخ التي يعيش فيها تلك الكائنات الحية اليائسة. ذات مرة عندما فُتحت لهم البوابات اندفع قطيع من الكائنات نصف العارية، الجائعة، واليائسة، لتحيط بنا. وقد كان بعض الرجال - في الثمانين من عمرهم تقريبًا - عراةً بالكامل». يبدو أن «ظفر» الغارق إلى أذنيه في مشاغله الأخرى، لم تكن لديه مشاعر ناحية معاناة أقاربه البعيدين وآلامهم، بل إنه مال إلى الاعتقاد بأنهم لصوص ومخربين مسئولين عن الاضطرابات التي تحدث داخل القصر، فمرَّة، عندما قُبِضَ على أحد اللصوص وهو يدور حول جدران القلعة الحمراء، قال «ظفر» بأنه من الممكن أن يكون واحدًا من هؤلاء السلاطين. وفي مرة أخرى، صرَّح «ظفر» قائلًا: «من عادة السلاطين السرقة من بعضهم بعضًا، ومعاقرة الخمر وخلق الاضطرابات».

وعندما علم «ظفر» بأن السلطان الشاب «ميرزا محمود سلطان» قد أصيب بالجنون واعتاد التجول في ساحات القصر ليلًا، اتخذ قراره فورًا بأن يُقَيَّد

بالسلاسل من قدميه. ولمزيد من الإحراج لـ«ظفر»، وانطلاقًا من الوضع اليائس، خرج السلاطين عن صمتهم. فقاموا بتوقيع عريضتين جماعيتين وأرسلوهما إلى المقيم البريطاني بدعوى سوء المعاملة التي يعَرَّضون لها وانتهاك أبسط حقوقهم؛ ففي عام ١٨٤٧، وبعد عشر سنوات من حكم «ظفر» وقَّع مائة سلطان على عريضة يشكون فيها لـ«ميتكالف» من الظلم والقهر: «لقد وصلت ظروفنا إلى أقصى درجات الإذلال والفقر بسبب سلوكيات وشخصية ملك دلهي الخاضع بالكامل لسيطرة خدَمِهِ ومستشاريه السيئيين، يُعَرَّض أعضاء الأسرة لكل أنواع الذل والإهانة من قبل رئيس الخصيان «محبوب علي خان» والمقربين من الملك».

وبعد عام واحد، اندلع تمرُّد آخر وَوُقِّتَ ليتزامن مع زيارة الملازم البريطاني - حاكم المقاطعات الشمال غربية - لدلهي. هذه المرة كانت العريضة أكبر وتحتوي على أختام أكثر من مائة وخمسين سلطانًا، وقُدِمت للمحافظ طلبًا للحماية، وبدعوى أن «ظفر» كان يحاول ثَنْيَ ولي العهد عن لقاء «ميتكالف» لمناقشة شكواهم، وتطرق الالتماس الثاني إلى التوترات الأكثر حساسية داخل بيت «ظفر». ومن بين كل القيود التي فرضها البريطانيون على «ظفر» فإن القيد الذي أزعجه أكثر من أي قيد آخر هو سحب حقه في اختيار ولي عهده، وبدلًا من ذلك، فرض البريطانيون على المغول الفكرة الأوروبية الغربية عن وراثة الابن البكر للأب، وهو خلاف فكرته عن اختياره وريثًا، والتي تبلورت في عقله لأول مرة عندما توفي ابنه الأكبر، «ميرزا دارا بخت»، بسبب الحمى عام ١٨٤٩.

افترض البريطانيون أن ابن «ظفر» التالي - المتعدد المواهب شاعرًا ومؤرخًا وخطاطًا مشهورًا - «ميرزا فخرو»، يجب أن يكون الوريث المنطقي والشرعي بدلًا من «دارا بخت». لكن «ظفر»، الواقع تحت تأثير الضغط المستبد من «زينَّت محل»، حاول بشدة أن يجعل «ميرزا جيوان بخت» هو الوريث الشرعي بدلًا من «فخرو»، وقد كان آنذاك فقط في الثامنة من عمره وترتيبه الخامس عشر بين أبناء «ظفر» الستة عشر، وقد صرَّح «ظفر» في رسالة مكتوبة إلى نائب الحاكم: «من بين جميع أبنائي الآخرين، لا يبدو لي أن أحدًا جديرٌ بالعرش سوى «ميرزا جيوان بخت»، ويسعدني القول إنه يتمتع بميول ملكية مذهلة. إذ يكرس كل وقته في تلقي العلوم المختلفة، وأشعر أنَّه لن يفعل أي شيء يتعارض مع رغباتي، فهو لم يبلغ بعد سن الرشد، ولم يُسمح له بالاختلاط مع الأشخاص السيئين، وأبقيه دائمًا تحت مراقبتي، بالإضافة إلى كونه ابنًا شرعيًّا من زوجتي الشرعية ذات الأصول الأرستقراطية «زينَّت محل»، لذا، فكما قلت إنه الأجدر بخلافتي..».

وقد كان اعتراض «ظفر» على مبدأ وراثة الابن البكر مثيرًا للسخرية إلى حد ما، نظرًا لأن وصول «ظفر» نفسه إلى عرشه، كان ضد رغبة والده «أكبر شاه الثاني»، بل بناءً على إصرار البريطانيين على مبدأ التوريث للأكبر سِنًّا. ف«أكبر شاه الثاني» جاهد بدلًا من ذلك لخلافة شقيق «ظفر» الأصغر «ميرزا جهانجير»، وقد ظهر اعتراض والده بشدة في ٢١ مارس ١٨٠٧، حيث كتب رسالة إلى المقيم البريطاني آنذاك، والمدعو «أرشيبالد سيتون»: «ابني البكر - أي ظفر - يفتقد بالكامل لكل مؤهلات اعتلاء العرش!» واتهمه أيضًا، دون إبداء أي دليل أو تفاصيل: «قام بارتكاب جريمة منافية للأخلاق، وحساسة للغاية فلا أستطيع التصريح بها.» ولقد كرر «ظفر» ما فعله والده به نفسه، فاستمر في الضغط على البريطانيين من أجل «ميرزا جيوان بخت»، بينما بدأ ابنه الآخر «ميرزا فخرو» تعلم اللغة الإنجليزية، وبدأ هو ووالد زوجته الطموح «ميرزا إله بخش» في تملق كل من «ميتكالف» وكبار ضباط الجيش البريطاني في دلهي، وقد نجحت تلك المساعي في النهاية؛ فبعد مفاوضات كثيرة، التقى «ميرزا فخرو» بـ«ميتكالف» ونائب الحاكم في يناير ١٨٥٢.. أي قبل الزفاف بثلاثة أشهر، ووقعوا اتفاقًا سريًّا، وافق فيه البريطانيون على الاعتراف بـ«ميرزا فخرو» وريثًا على عرش أبيه على عكس رغبة «ظفر».

لكنها كانت مقايضة، على أن يقوم «ميرزا فخرو» في المقابل بعد قرنين من الزمان بنقل مركز الحكم من القلعة الحمراء إلى «مهرولي» البعيدة، وأن يسلم قلعة «شاه جهان» القديمة إلى البريطانيين ليستخدموها ثكنة عسكرية ومخزنًا للذخيرة، بالإضافة إلى أنه عندما يصبح «فخرو» إمبراطورًا، فسيتخلى عن ادعاء المغول بأن مكانتهم أعلى من مكانة الحاكم البريطاني، وسيتم التعامل على أساس التساوي بينهما. ما أن وصلت تلك الأخبار إلى «ظفر» حتى ثار غضبًا بشدة، مؤمنًا أن ابنه قد ساوم على أكثر الأركان قدسية لهيبة المغول وصاح: «إن الكلب الأصفر ليس إلا شقيق ابن آوي»([10]) ثم بصق بغضب - بشكل غامض - أمام الحاضرين.

وسرعان ما أعلن العداء لـ«ميرزا فخرو» فقُوطِع وأعلن أن أي صديق لـ«ميرزا فخرو» هو عدو صريح لـ«ظفر»، وتم توزيع مناصبه المختلفة في البلاط، ومنازله وعقاراته لإخوانه الأصغر سنًّا، ولا سيما للأخ الأصغر الطموح المجتهد «ميرزا مغول» الأكثر كرهًا للإنجليز بين الأمراء، ومع ذلك، فقد اتضح أنه لا شيء سيغير موقف بريطانيا ناحية وراثة العرش، لذا غرق «ظفر» في كآبة متزايدة عاجزة، كما يفعل في كثير من الأوقات عندما يشعر بالإحباط. وأعلن أنه ما دامت رغباته قد تم تجاهلها بذلك الشكل الصارخ، فهو يرغب في التنازل عن العرش والذهاب إلى الحج.. وكتب إلى «ميتكالف»: «من الواضح أنه لم يعد لي شيء في هذا البيت سوى اسمه، ومن المؤسف أن أمنياتي لا تتوافق مع أمنيات الحكومة، وإنني لأشعر بضِيق شديد بسبب هذا؛ لذلك

قررت ألا أكون مزعجًا بعد الآن للحكومة، سأذهب للحج في مكة، وتمضية السنوات القليلة المتبقية من حياتي هناك. لأنني أرى أنني فقدت هذا العالم الدنيوي، لكنني لا أرغب بفقدان العالم الآخر أيضًا، وأجد نفسي غير قادر على تحمل هذا الإحباط في شيخوختي.»

كان «ميتكالف» في حيرة من أمره بشأن الرد عليه، وقد شعر أن كل ما يحدث كان نتيجة تزايد تأثير «زينَّت محل» المؤلم على «ظفر». كتب «ميتكالف» إلى «كالكوتا»: «قبل ذلك حين كنت أجتمع مع جلالة الملك، كنت أشعر أنه أكثر عقلانية وواقعية مما يحدث الآن، ففي الآونة الأخيرة استسلم بالكامل لتوجيهات الزوجة المفضلة «زينَّت محل» ومستشارها السري رئيس الخصيان «محبوب علي خان»، وقد حرَّضَاه على ارتكاب عديد من الأعمال غير المقبولة.» وبحلول منتصف مارس ١٨٥٢، بدا أن «ظفر» قد ابتهج قليلًا، وأنه يعلق آماله على محاولة أخيرة لتغيير رأي المقيم. تخلَّى عن خطته للذهاب إلى الحج وألقى بنفسه في ترتيب حفل زفاف «جيوان بخت»، إذ يبدو أنه اعتقد - أو تمكنت «زينَّت محل» من إقناعه - أنه إذا خرج الزفاف بشكل رائع بما فيه الكفاية، فسيكون هذا مصدرًا لهيبة العروس، وربما يضطر البريطانيون وقتها إلى أخذ اختيار «ظفر» لخليفته على محمل الجد.

وقد افترض المعاصرون للحدث، أن حفل زفافٍ رائعٍ كهذا قد يبدو محاولة أخيرة من «ظفر» لإقناع «ميتكالف» بالتعرف إلى «جيوان بخت»، فكتبت جريدة «دلهي جازيت» أن العروس الشَّاب يبدو هو وريث العرش كما هو واضح، لكن، مشروع الزفاف برمته وكل تلك الخطط التي صُرِف عليها ببذخ شديد، قد واجهت فشلًا ذريعًا. فعلى الرغم من علم «ميتكالف» بكل ما يجري، فهو لم يظهر في أي وقت خلال الاثني عشر يومًا من احتفالات الزفاف، وهكذا - على الرغم من تلك المحاولة المُكلِفة - تم تجاهل الأمر بالكامل من قبل البريطانيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول عام ١٨٥٢، كان المقيم البريطاني «توماس ثيوفيلوس ميتكالف» قد مضى على وجوده في دلهي ما يقارب الأربعين عامًا، وقد توغل في المدينة وشخصية حاكمها بشكل كامل، كان «توماس» شخصًا ضئيلَ البنية، رقيقًا ومحبًا الكتب والقراءة، وقد ارتسمت على ملامح وجهه أمارات الذكاء، وكان أصلع الرأس، ذا عينين زرقاوين لامعتين. أو كما قالت ابنته «إيميلي»: «لا يمكن اعتباره وسيمًا»، لكنه وفقًا لها يملك «يدين وقدمين دقيقتين.» بالتأكيد كان رجلًا شديد الحساسية، ذا مشاعر راقية لدرجة أنه لم يستطع تحمل رؤية النساء يأكلن الجبن، واعتقد أنه إذا أصرَّ الجنس الناعم على أكل البرتقال أو المانجو، فعليهن القيام بذلك وحيدات داخل غرفهن الخاصة على الأقل.

لم يكن «توماس» ميَّالًا لارتداء الملابس الخاصة بالمغول - كما فعل بعض أسلافه - كالـ«باجري» والجاما»، ولم يود السير على خطى أول مقيم بريطاني في البلاط المغولي، السير «ديفيد أوكتيرلوني»، الذي قيل إنه كان في كل مساء يأخذ جميع زوجاته الهنديات الثلاث عشرة في نزهة حول جدران القلعة الحمراء، كل واحدة منهن على ظهر الفيل الخاص بها. بدلًا من ذلك، كان يعيش أرملَ بمفرده، وقام بترتيب الأمور ليتمكن خيَّاطه الموجود في لندن - «بولفورد» في «سانت جيمس» - من إرسال صندوق إلى دلهي بانتظام، يحتوي على بعض الملابس الإنجليزية الفخمة العصرية، لكن الشيء الوحيد الهندي الذي لاءم ذوقه كان تدخين نرجيلة من الفضة، وهو ما كان يفعله كل يوم بعد الإفطار لمدة ثلاثين دقيقة بالضبط. وفي حالة فشل أحد خدم «ميتكالف» في أداء واجبه، يطلب توماس زوجًا من قفازات الأطفال البيض، يلتقطهم من عبوتهم الفضية، ويسحبهم ببطء فوق أصابعه البيضاء الحساسة. ثم بكل وقار وبعد أن يلقي محاضرة على الخادم، يقرصُ - على الرغم من لطفه - أذن المخطئ بقوة، ثم يتركه يذهب؛ وهو توبيخ كان فعَّالًا تمامًا.

كان السير «توماس» قبل ذلك يتمتع بزواج سعيد للغاية، ولكن زوجته «فيليسيتي» توفيت فجأة في سن الرابعة والثلاثين بسبب حمى غير مبررة في سبتمبر ١٨٤٢. وفي العقد الذي تلا وفاتها، كان جميع أبنائه الستة في مدرسة داخلية في إنجلترا، فانْطَوَى «ميتكالف» على نفسه وأصبح منضبطًا في كل شيء لدرجة أنه بحلول الوقت الذي بدأ فيه أطفاله العودة إلى الهند في أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر، وجدوا أن والدهم أصبح متمسِّكًا بالانضباط والالتزام بالمواعيد، ويستاء إلى حد كبير من أي اضطراب في روتينه. وبحلول أوائل الخمسينيات من القرن التاسع عشر، صار هذا الروتين راسخًا لدرجة أنه كاد أن يكون منقوشًا على الحجر، كتبت ابنته «إيميلي»: «كان يستيقظ دائمًا في الساعة الخامسة صباحًا، وبعدما يرتدي ملابسه كان يذهب للشرفة فيتناول الإفطار المعتاد في شمال الهند بعد الفجر، وهو عبارة عن وجبة صغيرة للغاية، وأحيانًا يكتفي بالشاي فقط، ثم يتمشى لبعض الوقت بالشرفة، بينما يتوافد خدمه المختلفون في ذلك الوقت لتلقي التعليمات اليومية، وبحلول السابعة صباحًا ينزل لحمام السباحة الذي بناه أسفل زاوية الشرفة مباشرة، وبعدما ينتهي من ارتداء ملابسه ويؤدي صلاة الصبح، فإنه يصبح مستعدًّا لتناول إفطار الساعة الثامنة.. كان كل شيء في حياته منظمًا بدقة، وكل أنشطة المنزل تدور بدقة عقارب الساعة، فبعد أن يتناول إفطاره، يضَعُ النرجيلة بجواره، وبعد أن ينتهي من التدخين يذهب لمكتبه ليكتب بعض الرسائل حتى تصل العربة، وهو ما يحدث في العاشرة حسب الساعة تحت الرواق، ليمر بعدها عبر صف من الخدم في طريقه إلى سيارته، وقد حمل

أحدهم قبعته، وأمسك آخر قفازاته، وحمل ثالث منديله، بينما أمسك أحدهم عصاه ذات الرأس الذهبية، في حين يحمل واحد منهم صندوق البرقيَّات، وبعد أن يوضع كل هذا في العربة، يركب حارسه الشخصي بجانب السائق لينطلقوا بعيدًا، مع وجود سائسين خلفهم»

مع عدم وجود عائلة توقفه، وكرهه لضوضاء التجمعات، شغل «ميتكالف» نفسه في عمله، ولا سيما التفاوض على تسوية الخلافة بالسماح لبريطانيا بطرد العائلة الحاكمة من القلعة الحمراء بعد موت «ظفر». كان لديه بعض المودة، ولكن قليلًا من الاحترام الحقيقي، للرجل الذي أصرَّ أن يكون آخر حاكم من السلالة التيمورية.. على الرغم من أنه كان دائمًا مهذبًا للغاية في وجه «ظفر»، وكان يكتب إلى الإمبراطور بصيغ وُدِّية كالتالي: «إلى صديقي الحاكم اللامع.. أكتب إليك للتعبير عن التقدير الكبير الذي أكنه لك يا صاحب الجلالة، وأجرؤ على عدِّ نفسي صديقًا مخلصًا لجلالة الملك.» لكنه في غياب «ظفر» كان يُظهر وجهه الحقيقي. إذ كتب إلى «إيميلي»: «على الرغم من كون «ظفر» لطَيفًا ومَوْهوبًا، لكنه ضعيف ومتردِّدٌ بشكل مؤسف، ومنخدع للغاية في أهميته الشخصية، متسببًا في إحراج كبير لنفسه، وفي بعض الأحيان يسبب كثيرًا من المتاعب للسلطات المحلية.» ومع ذلك، فقد كان موقف «ميتكالف» تجاه دلهي وإمبراطورها أكثر غموضًا مما قد يوحي به هذا. فقد كان فخورًا جدًّا بالألقاب الفارسية التي منحها «ظفر» له، وكلَّف ناسخًا بنُسخ مختلفة مكتوبة منها، وقام في وقت لاحق بجمعها في «ألبوم». علاوة على ذلك، بدأ على الرغم من أنفه يُفتتن ببطء بالمدينة الرائعة التي رأسها، وعن هذا كتب: «هناك شيء في هذا المكان لا تستطيع النفس تجاهله.. بقايا العظمة التي تمتد لأميال من كل جهة تعكس تلك العظمة الغابرة. القصور تتداعى متحولة إلى غبار.. وأعداد هائلة من الأضرحة الكبيرة تمتد في مساحات شاسِعة بهدف إيصال شهرة ساكنها الخالدة، ولكنها كلها قد صارت الآن غير معروفة ويمر بها الناس دون أن يلاحظها أحد. لا يمكن تجاهل تبدل الأحوال بهذه الطريقة، لا يمكن تجاهل الرسالة التي توصلها هذه المدينة»

في وقتٍ ما، قام «ميتكالف» بزيارة جميع الآثار المختلفة في المدينة وأسَّس جمعية دلهي الأثرية، المكرسة للكشف عن التاريخ الكامن خلف آثار دلهي، والتي كان الشاب «السيد أحمد خان» عضوًا متحمسًا وحيويًّا فيها. كانت لتلك الجمعية مجلتها الخاصة، والتي كان مصدر معظم مقالاتها من مثقفي المدينة الذين كان «ميتكالف» يقوم بتكليفهم شخصيًّا بكتابتها، ويترجمها بنفسه من الأردية إلى الإنجليزية. وعلى عكس معظم المسئولين البريطانيين الذين عَدُّو إقامتهم في الهند إقامة مؤقتة وانتظروا بفارغ الصبر اللحظة التي يتمكنون فيها من الإبحار لوطنهم مع مدخراتهم المتراكمة ليقيموا في بريطانيا، اتخذ «ميتكالف» قرارًا بإحضار جميع ممتلكاتِ عائلته إلى الهند، وبنى لنفسه في

دلهي منزلين ريفيين كبيرين، وليس منزلًا واحدًا، بالإضافة إلى مكتب الإقامة الجديد، المعروف باسم قلعة «لودلو» والذي بُني خارج أسوار المدينة في الخطوط المدنية البريطانية التي بُنِيَت مؤخرًا شمال المدينة. في رسائله، تصور «ميتكالف» نفسه أحيانًا كمالك إمبراطورية إنجليزية مستقلة. في الواقع، يبدو أنه كان ذا طموحات أكثر تعاليًا قليلًا، فإلى حد ما أقام مؤسسته كبلاط منافس لذلك الخاص بـ«ظفر» مقتنعًا أن آل «ميتكالف» يجب أن يكونوا سلالة موازية لسلالة المغول. كان «بيت ميتكالف» معروفًا أيضًا بـاسم «العرض العالمي»، وهو بيت واسع وفخم من طابق واحد على الطراز الأوروبي، يقع على ضفاف نهر «يامونا» بشمال المدينة، كان بشموخه وبهائه يمثل تحديًا غير مباشر للقلعة الحمراء، كأنما يحاول سحب البساط من تحتها.

فإذا كانت للقلعة الحمراء قِبابها الرخامية وحدائقها الليلية العطِرة، وقنوات الري المتدفقة، والأجنحة العائمة فوق المياه. فإن لبيت «ميتكالف» أسِرَّة من الزهور الإنجليزية، وأعمدة رخامية، وحمام سباحة، وحديقة شاسعة تمتلئ بشجر السرو وبساتين البرتقال، ومكتبة تضم خمسًا وعشرين ألفَ كتاب، ولوحات زيتية رائعة، وأثاث جورجي الطراز من خشب الورد. كما كان به متحف مخصص لنابليون، يمتلئ بتذكارات بونابرت، بما في ذلك خاتم ألماس خاص بالإمبراطور، ونصف تمثال شخصي من نحت الفنان الإيطالي «كانوفا»، كما أنشأ «ميتكالف» منزلًا ريفيًّا ثانيًا إلى الجنوب من دلهي، وقد حُوِّل من مقبرة مغولية ثمانية الأضلاع وسمَّاه «ديلكوشا»([11])، وخُرِّب في أثناء الثورة وحرب الاستقلال الأولى عام ١٨٥٧، ولم يتبقَّ منه الآن إلا بعض الأطلال من جدران وأبراج وحدائق. بالقرب من «مهرولي»، وأصبح المنزل منافسًا للقصر المغولي الصيفي القريب، والخاص بـ«ظفر محل»، كما أنشأ حديقة مغولية رباعية الأضلاع أمام الأبواب فقط للتأكيد على المساواة بين البيتين.

كلا منزلَيْ «ميتكالف» كانَا محاطين بحدائق واسعة، والدخول لهما من خلال بوابات جورجية الطراز هائلة الحجم، وقد زُيِّنا ببذخ شديد، وبالمثل، كست النقوش الفاخرة المنزل والمنارة، والقلعة الصغيرة، وبيت الحمام، وبركة القوارب، ومعابد «الزقورة» المليئة بالزخارف. كان «ميتكالف» تمامًا كـ«ظفر»، راعيًا مميزًا للفنون وفناني دلهي، فما بين ١٨٤٢ وعام ١٨٤٤ كلَّف فنانًا من دلهي يُدعى «مظهر علي خان» - الذي كان أيضًا فنانًا مفضَّلًا لدى «ظفر» - برسم سلسلة كاملة من الصور للآثار والأطلال، وقصور وأضرحة المدينة، وقد جمع الصور في ألبوم بعنوان «كتاب دلهي»، وكتب نصًّا وصفيًّا طويلًا ليرافق الصور، ثم أرسله إلى ابنته «إيميلي» قبل عودتها من المدرسة الداخلية الإنجليزية للانضمام إلى والدها في دلهي.

كما قام أيضًا بتكليف «مظهر علي خان» بعمل مخطوطة بانورامية مميزة للمدينة، يبلغ طولها حوالي عشرين قدمًا. تعتبر تلك المجموعة تمثيلًا مرئيًّا مكتملًا ومازال موجودًا إلى الآن لـدلهي ما قبل الثورة، وهي أعمال فنِّية رائعة بحدِّ ذاتها. من الواضح أن «مظهر» كان قد تدرب على تقنيات المغول القديمة، لكنه عندما عمل من أجل «ميتكالف» استخدم الألوان المائية والأوراق الإنجليزية، وأخذ الارتفاعات المعمارية الإنجليزية مرجعًا له، ليُحدث اندماجًا مبهرًا للفنَّيْن الإنجليزي والهندي، وهو اندماج أدَّى إلى ظهور نوع جديد من الرسم، وهو الفن المنتسب الآن إلى مدرسة الشركة. وقد أظهر تألق وبساطة الألوان، والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، والجواهر الشبه المضيئة، والطريقة التي تبدو بها الصورة ملموسة، إلى تدريب المغول لـ«مظهر علي خان» فلم يكن بوسع أي فنان إنجليزي التفكير في استخدام كمية الألوان المذهلة التي لا تزال بارزة وكأنها صورة حية؛ فاللوحات الإنجليزية الباهتة التي تعود للحقبة نفسها وتمثل بعض نساء الإنجليز النبيلات تجعل الفارق بين العملين يبدو بعيدًا زمنيًّا.

تقريبًا انصهر الاهتمام المغولي بالتفاصيل الدقيقة مع العقلية الأوروبية العلمية العقلانية لإنتاج لوحات معمارية تصف المباني بصورة ملموسة. كـصورة قبر «غازي الدين» الموجودة في مجمع «جامعات دلهي» التي توضِّح بدقة نِسَبَ القباب المغولية وتفاصيلها للمسجد الذي يقع خلفه، فقد تفهم الفنان تفاصيل الرقَّة والدِّقة التي كان يهدف إليهما المهندس المعماري، فأنتج صورة جذابة وسحرية للمبنى صورة خفيفة وكأنها شريطٌ من الدانتيل، أظهر مدى حساسية المقبرة وخفتها لدرجة أنها يمكن أن تتلاشى في الهواء لو تنفست أمامها فقط! لم تكن نقطة رعاية الفنون هي النقطة المشتركة الوحيدة بين السير «توماس» و«ظفر»، فمن نواحٍ أخرى عديدة، كانت مواقف حياتهما مشتركة بشكل غير متوقع؛ من الناحية السياسية، كان لدى كلاهما إحساس بالضآلة، وأنهما بطريقة ما تم تجاهلهما، فمهما بدت ثقة «ميتكالف» وهو يتجول وسط دلهي، فالحقيقة هي أن عديدًا من الرتب الصغيرة التي مرت على «ميتكالف» منذ فترة طويلة في خدمة جيش شركة الهند الشرقية قد تفوقوا عليه. كان «جون لورانس» على سبيل المثال أحد مساعدي «ميتكالف» قد رُقِّيَ في عدة مراتب فوقه وصار حاكم ولاية «بنجاب» المحتلة حديثًا. أمَّا الأكثر إزعاجًا له فكان «تشارلز» الأخ الأكبر لـ«ميتكالف»، والذي سبقه مقيمًا في دلهي، وقد حصل الآن على رتبة نبيل ورُقِّيَ من القائم بأعمال الحاكم العام في كالكوتا إلى الحاكم العام في كندا. في غضون ذلك الوقت ظلَّ «توماس» محتجزًا بمنصبه في دلهي. صحيح أنه منصب جيد، ولكنه بالكاد منصب رفيع المستوى في الخدمة المدنية للدولة المشتركة على الرغم من تاريخ دلهي الطويل كعاصمة هندوستان ومركز إمبراطورية

المغول. ازداد تقليص سلطة مقيم دلهي خاصةً بعد عام ١٨٣٣، عندما أنشئت رئاسة للمقاطعات الشمالية الغربية، يديرها نائب الحاكم من مقره في «أجرا».

من جهة أخرى، كانت الأوضاع العائلية لـ«ميتكالف» و«ظفر» متماثلة من نواحٍ كثيرة بشكل مدهش. فكلاهما كان على خلاف مع ابنه الأكبر ووريثه. فكان «ثيوفيلوس» (أو «ثيو» كما كان معروفًا) ابن «ميتكالف» الذي صار قاضيًا مبتدئًا في خدمة شركة الهند الشرقية، قد عاد حديثًا إلى الهند بعد عشر سنوات من الغياب في المدرسة في إنجلترا، وكان مختلفًا تمامًا عن والده. فبينما كان السير «توماس» متحفظًا ودقيقًا، كان «ثيو» اجتماعيًّا وكثير العلاقات، ويتمتع بشخصية جذابة، وعلى عكس الأب الذي يحب العزلة ويكره الترفيه، كان ثيو يحب الحياة الصاخبة، ويستمتع بالحفلات والكلاب ركوب الخيل. وعلى عكس أبيه الحازم المنضبط ذاتيًّا وبالقانون كان «ثيو» يميل إلى المخاطرة وتخطي الحدود، والدخول فيما وصفه والده بـ«مخاطرات بلا فائدة». لذا لم يكن من الغريب أن العلاقة بينهما كانت متوترة إلى حد ما. ولهذا السبب، كان السير «توماس» شديد الانزعاج عندما تلقى رسالة في أبريل عام ١٨٥١، أي قبل عام بالضبط من زواج «جيوان بخت»، أعلن «ثيو» فيها أنه سيعود للتو إلى دلهي. كتب السير «توماس» إلى ابنته الوسطى «جورجينا»، المعروفة في الأسرة باسم «جي جي»: «أقول لكِ بصراحة إنني أتخوَّف من لم الشمل هذا.. فأنا لست في مرحلة من حياتي أرغب فيها أن يتم إبعادي بالقوة عن طريقي، أو أن ألعب دورًا ثانويًّا في منزلي. أخوك الذي أعرفه جيدًا، مغرم بالسيطرة، ويُرغم الجميع على الاستجابة لرغباته. أعصابي متوترة أيضًا، أحاول أن أبقى هادئًا، لكنني أشعر أن ما بعد قدومه لن يمر بسلام. كما أنه سيرغمني أن أجهزه بما يحتاجه من عربات وخيول وخلافه، وقد لامني صديق لي قائلًا: إن لم ترغمه على عيشه في حدود راتبه، فسيكون لديه الحق في الاعتماد عليك. أعرف أن كتابة خطاب كهذا مزعجٌ، لكنه يخفف من مرارتي..»

ومع ذلك، فقد أصبحت نغمة «ميتكالف» أكثر تخوفًا في رسالة أخرى: «عزيزتي «جي جي»، بعد أن كتبت إليكِ بالأمس، وصلت لي صحيفة «دلهي جازيت» وفي فقرة من خطاب «مراسلي كالكوتا»، هناك إشارة إلى فعل مدني غير قانوني أخشى أنه يشير إلى شقيقك. إذا كان الأمر كذلك، فهو لم يُغضب اللورد «دالهوزي» فقط، وسيتسبب في إزالتي من منصبي، ولكن أيضًا سيتم رفع الأمر إلى المحكمة العليا، ومن المحتمل أن أُغرَّم نقدًا تعويضاتٍ تبلغ حوالي ١٠ أو ١٢ ألف روبية، والتي يجب أن أدفعها بالطبع وإلا سيُسجن! هذه فوضى كبيرة وإذا حدث كل ما أخشاه، فلن يمكنني تحمل تكلفة جلب أختك من إنجلترا. كم هو مخيف أن «ثيو» لا يستطيع التصرُّف

بحكمة. تصرفاته سيئة بما فيه الكفاية!» طالما وجد السير «توماس» علاقاته مع بناته أسهل من علاقته بأبنائه، ومراسلاته مع «إيميلي» و«جي جي» كانت دافئة وحميمة دائمًا. ثم انقلب الأمر فجأة، حدث هذا في عام ١٨٥٢، في نفس الوقت الذي كان فيه «ظفر» منشغلًا بمحاولة السيطرة على المشكلات التي تحدث في خدر الحريم، كان السير «توماس» منشغلًا بمنع علاقة الحب العاطفية التي وقعت فيها «جورجينا» أو «جي» البالغة من العمر ٢١ عامًا.

كان ما أثار رعب «ميتكالف» أن «جورجينا» وقعت في حب نقيب اسمه السير «إدوارد كامبل»، أحد الرعايا المواليين للسير «تشارلز نابير»، القائد العام السابق لـلجيش البريطاني في الهند، والذي كان السير «توماس» على خلاف حاد معه، وعلاوة على ذلك فإنه على الرغم من لقبه، كان «كامبل» مُفلسًا إلى حد ما. التقى «كامبل» و«جورجينا» ذات صباح في منزل الضابط الطبي للدولة في دلهي، وهو الدكتور «جرانت»، حيث ذهبت «جي جي» لضبط البيانو؛ وبحلول المساء كانا يغنيان معًا، برفقة القبطان «دوجلاس»، قائد حرس القصر. حالما علِم السير «توماس» بالعلاقة، منع الشابين من اللقاء، وقررت «جي جي» على الفور الإضراب عن الطعام. وعندما أخذها «ميتكالف» لمنزل التل الذي بُنِي حديثًا في «ماسوري» لتغيير الجو، جلست في انتظار رسائل حبيبها، التي لم تصل إلى يدها لأن والدها صادرها كلها على الفور بمجرد وصولها. كتبت «جي جي»، التي أعياها الحب إلى «كامبل»، من غرفة نومها بـ«ماسوري»، بعد خلود والدها للنوم ليلًا: «حبيبي، من الصعب عليّ معرفة أن الرسائل تصل منك وأنني لن أتمكن من قراءتها ولا رؤيتها على الرغم من معرفتي بوصولها إلى هنا! أوه! «إدوارد»! سأكون سعيدة للغاية لو كتبت لك وسمعت ردك! رسالة واحدة صغيرة في الأسبوع سوف تمنحني سعادة كبيرة يا «إدوارد». لا أستطيع أن أتفهم لا مبالاته بنا، وكيف يمكن لأي شخص أن يستمتع بفكرة إبعادنا! هل فقدنا الثقة؟ أوه، نعم في كل شيء الآن..»

لكن «ميتكالف»، الذي كان بارعًا في السيطرة على عديدٍ من الأمراء في بيت العائلة «التيمورية»، وجد نفسه عاجزًا في مواجهة ألم ويأس فتاة تبلغ من العمر واحدٍ وعشرين عامًا. عاد إلى دلهي، تاركًا «جي جي» في التلال تكتب بلا جدوى من داخل غرفتها. وكتب لها: «أنا على ثقة أنكِ ستسمحين للمناخ الجيد أن يغير مزاجك، وأنك ستهتمين بأكلك، وستتذكرين أن لديكِ أبًا يحبك، وهو كذلك حزين على أن يشهد حالتك الجسدية والعقلية الحالية، وأنه ومهما كان الإزعاج الذي قد سبَّبه لكِ، فهو بسبب شدة حبه لكِ وشعوره بواجبه نحوك. لا يمكن لأبٍ أن يأتي بخير من ذلك.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مؤمنون وكفرة

لم يكن القس «ميدجلي جون جينينجز» - قسيس مسيحي دلهي - رجلًا يخشى التعبير عن رأيه أو إعلان ما يفكر فيه صراحةً؛ فمنذ وصوله إلى دلهي قبل زفاف «جيوان بخت» بثلاثة أشهر، عمل على خطة لتحويل أهل مدينة دلهي إلى الدين المسيحي، دلهي التي شعر فيها وكأنها قلعة أثيرة لأمير الظلام نفسه فكتب: «حب الحياة، تلبية شهوة العين وكل شهوات الجسد، قد استوطنت دلهي بالكامل، وكأن مُلكها يتنقل من ملك شرير إلى آخر، أشعر بقوى الشر هنا تتباهى بعظمة سيطرتها على جميع الناس. في دلهي، لا يوجد إلا الشر فقط، أما الخير فلم يكن قويًّا كفاية لأراه..» كانت خطة «جينينجز» هي إنهاء ما اعتبره ديانات خاطئة في الهند، وإن كان بتدخل القوة، فتابع: «لقد توغلت جذور الأديان القديمة هنا بشكل عميق، تمامًا كما في كل البلاد المتأخرة، ويستلزم أن يكون لدى شعبها هنا وعي حقيقي ليتم تحويلهم عنها..» بالإضافة إلى ذلك عمل على استغلال القوة البريطانية الصاعدة، واعتبرها وسيلة غامضة للعناية الإلهية بتاركي الوثنية. وقد كتب «جينيجز» في منشوراته إلى أهل دلهي، أن التاج البريطاني تعبيرًا عن امتنانه لمنحه ماسة كوهينور([12])

يجب أن يسعى لإحداث تحوُّل حقيقي في الهند، وذلك بمنحهم في المقابل جوهرة لا تقدر بثمن ألا وهي الإيمان المسيحي، ولأن الإمبراطورية البريطانية تتَّخذ مسارًا رائعًا في مشارق شبه القارة الهندية وغربها، يجب أن تصحب معها عظمة المسيحية ونورها لنشر الدين وعبادة الإله الواحد الحقيقي والتنازل عن الأديان الباطلة. كان «جينينجز» قد وصل إلى الهند عام ١٨٣٢، واكتسب فيها شهرة سريعة كما تقول ابنته «بفضل اجتهاده ضد إهمال الشعائر الدينية». وبعد أن قام بنشر المسيحية فوق تلال الهند الهادئة واهتم بتركيز طاقاته على ما اعتبروه جميعًا مشكلات هامشية مثل تصميم شواهد قبور بسيطة للمسيحيين هناك. بقي لديه حلمه في الوصول إلى دلهي والقيام بنشر المسيحية هناك والانخراط في بعض الأعمال الجادة كرسول حقيقي من الرب للوثنيين. تحققت مساعيه حين حصل على وظيفة قسيس في دلهي عام ١٨٥٢، وانتقل مباشرةً إلى هدفه الحقيقي «القلعة الحمراء» نفسها، بعدما تمت دعوته لمشاركة النقيب «دوجلاس» وزوجته المريضة منزلهما في «لاهور»، الزوجة التي وصفها «جينينجز» قائلًا: «لا يقل تدينها عني أنا نفسي، وكانت مؤمنة بالبعثة بشدة».

وبصرف النظر عن عائلة «دوجلاس»، فإن سلوك «جينينجز»، اللامبالي والمتهور مع تملقه ومداهنته - والذي يشبه بشكل ما شخصية «عُبيدة سلوب» في رواية «أبراج بارشيستر»([13]) كان آل «ميتكالف» يكرهونه بشِدة، فالسير

«توماس» اعتبره منافقًا بشعَ السلوك، وعن هذا يقول: «لقد أعادَ لي كتابًا كان قد استعاره مني عن طريق «دوجلاس» دون أن يقول شكرًا!»، أمَّا «ثيو» فكان يراه ببساطة «متعصبًا»، وكانت كراهية «جينينجز» من الموضوعات النادرة التي يتفق فيها رأي السير «توماس» وابنه «ثيو». وجريدة «دلهي جازيت» التي تصدر بوجهة نظر بريطانيين للغاية وبلغتهم، وجريدة «أخبار دلهي» التي تصدر باللغة الأردية وتظهر ولاءً عظيمًا وإخلاصًا للمغول. وربما لم يكن مفاجئًا أن يعتقد الشيخ «محمد باقر» - رئيس تحرير أخبار دلهي - أن «جينينجز» متعصب، لكن كان المثير للدهشة أكثر هو أن تجد صحيفة «دلهي جازيت» أنشطة «جينينجز» التبشيرية تعصبًا زائدًا عن الحد!

كان هذا عندما ذهب «جينينجز» إلى الاحتفال الهندوسي كومبه ميلا([14]) وبدأ محاولة تبشير ملايين الحجاج الذين تجمعوا على ضفاف نهر الجانج، وسبَّ بصوت عالٍ شياطين الوثنية. مما جعل جريدة «دلهي جازيت» تشير إلى أن «جينينجز» واثنين آخرَيْن من مساعديه يجب أن يكونوا أكثر تحفظًا في سلوكهم، وكتب صحافي في الجريدة: «حماسة المبشرين الزائدة عن الحد تخطت حسن تقديرهم للأمور، فقاموا باختيار هذا الاحتفال الوثني المعظم كمسرح لأعمالهم التبشيرية! لقد ظلوا يلقون الخطب يوميًّا للجماهير، لكن الجدير بالذكر أن كل جهودهم تلك قد ذهبت أدراج الرياح، إذ كانوا يحاربون القوى الأربعة العظمى المقدسة في الهند والمضادة للمسيحية –تجارة العبيد والجريمة والمتعة وعبادة الأصنام - بجميع أشكالها المحمومة!»

وتُعد طائفة الناجا سادهو([15]) هي الطائفة الأكثر انزعاجًا لظهور «جينيجز»، وقد عُثِر عليهم «يتجولون وسط المصلين، يطردون أي متطفل غير هندوسي يصادفونه». لم يكن «جينينجز» يتمتع بحضور قوي أو شعبية بين مسيحي بريطانيا كذلك، وحسب ما قاله السير «توماس»، فقد سخر «جينينجز» من سيدة عجوز اشتكت من برد الشتاء في كنيسة «سانت جيمس» قائلًا: «لو كان قلبها عامرًا بالدفء، لملأ الدفء قدميها كذلك»، وكتب قاضٍ بريطاني في ذلك الوقت تقريبًا: «ذهبت للصلاة في الكنيسة مساءً.. لاحظتُ أن ملامح «جينينجز» كانت تكتسي بتعابير صارمة غير متوافقة مع العِظَة بالصبر، كان قد بدأ التوغل في خطبته الطويلة بينما حلَّ الظلام، وسرعان ما توجب علينا إرسال أحدهم لجلب بعض الشموع، فكان لذلك النور الخافت المنعزل في الكنيسة المظلمة وصوته العالي والضوء ينعكس على وجهه تأثيرًا فريدًا. كانت خطبته، والتي لم يختصر منها ولو كلمة واحدة على الرغم من تأخُّر الوقت، بقدر ما أتذكر، تتحدث عن تقلبات الحياة، وعدم تأخير التوبة لعدم ضمان الزمن وتقلباته. أشعرني ذلك وكأنني أغرق في كآبة غير قابلة للتفسير.».

لكن مهما كانت إخفاقاته الشخصية، فقد تقاسمت أفكاره وتوقعاته أعدادًا متزايدة من البريطانيين في الهند، من معاصريه أو ربما ممن سبقوه حتى، على سبيل المثال كان لكاتبة أدب الرحلات المحبة للهند وحضارتها «فاني باركس» عندما زارت هندوستان قبل عقد من الزمان، كان لها الرأي نفسه؛ إذ وجدت أن التطرف الديني اكتسب أرضية واسعة في كانبور، فقد اعتقدت الشابات أن الذهاب إلى الحفلات، والمسرحيات، والسباقات أو إلى أيَّة حفلة حيث يمكن أن تكون بها حلبة رقص فعل خادش للحياء! كما اعتنق مجموعة من الضباط آراءً مماثلة لآراء «جينينجز» واعتبروها بمثابة شعاع ضوء جديد للاهتداء به. بدأت الهند في أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر تمتلئ ببطء بالبريطانيين المسيحيين المؤمنين، الذين لم يرغبوا فقط في حكم الهند وإدارتها، ولكن أيضًا محاولة تحسين مستواها الديني. في «كالكوتا»، كان هناك زميل مؤيد لـ«جينينجز» يدعى السيد «إدموندز» وكان صريحًا جدًا في توضيح رأيه بأن شركة الهند الشرقية، يجب أن تستخدم سلطتها في إحداث قوة أكبر لتحويل الهند نحو الدين المسيحي. وقد كتب في رسالة وجَّهها إلى شريحة كبيرة: «يبدو أن الوقت قد حان لإيلاء بعض الجدية للأمر، سواء اعتنقوا جميعًا النظام الديني أم لم يعتنقوه، تقوم السكك الحديدية والسفن البخارية والتلغراف الكهربي بتوحيد أمم الأرض كافة بسرعة، كما يتم حرث الأراضي المظلمة وتقليص حجم الديانة الهندوسية في كل مكان، وحينما تحل إرادة الرب العظيمة، ستسقط تلك الديانة بالكامل دون رجعة».

ولم يكن المبشرون فقط هم الذين يحلمون بتحويل الهند، لأنه بالشمال الغربي من دلهي، اعتقد مفوض «بيشاور» والمدعو «هربرت» اعتقادًا راسخًا أن الرب قد منح بريطانيا النجاح في تأسيس إمبراطورية بسبب فضائل البروتستانتية الإنجليزية، فكتب: «الشكر لله واهب الإمبراطوريات الذي اختص إنجلترا بتأسيس الإمبراطورية؛ لأن البريطانيين قد بذلوا جهدًا كبيرًا للحفاظ على الدين المسيحي في أنقى صوره المُرسَل بها». وتبع ذلك بأنه كلما سعى البريطانيون إلى نشر هذا الإيمان النقي شملت العناية الإلهية جهودهم في بناء الإمبراطورية. وتأثّرًا بهذه الروح، قام قاضي مقاطعة «فاتحبور»، والمدعو «روبرت تاكر»، مؤخرًا بنقش الوصايا العشر في الديانة المسيحية على أعمدة حجرية ضخمة باللغات الفارسية والأوردية والهندية والإنجليزية، واعتاد على قراءة الكتاب المقدس مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع في هندوستان لعدد كبير من السكان الأصليين الذين جمِّعوا للاستماع إليه، وقد امتدت تلك الحماسة الإنجيلية إلى الجيش البريطاني في الهند. وفْقًا لأحد أفراد حرس التنين: «لقد نشأ وعمَّ هوس ديني، تظاهر المساعد والرقيب بالورع والتقوى، وحضرا الصلوات في كل صباح، وأصبح شعار هذه المجموعات بأنهم جيش لا يقهر لأن من يجيد الصلاة يجيد القتال».

وكانت الحال مشابهة في جيش شركة الهند الشرقية نفسه، إذ اعتاد ضباط مثل العقيد «ستيفن ويلر» الذي كان قائدًا لـفرقة المشاة الرابعة والثلاثين على قراءة الكتاب المقدس للسيبويين، بالإضافة إلى تبشير المواطنين من جميع الطبقات.. في الطرق السريعة، والمدن، والأسواق والقرى على أمل أن يكون التبشير أداةً تُقرِّبه من الرب، أو بمعنى آخر تنقذه من عذاب الجحيم. كما ترددت آراء مماثلة من قبل المجموعة المتنامية من الإنجليين في شركة الهند الشرقية وعلى رأسهم «تشارلز جرانت» الذي صرح بأنه «من الصعب تخيل أن هناك أي شعب آخر مكبل بالسلاسل بسبب خرافاته ويرفض تركها، مثل الهندوس!». فاقترح زيادة النشاط التبشيري بشكل كبير لكي يستنير الناس الذين كان يصفهم بأنهم «فاسدون داخليًّا وخارجيًّا، فاسدون لأنهم عميان، ويائسون لأنهم فاسدون»، كما آمن بأن مشيئة الرب قذفت بالبريطانيين في مستنقع الإثم هذا لغرض أعلى «أليس من الضروري أن نستنتج أن مستعمراتنا الآسيوية قد مُنحت لنا، ليس فقط لنحصل على كنوز مادية منها، ولكن لكي ننشر نور الحقيقة ليعم تأثيره الحميد بين سكانها الغارقين في الآثام واليأس والرذيلة منذ زمن!».

كان مطران كالكوتا «ريجنالد هيبر» هو الحليف الرئيس للإرساليات داخل الهند، فلقد عمل «هيبر» بجد لتقديم الدعم للجمعيات التبشيرية المختلفة، والتعاون مع مسئولي الدولة الموجودين في كل مكان في الهند للسماح للمبشرين بالانتشار في جميع أنحاء الأراضي التي تسيطر عليها بريطانيا على الرغم من أن هذا مُنِع صراحةً بموجب ميثاق شركة الهند الشرقية مؤخرًا في ١٨١٣، ولكن غُيِّر فقط بعد عريضة جماعية من البرلمان نُظِّمت في لندن من قِبَل «لجنة المجتمع البروتستانتي» الإنجيلية، التي طالبت بتعديل الميثاق للسماح بانتشار سريع وشامل للمسيحية في الشرق كافة. كان «هيبر» هو الرجل الذي أشرف على عملية التطبيق؛ كما كتب سلسلة من الترانيم التي كانت بمثابة صرخات حاشدة لمهمة جديدة قوية مليئة بالثقة. أبياته المؤثرة التي ما زالت تُغنى حتى اليوم مليئة بصور الحرب المقدسة والنزعة العسكرية المسيحية، كجنود مسيحيين يشقُّون طريقهم وسط حرب شعواء إلى الخلاص، والقيام بالقتال لغرض نبيل من بين براثن الخطر والكدح والألم.. تبدأ ترنيمة منها بالتالي:

«ابن الله يخرج للحرب

والراية الحمراء صِبغة دمه ترفرف من فوقه»

كما تكشف ترانيم «هيبر» عن موقف المبشرين تجاه المتحولين المحتملين لدينهم المسيحي، فتقول ترنيمة أخرى:

«من الجبال الجليدية في جرينلاند
ومن الشعاب المرجانية في الهند
ينادوننا
لتحرير أرضهم من سلسلة الآثام
على الرغم من النسائم الحارة
التي تهفهف فوق جزيرة سيلان
وعلى الرغم من كل أسباب السعادة
مازال الإنسان ضالًّا
على الرغم من عطايا الرب المتناثرة حوله
يسجد الوثني كالأعمى
للخشب والأحجار!»

كانت وجهات نظر «هيبر» المحتقرة للوثنيين في الهند تتماثل تمامًا مع آراء «جينينجز». كتب «جينينجز» بعد فترة وجيزة من وصوله إلى دلهي: «يجب شن هجوم قوي في مكان ما، وآمل أن يحدث هذا هنا.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في البداية، لم يتفق العلماء المسلمون على رأي واحد عند وصول البريطانيين إلى هندوستان في نهاية القرن الثامن عشر. فبينما ناقش بعضهم فكرة ما إذا كانت هندوستان الآن دار الحرب، وبالتالي من الواجب التركيز على الجهاد الإسلامي، اتخذ معظمهم رأيَ أنَّ البريطانيين يمكن أن يكونوا أفضل من قيادات جيش الهندوس الذين سبقوهم كقوة مهيمنة في الشمال، وبالتالي قبلوا العمل في شركة الهند الشرقية محامين، ومحاسبين، ومعلمين. كما كان هناك عدد من الزيجات رفيعة المستوى بين شيوخ العلماء والنساء البريطانيات اللاتي اعتنقن الإسلام. كانت هناك أيضًا درجة من الاهتمام الفكري الحقيقي بالمسيحية في الأوساط المتعلمة في دلهي. وقد سُرَّ البلاط المغولي جدًا باستلام النسخة العربية من العهد الجديد عام ١٨٠٧، بعد وقت قصير من وصول البريطانيين إلى دلهي، وكان ردهم محملًا بالشكر والعرفان، وطلب استمرار تلك العطايا. علاوة على ذلك، سرعان ما شكَّل عديد من علماء دلهي صداقات مع المسئولين المهتمين بالثقافة الهندية وحضارتها، والذين شغلوا مقر الإقامة البريطانية في الأيام الأولى من الهيمنة البريطانية؛ أُعجِبَ «شاه عبد العزيز» مثلًا بمساعد السير «ديفيد أوكتيرلوني»، والمدعو

«ويليام فريزر» الذي كان يحضر إليه مرتين أسبوعيًّا لتحسين لغتيه الفارسية والعربية.

قام «فريزر» وهو عالم لغوي ودارس من إنفرنيس، بتقليم شواربه بطريقة أهل دلهي، وأنجب كثيرًا من الأطفال - وكأنه ملك من ملوك بلاد فارس - من حريمه وهُن ست أو سبع زوجات شرعيات من الهنود. وقد أعجب «شاه عبد العزيز» بتفهم واهتمام «فريزر» بحياة المسلمين، وأعطاه نصائح حول مواضيع متنوعة مثل المزارات التي عليه زيارتها في الطريق إلى «بيشاور»، كما منحه شرحًا مفصَّلًا عن أدق النقاط في الشريعة. وقد بادله «فريزر» ذلك الانجذاب.. فبعد وقت قصير من وصوله إلى دلهي، بدأ يبحث عن السكان الأصليين المتعلمين، والذين لم يكن هناك إلا القليل منهم، وعلى الرغم من معاناتهم من الفقر كانوا بمثابة كنوز حقيقية، ومن بينهم كان الشاعر «غالب» والذي كتب فيما بعد عندما اغْتِيل «فريزر»: «أحسُّ مجددًا بمرارة فقد الأب».

تخلى «فريزر» عن أكل لحم الخنزير ولحم البقر حتى يتمكن من مشاركة طاولته مع ضيوفه من الهندوس والمسلمين على حد سواء. كما ارتدى الملابس المغولية، وعاش بتفاصيل حياة المغول نفسها. وسرعان ما اكتسب سمعة مصاحبة ذوي اللحى الرمادية في دلهي، والذين كانوا جميعهم تقريبًا مسلمين من أصول مغولية من الطبقة النبيلة المحطمة في البلاط الملكي. كما كتب الرحالة الفرنسي وعالم النبات «فيكتور جاكمونت»: «كان «فريزر» نصف آسيوي ونصف اسكتلندي في عاداته، رجل ممتاز يتمتع بأصالة فكرية عظيمة، ومتعمق في مجال ما وراء الطبيعة. ربما كان أسلوب حياته هو ما جعله أكثر معرفةً من أي أوروبي آخر بعادات السكان الأصليين وأفكارهم. أعتقد أن لديه فهمًا حقيقيًّا وعميقًا لحياتهم الداخلية، لا يضاهيه إلا قليلون. بدت لغته الهندوستانية والفارسية مثل لغته الأم..» كما كتب «فريزر» نفسه إلى والديه في ٨ فبراير ١٨٠٦، في رسالته الأولى واصفًا دلهي: «حياتي هنا جيدة للغاية، دراسة اللغات ممتعة، وهي المصدر الرئيس لتسْلِيَتي، إلى جانب أطباق دلهي الشهية بالطبع.. كما أقوم بتكوين مجموعة جيدة من المخطوطات الشرقية..».

لم يكن «فريزر» وحده من يتمتع بتلك الحماسة تجاه الحضارة المغولية، فقد كان رئيسه السير «ديفيد أوكتيلروني» مفتونًا أيضًا بثقافة بلاط دلهي. وقد تسبب ولعه الشديد بالشيشة، ورقصة «النوتش» الهندية، والأزياء الهندية، بإزعاج الأسقف «هيبر» عندما التقى الاثنان بالصدفة في براري «راجستان». كان «أوكتيلروني» قد استقبل «هيبر» وهو يجلس على أريكة هندية، ويرتدي بيجامة وعمامة هندوستانية، بينما أمسك بعض الخدم بمراوح من ريش الطاووس من حوله. وفي إحدى جوانب خيمته الخاصة، كانت هناك خيمة

الحريم من الحرير الأحمر حيث ينام حريمه، وعلى الجانب الآخر معسكر بناته، وحول كل ذلك حسب وصف الأسقف المذهول: «قد علَّق قطعة قماش حمراء ضخمة لتسور خيام الحريم عن أعين الغرباء! لقد بَدَا كما لو أنه أمير شرقي في رحلة سفر!».

اشتهر «أوكتيلروني» بأن لديه ثلاث عشرة زوجة، لكن واحدة منهن - وكانت راقصة براهمية سابقة من «بونه» - اعتنقت الإسلام، وأشير إليها في وصيته «حبيبتي «ماهروتون» مبارك نيسا بيجوم»، التي عُرِفت باسم «بيجوم أوكتيلروني»، هي والدة أطفاله الصغار، وتتمتع بالأفضلية على جميع الأخريات، وكانت أصغر بكثير من «أوكتيلروني»، ويبدو أنها كانت لها اليد العليا في علاقتها باللواء الكبير، ولاحظ أحد المراقبين أن جعل السير «ديفيد» هو مفوض دلهي، كان كأنهم وضعوا السلطة في يد زوجته «بيجوم». في مثل هذه الأسر المختلطة، كانت العادات الإسلامية واضحة، ومفهومة، ومحترمة، فعلى سبيل المثال، في خطاب ذُكِر فيه أن مدام «أوكتيلروني» تقدمت بطلب للحصول على إذن للحج إلى مكة. كما إن «أوكتيلروني» فكر في تربية أبنائه كمسلمين، وعندما كبر أبناؤه من «مبارك بيجوم»، تبنَّى طفلة من أسرة من الطبقة النبيلة في «لوهارو»، وهي إحدى العائلات المسلمة الرائدة في دلهي.. تربت الفتاة على يد «مبارك بيجوم»، وتزوجت في النهاية من أحد أنسبائها، ابن شقيق «غالب». بالإضافة إلى أوكتيلروني كان هناك بعض الأسر المختلطة من المقيمين البريطانيين، ففي المنطقة المجاورة في دلهي كان هناك عدد من السلالات الحاكمة الذين حاولوا أيضًا بدرجات متفاوتة النجاح في سد الفجوة بين الإسلام والمسيحية، وبين ثقافة المغول وثقافة البريطانيين.

كان آل «سكينر» من بلدة «هانسي»، وآل «جاردنر» من «خاص جونج»، والدائرة المحيطة بآل «بيجوم سومرو» من «سردانا»، كانوا ينحدرون من مجموعة مرتزقة أوروبيين تزوجوا في القرن الثامن عشر من النخبة المغولية في دلهي وطوَّروا أسلوب حياة هجينًا، مما شكل نوعًا ما المنطقة الأنجلو - مغولية/ الإسلامية - المسيحية التي تفصل بين العالم المغولي في البلاط وعالم المقيمين الإنجليز. اعتنقت جميع السلالات الثلاثة اسميًّا الديانة المسيحية، بينما كانوا يتحدثون الفارسية والهندوستانية بشكل رئيس، ويعيشون بأسلوب مغولي مسلم بالكامل تقريبًا. وقد يكون اندماج الحضارات هذا مُربكًا في بعض الأحيان. فقد تزوج الأمريكي المولد «وليام لينيوس جاردنر» من سيدة من كامباي بينما تزوج ابنه «جيمس» من «مختار بيجوم»، ابنة عم «ظَفَر» مباشرة. أنجب كلاهما سلالة أنجلو - مغولية، والتي كان نصف أفرادها مسلمين والنصف الآخر مسيحيين.. في الواقع، يبدو أن بعضهم، مثل «جيمس جهانجير شيكوه جاردنر»، كان ينتمي لكلتا الديانتين في الوقت

نفسه. في عام ١٨٢٠، جاءت سيدة «جاردنر» لدلهي للتفاوض على تحالف زواج أحد أبنائها من أسرة «بيجوم سومرو»، مستخدمين السير «ديفيد أوكتيرلوني» وسيطًا.. كتب «ويليام جاردنر» لابن عمه: «أعتقد أن «جيمس» - الابن الأكبر لـ«جاردنر» - سيوقع عقد الزواج في العيد القادم، لكن لا أستطيع أن أقول شيئًا مؤكدًا لأنني لست مشتركًا في هذا الأمر. لكن ما لاحظته هو تنقُّل الخصيان وكبار السن يوميًّا بين الأسرتين، الشي الوحيد الذي تدخلت فيه هو الاعتراض على حضور العائلة المالكة بأكملها الزفاف لأنني لا أستطيع تحمل تكلفة هذا..»

وفي النهاية، عندما بدا أن كل شيء رُتِّب، حدثت حالة وفاة في حاشية «بيجوم سومرو»، التي لم تتردد في إعلان أربعين يومًا للحداد على الطريقة الإسلامية.. وقد قال أحد أفراد عائلة «جاردنر» بضيق متزايد: «لقد اعتقدتْ «بيجوم» العجوز أنه من الأفضل للميت أن تُقام مراسم حداد مكلفة للغاية ومملة، وكانت تطعم كل دلهي إلى جانب ضرب نفسها، وأتوقع أن يكون السيد «ديفيد» حكيمًا فيقنعها بخلع ملابس الحداد في نهاية الـأربعين يومًا!» عرض أوكتيرلوني مساعدته على النحو الواجب في طقوس الحداد، لكنه أخبر صديقه أن «بيجوم سومرو» العجوز والمتحولة للمسيحية، تمزج عادات المسيحيين مع عادات الهندوستان الإسلامية، لدرجة أنه على الرغم من حرصه على فعلٍ ما من شأنه إرضاء السيدة العجوز، فإنه ببساطة لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل! لم تكن الطريقة التي بدأ بها المتحولون للمسيحية التمسك بإصرار بعادات المغول القديمة بالضرورة تناسب أذواقهم جميعًا. وقد وجد الأب «أنجيلو دي كارافاجيو»، وهو الراهب الذي أُرسِل إلى آل «بيجوم سومرو»، إنه صراع خاص.. كتب إلى رؤسائه في روما: «شهدت خلال السنوات الأربع التي قضيتها في سردانا بناء كنيسة ومنزل، وبما أنني كنت غير قادر على جعلهم يتخلون عن العادات الإسلامية، ولم أر فرصة لتغيير هذا، فقد اتخذت قرارًا بتكريس نفسي لتعليم الأطفال. ونظرًا لأن - وعلى الرغم من كل جهودي المضنية - المسيحية لم تؤثر على عادات أولئك المسلمين، فقررت العودة في النهاية إلى بلدة «أجرا» مصطحبًا معي الأطفال.»

على النقيض من التدليل اللطيف الذي انتهجه «أنجيلو»، تدخّل «جينينجز» بمهمته المعادية للإسلام في هذا المشهد الهجين بشكل ساحق وكان هذا شيئًا جديدًا تمامًا، وقد غيّر الجو بشكل كبير. وجوده قوَّض آمال أولئك الأفراد من النخبة المغولية الذين سعوا إلى خلق علاقة عمل مع المسيحيين، بالإضافة إلى الأحكام المسبقة لأولئك الذين جادلوا طوال الوقت ضد أيَّة محاولة في السكن مع أولئك الكافرين. في حين كان هناك عديدٌ من المبشرين الآخرين يتوافدون إلى دلهي في أوائل القرن التاسع عشر، يقدمون المواعظ،

والمناظرات، ويوزعون المنشورات، لم يتبن أي منها نهج المواجهة الصارخة مثل «جينينجز». في تقريره الأول لجمعية نشر الإنجيل، تحدث «جينينجز» عن استمتاعه بالاستيلاء على ٢٦١ مسجدًا في دلهي و٢٠٠ معبد، ولم يخفِ استعداده علانية لمهاجمة الإسلام ورسوله! كما لم يكن لدى المبشرين الأوائل الدرجة نفسها من المساندة الرسمية مثل «جينينجز»، الذي كان له، من بين آخرين، مساندة حاكم المقاطعات الشمالية الغربية ومفوض «بنجاب» في لجنة مهمته. بصفته قسيسَ دلهي، حصل أيضًا على راتبه وترتيبات سفره مدفوعة من قبل الدولة. علاوة على ذلك، وصل «جينينجز» إلى دلهي في وقت كان فيه المسلمون والهندوس يشعرون بالقلق بشكل متزايد من الدرجة التي وصل إليها البريطانيون في استخدام قوتهم الجديدة لكبح ما كان في السابق يعدُّ أنشطة دينية مشروعة، وصاروا بدلًا من ذلك يقومون بنشر الديانة المسيحية بكل عدوانية وتعزيزها بشكل غير مبالٍ.

كان قد حُظِرت مراسم «ساتي»، أو حرق الأرامل الهندوس أحياء بعد وفاة أزواجهن، في عام ١٨٢٩، مما أثار قلق عديدٍ من الهندوس الأرثوذكس؛ وأُصدر قانون آخر يسمح بإمكانية زواج أرامل الهندوس من جديد مما أرعب كثيرين. ومنذ ذلك الحين أُثِيرت عديد من القصص حول طرق استخدام البريطانيين لدور الأيتام الحكومية لتبشير الأطفال اليتامى، وهو اتجاه وجد ما يؤكده في التشريع الذي قُدِّم في عام ١٨٣٢، والذي - على الرغم من هذا - يسمح لهم بوراثة ممتلكات الأجداد، وهو شيء تحرمه الشريعة صراحة. كانت هناك أيضًا مزاعم أنه بمساعدة المشرف على سجون المنطقة الذي كان أيضًا عضوًا في لجنة «جينينجز». سُمِح للتبشريين بحرية التبشير للمسجونين بتهم ليست خطيرة للغاية. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل ازداد خطورة بما حدث في هندوستان بعد غزوها من البريطانيين وعدها مستعمرة بريطانية، حيث صُودِرَت خزائن عدة مئات من المعابد والمساجد والمدارس الدينية والأضرحة الصوفية، بمجموعة متنوعة من الذرائع. ولم تسهم المستندات التي قدمها المنتفعون في إثبات حقوقهم، ومن بين الأراضي المنتزعة كان على الأقل هناك تسعة مساجد أثرية في دلهي.

كانت هناك حالات أخرى حيث هدمت الدولة معابد ومساجد مبجَّلة لشق الطرق، وهو الأمر الذي أزعج بشكل خاص عالم الدين المبجل «شاه عبد العزيز». كما اقتُلِعت الأراضي من المساجد ومنحها للمبشرين ليستغلوها في بناء الكنائس؛ وفي أحيان أخرى، بانعدام أدنى حدود الإحساس، مُنِح بعض المبشرين ورجال الدين المسيحيين العاديين مساجد مصادَرَة أو مدمرة للعيش فيها! على الرغم من أن المبشرين بشكل عام كانوا غير ناجحين بشكل ملحوظ في اصطياد من يجعلونهم يحولون دينهم في شمال الهند، فقد كان جو الشك الذي وُلد بسبب الرهاب التبشيري المتزايد جعل حتى مبادرات

البريطانيين الأبرياء مثيرة للقلق؛ حيث أدى بناء مستشفى في سهرانبور بشمال دلهي إلى موجة من الريبة من أن البريطانيين كانوا يريدون إلغاء نظام البُردة «الحجاب الهندي»، لأنهم طلبوا من النساء المحجبات الذهاب إلى هناك بدلًا من العلاج في المنزل كما هو المعتاد. على المنوال نفسه، اعتُبرت جميع المدارس والكليات البريطانية أجهزة سرية للنشاط التبشيري. لم يكن من قبيل المصادفة أنه في عام ١٨٥٢، وهو عام وصول «جينينجز» إلى دلهي ظهرت العلامات الأولى للهجوم الفكري المضاد من قِبَل علماء دلهي.

في هذا العام كتب الشيخ العلامة «رحمة الله قيرناوي» كتيِّبًا دينيًّا صغيرًا انتشر على نطاق واسع، وهو «إزالة الأوهام»، وفيه قدم دفاعًا واضحًا جدًا عن الإسلام وهجومًا على الكتاب المقدس والتناقضات والتحريف في الأناجيل المسيحية، المستندة جزئيًّا إلى نتائج علماء الكتاب المقدس الألمان الجديدة. كما أوضح الشيخ: «لم يكن المسلمون لوقت طويل يولون اهتمامًا إلى الاستماع إلى مواعظ المبشرين ودراسة كتبهم ومنشوراتهم، لذلك لم يعر أي من العلماء الهنود أي اهتمام لدحض هذه الكتيبات. ولكن بعد مرور بعض الوقت، بدأ بعض الناس يضعفون، وصار بعض الأميين المسلمين في خطر التعثر. لذلك بعض علماء الإسلام كان عليهم المواجهة لتحويل انتباههم إلى تفنيد ما عندهم من شكوك..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المواقف الجديدة للإنجيليين مجرد جزء من الغطرسة المتزايدة من جانب البريطانيين الأقوياء. منذ نجحوا أخيرًا في قهر السيخ في عام ١٨٤٩، ووجد البريطانيون أنفسهم أخيرًا أسياد جنوب آسيا حيث انتصروا على خصومهم العسكريين «سراج الدولة» في البنغال في ١٧٥٧، والفرنسيين عام ١٧٦١، و«تيبو» سلطان «ميسور» عام ١٧٩٩، ومملكة «الماراثا» عام ١٨٠٣، ومرة أخرى أخيرة في عام ١٨١٩، ولأول مرة كان هناك شعور أنه ليس هناك لدى البريطانيين ما يتعلمونه من الهند من الناحية التكنولوجية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ولكن لديهم كثيرًا لتعليمه لهم، فلم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى ظهرت الغطرسة الإمبراطورية. هذه الغطرسة، التي اقترنت بظهور المسيحية الإنجيلية، فجاءت لتؤثر على جميع جوانب العلاقات بين البريطانيين والهنود. كانت كلية دلهي مدرسة أكثر من كونها جامعة غربية أعيد تشكيلها من قبل الدولة عام ١٨٢٨، لتقدم - بالإضافة إلى دراساتها الشرقية - تعليم اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي بهدف الارتقاء بمن تراه لجنة الكلية الجديدة الآن على أنه «النصف الجاهل والبربري من شعب الهند». وكان يقف وراء هذه الخطوة «تشارلز تريفيليان»، صهر «توماس بابينجدون ماكولاي» وتلميذه، وهو «ماكولاي» نفسه صاحب المقولة الشهير

بأن: «رف واحد بمكتبة أوروبية جيدة يضاهي كل الأدب الهندي وأدب الجزيرة العربية مجتمعين، حيث إن المعلومات التاريخية التي جمعت من جميع الكتب المكتوبة باللغة السنسكريتية أقل قيمة من أبسط الاختصارات المستخدمة في المدارس الإعدادية في إنجلترا.. أما لغات أوروبا الغربية وروسيا العريقة، فلا شك عندي في أنهم سيفعلون باللغة الهندية ما فعلوه بلغة التتار!»

يضع «تريفيليان» الآن مثل هذه الآراء موضع التنفيذ في كلية دلهي، معلنًا أن: «الجوهر النقي للأدب الإنجليزي فقط هو ما بوسعه إحراز تقدم ضد ما لا يمكن اختراقه من حواجز التقاليد والتعصب المدعومين بالشعور الديني.» بعد ذلك بوقت قصير، في عام ١٨٣٧، ألغى البريطانيون اللغة الفارسية كلغة للحكومة واستبدلوها باللغة الإنجليزية. من حينها، صار من الواضح أن البريطانيين هم من يضعون خططَ الحياة وستسير الأمور بالهند كلها حسب أذواقهم وتقاليدهم وأحكامهم. لكن الهنود الذين تلقّوا تعليمهم في الكلية البريطانية الجديدة اكتشفوا أن ذلك لم يُحسن معاملة البريطانيين لهم إلا قليلًا. بحسب أقوال «موهان لال كشميري»، الذي كان تلميذًا في الدفعة الأولى من الطلاب الذين درسوا في كلية دلهي الإنجليزية: «لقد آلمتنا الطريقة المتعالية والازدراء الذي عاملنا به السادة الإنجليز، فجُرِحت قلوبنا وأجبرنا ذلك على نسيان حسنات الحكم البريطاني.». وأضاف كَلمة تحذير: «ربما يمكنك سحق الجماهير وإبقاؤهم في حالة من الرهبة بالقوة، ولكن حتى تتمكن من غزو قلوبهم وكسبها لصفك، لن تجد طريقًا أسهل من السلام والمودة.».

وبالعودة إلى المغول البيض الذين حاولوا ربط الثقافتين، فقد تسبب التغيير في نبرة التعامل والوقاحة المتزايدة من البريطانيين في إحباطهم. كان «ويليام جاردنر» مندمجًا بعمق ومعجب بثقافة بلاط المغول المتسامحة والمختلطة؛ بالنسبة له، فإن محاولات المبشرين مثل «جينينجز» لفرض عاداتهم ودياناتهم في الهند الرافضة للتبشير بالقوة كانت مرعبة بقدر ما كانت متعذرة التعليل. كان منزعجًا بشكل خاص من الدرجة التي فقد بها البريطانيون الاتصال مع الرأي العام الهندي. كما كتب لابن عمه عدة مرات، أن البريطانيين فشلوا في التواصل المعرفي مع المواطنين، لدرجة أنهم تساووا في عين أهل البلاد مع أسوأ حكومة مرَّت بهم في أي وقت مضى. شاركه «أوكتيلروني»، والذي وصل إلى سن الشيخوخة، القدر نفسه من تخوفه من الطريقة التي يتعامل بها زملاءه الأصغر سنًّا مع الإمبراطور وحاشيته من العائلة: «إن منزل آل «تيمور» يحظى بأقلِّ قدر من الاهتمام ويغرقونهم في حالة من الازدراء.. أخشى أننا لا نكسب كثيرًا من الشعبية في نظر السكان الأصليين من خلال هذا التدهور الملحوظ.»

عندما كانت «فاني باركس» في دلهي، تواصلت مع أميرة عجوز كانت ابنة عم لآل «جاردنر» في زنانة «بيت الحريم» بالقلعة الحمراء. في بداية الهيمنة البريطانية، كانت مثل هذه الزيارات روتينية وعادية، ولكن بحلول أواخر الأربعينيات من القرن التاسع عشر، كان رد فعل المجتمع البريطاني في دلهي هو الاستنكار الشديد. وكتبت «فاني» بعد ذلك: «سمعت أنه أُلقِيَ اللوم على كثيرٍ بسبب زيارتي للأميرة.. انظر إلى الفقر المدقع لهؤلاء المنحدرين من نسل الأباطرة! بالماضي كانت سلاسل اللؤلؤ والمجوهرات الثمينة توضع على أعناق الزوار المغادرين. عندما وضعت الأميرة «حياة النساء بيجوم» بعدما فقدت ثرواتها إكليلًا من أزهار الياسمين البيضاء التي جُمعت حديثًا فوق رأسي، انحنيت باحترام كبير كما لو كانت ملكة الكون، قد ينظر الآخرون إلى هؤلاء الناس بازدراء، لكنني لا أستطيع.. انظر إلى أصلهم وإلى ما لديهم الآن أيضًا. ذات يوم تحدث رجل نبيل معي عن إسراف أحد الأمراء الشباب، وذكر أنه كان دائمًا مُدانًا، ولا يمكنه العيش معتمدًا على مخصصاته فقط. كانت مخصصات الأمير تبلغ اثنتي عشرة روبية في الشهر! ليس أكثر من أجر رئيس خدم أوروبي».

بحلول أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر، قلَّ عدد المغول البيض مثل «فريزر» و«جاردنر» و«أوكتيرلوني» وصاروا نادري الوجود تمامًا؛ وبدأ نمط حياتهم الاندثار.. وتظهر سجلّات الوصايا لـمسئولي الدولة أنه في هذا الوقت انحدر عدد الزوجات الهنديات أو العشيقات اللاتي يتم ذكرهن من الظهور في واحدة من كل ثلاث وصايا في الفترة ١٧٨٠ - ١٧٨٥، صارت العشيقات يظهرن في واحد من كل أربع وصايا.. بين ١٨٠٥ و١٨١٠، وبحلول عام ١٨٣٠ صارت واحدة من كل ست؛ وبحلول منتصف القرن، اختفين جميعًا. سرعة تدهور مثل هذه العلاقات تفوق بكثير سرعة وصول النساء البيض من بريطانيا، اللواتي ازداد عددهن بشكل كبير بعد ذلك. ويرجع ذلك إلى تغيير نمط التوظيف داخل شركة الهند الشرقية، فالإصلاحات التي أدخلت على الخدمة المدنية عام ١٨٥٦ تعني أنه بدءًا من عام ١٨٥٧ بدأ المدنيون التخرُّج في منتصف العشرينيات من العمر، بعد خوض اختبارات ما بعد الجامعة، وبحلول ذلك الوقت غالبًا ما يكون قد وصل الشاب البريطاني إلى الهند وهو متزوج بالفعل؛ في المقابل، في الفترة التي تسبق هذا كان على الشباب التقدم للانضمام لجيش شركة الهند الشرقية قبل عيد ميلادهم السادس عشر، وبالتالي يصلون وهم لا يزالون في مرحلة الشباب وغير مرتبطين.. لذلك لا يمكن إلقاء لوم نسب التغيير على المقيم صاحب «وفود السيدات البيضاوات»، كما يلقَّنُ الأطفال في المدارس.

وبحلول أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان الإنجليز الذين اتخذوا زوجات أو عادات الهندية قد صاروا فجأة مثارًا السخرية. وبحلول منتصف القرن

التاسع عشر كان هناك نمو للسخرية من موظفي شركة الهند الشرقية الذين يتركون شواربهم تنمو، ومن يرتدون العمائم ويقومون بتقليد المسلمين. كانت البيجاما رداءً شائعًا في «كالكوتا» و«مدراس»، وفي القرن الثامن عشر أصبحت شيئًا ينام فيه الرجل الإنجليزي لأول مرة، بدلًا من شيء كان يرتديه في أثناء النهار. كما قدمت جريدة «دلهي جازيت» الموضوع في عدد بعام ١٨٥٦: «بعض شباب الإنجليز يأتون إلى الهند في وقت مبكر جدًّا من حياتهم، ومع مرور الوقت يصبحون هنودًا بشكل كامل، لا يختلفون عن السكان الأصليين من المسلمين، يشابهونهم في العادات والمشاعر ويفقدون مظاهر نمط الحياة الأوروبي، فيختارون رفاقهم واتصالاتهم من بين المسلمين للعيش بينهم، ويعيشون حياتهم متبعين قواعد الحياة الإسلامية، ويعتنقون - سواء أكان علنًا أم سرًا - عقيدة الإسلام، ويتوقفون عن إبداء أي اهتمام بالمسيحية بأي حال من الأحوال.. في كثير من الأحيان كانوا رجالًا يتمتعون بقدرات فائقة واعتقدوا أن إلمامهم بأساليب السكان الأصليين، ربما يكون قد مهد الطريق لنجاحات أثبتت فشلها فيما بعد. على أيَّة حال، هذا الوقت قد مضى، ويجب أن نحرص على عدم تضليل آرائهم، مهما كانت تستجدي مهامهم الحياتية. لأنه من الواضح الآن أن التأثير العملي الحالي لمثل هذه الفئة، وهي فئة تندثر بسرعة، ليس إلا تأخيرَ تقدم المعرفة في الهند، لتحريض المواطن على تمسكه بطرقه القديمة والأفكار القديمة عن مبادئ التحفظ الشرقية، ومعاداة كل ابتكار جديد..»

وبينما هو مستقرٌّ بأريحية في غرفته في القلعة الحمراء، كانت أفكار الأب «جينينجز» تتضح أكثر داخل عقله، بخصوص أنه يمثل القوة الجديدة للتخلص من مثل هذه التصرفات الفاسدة أخلاقيًّا. وسرعان ما انضم إليه اثنان من المساعدين صغار السن، تعلم أحدهم الأوردية والفارسية بهدف استهداف المسلمين، بينما تعلم الآخر اللغة السنسكريتية، مستهدفًا الهندوس. ومعًا حققوا كل مخاوف وشكوك نخبة دلهي عندما بدأت فصول دراسية سرية لدراسة الكتاب المقدس في كلية دلهي بشكل رسمي. ولعدة أشهر، كان هناك غياب ملحوظ لعمليات التبشير، وتزايد العداء ضد محاولات «جينينجز» لفعلها، ثم في يوليو ١٨٥٢، أي بعد أربعة أشهر من زفاف جيوان بخت، قام «جينينجز» بانقلاب كبير؛ إذ أعلن اثنان من الهندوس البارزين في دلهي، وهما الدكتور «شامان لاي»، أحد أطباء «ظفر» الشخصيين وصديقه السيد «رامشاندرا»، وهو محاضر موهوب في الرياضيات في كلية دلهي، أعلنَا عن رغبتهما في التحول للمسيحية. كان «جينينجز» حريصًا جدًّا على إتمام الأمر، ورتب لتعميدهما في حفل عام وكبير للغاية في كنيسة القديس «جيمس» يوم الأحد ١١ يوليو. كما كتب «جينينجز» إلى جمعية نشر الإنجيل بعد ذلك، في تقرير مليء بالرِّضا عن النفس، أنه الإنجاز الأكبر في ميدان الجهود

التبشيرية، فالرجلان لديهما عديدٌ من العلاقات في دلهي ولهما تقدير ومكانة، وبالتالي تسببت المعمودية في إثارة جدل كبيرة في جميع أنحاء المدينة، جعلت جميع السكان الهندوس يتجمعون حول الكنيسة يوم الأحد مساءً، وقد حاوطهم الجنود تحسبًا لحدوث أي مشكلات، لكن لم تحدث ضجة فورية، على الرغم من أنه كان هناك، لعدة أيام تالية، أحداث مثيرة في جميع الأنحاء.

حيث نقلت الأسر المتحفظة أطفالها بسرعة من كلية دلهي حيث عمل السيد «رامشاندرا». وفي الوقت نفسه، حتى العلماء المسلمون الموالون لبريطانيا بدأوا التفكير الآن بشكل متزايد في أساليب السيادة المسيحية المتشددة. وكان أحد هؤلاء العلماء هو المفتي «صدر الدين أزوردا»، الصديق المقرب لـ«ظفر» و«غالب»، والذي لعب دورًا مهمًا كجسر بين البريطانيين والنخبة المغولية في الأيام الأولى للهيمنة البريطانية في دلهي، والصديق المقرب للسير «ديفيد أوكتيلروني». لمدة ثلاثين عامًا وازن «أزوردا» بين مكانته رئيسَ المحكمة الإسلامية في دلهي، وبين مكانته شخصيةً أدبية بارزة، ومفتيًا في المحكمة كذلك، مع إعجاب معتدل بالحضارة الإنجليزية: وبصفته وسيطًا بين الجانبين، أفتى بأن التوظيف في شركة الهند الشرقية كان مشروعًا تمامًا في شريعة المسلمين، وأن أيَّة فكرة عن الجهاد ضد البريطانيين كانت غير مناسبة تمامًا بما أن البريطانيين كانوا يسمحون بالحرية الدينية الكاملة. أما الآن، فحتى «أزوردا» بدأ الشكُّ حول جدية الاتجاه الذي كانت تتخذه السياسة البريطانية، وبدأ بهدوء يُثني طلابه في كلية دلهي عن الالتفات إلى عمليات التبشير. ثم كان هناك آخرون أكثر تحديًا وصراحة، بحسب أحد المبشرين: «تمنى المسلمون بكل سرور لو يقومون بإسقاط الإنجليز عن الحكم.. قالوا لنا بوضوح: «إن لم تكونوا أنتم الحكام، لكنا قد أسكتنا كل مواعظكم الفارغة هذه، ليس بالحجج ولكن بالسيف!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مثلما كان المسيحيون المتشددون قوة متنامية بين البريطانيين في أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر، كان هناك تنامٍ موازٍ بين مسلمي دلهي المتشددين، وهي الحركة التي أظهرت اليقين المطلق نفسه وازدراء الأديان الأخرى، ورغبة مماثلة في استخدام القوة ضد الكفار. فإذا كان المُشرع العظيم «ويليام ويلبرفورس» وطائفة «كلافام» قد ساعدوا على انتشار المواقف الإنجيلية الأصولية بالديانة المسيحية الإنجليزية، ففي الجانب الإسلامي كان رائد الإصلاح الإسلامي الراديكالي هو «شاه ولي الله»، وهو رجل من مسلمي دلهي، قد ذهب للدراسة في المدينة المنورة بالحجاز في القرن الثامن عشر، أي الوقت نفسه مع ابن «عبد الوهاب»، مؤسس الوهابية العربية. وقد لا يوجد دليل على أن هذين الاثنين التقيَا وقتها من الأصل، لكنهما كانا يشتركان في نظام ديني وفكر متطابق تقريبًا، وعندما عاد «شاه ولي

الله» إلى الهند، أعلن الحرب بسرعة على ما اعتقد أنه ممارسات وتفسيرات منحرفة للإسلام في دلهي. عارض «شاه ولي الله» وأبناؤه - ولا سيما «شاه عبد العزيز» صديق «ويليام فريزر» - بشدة شيوخ المذهب الصوفي، والذي شبهوه بعبادة الأصنام، وكانوا صريحين بشكل خاص حول الممارسات الدينية التي يُعتقد أن المسلمين الهنود قد التقطوها من جيرانهم الهندوس مثل الحج إلى الأماكن الهندوسية المقدسة، واستشارة المنجمين الهندوس، وثقب أنوف النساء لوضع أقراط الأنوف، ووضع مصابيح الإنارة على المقابر، وتشغيل الموسيقا في الأماكن المقدسة، والاحتفال بالمهرجانات الهندوسية. حتى الأكل على أوراق شجر الموز حُرِّم! كانت أفكار الشاه تقتضي تحريم كل اختراعات وابتكارات غير المسلمين، والتأكيد بدلًا من ذلك وبصرامة على اللجوء لكتاب الله، القرءان الذي ينُص على توجيه الصلوات إلى الله فقط، وليس من خلال أي وسيط أو شيخ. ولإيمانه بأن العقل البشري غير قادر على الوصول إلى الحقيقة الإلهية بمفرده، أكد «شاه ولي الله» على أهمية الوحي الإلهي، وحثَّ على العودة إلى نص القرآن والأحاديث الشريفة، ومن أجل جعل تلك نصوص متاحة بسهولة لجميع الناس، ترجم الشاه القرآن إلى الفارسية، بينما قام أبناؤه في وقت لاحق بترجمته إلى الأردية ونشروا الترجمتين من خلال مطابع نيودلهي. ومثل الوهابيين، عارض «شاه ولي الله» ما عدَّهم الحكام المسلمين الفاسدين في عصره، ومن معقل عشيرته في المدرسة الرحيمية، قام هو وأبناؤه وأحفاده بتشجيع شعب دلهي على تحدي ما عدَّه الانحطاط المغولي وعدم التصرف مثل «الجمال ذات أقراط الأنوف». كانت كراهية «شاه ولي الله» للمغول دينية بقدر ما كانت سياسية. على مدى أجيال، تزاوج أباطرة المغول مع الهندوس - ويُعد «ظَفَر» نموذجًا مثاليًّا لهذا الخليط، بما أن أمه من طائفة «الراجبوت» - وقد قاد التسرب البطيء للأفكار الهندوسية وعاداتهم من الحريم إلى باقي القصر، وجعل أباطرة المغول فيما بعد يعتنقون بشكل متسامح الإسلام الصوفي، متوائمين تمامًا مع العقيدة الشيشتية المتحررة ([16]) التي عدها أصوليون كثيرون وإن كانوا لا يتفقون مع وجهات نظر «شاه ولي الله» المتشددة، ممارسات تقترب من الكفر.

في الإسلام الوهابي، خُلق العباد فقط لعبادة الله علاقة تبعية يكون فيها الله هو السيد والمرء هو العبد. هذه العلاقة واضحة جدًّا؛ إذا كنت تعبد الله بالطريقة الصحيحة ستُثاب يوم القيامة بالجنة.. وإذا لم تفعل، فسوف تذهب إلى الجحيم. رفض الأمراء الشعراء ذوو العقلية الصوفية من البلاط المغولي ودائرتهم من نخبة أشراف دلهي هذه الفكرة بالكامل.. لقد جادلوا بدلًا من ذلك بأن الله يجب أن يُعبد ليس لأننا مرغمون على هذا خوفًا منه ولكن تحببًا فيه. وانطلاقًا من هذا، كان أيَّ شخص قادرٌ على التعبير عن حبه بالطريقة

التي يريدها، وتلك القدرة تجاوزت الجماعات الدينية، والجنس «ذكر أو أنثى»، أو الوضع الاجتماعي. وكانت ممارسة شعائر الإسلام الصوفي بحماسة شديدة في البلاط، سببًا في إشاعته في جميع أنحاء المدينة، مما جعل العلماء المتشددون يضيقون ذرعًا بدائرة البلاط.. كانت زيارات الأضرحة الصوفية القديمة في دلهي - التي يقدسها في ذلك الوقت كما هي الحال الآن الهندوس في دلهي بقدر ما يفعل مسلمو دلهي - حدثًا أسبوعيًّا يتكرر في سجلات البلاط في عهد «ظَفَر»، ويفوق عدد مرات أي ذكر لزيارة المساجد. كما منح «ظَفَر» عطاياه بسخاء لحراس الضريح في أي وقت يظهرون فيه في البلاط، ويدفع مقابل وضع الزهور على مقابر الشيوخ، وهو الفعل الذي رفضته مدرسة «شاه ولي الله» بشدة. في الواقع، كان «ظفر» نفسه يُعتبر شيخ طريقة صوفية، وكان يأذن للتلاميذ أو المريدين بالذكر. إلى حد وصفه من قِبَل جريدة أخبار دلهي بالأردية الموالية للمغول، بأنه «واحد من كبار شيوخ هذا العصر، وبموافقة البلاط الملكي..»، بل إن «ظفر» ارتدى الملابس الملائمة لهذا الوصف، وفي شبابه، قبل توليه العرش، كان يعيش ويبدو وكأنه شيخ فقير ودرويش، في تناقض صارخ على وجه الخصوص مع ثلاثة من إخوته الأصغر سنًّا، «ميرزاس جهانجير»، و«سليم» و«بابور»: «كان يبدو وكأنه يائس المظهر والمكانة، بشكلٍ أقرب إلى الدناءة.» كان هذا ما ذكره الرائد «آرتشر» في عام ١٨٢٨، عندما كان «ظفر» في الثالثة والخمسين من عمره، وما زال أمامه عقدٌ كاملٌ قبل خلافة العرش. «كان يبدو متواضعَ المظهر كموظف أو مدرسَّ لغات!»

اتخذ تصوف «ظفر» شكلين مختلفين للغاية؛ الشكل الأول شاعرًا ودرويشًا، تشرب أدق التفاصيل للكتابة على الطريقة الصوفية. لكن الشكل الآخر، كان رجلًا أكثر عرضة للتأثر بالجانب الخرافي واللامنطقي لمظاهر الإسلام الشعبي.. بدا أنه يعتقد، على سبيل المثال - كما فعل عديد من شعبه - أن موقفه كشيخ طريقة صوفي وإمبراطور أعطاه قوى روحانية مبهرة. حتى إنه حين لدغ أحد حاشيته ثعبان، حاول علاجه بـ«ختم البازهر» [ترياق للسم] وبعض الماء الذي تنفس «ظفر» بداخله، وأعطاه للرجل ليشرب. كان لدى الإمبراطور أيضًا إيمانٌ كبيرٌ بالتعاويذ والسحر، خاصة كمُلَطِّف لشكواه الدائمة من البواسير، أو لدرء تعاويذ الشر بعيدًا.. خلال إحدى فترات المرض، جمع مجموعة من قادة الصوفية وأخبرهم بأن عديدًا من «البيجوم» أي «السيدات المسلمات من ذوات المرتبة الرفيعة» تشتبهن في أن خصمًا ما ألقى تعويذة عليه.. لذلك طلب منهم اتخاذ بعض الخطوات لإزالة كل المخاوف المتعلقة بهذا الشأن، فكتبوا بعض التعاويذ السحرية لجلالته، والتي توجب خلطها في الماء ليشربها وتحفظه من كل شر!

كان مثل هؤلاء السحرة والمنجمين الهندوس يحضرون باستمرار لزيارة الملك، وبناءً على نصائحهم كان يضحَّي بانتظام بالبهائم والجمال، ويقبض على مَن يخبره منجموه أنهم من السحرة السود، وكذلك كان يرتدي خاتمًا خاصًّا لعلاج عسر الهضم. وبناءً أيضًا على نصائحهم، كان يتبرع بانتظام بالأبقار للفقراء، والأفيال للأضرحة الصوفية، كما تبرع بحصان إلى خادم المسجد الجامع. ومع ذلك، كان شِعر «ظفر» مثل كثير من القصائد التي تعود لتلك الفترة، مشبَّعًا بعمق بمُثُل الحب الصوفية التي كانت تُعتبر الطريق الأضمن إلى الله الذي عُرف أنه ليس في السماوات، ولكن في أعمق أعماق قلب الإنسان. لأنه إذا امتلأ القلب بالصوفية، فإنه يشكل حجر الزاوية للشكل الأدبي للغزل الذي اشتهر في دلهي المغولية، واشتق اسمه من الكلمات العربية التي تعني «مغازلة امرأة بحب»، والحب المذكور في الغزليات كان غامضًا نوعًا ما.. ونادرًا ما كان واضحًا بالكامل إن كان الحب الذي يشير له الشاعر هو الحب الإلهي أم الدنيوي. كان هذا الغموض متعمَّدًا، لأنه كان يُعتقد أن شوق الروح للاتحاد مع الله هو شعور قوي وروحاني ومالك زمام الروح مثل حنين الحبيب إلى حبيبه، يمكن لكِلا الحُبَّيْن أن يحملا المرء إلى نقطة الجنون أو ما يسميه الصوفيون «الفناء» - إبادة الذات والاحتجاب داخل المحبوب. في نظر الشعراء الصوفيين، هذا البحث عن الله في الداخل يحرر المريد من قيود الإسلام المتشدد الضيقة، ولتشجيع المتعصبين على النظر إلى ما وراء تفسير الشريعة إلى جوهرها الروحاني.. كما قال «غالب» للمتشددين: «إن موضوع عبادتي يقع خارج نطاق الإدراك؛ بالنسبة للرجال الذين ينظرون للكعبة على أنها مجرد بوصلة لا أكثر.. انظر بشكل أعمق، أنت فقط من لا تستطيع سماع موسيقا أسرارها.»

مثل عديدٍ من معاصريه في دلهي، تمكَّن غالب من كتابة شعر ديني عميق، ومع ذلك كان مشككًا في تفسيرات الكتب الإسلامية. وبالتالي كانت أشعاره مليئة بالتأمُّلات في الجنة، وقد ذكرها في رسالة إلى صديق: «صحيح أنني - في الجنة - بالفجر سأحتسي النبيذ النقي الذي ورد ذكره في القرآن. ولكن أين في الجنة تلك التمشيات الطويلة مع الأصدقاء المخمورين في الليل، أو حشود السكارى التي تصرخ بمرح؟ أين سأجد هناك تلك الغيوم الموسمية؟ حيث لا يوجد الخريف كيف يمكن للربيع الوجود؟ إذا كانت الحور العين الجميلة موجودة دائمًا، فأين سيكون حزن الفراق وفرحة اللقاء؟ أين سنجد هناك الفتاة التي تَتَمنّع وتهرب عندما نقبلها؟» وبالروح نفسها في شعر «غالب»، مثَّل غالب المتعصبين دائمًا ضيقو الأفق وأرباب نفاق:

الشيخ يحوم حول باب الحانة ناصحًا..

لكن صدقني يا «غالب»..

أنا متأكد من أنني رأيته يتسلل داخلًا..

بمجرد خروجي.

كثيرًا ما يتواجه «غالب» في قصائده مع التفسير الضيق للشريعة من قبل العلماء، في أثناء تدريسهم للطلاب مسائل الحيض ونزيف ما بعد الولادة، فيشك بقدرتهم على الوصول للروحانية الحقيقية، على حد قول «غالب» نفسه: «يتوجب عليكم دراسة الصوفية وكيف يتشرَّب قلب المرء الحقيقة الجوهرية لواقع الله ووجوده في كل شيء من حولنا..». مثل بقية دائرة البلاط، أخذ هذا التوجه «غالب» إلى نهايته الطبيعية. إذا كان الله يكمن في داخل المرء ويمكن الوصول إليه عن طريق الحب بشكل أقوى من الوصول إليه عن طريق الطقوس، إذن فهو في متناول الهندوس كما هو للمسلمين. لذلك في أثناء زيارة لـ«بيناريس»، كتب بطريقته الهزلية أنه يميل للاستقرار هناك للأبد، على حد قوله: «أتمنى لو أترك الإيمان، وأضع بصمة على جبهتي، وأربط خيطًا مقدسًا حول خصري، وأجلس على ضفاف نهر «الجانج» حتى أتمكن من التخلص من دنس الدنيا بداخلي وأصفو كمياه هذا النهر.» وقد شاركه عديدٌ من أسلافه المغول الموقف نفسه من الهندوسية.

من الواضح أن «ظفر» كان واعيًا إلى دوره كحامي لرعاياه الهندوس والمسلمين، متبنيًا وجهة نظر وسيطة بينهما لدرجة جعلت علماء المسلمين المتشددين يتقززون منه. حيث تقول إحدى قصائد «ظفر» صراحةً أن الهندوسية والإسلام «يشتركان في الجوهر نفسه»، وقد عاش بلاطه بناءً على هذه الفلسفة التوفيقية، متخذين مظهر الحضارة الهندوسية الإسلامية على كل المستويات. حيث اعتادت النخبة الهندوسية في دلهي الذهاب إلى ضريح الصوفي «نظام الدين»، واعتادوا الاقتباس من مقولاته، واشتدَّ وَلَعُهم بالشعر الفارسي إذ درس أولادهم - وخاصة أولئك الذين ينتمون لطائفتي «خاطري»، و«كاياثا» - تحت إمرة شيوخ مسلمين، والتحقوا بمدارس متحررة، وقدموا هدايا من الطعام لمعلميهم في المهرجانات الهندوسية.

من جانبهم، اتبع المسلمون الإمبراطور في إبداء الاحترام لرجال الدين الهندوس، بينما اتبع كثيرون من أفراد البلاط، بمن فيهم «ظفر» نفسه، العادة المغولية القديمة، التي استوْحَوْها من الهندوس، بشرب مياه نهر «الجانج» فقط، ونادرًا ما غادر فريق «ظفر» الكبير من المنجمين الهندوس جانبه. تسجل مذكرات البلاط كيف كان «ظفر» يلعب في مهرجان الربيع المدعو «هولي»، فيقوم بنثر الألوان المختلفة على حاشيته وزوجاته ومحظياته، كما كانوا يشاركون الهندوس في الاحتفالات بالاستحمام في مياه سبع آبار. أما بمهرجان الخريف الهندوسي «دوسيرا»، فيتم الاحتفال في القصر بتوزيع الهدايا والنُذُر على ضباط «ظَفَر» الهندوس، وطلاء الخيول في الإسطبل

الملكي. وفي المساء، يشاهد الملك عرض «رام ليلا» - الاحتفال بانتصار الإله الهندوسي «رام» على الشر في شكل الشيطان «رافان» - حيث يتم الاحتفال به سنويًّا في دلهي مع حرق التماثيل العملاقة التي ترمز للشيطان وإخوته. بل إن «ظفر» طلب التغيير في طريق سير موكب «رام ليلًا»، بحيث يلتف حول جناح القصر بأكمله، مما يتيح التمتع بكامل بهائه. وفي «ديوالي»، يقوم «ظفر» بوزن نفسه في مقابل «سبعة أنواع من الحبوب والذهب والمرجان»، قبل أن يقوم بتوزيعهم على الفقراء. تمتلئ مذكرات القصر بالعواقب اليومية الوخيمة التي تعرض لها ظفر نتيجة مشاعره نحو الهندوس، فذات مساء، عندما كان «ظفر» يركب عبر النهر «من أجل رحلة بالهواء الطلق، انتظر رجل هندوسي الملكَ ليلمح إلى رغبته في أن يصبح مُسلمًا.» قال «حكيم إحسان الله خان» رئيس وزراء «ظفر» إنه لن يكون من الملائم تلبية طلبه، وأمر جلالة الملك بضرورة إبعاده عن المكان.

خلال معرض بائعي الزهور، «فولوالون كي سير» والذي يقام سنويًّا في معبد «جوج مايا» القديم وضريح الصوفي «قطب صاحب» في «مهرولي»، أعلن «ظفر» أنه: «لن يصطحب الحاشية إلى الضريح؛ إذ لم يأتوا معه إلى المعبد»، في مناسبة أخرى، عندما حضرت مجموعة من مائتي مسلم إلى القصر مطالبين بالسماح بذبح الأبقار –من المقدسات الهندوستانية - في العيد. أجابهم «ظَفَر» بنبرة غاضبة لا تقبل النقاش أن دين المسلمين لا يعتمد فقط على ذبح البقر. ومثل «غالب»، كان «ظفر» يحتقر بشدة الشيوخ ذوي الأفْق الضيقة، وقد احتوت إحدى أمسيات الترفيه في القصر على تجسيد الممثل «قادر بخش» لشخصية أحد الشيوخ المسلمين في حضور الملك. كان صاحب الجلالة سعيدًا جدًّا وأمر «محبوب علي خان» رئيس الخصيان بمنحه العطايا المعتادة.. حينها كان رد علماء دلهي هو ازدراء للبلاط وبحسب السير «سيد أحمد خان»: «عدَّ عديد من شيوخ الإسلام في دلهي وأتباعهم الملك زنديقًا. كانوا يرون أنه ليس من الجيد الصلاة في المساجد التي اعتاد الذهاب إليها والتي تحت رعايته!».

كما كان ارتباط «ظفر» التعبدي بالإمام «علي بن أبي طالب» أحد أهم أسباب غضب السنة المتشددة بشكل خاص، فقد كان يحتفل بعيد الشيعة في محرم - وهو تجسيد البدعة الإسلامية في عيون الشاه السني الحازم «ولي الله» - بحماسة في القصر، حيث يستمع «ظفر» إلى قصائد الرثاء. وبسبب هذا جزئيًّا كانت هناك شائعات مستمرة أن «ظفر» قد تحول بالفعل إلى الشيعة. أدى هذا إلى تلقي الإمبراطور عديدًا من الوفود الغاضبة من علماء دلهي، يهددون بأخذ العقوبة النهائية على استبعاد اسمه من صلاة الجمعة - حرمانه ونزع الشرعية عن حكمه - إذا ثبتت صحة تلك الإشاعة! مع تقدم القرن التاسع عشر، ازدادت قوة هذه الآراء الصارمة في دلهي، وترسخ

موقف العلماء، بحيث بحلول خمسينيات القرن التاسع عشر بدت الطرق الصوفية المتسامحة لـ«ظفر» وبلاطه تبدو وكأنها قديمة الطراز، وعفا عليها الزمن، مثلها مثل أنماط الحياة الهجينة والدينية المُنفَتِحة التي اعتنقها المغول البيض بين البريطانيين الإنجيليين الذين صاروا يتمتعون بالقوة الآن. في النهاية، صار مسرح الأحداث مهيأً لصراع الأصولية المتنافسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هناك أيضًا جانب طبقي قوي لهذه المعارضة لتغيّر اتجاه «ظفر» الروحاني. إذ كانت الصوفية وكتابة الغَزَل من علامات رواد البلاط والمثقفين الشريفين، لذا كان على الجانب المضاد رعاية الحركة الإصلاحية الإسلامية كصك توقيع لصعود طبقة التجار البنجابين المسلمين، الذين شعروا بأن أثرياءهم ومتعلميهم مستبعدين من الثقافة الأدبية الصوفية النخبوية للبلاط. كان «شاه عبد العزيز» الابن الروحي لـ«شاه ولي الله»، غزير إنتاج الفتاوى، أو الآراء القانونية، ومن المهم ذكر كم أن عددًا منها يتعلق بالمسائل الاقتصادية - حول جواز اعتماد خطابات الاعتماد، أو كسب الدخل من خلال التجارة في العبيد، وما إلى ذلك - مما يعني أن عديدًا ممن يطلبون رأيه كانوا يشاركون بشكل كبير في التجارة والاقتصاد. ومن المؤكد أن تجار البنجاب المسلمين الأغنياء هم الذين موَّلُوا المدارس الدينية السنية المتطرفة في دلهي، وخاصة أولئك الذين دعوا للجهاد ضد الكفار والسعي لخلق مجتمع إسلامي مشذب من كل تراكمات البدع غير الإسلامية. كان أكثرهم صراحة هو السيد أحمد بارولوي([17]) وهو مقاتل بارز من خريجي المدرسة الرحيمية، الذين شرعوا في جهاد مشئوم ضد السيخ والبريطانيين على الحدود الشمالية الغربية عام ١٨٣٠. كتب إلى حكام آسيا الوسطى يطلب منهم التكاتف لتحرير الهند من الحكم البريطاني أو ما أطلق عليه «تخريب الثقافة الإسلامية وتعطيل أسلوب الحياة الإسلامي على يد المسيحيين»، ومن «الأساليب غير الإسلامية التي يتم ممارستها في البلاط المغولي.» على الرغم من أن «بارولوي»، الذي خانه الأفغان، مات مع مجهاديه تحت سيوف السيخ في عام ١٨٣١، فقد نجت فلول شبكة المجاهدين التابعة له تحت الأرض على طول الطريق التجاري الذي يربط بيشاور وأمبالا ودلهي وباتنا، وهي المراكز الرئيسة الأخرى للجهاديين. وفي سبتمبر ١٨٥٢، أي بعد خمسة أشهر من زفاف «ميرزا جيوان بخت»، وبعد شهرين من تحول السيد «رامشاندرا» والدكتور «شامان لال» للمسيحية على يد «جينينجز»، تزايد اشتباه «ميتكالف» في دلهي في أن شبكة المجاهدين قد بدأت تعود للحياة مرة أخرى. وبِناءً على بلاغ، قامت الشرطة بإجراء مداهمة بالفجر على مباني عديدٍ من المتطرفين المعروفين والعثور على أدلة لما اعتقدوا أنه «مؤامرة وهابية» في دلهي نفسها، والاستيلاء على مراسلات شيوخ الإسلام

المتعصبين، والذين كانوا يوعزون بقيام حملة ضد البريطانيين. كانت الشخصية المؤثرة في تلك الحركة هو الشيخ «حسين بخش»، وهو تاجر بارز من دلهي ينتمي لمجتمع التجار البنجابيين الذي كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالأئمة الأكثر تطرفًا في دائرة المدرسة الرحيمية. وقاد علماء المدرسة المتطرفة نفسها حركةَ معارضة «جينينجز» ومبشريه، خاصة أنه بعد معمودية «رامشاندرا» و«شامان لاي»، نجح الأب «جينينجز»، في مايو ١٨٥٣، في تحويل سيد آخر مجهول الاسم من عائلة مرموقة للمسيحية كذلك. وبالطريقة نفسها التي عزَّز بها المبشرون مخاوف المسلمين، وأجَّجوا معارضة الحكم البريطاني، ودفعوا المتعصبين نحو عقيدة أكثر تشددًا، وتسببوا في خلق جمهور من الجهاديين، فإن وجود «المؤامرات الوهابية» عزز من قناعة «جينينجز» ورجاله أن هناك حاجة إلى «هجوم قوي» لمواجهة مثل هذه الجماعات «الإسلامية المتعصبة».

الأصولية الإسلامية والإمبريالية الأوروبية لهما تاريخ كبير، غالبًا ما تشابك بشكل وثيق وخطِر. وبشكل مثير للفضول، ولكن ملموس للغاية، كان الأصوليون المتعصبون من كلتا الديانتين بحاجة إلى بعضهما بعضًا لتعزز كل منهما تحيُّزات الأخرى وأحقادها، وكأن سُمَّ الواحدة هو ما يوفر شِريان الحياة للأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

موازنة صعبة

بحلول عام ١٨٥٢، على الرغم من أن البريطانيين والمغول كانوا يسكنون المدينة نفسها، وكان الشعبان يعيشان في بعض الأحيان على مقربة من بعضهما بعضًا، فقد تزايد البعد المعنوي بين الشعبين كثيرًا. كان التزاوج - أو على الأقل التعايش - شائعًا جدًّا في الماضي بين الجالية البريطانية الصغيرة في دلهي، لكن الآن تم فصلٌ عنصريٌّ بين الشعبين. صار التواصل اليومي يقل، كما قلَّت محاولة تبادل الفَهم. لا يظهر هذا واضحًا في أي مكان أكثر مما ظهر عليه في جريدتَيْ دلهي الرائدتين؛ في الواقع، ربما لا يوجد مؤشر أفضل على الصدع المتزايد من سوء التفاهم في هذا الوقت بين البريطانيين وسكان دلهي من الهنود من عقد مقارنة بسيطة بين أعمدة الصحيفتين. صحيح أن جريدة «أخبار دلهي بالأردية» و«دلهي جازيت» قد اتفقتا على شدة تطرُّف أنشطة «جينينجز التبشيرية»، إلا أنه كانت هناك نقاط أخرى قليلة رأتها كل واحدة منهما بشكل مختلف؛ فبقراءة تغطية الصحف للأحداث عام ١٨٥٢، فهناك أوقات يمكنك فيها أن تشعر أنهم يسجلون أخبار مدينتين مختلفتين تمامًا! اعتبرت صحيفة أخبار دلهي بالأوردية نفسها أنها جريدة محترمة وظيفتها الرسمية هي تشجيع قُرَّاءها لاتباع الفضائل وتجنب الرذائل والفضائح. بينما وفقًا لصحيفة أوردية منافسة كانت مجرد: «جريدة صفراء، مليئة بالشائعات الشخصية والقيل والقال، ومهاجمة الأشخاص المحترمين الذين لا يتشاركون وجهات النظر الدينية نفسها لرئيس التحرير.» كلتا العبارتين تبدوان متناقضتين تمامًا، لكنهما كانا عن الجريدة نفسها!

ففي ظِلِّ قيادة رئيس التحرير الشِّيعي المذهب الشيخ محمد باقر، كانت هناك حماسة وقوة في التحدث عن الفساد المستشري في البلاط على يد العلماء المسلمين، وحتى في صفوف الحكومة البريطانية، بينما كان ولاء الجريدة الراسخ لـشخص «ظَفَر» وفقط. انتقدت الصحيفة إدارة القصر وفسادها الذي أخَّر صرفها الرواتب الشهرية (فقط أولئك الذين لديهم إمكانية الوصول إلى الإمبراطور أو رئيس الوزراء أو الطبيب الملكي تمكنوا من الحصول على رواتبهم)، كما إنهم كانوا يشْمَتون عندما يصاب الأمراء سيئو التصرف بعاقبة تصرفاتهم.. فعلى سبيل المثال، عندما عُرِّض «ميرزا شاروخ» الفاسد لكمين من قِبَل مقرضي المال في دلهي وهو يشُقُّ طريقه إلى ضريح القدم الشريف، نسبت الجريدة الاعتداء إلى مكائد الحاشية الأشرار الذين كانوا يخونون ثقة الإمبراطور المُبجل. كان «محمد باقر» رجلًا من دلهي، وخريج كلية دلهي، ودَرَّس هناك لفترة من الوقت قبل رحيله عن المكان بسبب الراتب المنخفض. ثم ذهب للعمل لفترة وجيزة مع البريطانيين، قبل

أن يقوم بإنشاء سوق مربح للتجار الأجانب وبناء «إمام بارا» قاعة دينية شيعية كان يخطُب فيها أحيانًا.

انعكاسًا لمصالحها الخاصة، تركزت اهتمامات جريدة «أخبار دلهي بالأوردية» بشكل رئيس حول المسائل السياسية والدينية المحلية، حيث تحدثت عن تحول الأستاذ «رامشاندرا» عن دينه، ووصف آخر المعجزات الروحانية التي شهدتها الأضرحة الصوفية، وقدَّمت تقارير عن مهرجانات دلهي، وكذلك المشاجرات العرضية التي حدثت فيهم، مثل أعمال الشغب بين السنة والشيعة خلال محرم عام ١٨٥٢. كما تناقلت بعض الإشاعات كعقاب مزيدٍ من الفتيات من الخادمات بالقصر بتهمة «الرذيلة الجنسية». وبما أن ابن «باقر»، الشاعر الواعد الشاب «محمد حسين»، والذي كتب تحت اسم مستعار هو «آزادا»، اعتاد على مساعدة والده في إدارة الجريدة، فقد اهتمت الجريدة أيضًا بالأمور الأدبية وأعادت طبع الغزليات الأكثر طلبًا من غيرها، والتي تُتلى في تجمعات الشُعراء المدعوة «المشيراس»، ووقف بقوة مع صديق «باقر» - ومعلم «آزاد» - «زوق» في تنافسه مع «غالب»، فعندما قُبِضَ على هذا الأخير بتهمة القمار، قامت الأخبار بتغطية الفضيحة بسرور بالغ. أحيانًا كانت تشير الجريدة إلى العالم خارج أسوار دلهي، لكن وإن كانت تميل إلى ذكر البلدان المحيطة بهندوستان، وعلى امتداد كالكوتا. فنادرًا ما ظهرت بريطانيا في أعمدتها حيث لم تُذكر في أربعينيات القرن التاسع عشر بأكمله غير سبع مرات فقط، ولا ذكرت الدول الإسلامية المتحضرة مثل مصر أو بلاد فارس، حيث نشأت أسرة «باقر» من الأصل..

على النقيض من ذلك، كان تركيز جريدة «دلهي جازيت» على الإنجليز المنفيين والمغتربين، الذين يحلُمون للأبد بالتلال الخضراء حول بلدة «شلتنهام» الإنجليزية. لكنها أشارت بشكل ما في أعمدتها إلى إضاءة القناة في «تشاندني تشوك» أو إلى شقوق الطريق بالقرب من مكاتب بوابة كشميري التابعة للجريدة، أو الجرائم وإثارة الشغب في دلهي، كما أعلنت عن الهزائم المحزنة التي عانى منها نادي دلهي للكريكيت على يد فريق كالكوتا، والنتائج الكاملة لمنافسة دلهي. وشملت كذلك إعلان سباق العربات السنوي لجميع عربات اليد اليدوية (عربات الحديقة الآن)، حيث تتنافس الفرق بجلوس فرد واحد من كل فرقة في كل عربة، ويتلقى الفائز بالسباق ثماني روبيات. باختصار، أحداث خاصَّة جدًّا من حين لآخر، تخص العالمين المتباينين البريطانيين والمغوليين معًا. لكن بينما كان البريطانيون في الأيام الأولى من وصولهم يميلون هم والهنود إلى أن يجتمعوا لتشارك الحياة واحتفالات البلاط المغولي، فبحلول خمسينيات القرن التاسع صار هذا التواصل يحدث بحزم وفقًا للشروط الأوروبية؛ مثل سباقات الخيول بدلهي،

عندما ينزل النبلاء المحليون من ديارهم للمدينة خاصة للمشاركة في كأس المغول، أو في نُزُل دلهي للماسونيين، الذي قَبِل انضمام الأعضاء الهنود.

وكان من أحد هذه الأحداث هو وصول «ميسرز ترود» وشريكاه، والذين أحضروا معرضهم المتجول إلى دلهي، وقد تضمن هذا المعرض عدة ميكروسكوبات، التي وفقًا لصحيفة «دلهي جازيت» تسببت في ذعر شديد بين السكان المحليين، وهو ما ظهر في نظرات أعينهم المتعجبة نحو تلك النوادر المعروضة. وتجمَّعوا أيضًا في مناسبة أخرى كانت قدوم مسيو «جوردان» وسيركه المتنقل: وجد عرض مدام «جوردان» ورقصها اللطيف الاستحسان المتكرر من الجزء الأوروبي من الجمهور، في حين ظهر حبور السكان الأصليين الشديد بهتافهم طيلة الوقت. لم يذهل مسيو «جوردان» السكان الأصليين فحسب، بل أذهل جميع الناظرين باستعراضه المذهل، بينما قام مسيو «أوليفر» باستعراض مبهر بأن امتطى كرة ضخمة، وأخذ يطوف بها حول السيرك، وهو يحاول موازنة نفسه على قمتها طيلة الوقت.. فاستحق ثَنَاء الجمهور المذهول، كما قام أيضًا باستعراض آخر مع مُهره المطيع «راجاباك»، الذي فعل كل ما قيل له، وأنهى المهر يومه بالذهاب للنوم في المساء بعد تناوله وجبة من الشعير، بعدما حقق استعراضه نجاحًا عظيمًا.

ومع ذلك، فإن قلب جريدة «دلهي جازيت»، مثله مثل قلوب قرَّائها، وبالتأكيد مثل قلب محررها المتعصب المدعو «جورج واجنتريبر»، متعلقًا بمكان آخر. حيث كانت هناك تقارير متكررة عن توسع الإمبراطورية البريطانية حيث انطلقت المدافع لإعلان نهاية الحرب الأنجلو بورمية الثانية، التي انتهت بضم «بيجو» واحتلال «رانجون»، كما توجهت بعض البِعثات من الخطوط الأمامية الإمبراطورية إلى شبه جزيرة القرم وأفغانستان وبلاد فارس. الأهم من ذلك كله، أن الصحيفة كانت مليئة بأخبار عن المنازل، وإعلانات أكواخ إنجليزية مقلدة بشكل مريح في «شيملا» و«ميسوري»، أطلق عليها اسم «بريدج فيو»، و«روزفيل»، وأن الأسر اللطيفة في «ساسكس»، ليس لديها مانع في استقبال الأطفال للحصول على التعليم لتجنب اكتسابهم لكنة هندية. ويقول أحد الإعلانات: «للآباء والأوصياء، هناك سيدة عائدة إلى إنجلترا ستكون سعيدة بالعودة ببضعة أطفال، وستحرص على وصولهم بأمان إلى الأصدقاء المبتغون»، وبإعلان آخر: «رجل دين متزوج وبصحة جيدة يعيش بجزء راقٍ من «سومرستيشاير»، يرغب في أن يستقبل في عائلته طفلًا أو طفلين.. ليتشاركوا مع أبنائه المستوى التعليمي نفسه، على مسئوليته الخاصة. بشرط دفع من ٦٠ جنيها إلى ١٠٠ جنيه.».

عرفت هذه الجريدة بالضبط كيفية تهدئة قلق وحنين المغتربين المعوزين. لكن شعب دلهي نفسه، قلَّما ظهر في صفحات الجريدة على الإطلاق،

وبحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، لم يكن يُشار إليه إلا من حين لآخر، كـ«مواطنين» أو «إخواننا السود». لكن مواقف «واجنتريبر» كانت أكثر تعقيدًا قليلًا مما قد تشير إليه هذه المصطلحات. إذ كان متزوجًا من «إليزابيث»، الابنة الأنجلو - هندية لـ«جيمس سكينر» الشهير وواحد من أعمدة مجتمع المغول البيض في دلهي. كان «جيمس سكينر» ابن المرتزق الأسكتلندي لـ«هيركليز سكينر»، والذي كان ابن عميد «مونتروز»؛ وكانت والدة جيمس هي «راجبوتني» ابنة «راجبوت زاميندار» من بلدة «بوجيبور». وبعد أن حارب بشجاعة من أجل إمبراطورية «الماراثا»، وجد «سكينر» نفسه مطرودًا من رتبته بسبب والده البريطاني؛ في وقت لاحق انضم الإنجليز، فقط ليتعرض للتمييز العنصري بشكل متزايد من قِبَل شركة الهند الشرقية بسببه أصول والدته الهندية.. كتب في مذكراته: «تخيلت نفسي أخدم شعبًا ليس لديه أي تحيز ضد الطبقة أو اللون، لكنني وجدت نفسي مخطئًا.».

وخلُصَ إلى أن أصوله المختلطة هذه كانت مثل نصل ذي حدين قطع الطريقين ضده، لكن أدَّت خدمات «سكينر» لأباطرة المغول إلى منحه لقبًا كان سيُدهش جده في «مونتروز»: ناصر الدولة العقيد «جيمس سكينر بهادر غالب جانج»، الذي اختصره أهل دلهي إلى «إسكندر صاحب»، لأن سكان العاصمة المغولية نظروا إليه على أنه تناسخ للإسكندر الأكبر. كان «سكينر» مسيحيًّا أخذ دينه على محمل الجد، وقرب نهاية حياته بنى كنيسة «سانت جيمس»، وهي أول كنيسة بدلهي، وصار عمودًا من أعمدة المجتمع الإنجيلي بدلهي.. لكن كل هذا لم يمنعه من وجود عدد كبير من الزوجات الهنديات.. كتبت «فاني إيدن» معجبة: «السيد «سكينر» لديه عدد كبير من الزوجات الجميلات، أربع عشرة زوجة على حد تقدير أحدهم..»، كما قام «سكينر» بترميم مسجد مغولي جميل بالقرب من قصره بدلهي، وكذلك (على الأقل حسب أسطورة دلهي) بنى معبدًا لمن يعتنقون الديانة الهندوسية. وصفته «فاني إيدن» بأنه: «كولونيل وطني، داكن البشرة للغاية، وتمكن من صنع مجتمع أفضل بكثير من أي مجتمع صنعه كولونيل أبيض آخر هنا، وقد صنع عديدًا من المعجزات الحربية. كان يقيم هنا وهو رجل كبير رائع. ذهبنا يوم الأحد إلى الكنيسة الكبيرة التي بناها، وهناك أيضًا مسجد بناه بالقرب منها جدًا. قال لي إنه حيثما يوجد الله، يوجد الدين، لكنني أفترض أنه مسلمٌ.» كانت إيدن مخطئة في هذا الافتراض، ولكن انطلاقًا من أن «سكينر» عاش أسلوب حياة المغول بالكامل، ولغته الإنجليزية كانت سيئة للغاية، فقد كان خطؤها مُبررًا. زوجه الرئيسة - التي ربما كانت حماة «واجنتريبر» - كانت مسلمة بالتأكيد؛ كان اسمها «أشوري خانوم» وكانت مالكة أراضٍ، بينما كان والدها مالكًا قويًّا لأرض زراعية بـ«هاريانا» اسمه «ميرزا عظيمٍ بك»، وكان قائد

«سكينر» في ثكنات فوج سلاح الفرسان غير الرسمي التابع لـ«سكينر» في «هانسي».

بعد وفاة «إسكندر صاحب»، ظل أبناؤه المختلفون من جميع الألوان من أصحاب الأراضي البارزين ورجال الحاشية في دلهي يحاولون بصعوبة سد الفجوة المتسعة بين البلاط المغولي والمجتمع البريطاني، وهي المهمة التي لم يسهلها ملابس بعض أفراد الأسرة الغريبة. حتى «وليام جاردنر» اندهش من منظر شقيق «إسكندر»، والمدعو «روبرت سكينر» وقال عنه: «ملابسه غريبة، ويرتدي سلاسل ذهبية وفضية كثيرة للغاية!» من الواضح أن بعض آل «سكينر» وجدوا أنفسهم مضغوطين من وجودهم بين عالمين مختلفين حيث في نقطة ما، قام «ثيو ميتكالف» بإبلاغ أخته «جورجينا» أو «جي». كما يبدو أن واحدًا منهم كان في حالة سُكر لمدة شهرين ونصف بدون فاصل زمني واضح. ومن هنا جاءت التيارات الخفية المعقدة الموجودة في مقال نشره «واجنتريبر» في الجريدة الرسمية، يودع فيه بشدة عصر المغول البيض، الذين كانت عائلة زوجته تمثل جزءًا بارزًا جدًّا منهم، وأيقن «واجنتريبر» أن أيامهم قد انتهت. ومهما كانت مشاعره تجاه أنسبائه من آل «سكينر»، اعتقد «واجنتريبر» بوضوح أنه يعرف أي جانب يمثل المستقبل، وأي جانب يمثل الماضي. لكن كما سنعرف لاحقًا لن يمر وقت طويل قبل أن يكون ممتنًّا جدًّا لصلته بهذه العائلة «الهندية بالكامل» وبشرة زوجته الداكنة اللون، وطَلَاقتها في اللغة الهندوستانية، وقدرتها على تحمل رداء السَّاري، وهي كلها أشياء بالنسبة لـ«واجنتريبر» الآن، وربما أيضًا لزوجته التي طالت معاناتها، سببٌ لبعض الإحراج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر، بدا الأمر أحيانًا كما لو كان البريطانيون والمغول يعيشون ليس فقط في عوالم عقلية مختلفة، ولكن تقريبًا في أزمنة مخالفة لبعضهم بعضًا. كان البريطانيون يستيقظون في المعسكرات الواقعة شمال خطوط دلهي المدنية، مع دق البوق في الساعة الثالثة والنصف صباحًا، وهو الوقت الذي كان المغول لا يزالون يتدفقون فيه على القلعة الحمراء من أجل حفلاتهم الشعرية المدعوة «المشاعرة»، وبينما كان رقص المحظيات في حانات «شوري» وغناء القصائد الغزلية يشارف على الانتهاء، كان الإنجليز مثل الكابتن «روبرت تايتلر»، وهو من قدامى المحاربين، ويبلغ من العمر خمسين عامًا، أو الملازم «هاري جامبير»، البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا والذي وصل حديثًا إلى الهند، يجلسان على فراشهما بينما يقوم خدمهما بحلاقة ذقنيهما وتبديل ملابسهما. وبعد ساعتين، بينما تبدأ الشمس تشرق فوق نهر «يامونا»، ويكون الشعراء والمحظيات ورِعاتهم جميعًا متجهين إلى الفراش ليناموا، يبدأ، ليس فقط الجنود، ولكن

أيضًا المدنيين البريطانيين، الاستيقاظ وممارسة التمرينات الرياضية. وفي الوقت نفسه يكون بعض النساء مثل «هارييت تايتلر»، زوجة روبرت المتوترة دومًا، أو جميلة جميلات المجتمع الإنجليزي الشابة الجذابة «آني فورست»، التي كان «هاري جامبير» يكتب رسائل الإعجاب لها، يكُن في طريقهن للعودة من جولاتهن الصباحية حول المعسكر، فمن أجل حماية بشرة السيدات، لم يكن يُنصح بالتجول كثيرًا بعد شروق الشمس.

بحلول الساعة السادسة، تكون «هارييت» مشغولة بالإشراف على طاقمها الضخم من الخدم في كوخها ذي النوافذ الداكنة. كانت المهمة الأولى هي تحضير الإفطار الضخم، والذي بدونه لن يستطع أي رجل إنجليزي في الهند الفيكتورية أن يبدأ يومه؛ وكان أحيانًا يتضمن مجموعة مختارة من: شرائح المُخ، واللحم البقري، والكُلى المطهوة، ويخنة البط، واليخنات الأيرلندية، وقطع من لحم الضأن، ناهيك عن مجموعة متنوعة من الأطباق الهندية مثل «جلفرازي» لحم أو دجاج بالكاري، و«حساء الروبيان بالكاري»، ودجاج «مالاي تكا»، ولحم البقر على الطريقة الهندية. يضاف إلى هذه القائمة عدد من الأطباق الأنجلو هندية، مثل الكلى على طريقة «مدراس»، وفطائر مدراس، واللحم المفروم مع الزنجبيل والفلفل الحار.. ثم بالطبع كان هناك طبق الإفطار الأنجلو - هندي النهائي والمفضل «كيديجري» أرز مع بيض وسمك السلمون، مازال يُقدم وجبةَ إفطار وغداء في بريطانيا والهند على حد سواء، على الرغم من أنه كان من غير المستحسن في دلهي تناول السمك في ذروة الصيف.

وبينما تكون الزوجات الهنديات بالمعسكر ينتظرن عودة رجالهن من الموكب، والأب «جينينجز» داخل أسوار المدينة يقوم بصلاة الصبح في صمت بكنيسة سانت جيمس. تبدأ الحياة في البلاط حيث يكون كبيرَا البلاط، «جون روس هاتشينسون»، و«تشارلز لو باس» في مكتبيهما بالفعل، كما هي حال مساعدهم الدَّءوب «آرثر جالاوي» ومفتي الديار «مفتي صدر الدين أزوردا». في الوقت نفسه، يمر «ثيو ميتكالف»، القاضي المشترك الآخر، من خلال بوابة كشمير، ليذهب لأعماله اليومية متأخرًا، معربًا عن أسفه لأنه لم يقم بإعداد الملاحظات الخاصة به تمامًا كما يجب، وأنه لم يستيقظ مبكرًا مثل والده، الذي أجرى نصف أعماله اليومية بالفعل، إلى جانب السباحة، وتنظيم شئون الأسرة وقراءة الجرائد. سيكون «جورج واجنتريبر» قد استيقظ أيضًا. وبعد أن يُقَبِّل زوجته «إليزابيث» مودعًا، يتجه مثل «ثيو» إلى مقر جريدة «دلهي جازيت»، ليبدأ يومه في كتابة وتدقيق العدد الأخير.

من بين سكان دلهي، يستيقظ الفقراء قبل الأثرياء بفترة طويلة. فبينما تعتلي الشمس كبد السماء، ومع عودة البريطانيين من رحلاتهم الصباحية والاستعداد

لتناول الإفطار، كان أول صائدي الطيور يضعون الشباك بالقرب من ضريح القدم الشريف، وينصُبون الفِخاخ، لاصطياد الطيور الخارجة من أعشاشها بحثًا عن إفطارها. أما من ورائهم على الطريق الترابي، فيظهر بائعو الفاكهة والخضروات، بعضهم على عربات يجرونها، ومعظمهم يمشي على الأقدام، ينقلون بضائعهم إلى ضاحية «سابزي ماندي» الجديدة خارج بوابة كابول إلى الشمال الغربي من المدينة. لكن قبل هذا كله، قبيل الفجر تبدأ الشعائر الإيمانية، فعند بوابة «راج»، يتدفق المؤمنون الهندوس الذين استيقظوا في وقت سابق –يفوق عدد النساء عدد الرجال بكثير - ليؤدُّوا «البوجا» شعائر صلاة الهندوس ويقومون بحمامهم الصباحي في مياه «يامونا» المقدسة قبل تجمع الحشود الراغبين في الاستحمام. ثم تبدأ طائفة «بانديت» الكشميرية أداء صلواتها هي الأخرى في الأضرحة الصغيرة التي تصطف على ضفاف النهر وصولًا إلى بوابة «نيجام بوذا»، حيث - وفقًا لأسطورة دلهي - بُعث «الفيدا» كتاب الهندوس المقدس من المياه، وفي الوقت نفسه تُدق الأجراس لطقوس «ياجنا» الصباحية شعائر هندوسية تخص طائفة البراهميين وتُمار أمام النار المقدسة، التي تحتفل بصنع العالم وإعادة إنشائه مرارًا وتكرارًا، صباح بعد صباح. وبينما تُدق الأجراس ذات النغمات المختلفة وراء الترانيم السنسكريتية، بعيدًا في ظلام المعبد الداخلي، ومصابيح الكافور تدور أمام الإلهين «شيفا» و«فيشنو». تتصاعد بداخل المدينة انطلاقًا من مسجد «كاترا كشميري» في الجنوب إلى مسجد «فاتح بور» في الغرب، إلى مسجد «الجامع الكبير» نفسه حتى مآذن «زينة المساجد» الأنيقة الواقعة على ضفاف النهر آخر هتافات آذان الفجر، كل هتاف يتردد كصدى صوت للهتاف السابق له، حتى تصل تلك الهتافات المتلاحقة إلى الشوق الروحاني لمستمعيها عند ضفة النهر في سلسلة من الأمواج الصوتية المتلاطمة كأمواج البحر. ووسط الصمت الذي أعقب نهاية أذان الصلاة، يمكن فجأة سماع أصوات طيور دلهي، وصوت ضحكات مكتومة، وأصوات أخرى كالثرثرة الحادة، بالتناوب مع صيحات الببغاوات الوردية، ودندنة طيور أخرى من أعماق أشجار الفاكهة في حدائق «ظفر» في «روشانارا باج»، و«تيس هازاري»، بينما الطقس الحار يخيم على الأجواء.

بحلول هذا الوقت، في كافة أنحاء المدينة، وسط الخصوصية التي تفرضها الجدران العالية التي تحيط بأفنية المنازل الضخمة، مثل منزل الشاب «ظهير دهلوي» في «ماتيا محل»، يبدأ الخدم التحرُّك، وطيَّ ستائر الخيزران للكشف عن قنوات المياه والنوافير في حدائق الدار. ثم ترتيب الوسائد والأغطية لتهيئة الشرفات الموجودة بالفناء للإفطار الذي يتكون من ثمار المانجو أو «الباني بوري» خبز هندي من الدقيق والسميد محشو بالفلفل الحار وماء التمر الهندي بالنسبة للهندوس، أو ربما بعض حساء لحم الضأن بالنسبة

للمسلمين. يقوم الخدم بملء الأواني ماءً من الآبار، أو يتوجهون لشراء البطيخ الطازج من سوق «سابزي ماندي»، وفي بعض المنازل الأكثر ثراءً، يمكن تحضير القهوة. ومن الجانب الذكوري للمنزل سرعان ما تتصاعد أصوات قرقرة للنرجيلة. بينما في «زنانة» الحريم، يبدأ الأطفال ارتداء ملابسهم. وفي المطبخ تبدأ طقوس تقطيع البصل والفلفل الحار والزنجبيل اليومية، ويُنقع الحمص والعدس؛ وفي بيوت أخرى تبدأ النساء يومهن بالصلاة والخياطة والتطريز، أو الطبخ، أو اللعب مع الأطفال. ولا يمضي وقت طويل حتى ينطلق الأولاد الأكبر سنًا إلى الشوارع متجهين إلى المدارس الدينية في الوقت المناسب لبدء يومهم الدراسي المتمثل في حفظ القرآن عن ظهر قلب، أو الاستماع إلى دروس التفسير، أو ربما يكون يومًا لدراسة فنون الفلسفة والمنطق والبلاغة. بعيدًا عن كونه يومًا روتينيًّا مملًّا، كان هذا مثيرًا للكثيرين، حيث اعتاد تلميذٌ متحمِّس جاء إلى دلهي من بلدة صغيرة على طريق «جراند ترانك» على الذهاب إلى المحاضرات في المدرسة الرحيمية حتى في وقت الأمطار الموسمية، وحمل كتبه في إناء لحمايتها من البلل.. يتذكر «زكي الله» المسن الركض بسرعة خارقة من خلال طرقات وحواري «شاه جهان آباد»، من فرط حماسته للتعلم - وخاصة الرياضيات - في كلية دلهي.

حتى الكولونيل «وليام سليمان»، المشهور بقمعه لأعمال البلطجة وبكونه الناقد الرئيس لإدارة البلاطات الهندية، كان عليه أن يعترف بأن التعليم المدرسي المقدم في دلهي شيئًا رائعًا للغاية، كتب في زيارته لعاصمة المغول، ربما هناك مجتمعات قليلة في العالم يمكنها منافسة انتشار التعليم بين المسلمين في الهند؛ عادة ما يُمنح من يبلغ راتبه الشهري عشرين روبية في الشهر أبناءه تعليمًا يعادل تعليم رئيس الوزراء. يتعلمون باللغة العربية والفارسية ما يتعلمه شبابنا في كلياتنا باللغتين اليونانية واللاتينية مثل القواعد، والبلاغة والمنطق. بعد سبع سنوات من الدراسة، يربط الشباب المسلمين عمامتهم على رأس ممتلئ تقريبًا بالقدر نفسه من المعرفة الذي يناله خريجو جامعاتنا مثل خريجي جامعة أكسفورد، فيتحدث بطلاقة عن سقراط وأرسطو وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وابن سينا؛ والأهم، أن اللغات التي تعلم بها ما يعرفه هي اللغات نفسها التي سيستعملها خلال حياته.

كانت سمعة المدارس الدينية في دلهي كافية بالتأكيد لإلهام الشاعر الشاب «ألطاف حسين هالي» ليفر من زواجه في «بانيبات» ويمشي لمسافة ٥٣ ميلًا حتى دلهي، وحيدًا ومفلسًا وينام في العراء، في محاولة لتحقيق حلمه للدراسة في الكليات الشهيرة هناك.. كتب لاحقًا: «أرادني جميع من حولي أن أبحث عن عمل، ولكن شغفي بالتعلم سيطر على كِل جوارحي!».

كانت دلهي على الرغم من كل شيء مركزًا فكريًّا مرموقًا ومشهورًا، وفي أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر كانت في ذروتها الحيوية الثقافية؛ إذ كان بها ست مدارس دينية مشهورة وعلى الأقل أربع مدارس أصغر حجمًا، وتسع صحف باللغتين الأوردية والفارسية، وصدرت خمس مجلات فكرية من طلاب كلية دلهي، وكان هناك عدد لا يحصى من المطابع والناشرين، وما لا يقل عن مائة وثلاثين طبيبًا، وإن كان هناك عديد من الاكتشافات الجديدة التي كشف عنها العلم الغربي، فبدلهي تُرْجِمت تلك العلوم لأول مرة إلى العربية والفارسية، وقد ساد في عديدٍ من الكليات والمدارس جو من الانفتاح الفكري.. وأكثرهم جاذبية كان جو الشعراء والمثقفين، ووُجِد رجال مثل «غالب» و«زوق» و«صهباي» و«أزوردا».. وقد كتب «هالي» عن هذا: «لحسن حظ العاصمة دلهي، أن تلك المجموعة من الرجال الموهوبين عاشوا في الفترة الزمنية نفسها.. كانوا موهوبين لدرجة أن الاجتماعات والتجمعات كانت بمثابة استرجاع لأيام «أكبر» و«شاه جيهان»..» قامت أسرة «هالي» بتعقبه في النهاية، لكن قبل أن يعثروا عليه ويقتادوه للعودة إلى الحياة الزوجية في مقاطعة «إليبو»، قُبِل في مدرسة «حسين بخش»، «الفسيحة والجميلة» على حد قوله هو نفسه، وبدأ دراسته هناك.. كتب في سن الشيخوخة: «رأيت بأم عيني تلك الصحوة الرائعة للتعلم في دلهي، والتفكير بهذا الآن يجعل قلبي يتحطم مع الأسف.».

نعود إلى موضوعنا عن اليوم الروتيني، في هذه الأثناء، في «تشاندني تشوك»، على الرغم من أن السيد «بيرسيفورد»، مدير بنك دلهي، كان بالعمل منذ الساعة التاسعة صباحًا، إلا أن أصحاب المتاجر لا يظهرون قبل الساعة الحادية عشر، ليفتحوا أبواب أكشاكهم، ويطعمون طيور الكناري والببغاوات المحبوسة في أقفاص، ويبدءون في صد أول هجوم من المتسولين والدراويش المجاذيب الذين أخذوا يهزون العملات المعدنية في سلطانياتهم في أثناء مرورهم بجوار المحلات التجارية. كانت بعض هذه الشخصيات معروفة جيدًا بل إنها كانت تحظى بالتبجيل في دلهي، مثل المجذوب «دين علي شاه».. كتب «سيد أحمد خان» في مخطوطة عن أشهر المواطنين بدلهي: «لا يبالي على الإطلاق بشئون هذا العالم، لدرجة أنه يظل عاريًا معظم الوقت، وعندما يحيط به حشد ما، فإنه يتحدث بكلمات غير مفهومة. ولكن عندما يفكر المتسائلون ممن يقفون حوله في تلك الكلمات الغامضة التي ينطقها، فإنهم يجدون وراء اللامبالاة الخارجية إجابة واضحة على استفساراتهم». بعض أولئك المتسولين الأكثر حظيًا بالاحترام كُنَّ من النساء، مثل «بيجي»: «امرأة استثنائية موهبة، قضت كل حياتها تحت كوخ من القش بالقرب من مسجد «عيد جا» القديم في «شاه جيهان أباد». في

أثناء حديثها كثيرًا ما اقتبست من آيات قرآنية، أسطورة حقيقية مهما يكن ما تتنبأ به، فإنه يحدث بالضبط كما توقعته!».

في الخارج على الأرصفة، يبدأ التجار فقيرو الحال - لدرجة أنهم لا يملكون أماكنهم الخاصة - ملء أماكنهم المحددة لهم ببضاعتهم؛ مثل منظف الأذن مع أدواته، ومنظف الأسنان يستعد بحُزمة من أغصان السواك، والمنجم ببطاقاته وببغائه، وبجوارهم الدجال مع سحاليه وزجاجات الزيوت العطرة المثيرة للشهوة الجنسية، والسحرة بأدواتهم وطيور الحمام الفاخرة. وفي الوقت نفسه، في ورش العمل قبالة الشارع الرئيس، بعيدًا عن أعين المارة المتلصصة، كان الجواهريون يعدون الزمرد وأحجار القمر والتوباز والألماس، والياقوت القادم من بورما، واللازورد القادم من «هندو كوش». في حين حمل صانعو الأحذية جلودهم المدبوغة وبدأوا إعداد بضاعتهم؛ وشرع صانعو السيوف في إشعال قوالبهم، وسحب تجار القماش قطع النسيج لعرضها، وبدأ تجار التوابل تجفيف الكركم الذي يلمع كالذهب.

وفي أكبر المباني على الإطلاق، والتي يحرسها حاملو الهراوِي والبنادق، حيث يقوم كبار مقرضي دلهي بالاحتفاظ بسجلات مليئة بأسماء المدينين التي تضمَّنت بعد حفل زفاف «ميرزا جيوان بخت» اسم «ظفر» نفسه! ينكب المقرضون على دفاترهم، يحلمون بمخططات لاسترداد المبالغ المهولة من المال التي أقرضوها بغير حكمة لأمراء القلعة الحمراء المفلسين - رجال مثل «لالا ساليجرام»، و«بهاواني شانكار»، وأكثرهم ثراءً، «لالا شونا مال»، وهو أكبر مستثمر منفرد في بنك دلهي المملوك لـ«بيريسفورد»، في شركته الضخمة والفاخرة «هافيلي» في «كاترا نيل». وبينما كان سوق «تشاندني تشوك» يفتح أبوابه، فعلى بعد ميلين إلى الشمال، في المعسكر التدريبي، كان يوم الجنود يقترب بالفعل من نهايته، فقد تم الانتهاء بالفعل من معظم واجباتهم. حيث يستغرق استحمامهم، وقراءة الجرائد، ولعب البلياردو ساعة أو ساعتين، قبل أن تصبح الحرارة داخل الأكواخ الحجرية لا تطاق، ولا يتبقى ما يمكن فعله حتى فترة ما بعد الظهيرة إلا التمدد والقراءة، أو التسكع، أو النوم. أما بالنسبة لعديد من الجنود البريطانيين، فمع مشاغلهم القليلة طوال اليوم، كان الملل هو العدو الرئيس الذي واجهوه في الهند.. كتب «ألين جونسون» من كتيبة مشاة البنغال الأصليين الخامسة في مذكراته حول تلك الفترة: «كسل مرعب، بالكاد فتحت كتابًا أو كتبت سطرًا في العشر أيام الأخيرة. في الواقع، لم أفعل شيئًا على الإطلاق سوى الاستراحة والاستلقاء، الآن صرت أتناول الكتاب وأنظر إليه بدون تركيز، أو أظل أتقلب بفراشي. كانت فكرتي الثابتة الوحيدة هي التوق إلى العودة للديار، وكراهية المواطنين وكل الأشياء المحلية هنا!».

ومن ناحية الجنوب قليلًا، بالنسبة للسير «توماس ميتكالف»، في مكتب الإقامة في قلعة «لودلو» في الخطوط المدنية، فقد كانت ساعات دَوَامِه أيضًا على وشك الانتهاء؛ حيث انتهى من الاجتماعات المختلفة والإجابة عن استفسارات الشرطة والبلاط، وكتب خطاباته، ومراجعة أخبار القصر وتلخيصها وإحالتها إلى أجرا وكالكوتا. بعد الساعة الواحدة ظهرًا بقليل، عندما كان السِّير «توماس» متجهًا إلى منزله في عربته، وقد انتهي يوم عمله، كانت الأمور قد بدأت للتو التحركَ داخل القلعة الحمراء. كان «ظفر» قادرًا تمامًا على النهوض مبكرًا إذا كانت هناك رحلة صيد في الانتظار، حتى في أواخر السبعينيات من عمره كان يتمتع بصحة جيدة. ولكن بعد حضوره للمشاعرة (ندوة شعرية) أو حفلة ترفيهية لساعة متأخرة، كان يفضل العودة والاستلقاء على فراشه لفترة طويلة.. قبل أن يبدأ يومه بقدوم حاملات الماء تحملن حوضًا فضيًا وأواني ماء فضية. كن يفرشن حصيرة (مصنوعة من قماش أو جلد) ويضعن عليها الحوض الفضي وإناء الماء. ثم تأتي حاملات المناشف، يحملن المناديل لتجفيف وجه جلالة الملك وقدميه، والمناشف والمناديل لتجفيف أنفه.. يتبع ذلك صلاة الصباح، وبعد ذلك يكون الدكتور «شامان لال» قد حضر ليفرك قدمي «ظفر» بزيت الزيتون. شامان الذي كانت هناك محاولات من بعض العلماء المسلمين لطرده بعد اعتناقه المسيحية، لكن «ظفر» ردَّ على ذلك بأن إيمان الطبيب شأن خاص به وقال: «ليس هناك ما يدعو للخزي فيما فعله!» لذلك استمر الطبيب في جلساته العلاجية لإمبراطور القصر.

يتبع ذلك تناول الإمبراطور إفطارًا خفيفًا، يأكل وهو يجلس القرفصاء على أغطية حريرية، في أثناء ذلك يناقش نمط جلسة ذلك المساء الشعرية.. ثم يأخذ جولة سريعة بالقصر، يرافقه فرقة من حارسات حبشيات وتركيات وتتار، وجميعهن يرتدين لباس الرجال العسكري، ومسلحات بالأقواس وجعبة السهام. بعد ذلك، يحضر «ظفر» الالتماسات المقدمة إلى البلاط. ويستقبل الزيارات والهدايا من البستانيين والصيادين الذين يعملون عنده. يتبع هذا تطبيق العقوبة على الإماء اللاتي يتم ضبطهن متلبسات، أو أي سلاطين متلبسين، بالسرقة؛ ثم يستقبل معلمه «زوق»، الذي يساعده في تصحيح قصائده الأخيرة. من حين لآخر قد يستقبل تلاميذه هو نفسه، لمساعدتهم في التأليف وتصحيح أبياتهم: على سبيل المثال، سجلت مذكرات البلاط أنه في شهر مارس قد أخذ «خسبوردار» والآنسة بيرام جان تلاميذَ له في التأليف. كانت كتابة القصائد وتصحيحها تستغرق عدة ساعات من يوم الإمبراطور: على حد تعبير «آزاد» عن «ظفر»: «كان يحب الشعر بجنون».

وفي الوقت نفسه، في مكان آخر في بيته داخل برج «شاه» على جانب القصر المطل على النهر، كان «ميرزا فخرو» مشغولًا بمخطوطاته، أو يكتب

تسجيله لتاريخ الملوك والأنبياء، في حين أن إخوته الصغار يؤدون واجباتهم المدرسية، وهو أمر أخذه المغول على محمل الجد.. كتب زائر عن هذا: «كلهم يبقون منكبِّين باستمرار على دراساتهم ويُراقَبون بحذر شديد». قلة من الأمراء في الهند، أو على الأرجح ولا واحد منهم، يمكنه التنافس مع أي من أفراد العائلة المالكة [من دلهي] ليس فقط في المؤهلات المكتسبة، ولكن أيضًا في الذكاء، الذي قد يكون بشكل عام هِبة من الطبيعة، لكنه لا يلبث أن يحتاج لتعليم سليم ومستمر. وضع نظام تعليم الأمراء الجاد في هذه الفترة ضغطًا كبيرًا على دراسة المنطق والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك والقانون والطب. وكان أيضًا من المتوقع، كما في محاكم عصر النهضة في أوروبا، أن أي أمير متحضِّر حقًّا يجب أن يكون قادرًا على تأليف بيت من الشعر، وقد ذكر كتاب «جنة الشعر»، وهو بمثابة قاموس للسير الذاتية لشعراء الأوردية، وتم نشره عام ١٨٥٠، أسماء ما لا يقل عن خمسين شاعرًا من أفراد عائلة «ظفر» وكان عديد منهم من النساء.. وقد أشار الأسقف «هيبر» بشكل خاص إلى تركيز «ظفر» على تعليم الإناث في القصر، وفي شبابه، كان «ظفر» نفسه مثالًا جيدًا على نوع رجال عصر النهضة الذي سعى التعليم المغولي الجاد إلى إنتاجه؛ فقد كان كذلك يجيد اللغة الأوردية والعربية والفارسية، ويتقن أيضًا اللغة البرجية والبنجابية بما يكفي لكتابة قصائد بكلتيهما.

عندما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره كان قد أنتج بالفعل مجلَّدًا جامعًا لـقصائده، كما ألف شرحًا مطولًا لكتاب «جولستان»، أو (حديقة الورد) لـ«سعد الشيرازي» من أمهات الكتب في الأدب الفارسي، ألفه سعد الشيرازي سنة ٦٥٦ هـ. كما أنتج ثلاث ترجمات لعلم العروض، وأطروحة طويلة في اللغة الديكانية، وقد اشتهر أيضًا في شبابه بكونه فارسًا مشهورًا، ومبارزًا وراميًا وبقي صيادًا ماهرًا حتى سن الشيخوخة. مهاراته جعلت حتى الأخ الأكبر للسير «توماس»، السير «تشارلز»، والذي لم يكن من المعجبين بـالبلاط المغولي، يعترف بأن «ظفر» كان الأكثر احترامًا وتحقيقًا للإنجازات من بين الأمراء. وفي ظل كل هذا، كان هناك أحد الأمراء المغوليين الذي لم يبدِ أدنى اهتمام بالدراسة، وهو «ميرزا جيوان بخت»، فكان غالبًا ما يتهرب من الدروس ليخرج في رحلات الصيد، التي لم تنتهِ دائمًا بنتائج سعيدة، حسب مذكرات مقيم بالبلاط: «ذات مرة، أُفيد أن «ميرزا جيوان بخت» أطلق النار من بندقيته على حمامة، ولكن استقرت طلقتان في ساق رجل كان يستحم في نهر يامونا. مما جعل جلالة الملك مستاءً للغاية وأرسل ست روبيات إلى الرجل الجريح، ووجه «محبوب علي خان» بمصادرة جميع البنادق والمسدسات والسيوف التي في حوزة الأمير إلى جلالته، وأن الأمير عليه متابعة دراسته.».

غالبًا ما يتزامن الإفطار في القلعة الحمراء مع الغداء الخفيف الذي يُقدَّم في المعسكر في الواحدة بعد الظهر. في المعسكر تتكون الوجبة من دجاج مشوي، وجبة متواضعة ربما مقارنة بوجبات الإفطار والعشاء الضخمة الأنجلو - هندية. ومع ذلك، فإن بيت آل «ميتكالف» كان يعمل دائمًا وفقًا لروتينه الخاص، الذي وضعه السير «توماس» تحديدًا. حيث قُدِّم العشاء في وقت غريب في الثالثة عصرًا! حيث وجد السير «توماس» أن هذا «مفيد لصحته»، وبعد ذلك يقرأ لفترة، قبل أن ينزل إلى القبو للعب البلياردو بمفرده لفترة طويلة، فقد كان ذلك تسلية رائعة له تمنحه النشاط الذي يرغب فيه، كما إنه يبقيه مشغولًا في أثناء أكثر أجزاء اليوم حرارة.

لمدة ثلاث ساعات، خلال سبعة أشهر من السنة، كانت حرارة ما بعد الظهيرة في دلهي تبقي الشوارع فارغة تمامًا، تاركة إياها مهجورة، ليغمر المدينة غلالة من الصمت غير المعهود. في المعسكرات، كان الجنود المتعرقين يتقلبون على أسرتهم منزعجين، ويصيحون في حاملي المراوح ليعملوا بجهد أكبر. أما بالمدينة، كانت الحياة تستمر أسفل سقوف المنازل الرطبة، وبإسدال ستائر الخوص المصنوعة من منقوع سعف النخيل في ماء معطر فوق النوافذ لتسمح بهبوب رياح خفيفة عطرة، وبعضٌ كان يحتمي تحت الشاميانا خيم هندية تُنصب في الاحتفالات وعند اشتداد الحرارة في الأسواق، أما أولئك الذين كانت لديهم غرفٌ باردة تحت الأرض فكانوا يلجئون إليها، لتستمر أعمال اليوم دون انقطاع من الخياطة وكتابة الرسائل وتعليم الأطفال الصغار، وتلبية الملذات، مثل التدخين ولعب الكوتشينة والشطرنج.. ذُهِل مسافر بريطاني أنزِلَ إلى إحدى الغرف الجوفية هذه مما رآه، وقد كتب: «انخفضت درجة الحرارة كثيرًا، بمجرد النزول حوالي ثلاثين قدمًا إلى تلك الشقة، كانت مفاجأة كبيرة أن أعثر على مثل هذه الغرف الجميلة، والمرتبة بأناقة. كان لون الجدران يشبه الرخام لدرجة تخدع العين في البداية.. ثم هناك تلك البرودة، المختلفة جدًّا عن الإحساس بالحرارة الذي نشعر به دائمًا بالأعلى. وهناك أيضًا ممرات طويلة تؤدي إلى غرف مختلفة مزينة بجدران ملونة وزخارف أخرى.. وعديد من الرسومات الرائعة لأماكن مشهورة في دلهي وما حولها، مما يجعلها كمدينة خيالية، وفي أشهر أبريل ومايو ويونيو الحارة، كانت درجة الحرارة المنخفضة رفاهية يصعب وصفها، فمهما اتخذت من الاحتياطات بالأعلى، نادرًا ما ينزل مقياس الحرارة لأقل من خمسة وثمانين؛ في كثير من الأحيان لا يقل عن تسعين..»

فقط في وقت متأخر، أي حوالي الساعة الخامسة عصرًا، تبدأ الحياة العودة إلى شوارع دلهي. يكون «السقايون» أول من يخرجون، فيقومون بإفراغ أوعية الماء المصنوعة من جلود الماعز على التراب والحجر الذي يغطي الطرق. وفي أكشاكهم، يبدأ بعض الباعة تحضير أوراق التنبول؛ بينما يبدأ باعة

النرجيلة التجول في الطرق حاملين بضاعتهم؛ جنبًا إلى جنب مع بائعي الأفيون. في الأضرحة الصوفية، تتسارع وتيرة الأحداث أيضًا، حيث يتكاثف التيار الرقيق من المصليين بعد الظهر فيصبح حشودًا بحلول المساء، بينما يفترش بائعو الورد الممرات القريبة من منازلهم ليجلسوا القرفصاء، ويقرع المتجولون طبولهم وينشدون بصوت منغم أغانيهم الصوفية، أشهرها تلك الأغنية: «الله هو الله هو الله هو...» أي الله هو الله ثم تتابع دون نهاية.

أما في القلعة الحمراء، كان هذا أفضل وقت لممارسة الرماية بالنسبة للسلاطين، أو لمشاهدة قتال السمان أو الديوك، ولمشاهدة الصقور تطارد الحمام. في الصيف، يذهب بعضهم للسباحة أو الصيد في «يامونا» أسفل طريق القصر مباشرة، بالرغم مما في هذا من مخاطرة: على سبيل المثال، ذات مرة من شهر مايو، حمل تمساح ضخم بين فكيه الأمير «ميرزا كوج شيكوه»، البالغ من العمر سبعة عشر عامًا، بعد ثلاثة أسابيع فقط من الاحتفال بزواجه بالرقص والألعاب النارية. وفي وقت الرياح الموسمية هناك، كان من الأنشطة الترفيهية انطلاق الطائرات الورقية بالهواء (للرجال) وركوب الأراجيح (للنساء). بينما يقوم «ظفر» في غضون ذلك بالقيام بهوايته المفضلة في وقت مبكر من المساء، ألا وهي مشاهدة الفيلة وهي تستحم في النهر أسفل بيته، أو مراقبة صيادي السمك في أثناء الصيد. ويعقب ذلك تمشيته في الهواء الطلق بين أشجار البرتقال بحدائق القصر، في بعض الأحيان سيرًا على الأقدام، ولكن عادة ما يكون داخل عربته.

بالنسبة للمغول، اعتُبِرَت الحدائق انعكاسًا للجنة، واعتبروا حسن تذوق النباتات والروائح سمة مهمة للعقل المتحضر.. في أثناء تمشيته اليومية، كان «ظفر» يتفقد البستانيين في العمل، ويعطيهم الأوامر بـ: «إرسال شتلات المانجو إلى حديقة حياة بقش باج، أو زراعة شتلات البرتقال وبعض الشتلات الأخرى في قنوات الحديقة الجديدة»، التي كان قد خطط لها بنفسه وزرعها على ضفة النهر أسفل منزله. من حين لآخر، عندما كان «ظفر» يشعر بالنشاط، ينزل إلى ضفة النهر ويذهب لصيد السمك، أو يقضي المساء في تحليق الطائرات الورقية على الرمال بالقرب من «ساليمجاره». في بعض الأحيان كان يرسل إلى «غالب» ليسامره ويسليه، على الرغم من أن «غالب» لم يستمتع كثيرًا بكونه رجل بلاط مهم، ووجد التجربة برمتها مرهقة. كتب لأحد المراسلين في ديسمبر ١٨٥٦: «صديقي، أقسم برأسك [بعد يوم من المجاملات والنفاق في البلاط] إني أستلقي للنوم في الليل مرهقًا مثل العمال اليدويين.»

في المعسكرات، قد يأمر بعض الرؤساء المترَمِّتين بخروج عرض مسائي، بينما يوفر بعض آخر على أنفسهم العناء ويتركون الجنود في فوضاهم. وفي

هذه الأثناء، يقوم «ثيو ميتكالف» الذي يخرج من البلاط، متجهًا إلى ضفة النهر شمال منزل «ميتكالف»، مع كلابه تركض بجانبه، وتحلم كلابه ربما بالفوز بجائزة (التغلب على المنافسة الصعبة المتمثلة في كلاب آل «سكينر») في لقاء النادي الهندي الشمالي للجراوي السنوي، والذي كان والده رئيسًا له.. حيث تُعقد مسابقة النادي السنوية لأفضل جرو كل شتاء، وكان حدثًا ذا أهمية مركزية للمجتمع البريطاني هناك، لدرجة أن صحيفة «دلهي جازيت» قامت في بعض المرات بإفراد عدد كامل للحديث عنه. كان السير «توماس» في هذه الأثناء، يجلس على شرفة بيته المطلة على النهر، يتطلع إلى وجبة مسائية سريعة والنوم مبكرًا. كانت شرفته هذه هي مكانه المفضل، ويكون هذا الوقت من اليوم هو أكثرهم استرخاءً بالنسبة له، ويتم وضع ثلاثة أو أربعة كراسي حول الشُّرفة، ويجلس هناك لبضع ساعات حتى يحين الوقت لارتداء ملابس العشاء في المساء. كان من المعتاد أن يأتي أصدقاؤه في ذلك الوقت لرؤيته والدردشة معه.

ومع غروب الشمس، تمتلئ الكنائس والمساجد والمعابد مرة أخرى حيث رنين أجراس المعابد المسائية، يصاحبها الإقامة لصلاة المغرب من المآذن، وعزف أوتار الأرغن التي تختتم أنشودة المساء للأب «جينينجز» في كنيسة سانت جيمس، كل ذلك يندمج مع قعقعة العربات البريطانية المتجهة للخارج نحو الخطوط المدنية من خلال بوابة كشمير الضيقة حيث كان تدمير إحدى القنطرتين سببًا لشكاوى متكررة في جريدة «دلهي جازيت». تتوهج الأضواء في القلعة الحمراء بفضل مجموعة من حاملي المشاعل، مصحوبين بفرقة من عازفي البوق، بينما بالخارج في المدينة كانت الشوارع تمتلئ بطلّاب كلية دلهي وطلاب المدرسة، عائدين منهكين من الدراسة والحفظ الجاد طيلة اليوم. إذن فكان نادرًا ما يختلط التياران، أو كما سبق القول، كانا يعيشان في زمنين مختلفين. كما يتذكر «هالي» منذ سنوات عديدة: «على الرغم من أن كلية دلهي القديمة كانت في ذلك الوقت في أَوْجِ مجْدِها، إلا إنني كنت كذلك نشأت في مجتمع يعتقد أن التعلم يعتمد فقط على اللغتين العربية والفارسية. لم يفكر أحد في تعلم اللغة الإنجليزية، إذ كان الناس يرونها مجرد وسيلة الحصول على وظيفة حكومية، وليس لاكتساب أي نوع من المعرفة.. وحتى مدرسونا أطلقوا على المدارس الإنجليزية لفظة بربرية!

بالنسبة للرجل البريطاني، كان غروب الشمس هو بداية النهاية لليوم، وفي المساء كان هناك وجبة أخرى يولونها اهتمامًا خاصًّا، مكونة من ديك رومي دسم (كلما كان أسمن كان ذلك أفضل)، ومعه قطعة ضخمة من لحم الخِنزير، وعلى قمة المائدة تراصَّت أطباقٌ من لحم البقر؛ وبالأطراف أطباق من لحم الضأن، مع الطيور المحشوة كـالأوز والبط والحمام الدجاج، ولكن كان هناك قليلٌ لنتطلع إلى فعله بعد ذلك.». كان الرحالة الفرنسي «فيكتور جاكيمونت»

غير متأثّر بشكل خاص بما تلا العشاء من ترفيه يقدمه المجتمع البريطاني في دلهي، وعن ذلك كتب: «لم أشعر بأدنى استمتاع بمشاهدة عرض الكسالى الذي يقدمونه في حفلات دلهي، لا شيء من الفقرات التي تجعل الحفل ممتعًا في باريس كان موجودًا في المجتمع الأوروبي في دلهي.»

من المؤكد أن الجالية البريطانية في دلهي كانت غريبة الأطوار للغاية، حتى وفقًا لمعايير المغتربين الفيكتوريين. صُدِمت «إيميلي ميتكالف» خاصة من الجراح المدني الدكتور «روس» ووصفته بأنه قصير وبدين وقبيح جدًّا! وكانت وصفاته المعتادة الثلاثة للعلاج لا تتعدى العَلَق، وأعشاب السنامكي معبأة في زجاجات بيرة سوداء قذرة، وأقراصًا ضخمة يتم إرسالها في علبة خشبية سيئة المنظر؛ وأما الدكتور «لويس سبرينجر»، مدير كلية دلهي، الذي كانت زوجته «سيدة فاضلة لكن عادية» حسب شهادة «إيميلي» كانت تخفي سروال زوجها لمنعه من الخروج في المساء وتركها بمفردها.. من المؤكد أن البريطانيين في دلهي كانوا يتمنُّون إلى حد ما العيش في محطة «ميروت» الشديدة القرب من الطراز الإنجليزي، والتي اشتهرت بسبب معسكرها الضخم والجالية الإنجليزية الكبيرة فيها، بمسرحها وحفلاتها الفخمة. لكن دلهي لم تستطع التفاخر بأي شيء من ذلك، حتى إن أحد المقيمين الشباب اشتكى قائلًا: «هناك مجتمع صغير للغاية هنا!» مضيفًا أنه بعد أن ينهي عمله في البلاط لا يكون لديه خيار سوى اللجوء إلى رفقة مكتبته الكلاسيكية.. يقول: «لم أنسَ اللغتين اللاتينية واليونانية القديمتين، فقد كنت أقرأ لـ«تاسيتوس»، أو «قيصر»، أو «فيرجيل»، أو «هوراس» بين الحين والآخر..»

أما «ثيو ميتكالف»، الذي لم يكن يضيع الوقت في القراءات الكلاسيكية.. بحث عن تسلية أخرى. لقد جرَّب يده في عزف الموسيقا بعد العشاء مع بعض سيدات الجالية البريطانية، قال لأخته «جي جي» في رسالة: «لقد انضممت إلى مجتمع الموسيقا، وقضيت أمسية ممتعة للغاية، لكن العيب الوحيد هو وجود آل «جورجون». كانت إحدى الفتيات تنظر إليَّ بعينين خضراوين، كأنها كلب غاضب، لكن لا أظنها استمتعت بالأمسية، لأن أحدًا لم يبادلها الحديث طوال المساء. أما بالنسبة للآنسة «فورست»، فقد التفَّ حولها هي فقط ثمانية من الضباط، بينما كانت السيدة «بلفور» - زوج الجراح - تحاول جذب المعجبين بطريقة فظة للغاية!» أما أخت «ثيو» المدعوة «جي جي» فقد استمتعت أيضًا بأمسية موسيقية، على الرغم من أن العزف على البيانو في حالتها غالبًا ما كان مجرد ذريعة لرؤية حبيبها «إدوارد كامبل»، والذي كانت تجد أسلوبه في الغناء –وبكل صراحة - بطيئًا بعض الشيء بالنسبة لذوقها، لكنها كانت تحب طباعه الراقية. جرَّب «ثيو» أيضًا نفسه في مؤسسة دلهي للمسرحيين الهواة، حيث شارك في عرض جماعة الحشاشين وكذلك عرض «بولكا» لجمع الأموال لمنكوبي أراضي أسكتلندا المرتفعة

والجزر، على الرغم من أنه وفقًا لجريدة «دلهي جازيت» لم يكن هو من جعل المسرح يضجُّ بالضحك، ولكن «روبن روجهيد» الذي قام بدور «جيمي» وجعل الستار يسدل والقاعة تعج بصفيق حار ومستحق.

لم يكن من هذه الأشياء ما تناسب مع ذوق السير «توماس» على الإطلاق، الذي كان يحب أن يكون أول من يخلد للنوم.. كما تتذكر ابنته «إيميلي»: «في المساء كان يحضر وجبة خفيفة للغاية، وكان من عادته الثابتة مغادرة غرفة الطعام في الساعة الثامنة من أجل الذهاب إلى الفراش مبكرًا. كان من الممتع مشاهدة كيف يتصرف بمجرد حلول الساعة الثامنة، فقد كان ينهض فورًا من على الطاولة حيث كان يدخن النرجيلة، حتى إنه كان يلقي تحية المساء على الجميع بينما هو يتقدم إلى الباب ويخلع رابطة عنقه ويلقيها أرضًا ثم يفك أزرار سترته ويلقيها مثل سابقتها قبل أن يختفي خلف ستائر غرفة تغيير الملابس..» لكن بالنسبة لشعب دلهي، كان الجزء الأفضل من اليوم لا يزال لم يبدأ بعد. إذ لم يكن سوق «تشاندني تشوك» يتجلَّى حقًّا إلا بعد غروب الشمس.. حيث تمتلئ الأرصفة بالأولاد ذوي الأعين الواسعة أو المزارعين من «جات» و«هاريانا»، بعضٌ منهم كان يأتي للعب القمار بعيدًا عن قريته، وبعض آخر كانوا يأتون ليتباركوا بزيارة الأضرحة الصوفية. وكان يمكن رؤية الزوار القادمين من «لكناو» في أرديتهم المميزة ذات السروال الواسع، أو تجار الخيول القادمين من بيشاور وأمبالا، وهم يدخلون لمحل الحلويات الشهير «جانتا والاس»، الذي كان من المفترض أن يُقدم أفصل حلوى «اللادوس» في هندوستان.

كما تمتلئ المقاهي مع قيام الشعراء بإلقاء قصائدهم على بعض الطاولات، بينما انشغل العلماء في النقاش مع الآخرين. وعلى درجات المسجد الجامع، يبدأ رواة القصص بالحكايات التي يمكن أن تستمر لمدة سبع أو ثمانِي ساعات مع استراحة قصيرة فقط. الأكثر شهرة من بين جميع الحكايات كانت حكاية الأمير «حمزة»، الرومانسية الملحمية التي جمعت مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأساطير والقصص الدينية والقصص الخفيفة، التي ظهرت بمرور الوقت وتجمعت حول قصة أسفار «حمزة»، عم الرسول صلى الله عليه وسلم. انغمرت القصة الأساسية الواقعية على مر القرون مع طوفان من الحبكات الفرعية وظهور مجموعة من التنانين والعمالقة والسحرة والأميرات والسجاد الطائر، وكذلك الأطباق الطائرة، التي كانت وسيلة السفر المفضلة للسحرة في حكاية «حمزة». نمت الحكاية في شكلها الكامل لتحتوي على عشرين ألف قصة منفصلة، وقد يستغرق الأمر عدة أسابيع من سردها طوال الليل؛ حيث ملأت النسخة المطبوعة ستة وأربعين مجلدًا. ويتجمع المستمعون حول راوي قصص «حمزة» الوسيم والشجاع والشهم،

وعشاق أميرته الفارسية كثيرون من أعداء «حمزة»، مثل النكرومانسر «آكل الموتى»، القاسي والشرير اللدود «زمرد شاه».

وعلى الجانب الآخر من درجات السلم، يكون «جاني» بائع الكباب المشهور الآن يقوم بتهوية فحمه، وقد اعتاد أهل دلهي على مفاجأة الزائرين من الخارج بأخذهم لتناول الطعام هناك دون أن يخبروهم عن كمية الفلفل الحار الذي يقوم «جاني» بنقع الكباب فيه. يحكي الشاعر الشاب «آزاد» عن شخص غريب عن دلهي «لم يأكل طوال اليوم، كان جائعًا ففتح فكيه وهجم على الكباب، وعلى الفور بدأ الصراخ وهو يقفز إلى الوراء، لكن «دلهي الله» الذي دبَّر له الخدعة كان يضحك قائلًا: «لا تطيب لنا الحياة هنا إلا بهذا المذاق الحار..». كان «ظفر» مغرمًا أيضًا بقليل من الفلفل الحار في عشائه، والذي لا يبدأ أكله قبل الساعة العاشرة والنصف مساءً، وهو الوقت الذي يكون فيه معظم البريطانيين قد اندسوا في فراشهم بالفعل. كانت أطباق يخنة السمان، ولحم الغزال، وكفتة السمك، واللحوم المطهية بالبرتقال من الأطباق المفضلة لدى «ظفر»، على الرغم من أن مطابخ القلعة الحمراء كانت قادرة على إنتاج كميات متنوعة ورائعة من أطباق المطبخ المغولي، فكانوا يخبزون خمسة وعشرين نوعًا من الخبز، ويطبخون خمسة وعشرين نوعًا مختلفًا من البرياني، وخمسة وثلاثين نوعًا مختلفًا من اليخنة المتبلة بالكاري، وخمسين نوعًا مختلفًا من البودينج، بالإضافة إلى أصناف رائعة من المخللات، تؤكل على أنغام المطربين الذين يغنون أغانيهم الغزلية، بينما يملأ الهواء رائحة المسك والزعفران وخشب الصندل وماء الورد. ولكن أيًّا كان الطبق، فكان من المعروف أن «ظفر» يحب طعامه متبلًا بشدة، وقد انزعج للغاية عندما منعه صديقه - وهو رئيس الوزراء وطبيبه الشخصي في الوقت نفسه «الحكيم إحسان الله خان» - تمامًا من أكل «الفلفل الحار» في أغسطس ١٨٥٢، بعد سلسلة من اضطرابات الجهاز الهضمي.

من مفضلات «ظفر» أيضًا كانت مربى المانجو، التي منعه منها الحكيم أيضًا، وقال إن إفراط «ظفر» فيها تسبب في أصابته بالإسهال. وعندما استمر «ظَفَر» في تجاهل نصيحته بعد ذلك عانى من مرض في المعدة، فعبر الحكيم عن انزعاجه قائلًا إنه إذا استمر الملك في التصرف بهذه الطريقة فمن الأفضل أن يعزله في الحال، فاعتذر جلالة الملك ووعد بالالتزام أكثر في المستقبل. بالنسبة لـ«غالب»، فكانت أمسياته وقتًا مناسبًا للانغماس في تناول المانجو وخاصةً مانجو الجونسا الصغيرة حلوة المذاق التي كان يفضلها معظم أهل دلهي، وعندما تناقشت مجموعة من صفوة دلهي حول الصفات الجيدة التي يجب أن تتوافر في المانجو، قال «غالب»: «من وجهة نظري، هناك صفتان أساسيتان فقط بخصوص المانجو المفضلة وهما أن تكون حلوة ومليئة وسميكة.»

عندما تقدمت سِنَّه، أصبح قلقًا بشأن تراجع شهيته لفواكهه المفضلة، وكتب إلى صديق للتعبير عن مخاوفه: «إنني لا أتناول عشاءً قط، ولكن في ليالي الصيف الحارة كنت أجلس لتناول المانجو حتى تنتفخ بطني وبالكاد أستطيع التنفس. وربما آكل الآن في التوقيت نفسه، ولكن ليس أكثر من عشرة أو اثنتي عشرة واحدة منها، وإن كانوا من النوع الكبير فيكفيني ست فقط أو سبع..»

ويُبقي «غالب» تسلية واحدة أخيرة ليستمتع بها وسط جنح الظلام.. كتب لأحد الأصدقاء يصف اكتمال السعادة: «هناك ست عشرة زجاجة من النبيذ الفاخر في القبو، كنت أقرأ طوال اليوم وأشرب طوال الليل..». وبينما كان «غالب» ينهي المانجو ويتطلع إلى زجاجة النبيذ الخاصة به، كان العمال المرهقون يعودون إلى منازلهم قبل أن تغلق قُراهم أبوابها طوال الليل، وبينما يبدأ المقرضون أخيرًا إغلاق متاجرهم في «تشاندني تشوك»، كان العشاء بالقلعة الحمراء يقترب من نهايته، وتُعدُّ هذه إشارة لإحضار نرجيلة «ظفر» ولتبدأ الحفلات المسائية. التي اتخذت عدة أشكال مثل غناء «تانراس خان»؛ أو عزف بعض الموسيقا، أو قص الحكايا، أو دوران الراقصات في القلعة.

كان عازف آلة السيتار آلة موسيقية هندية تعود إلى حُكم المغوليين تشبه العود الأعمى «همت خان»، هو الأكثر شهرة عند «ظفر»، ووفْقًا للسير «سيد أحمد خان»: «لا أحد من العازفين يضاهيه تفوُّقًا، وإذا كان عازف الإمبراطور «أكبر» الشهير المدعو «تانسن» لا يزال على قيد الحياة، لكان قد صار تلميذًا لدى همت خان بكامل إرادته..» وقد ناشد الحكام والأعيان من جميع أنحاء البلاد همت خان للانضمام إليهم، وعرضوا عليه كثيرًا من المال والثروات، لكنه رفض التزحزح عن دلهي حتى لا يترك حالة الاحترام وهالة الرضا التي كانت تحيطه والتي ينشدها كل رجالة الفن؛ كان كل من يصل من الفنانين إلى «شاه جهان آباد» مدَّعيًا الفن، ينسى نفسه بالكامل بمجرد سماع مقطع واحد فقط من موسيقاه، فينحني ليُقبل تراب قدميه تبركًا به وتشريفًا له كأفضل عازفي العصر. وعندما يشعر «ظفر» بالحاجة إلى بعض الهدوء، كان يلجأ للعب الشطرنج تحت ضوء القمر. وفي بعض الأحيان كان يجلس بعد العشاء فقط مستمتعًا بمراقبة السماء. وأحيانًا كان يود «ظفر» أن ينام مبكرًا - وهذا يعني أن سهرته تنتهي في منتصف الليل– فيُدْخَل المطربون لحجرة نومه، حيث يغنون بنعومة ولكن من وراء حجاب، بينما كانت مدلكاته تعملن على رأسه ورجليه، وقد اتخذ حرسه الحبشيون مكانهم عند بابه.

في عام ١٨٥٢، بعد الفضيحة التي ارتكبها «تانراس خان» مع المحظية بيا باي، فضّل ظَفر المغنيات النساء واللاتي كان يشار إليهن باسم «خانوم»، ويبدو من الواضح أنه بعض المطربات أحيانًا كن يخرجن من خلف الحجاب الفاصل،

فكانت إحدى زيجات «ظفر» الأخيرة لفتاة مغنية اسمها «مان باي»، التي عُرفت بعد الزواج باسم «مختار محل» بعد زفافها عام ١٨٤٧، عندما كان «ظفر» في الثانية والسبعين. في مثل هذه الليالي، عندما يذهب «ظفر» مبكرًا لفراشه، ويخيم الهدوء على القلعة، كان عديدٌ من الأمراء يخرجون إلى المدينة.. حيث يمكن سماع أصوات الطبلة والغناء من أماكن بعيدة مثل «تشاندني تشوك». وكما يعلق أحد الزائرين: «النساء يرتدين ملابس أنيقة، ويقفن في أماكن لجذب انتباه الرجال، إما بشكل مباشر أو من خلال القوادين. يسود هنا جو من الشهوة والفجور.. يجتمع الناس في الليل وينغمسون في مختلف الملذات.» وقد اشتهر جمال وغنج محظيات دلهي في كل البلاد، ولا يزال الناس يتحدثون عن المحظية الشهيرة «آد بيجوم» التي عاشت قبل قرن من الزمان، التي كانت تظهر عارية بالكامل في الحفلات، مع بعض الرسومات التي تغطي جسدها بذكاء لدرجة أنه لا أحد يلاحظ عُريها: «إنها تزين ساقيها برسومات جميلة مثل تلك المرسومة على الأرْدية بدلًا من ارتدائها تلك الأخيرة؛ وبدلا من الأكمام كانت ترسم الزهور والبتلات بالحناء ببراعة تامة كما توجد في أرقى الأقمشة.». كما قيل إن منافستها العظيمة، والمدعوة «نور باي»، كانت تحظى بشعبية كبيرة لدرجة أن أفيال أمراء المغول العظيمة كانت تسد الممرات الضيقة خارج منزلها بالكامل كل ليلة، ومع ذلك، كان على كبار النبلاء إرسال مبلغ كبير من المال لها لتسمح لهم بالدخول.. كان كل من يفتن بها تسحبه في دوامة مطالبها حتى يفقد كل أمواله، ولكن لا يمكن الحصول على متعة رفقتها إلا بمنحها ما تطلبه من ثروة. ومع ذلك، في عام ١٨٥٢، في ذروة توهج نجمي «زوق» و«غالب»، كان مثار الانتباه الأكبر ليس بيوت المحظيات، بل جلسات الشعراء، على وجه الخصوص الشعراء المتجمعون في فناء كلية دلهي القديمة خارج بوابة «أجمري» مباشرة، أو في منزل المفتي «صدر الدين أزوردا».

فوفقًا لكتاب «الجلسة الشعرية الأخيرة في دلهي» للكاتب «فرحة الله بِك»، والذي على الرغم من كونه كتابًا خياليًا أعطى تصوُّرًا عن جلوس بعض الشعراء من أمراء البيت الملكي في فناء منزل «مبارك بيجوم» أرملة السير «ديفيد أوكتيرلوني» بالإضافة إلى أربعين شاعرًا آخرين من دلهي، من بينهم أزوردا، ومؤمن، وزوق، وآزاد، وصهباي، ومصارع مشهور اسمه يال، وغالب نفسه. وآخر مغولي أبيض، وهو «أليكس هيذرلي»، «أحد أعظم شعراء اللغة الأوردية» بحسب وصف أحد النقاد، والذي كان على صلة قرابة بآل «سكينر». وقد رُدِم الفناء لرفعه إلى مستوى قاعدة المنزل. وعلى الألواح الخشبية مُدَّت السجاجيد القطنية بالإضافة إلى عديدٍ من الثريات والشمعدانات، والفوانيس الصينية بحيث تحول المنزل إلى قبة حقيقية من الضوء، ومن السطح عُلِّقت أكاليل الياسمين، وكان البيت كله كان يفوح برائحة المسك

والعنبر، وقد رُتِّبت أوعية الشيشة المطلية بألوان زاهية على مسافات قصيرة على طول السجاد مرتبة على التوالي، كما تم ترتيب أماكن الجلوس بحيث تكون الأماكن الموجودة على اليمين مخصصة للشاعر الرئيس وذوي الصلات ببلاط «لكناو»، وإلى اليسار يجلس أساتذة دلهي وتلاميذهم.

كان كل من جاء من القلعة قد أتى وأحضر طيور السمان في يده، فقد كانت متابعة قتال الديوك والسمان هواية منتشرة جدًّا في ذلك الوقت، وكانوا يمارسونها قبل الجلسة الشعرية. وفي الجلسة يكون هناك اتفاق على الموضوع ونوع القصيدة مسبقًا استعدادًا للارتجال، وغالبًا ما يعرف عديدٌ من المشاركين بعضهم بعضًا جيدًا، وتنتشر بينهم روح من المنافسة الوُدية. خلال الأمسية، يتم تمرير الجَوْزة بينهم، وكذلك أرغفة خبز الألبان والحلويات. ثم يقوم الرئيس - في هذه الحالة «ميرزا فخرو» - بالتسمية وحمد الله.. وهنا يخيم صمت شديد، يكون الضيوف في القاعة قد وضعوا طيور السمان في أقفاصها وقد أخفوها خلف المساند، ويقوم الخدم بإزالة الجَوْزة، ويضعون مكانها المبصقات - لماضغي التنبول - ، ثم يوزعون أوراق التنبول وصواني التوابل العطرية أمام كل ضيف. في غضون ذلك الوقت يصل الممثل الشخصي للملك، ومعه قصيدة الملك، وبصحبته عدة حراس.. يطلب الإذن لقراءة القصيدة، وهنا يومئ «ميرزا فخرو» بموافقته، وبعده يبدأ الشعراء إلقاء قصائدهم، بعضهم يغنيها، وبعضهم يُلقيها، وآخرون يصفقون لمن يحظون بالإعجاب لبلاغتهم وجمال قصائدهم، مما يترك الشعراء الأقل إنجازًا غارقين في صمت تام وإحباط. يستمر إلقاء الشعر حتى الفجر، عندها يكون دور «زوق» و«غالب» لتسخين الأمور.. لكن قبل ذلك بوقت طويل، ومن الشمال يكون صوت بوق الصباح قد انطلق على بعد ميلين، في المعسكرات البريطانية، وهناك يوم جديد تمامًا على وشك البدء.. لهذا الحد، كان الشعبان يعيشان في زمنين مختلفين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في عام ١٨٥٢، كان البريطانيون والمغول يعيشون في فترة موازنة صعبة، وغير مستقرة، حياة متعارضة على الرغم من كونها متوازية.

بالرغم من حالة التوتر التي صاحبت قضية وريث العرش، وتعنُّت «زينَّت محل» ضد خلافة «ميرزا فخرو»، فقد حُوفِظ على حالة الهدنة المؤقتة بين البلاط والإقامة البريطانية. لكن هذه الهدنة، كسِرَتْ عام ١٨٥٣ بسلسلة من الوفيات المفاجئة والمريبة.. وبحلول نهاية هذا العام كان المسئولون البريطانون الثلاثة الذين وقَّعوا اتفاق الخلافة مع ميرزا فخرو، قد ماتوا في ظروف مثيرة للشك، لكن أكثرهم إثارة للريبة كانت الوفاة البطيئة والرهيبة

للسير «توماس ميتكالف» والذي - وفقًا للأطباء الذين حاولوا علاجه - قد مات نتيجة التسمم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقتراب العاصفة

بدأ السير «توماس» يشك في أنه قد عُرِّض للتسمم قرب نهاية صيف عام ١٨٥٣. إذ لم يكن رجلًا يعاني عادة من اعتلال صحته، وبسبب تشبثه بجدول منظم بعناية، كان يتناول الطعام باعتدال ونادرًا ما يخرج أو يسهر لوقت متأخر، فقد حرص على البقاء بجسد رشيق وصحة جيدة. ثم فجأة، في بداية موسم الرياح الموسمية عام ١٨٥٣، بدأ يشعر بمرض رهيب! صاحبه القيء بعد ذلك بفترة قصيرة، ثم ولأسابيع متتالية وجد أنه غير قادر على الاحتفاظ بأي طعام داخل جسده. وأصيبت ابنته «إيميلي» بالرعب من السرعة التي تدهورت بها حالته.. كتبت في مذكراتها بعد أن رأته: «كان يبدو نحيفًا ومتعبًا وشديد الشحوب! كان مريضًا بشدة ويعاني من قيء مزعج سائل القوام، وانتشرت علامات الجدري الصغيرة على وجهه، حيث ظهرت طفيفة جدًّا بالبداية، ثم بدأت حالته تتدهور، على الرغم من أنه لم يكن يعاني سابقًا من أي مرض مهما كان..».

في شهر ديسمبر السابق، اجتمعت العائلة بأكملها للاحتفال بالكريسماس بدلهي، بجانب المدفأة في منزل «ميتكالف». كان «ثيو» هناك، وعلى غير العادة، مصطحبًا زوجته «شارلوت»، التي اختارت البقاء في «شيملا» بعدما أُرسِل زوجها إلى دلهي؛ وقد أصبحت حاملًا بطفلها الأول، وكانت «جورجينا»، التي كان لإضرابها عن الطعام في نهاية المطاف الأثر المنشود المتمثل في إجبار والدها على السماح لها بالتواصل مع «إدوارد كامبل» لإسعادها وإراحة بقية أفراد الأسرة، وقد اتفقا على الزواج بعدها بوقت قصير. وكانت شقيقة «جورجينا» الكبرى «إيميلي» في دلهي أيضًا، بعد أن كانت تعيش في «كانجرا» مع زوجها «إدوارد» وطفلتها الجديدة «آني»، وكان زوجها قد حصل على وظيفة مفوض تلك المنطقة الرائعة في التل وهي واحدة من أكثر الوظائف المرموقة بالمكان، كتبت «إيميلي» عن هذا التجمع: «كانت لدينا مخططات كثيرة وإجازة قصيرة، لكن والدي صمم على حضورنا. كان اجتماعنا هناك في الكريسماس، ومقابلة العائلة شيء مُبهجٌ جدًّا.. وقد شعر أبي العزيز بالفخر بأحفاده وخصوصًا بابنتي الصغيرة الجميلة.. كما حضر بعض الضيوف الآخرين في المنزل معنا، مما جعلها حفلة كبيرة سعيدة.

حينها كان أبي على ما يرام وفي حالة معنوية جيدة في وجود عائلته بأكملها حوله. وكان الطقس رائعًا؛ فقمنا بكثير من رحلات ركوب الخيل، والتجول، والنزهات، وحفلات العشاء المستمرة. لكن مع الأسف، لم ندرك أنه عيد الميلاد الأخير الذي نحتفل به معًا..»

كان السير «توماس» قد أسر بتفاصيل اتفاقه السري مع «ميرزا فخرو» لـ«إيميلي» وزوجها: «المسئولون الذين قاموا بالمفاوضات كانوا وزير الخارجية السير «هنري إليوت»، ونائب الحاكم السيد «توماسون»، والمقيم في دلهي والدي، السير «توماس».. استمرت المفاوضات لأكثر من عام ونصف حتى وافق ولي العهد أخيرًا على الشروط المعروضة.. سارت الأمور بشكل أفضل مما توقع والدي، ووُفِّقوا في المفاوضات على الرغم من أنه كان يعلم أن هناك زمرة قوية في القصر، تضغط على الجميع لمنع ولي العهد من تقديم مقترحاته للحكومة والتفاوض معهم. هذه الزمرة كانت ترأسها الملكة، وهي امرأة ذكية، وشريرة.. لذلك ثار غضبها عندما سمعت أن ولي العهد وافق على الشروط، وقررت الانتقام منه! كان والدي يعرف شخصيتها جيدًّا، فهي لن تدع أيَّة عقبة تقف في طريق طموحها. عرف أبي أيضًا أن انتقامها لن يتوقف، فقال لنا: الفصل الأول من المسرحية قد انتهى، فماذا سيحدث في الفصل التالي؟».

لذلك كان السير «توماس» يشتبه بشدة فيما كان يحدث له من مشكلات بالهضم في خريف عام ١٨٥٣ –على الرغم من أنه بالطبع لم يكن لديه دليل - كما لم يتفاجأ على الإطلاق عندما سمع أن السيد «هنري إليوت» والسيد «توماسون» كانا يعانيان من أعراض مماثلة. على الرغم من مرضه، إلا أنه كان عازمًا على الوفاء بوعده بحضور حفل زفاف «جي جي» في شيملا في أكتوبر، خاصة وأن الرحلة ستسمح له أيضًا برؤية طفل «ثيو» الجديد، وريث لقب العائلة الباروني المستقبلي. لكن كان لديه شرطًا واحدًا فقط.. كانت زوجته «فيليسيتي» قد توفيت في شيملا قبل عقد من الزمن، في ٢٦ سبتمبر، وقال إنه لا يرغب في الذهاب إلى المدينة حتى تمر ذكرى وفاتها. بدأت العائلة التجمع في منزل ثيو وشارلوت بالقرب من الكنيسة في شيملا قرب نهاية أغسطس. كانت «جي جي» هناك منذ بداية الطقس الحار، تساعد في رعاية أخت زوجها الحامل، وانضمت إليهما إيميلي في الحادي والثلاثين، بعد أن اجتازت الرحلة من كانجرا. بعد أسبوع، قبل الأوان قليلًا، وقبل وصول ثيو من عمله في دلهي، أنجبت شارلوت طفلًا صغيرًا سليمًا. كتبت إميلي: «كان الرضيع طفلًا بصحة جيدة، وبدت صحة الأم جيدة كذلك...

عندما وصل ثيو بشكل غير متوقع في اليوم الثامن بعد ولادة الطفل، كانت مفاجأة له لكنها كانت مفاجئة رائعة، وكان كلاهما سعيدين للغاية بصبيهما. في اليوم التاسع، استطاعت التحرك والجلوس على الأريكة وخرجت أنا لمدة ساعة، وتركت ثيو جالسًا بجانبها. عندما عدتُ إلى المنزل، قيل لي إنها كانت ترتجف للغاية. لم تبدُ أنها مريضة، ولكن منذ ذلك المساء، بدت أقل وأقل وعيًا بما كان يحدث من حولها، وأقل اهتمامًا بطفلها، وكانت تغفو كثيرًا، ولا يبدو أنها مستيقظة حتى في أثناء تناول الطعام. بدا الأطباء أكثر جدية يومًا

بعد يوم، وصُدم كلاهما مثلي عندما كانت تكرر سؤالًا واحدًا فقط، ما اليوم؟ لقد ماتت والدتك في ٢٦ سبتمبر، أليس كذلك؟ كانت الفكرة الوحيدة التي تملأ رأسها، وعلى الرغم من أننا - طبقًا لأوامر الطبيب - حاولنا طمأنتها بأن هذا التاريخ قد فات، لكننا لم ننجح.. كانت تجيبنا: «لا، أمك ماتت في ذلك اليوم، وأنا أيضًا سأموت في يوم٢٦!». في الثاني والعشرين من سبتمبر كانت مريضة لدرجة أنه قُدِّمت المناولة المقدسة لها. طقس مسيحي علاجي.

في اليوم التالي، كان ثيو قد انهار تمامًا، وهي رقدت في ذهول، لا تتقلب في سريرها ولا تنتبه لأي شيء.. أخيرًا، أخبر الطبيب ثيو أن يسألها عما إذا كانت لديها أيَّة رغبة أو أمنية تحب أن تعرب عنها بخصوصه هو أو الطفل. هزت رأسها ببساطة، فاعتقد ثيو أنها لم تفهم، فسألها: «عزيزتي، ألا تعرفين من أنا؟» نظرت إليه بأجمل ابتسامة ممكنة وقالت: «نعم، أعرف، أنت والد الطفل الصغير».. مسكين ثيو! انهار تمامًا، وكان لا بد من إخراجه من الغرفة وهو في أشد الحزن. ثم بدأت سلسلة من التشنجات استمرت عدة ساعات.. أخيرًا، عندما صارت أكثر هدوءًا، التفتت نحوي وقالت: «ألا تسمعينهم؟» أجبتها: «ما الذي تسمعينه يا عزيزتي؟»، قالت: «أوه! الملائكة يغنون والقيثارات تعزف. سأتمكن من سماعهم بوضوح لكن بعد قليل، في جوف الليل.. عزيزتي، متى سيكون يوم ٢٦ سبتمبر؟» حاولت إقناعها بكلام الطبيب، أن التاريخ قد فات بالفعل، فعلى حد قولهم، كان ثبات تلك الفكرة في العقل سيقتلها. ولكن على الرغم من حالتها، إلا أن عقلها كان واضحًا في هذه النقطة. بعد منتصف الليل بدأت التشنجات مرة أخرى.. وعندما كانت الشمس تشرق فوق سريرها، نهضت فجأة مستيقظة وتركت فراشها وأخذت تغني أغنية جامحة وغريبة، بلا أيَّة كلمة فيها –الموسيقا فقط - مع وجهها الذي صار مفعمًا بالحيوية.. لم تكن قد تحركت منذ أيام، ومع ذلك فها هي قد رفعت نفسها فجأة. هرع ثيو فرِحًا يدعمها بذراعه لكنها لم تنتبه له، وعندما انتهت أغنيتها، سقطت في فراشها، ولم تتحرك مرة أخرى. ماتت في الثالثة مساء يوم ٢٨ سبتمبر١٨٥٣، وقد دمرت وفاتها حياة ثيو بالكامل.»

نُقِل الخبر إلى السير «توماس»، الذي كان يخيم في كالكوتا في على حافة السهول وعند سفح الطريق المؤدي إلى شيملا، في انتظار مرور ذكرى وفاة زوجته. وقد صار الآن هو الآخر مريضًا بشدة، شاحبًا وغائبًا عن الوعي، وغير قادر على الاحتفاظ بأي شيء داخل معدته أكثر من حساء خفيف. عندما رأته عائلته، قرروا إلغاء حفل زفاف الكنيسة الكبير الذي خُطِّط له لزواج «جي جي» و«إدوارد كامبل»، وبدلًا من ذلك سيكتفون بتجمع عائلي هادئ في غرفة جلوس ثيو. بعد أسبوع، بعد رحيل العروسين لقضاء شهر العسل في التلال الواقعة وراء شيملا، قام السيد توماس الذي صار هيكلًا عظميًّا بالتخطيط للعودة إلى دلهي برفقة ثيو الحزين.. كان قد أحرزا تقدمًا بطيئًا عندما بدأ

السير توماس الاحتضار. وفقًا لإميلي، لم يتألم، بل عانى من ضعف بسبب القيء الدائم.. لقد تبعته في أسرع وقت ممكن، لكن عندما وصلت إلى أمبالا تلقيت رسالة من ثيو مفادها أن والدي الحبيب مات بسلام في فراشه وبيته في الثالث من نوفمبر. كانت السموم التي استُخْدِمَت بلا شك للتخلص منه نباتية المصدر، وأُعدت بطريقة لا تترك وراءها أي أثر. أدت عملها، ببطء ولكن بثبات، وهي سموم معروفة جيدًا للأطباء المحليين.. وفقًا لمذكرات البلاط التي تعدُّ يوميًّا للسير توماس، في أثناء الليلة الأخيرة، أرسل ثيو المذهول واليائس إلى «حكيم إحسان الله خان»، الطبيب الشخصي لظفر للبحث عن حل للمرض الذي يعاني منه والده. كان الحكيم قد وصل إلى بيت ميتكالف - على الرغم من الطبيب روس - لكنه لاحظ أنه لا توجد ضرورة لوجوده، ولذلك غادر. يمكن تخيل الموقف اليائس بسهولة، السير توماس في سكرات موته؛ وثيو على استعداد لفعل أي شيء لإنقاذ والده؛ بينما الطبيب روس يرفض بشدة السماح لرجل يشتبه في تورطه في وفاة السير توماس بالدخول.

بحلول نهاية العام، كان السير هنري إليوت والسيد توماسون أيضًا ماتا، على الرغم من عدم وجود دليل قوي لإثبات تسممهما، كما هي الحال مع السير توماس، بخلاف الأعراض المتشابهة والمريبة. وبينما كان «حكيم إحسان الله خان» يتباهى أمام «هارييت تايتلر» عندما سُئل بعد سنوات عديدة عما إذا كان بإمكانه أن يسمم أحدهم، أجاب: «أستطيع. أرني ضحيتك وأخبريني متى تريدينه أن يموت. في سنة؟ ستة أشهر؟ شهر أم يوم؟ سيموت.. سيتمنى الموت، وعلاوة على ذلك، فإن الأطباء لن يكتشفوا أبدًا السبب الحقيقي لوفاته». سواء أكان هذا ما حدث فعلًا أم لا، فإن شائعات تسمم ميتكالف على يد «زينّت محل» انتشرت على نطاق واسع في البلاط، وساعد هذا في جعل المسئولين ينظرون إلى عائلة المغول بحرص أكثر من ذي قبل. قبل وفاته، توقع السير توماس أن ميرزا فخرو لن يعش بعده طويلًا. لذلك كانت مفاجأة لكل شخص أنه عاش لما يقرب من عامين ونصف، وأنه عندما توفي في ريعان شبابه، في العاشر من يوليو ١٨٥٦، كانت وفاته في الواقع من الكوليرا وليس التسمم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان شخص في القصر يأمل أن يقوم المقيم الجديد بعكس مسار سياسة السير توماس في البلاط المغولي، فسرعان ما أصيب بخيبة أمل. كان «سيمون فريزر»، وهو قريب بعيد لـ«ويليام فريزر»، رجلًا مختلفًا؛ ودودًا، تقيًّا، ممتلئ الجسم، وأرمل كبير السن ووحيد إلى حد ما، ومولعًا بالغناء، وكانت متعته الأساسية في الحياة هي تنظيم أمسيات موسيقية صغيرة لأصدقائه. وهو أحد أقارب مدير شركة الهند الشرقية الإنجيلية «تشارلز جرانت»، والذي كان قد ساعده في البداية في الحصول على وظيفة في الهند، وافق فريزر

عند وصوله أن يكون راعيًا لـمهام الأب «جينينجز»، كتب «فريزر»: «بالرغم من أنني لا أتفق معه في كثير من آرائه، إلا أنه مسيحي صالح وأنا أحترمه كثيرًا..»، بعد ذلك بوقت قصير ذهب «سيمون فريزر» إلى حد الانضمام إلى جوقة كنيسة سانت جيمس للترنيم، التي كانت تنظمها ابنة «جينينجز» التي وصلت إلى الهند حديثًا؛ شقراء جميلة متحمسة تبلغ من العمر ٢١ عامًا تدعى «آني».. منذ بدأت «آني» وصديقتها التي لا تقل عنها جاذبية الآنسة «كليفورد» تنظيم الغناء، كان عدد الجنود الذين يزورون الكنيسة في أيام الآحاد قد زاد بدرجة ملحوظة، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان أحد العازفين، وهو «تشارلي توماسون»، قد نجح في أن يخطب ابنة القسيس.

كما هي الحال مع السير «توماس»، ماتت زوجة «سيمون فريزر» وهي بعد صغيرة. ولكن خلافًا لـ«ميتكالف»، لم يتبادل العلاقات بشكل صحيح مع أطفاله الذين كانوا ترعرعوا في مدارس داخلية إنجليزية ثم اختاروا البقاء بإنجلترا، وبالكاد تواصلوا مع والدهم إلا في بعض الأحيان لطلب المال، حيث كان يوبخ ابنه الأكبر «ليس لديَّ أي تفاصيل عن حياتك الشخصية حرفيًّا.. وهذا لا يُرضيني، ويرعبني أكثر كوننا نعتمد في العائلة على المراسلات الورقية.» عندما أُرسِل أحد أبنائه، القس «سيمون ج. فريزر»، إلى الهند، ذهب «فريزر» لمقابلته، لكن الاثنين مرَّا دون أن يتمكنا من معرفة بعضهما بعضًا!

كان فريزر قد أمضى حياته في خدمة شركة الهند الشرقية دون فعل كثير ليُميز نفسه بأي شكل من الأشكال. كما كان من المقرر أن تكون دلهي آخر مهمة له، وهو لم يكن لديه أي طموحات أخرى بعدها، لذا كان مصممًا على الاستمتاع بوقته وتحقيق أقصى استفادة من الفرص التي أتاحها هذا التعيين. كتب إلى ابنه سيمون في عام ١٨٥٤: «أنا راضٍ تمامًا عن مركزي، دلهي تناسبني، وقد تخلصت من الأمراض الخفيفة التي عانيت منها لبعض الوقت.. لقد حققنا نجاحًا كبيرًا مؤخرًا بسبب مجهودات الجوقة، وقد قمنا بغناء ترنيمة جميلة.. لم يحدث ما يعكر مزاجي هنا، وكل المجتمع يعبر عن امتنانه الشديد للجهود المبذولة. وآمل أن أتمكن من جمع الناس معًا كل أسبوعين لسماع بعض الموسيقا، على الرغم من أن أي متاعب تحُل على رأسي بصفتي رئيس الاحتفالات. الشيء السيئ الوحيد، أنه سواءً كان التجمع في منزلي أو في مكان آخر، لا تبالي الجماعة، على الرغم من أنهم من المفترض أن يشاركوا في كل ما ترتب له لهم، فإنهم لا يقومون بالمبادرة بتحمل عناء الترتيب لتجمعات مماثلة بأنفسهم، ولا يمكن للموسيقا أن تتطور بدون ممارسة.».

لم يكن لدى فريزر - لأنه دومًا مشغولًا بممارسة الغناء - أيَّة نية للسماح بواجباته الرسمية أن تستغرق من وقته أكثر من المفروض، وقضى شهرًا كاملًا في دلهي قبل أن يكلف نفسه عناء زيارة الإمبراطور. حتى إنه فشل في

الظهور في أول حفل استقبال رتبه له «ظفر» في الأول من ديسمبر عام ١٨٥٣، في حديقة المغول الكبرى روشانارا باج. تسبب هذا في شكوى زوجين من حريم ظفر، واللتين اضطرتا للوقوف في الحديقة طوال فترة مراسم الترحيب، وتذمرن من البرد القارس، في حين اشتكت عديدٌ من المحظيات من أن «السيبويين» المتسكعين حول الحديقة أخذوا يومئون لهن بإيماءات غير لائقة. كان فريزر قد أعلن رغبته في الاستقالة عن الخدمة قبل ورود أنباء وفاة ميرزا فخرو بيومين، وقد حمل رده على أزمة الخلافة الجديدة كل علامات رجل كبير كسول نائم بسلام وتم إزعاجه.. «أبناء الملك الباقين ليس لديهم أيَّة مَيْزات خاصة تشير لنبل شخصياتهم، أو نيات جيدة لكسب تعاطف السكان الأصليين»، هكذا كتب إلى الحاكم العام الجديد، اللورد «كانينج»، على الرغم من عدم وجود سجل يشير إلى أن فريزر قد أزعج نفسه بالفعل بمقابلة أي منهم قبل أن ينزلوا إلى كالكوتا. أوضح في رسالته أنه في اليوم التالي لوفاة ميرزا فخرو قام بزيارة نادرة للقصر للتواصل مع الإمبراطور. وبعيدًا عن مشهد حداد تمثيلي ربما كان متوقعًا، وجد بدلًا من ذلك الإمبراطور بعينين جافتين ليس بهما أثر للدموع أو الحزن، برسالة جاهزة مسبقًا مكتوبة إلى الحاكم العام يضغط فيها مرة أخرى لخلافة «ميرزا جيوان بخت»، كان جسد «ميرزا فخرو» قد دُفن بالفعل بالقرب من ضريح صوفي لـ«قطب صاحب» في مهرولي. وجاء في رسالة «ظفر» أن: «جيوان بخت» يليق بهذا المنصب، على أساس أن ولادته شرعية وأنه كان (في نظر والده على الأقل) لديه جميع المؤهلات والعادات الفاضلة الضرورية للأمير، لقد حصل على تعليم كامل تحت إشرافي، بينما البقية من أبنائي لا يقارنون به. هو وحده الجدير بالمنصب برأيي».

لكن كان لدى «فريزر» أفكار أخرى. وأصر على «كانينج» بشدة أن لا أحد من الأمراء يليق بأن يكون وليًّا العهد - وأقلهم «جيوان بخت» - . وجادل بأن وفاة «ميرزا فخرو» التي تبعت الأحداث الجسيمة التي تضمَّنت ضم مملكة «أفادا» الغنية والمستقلة قبل خمسة أشهر، في فبراير ١٨٥٦، قد وفرت لهم فرصة مثالية للوصول بالمغول للانقراض الوشيك لنسلهم. كان يعتقد أن هذا يجب أن يحدث مباشرةً في حالة وفاة «ظفر» وهو حدث لا يمكن أن يكون بعيدًا: «يبدو لي أنه لا أحد من الأبناء يصلح وليًّا للعهد! الأمراء عمومًا ليسوا رجالًا ذوي نفوذ بارز، وكانوا يبدون قليلًا من الاهتمام بثروات الأسرة، ومن خلال إزالة أكثر أفراد الأسرة جدارة بالمنصب من مسرح الأحداث - ميرزا فخرو - صارت الأمور جاهزة لإدخال التغييرات المطلوبة في ذلك البلد.». وهي الفكرة التي دعمها نائب الحاكم الجديد، «سي بي ثورنهيل»، من صميم القلب. من مستقرِّه الصيفي في تلال «ناينيتال»، كتب إلى كالكوتا لحث كانينج على الاستماع إلى فريزر واغتنام الفرصة، قائلًا إنه سوف «يندم كثيرًا

إذا لم يستفِد من تلك الفرصة المتاحة الآن لإدخال التغيير الذي من الواضح أنه يتناسب مع الحالة الفعلية للإمبراطورية الهندية، [وهو أيضًا] لأجل مصالح الأمراء أنفسهم.».

واستمر في شرح سبب اعتقاده، فقد رأى أنه من مصلحة الأمراء المغول طردهم من ديارهم وأن تُمنع حساباتهم الخاصة - مصدر دخلهم الوحيد - على الفور: «نأمل أن يتسبب إلغاء أسماء الدولة الملكية في فطامهم بسهولة أكبر من عاداتهم الاعتمادية في مصدر دخلهم.» لم يتردد اللورد كانينج في أخذ النصيحة المقدمة له. بعد كل شيء، كان قد وصل إلى الهند قبل خمسة أشهر فقط، ليحل محل سلفه اللورد «دالهوزي». كان كانينج سياسيًّا وسيمًا، مجتهدًا ومنتجًا، ومحافظًا إلى حد ما، في أوائل الأربعينيات من عمره، كان قد قبل تعيينه حاكمًا عامًّا فقط بسبب إحباطه من فشله المستمر في الحصول على منصب رئيس مجلس الوزراء في لندن. قبل وصوله إلى هنا لم يكن لديه أي اهتمام سابق بالهند، وبحلول يوليو لم يكن قد اعتاد الحرارة والرطوبة في كالكوتا. في الواقع، خلال كل الأشهر القليلة الأولى في الهند كان قد وجد نفسه مسجونًا في البيت الحكومي المؤثث بشكل سيء، وشعر بالرعب عندما اكتشف أنه لم يكن يمتلك خزانة مياه واحدة، وقال عن هذه الفترة: «كنت مُحاطًا بالجبال، كانت حياة أفضل قليلًا فقط من حياة العبيد». ومع ذلك، لم يمنعه أي من هذا من اتخاذ موقف رافض بثقة لموقف «المغول» كتب في رسالة مختصرة، ردًّا على توصيات فريزر: «كل الدلائل الحياتية للسلطة التي يربطها عقل السكان المحليين بالملوك سُحِبت بالفعل من ملك دلهي، الهدايا التي كانت في وقت من الأوقات يقدمها الحاكم العام والقائد العام للملك استُبْعِدت؛ امتياز صك العملة التي تحمل رمزه سُحب كذلك، ولم يعد ختم الحاكم العام يحمل رمز التبعية للملك؛ وحتى رؤساء القبائل مُنعوا من استخدام واحد. تقرر أن هذه المظاهر من التبعية والإذعان لا يمكن استمرارها، مع وجوب احترامهم هم لسلطة الحكومة البريطانية.»

على الرغم من افتقاره إلى الخبرة بالهند، كان «كانينج» واضحًا تمامًا أن الآن هي اللحظة المناسبة لاتخاذ الخطوة الدرامية والتاريخية المتمثلة في خلع سلالة المغول، التي حكمت شمال الهند لأكثر من ثلاثمائة عام. كان «بابور»، المغولي الأول، قد استولى على دلهي بينما كان هنري الثامن قد بدأ للتو حكمه في إنجلترا. كتب «كانينج» أن الإمبراطورية البريطانية لم تكن بهذه القوة أو الأمن من قبل: «لم تشهد السنوات القليلة الماضية تمددًا للقوة البريطانية فحسب، بل شهدت أيضًا توطيدًا ملحوظًا لقبضتها في الهند؛ صارت سيادتها أكثر وضوحًا داخل حدود الإمبراطورية! ولهذا السبب، قُرِّر، اتفاقًا مع آراء فريزر، بأنه لن يُعتَرف بأمير مغولي وليًّا العهد من الآن.» وختم قائلًا: «المقاطعات العليا المستعمرة في الهند ليست الآن في حالة مضطربة وغير

مستقرة، كما كانوا في عام ١٨٤٩ أو ١٨٥٠. كما أنه صار واضحًا أن وجود البيت الملكي في دلهي أصبح مسألة غير ضرورية.» نظرًا لوضعه ووصوله مؤخرًا إلى الهند، لم يكن بالمتوقع من كانينج أن يعرف أفضل من هذا.. ولكن كما ستُظهر الأحداث قريبًا، فهذه الرسالة تمثل قراءة خاطئة شاملة للوضع في شمال الهند.. هكذا أصبح البريطانيون غير مدركين للواقع الهندي من حولهم، ولا حتى قادرين على إدراك موقفهم الحقيقي بدقة، فقد سيطرتْ عليهم الغطرسة والاعتداد الإمبراطوري بالنفس مما قلل لديهم الرغبة في الحصول على معلومات دقيقة أو الحصول على أيَّة معرفة حقيقية بحالة البلد. وبشكل أكثر تحديدًا، بقدر اهتمامهم بمحو أقل أمل لأي من أمراء البيت الملكي في أن يصبح أيهم خلفًا لظفر على الإطلاق، أوجد البريطانيون وضعًا جعل كل أفراد العائلة الإمبراطورية بلا أي شيء ليخسروه، كانوا جميعًا مستائين بما يكفي للمخاطرة بأي شيء لمحاولة إنقاذ موقعهم. لقد كانت هذه الرسالة خطأً فادحًا سيدفع البريطانيون ثمنًا باهظًا بسببه قريبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في دلهي، وبعد ثمانية أشهر فقط من وفاة ميرزا فخرو، ظهرت إحدى علامات الاضطرابات التي ستتزايد فيما بعد. في وقت مبكر من صباح يوم ١٨ مارس ١٨٥٧، ظهرت ورقة - «قطعة صغيرة ومتسخة من الورق، مرسوم عليها صورة سيف ودرع» حسب كلام ثيو - عُلِّقت على الجدار الخلفي للمسجد الجامع في دلهي. تزعم أنها إعلان من شاه إيران أن القوات البريطانية قد عانت للتو من هزيمة ساحقة في بلاد فارس، وأن الجيش الفارسي قد عبر الحدود الأفغانية ويمر الآن من «هرات» ليأتي ويحرر دلهي من الحكم المسيحي: «بمشيئة الله لن يمر كثير من الوقت قبل أن أظهر في أرض الهند، ليفرح ويسعد الحكام والرعايا بوجودي. وإن كان الإنجليز حرموكم الطعام والراحة، فإنني سأفعل بهم المثل لرد الصاع صاعين، وليكُن معلومًا أنه ليس لدي أي اعتراض على دين أي شخص. وبحلول اليوم السادس من مارس، سيدخل تسعمائة جندي إيراني إلى الهند جنبًا إلى جنب مع كبار الضباط، بالإضافة إلى خمسمائة جندي موجودين بينكم في دلهي بالفعل، متنكرين بملابس أخرى.. في هذه الأثناء يجب على المسلمين الامتناع عن مساعدة المسيحيين أو دعمهم، ومن الضروري كذلك أن يظلوا مخلصين قدر الإمكان تجاه إخوانهم المسلمين.».

نُشِر الإعلان لمدة ثلاث ساعات وتجمع حشد كبير لقراءته، حتى رآه ثيو ميتكالف، الذي صادف مروره، ومزَّقه! لكن في اليوم التالي، أعيد طبع محتويات الإعلان بالكامل في صحيفة البلاط «سراج الأخبار»، لتنشر موجة من الإثارة عبر المدينة، على الرغم من أن الصحيفة شككت أيضًا في صحة ادعاء الانتصار الفارسي على البريطانيين. كما كانت هناك تقارير موجزة في

الصحف الأوردية عن الطعام الذي كان يتم تمريره ليلًا خفية من قرية إلى قرية عبر هندوستان، إشارةً على تواجد بعض التنقلات الغامضة حيث ذكر تقرير في صحيفة «نوري المغربي» أنهم بالفعل قد عبروا في فبراير بعض القرى المجاورة لـ«بولاندشهر». وبحلول أوائل مارس، كانوا قد وصلوا إلى ماثورا، على الطريق الرئيس المؤدي إلى آجرا. لكن لا يبدو أنهم اقتربوا من دلهي أكثر من هذا، ويبدو أنه لا يوجد أحد قد فهم فحوى الأمر ومدى أهميته؛ وبقدر ما كانت صحف دلهي قلقة، فقد مُنحت تلك المسألة مساحة أقل بكثير من مساحة تقارير الفتاوى في «مدراس»: «ندعو المؤمنين إلى الجهاد ضد الكفار.. ومن يسقط في مثل هذه الحرب فهو شهيد!».

وكما انتشرت إشاعات مثيرة أن الروس أو الجيش الفارسي، أو كليهما، على وشك الظهور في دلهي، كان أبرز التقارير هي تلك التي بدأت الظهور في أواخر مارس، عن اضطرابات الجيش في البنغال، ولا سيما في بيرهامبور وبراكبور، ووفْقًا لثيو، في ربيع عام ١٨٥٧، كان مسئولو دلهي من البريطانيين على وعي تام بالحاجة إلى التأكد من الإخلاص في جيش السيبويين، وتناقشوا في الموضوع أكثر من مرة. بدأت هذه الاضطرابات في دلهي على الأقل، في ٧ فبراير ١٨٥٦، حين استولى البريطانيون بحكم فردي على مملكة «أفادا» المزدهرة في الجانب الشرقي من دلهي. والعذر في ذلك أن النائب الخاص بها، وهو الشاعر والراقص «وجد علي شاه»، كان «فاسدًا بشكل مفرط».. وإن كان شعب دلهي قد اعتاد على الإزعاج البريطاني والاستيلاء على الممتلكات كما كان يحدث منذ ما يقرب من قرن، لكن الاستيلاء الكامل على مملكة تسبب في انزعاج أكبر لم يتوقعه البريطانيون، وأدركوا أن موقف المغول ليس ثابتًا في الحضيض كما تخيلوا.. الأهم من ذلك، أنها أزعجت إلى حد كبير السيبويين بجيش شركة الهند الشرقية، حيث إن معظمهم من الطبقة العليا الهندوسية في ريف «أفادا»، وقد وجدوا أنفسهم مضطرين لتقليص حجمهم إلى مجرد تابعين، بالإضافة إلى الطريقة الفظيعة والوحشية التي نُفِّذَ بها الضم والتي تسببت في كثير من المشكلات.. حتى البريطانيون وجدوا أنفسهم مرغمين على الدفاع عن أنفسهم، على الرغم من أنهم كانوا على علم بأن ما حدث لم يكن من أكثر الحلقات شرفًا في تاريخهم.

ذهب «روبرت بيرد»، أحد موظفي شركة الهند الشرقية إلى حد نشر كتاب على نفقته دون الإفصاح عن هوية الكاتب بعنوان «استيلاء شركة الهند الشرقية على «أفادا»»، وفي الكتاب دحض - كشاهد عيان على ما حدث - الروايات الخيالية التي رواها أهل أفادا عن الاستيلاء، إحداها كانت تلك التي تصور الأمور وكأنها جريمة وفوضى من قِبِل حكومة مريضة وفاسدة!

كتب «بيرد» أن هذه الصورة كانت مجرد خيال، أو رواية رومانسية شرقية وأنه من الواضح أن أهل «أفادا» صوروها كحقيقة - عن جهل - لأنهم يفضِّلون سرقة حكامهم المغول لهم على حكومة الشركة العادلة! لم يشر «بيرد» في كتابه إلى أولئك الذين لديهم خبرة في كلتا الحكومتين، وهو عدد يصل إلى حوالي ٥٠٠٠٠ موظف «سيبوي» في الشركة، والذين شعروا بالاستياء من الاختلاف في النظامين. إذ لا يبدو أن الضم نفسه قد اقترن فقط بأعمال العنف والسلب، ولكن يبدو أن جميع الممتلكات زُلزلت إلى حد لم يسمع به من قبل في أي حكم حضاري. حيث جُرِّد مالكو الأراضي من ممتلكاتهم، باختصار، تعاملت الشركة مع أفادا كما لو كانت جميع الممتلكات الموجودة فيها صارت غنيمة لها؛ كما لو كانت جزيرة غير مأهولة تم اكتشافها حديثًا، ويحق للمكتشفين فعل ما يشاءون. كان قبلها بالفعل تم الاستيلاء على عديدٍ من الممالك الصغيرة - بهدوء - من قبل شركة الهند الشرقية، وضم ساتارا عام ١٨٤٨، وجانسي عام ١٨٥٣ وناجبور عام ١٨٥٤؛ لكن «أفادا» كانت استحواذًا على نطاق مختلف تمامًا عن أي شيء قبلها حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ضم أفادا ووفاة ميرزا فخرو، صارت نهاية حكم المغول وشيكة بشكل واضح. وبالنسبة لظفر، البالغ من العمر الآن واحد وثمانين عامًا، كانت هذه صدمة خاصة، على الرغم من أنه قد أوضح منذ فترة طويلة أنه لم تعد لديه رغبة في أي شيء سوى حفظ وتسليم ميراثه الصغير لمن خلفه. قبل ذلك، في عام ١٨٤٣ كان قد حاول الكتابة مباشرة إلى الملكة فيكتوريا، يطلب منها هذا الحد الأدنى.. كتب لها: «من المؤسف أن زهرة مملكتي قد ذبُلَت، وتلاشى سلطان هذا البيت وصار مصيره بين يديكِ، وإما أن ترفعي شأنه أو تبخسي حقه... أنا الآن شيخ، ولم يبق لدي أي طموح للعظمة.. سوف أكرس أيامي الباقية للآخرة، لكني أشعر بالقلق من أن اسم أسلافي وكرامة يجب الحفاظ عليهما، ويصلون سليمين لأطفالي، وفقًا للاتفاقات الأصلية التي قامت بها الحكومة البريطانية.».

الآن، وقد صار ما حدث لـ«أفادا» واضحًا أمامه، وضع «ظفر» نصب عينيه كثيرًا أن يصبح مصيره أسوأ. كان أول إجراء له عند سماعه بشأن ضم «أفادا» هو كتابة سلسلة من رسائل الاستجداء المليئة بالقلق إلى «دالهوزي»: «أيامنا على الأرض صارت معدودة.. ولأنه لا يمكن الاعتماد على أن يظل المرء حيًّا لفترة طويلة بعدما يصبح في سن الثمانين، لقد بدأنا مؤخرًا التفكير حول مستقبل عائلتنا بعدي، وخاصة «نواب زينَّت محل بيجوم» وابنها الأمير «ميرزا جيوان بخت بهادر»، أود الاطمئنان من أنهم لن يواجهوا أي مصاعب..» لم يطلب ظفر إلا ضمانًا على أن يتم الاعتناء بهما بعد وفاته. ومع ذلك كان رد دالهوزي خشنًا برفض طلبه؛ فجعل أحد مساعديه يرد: «بالنسبة للثروة التي

قدمتها يا جلالة الملك لزوجتك وللأمير، قد حوفِظَ عليها في أثناء حياة جلالتك، ولكن لا يمكن أن تمتد إلى ما بعد وفاتك، لأن هذا سيكون مخالفًا للقوانين المتعارف عليها.»

لم يكن ظفر وحده في حالة ذعر. كان زوال المغول وبلاطه شيئًا يلقي سحابة حزن على كل أنحاء دلهي والتي تستمد كثيرًا من الازدهار بشكل مباشر أو غير مباشر من القلعة الحمراء. فمع نهاية المغول، سيجد كثيرٌ ممن في المدينة أنفسهم عاطلين عن العمل، رجال الحاشية والموظفين في القصر، وصائغو المجوهرات والفضة، والطهاة، والحراس، والخصيان، والموسيقيون، والراقصات. لم يتوقع هؤلاء التوظيف في ظل الحكم البريطاني، الذي يقيم مديروه على بعد ١٥٠ ميلًا إلى الجنوب في أجرا. كما إنه كان نذير شؤم لشعراء البلاط.. كتب غالب في ٢٣ فبراير ١٨٥٦: «على الرغم من أنني غريب عن «أفادا» وشئونها، فإن تدمير الدولة يزعجني، وأنا متأكد من أن كل الهنود يشعرون مثلي..» حصل غالب على معاش ضئيل لكونه من الحاشية فقده عند الضَّم في شهر فبراير، ومع وفاة تلميذه في الشعر «ميرزا فخرو» في يوليو، انخفض دخله أكثر، كتب في ٢٧ يوليو١٨٥٦: «كانت وفاة ولي العهد ضربة كبيرة لي، هذا يعني أن روابطي بالبلاط ستستمر الآن فقط إذا استمر وجود الملك.. الله أعلم من سيكون الوريث الجديد.. من كان يقدِّرُني قد مات. من سيعرفني الآن؟ أثق في خالقي، وأسلم نفسي لمشيئته. ولكن هناك تلك الخسارة الفورية: كان ميرزا فخرو يعطيني عشرة روبيات في الشهر لشراء الفاكهة لولديَّ [بالتبني]. من سيعطيني ذلك الآن؟»

مختلف تمامًا عن أي شيء قبلها حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ضم أفادا ووفاة ميرزا فخرو، صارت نهاية حكم المغول وشيكة بشكل واضح. وبالنسبة لظفر، البالغ من العمر الآن واحد وثمانين عامًا، كانت هذه صدمة خاصة، على الرغم من أنه قد أوضح منذ فترة طويلة أنه لم تعد لديه رغبة في أي شيء سوى حفظ وتسليم ميراثه الصغير لمن خلفه. قبل ذلك، في عام ١٨٤٣ كان قد حاول الكتابة مباشرة إلى الملكة فيكتوريا، يطلب منها هذا الحد الأدنى.. كتب لها: «من المؤسف أن زهرة مملكتي قد ذبُلَت، وتلاشى سلطان هذا البيت وصار مصيره بين يديكِ، وإما أن ترفعي شأنه أو تبخسي حقه... أنا الآن شيخ، ولم يبق لدي أي طموح للعظمة.. سوف أكرس أيامي الباقية للآخرة، لكني أشعر بالقلق من أن اسم أسلافي وكرامة يجب الحفاظ عليهما، ويصلون سليمين لأطفالي، وفقًا للاتفاقات الأصلية التي قامت بها الحكومة البريطانية.».

الآن، وقد صار ما حدث لـ«أفادا» واضحًا أمامه، وضع «ظفر» نصب عينيه كثيرًا أن يصبح مصيره أسوأ. كان أول إجراء له عند سماعه بشأن ضم «أفادا» هو كتابة سلسلة من رسائل الاستجداء المليئة بالقلق إلى «دالهوزي»: «أيامنا على الأرض صارت معدودة.. ولأنه لا يمكن الاعتماد على أن يظل المرء حيًّا لفترة طويلة بعدما يصبح في سن الثمانين، لقد بدأنا مؤخرًا التفكير حول مستقبل عائلتنا بعدي، وخاصة «نواب زينَّت محل بيجوم» وابنها الأمير «ميرزا جيوان بخت بهادر»، أود الاطمئنان من أنهم لن يواجهوا أي مصاعب..» لم يطلب ظفر إلا ضمانًا على أن يتم الاعتناء بهما بعد وفاته. ومع ذلك كان رد دالهوزي خشنًا برفض طلبه؛ فجعل أحد مساعديه يرد: «بالنسبة للثروة التي قدمتها يا جلالة الملك لزوجتك وللأمير، قد حوفِظَ عليها في أثناء حياة جلالتك، ولكن لا يمكن أن تمتد إلى ما بعد وفاتك، لأن هذا سيكون مخالفًا للقوانين المتعارف عليها.»

لم يكن ظفر وحده في حالة ذعر. كان زوال المغول وبلاطه شيئًا يلقي سحابة حزن على كل أنحاء دلهي والتي تستمد كثيرًا من الازدهار بشكل مباشر أو غير مباشر من القلعة الحمراء. فمع نهاية المغول، سيجد كثيرٌ ممن في المدينة أنفسهم عاطلين عن العمل، رجال الحاشية والموظفين في القصر، وصائغو المجوهرات والفضة، والطهاة، والحراس، والخصيان، والموسيقيون، والراقصات. لم يتوقع هؤلاء التوظيف في ظل الحكم البريطاني، الذي يقيم مديروه على بعد ١٥٠ ميلًا إلى الجنوب في أجرا. كما إنه كان نذير شؤم لشعراء البلاط.. كتب غالب في ٢٣ فبراير ١٨٥٦: «على الرغم من أنني غريب عن «أفادا» وشئونها، فإن تدمير الدولة يزعجني، وأنا متأكد من أن كل الهنود يشعرون مثلي..» حصل غالب على معاش ضئيل لكونه من الحاشية فقده عند الضَّم في شهر فبراير، ومع وفاة تلميذه في الشعر «ميرزا فخرو» في يوليو، انخفض دخله أكثر، كتب في ٢٧ يوليو١٨٥٦: «كانت وفاة ولي العهد ضربة كبيرة لي، هذا يعني أن روابطي بالبلاط ستستمر الآن فقط إذا استمر وجود الملك.. الله أعلم من سيكون الوريث الجديد.. من كان يقدِّرُني قد مات. من سيعرفني الآن؟ أثق في خالقي، وأسلم نفسي لمشيئته. ولكن هناك تلك الخسارة الفورية: كان ميرزا فخرو يعطيني عشرة روبيات في الشهر لشراء الفاكهة لولديَّ [بالتبني]. من سيعطيني ذلك الآن؟»

عانى غالب، مثل عديد ممن شغفتْهُم الكتابة في كل الأزمان، من شعور قوي بقيمته، وموارد مالية غير كافية لدعم نمط الحياة الذي ينشده. صارت موارده المالية مزعجة بشكل أكبر بعد أن أجبره كبرياؤه على أن يرفض الفرصة التي سنحت له ليصبح أستاذًا للغة الفارسية في كلية دلهي. كان غالب قد وصل إلى عانى غالب، مثل عديد ممن شغفتْهُم الكتابة في كل الأزمان، من شعور قوي بقيمته، وموارد مالية غير كافية لدعم نمط الحياة الذي ينشده. صارت

موارده المالية مزعجة بشكل أكبر بعد أن أجبره كبرياؤه على أن يرفض الفرصة التي سنحت له ليصبح أستاذًا للغة الفارسية في كلية دلهي. كان غالب قد وصل إلى كلية دلهي في عربته اليدوية، بعد أن دُعِيَ للحصول على المنصب الجديد. لكن بعد وصوله إلى بوابة الكلية، رفض الدخول حتى مجيء السكرتير السيد توماسون، ليرحب به، كما أصر غالب، نظرًا لما يمليه الوضع الاجتماعي الأرستقراطي لهذا الأخير.. بعد وقوفه لفترة طويلة، خرج سيد توماسون شخصيًّا وأوضح أن الترحيب الرسمي كان مناسبًا قبلًا عندما حضر حفل استقبال الحاكم، ولكن ليس في الحالة الحالية، لأنه جاء كمرشح للعمل. أجابه غالب: «لقد فكرت في الحصول على موعد رسمي، متوقعًا أنني سأعامل بطريقة أفضل مما يحدث الآن.».

أجاب السكرتير:

- «أنا ملتزم باللوائح!»

- «إذن أرجو المعذرة!»

قالها غالب، وخرج.

في مثل هذه الحالات، كان مما يضايق غالب بشدة أن ظفر لم يمنحه التقدير المناسب وبدلًا من ذلك منح رعايته، ومعاشًا تقاعديًّا وافرًا، لـ«ذوق» الذي ليس أفضل منه على الإطلاق. كان هذا شيء لا يمكن أن يفهمه غالب أبدًا، وذات مرة كان جريئًا بما يكفي للإشارة للموضوع، كتب لظفر: «أقسم لك إنه لمدعاة للفخر أن تملك عبدًا مثل غالب، غالب الذي يكتب الأغاني القوية كفاية لتشعل النيران من أبياتها. وجِّه انتباهك نحوي.. نحو مهارتي، كنزني كقرة عينك، واسمح لي بدخول قلبك.. أتعرف لماذا كل هذا الحديث عن الشعراء بعصر الإمبراطور أكبر؟ بسبب شعرائه، ووجودي وحده يمثل شاهدًا على أن عصرك يتفوق عليه.».

عندما توفي ذوق عام ١٨٥٤، عَيَّن ظفر أخيرًا غالب مدرسًا الشعر لديه، بالراتب الذي يلائم المنصب، واستطاع غالب (على الأقل وفقًا لتقليد دلهي) أن يتنفس الصعداء، ولم يعد الرجل الذي يتحدث بلغة الخدم موجودًا.. وعلى الرغم من أن ظفر لم يحترم كثيرًا مهارات غالب، فقد تم أخيرًا، تأمين دعمٍ ماليٍّ مدى الحياة لغالب الذي أصبح بعدها يعتمد عليه، فقبل ذلك عام ١٨٥٢، عندما كان الملك مريضًا، كتب غالب بقلق: «ماذا سيحدث حاليًّا؟ وماذا سيحدث لي أنا؟ أمراء المغول يجتمعون في القلعة الحمراء ويرددون قصائدهم.. هذه التجمعات لن تستمر للأبد.. من يدري ما إذا كانوا سيجتمعون غدًا، وإذا كانوا سيجتمعون أصلًا بعد ذلك أم لا؟ يمكن أن يختفي التجمع في أيَّة لحظة» كان أحد أسباب تشاؤم غالب أنه، على عكس كثيرين في دلهي،

كان لديه دائمًا علم بالتطورات العلمية التي حققها الغرب، والتي رآها معروضة في أثناء زيارة لكالكوتا عام ١٨٢٧.. وعندما حاول السيد أحمد خان أن يثير اهتمامه بكتابة مقدمة لطبعة من كتاب «عين على أكبر»، الذي يحكي قصة بلاط الإمبراطور أكبر.. كتب غالب إلى خان لا ينبغي أن ينظر المرء إلى الماضي (إلى المغول القدامى)، ولكن يجب أن يهتم للمستقبل، كتب: «انظروا للرجال في إنجلترا! لقد تقدموا كثيرًا على أسلافنا الشرقيين. الرياح والأمواج صارت عديمة الفائدة. إنهم يبحرون بسفنهم بفضل النار والبخار. إنهم يؤلفون الموسيقا بدون استخدام المزامير. يستخدمون السحر لجعل الكلمات تطير في الهواء مثل الطيور.. ويضيئون المدن بدون مصابيح زيت.. لماذا تُنقِّب عن القش في الحظائر القديمة بينما يكمن كنزٌ دفين من اللؤلؤ عند قدميك؟».

الآن، بعد وفاة ميرزا فخرو وضم «أفادا»، اعتقد غالب أنه من الحكمة اتخاذ خطوات فورية للبحث عن مصادر أخرى للدخل، بينما يقوم أيضًا بتعليم الإنجليز أخلاق النبلاء التي يفتقرون إليها بوضوح؛ أرسل غالب قصيدة فارسية إلى الملكة فيكتوريا عن طريق اللورد كانينج. بعد مقدمة موجزة تثني على الملكة لكونها «رائعة مثل النجوم» ووصف الحاكم العام بكونه ساحرًا مثل الإسكندر الأكبر، وكريم مثل فريدون، انتقل غالب بسرعة إلى الغرض الرئيس؛ ألا وهو تذكير الملكة بالفكرة المتوارثة الراسخة التي يقوم بمقتضاها أصحاب السيادة بالإنعام على شعراء سيادتهم مقابل تخليدهم في الشعر، إذ يبدو من الواضح أن ملكة لندن العظيمة لم تكن على دراية كافية بآداب هذه الأمور، حاول غالب توضيح نفسه أكثر، وذكر الملكة فيكتوريا بأعظم حكام التاريخ الذين كافئوا شعراءهم بملء أفواههم باللآلئ، وبمقدار وزنهم من الذهب ومنحهم القرى والمكافآت. وبالطريقة نفسها كان من واجب الملكة الفاضلة أن تغدق على غالب، صاحب الالتماس، لقب «مهر خوان»، وأن تهديه وسام الشرف، وبضع فتات من مائدتها الوفيرة - أي بلغة إنجليزية بسيطة - «معاشًا».. انتظر غالب بفارغ الصبر رد الملكة، وهديتها السخية، لكن أيهما لم يأتِ قط! لكن هذه الرسالة ستؤدي قريبًا أكثر من ذلك بكثير للمساعدة في إنقاذ حياته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان غالب قد وجد نفسه قلقًا ومكتئبًا للغاية بحلول عام ١٨٥٧، فقد كان ثيو ميتكالف أيضًا في حالة سيئة للغاية.

بعد الفقدان المفاجئ لزوجته ووالده، حاول ثيو أن يشغل نفسه في عمله وأن يعمل قاضيًا مشتركًا في دلهي. لكن ضغوط العناية بطفله بمفرده، والمهمة الفاشلة لبيع مكتبة والده، بالإضافة إلى فشله في بيع كثيرٍ من

محتويات بيت ميتكالف الأخرى، كل هذه الأشياء أثقلت كاهله تمامًا. تشبث بابنه كذكرى أخيرة لزوجته، كتب إلى «جي جي» في بداية عام ١٨٥٦: «لا أستطيع أن أفارقه أبدًا.. لكنني أشعر بالأسى لكوني مضطرًا لتركه عدة ساعات بمفرده كل يوم، تربيته بدون امرأة صعبة، أحاول أن أريه عاطفة لم أشعر بها عندما كنت طفلًا!» لكن، مع تقدم عام ١٨٥٦، بدأ ضغط حالته النفسية التأثيرَ بأضرار جسدية جسيمة عليه، وخاصة على عينيه.

اعترف لـشقيقته من «ميروت» في أغسطس ١٨٥٦: «مع الأسف منذ أشهر صرت أعاني بشدة من الألم والضعف في عيني اليسرى! الأمر الذي استلزم التخلي عن استخدامها، واضطرني لأخذ عطلة من العمل لمدة ثلاثة أشهر.. ربما لا تكفي هذه الراحة القصيرة للشفاء، فلقد أُمِرت بالعيش في غرفة مظلمة حتى لا أُعَرَّض لكثير من الانفعال.. أرغب في الوقت الحاضر بالذهاب إلى دلهي لتنظيم كل أشياء والدنا [في بيت ميتكالف]. إذا وجدت أن عيني أقوى في نهاية الشهر، سأفكر في القيام برحلة إلى التلال.. هل تعرفين أيَّة أرملة تريد رعاية رجل وحيد، فأنا عاجز نسبيًّا وممنوع من القراءة أو الكتابة.».

عرضت «جورجينا»، التي كانت تقضي الصيف في كشمير، أن تعتني على الفور بـ«تشارلي»، ابن ثيو. وافق ثيو على مضض، لكنه كان ممتنًا لها للغاية.. بعد وقت قصير من تمزيق الورقة المعلقة على جدران المسجد الجامع التي ذكرناها سابقًا، كتب إلى صهره - إدوارد كامبل - بحزن كم كان بحاجة إلى عطلة! وربما يتمكن من الانضمام إليه هو و«جي جي» في مايو ١٨٥٧، في التلال: «لا أطيق هذا الشعور بالخدر الذي يثقلني ويجعلني عاجزًا، وأعتقد أنني دون أن أظفر براحة كاملة من أي عمل، فلن أُشفى أبدًا.»

كان إدوارد أقل تعاطفًا من جي جي مع محنة ثيو؛ فبعد رحيل راعيه، السير تشارلز نابير، من الهند - الذي كان عمل معه في المقر الرئيس في حصن ويليام في كالكوتا - تخبطت مسيرته المهنية، حيث كان هو ورفاقه من فرقة حَمَلة البنادق الستين يعملون الآن في وظيفة أبعد ما يكون عن وصف مرموقة أو مربحة لمسح المنطقة المحيطة بمولتان في حدود البنجاب - السند، والمعروف عنها أنها الأكثر حرارة في شبه القارة الهندية بأكملها؛ وظيفة كانت بالتأكيد بعيدة كل البعد عن المَيْزات الموجودة في حصن ويليام. استشاط كامبل غضبًا عندما عرف كم من مرتبه يذهب لتربية طفل ثيو ومربيته اللذين الْتَهَمَا دخله الضئيل حرفيًّا.. كتب إلى «جي جي» في كشمير: «أنا منزعج جدًّا من «ثيو»، فهو لا يسأل أبدًا عن التكاليف! أعتقد أنه الأفضل أن نكتب مذكرة صغيرة توضح له المصروفات الفعلية التي دفعناها خلال إقامة مدام باكستر وتشارلي معنا، ونطلب منه أن يدفعها..».

لكن كامبل كانت لديه مخاوف أخرى تسبب له انزعاجًا أكثر من مخاوفه من قلة المال وصهره غير المبالي. كان الجيش قد عينه للتو ليكون المسئول عن تدريب القوات في البنجاب بأحدث الأسلحة وأكثرها تقدُّمًا. أوضح لـ«جي جي»: «أنا مسئول عن كل شئون المجموعة، وأقود إدارة استخدام بنادق أنفيلد الجديدة. زملائي لا يحبونها مثل أسلحتنا القديمة. أعتقد أنهم سيتأقلمون معها بالنهاية، ولكن في الوقت الحاضر لا أرى كيف سيحدث هذا. إنهم يكرهونها لأننا لا نستطيع تحمل العملية المرهقة لتفريغها وتنظيفها في كثير من الأحيان. لدينا قليلٌ من الذخيرة.. وبعد إطلاق النار بضع مرات، تصبح قذرة للغاية ويصعب إعادة تعبئتها.». لم يزعج إدوارد زوجته بالتفاصيل الفنية، ولكن المشكلة في بنادق أنفيلد الجديدة، أنها كانت على عكس سابقاتها بنادق بيس براون ذات الماسورة الملساء، كانت لديها فوهة مثلَّثة.. بالرغم من أن هذا جعلها أكثر دقة وأعطاها مدى أطولَ، فهذا يعني أنها كانت أكثر صعوبة في التَّحميل والتعبئة.. وعلى كامبل أن يُعلم مجموعته كيفية استخدامها وتعبئتها بسرعة ودقة؛ الأمر الذي كان يتطلب كثيرًا من الجهد.. كانت كلها وسائل حديثة متطورة، قررت شركة الهند الشرقية استخدامها بشكل يفتقر للحكمة.

بدأت الشركة تصنيع الخراطيش في تُرسانة «دوم دوم» في كالكوتا، التي لم تكن لديها أية خبرة سابقة في تصنيع هذا النوع من الذخيرة. تسبب ذلك في بعض المشكلات على وجه الخصوص مع الدُفعات القليلة الأولى من الخراطيش المصنعة في تُرسانة «دوم دوم»، والتي بدت مليئة بكثير من الشحوم. كانت لهذا نتيجتان، الأولى أن الشحوم جعلت فوهات البنادق تتسخ بسرعة وتحتاج إلى تنظيف متكرر، والمشكلة الثانية كانت أن طلاء الخرطوشة الدهني كان طعمه مزعجًا للغاية ليضعه الرجال في أفواههم عند التعبئة والتحميل بسرعة؛ فأصبحت الخراطيش الجديدة مُنفرة تمامًا لأي رجل من حملة البنادق. في تربة خصبة كهذه سرعان ما تظهر الشائعات؛ في البداية قيل إن الكميَّات من الشحوم المستخدمة لم تكن مزعجة فحسب، بل كانت تصنع من خليط من دهن البقر (وهي فكرة مزعجة لغالبية السيبويين الهندوس والذين سيكونون مستاءين للغاية من لمس أي شيء تسبب في معاناة للبقر الذي يقدسونه) ودهن الخنزير (وهو حيوان دنس بالنسبة لكل من الهندوس والمسلمين أي مهين لجميع السيبويين تقريبًا.).

يبدو أن تلك الشائعات قد استندت إلى الحقيقة حيث صُنِعت - بالفعل - الشحوم ذات الطعم المزعج من هذه المكونات الدنسة، كما اعترف اللورد كانينج في وقت لاحق، لذا تغيَّرت مكونات الشحوم بسرعة وسُمح للسيبويين بتكوين مادة تشحيم خاصة بهم من شمع العسل والسمن والزبدة المصفاة. لكن الضرر كان قد وقع بالفعل ولم يكن هذا الضرر متمثلًا فقط في رفض

معظم السيبويين لمس البنادق الجديدة تمامًا. ولكن الأخطر من ذلك هو أنه سرعان ما لاقت فكرة أن الخطأ لم يكن عرضيًّا وكان جزءًا من مؤامرة كبرى من الشركة لكسر الطبقة الاجتماعية، وسمو الطقوس قبل الشروع في تحويل جماعي للديانة المسيحية قبولًا واسعًا. وما أعطى الشائعات بعض المصداقية الحقيقية هو فظاظة أنشطة المبشرين وأنصارهم بين الإنجيليين من الجيش والإدارة. ولو أن الشركة اختارت تجنيد جيوشها الاحتياطية من الطبقات الاجتماعية الدنيا ربما كان هذا أقل أهمية. لكن طالما كانت السياسة البريطانية تستهدف تجنيد الهندوس من الطبقات العليا الحساسة، ولا سيما من «أفادا» و«بيهار» والمنطقة المحيطة بـ «بيناراس».

بسبب تشجيع البريطانيين لهم على عدِّ أنفسهم من النخبة، كان الفلاحون من الهند الشمالية، والذين أصبحوا سيبويين، مهتمين للغاية بنقطة تحضير تناول طعامهم وشكله وطريقته، وأكثر علمًا بمفاهيم الطائفية، واحترام الذات. ومما جعل الأمور أسوء، والوضع أكثر قابلية للاشتعال وسببًا منفصلًا للتمرد هو مشكلات دفع الأجور والتنظيم. كان رئيس إدوارد كامبل القديم، السير تشارلز نابير، الذي استقال من منصب القائد العام عام ١٨٥٠، من أوائل الضباط الذين أدركوا الموضوع.. وتحديدًا بسبب مخاوفه المتزايدة من ذلك كانت الهند البريطانية تشعر بأهمية خطر الاضطرابات بين السيبويين، ولكن اللورد دالهوزي تجاهلهم بشكل تام.. كتب دالهوزي ردًا على تقرير مكتوب عن نابير: «لا يوجد مبرر للقول إن الهند في خطر.. لقد صارت خالية من أي تهديد بالأعمال العدوانية وآمنة، إن أمن الهند لن يُعَرَّض أبدًا للخطر بسبب العصيان الجزئي في صفوف جيشها.».

ولكن لأن إدوارد كامبل كان قريبًا من نابير، ومدركًا مدى السخط السائد، أدرك سريعًا الخطر الذي يمثله هذا التهديد الجديد. فقد كان هناك بالفعل عديدٌ من الأسباب الكبيرة لتعاسة السيبويين الشديدة؛ أصبح عديدٌ من أبناء عائلات السيبويين المتأصلة في هندوستان غير مقبولين في وظائف الجيش، في حين انشغلت الشركة بملء صفوفها بالجورخا والسيخ، الذين حازت مهاراتهم القتالية على إعجاب البريطانيين خلال حروب الجورخا والسيخ في بداية القرن التاسع عشر ومنتصفه.. أما بالنسبة لأولئك الذين تمكنوا من الحصول على وظيفة، كانت هناك فرصة ضئيلة للترقية؛ حتى بعد سنوات من الخدمة الشجاعة والمخلصة، لا يمكن للهنود أن يرتقوا فوق رُتَبِ صبح دار (الذين كانوا بالعشرات في المجموعة الواحدة) أو صبح دار كبير (واحد لكل مجموعة)؛ حيث بقيت السلطة الحقيقية بالكامل في يد البريطانيين. علاوة على ذلك، فإن الضباط البريطانيين، أصبحوا بعيدين بشكل متزايد، وفظِّي الطباع. لقد ولت أيام المغول البيض الذين اعتادوا الانضمام إليهم للمصارعة والرقص، وكانوا يأخذونهم معهم عندما يذهبون للصيد ولعب الشطرنج.

وفقًا لسيتارام باندي السيبوي الذي كتب مذكراته بعد ١٨٥٧: لم يعد أحد يتحدث بلغتنا كما السابق، لم يعد أحد يفهمها حتى، وأصبح الضباط يستخدمون مترجمًا! في السابق كان الضابط يستضيفنا في بيته ونقضي الأمسيات معًا، الآن لم يعد أحد يختلط بالآخر؛ لأن قسيسهم منعهم من التواصل معنا، هذا القسيس فعل كثيرًا، وما زال يفعل كثيرًا، لإبعاد الضباط البريطانيين عن السيبويين.. صار عديدٌ من الضباط في الوقت الحاضر لا يتحدثون مع السيبويين إلا حينما يصبحون مضطرين للقيام بذلك، ويظهرون أنهم منزعجون من فعلها، ويحاولون التخلُّص من السيبيين في أسرع وقت ممكن.

ولإضافة مزيد من الجرعة لكأس تعاستهم، فإن القيمة النسبية لأجر السيبيين انخفضت بشدة.. وكثيرٌ من الامتيازات القيِّمة مثل رسوم البريد المجانية والبدل الإضافي في زمن الحرب تقلَّصت ببطء، وعلى الرغم من ذلك باتت الوظائف الآن أكثر تطلبًا من أي وقت مضى؛ في وقت الاستيلاء نفسه على «أفادا»، وهي موطن عديد من السيبويين، مُرِّر قانون تجنيد في الخدمة العامة - لم يحظَ بأي قَبُول - يتطلب أن يكون جميع السيبويين كذلك على استعداد للخدمة في الخارج. وبما أن عبور البحر محرمٌ على الهندوس من الطبقة العليا المتشددة، فقد تأكدت مخاوف السيبويين أن الشركة كانت تتآمر بنشاط لانتزاع وضعهم الاجتماعي ودينهم. وفي مايو ١٨٥٥ نُشر مقال طويل في دلهي جازيت يزْعُم أنه كُتِب من قبل ضابط سيبوي قديم أُقصِيَ واستقر في قرية ما تبقى من حياته، لكن كان من الواضح أن من صاغه ضابط إنجليزي. وفْقًا للكاتب، لم يعد الشباب في القرى، والذين كانوا من المحتمل أن يلتحقوا بجيش الشركة، يرغبون في الانضمام إلى «جيش قد يتحول إلى جيش بحرية في أي وقت.»

كانت هناك أيضًا مخاوف كبيرة، كما ذكر الضابط أن المهنة العسكرية كانت تفقد مكانتها واحترامها، إذ تقوم الشركة الآن بالعمل بنشاط على تجنيد وتعزيز الرجال من الطبقة الدنيا، فهؤلاء الرجال أقل إزعاجًا للقيادة وأقل حساسية دينية، لكن بالنسبة للسيبويين كان الجنود الجدد غير مميزين على الإطلاق ومن بين كل ألفٍ ومائة وعشرين، يمكنك بكل ثقة رمي ألفٍ منهم في أقرب صفيحة قمامة، على حد وصف بالمقال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من المرجح أن من كتب مقال دلهي جازيت هذا هو الكابتن «روبرت تايتلر». كان «روبرت» من قدامى المحاربين في فرقة المشاة الثامنة والثلاثين، ومولعًا تمامًا بـ«هندوستان»، وكصديق مقرب من السيبويين كان قلقًا على سلامتهم بشدة ويبدو أنه كان عطوفًا حساسًا، أرملَ مع طفلين صغيرين، وقد

تزوج مرة أخرى مؤخرًا من «هارييت» النشيطة خفيفة الحركة والتي كانت بنصف عمره تقريبًا ولها المشاعر نفسها ناحية «هندوستان» وتجيد اللغة الهندوستانية؛ إذ تعلمتها لغةً أولى خلال طفولتها في أثناء قدومها إلى الهند. ومعًا، تابع آل «تايتلر» الاثنان هواياتهما الفنية بحماسة - وبشكل غير متوقع لزوجين من الجيش - أصبحا رائدين في فن التصوير، وقاما بتوثيق دقيق لآثار دلهي التي لم يصور معظمها من قبل.

قبل عدة سنوات، خلال الحرب الأنجلو بورمية الثانية، صدرت الأوامر لفوج «تايتلر» بعبور البحر إلى رانجون من قِبَل دالهوزي.. أحسَّ «تايتلر» بالإهانة من قِبَل المعضلة التي مثلها هذا الموقف للسيبويين.. كتبت هارييت في مذكراتها: «لقد كانوا رجالَ الطبقة العالية المتشددة جدًّا من «أفادا»، وإن طُلب منهم الذهاب عن طريق البحر إلى بورما لتسبب هذا في تمرد. ما كان يجب عليهم فعله هو طلب التطوع منهم.. قال زوجي: «أعرف أن رجالي لن يذهبوا أبدًا إن أُمروا بهذا، لكن إذا طلبت الحكومة منهم التطوع، فسيذهبون». تُجُوهِل «تايتلر»، وصدر أمر الإبحار. كان رد السيبويين أنهم سيذهبون، ولكن ليس عن طريق البحر.

وكعقابٍ، أمر دالهوزي الفوج كله بالسير برًّا، ليس إلى رانجون بل إلى «دكة»، أحد أكثر الأماكن الملوثة في الهند؛ في غضون خمسة أشهر فقط كان الفوج بأكمله - باستثناء ثلاثة رجال - إما لقوا حتفهم وإما نُقِلوا إلى المستشفى. حسب وجهة نظر هارييت: «كان هذا تصرفًا شديد القسوة، أن يُدفَع كل أولئك الفقراء الذين تصرفوا فقط من منطلق حقوقهم الدينية، ليذهبوا إلى حيث يموتون مثل الكلاب!» تفهم تايتلر - وتعاطف - المشاعر الدينية لأتباعه من السيبويين، لذلك كان قلقًا للغاية عندما بدأ رجاله يسمعون الشائعات عن بندقية أنفيلد الجديدة وبدأوا يسألونه عن حقيقتها.

بحلول الربيع عام ١٨٥٧، لم تصدر أي قرارات جديدة بشأن القوات المتمركزة في معسكرات دلهي، ولكن فجأة جاءت الأوامر بإرسال تلك القوات في دلهي إلى أمبالا، على بعد مائة ميلٍ فوق طريق «جراند ترانك» للتدريب على البنادق الجديدة. كتبت هارييت: «سار رجالنا إلى تلك المحطة، وعلى الرغم من أنهم قبل مغادرة دلهي، أظهروا بعض العصيان، فقد أمَّل الضباط أن يزول العصيان بمجرد إدراكهم أنه لا توجد لدينا رغبة في تدمير طبقتهم وتحويلهم إلى مسيحيين.». هذا الأمل سرعان ما وُئِد حيث استمرت النشرات الواردة من أمبالا إلى الحاكم العام تفيد باستياء الرجال تجاه استخدام بندقية أنفيلد والخرطوشة المدهونة بالشحم، وكثيرًا ما قال لي زوجي، «إذا كان السيبويين سيتمردون علينا، فستضيع الهند منا.» لقد أصبح

قلقًا جدًا حقًا مع مرور الأيام وظهور أعراض السخط في كل مكان، ومن المؤكد أن علامات الاستياء لدى السيبويين بدأت تتجلى أكثر فأكثر..

في ٢٩ مارس في باراكبور في البنغال، قام أحد السيبويين، ويدعى مانجال باندي، بدعوة رفاقه من السيبويين للتمرد، وبدأوا إطلاق النار فأصابوا ضابطين، ولكن قُبِضَ على مانجال على الفور وشُنق. بعد ذلك بوقت قصير في أمبالا، كما علم تايتلر، تجاهل القائد العام للقوات المسلحة، الجنرال جورج أنسون، الطلبات الجادة التي قدموها للضباط البريطانيين لتغيير البنادق الجديدة، و«أنسون» هذا محترف مقامرة، اشتهر بأنه «أفضل مُقامر في أوروبا»، وقد فاز بالديربي ١٨٤٢ بحصان اشتراه مقابل ١٢٠ جنيهًا إسترلينيًّا فقط. تصادمه مع السيبويين حدث على أيَّة حال.. قال أنسون، عندما قيل له إن القوات كانت على وشك تمرد: «لن أستسلم أبدًا لتعصبهم الوحشي هذا!» ونتيجة لذلك، منذ ذلك المساء وحتى مايو، أصيبت معسكرات أمبالا بموجة من عمليات الحرق المتعمدة، وكان أي سيبوي يتعامل مع الخراطيش الجديدة - بما في ذلك أولئك المنتمين لأفواج دلهي - يُنْبَذُ من قبل زملائه ويلقب بالمسيحي. كتب قائد المستودع، الكابتن «إي إم مارتينو»: «كان شعورًا شديد السوء، وساءت الأمور لدرجة أننا لم نستطع إيجاد حل مناسب لها.. في الوقت الحاضر هناك غليان غير عادي ينتشر في صفوف الجيش بأكمله، ولكن ما الذي سينتهي إليه بالضبط فلا أعرف. يمكنني توقع اقتراب عاصفة، وأستطيع سماع أنين الإعصار، لكن لا يمكنني أن أقول كيف ومتى أو أين سيندلع.. لا أعتقد أنهم هم أنفسهم يعرفون متى سيفعلون ذلك، أو أن لديهم أيَّة خطة عمل باستثناء مقاومة غزو دينهم وعقيدتهم.».

بحلول نهاية أبريل، امتدت المشكلة إلى ميروت، حيث رفضت كتيبة المشاة الثالثة استخدام الخراطيش كذلك، وقُبِضَ على زعماء التمرد.. وفي نهاية الأسبوع الأول من شهر مايو، سافر صديق تايتلر المقرب، منصور علي، من دلهي ليكون رئيس للمحاكمة العسكرية. قبل ذهابه وعد روبرت: «سيدي، إذا وجدت هؤلاء الرجال مُذنبين، فسوف أطبِّق عليهم أقسى عقوبة.» وكان وفيًّا لكلمته. في ٩ مايو، حكم منصور علي ما لا يقل عن خمسة وثمانين جنديًّا من السيبويين بالأشغال الشَّاقة لمدة عشر سنوات. في ذلك المساء شُوهِدَت لافتات في سوق ميروت تدعو جميع المسلمين إلى النهوض وذبح النصارى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بزغ فجر اليوم العاشر من مايو ١٨٥٧ حارٌّ ومُغْبَرٌّ في دلهي.. وصلت حرارة الصيف الآن إلى ذروتها، وكان عام ١٨٥٧ أكثر سخونة وجفافًا من المعتاد. كما هي عادتهم، خرج آل تايتلر من المعسكرات إلى الصلاة في كنيسة سانت جيمس، وفي الطريق التقوا بأحد إخوانهم الضباط، الذي كان قد عاد لتوه من

تدريب البندقية في أمبالا. وبالرغم من أنه أخبر «روبرت» أن الرجال كلهم الآن بخير والأمور مستقرة وأنهم في طريقهم للعودة، إلا إن روبرت ظلَّ قلقًا ويقظًا. في ذلك المساء سمع على مبعدة صوت بوق عربة، وكان هذا شيئًا غريبًا؛ فالجنود المحليون لا يسافرون أبدًا من هذا الطريق. استنتج «روبرت» أنه لا بد أن يكون منصور علي عائدًا من المحكمة العسكرية. ثم ذكر المندوبون أن منصور علي لم يعد، لكن بعض السيبويين جاءوا من ميروت لرؤية أصدقائهم. اعتقد روبرت أن الأمر غريب، لكنه لم يعط الأمر أيَّة أهمية.. لم يكن تايتلر الشخص الوحيد في دلهي الذي لاحظ ارتباط وصولهم الغريب بما حدث في ميروت. في طريقهم إلى الكنيسة، مرَّ آل «تايتلر» بمكتب التلغراف بالمدينة، والذي كان يقع في الخطوط المدنية خارج بوابة كشمير. في الداخل، كان تشارلز تود ومساعداه الشابان بريندیش وبيلكنجتون يتحدثون مع أصدقائهم في مكتب التلغراف في ميروت. كان هناك شيء ضخم شديد الإثارة حدث في تلك المدينة، كما سمعوا، بسبب الأحكام العسكرية التي صدرت مؤخرًا. في تمام الساعة التاسعة، أُغْلق المكتبان بسببِ الحرارة الشديدة في هذا الوقت من اليوم. عندما عاد تود في الرابعة مساءً، في نهاية قيلولته، وجد أنه قد قُطِع الاتصال مع ميروت. كان يشك في كون قطع الاتصال يتعلق بضعف في سلك التوصيل، في القسم الذي يمر تحت نهر يامونا، والذي، بسبب «تدهور المواد العازلة التي استخدِمَت مع الكابلات، صارت مصدرًا للإزعاج المستمر..».

وأرسل بيلكنجتون وبريندیش للتحقق من السلك ولدهشتهما وجدا أن الكابل كان سليمًا حتى الضفة الشرقية لنهر يامونا، ولم تكن لديهم مشكلة في التواصل تلغرافيًا مع تود الموجود عند الضفة البعيدة؛ من الواضح أن المشكلة تكمن في مكان ما قرب ميروت. ولكن في هذا الوقت كانت الساعة السادسة وقد فات الأوان لفعل أي شيء آخر بذلك اليوم. لذا، اتخذ تود الترتيبات للخروج بنفسه صباح اليوم التالي للقيام ببعض المحاولات لاستعادة الاتصال. ثم أغلق المكتب وعاد إلى منزله لتناول العشاء. بينما كان تود يغلق المكتب، كان جورج - رئيس تحرير دلهي جازيت - وإليزابيث واجنتريبر في طريق عودتهما من خُطبة جينينجز المسائية. في تلك الليلة، تلقَّيَا زائرًا غير متوقع.. كان ضياء الدين خان، أحد النبلاء البارزين في دلهي، وحاكم لوهارو، وهو ابن عم غالب، وكان والده الشريك التجاري والصديق العظيم لوالد إليزابيث، جيمس سكينر. وحسبما تحكي ابنتهما جوليا، خاض جورج وإليزابيث محادثة جادة مع الرجل في الشرفة، ولكن نظرًا لأن ابنتهما نادرًا ما تخرج لمقابلة الزوار المحليين، فدخلت مرة واحدة ولم تخرج مرة أخرى. ولكن عندما رحل سمعت بعض الكلمات عن التحذير مما حدث في ميروت بوضع قوات ميروت في السجن، وأنها لم تكن سياسة حكيمة وستأسف الحكومة

لفعل لذلك. لقد اعتقدوا أنه من الواجب إبلاغ السير ثيو ميتكالف عن تلميحات الزائر، وأرسل أبي له رسالة في تلك الليلة. ومع ذلك، كان ثيو منخرطًا في حزم أمتعته لقضاء إجازته؛ فقد كان مُصِرًّا على المغادرة في رحلته للانضمام إلى «جي جي» وابنه تشارلي في كشمير مبكرًا في صباح اليوم التالي، وكان منهكًا ومكتئبًا جدًّا بحيث لم يستطع التصرف وفقًا للرسالة التحذيرية تلك الليلة.

بينما كان الزائر الغريب في ضيافة آل «واجنتريبر»، أُرسِلت رسالة أخرى إلى «سيمون فريزر» في أثناء خروجه من الخدمة المسائية في كنيسة سانت جيمس.. لكنه كان يوم الأحد، وكان عقل فريزر بلا شك لا يزال عالقًا مع أدائه الأسبوعي الرائع مع الجوقة. أيًا كان السبب، وضع المغلف في جيبه ولم يتذكره حتى صباح اليوم التالي. كانت الرسالة، التي فتحها فريزر أخيرًا وقرأها خلال وجبة الإفطار، تحتوي على تحذير من أن السيبويين قرروا أخيرًا الثورة في ميروت، وأنهم يعتزمون ذبح جميع السكان المسيحيين في المحطة يوم الأحد مساءً. أصيب فريزر بالرعب واستدعى عربته ليقوم باتخاذ إجراءات فورية؛ ولكن بحلول ذلك الوقت، بالطبع، كان الأوان قد فات. لم ينتفض السيبويين في ميروت وارتكبوا مجزرة فحسب، بل إنهم ساروا أيضًا في الاتجاه الجنوب الشرقي طوال الليل، وكانوا في تلك اللحظة بالذات يتدفقون بالقوارب، داخلين المدينة المحصنة، بحثًا عن إمبراطوريتهم المفقودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

سيف الغضب الإلهي

في عام ١٨٥٧، توافق يوم الاثنين الحادي عشر من مايو في التقويم المسيحي مع اليوم السادس عشر من رمضان في التقويم الهجري، ورمضان هذا هو شهر الصوم وتكفير الذنوب بالنسبة للمسلمين، وخلال هذا الصوم الإسلامي، تتغير الإيقاعات المعتادة لحياة المدينة بشكل كبير؛ إذ يبدأ اليوم أبكر بكثير من المعتاد. قبل شروق الشمس بساعة، عندما يكون القمر لا يزال عاليًا في السماء، مع تردد صوت الأذان مرارًا وتكرارًا في المساجد، تُضاء المصابيح، وتُحضر الوجبات على عجل، فيما يكسب المتسولون بعض الثَّناء بالطَّرق على أبواب أي شخص يبدو أنه لا يزال نائمًا، لأن هذه ستكون فرصة الصائم الأخيرة للحصول على بعض المرطبات أو قطرة ماء، قبل أن يبدأ صيامه من الفجر إلى غروب الشمس، أي أكثر من اثنتي عشرة ساعة، في هذا الصيف القائظ، حيث بلغت حرارة دلهي شديدة الجفاف ذروتها.

لكن، في هذه الأيام التي تسودها الرياح النارية، يكون للصباح الباكر ميزة بعض النسمات الباردة الهادئة؛ قبيل الفجر، في الباحات المنتشرة في دلهي، تجلس العائلات المسلمة خارج المنازل، متكئين على الوسائد، يتناولون السحور المكون من السميد، أو الكباب لمن يملك شهية مفتوحة في وقت مبكر من اليوم، ويبتلعون طعامهم بسرعة قبل سماع صوت طلقات المدفع من القلعة قرب ظهور الشمس في الأفق، لبدء ساعات الصيام. بحلول السابعة صباحًا، كان «ظفر» –غير القادر على الصيام لسِنِّه - قد أنهى إفطاره، وقام بأداء صلاة الصباح في مُصَلاه الموجود عند النهر، والمدعو «تسبيح خانة». وعندما قام متكئًا على عصاه، لاحظ أنه على يساره، يتصاعد دخان كثيف من بيت المال، يحجب ضوء الشمس عنه. كما أن الضفة البعيدة لنهر يامونا بدت ضبابية جدًّا مع ارتفاع الغبار.

وفقا لرواية خادمه الشاب «ظهير دهلوي»، فقد صرخ «ظفر» على «مير فاتح علي»، رئيس حاملي العربة اليدوية، والذي كان ينتظر خارج المصلى ليأخذه في جولته الصباحية خارج القصر، ليأمره بإرسال أحد الرجال على جمل بسرعة لمعرفة سبب الحريق والغبار المتصاعد؛ وقام أيضًا باستدعاء رئيس وزرائه، الحكيم «إحسان الله خان»، والنقيب «دوجلاس» - رئيس حرس القصر - والذي كان المسئول أمام المقيم عن الأمن في القصر. وبظهور الحكيم وقائد الحرس، كان الرسول قد عاد؛ كان قد وصل حتى «سليمجاره»، والتي تقع على بعد بضعة آلاف الياردات، ومن هناك تمكن من أن يرى بوضوح الفرسان الهنود «السوارس» في زيهم الخاص متناثرين عبر جسر القوارب وقد رفعوا سيوفهم، وقد قاموا بالفعل بنهب بيت المال الواقع على الضفة الشرقية للنهر وحرْقِه، كما هاجموا وقتلوا حارس بيت المال ومدير مكتب

التلغراف بالمدينة، «تشارلز تود»، الذي كان قد ذهب منذ نصف ساعة فقط في عربته لمعرفة سبب الانقطاع في خط التلغراف في «ميروت». كما هجموا على بعض خدم المسئولين البريطانيين الذين صادف أن التقوا بهم في الطريق في أثناء مرورهم.. وأضاف الرسول أن من ذهبوا للسباحة في الصباح الباكر في نهر «جاتس» يركضون الآن في ذعر ويتدافعون للوصول إلى المدينة عبر بوابة «كالكوتا»، الواقعة شمال القصر. وعند سماع ذلك أمر «ظفر» فورًا بإغلاق بوابات المدينة والقلعة، وإن لم يكن الأوان قد فات، يجب أيضًا تدمير الجسر.

فوجئ الكابتن «دوجلاس» و«إحسان الله خان» بأخبار «ظفر»، فقد كانوا يظنونها مجرد شائعات تتجول في القصر منذ شهور عن تمرد في الجيش. ولكن ما حدث لـ«دوجلاس» قبل عشرين دقيقة جعله يصدق الأمر بسرعة، كان «دوجلاس» قد استُدْعِيَ من قِبَل حراس بوابة «لاهور» في القلعة، الذين أخبروه بأن رجلًا وحيدًا من بين فريق الفرسان يقوم بعمل اضطراب. فتوجه إلى هناك على الفور من بيته الذي يتشاركه مع الأب «جينينجز»، وعندما سأل المتمرد عمَّا يريد، رد ببرود أنه تمرد في «ميروت»، وأنه هو وإخوته لن يخدموا تلك الشركة بعد الآن؛ إذ إن الوقت قد حان للقتال من أجل إيمانهم. ولكن الآن بعد أن وصل إلى «دلهي»، فقد جاء إلى القلعة بحثًا عن دخان وماء، وطلب من «دوجلاس» أن يذهب ويحضر له ما يريد، كان وقحًا للغاية، وقبل أن يقوم «دوجلاس» بإعطاء الأوامر للحراس بالقبض على الثائر الوقح، كان قد هرب ضاحكًا.. أمَّا الحكيم «إحسان الله» فقد أتى لتوه من السوق إلى القلعة مباشرة، عندما وصل له الاستدعاء من «ظفر». وبينما كان الثلاثة لا يزالون يتشاورون بشأن الإجراء الذي يجب اتخاذه، فإن مجموعة من عشرين فارس تقدمت بهدوء على طول الشريط الذي يفصل القصر عن النهر، حمل بعضهم سيوفهم؛ بينما حمل الآخرون مسدسات وبنادق قصيرة في أيديهم. وتقدم مزيد من الرجال فوق الجسر سيرًا على الأقدام، وكانت هناك أيضًا في وسط الحشد مجموعة من المدانين من سجن «ميروت» وبعض الغجر، وغيرهم من مثيري الشغب من القرى المحيطة بـ«دلهي»، الذين من المفترض أن يتبعوا السيبيوين وهم يتجهون جنوبًا. توقفوا تحت القبة المذهبة وزخارف برج «سامان»، حيث كان المغول على مدى قرون ينزلون إلى مقدمي الالتماسات؛ ثم بدأوا مناداة الإمبراطور بصوت عالٍ. وفقًا لسجل «ظَفَر» للحدث: «قالوا إنهم جاءوا من «ميروت» بعد قتل كل الإنجليز هناك، لأن الإنجليز طلبوا منهم قضم خراطيش مغطاة بدهن البقر والخنازير بأسنانهم، وهذا مفسد لعقيدة الهندوس والمسلمين على حد سواء.» وهنا عرض «دوجلاس» النزول والتحدث إلى الرجال، لكن الإمبراطور نهاه قائلًا إنه أعزل وأن هؤلاء الرجال قتلة وسوف يقتلونه بالتأكيد. «لم أتركه يذهب.. لكنه

ذهب إلى النافذة وتحدث إليهم قائلًا: «لا تتقدموا أكثر من هذا، هذه الأماكن خاصة بحريم القصر؛ ووقوفكم هنا هو عدم احترام للملك.» وهنا بدأوا الرحيل، واحدًا تلو الآخر، فذهبوا في اتجاه بوابة راج غات [إلى الجنوب]. بعد ذلك، على حد قول «ظفر»: «قال «دوجلاس»: سأذهب وأتخلص منهم»، ثم استأذن راحلًا بعدما أخذ موافقتي.» ركض «دوجلاس» بسرعة وتوتر، للتأكد من أن كل بوابات المدينة قد نفَّذت أوامر الإغلاق. لكن في غضون دقائق، تمكَّن «ظَفر»، الذي جلس في شرفة منزله، من رؤية غيوم كبيرة من الدخان الأسود تتصاعد إلى الجنوب، من داخل أسوار أفخر أحياء المدينة - دارياغانج - حيث ذهب «ظفر» قبل خمس سنوات مع عائلته ليشهدوا زفاف «ميرزا جيوان بخت»! كان السيبويين، كما يرى «ظفر» بوضوح، موجودين الآن داخل أسوار مدينته!

بالنسبة لـ«ثيو ميتكالف»، كان الحادي عشر من مايو يعني بداية إجازة لمدة ستة أشهر من العمل في كشمير. حيث عانى من الإرهاق والاكتئاب وشعور شديد بالملل لدرجة أرهقته. علاوة على ذلك، كانت عينه اليسرى الآن ملتهبة للغاية لدرجة أنه توجب عليه أن يرتدي رقعة عين. في الواقع، بدأ أهل «دلهي» مناداته بـ«ميتكالف الأعور». لم يكن لدى «ثيو» أي أوهام مزيفة حول طبيعة الوضع في الهند؛ فقد أخبر مؤخرًا صديقًا كان عائدًا إلى إنجلترا: «أنت محظوظ بالعودة إلى الوطن، لأننا سنُطرد قريبًا من الهند، نحن نقاتل حتى الموت من أجل بقائنا هنا.»

كان بحاجة ماسة إلى عطلة، والآن لا يطيق الانتظار لوصول العربة المحمولة اليدوية التي ستأخذه للانضمام إلى «جي جي» وابنه «تشارلي» في وديان الهيمالايا الخضراء الرائعة، أول استراحة حقيقية له منذ وصوله إلى الهند قبل سبع سنوات. نهض من نومه مبكرًا، وانتهى من إغلاق منزل «ميتكالف»، ثم ذهب لمكتبه لتسليم مهامه لخليفته. وهناك، لدهشته، وجد مكتب المحكمة فارغًا، لا يوجد فيه إلا مساعِدَ قاضي الصُّلح «آرثر جالاوي»، الذي كان ينتظر، ولا يعرف ماذا عليه أن يفعل، عَرف أن حارس الخزانة قد سُمِع في الليلة السابقة يقول: «لقد عبثت الحكومة بديننا، وما هو مقدر سيكون». تبعت تلك الأخبار، أخبار أخرى تُشير إلى أن المتمردين من «ميروت» يسرعون نحو المدينة. نظر «ثيو» بسرعة من النافذة المواجهة للنهر في نهاية مكتبه؛ حيث رأى هناك على الضفة البعيدة، هالة من الغبار، أحدثتها فرقة كبيرة من المشاة بقيادة فرقة من الفرسان، متجهين إلى جسر القوارب ويستعدون للعبور. اندفع «ثيو» قافزًا مرة أخرى إلى عربته، وقادها مباشرة إلى مخزن الذخيرة الذي يقع في الجنوب، بجوار المبنى الجديد لكلية «دلهي»، وهو الموقع الذي كان سابقًا بيتًا على الطراز المغولي العظيم، لابن «شاه جيهان»، «دارا شكوه».

هناك التقى بصديقه الملازم «جورج ويلوبي» من مدفعية البنغال، الذي كان مسئولًا عن الأسلحة. طلب «ثيو» من «ويلوبي» بندقيتين لوضعهما في نهاية الجسر لمنع المتمردين من العبور. لكن بالنظر إلى ما خلف المخزن المُطِل مباشرةً على الجسر، رأى الاثنان أنهما قد تأخَّرَا بالفعل؛ كان عدة مئات من المتمردين يسيرون الآن في صف طويل فوق الجسر، فيما كان السيبويين قد استحوذوا بالفعل على بنك «دلهي» في «يامونا». قام «ثيو» بترك «ويلوبي» لإغلاق مقر المخزن وتحصينه، قبل أن يذهب بسرعة فائقة لمعرفة ما إذا كان بإمكانه إغلاق بوابة «كالكوتا» التي تصل الجسر بالمدينة، ولمرة واحدة، قام «ثيو» بإنجاز شيء ما في الوقت المناسب. كان «سيمون فريزر» - المقيم البريطاني - وكبار زملاء «ثيو»، وهما اثنان من كبار قضاة دلهي، «جون روس هاتشينسون» و«تشارلز لوباس»، قد وصلوا بالفعل إلى البوابة وتمكنوا من إغلاقها قبل أن يصل السيبويون إلى هناك. سمع «ثيو» خطوات مشاة السيبويين يتراجعون بعدما فشلوا في فتح البوابة، وكانوا يتجهون الآن جنوبًا على طول شاطئ النهر في محاولة للعثور على طريق بديل إلى المدينة. وقف الرجال الإنجليز الأربعة على حاجز البوابة، يراقبونهم بقلق من خلال مناظيرهم؛ خلف حشد من المتفرجين المضطربين الذين تجمعوا بين البوابة وحديقة العنب المفضلة لدى «ظفر». اعتقد «فريزر» أن السيبويين يخططون لمحاولة الدخول من خلال أي من بوابات المدينة الموجودة في «راج غات» أو عند مسجد «زينة المساجد»، فطلب «فريزر» من «ثيو» أن يتوجه بأسرع ما يمكن إلى جنوب القصر، للتأكد من أن كل هذه البوابات أيضًا تلقَّت أوامر الإغلاق وأطاعوها.

قفز «ثيو» مرة أخرى إلى عربته ودار حول القصر. ولكن بعد بضعة آلاف ياردة فقط، بينما هو يقترب من بوابة «لاهور»، وعند مفترق الطرق مع «تشاندني تشوك»، قابله جزء من سلاح الفرسان المتمردين قادمًا في الاتجاه المعاكس، وربما يكونون من وقفوا عند برج «سامان» نفسهم، في الحالتين يبدو أنهم نجحوا في دخول المدينة، ويطاردون الآن أي مسيحي يعثرون عليه. وفقًا لمذكرات «إيميلي ميتكالف»: «لوَّحوا بسيوفهم في الهواء وصرخوا عندما رأوا السير «ثيوفيلوس» في عربته، اندفع بعضهم نحوه وحاولوا ضربه هو وحصانه، لكن «ثيو» ضربهم بالسوط، بينما تمكنوا هم فقط من خلع جزء من عربته، حينها لاحظ «ثيو» أن حشودًا هائلة قد تجمعت بالفعل في فناء القصر، وكلهم يرتدون الأبيض كما لو كانوا في يوم احتفال الهولي. فأمال عربته بأشد سرعة متجهًا نحوهم، وعندما وجد أن بعض المتمردين لا يزالون يلاحقونه، قفز وسط الحشود وخلع ملابسه؛ معطفه الداكن وسرواله وبقي بملابسه الداخلية البيضاء حتى لا يظهر وسط الحشود.

ثم شق «ثيو» طريقه خلال الحشد حتى وصل إلى مجموعة من فرسان الشرطة، تقف تحت بعض الأشجار، وبما أن هؤلاء الرجال كانوا يخضعون لأوامره بصفته قاضيًا مشتركًا، فقد أمرهم بالقبض على المتمردين، لكنهم لم يتحركوا من مكانهم. لذلك أسقط «ثيو» رئيسهم من على حصانه –نظرًا لكونه قوي البنية للغاية - وقفز عليه بنفسه منتزعًا اللجام منه، ثم ركض في قلب المدينة لرؤية رئيس الشرطة المحلية. سقطت المدينة في حالة اضطراب؛ كان أصحاب المتاجر يحاولون إغلاق محلاتهم، والتي قد نُهب بعضها بالفعل، بينما تصاعد الدخان من القصور الأوروبية في دارياغانج؛ علاوة على ذلك، لم يكن هناك حتى الآن علامة على قيام أيَّة قوات بريطانية من «ميروت» بمطاردة المتمردين، كما افترض «ثيو» أنهم سيفعلون. سرعان ما سمع «ثيو» أن القوات الهندية التي كانت تتمركز في معسكرات شمال «دلهي» قد وصلت الآن إلى بوابة كشمير لتشكيل هجومًا مضادًا. امتطى حصانه من جديد، وهو ما زال يرتدي فقط ملابسه الداخلية، وتوجه عبر الأزقة والشوارع الخلفية في اتجاه بوابة كشميري، آملًا أن تنقذه القوات المتمركزة هناك. لكن، وبينما كان يمر من أمام مسجد، ألقيت عليه صخرة كبيرة من أعلى، فأصابته بشكل مباشر في مؤخرة رقبته. وسقط «ثيو» من فوق حصانه متدحرجًا نحو حفرة عميقة.

بعد فترة وجيزة من خروج «ثيو»، سمع «سيمون فريزر» إطلاق النار وصراخ الثوار القادمين من داخل المدينة. فأدرك أن السيبويين أصبحوا الآن داخل الجدران، وأنه هو وزملاؤه قد حوصروا وظهرهم إلى بوابة مغلقة، بينما مجموعة من الحشود الغاضبة - الآن صاروا ٥٠٠ فرد - على بعد مسافة قصيرة منهم، لذا نزل «فريزر» إليهم وأمر من رافقوه من سلاح الفرسان غير النظامي - التي قدمها له نبيل من «جهجار» من مؤيدي إنجلترا - بتشكيل صف منظم شاهرين سيوفهم. وقف «هاتشينسون»، و«لو باس»، والكابتن «دوجلاس»، والذين كانوا جميعًا غير مسلحين، إلى جانب غرفة الحراس عند قاعدة البوابة. بحسب أحد شهود العيان، وهو مراسل صِحافي اسمه «تشاني»، وكان وسط الحشد: «ما أن ظهروا، حتى انطلق حوالي سبعة جنود ورجلين على الجمال متجهين ناحية القصر من اتجاه دارياغانج، وعلى الفور عند الاقتراب من مجال تصويبهم، أطلقوا النار على السادة الأوروبيين عند البوابة.. ولم يُبدِ فرسان «جهاجار» أيَّة مقاومة، بل إنهم تخلّوا عن السيد «فريزر» وفروا هاربين.»

كانت الفوضى كبيرة، حيث أصيب كبير القضاة «هاتشينسون» في ذراعه اليمنى، فركض «فريزر» إلى غرفة الحراس، وأخذ بندقية من بين يدي أحد الحراس وقتل بها جنديًّا بالرصاص. فزاد هذا الأمر سوءًا؛ إذ عندما رأى الحشدُ سقوط أحد الفرسان انتابهم الغضب والحماسة وانضموا إلى الثوار مما شكل

تهديدًا آخر، وخاصة بعد فرار الحارس الشخصي لـ«فريزر»، وحصارهم بالبوابة من خلفهم بشكل تام. لم يكن أمامهم مفر إلا القفز إلى خندق القصر، فقفز «دوجلاس» و«هاتشنيسون» بقوة، مما أدى إلى كسر كاحل «دوجلاس» عندما اصطدم بشدة بالقاع، وسار وهو يعرج على طول الخندق باتجاه بوابة لاهور، يسنده من جانبٍ حارسه الشخصي ومن الجانب الآخر «هاتشينسون» الذي ينزف. أمَّا «فريزر» فكان سمينًا جدًّا بحيث لا يمكنه القفز داخل الخندق، لذا اضطر الخروج من ناحية الحشد المتفرج بعربته التي تجرها الدواب، وللمفاجأة تمكن من الخروج سالمًا من بين الحشود. لكن على بعد نصف ميل فقط من القصر، عُرِّض مرة أخرى للهجوم من قبل الجند الغاضبين، الذين أطلقوا مسدساتهم وتفاداها بمعجزة، حتى وصل بأمان إلى بوابة لاهور، وهناك، كان بإمكانه رؤية الأب «جينينجز» وهو يمسح المدينة بتلسكوبه من الأعلى، وابنته «آني» وصديقتها الآنسة «كليفورد» - وهما من جوقة «فريزر» نفسها - إلى جانبه.

قام «ماخان»، حارس «دوجلاس»، بمساعدة الجريحين على الخروج من الخندق. وفقًا لشهادته اللاحقة، طلب «دوجلاس» - الذي تأذى إلى حد كبير - أن يُنقل إلى منزله حتى يتعافى قليلًا من الصدمة التي أصابته. في غضون ذلك، نزل إليه السيد «جينينجز»، وقام هو والسيد «هاتشينسون» بنقله إلى الغرف الموجودة في الطابق العلوي، حيث اعتنت به «آني جينينجز» والآنسة «كليفورد»، وأعطوه بعض الشاي الدافئ، وقاموا بمداواة كاحله، وجرح «هاتشينسون». وبينما كان القبطان «دوجلاس» يُنقَل إلى الطابق العلوي، ظلَّ «فريزر» بالأسفل، محاولًا الدفاع عن بوابة لاهور؛ حيث أمر بإغلاق البوابة وأرسل إلى «ظفر» يطلب منه مدفعين ومجموعة من الجنود المسلحين. كما طلب عربتين لنقل «آني جينينجز» وصديقتها إلى غرف الحريم الإمبراطورية.. لكن بمرور الوقت لم يحدث أي من هذا، إذ تم تجاهل الأوامر بالكامل، ورفض قصر الملك تلبية طلباته.

«فريزر» - الذي لم يفهم في البدء - ظل منتظرًا العربات، وعندما استوعب أنه لم يكن هناك أي أمل لتنفيذ أوامره، ابتعد متجهًا إلى منزل «دوجلاس»، الذي تجمهرت حوله الحشود غير مبالية بأوامر الابتعاد، ولاحظ أن البوابة كانت تحرسها فرقة من المشاة المحليين الذين رفضوا تنفيذ أوامره بإغلاق البوابة وتأمينها، اعترض «فريزر» على تصرفهم الشائن، لكنهم ظلوا على رفضهم، فاتحين الأبواب أمام الحشد الذي امتلأ بعدد كبير من الرجال والفتيان، الذين بدأوا يصفقون بأيديهم كنوع من التبجح الوقاحة. عندما رأى السيد «فريزر» مثل هذه المشاعر الملحوظة من العداء، قرر الدخول إلى منزل «دوجلاس»، وعندما وصل إلى الدرج، رفع أحد الموجودين سيفه ليهجم عليه، كان في يد السيد «فريزر» سيف لا يزال في غمده، فاستدارِ بحدة

وسرعة، وضربه والسيف في غمده دافعًا إياه ناحية حراس البوابة قائلًا: «ما الذي تفعلونه؟ ألا يمكنكم حماية البوابة؟» وهنا تظاهر حارس البوابة بأنه يقبض عليه. ولكن بمجرد أن أعطاهما فريزر ظهره، حتى أومأ الحارس برأسه إلى الرجل ليهجم من جديد.. فهرع بحماسة نحو السيد «فريزر»، وأصابه بجرح عميق ومميت في الجانب الأيمن من رقبته، ليسقط في الحال من شدة الألم، قبل أن يهجم عليه ثلاثة رجال آخرين كانوا مختبئين في الغرفة المجاورة، انهالوا على صدره ووجهه ورأسه بسيوفهم حتى مات!

قال حارس «فريزر» في شهادته: «كنت على رأس الدرج، حينما حدث هذا في لحظات معدودة.» بعد ذلك، اندفع الحشد إلى الشقق العلوية، حيث كان الكابتن دوجلاس والسيد هاتشينسون والسيد جينينجز بالأعلى. هاجموهم بالسيوف، وقتلوهم هم والسيدتان في الحال؛ كان الأب جينينجز قد قتل حين حاول الوصول إلى الباب للهروب من السلم الثاني، وعندما وصلت لاحظت أن الكابتن «دوجلاس» لم يكن ميتًا تمامًا. لكن، يبدو أن «ممدوح»، وهو أحد خدم الملك، لاحظ ذلك أيضًا فقام بضربه ضربة قوية على جبهته، وقتله في الحال. كانت جثة السيد هاتشينسون ملقاة في غرفة، وجثث النقيب دوجلاس والسيد جينينجز والسيدتين الشابتين في حجرة أخرى على الأرض، باستثناء الكابتن «دوجلاس» الذي كان على السرير. ارتُكِبت جميع جرائم القتل في غضون ربع ساعة من وفاة السيد «فريزر»، وحين صارت الساعة بين التاسعة والعاشرة صباحًا كانوا جميعًا قد قُتلوا، وبدأ الحشد نهب ممتلكاتهم. وخوفًا على حياتي، هربت إلى منزلي في المدينة، ولم أذهب قط بعدها إلى القصر!

في الوقت نفسه الذي قُتل فيه الأب جينينجز، كان أحد نجوم إنجازه التبشيري قد قُتل أيضًا؛ كان الدكتور «شامان لال» يعتني بمرضاه في المشفى، عندما انطلق الثوار عبر بوابة راج غات. وحين سمع الضجة، خرج من المشفى للتحقق مما حدث، وعندها أخذ الناس في الشارع يشيرون نحوه على الفور «ثبَّته أحد الجنود وجلس فوق صدره وسأله عن دينه. وعندما أجاب الدكتور لال أنه مسيحي، أطلق الجندي النار عليه من مسدسه من مسافة قريبة! ثم قام فريق الفرسان بنهب وحرق المشفى.».

إذن فقد أصبحت الطبيعة الدينية للانتفاضة واضحة تمامًا، مما جعل الرجال والنساء البريطانيين الذين اعتنقوا الإسلام بمنأى عن ذلك.. لكن بدأ البحث عن جميع الهنود المتحولين إلى المسيحية - سواء أكانوا من الهندوس أم المسلمين - وتمت مطاردتهم وقتلهم.. بينما كان «شامان لال» و«جينينجز» من أوائل الضحايا، بالإضافة إلى اثنين من مساعديه المبشرين - كلاهما ذُبِح في أثناء فرارهما على طريق «تشاندني تشوك» - تمكنت سيدة مسيحية أنجلو هندية تدعى السيدة «ألدويل» من إنقاذ نفسها لأنها رددت الشهادة

الإسلامية وأبلغت آسريها أنها مسلمة. رد الجنود على ذلك بأنهم لن يقتلوا مسلمًا وإلا أصبحوا كافرين؛ لكنهم على الرغم من ذلك كانوا مصممين على قتل جميع المسيحيين. كان أحد الجنود البريطانيين ويدعى عبدالله بك قد اعتنق الإسلام، وأصبح طيلة فترة الانتفاضة واحدًا من أنشط المتمردين ضد الحكم البريطاني؛ إذ انضم للثوار عند وصولهم في الحادي عشر من مايو على الفور، وأصبح قائدًا لهم ومستشارًا، وشوهد فيما بعد يحرس مدفعية المتمردين بمساعدة بريطاني آخر يُفترض أنه تحول للإسلام، وهو الرائد «جوردون» - رجل طويل القامة ذو مظهر أنيق، ووجه وسيم، على الرغم من حروق الشمس الشديدة، وشخصيته العسكرية - الذي نجا من مذبحة المسيحيين عند اندلاع انتفاضة في «شاه جهان بور» لاعتقاد الثوار باعتناقه الإسلام. وفي وقت ما نُقِل إلى «دلهي»، حيث قيل إنه كان يدير فرقة حملة البنادق في الوجه الشمالي لأسوار المدينة.

منذ صباح الحادي عشر من مايو فصاعدًا، كان المتمردون الذين ينتمون للطبقات الدنيا هم الأكثر حماسةً من بين سكان دلهي، ولا سيما النساجين المسلمين وتجارِّ النسيج، ومعهم طبقة التجار البنجابين المسلمين الذين دعموا سابقًا ولفترة طويلة حركة المجاهدين. كان هؤلاء الأشخاص هم الذين تسببوا في تضخم صفوف العدد الصغير جدًا في البداية من السيبويين الذين وصلوا إلى دلهي، مما تسبب في حالة من الجشع بالسماح لعديد من فقراء دلهي بالانطلاق في حملات النهب. وفي المقابل، ظلت النخبة من الطبقات العليا في دلهي، الهندوسية والمسلمة، منقسمة بشأن مزيَّات الانضمام إلى الانتفاضة، وكانوا منذ البداية متشككين في التعاون مع السيبويين الهمجيين اليائسين القادمين من شرق هندوستان. الذين وفقًا للنبيل «عبد اللطيف» أحد شهود العيان الغاضبين: «قد تجاهلوا تعاليم جميع الأديان؛ وانتهكوا حرمة دم النساء الضعيفات والأطفال، مما أفزع النخبة ونبلاء دلهي من تصرفاتهم الهمجية، فتوسلوا إليهم ليتوقفوا لكن.. آه، لقد دمروا عالمًا بأكمله وسلطوا علينا غضب كل الآلهة!».

ومن الواضح أن «غالب» أيضًا لم يعجبه ما يحدث، كتب: «كانوا مجموعة من الفرسان الهمجيين والمخمورين والمشاة الرعاع الذين تدفقوا عبر بوابة «دلهي» وعاثوا في المدينة بأكملها فسادًا. حبست نفسي في غرفتي ومن خلف الأبواب كان بإمكاني سماع الضوضاء والاضطراب، أصوات ركض الجنود وحوافر الخيل وهي تضرب الأرض في جميع الجهات، وكلما نظرت إلى الخارج، فقلما أجد ذرة غبار واحدة لم تتلطخ بالدماء.. دماء نساء جميلات تتلألأ وجوههن كالبدر في تمام كماله، وأطفال في عمر الزهور كانوا قبل قليل يحْجلون ويركضون في رشاقة غزال، جثث سكنت غارقة في دوامة الموت وبحور الدم تاركة لنا الشفقة والعار.». بالنسبة لـ«غالب»، فقد كان ما يقلقه

في تلك الثورة هو صعود الرعاع والطبقات الدنيا من شعب «دلهي» أكثر من سقوط البريطانين، أرعبته الطريقة التي فقدت بها نخبة البلاط والطبقات المتعلمة السيطرة على طبقات دلهي الأمية، أو التي تلقت تعليمها من مصادر مجهولة، حيث كتب: «انسحبَتِ السلطة من أيدي الرجال النبلاء والعلماء العظماء، وصارت بيد رجال مجهولين ليس لهم اسم ولا نسب ولا ثروة.. احتشد الرعاع في وقاحة، يمسكون السيف بيد، وباليد الأخرى ينهبون المدينة طوال اليوم، وفي الليل ينامون في أسرة حريرية.. صارت مدينة دلهي موحشة، فارغة من عظمائها كأنها حديقة بلا بستاني، مليئة بأشجار لا تثمر، كان الإمبراطور عاجزًا عن صدهم؛ تجمعت قواتهم من حوله، وسقط تحت سلطتهم، فابتلعوه بداخلهم وكأنه القمر وكأنهم الكسوف الذي غطَّاه..»

كان الشاب النبيل المغولي «سارفار المُلك»، الذي ربما كان في ذلك الوقت في الثانية عشرة من عمره، خائفًا بالقدر نفسه مما رآه. كان في رحلة مع خادمه «رحيم بخش» ليزور بيت خالته في «كوتشا بولاقي بيجوم»، بالقرب من المسجد الجامع، وفي طريقهم إلى هناك، رأوا: «الناس يركضون في كل الاتجاهات خائفين، وعلى الفور رفعني «رحيم بخش» بقوة على ظهره وركض هاربًا، وعندما وصلنا إلى منزل خالتي، كانت الأبواب مغلقة، لكنه اقتحمها عَنْوة فسقطنا أرضًا وتأذَّينا بشدة، كان السيبويون يعتبرون أنفسهم فوق جميع الناس ولا يراعون حرمة أي شيء، لذا بعد وصولهم إلينا حصَّنَّا منازلنا بحراسة جيدة.». حتى «ظهير دهلوي» كان منزعجًا بشدة مما يحدث، فحينما سمع أن الإمبراطور قد أمر باستدعاء موظفي القصر حين رأى السيبويين في البداية، التقط «ظهير» سيفه وسِكينه اللذين لم يستخدمهما منذ مدة طويلة، وانطلق ناحية القلعة مدافعًا عن الإمبراطور بإخلاص. وما إن خرج من منزله حتى سمع غوغاء الهمجيين عن بُعد، مُصطحِبة معها أصوات إطلاق النار ومطاردة المسيحيين ونهب المحلات، فامتطى حصانه وانطلق في طريق المسجد الجامع عبر «ماتيا محل» المهجورة والتي أغلقت أبوابها رغمًا عنها. كتب: «عندما وصلت إلى البوابة الصغيرة لـ«دلهي» رأيت ثلاثة أو أربعة جنود فرسان يرتدون القمصان والسراويل الهندية وأوشحة صغيرة مربوطة على رءوسهم، وسيوفهم في حزامهم، ويتظلَّلون بشجرة مقابل سُور القناة. كان بعض الرجال الهندوسيين يتحدثون إليهم باستمتاع واضح، وقد جلب بعضهم لهم سمك البوريس المقلي الطازج، بينما أحضر بعضهم الحلوى، وبعضهم جلب لهم الماء. لم أتوقف كثيرًا عندهم، بل أكملت طريقي نحو القلعة. بعد فترة وجيزة رأيت حشدًا من الرعاع يقودهم رجل ضخم وكأنه مصارع؛ يرتدي قبعة على رأسه، ويمسك عصًا من الخيرزان فوق كتفه، ويقود عددًا كبيرًا من الرجال يرتدون الملابس نفسها.. رأيتهم بالقرب من منزل «أشرف بك»، وقد أصاب قائدهم مصباح الطريق بعصا الخيزران فتهشم إلى

قطع زجاجية تناثرت على الأرض، وصاح بصوت عالٍ في حماسة وفخر «لقد قتلت للتو كافرًا آخر»، ثم بدأوا كسر أقفال متجر الأقمشة، فأكْمَلتُ طريقي على حصاني الخائف.

بالقرب من مركز الشرطة، تجمَّع حشد أكبر من الرعاع ينهبون المتاجر التي كانت على الطريق.. يقتحمون البنوك، ويقتلون بوحشية الرجال والنساء وحتى الأطفال الذين كانوا بالداخل، ويكسرون الخزائن وينهبون ما بداخلها. كان هؤلاء المتمردون والمشاغبون من المجرمين الذين حرِّروا من السجن، والمتسكعين، وعمال غسيل الملابس، والحلاقين والجزارين، والمصارعين والمتشردين الآخرين، كلهم من الطبقات الدنيا، لا يوجد شخص من عائلة كريمة اشترك في هذا الحشد من المشاغبين، فأهل المدينة المحترمين كانوا جميعًا سَجِينِي منازلهم، بلا دراية بما كان يحدث في المدينة.. حمل المشاغبون ما يمكنهم حمله من البنك، أي قرابة ثلاثة أكياس من المال لكلِّ فرد، كل منهم يحاول إثراء نفسه بالفوضى، انتشرت أعمال الشغب في كل مكان، أنانية حوَّلت الشوارع إلى أنهار دمٍ والأرض إلى جحيم بدون أيَّة ذرة شعور بالخوف أو الذنب أو الشفقة.. عندماً وصلت أخيرًا إلى باب القصر، كان ما لا يقل عن خمسين فارسًا يصطفون لحراسة البوابة، بينما الرياح تعصف بقوة وتتطاير صفحات ممزقة من كتابٍ مكتوب بالإنجليزية حول القلعة..»

أي شخص ارتبط اسمه بالنظام القديم كان هدفًا مباشرًا. «جيوان لال»، السكرتير الأول السمين للغاية للإقامة البريطانية، كان حريصًا في البداية على فعل ما في وسعه من أجل إرضاء أرباب عمله، وعندما عرف كيف يصطاد المسئولين البريطانيين والأهم قتلهم واحدًا بعد الآخر.. كتب: «بكيت لشعوري بالعجز التام نحوهم!».. لكنه سرعان ما أدرك أنه هو أيضًا ليس بمأمن ممَّا يحدث: «كنت رجلًا مشهورًا ببدانتي للغاية، ولن أتمكن من الخروج من دون أن يلاحظوني.. كانت حشود العصابات تلك تشير للسيبويين إلى مساكن الأوروبيين والأثرياء منهم، ولأنني السكرتير الأول للبريطانيين تناهى لعلمي أنهم يبحثون عني شخصيًّا، ولا يرغبون في شيء بقدر قتلي! وعرفت أن هناك من تطوَّع لِدَلِّهم على منزلي. شعرت بالرعب على الفور، وأمرت بإغلاق البوابات وتحصين المنزل الذي بُنِي في القرن الرابع عشر في عهد الإمبراطور «فيروز شاه» من الحجر الصلب فكان محصَّنًا وكأنه قلعة.. تم إغلاق جميع الأبواب والنوافذ. ونزلت أنا وعائلتي إلى الشقق التي تحت الأرض وبقيت هناك فترةً. أمرت كل الخدم بمراقبة المنزل من الأمام والخلف وعدم السماح لـأيٍّ كان بالدخول، أصيبت المدينة بالذعر، أغلقنا جميع المنازل والمحلات التِّجارية واختفينا تحت سطح الأرض، سائلين الله رحمته ورعايته..».

في وسط تلك الفوضى، نُهب كثيرون لمجرد أنهم كانوا أغنياء، وخاصةً من مقرضي المال الأثرياء غير المحبوبين في دلهي حتى إن كانوا من المستحيل بأيَّة حال من الأحوال أن يكونوا على صلة مباشرة بالنظام البريطاني، حتى إن كانوا من الهندوس أو المسلمين! كان من أشهر أهداف اللصوص هما المقرضَيْن «ماثورا داس» و«ساليجرام»، وفقًا لأحد سجلات الانتفاضة: «في منتصف الليل، حاول التيلانجيون([18]) اختراق بوابة المصرف، لكنهم لم يتمكنوا من فك البراغي في البداية، لكن مع اشتراكهم مع مسلمي المدينة تمكنوا أخيرًا من تحطيمه، وقاموا معًا بنهب جميع الممتلكات..» فقام الشريكان اللذان سبق واكتسبا عداوة القصر من خلال مصادرة ممتلكات «ميرزا شاه روخ» في محاولة لاسترداد ديونهم، باللجوء إلى «ظفر» لطلب حمايتهما: «لقد نهبوا كل ما في حوزتنا، ودمروا جميع معاملاتنا المصرفية والتجارية، لم يتركوا لنا حتى ما يمكننا من شراء ضروريات الحياة اليومية».

بينما عانى آخرون أقلَّ ثراءً من المصير نفسه. وفقًا لقائد الشرطة، «سعيد مبارك شاه»: «دأبوا على الإساءة للمواطنين المحترمين، في ظل حالة الاضطراب والفوضى هذه، حمَّلوا جِمالهم بالذهب والمجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة وانطلقوا إلى قريتهم.. واستمر النهب طوال ذلك النهار والليل.». وبمجرد أن سمع «صدر الدين أزوردا» باقتحام عديد من منازل الأغنياء ونهبها بحجج مُلفقة مثل أن السكان كانوا يأوون المسيحيين، قام بتشكيل قوة لحماية نفسه وعشيرته. شكَّل «صدر الدين» قوته تلك من أهل دلهي الوحيدين القادرين على التعامل مع الأسلحة لما نالوه من تدريبات عسكرية مكثفة تمكنهم من مواجهة السيبويين وهم شبكة المجاهدين السرية التي تعمل تحت ولاء كلمة الإسلام وطاعة أميرهم، كانت تلك فرصتهم الكبرى للتخلي عن غطائهم السري، وكشف أنفسهم لخوض الحرب الشريفة التي طالما حلموا بها.. لكن لم يمضِ وقت طويل، حتى أصبح المجاهدون قوةً كبيرة في انتفاضة دلهي، تعمل جنبًا إلى جنب مع السيبويين لكن بشكل مستقل تمامًا عنهم، انتشر الخِطاب الجهادي عند اندلاع الانتفاضة لدرجة أن بعضهم خلط بينهم وبين المتمردين فأطلق لقب المجاهدين على السيبويين، على الرغم من أن الأغلبية العظمى من السيبويين كانوا براهمة من الهندوس. أحد هؤلاء هو الشيخ «محمد باقر»، حيث اعتبر في جريدته أخبار دلهي بالأوردية أن الانتفاضة صورة من صور الجهاد، وأن يد الله العليا فوق يد السيبويين، وأن الغضب الإلهي هو ما يرشدهم ويؤازرهم، بسبب تلك الهجمات البريطانية على دين الله الواحد.

ولهذا السبب - خلافًا لمعظم المتعلمين والطبقة الراقية - كان «باقر» منذ البداية متحمسًا للانتفاضة ومشجعًا عليها؛ فبحلول الثامنة صباحًا خرج إلى الشوارع، ورأى ما كان يحدث فكتب: «خرجت من بيتي إثر سماعي أصوات

الطلقات النارية، المنطلقة لنصر دين الله الإسلامي، فتوجهت نحو الحشد سائلًا عمَّا يحدث، كان الناس يركضون بأعدادٍ مهولة؛ الإنجليز الوضيعون بسيوفهم القذرة يجرون في حالة من الهلع وخلفهم يجري المجاهدون العظماء ببنادقهم الشريفة، وبعض سكان المدينة يساعدونهم بالعصا وسيقان الطاولات وأعواد الخيرزان، حتى إن بعضًا ممن لم يجدوا شيئًا بدأوا يلتقطون الأحجار من الأرض ويرمون الإنجليز بها وهم يصيحون في غضب.. وأمام مسجد «فخر المساجد» كان الناس يوجهون حوالي عشرين من المجاهدين إلى داخل المسجد حيث اتخذه بعض الإنجليز ملاذًا، فدخله المجاهدون وأطلقوا النار على الإنجليز وأرسلوهم إلى الآخرة. وعلى الجانب الآخر في كنسية «سانت جيمس»، وقف قرابة ثلاثمائة من المجاهدين يسألون الناس عن أماكن تواجد الإنجليز، وفي حالة قدم لهم أي شخص معلومات فإنه يصطحب معه أربعة من الجنود على الفور إلى الهدف، وبعد دقائق تسقط جثث المسيحيين غارقة في دماها.. دخلوا كل الأماكن وقتلوا كل الإنجليز ومعهم النساء والأطفال، ونُهبت جميع المنازل وجميع أثاث الكنيسة، بما في ذلك الكراسي، والطاولات، وحتى الرخام، حتى بلاط الأرضيات قد سُرِق كذلك. بعد فترة رأيت جثة «نيكسون»، رئيس مكتب المفوض وقد سخروا منه واضعين بسكويتًا في فمه. وفي كلية «دلهي» رأيت أن كل شيء قد استُولي عليه، بما في ذلك اللوحات والصور والأدوات والمواد الكيميائية والأدوية، ومكتبة حافلة بالكتب الإنجليزية والفارسية، بالإضافة إلى الخرائط التي تبلغ قيمتها آلاف الروبيات، كلها نُهبت، بل ووصل الأمر إلى أنه حتى الأرضيات أزيلت ونزعت مفاصل البوابات، لقد عمَّ الاضطراب وعلا صوت طلقات النار فوق كل شيء ومن جميع الاتجاهات.»

انطلاقًا من دوره واعظًا دينيًّا وصِحافيًّا، فقد خُصِّصت الصفحة الأمامية بالكامل تقريبًا في عدد السابع عشر من مايو لآيات قرآنية بشأن زوال الدنيا وقدرة الله.. لم يكن «باقر» مصممًا فقط على وصف ما حدث، ولكن أيضًا على تفسيره - بإبراز مشيئة الله وإرادته التي آمن بأنها كانت وراء تلك الأحداث غير المسبوقة - كتب: «يقسم بعض الناس إنه عندما جاء الجنود الأتراك إلى هنا، كان يسبقهم بعض الإبل التي يمتطيها فرسان بملابس خضراء، ثم اختفى أولئك الفرسان وكأنهم تلاشوا في الهواء، وبقي الجنود فقط يقتلون من يقابلونهم من الإنجليز، كان هذا انتقام العزيز الجبار من تكبرهم وتجبرهم، إذ يقول القرآن الكريم: «إن الله لا يحب المتكبرين»، ولأن قدرة الله فوق كل شيء فقد تلقَّوا ضربة قاصمة ومفاجئة وتلك المذبحة التي اشتعلت في وقت قصير دمرتهم تمامًا.. الآن عليكم، أيا شعب دلهي العظيم، أن تؤمنوا بالله وبجميع خلقه الذين يبذلون جهودهم لحماية دينه على الأرض، وعلى رأسهم جلالة الملك - الإمبراطور بهادور شاه ظفر - وتذكروا دائمًا أنهم

جماعة الله وأهله الذين يشد الله على أيديهم.» لم يكن ابن باقر «محمد حسين»، والبالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، والذي اشتهر فيما بعد بالشاعر «آزاد»، أقل حماسةً من التحول الجديد للأحداث.. احتوت الطبعة الثانية من الجريدة - التي نُشرت بعد وصول السيبويين لـ«دلهي» - في ٢٤ مايو، على أول قصيدة منشورة لـ«آزاد» بعنوان «تاريخ تقلُّبات الأقدار». بدأت القصيدة بسلسلة من الأسئلة البلاغية، أين صارت إمبراطورية الإسكندر الآن؟ أين مملكة سليمان؟ قبل أن ينتقل إلى مصير الإمبراطورية المسيحية في الهند، التي من الواضح أنها تمر بأيامها الأخيرة الآن:

بالأمس كان للمسيحيين اليد العليا، يستولون على العالم، ويمنحونه بقاياهم..

بالأمس، كانوا أصحاب مهارة وحكمة، عظمة ومجد، وجيش عظيم.

ولكن ما فائدة ذلك، أمام انتقام الله!

لم تجدِ الحكمة وفشلت الخطط، حتى عِلمهم الغزير لم ينفعهم شيئًا

أبادهم الغاضبون في حدث لم يسبق لأحد أن رآه أو سمع به..

انظر كيف قامت الثورة كمجعزة من السماء، لفتح الأعين على الحقيقة.

انظر كيف انكشف واقع العالم، يا آزاد تعلم هذا الدرس؛

على الرغم من كل حكمتهم ورؤيتهم، مُحيوا فجأة دون ترك أي أثر خلفهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المعسكرات الواقعة شمال المدينة، بدأ صباح يوم ١١ مايو بشكل سيء. في الساعة الثامنة صباحًا، عندما عاد «روبرت تايتلر» إلى منزله بعد تمشية الصباح، اشتكى على الفور لزوجه - الحامل الآن في الشهر السابع - قائلًا إن أصدقاءه الهنود تصرفوا بشكل سيء للغاية اليوم.. أخبرها أنه عندما تلا الضابط القائد الحُكم الصادر على زملائهم في ميروت، كان رجال «تايتلر» يتمتمون ويدبدبون بأقدامهم، ويصدرون إيماءات يظهرون من خلالها تعاطفهم مع السيبويين المحكوم عليهم. قال «تايتلر» لزوجه إنه سوف يعاقبهم بنفسه إذا أساءوا التصرف مرة أخرى. وعلقت «هارييت» في مذكراتها قائلة: «كانت مجرد أمنية، ففي هذا المساء، رحلوا جميعًا دون ترك رجل واحد خلفهم ليعاقبه «تايتلر»». ففي صباح هذا اليوم وعلى الرغم من أنه لم تمر سوى ساعة بعد شروق الشمس، وكان الجو حارًّا للغاية، استحم الزوجان وتناولَا إفطارهم الصباحي الأول المكون من البطيخ. فيما كان النساجون بالخارج في الشرفة، يقومون ببعض الحياكة. فجأة انفتح الباب، دفعه أحد النساجين بيديه وصرخ وهو متوتر للغاية: «سيدي القائد، لقد حضر الجيش!» وشرح «تايتلر» لزوجه أن هؤلاء الجنود من ميروت قد أتوا ولابد أنهم سيثيرون الجدل في

المدينة. لكن لا يوجد ما يخيف بالأمر، فعلى الفور سيتم إرسال الرجال لإكراههم على تنفيذ الأوامر، وسينتهي كل شيء قريبًا جدًّا.

أُرسل «تايتلر» مع مائتي رجل من السيبويين لحراسة مخزن البارود الجديد الذي أقيم مؤخرًا على ضفة نهر «يامونا» شمال بيت ميتكالف. في هذه الأثناء تولى الكولونيل «ريبلي»، رئيس «تايتلر»، قيادة كتيبته وصولاً إلى بوابة كشمير، بهدف القبض على الهمجيين. ولأنه لم يكن هناك وقتٌ لتضييعه، ولم تبدُ مهمة نزع سلاح أولئك المتمردين الهمجيين عملية مستعجلة، فقد انطلق «ريبلي» مباشرة إلى البوابة، تاركًا ضابطًا شابًّا اسمه «إدوارد فيبارت» يحضر مدفعين خفيفين من خطوط المدفعية. كان فيبارت في التاسعة عشرة من عمره، ويقود سرية من الجيش، وهو من أسرة هندية؛ والده ضابطٌ في سلاح الفرسان في كانبور. استغرقه الأمر عشرين دقيقة لتجهيز المدافع، وبعد ذلك هرع بأسرع ما يمكن للمعسكرات بالأسفل من خلال الخطوط المدنية. كتب بعد ذلك: «كُنَّا لا نزال على مسافة بعيدة نسبيًّا، عندما سمعنا صوت الأعْيِرة النارية بوضوح؛ وعندما لاحت لنا الكنيسة، تمكنَّا من خلال رؤية الدخان المتصاعد من حولها، معرفة أن جيشنا قد اشتبك بضراوة في المعركة.. تقدمنا بسرعة أكبر، والتقينا بالكابتن «والاس» يخرج هاربًا من بوابة كشمير، وناشدنا بحق الله أن نسرع بأقصى ما يمكن، فقد قَتَل الفرسان الهمجيون جميع ضباطنا، فيما لم يتحرك أي من جنودنا السيبويين للذود عنهم. عند سماع هذا الخبر المفجع، طلب مني الرائد «باترسون» أن نتريث قليلاً ونبدأ في تدشين مدافعنا. تقدم المدفعان المسيرة عبر البوابة، ثم تتبعهما كتيبة المشاة. في هذه اللحظة، رأيت جسد العقيد منكود الحظ «ريبلي» محمولاً على الأكتاف، لم يكن جسدًا كاملاً بل مجرد أشلاء، وقد قُطع ذراعه من أسفل الكتف تقريبًا بسكين في مشهد مخيف لم أرَ مثله في حياتي قط.. كان المسكين - مع الأسف - ما زال على قيد الحياة، وعلى الرغم من أنه كان بالكاد قادرًا على التعبير، إلا إنني استطعت فَهم قليلٍ مما قاله بشكل واضح، قال إنه لم يكن لدينا أيَّة فرصة ضد الهمجيين، لأن رجالنا أنفسهم قد انقلبوا علينا، وحين دخلت مكتب الحرس الرئيس، وجدت كل شيء مضطربًا.

أمام الكنيسة، شوهد عدد قليل من جنود الفرسان بزيِّهم الرمادي وهم يركضون عائدين في تجاه القصر، وقد حَمَل «ويلسون» بندقيته ليصوِّب عليهم، لكنهم كانوا قد اختفوا تمامًا من أمامه، وبالنسبة لرجال جيشي فلقد اختفى السيبويون تمامًا، تلاشوا.. تقدم بعضنا إلى ما وراء البوابات الداخلية، كان أول ما رأيته هو جثة الكابتن «بوروز» ملقاة بالقرب من بوابة فناء الكنيسة. وشاهدنا جثثًا أخرى متناثرة، وبعدها شاهدت عديدًا من المشاهد الرهيبة، لكنني لن أنسى أبدًا مشاعري حين رأيت زملاءنا المساكين

بملامحهم المرسومة بكل عذابات الموت العنيف. قبل ساعتين فقط، كنا نضحك ونتحدث معًا..».

انتظر «فيبارت» وصول المتطرفين إلى آخر موقع بريطاني في المدينة المسوَّرة.. وانطلق ثلاثة من ضباط «ريبلي»، الذين هربوا واختبئوا في أحد الشوارع الجانبية، و«آني فورست»، ووالدتها وشقيقتاها الصغيرتان.. جميعهم آواهم الخدم حين نهب الهمجيون منازلهم. وصفوا رؤية الدفاع الأخير عن بنك «دلهي» من قِبَل أصدقائهم، «آل بيريسفورد»: «كان هؤلاء المساكين برفقة عدد قليل من المساعدين، ونزلوا إلى الشقق السُّفلية من المنزل، وبعد مقاومة يائسة من جانبهم، هزموا جميعًا في النهاية. لم يُفْلِت أحد منهم، وعلى الرغم من أن السيدة «بيريسفورد» كانت قد أسقطت ما لا يقل عن ثلاثة من الثوار بالرمح الخاص بزوجها، لكنها في النهاية قتلت نفسها!» كتب «فيبارت» أنه: «يمكن بسهولة تخيل موقفنا حينئذٍ، كان صعبًا ومَحْفوفًا بالمخاطر للغاية.».

بحلول وقت الغداء، كان معظم البريطانيين الموجودين داخل المدينة، والذين لم يصلوا إلى جيش «فيبارت» المضطرب عند بوابة كشمير، قد قُتلوا. لكنَّ واحدًا من القلائل الذين نجوا كان التاجر البريطاني «جيمس مورلي». عاش «مورلي» مع عائلته وشريكه في العمل «ويليام كلارك»، في سوق كشمير كاترا في دارياغانج.. كانت الأسرة قد اختبأت في الجزء الخلفي من منزلهم، بينما ذهب الخدم ليحصِّنوا البوابة ويدافعوا عنهم في حالة حدوث مشكلة. لكن الهمجيين ذهبوا لسرقة مكان آخر ولم يحدث أي شيء لهم لمدة ثلاث ساعات كاملة، فقرر «مورلي» في النهاية الخروج والتحقق مما إذا كان الهروب خيارًا الآن. كتب لاحقًا: «أخذت عصًا غليظة في يدي وخرجت إلى الشارع، كان فارغًا تماما. واصلت السير دون أن ألتقي بأحد.. لم يكن هناك سوى رجل مُسِن جالس أمام أحد المتاجر. وقفت لبعض الوقت أتحقق من كل شيء حولي، ولكن فجأة وعلى مسافة ما رأيت ما بدا أنه حشد من الرجال، كان بعيدًا جدًّا، لكني تمكَّنت من سماع الضجيج والصراخ. وقفت مشدوهًا متخشِّبًا في مكاني بعض الوقت لأنني ظننتهم ينتوون الذهاب إلى منزلي، إن كانوا سيمرون، فعلى جثتي.. ثم فجأة سمعت ضجة كبيرة بالخلف، التفتت فرأيت حشدًا كبيرًا يندفع نحو بوابة منزلي، كانت المشكلة أنهم رأوني واندفعوا عبر الشارع نحوي. ركضت على الفور في شارع جانبي على يساري، كنت أعرف أن هناك ممرًا صغيرًا يؤدي إلى الباب الخلفي لمنزلي، كنت أركض عندما خرج رجلان من شارع آخر، يصرخان «مار فيرينجي كو»، - اقتلوا الأجنبي - واندفعوا نحوي بسرعة، أحدهما يحمل سيفًا والآخر يحمل فأسًا. توقفت فجأة واستدرت بسرعة متذكرًا العصا في يدي، وجهت ضربة نحو رأس الرجل ذي السيف فأسقطته أرضًا، وحاول الرجل الآخر ضربي على

رأسي، لكنني انحنيت إلى الأمام، فارتطمت المخرطة بكتفي فقط فيما ضربته بالعصا تحت ركبته مباشرة، فسقط جالسًا يعوي من الألم.»

بعدها، رأى «مورلي» حشدًا من الغوغاء يتَّجِهون نحوه فركض، واختبأ في النهاية في سقيفة تستخدم لتخزين العربات. مرت مجموعات من الرجال في الشارع بحثًا عنه؛ ومن مخبئه كان يسمع عديدًا من المارة يتناقشون حول الاتجاه الذي اعتقدوا أنه قد هرب منه. اختبأ لمدة أربع ساعات، ثم تسلل في النهاية، عازمًا على محاولة اكتشاف مصير زوجته وعائلته. «في النهاية وصلت إلى جدار الحديقة أسفل منزلنا ودخلت من خلال كوة صغيرة.. كان كل شيء ساكنًا سكون الموت. في كل مكان في الحديقة ارتمت الكراسي المكسورة، والأطباق، والكتب، وما إلى ذلك.. أشعلوا النار في الملابس وكانت ما تزال تحترق.. حين سمعت عويلًا مطولًا، وكأن أحدًا كان يبكي بالقرب مني. توجهت ناحية الصوت فوجدته «دوبي» - غاسل الملابس - المُسن، والذي كان في خدمة والدي ما يقرب من عشرين عامًا. ناديت اسمه واقتربت منحنيًا نحوه وعندما رآني انفجر بصوت أعلى قائلًا: «أوه! سيدي! لقد قتلوهم جميعًا، لقد قتلوهم جميعًا!»

انتابتني قشعريرة أسى، وشعرت بالصدمة لبعض الوقت. ثم نهضت وقلت، «تعالَ، ادخل المنزل معي!»، في المنزل، كانت الأشياء مرمية محطمة.. أُفرغت الخزائن وتناثر كل شيء على الأرضية، كان الطعام ملقى في أكوام، وهناك رائحة قوية من البراندي والنبيذ الذي انسكب من زجاجات مكسورة، مازالت كل التفاصيل الدقيقة مطبوعة بوضوح في ذهني، بقيت في الغرفة الخارجية وظللت أنظر حولي، كان عليَّ إجبار نفسي على التحرك للدخول إلى الغرفة المجاورة.. كان الابن الصغير لأحد الخدم معلَّقًا على الحائط ورأسه لأسفل، بينما تدفق تيار أسود من الدم من الحائط إلى البركة السوداء التي تقع بالقرب من رأسه، لابد وأن هذا الموت القاسي حدث أمام عيني والدته، أغمضت عيني تخيَّلت ما حدث وارتجفت، وعندما فتحتهما مرة أخرى رأيت مشهدًا أكثر رعبًا، كانت جثَّتا الخادم وزوجته قد وُضعتَا جنبًا إلى جنب، لا أستطيع وصف ما رأيته، لقد كانت المرأة في مرحلة متقدمة جدًّا من الحمل.

سمعت نحيبًا من جهة غرف النوم، ورأيت غاسل الملابس الشيخ يفرك يديه بعجز ويبكي. هرعت إلى الباب لكنني بقيت هناك ولم أتمكن من الدخول إلى الغرفة، لم أقوَ على مواجهة المشهد، كنت عاجزًا عن رؤية ما حدث لزوجتي لأنني كنت قد رأيت للتو ما حدث لزوجة الخادم. انهَرتُ على الأرض بعجزٍ، بكيت ووضعت رأسي بين ركبتي ويدي فوقهما..».

كان «معين الدين حسين خان» هو قائد الشرطة في مركز شرطة «باهارجانج»، في الجنوب الغربي من المدينة المسورة. وهو من فرع ثانوي

لعائلة «لوهارو» النبيلة، التي ارتقت إلى مكانة مرموقة في «دلهي» بعد دعم البريطانيين في معركتهم مع الماراثا في بداية القرن التاسع عشر. ومن بين أبناء عمومته كان «غالب» و«ضياء الدين خان»، وهو الذي ذهب لتحذير آل «واجنتريبير» من الاضطرابات الوشيكة الليلة السابقة. ويرتبط «معين الدين» ارتباطًا وثيقًا بالبريطانيين؛ إذ كان صديقًا قديمًا لعائلة ميتكالف، وكان قد انزعج من دعوات التطهير ومرور الجواسيس بالقرى المحيطة بدلهي، وحكايات البريطانيين عن اشتعال النيران في المنازل في المعسكرات حول شمال الهند. على الرغم من ذهابه لرؤية «ثيو» وتحذيره من أن مثل هذه الإشارات هي ما تسببت في انهيار قوة الماراثا قبل نصف قرن، إلا إنه وجد أن جهوده كانت تذهب عبثًا.. كتب لاحقًا: «يبدو أن ضباط الحكومة لا يعلقون أهمية على المسألة، ولم يلتفتوا لما اعتبرناه تحذيرات كبيرة عن روح الاستياء التي كانت تنتشر على نطاق واسع في جميع أنحاء البلاد.».

في الصباح الباكر من يوم الاثنين الحادي عشر من مايو، كان «معين الدين» قد حضر للاستماع إلى قضية جنائية في محاكم كوتشيري مع رئيس القضاة، «جون روس هاتشينسون». وكان حاضرًا عندما ركض أحد الضباط عبر جسر يامونا لتحذير «هاتشينسون» من وصول القوات الوشيك من ميروت، فأرسله «هاتشينسون» لتنبيه مركز الشرطة بالخطر، وبينما هو هناك سمع رسولًا من بوابة راج غات يعلن اقتحام السيبويين للمدينة. سرعان ما أدرك «معين الدين خان» الخطر وركض عائدًا نحو «هاتشينسون» لإبلاغه بما يجري، قبل أن يعود إلى مركز الشرطة عبر بوابة أجمري. وبينما هو مشغول بتسليح فرقته وإعدادها، كان هناك أوروبي وحيد أشعث يرتدي فقط ملابسه الداخلية ويفتح عينيه بصعوبة. لم يعرف «ثيو» كم من الوقت ظل فاقدًا الوعي؟ لكن يبدو أنه في حالة الفوضى لم يلاحظه أحد وهو متكوم في الحفرة، علاوة على ذلك، كان حصانه لا يزال يرعى على مقربة منه، التقط «ثيو» اللجام وقفز على ظهره وأخذ يركض وهو يمسك بسيفه في يده خارجًا من بوابة أجمري، فكان بهذا أحد آخر المسيحيين الذين نجوا وتمكنوا من الهروب. حين رآه «معين الدين خان» أسرع بإدخاله إلى مركز الشرطة قبل أن يراه أحد، وسرعان ما ألبسه ملابس الهنود.. ثم أرسل الفرسان لمعرفة ما إذا كان الطريق إلى المعسكرات آمنًا، فعاد الفرسان بعد دقائق قليلة فقط، خائفين، إذ كان الطريق بالكامل مليئًا بالهمجيين واللصوص المشغولين بنهب كل ما في وسعهم.

فاضطرَّ «معين الدين» و«ثيو» إلى الهروب من خلال ممرات جانبية صغيرة عبر الضواحي نحو الخارج، على أمل تجنب الاشتباك مع السيبويين، لكنهم لم يبتعدوا كثيرًا قبل أن يدركوا أنه لا توجد طريقة آمنة للعبور، واتفقا على أنه من الأفضل أن يتخذ «ثيو» ملاذًا آمنا، فاختار معين الدين منزل مالك أرض

محليٍّ يدعى «بهورا خان»، ونصح ثيو بأن يبقى بعيدًا عن الأنظار حتى يسيطر الأوروبيون على الصراع وتمر تلك الأزمة بسلام.. بعدما ترك «معين الدين» «ثيو» هناك، عاد إلى مركز الشرطة حيث قام هو أيضًا بالتخلي عن زيه العسكري وارتدى ملابس هندوستانية.. ثم عبر بوابات المدينة، وتحقق من سلامة عائلته المذعورة، قبل أن يتوجه نحو القلعة، عازمًا على تلقي واجباته من الإمبراطور مباشرةً نظرًا لغياب أيَّة سلطات بريطانية. وفي أثناء مروره بالمتاجر المغلقة في سوق شوري، فكر كيف حدث كل هذا..

«عنصر المفاجأة في الاقتحام هو ما شكَّل ذعرًا شديدًا، بالإضافة إلى تجاهل قوة المتمردين، والقصص المبالغ فيها التي أشيعت بعد الاقتحام عن عددهم شلَّت أفكارنا تمامًا ومنعتنا من اتخاذ أي تدابير للمقاومة أو حتى الحد من الفوضى، ففي أقل من ساعتين، تحولت المدينة المزدهرة إلى منطقة حرب، وفي أثناء قتل المسئولين والمنتسبين إلى الحكومة، كان كل شخص يفكر بأنانية فقط في سلامته وسلامة عائلته وممتلكاته، فيما انتشر الحثالة، يتدفقون من كل مكان، وينهبون المنازل الأوروبية، وبوصولي إلى مركز الشرطة، وجدته منهوبًا، حتى الأبواب خُلِعت.».

في الداخل، وجد «معين الدين» اثنين من رجال الشرطة يرتعدون خوفًا، أخبروه أن أحد الثوار عثر عليهم وسألهم بصوت جَهْوَرِي: أتحاربون فداءً لدينكم أم ضده؟ عندما أجبناه: نحن جميعًا مع ديننا، أطلق سراح المدنيين منَّا. بعد ذلك بقليل، أقْبَل بعض الرجال يمتطون الإبل ويرتدون ملابس خضراء مع عمائم حمراء، ينادون فينا: «أيها الناس، لقد دقت طبول الحرب على المشركين.» من أين جاءوا أو إلى أين ذهبوا! لم يكن مخبِري يعلم، لكن الحشود المتحمسة والمذعورة في الشوارع قالوا إنهم رسُل من السماء، بعدها اتجه المقبوض عليهم لحوانيت الحدادة وخلعوا قيودهم، ثم قاموا باقتحام مخفر الشرطة ونهبوا محتوياته..». لم تكن القلعة الحمراء أقل فوضوية عندما وصل إليها. أكمل معين الدين: «كانت القلعة مضطَربة وخاوية، وصلت إلى التسبيح خانة([19]) وأقنعت الخصيان المتبقيين بالسماح لي برؤية «ظفر»، وتوسلت إلى الملك أن يوقف هذه الفوضى ويرتب لاستعادة النظام. فأجابني: «لا أستطيع، لقد ذبحوا كل المساعدين وتركوني هنا وحدي، كيف أفرض أوامري إن لم تكن لدي القوة لفعل ذلك؟ ما الذي يمكنني فعله؟»»

سأل «معين الدين» «ظفر» عمَّا إذا كان لديه أي أوامر، فأرسل الإمبراطور برفقته اثنين من حاملي الصولجان إلى دارياجانج لمحاولة إنقاذ أي مسيحي يمكن أن يجدوه، ووعد بإيوائهم في القصر. كتب «معين الدين»: «وهناك ردَّدنا بصوت عالٍ أوامر الملك بوقف القتال، وأنقذنا حياة عشرات الأشخاص، ثم أرسلناهم إلى القصر وصدرت الأوامر بإطعامهم، وظللنا طوال فترة بعد

الظهر، ننتقل من كوخ إلى آخر، على أمل العثور على أي شخص ما زال حيًّا لننقذه، فوجدنا عددًا قليلًا من المسيحيين فقط أحياء، وحملناهم معنا إلى القصر. بحلول الساعة الرابعة فجرًا، كنا قد وجدنا تسعة عشر ناجيًا، أرسلناهم إلى الإمبراطور، ولكن مع مرور الساعات، تزايدت الفوضى والتوتر في القصر.»

عندما وصل «ظهير دهلوي» إلى القصر - بحلول الساعة الحادية عشرة صباحًا - وجد أن الحكيم «إحسان الله خان» بأمر من «ظفر»، يُشرف على أحد خياطي القصر الذي كان يخيط أكفان الدفن لـ«فريزر» و«دوجلاس» وعائلة «جينينجز»؛ بينما رجال الحاشية الآخرين يتجمعون للامتثال لأوامر «ظفر» بأن القلعة بأكملها يجب أن تشارك في طقوس جنازة القتلى. في تلك اللحظة، ركضت مجموعة من الفرسان مندفعة بشكل مخيف عبر باحات الملك الخاصة، وحين رآهم الحكيم «إحسان الله خان» قال «علينا جميعًا أن نقرأ الفاتحة على أرواحنا، فقد حانت لحظة موتنا.». وبالفعل بدأوا جميعًا التلاوةَ، في حين اقترب الفرسان من قاعة الاستقبال، ترجلوا عن خيولهم وقيدوهم، ثم ساروا إلى الداخل مباشرة دون أن يخلعوا أحذيتهم - كما العادة - كان عددهم تقريبًا ثلاثين رجلًا، وكانوا يرتدون ملابس طويلة فضفاضة وعمامات، بعضهم يحمل سيوفًا وبعض آخر بنادق.. عندما رأوا الأكفان البيضاء الطويلة منتشرة، التفت أحدهم وسأل الحكيم «إحسان الله خان» «ما هذا؟» أجابه: «هذا نتيجة ما فعلتموه وجرائم القتل التي ارتكبتها أنت وحاشيتك.» فبصق الجنود عليهم قائلين: «لا تختلفون كثيرًا عن المسيحين الكفار»، ثم مزَّقوا كل الأكفان التي كانت تجهز للقتلى. ثم وضع أحد الثوار المسدس في بطن رئيس الخصيان محبوب علي خان، وأمره بإحضار المؤن لهم. فأجابه «محبوب علي خان»: «كيف يمكنني أن أمدك بالمؤن بينما ليس لدينا أي منها؟» سانده الحكيم «إحسان الله» قائلًا: «لقد اعترف جلالة الملك أنه لا يملك أي مال؛ إنه يعيش كالشحاذين، فمن أين يمكن أن نحصل على الإمدادات؟ لدينا بعض الحبوب للخيول في الإسطبل الملكي، انطلق وخذها، لكن إلى متى ستكفيك؟ من المفترض أن تكفينا لشهر، لكن بالنسبة لك فلن تدوم إلا ليوم واحد.»

ذهب الجنود إلى حديقة الملك الخاصة، «مهتاب باغ»، حيث قيدوا خيولهم، وبعد فترة وجيزة جاءت مجموعة أخرى من الجنود، هذه المرة كان عددهم ستِّين جنديًّا، جاءوا يسألون عن المؤن فتم إعطاؤهم الإجابة نفسها، ثم وصل خمسون آخرون. أي تقريبًا تجمع حوالي ثلاثمائة من الجنود في «مهتاب باغ». من وجهة نظر الحاشية، كان وصول السيبويين بمثابة غزو؛ فآخر مرة اقتحمت مثل تلك الأعداد الكبيرة من الجنود داخل القلعة الحمراء كانت عندما استولى «غلام قادر» على القصر في عام ١٧٨٣، وقام بإفقاد

الإمبراطور حينها بصره، عندما كان «ظفر» ما يزال في الثامنة من عمره فقط. منذ ذلك الحين ولم يسمع أحد بأي شخص يمر عبر الستار الأحمر على ظهور الخيل أو يقترب من قاعة الاستقبال دون خلع حذائه.. عندما فعل المقيم البريطاني، «فرانسيس هوكينز»، ذلك في عام ١٨٣٠، خلال العطلة السنوية لـ«أكبر شاه» في مهرولي، اشتكى الإمبراطور من «ذلك العمل المهين وغير المحترم» وطالب باتخاذ خطوات لإزالة غبار الحزن والهم من مرآة عقولنا المستنيرة؛ وطُرِد «هوكينز» على الفور.

الآن قام عدة مئات من السيبويين القذرين باقتحام المكان دون إذن، حتى وصلوا لقاعات القصر نفسها، وقد ربطوا خيولهم بين أشجار الفاكهة المثمرة في الحديقة المفضلة للإمبراطور، ثم ازداد الوضع توترًا، حيث بدأ تجمع السيبويين في القصر الاضطراب، وازداد تجمعهم حول قاعات «ظفر» الخاصة، من الواضِح أنهم كانوا يتوقَّعون أن يمطرهم الإمبراطور بالذهبِ تقديرًا لمجيئهم إليه ويقدم خدماته لهم، لكن بدلًا من ذلك تلقوا استقبالًا معاديًا بشكل عَلَنِي في القصر. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من وصولهم إلى دلهي طلبًا لحماية الإمبراطور، فإن «ظفر» كان قد اختفى منذ صراخ أول دفعة من الجنود في الصباح الباكر، لذلك في حوالي الساعة الرابعة مساءً، أرسل قادتهم للملك أنهم جاءوا «لنقاتل في سبيل ديننا وتقديم احتراماتنا لجلالة الملك.»

عندما فشل هذا في إخراج الإمبراطور، احتشد الجنود في الفناء أمام قاعة الاستقبال، وبدأوا يطلقون النيران من البنادق والمسدسات في الهواء، مما أثار ضجة كبيرة، بحسب كلام «غلام عباس»، وهو مستشار «ظفر». وحين سمع الملك الضجيج خرج ووقف عند باب القاعة، وطلب من مساعديه أن يطلبوا منهم التوقف عن الضوضاء التي كانوا يصدرونها.. فأُخمِد الضجيج، تقدم ضباط سلاح الفرسان إلى الأمام على خيولهم، أوضحوا أنهم طُلِبَ منهم قضم الخراطيش، والتي يُحَرِّم استخدامها الهندوس والمسلمون، حيث كانت الخراطيش مدهونة بلحم الخنزير ولحم البقر، وبالتالي قتلوا الأوروبيين في ميروت، وجاءوا ليطالبوا بحمايته. فقال الملك: «لكنني لم أدعُكم، ولقد تصرفتم من تلقاء أنفسكم بشكل شرير للغاية.» حينها صعد ما يقرب من مائة أو مائتي من المشاة المتمردين السلم، ودخلوا القاعة وأحدهم يصرخ: «إن لم تنضم إلينا أيها الملك فسينتهي أمرنا جميعًا، وفي هذه الحالة سنضطر أن نبذل كل ما في وُسعنا للنجاة!» تجادل «ظفر» مع الجنود لفترة، وهو شيء غير معتاد.. أدانهم بسبب جرائم القتل التي ارتكبوها، فصار بلاط القصر مسرحًا لأعنف حالة من الارتباك والشجار والنزاعات. كما كتب النبيل «عبد اللطيف»: «كان الملك مثل ملك على رقعة الشطرنج بعد انتهاء اللعبة، حاول التصرف بأقصى درجات ضبط النفس لفترة ثم قال: «لماذا تُعَرَّض روح شيخ

مثلي لهذه الإهانة وهذه الضوضاء؟ لقد وصلت شمس حياتي بالفعل للغروب، هذه هي أيامي الأخيرة، كل ما أتمناه هو السكون والعزلة!»»

كان رجال البلاط غاضبين من تصرفات المتمردين وتجادلوا مع السيبويين.. لكن الهمجية التي شنوها عليهم أسكتتهم واضطروا للعودة إلى أماكنهم. أخبر «إحسان الله خان» السيبويين: «لكنكم اعتدتم لفترة طويلة على العمل تحت إمرة الإنجليز، ورواتبهم المنتظمة، أمَّا الملك فليس لديه شيء في خزينته، كيف يمكنه أن يدفع لكم؟» أجابه الضباط: «إن أردتم أن نجلب لكم كنوز الإمبراطورية بأكملها لخزينتكم لفعلنا.» حاول «ظفر» لبعض الوقت استكمال مجادلة السيبويين، قائلًا لهم: «ليس لدي قوة عسكرية أو ذخيرة، أو خزائن مليئة بالمال، أنا لست في وضع يسمح لي بالانضمام لأحد.» قالوا: «فقط أعطِنا بركتك، واترك لنا كل شيء آخر.».

يبدو أنهم كانوا يحاولون استمالته إليهم بشتى الطرق، مرَّت فترة طويلة من الصمت، بينما كان «ظفر» يفكر في خياراته، طالما كان التردد أكبر مساوئ «ظفر»؛ ترْوِي «إميلي إيدن» حكاية عن تردده من زيارتها إلى «دلهي» في عام ١٨٣٨ عندما أُرغِم «ظفر»، ولي العهد آنذاك، على مقابلة شقيقها الحاكم العام، لورد «أوكلاند»، فظل «ظفر» طوال فترة ما قبل الظهيرة غير قادر على اتخاذ قراره بالحضور أم لا، ثم توجه إلى فراشه وأرسل مجموعة لا تقل عن «ثلاثة عشر طبيبًا ليقولوا إنه كان مريضًا جدًّا بحيث لم يتمكن من الحضور»، لكنه في النهاية وبعد تردده وتفكيره حضر في منتصف النهار في أثناء توسط الشمس كبدَ السماء، حيث كان كل الرجال المتجمعين يكاد أن يغمى عليهم من شدة الحرارة. وبالمثل، عندما كان «ظفر» على خلاف مع «ميرزا فخرو» في عام ١٨٥٢، كان مترددًا كذلك.. ففي يوم كان يمنع رجال البلاط من الاتصال بـ«ميرزا»، وفي اليوم التالي أعلن حبه لـ«ميرزا» وأخبر أعضاء البلاط ألا يخافوا من مصادقته أو حضور حفلاته. لكن الآن، في تلك اللحظة التي سيتخذ فيها «ظفر» القرار الأكثر أهمية على الإطلاق، وقد اصطفت معظم نخبة دلهي بالفعل بشكل غريزي ضد الأفعال الهمجية، قام «ظفر» بخيار حاسم بشكل غير معهود؛ إذ أعطى للسيبويين بركته. ليس من الصعب تخمين السبب، فمع تسليح وتهديد السيبويين الثائرين المحيطين به من جميع الجهات، لم يكن لديه خيار آخر. علاوة على ذلك، لم يكن لديه كثيرٌ ليخسره. فعلى الرغم من خوفه الذي لا شكَّ فيه وغضبه وسخطه على السيبويين، فقد اتخذ «ظفر» اختيارًا حاسمًا، ربما من شأنه أن يغيِّر مصير سلالته ومصير مدينة دلهي، وربطهما بالانتفاضة.

ثم جلس الملك على كرسيه، وتقدم الجنود والضباط جميعًا واحدًا تلو الآخر، يقدمون فروض الولاء والطاعة للملك، أحنوا رءوسهم أمامه ولمسوا قدمه،

وطلبوا منه أن يضع يده على رءوسهم لمباركتهم. بعدما يفعل الملك ذلك، كانوا ينسحبون في إجلال ليربطوا جيادهم في الفناء، ويأخذوا أماكنهم بأن يفترشوا قاعة الاستقبال وينشروا حراسهم حول القصر. وفي هذه اللحظة الحاسمة نفسها، والتي أعلن فيها الملك - حتى ولو كان مترددًا وعلى مضض - مباركته المتمردين، وبدأوا يستقرون داخل أنحاء القصر، اهتزت المدينة بأكملها بسبب انفجار هائل، تمكنوا من سماعه من على بعد عشرين ميلًا؛ إذ ارتجت المباني، وانهارت عديد من أسقف غرف القصر المصنوعة من الجص. كان الانفجار على بعد نصف ميل من شمال القلعة الحمراء، حيث قام الملازم أول «ويلوبي»، وهو صديق لـ«ثيو»، المحاصر من قِبَل السيبويين، بنسف أكبر تُرسانة من البنادق والذخيرة في شمال الهند؛ ومعها نسف حشدًا كبيرًا من الجهاديين والمتمردين والسيبويين، الذين كانوا يهاجمونها بالإضافة إلى جميع المتواجدين تقريبًا من المدافعين البريطانيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعيدًا في الشمال، وراء بيت «ميتكالف»، قضى الكابتن «روبرت تايتلر» معظم يوم الحادي عشر من مايو غير مدرك ما حدث لـأبناء وطنه، أو الأحداث الدرامية السياسية التي اندلعت في القصر، فقد أُرسِل بصحبة مائتَيْ سيبوي لحماية مخزن البارود الجديد وحصن يامونا الواقع على مسافة قريبة من المعسكرات، وربما أدرك وجود بعض الاضطرابات لكنه كان جاهلًا مدى جدية الانتكاسات وخطورتها التي قد تؤدي سريعًا إلى الإطاحة بالحكم البريطاني في «دلهي» وحولها.

كان قد لاحظ أن رجاله أظهروا تعاطفهم مع السيبويين في ميروت عندما تمت قراءة الأحكام التي صدرت ضد بعض السيبويين المتمردين مسبقًا؛ ولاحظ حماستهم عندما وردت أنباء عن وصول السيبويين من ميروت إلى دلهي في أثناء مسيرتهم؛ ولاحظ أيضًا أنه عندما وزَّع الذخيرة على رجاله كان بعضٌ قد حصل على أكثر من استحقاقه بكثير، فقام بتدوين أسماء الرجال المذنبين في عقله لمعاقبتهم في وقت لاحق. لكن لكونه منعزلًا في موقعه البعيد، لم تصل له أخبار دقيقة عما يجري، على الرغم من أنه بالنظر في اتجاه النهر، كان بإمكانه أن يرى بوضوح الدخان يتصاعد من داخل المدينة، ويسمع أصوات البنادق والمدفع. في وقت مبكر من بعد الظهر، لاحظ هو وزميله الكابتن «جاردنر» أن السيبويين كانوا يرفضون الدخول إلى الحصن، وشكَّلوا بدلًا من ذلك مجموعات صغيرة بالخارج تحت حرارة الشمس. كتب لاحقًا: «أمرتهم بالدخول فرفضوا متعللين بأنهم يحبون الجلوس في الشمس. أمرتهم بالدخول مرة أخرى، لكن لا أحد تحرك.. ثم ظهر جندي ما من وسط الرجال وتكلم قائلًا أن كل قوة أو حكومة لها وقت محدد، ولذلك فليس من الغريب أن سلطة الإنجليز قد وصلت إلى نهايتها.. وقبل أن أقوم بسجنه،

انفجر مقر مخزن البارود في المدينة، فعلى الفور سحب بعض الرجال أسلحتهم وهرعوا صارخين إلى المدينة، وهم يهتفون «النصر لملك العالم!» أسرعت أنا والكابتن «جاردنر» في أثرهم، نأمرهم بالعودة إلى أماكنهم؛ لكن لهجة الأمر فشلت، وحتى عندما لجأنا إلى لهجة المناشدة والطلب، فشلت كذلك.».

وجد تايتلر نفسه مع ثمانين جنديًا من السيبويين فقط، كانوا من كبار السن والذين خدموا معه في أفغانستان، فشعر بالحيرة في كيفية التصرف وماذا عليه أن يفعل.. بعد دقائق، وصلت أوامر عاجلة مع رسول بأن «تايتلر» يجب أن ينضم إلى فرقته في برج فلاجستاف في وسط التلال التي تطل على المدينة المسورة. عندما وصل «تايتلر» أخيرًا إليه، كان برج فلاجستاف غارقًا في أشد الارتباك. على مدار اليوم، أصبح هذا البرج الدائري القصير المعزول ملجأ الحماية لجميع العائلات البريطانية المتبقية من المعسكر والخطوط المدنية، وكذلك القلائل الذين تمكنوا من الفرار من المدينة المسوَّرة، ومن ضمنهم «هارييت» زوجة «تايتلر»، التي كانت مرتبكة وتبكي باضطراب وبشكل غير معهود، شاعرة بمدى ثقل حمْلها المتقدم، وقد تحطمت رباطة جأشها الفولاذية عندما سألها ابنها الصغير «فرانك»، البالغ من العمر أربع سنوات: «ماما، هل سيقتل هؤلاء السيبويون المشاغبون بابا؟ وهل سيقتلونني أيضًا؟».

وبداخل البرج أيضًا كانت هناك عائلة «واجنتريبير» بأكملها، التي كان عائلُها «جورج» قد نجا في ذلك الصباح بصعوبة من المتمردين السيبويين عند بوابة كشمير وهو في طريقه إلى مبنى جريدة «دلهي جازيت»، الذي عُرِّض للنهب. أما خارج البرج فكان هناك مدفعان ميدانيان خفيفان، تحت إشراف العميد «جريفيز» وقاضي دلهي «تشارلز لو باس»، الناجي الوحيد من مجموعة الرجال الذين أغلقوا بوابة «كالكوتا» في وقت سابق من صباح ذلك اليوم. وتحت أوامرهم كانت هناك مجموعة عابسة ساخطة بشكل واضح من السيبويين، والأيتام الأنجلو - هنديين من فرقة الأولاد المسيحيين، الذين شاركوا في السباق السنوي لعربة اليد، والذي كان لعدة سنوات واحدًا من أبرز أحداث ديربي «دلهي»، ولكنهم الآن قد اتخذوا مواضعهم في الخدمة العسكرية، إذ تم تزويدهم بالبنادق، ووقفوا في وضع الاستعداد خلف الأسوار الموجودة أعلى البرج. في الداخل تناثرت حشود من النساء البريطانيات، وقد قيل لعديد منهن للتو إن أزواجهن أو أبناءهن أو أشقاءهن قد قُتِلوا بأبشع طريقة. وبالقدر نفسه من الأسى ارتسمت ملامح أحد الجنود الأوروبيين القلائل الحاضرين، «تشارلي توماسون»، والذي ينتمي لجوقة الأب «جينينجز»، وقد نُقِل من فراش المرض في المعسكر إلى البرج، ليُخبروه أن خطيبته، «آني جينينجز»، قد قُتلت كذلك في القصر.

يبلغ قطر الغرفة الداخلية الواحدة للبرج ١٨ قدمًا فقط، وهي بلا نوافذ وخانقة في معظم الأوقات؛ وقد وقعت تلك الأحداث في ذروة موسم جوي حار. والأسوأ من ذلك، من أجل سلامتهن، أرسِلَت العديد من النساء إلى أعلى الدرج الداخلي الخانق، مما أدى إلى إغماء عديد منهن. لكن ما كان أكثر إيلامًا حتى من الحر، ونقص الماء، كان الإحساس بالخطر. فعلى مدار اليوم، استمر توارد أخبار الموقف البريطاني، والذي كان من سيئ إلى أسوء، انقلاب بعد انقلاب وموت بعد موت، واحتماليات وصول أفواج الإغاثة من ميروت التي تزداد بعدًا مع الوقت.. وفقًا للشابة «فلورنس واجينتريبير»، تجمع السيدات، والأطفال، والخدم، ذكورًا وإناثًا، في ارتباك تام. كانت عديدٌ من السيدات في حالة يائسة من الحرارة الشديدة والانهيار العصبي، بينما تصاعد بكاء الصغار وتشبثوا بأمهاتهم وتصاعد بكاء الأرامل، والنساء اللاتي تبكين على خبر موت أخ أو أب أو ابن، وبعضهن كان أزواجهن لا يزالون في خطوط الدفاع وسط السيبويين الساخطين، ويجهلن مصيرهم حتى الآن.

لم تكن هناك شجرة بالقرب من البرج لتحميه من أشعة الشمس الحارقة.. كانت الحرارة لا تطاق، فجردُّوا الأطفال من ملابسهم. عند وصول «تايتلر» إلى هذه الفوضى المتصاعدة، رأى على الفور أن البرج المعزول لا يعد حصنًا أو ملجأ بالكامل، فتجمع النساء والأطفال في مثل هذه البقعة كان بمثابة دعوة إلى مذبحة أكبر بكثير من تلك التي حدثت بالفعل داخل أسوار المدينة. سار مباشرة بدون تردد إلى العميد «جريفيز»، وبحسب رواية زوجته، سأل بصوت واضح جدًّا ومسموع: «معذرة سيدي، ولكن ماذا سنفعل؟» فأجاب: «نبقى هنا يا «تايتلر»، ونحمي النساء والأطفال». قال زوجي بحدة: «إنه جنون يا سيدي.. هل لديك أي طعام؟

لا يا تايتلر

هل لديك ماء؟

لا يا تايتلر»

«إذن كيف تقترح حماية النساء والأطفال؟»

«ماذا نستطيع أن نفعل؟ إذا خرجنا فسوف يطلقون النار علينا».

قال زوجي، «انظروا أيها السادة.. لا يمكننا دفن رءوسنا في الرمال؛ يجب أن نُشَكِّل دفاعًا وهجومًا مضادًّا كذلك». صاح الضباط، «بحق الله، لا تستمع إلى «تايتلر»» فقال زوجي «حسنًا أيها السادة، افعلوا ما يحلو لكم، ابقوا هنا وانتظروا الذبح، لكنني سأذهب مع عائلتي لأؤدي دوري العسكري، فلن أقف لرؤية زوجتي وأولادي يذبحون!».

بينما كان «تايتلر» يتحدث، ظهرت عربة يجرها ثور واحدة عند سفح المنحدر تسير ببطء مصدرة صريرًا رفيعًا فوق منحدر التلال قرب بوابة كشمير. داخلها، تحت غطاء رقيق لفساتين نسائية ملطخة بالدماء، رقدت جثث مشوهة متعفنة لجميع الضباط البريطانيين الذين قُتلوا في أثناء دخولهم المدينة في وقت مبكر من الصباح؛ فور رؤيتها انهارت شقيقة أحد الضحايا - الآنسة «بوروز» - داخل البرج. في الواقع، أرسل «إدوارد فيبارت» العربة إلى المعسكر، ووجدت طريقها بالخطأ إلى برج فلاجستاف؛ لكن اللاجئين المتوترين والمضطربين اعتبروه عملًا من أعمال التخويف من قِبَل السيبويين. على الرغم من أن هذا لم يكن النية الأصلية للمرسل، إلا أنه بالتأكيد لاقى هذا التأثير.

عند رؤية الجثث، حث الرجالُ السيبويين الباقين مع «تايتلر» قائدهم على الفرار حتى لا يلاقوا المصير نفسه، وأخبروه أن الثوار من ميروت كانوا يريحون خيولهم حاليًا في حدائق «أوكتيلروني» القريبة.. قال السيبويون لـ«تايتلر»: «يتوقعون منكم البقاء هنا طوال الليل، وسوف يأتون لقتلنا عندما يقررون هذا.» تحطمت أعصاب الحشد الخائف بالكامل عند سماع هذا.. كتبت «هارييت تايتلر»: «حالما سمع العميد وضباطه بالمصير الذي ينتظرهم، أدركوا كم اقتربوا من نهايتهم، وبعد ذلك حدث فرار جماعي. هرعوا جميعًا إلى العربات وتقاتلوا على الهروب أولًا.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع تقدم اليوم، ازداد موقف «إدوارد فيبارت» ضعفًا بشكل جديٍّ، وفي الساعة الواحدة ظهرًا، عاد مائتا سيبوي مجددًا إلى الفوج بعدما هربوا فجأة، وعللوا هروبهم وترك ضباطهم لمصيرهم السوداوي بأنهم كانوا عُزَّلًا غير مسلحين وأخذتهم المفاجأة من ظهور المتمردين في صباح اليوم عند دخولهم عبر بوابة كشمير.. لم يكن «فيبارت» متأكدًا من صحة تعليلهم هذا، لكنه لاحظ أن موقفهم وسلوكهم وإن كان محترمًا ظاهريًّا، إلا إنهم قد وقفوا في مجموعات يتحدثون مع بعضهم بعضًا بصوت منخفض وبشكل خفي، كما إن أحد الحراس رفض القيام بمهمة قد كلفه بها ثم أعلن استقالته من خدمة الشركة والانضمام إلى الحشود المتمردة، كان كل هذا مزعجًا للغاية ولا يبشر بالخير.

كان «فيبارت» في البداية لا يزال على تواصل مع الملازم «ويلوبي» في مخزن الذخيرة و«آرثر جالواي» مساعد القاضي الذي رفض ترك منصبه على بعد مسافة قصيرة من كنيسة سانت جيمس، لكن بحلول منتصف النهار كان «جالواي» قد لقي حتْفَه على يد حارسه المتمرد الساخط، في حين قام «ويلوبي» بنسف مخزن الذخيرة حتى لا تقع محتوياته في يد المتمردين، وكان

انفجارًا هائلًا هز أساس مركز الحرس الرئيس، وتزايد إحساس «فيبارت» بالعجز للتدخل وإيقاف نهب الكنيسة الواقعة على بعد مائتي ياردة من موقعهم، أو إيقاف سرقة الوسائد والمعدات التي يحملها الهمجيون ويجرون بها دون عائق أمامهم. رُفِعت معنويات المدافعين مؤقتًا بظهور كل من «ويلوبي» ومساعده الملازم «فورست» - والد الآنسات «فورست» الثلاثة - عند البوابة يعلوهما الغبار والبارود، وكان فورست مصابًا بجروح بالغة في يده، وبعد ذلك بوقت قصير ظهر بعض الجنود الإنجليز تعلوهم الإصابات والعجز الواضح جرَّاء انفجار مخزن البارود.

ازدادت علامات الاستياء وضوحًا على وجوه السيبويين الذين يحرسون البوابة، وبدأوا رفض الأوامر وتجاهلها. وعاد مدفعان كان قد أُرسِلَا قبل ساعة ونصف إلى التلال مع بعض الحراس السيبويين واثنين من الضباط الإنجليز، بالحراس السيبويين فقط، وقد فُقد الضابطان بغموض، وحين سُئلوا لماذا عادوا وأين الضباط، لم يعطوهم أيَّة إجابات محددة. في غضون ذلك، ظل السيبويون يتشكلون بغموض في مجموعات من ثلاثة وأربعة، بشكل غير مريح أقلق «فيبارت» ورجاله. ثم حدث كل شيء فجأة، قام السيبويون بسرعة إلى البوابة وأغلقوها، وبدأوا تصويب ضربات مباشرة إلى مجموعة من الضباط، وسرعان ما احتذى بهم بقية السيبويين المتشكلين في مجموعات، سقط الكابتن «جوردون» من على حصانه واتضح لـ«فيبارت» حقيقة ما يحدث برهبة، لقد فُتحت عليهم النار من اليمين واليسار.. ودون أيَّة وسيلة للهروب.

لم يكن يعرف ما يتوجَّب فعله، اتجه للمنحدر الذي يؤدي من الفناء إلى القلعة بالأعلى ويبدو أن جميعهم كان يحاولون الهرب مثله، عُرِّض للضرب مرتين وهو يندفع إلى الأعلى والرصاص يتساقط فوقه هو ومن معه مثل ندف الثلج مُصْدرًا صوتًا مخيفًا، تساقطت الجثث إلى جانبه، ومن بينهم كان «وريفلي» الذي كان يحمل بندقية محشوة بالرصاص فرفع نفسه بإجهاد وهو يكاد يحتضر وقام بإفراغ بندقيته في السيبويين من حوله، لكنها لم تلبث أن فرغت في النهاية ومات. في الجزء العلوي من المنحدر، نظر «فيبارت» إلى أسفل القلعة، حيث يقع خندق على بعد ٢٥ قدمًا بالأسفل، وعلى الرغم من أنه كان سيُعَدُّ جنونًا في أي وقت آخر، فقد قام عديدٌ من الضباط بالقفز، وبدأوا محاولة الجري والصعود فوق الجدار الخارجي للخندق الرأسي تقريبًا. كان «فيبارت» على وشك الانضمام إليهم عندما انطلقت صرخات بنات «فورست» الثلاث من مقر الضباط. كانت والدتهن قد أصيبت للتو في كتفها، فركض «فيبارت» إلى حيث كنَّ. وصفير الرصاص مستمر طيلة الوقت من خلال النوافذ، بدأ مساعدتهن على الوصول إلى الخندق، وقام الضباط بربط إِحزمة سيوفهم الخاصة بهم واحدًا خلف الآخر وبمساعدة فيبارت ووالدهن،

أنزِلَت الفتيات ببطء واحدة بعد الأخرى.. وتبقت سيدة واحدة فقط عجوز وبدينة رفضت القفز وبدأت الصراخ، كتب «فيبارت»: «عند هذه النقطة، كان السيبويون قد بدأوا التصويب علينا من مدفع سبق وتدربوا عليه فاصطدمت الطلقات بالجدار إلى اليمين قليلًا وأغرقتنا بالشظايا، كان من الجنون إضاعة الوقت في المجادلة، فقام شخص ما بدفعها وسقطت رأسًا على عَقِب بالأسفل! ثم حاول الناجون العشرة - خمسة رجال وخمس نساء - واحدًا تلو الآخر الصعود على الجدار للخروج من الخندق، لكن عند وصول السيدات تقريبًا للقمة، انهارت الأرض تحت أقدامهن وسقطن عائدات إلى الخندق، لم نكن نملك إلا اليأس.. والغريب أنه أعطانا طاقة خارقة للنهاية.. فبعد عدة محاولات نجحنا جميعًا في الوصول إلى القمة، وركضنا على طول النهر الجليدي القصير، وواصلنا طريقنا متعثرين خلال بعض الشجيرات الكثيفة ومع حلول الظلام، شقَّ الناجون طريقهم تُجاه النهر، ثم نحو بيت «ميتكالف». في الطريق لهناك، رأينا أن هناك من كان يتتبعنا، لم ننتظر حتى نتبين، انطلقنا جريًا على أمل الوصول إلى منزل «ميتكالف» قبل أن يلحق بنا المطاردون، مزقت الشجيرات الشائكة فساتين السيدات.. لكننا استمررنا في الركض، كان العرق يتدفق على وجوهنا، وشفاهنا يابسة من العطش كالحطب، لكننا لم نجرؤ على النظر خلفنا.».

كان الظلام قد حل بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى منزل ميتكالف، وقد أُحيط المنزل «بحشد من الأفراد المشبوهين»، لكنهم استقبلوهم بلطف مع سؤالهم بحرص عن مصير «ثيو»، الذي لم يروْه منذ ذلك الصباح. أُنزِلوا جميعًا إلى الشقة الباردة الخاصة بالسير «توماس» تحت الأرض، حيث غطت بنات «فورست» الثلاثة في النوم بسرعة، وأحضروا لهم الطعام والشموع المضيئة وزجاجات البيرة، كما تمت معالجة جرح السيدة «فورست» واستراحوا جميعًا لمدة ثلاث ساعات. وبحلول الساعة التاسعة صباحًا، أعلن الموظفون أنها مسألة وقت فقط قبل أن يظهر السيبويون في منزل «ميتكالف» من أي اتجاه، فعلى بعد مسافة قصيرة كان يمكن سماع صراخهم المختلط بوابل من الرصاص وطلقات المدافع. فبسرعة تزودوا بالطعام وزجاجات المياه، ثم انطلقت المجموعة مرة أخرى، كانت الخطة تقتضي عبور نهر يامونا والتوجه إلى الشمال الشرقي عبر البلاد، على أمل الوصول إلى البريطانيين في ميروت، على بعد ٣٨ ميلًا. كتب «فيبارت»: «كل منا تولى مسئولية سيدة، وكانت ابنة «فورست» الصغيرة من نصيبي. ظلت الطفلة الصغيرة المسكينة تسأل كل أنواع الأسئلة البريئة، غير قادرة على استيعاب الأحداث المرعبة التي حدثت، كنا قد مشينا لقرابة نصف الساعة قبل أن تشتعل - فجأة - كرة من النار من خلفنا، يبدو أننا غادرنا في الوقت المناسب، فعلى مياه نهر يامونا

الصافية انعكست الألوان المخيفة للنيران الصادرة عن بيت «ميتكالف» المشتعل..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول الظلام وغروب الشمس، توقف المسلمون لتناول إفطار رمضان، وهُجرت شوارع دلهي مرة أخرى، كان «ظهير دهلوي» عائدًا من القلعة حين مر بمشهد الدمار وعنه كتب: «لمَّا وصلت لطريق السوق الأوردي - بجوار المسجد الجامع - كان هادئًا تمامًا، ولم يكن هناك أي أثر أو صوت لطائر واحد حتى، في الواقع لقد خيَّم صمت مهيب وغريب على المدينة بأكملها، وكأنها تحولت فجأة إلى صحراء موحشة، نُهبت المحلات التِّجارية وأُغلقت أبواب جميع المنازل على نفسها ولم يكن هناك أي بصيص للضوء، حتى فوانيس الشوارع كانت محطمة.. وبوصولي إلى بوابة السوق الصغيرة - سوق تشاندني تشوك - رأيت جميع متاجر صانعي السكاكين وبائعي الحلويات ومتاجر الملابس، قد حُطِّمت ونُهبت جميعًا، وأمام متجر الفضة كان يرقد شحاذ من البراهمة محتضرًا، كان لَا يزال يئن وعلى ظهره ثلاث جروح خطيرة من أثر السيوف. وحين وصلت أخيرًا لبيتي - في ماتيا محل - كان الوقت متأخرًا والباب مغلقًا بإحكام.».

ما تبقى من الجالية البريطانية في «دلهي» الآن كان عبارة عن مأساة كاملة، فقد قضى «جيمس مورلي» المساء مختبئًا في كوخ غاسل الملابس، يستمع إلى مناقشات خدَمِه عن مقتل زوجته وعائلته ووفاته المفترضة على اعتبار ما سيكون، وسمع رجلًا يقول إنه من الخطأ قتل النساء والأطفال، فكيف سيحصلون على وظيفة أخرى الآن؟ بينما سمع آخر يقول إن البريطانيين كفَّار وسيعمل ملك «دلهي» المعظم الآن على توفير وظائف لنا. نجح «مورلي» في الهروب مرتديًا ثوبًا نسائيًّا لزوج خادمه وحجاب. كتب «مورلي»: «شعرت بالخوف من أن يكلمني أحد، لم أكن أعرف ما إذا كان بإمكانهم ملاحظة شيء غريب بمظهري أو مشيتي ومن ثَمَ يقبضون عليَّ..»

لكنهما تمكنا من الخروج بأمان عبر بوابات المدينة غير المحصنة، في عربة ثيران غاسل الملابس المُسِن، أسفل كومة من الغسيل المتسخ. على الرغم من الوقت المتأخر، كان الطريق مليئًا بالحشود المتحمسة المتسارعة إلى «دلهي» للنهب، أو العودة محملة بما نهبوه، وفي مرحلة ما أحاطت بهم عصابة من الرجال الذين اتهموا الخادم بإخفاء الكنوز في الغسيل، فقال الرجل الشيخ لهم ببرود أن يفتشوه، ولن يجدوا شيئًا، فأطلقوا سراحهما. بعد ذلك تمكن غاسل الملابس من صد أيَّة عصابة أخرى بإخبارهم بأن يسرعوا ليتمكنوا من نهب الفرنجة قبل فوات الأوان. ومع حلول الفجر وجدا مأوى في قرية «دارامسالا» في معبد على جانب الطريق. في غضون ذلك، كان

«روبرت» و«هارييت تايتلر» يتجهان في طريقهما إلى «كرنال».. وككل محاولات البريطانيين الآخرين في ذلك اليوم، بدأت الرحلة من برج فلاجستاف بشكل سيء وسرعان ما تحولت إلى فوضى كاملة.. كان «تايتلر» قد خطط للجوء بالنساء والأطفال إلى ميروت عبر قلعة «باغ بات» في الشمال الشرقي، لكن حدث ما لم تُحمد عقباه؛ إذ على الفور انقسموا لمجموعتين، وانطلقت نصف العربات تجاه «باغ بات» بينما توجه آخرون في الاتجاه الخاطئ نحو المعسكرات. وفي خِضَم ذعره وارتباكه، فقَد «تايتلر» ما تبقى معه من السيبويين، وانفصل عن زوجته، ومر ببعض قبائل الغجر، والذين كانوا قد وصلوا للتو من قريتهم، للانضمام إلى فِرَق النَّهب، واندفعوا نحو «تايتلر» بعصيهم الحديدية، وحاول أن ينزلوه من فوق صهوة جواده؛ لكنه تمكن من الإفلات بالكاد.. وفي النهاية التقى «تايتلر» بـ«هارييت» وأطفاله، الذين غادروا على الطريق الخطأ برفقة زوج زميله الكابتن «جاردنر» والتي سألته بذعر عما حدث لزوجها، فتطوع «تايتلر» بالعودة والبحث عنه.

اتَّضَح أن «جاردنر» قد فشل في المغادرة مع بقية أعضاء المجموعة، وكان يعرج بجُرح في ساقه جراء احتراق المعسكرات عندما وجده «تايتلر» في النهاية. مر «تايتلر» مرتين من وسط قبائل الغجر، مرة في طريق العودة للبحث عن صديقه، ومرة أخرى، مع «جاردنر» الجريح الذي ركب خلفه على حصانه؛ في كل مرة كان الغجر يضربونه بعصيهم الحديدية ويحاولون إسقاطه.. لكن «تايتلر» كان يقود حصانه ببراعة وبأسرع ما في وسعه خَشية تتبُّع المتمردين لهم واللحاق بهم. كتبت «هارييت»: «لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا، قبل أن ينطلق «جاردنر» بالصراخ: «انظروا إلى الوراء!» ونظرنا في اتجاه المعسكرات ورأينا أن كل شيء خلفنا كان يشتعل.. كان مشهدًا مرعبًا، علمنا أن كل ما كنا نقدِّره قد فقدناه إلى الأبد، أشياء لا يمكن أن تُشترى، مخطوطات ولوحات، وكتب، وملابس، وأثاث، وعربة كبيرة جدًّا، وخيول، والعربات التي تجرها الدواب.. ومن الناحية المالية، فقد فقدنا نحو ٢٠،٠٠٠ جنيه إسترليني، وهو ما كان يمثل ثروة متواضعة لرجل عسكري في تلك الأيام.. في أي وقت آخر كان يمكن أن نحزن كثيرًا، لكن إدراكنا أننا نجونا بحيواتنا سرعان ما جعلتنا ننسى ذلك.».

قرر آل «واجنتريبير»، على عكس آل «تايتلر» الفارين، تجربة حظِّهم في ضواحي «دلهي» والذهاب إلى أصدقاء والد «إليزابيث واجنتريبير»، «جيمس سكينر». فبعد أن زارهم ضياء الدين خان في الليلة السابقة شعروا بالثقة في أنهم يستطيعون الاعتماد على صداقته، لذلك توجهوا من برج فلاجستاف مباشرة لمنزل حديقة «ضياء الدين خان» في الشمال الغربي من البرج، وهو المنزل الذي كثيرًا ما دعاهم من أجل قضاء عطلات نهاية الأسبوع فيه. عند وصولهم، استقبلهم البستاني بحرِارة، كما حلبوا الماعز لتقديم الحليب الدافئ

لـطفلة «إليزابيث واجنتريبير»، وأعدوا لهم الطعام، وتم إخفاء العربة والخيول ببراعة بمحو آثار العربة على الأرض.. صعد «جورج واجنتريبير» إلى السطح مع ابنة زوجه «جوليا»، والرضيعة «فلورنس» ومعه البنادق التي جلبوها، بينما بقيت «إليزابيث» بالأسفل مع الحارس الليلي، تغطي وجهها بحجاب. كما أخبرت الحارس ذا المظهر العابس أنه إذا أظهر أي تلميح بخيانتهم بأي شكل من الأشكال، فإن زوجها سيطلق النار عليه فورًا. توسَّط القمرُ السماءَ ومن على السطح رأى «جورج» الحرائق مشتعلة في كل أنحاء «دلهي» والمعسكرات؛ كما تمكن أيضًا من سماع صوت متكرر لطلقات الرصاص من البنادق الميدانية، وبعد فترة وجيزة من مرور آخر عربة من العربات الإنجليزية في طريق «كارنال»، بدأت قوات سلاح الفرسان المتمردة تجوب الأرض بحثًا عن المسيحيين، وكما تتذكر «جوليا»:

«أخبرت والدتي الحارس بألا يُظهر أي اعتراضات للأشخاص الراغبين في الدخول للتفتيش، وإلا سيثير الشكوك برفضه.. ولم تدع الحارس يقترب من البوابة بمفرده، أو تسمح له بالبقاء بعيدًا عنها.. جاء المتمردون مرتين إلى البوابة، وحيوا الحارس، سائلينه إن كان يأوي الفرنجة بالداخل، في المرة الثانية تقدم جندي على بُعد بضعة ياردات من المكان الذي كانت تختبئ فيه، وكبح حصانه، وطلب أن يفتش جميع أنحاء المنزل. لكن الحارس أطاع أوامر والدتي وأخبر الرجل أن بعض الأوروبيين قد مروا به بالفعل، لكنه لم يبقِهم، وخرجوا مباشرة إلى أعلى الطريق، وأنه لا مانع لديه من تفتيش جميع أنحاء المنزل إذا اختار ذلك. بدا أن رد الرجل السريع أرضى الجندي الذي ركب على الفور بحثًا عن أولئك الذين قيل له إنهم قد مرُّوا به.»

ومع ذلك، ففي منتصف الليل، وصلت أخبار أن شخصًا ما قد خان «آل واجنتريبير»، وأن فرقة أخرى قوامها عشرون فارسًا في طريقها نحوهم! يبدو أنه لم يكن هناك خيار سوى الرحيل فورًا. أعدت «إليزابيث» الخيول، وقادوها إلى مقدمة البيت؛ وُضِع الأطفال في داخل العربة وصعد «جورج» لمكان السائق. كتب «جورج»: «قبل أن ندخل في الطريق السريع، نصحتني زوجتي العزيزة بإبقاء أسلحتي النارية في متناول اليد، لذلك أخذت مسدسًا ذا ماسورة مزدوجة، وتركت بندقيتين بالداخل، وأخبرت ابنة زوجي التي كانت بداخل العربة، أن تناولهما لي لحظة إطلاق النار، كنا قد حصنَّا أنفسنا وانطلقنا في رحلتنا عبر طريق «جراند ترانك»..».

أما عائلة «تايتلر» فكانوا قد تخطوا خمسة عشر ميلًا فقط بعيدًا عن دلهي عندما بدأ حصانهم التباطؤ من شدة الإرهاق، حينها توقفوا عند إسطبل تابع للحكومة للخدمة البريدية لطلب حصان بديل، ولمَّا قوبل طلبهم بالرفض وجه «تايتلر» مسدسًا نحو الموظف المسئول وأخذ واحدًا بالقوة. لكن على بعد

أميال قليلة من مغادرة الإسطبلات، بدأت عجلات عربتهم المثقلة بالأعباء تتفكك في وقت واحد، فتحطمت العربة بأكملها وتحولت إلى ركام لم يترك لهم خيارًا سوى السير على الأقدام، حمل كل واحد من الرجال طفلًا، بينما سارت الزوجان الحاملتان وخادمة «هارييت» المدعوة «ماري» ببطء خلفهما، متوقعين سماع قعقعة حوافر سلاح الفرسان في أيَّة لحظة خلفهم. بدلًا من ذلك، بعد بضعة أميال، سمعوا صوت عربة. كانت تنتمي إلى فتاة إنجليزية مرت بهم في وقت سابق وهي متجهة إلى دلهي، والتي رفضت الاستماع إلى تحذيراتهم بشأن الذهاب إلى هناك. الآن، رفضت طلب «تايتلر» بأن تُقلهم قالت: «بالطبع لن أفعل شيئًا كهذا، هل تريدني أن أحطم عربتي!»

- «إذن لن أطلب منك!»

وشرع «تايتلر» في وضع السيدة «جاردنر» والخادمة «ماري» وزوجه وأطفالهما داخل العربة، وبهذه الطريقة أجبرها على المواصلة حتى تدحرجت إحدى العجلات الخلفية قالت الشابة: «أنظر!» (كانت فقط في السادسة عشرة من عمرها)، «علمت أنك ستكسر عربتي. الآن ماذا علي أن أفعل؟»

هذه المرة، جاءت النجدة على يد السيدة «نيكسون»، التي ترملت مؤخرًا، وكان زوجها قد شوهد ميتًا في الشارع وهناك بسكويت في فمه. هربت المرأة في عربة البريد التي كانت قد غادرت «دلهي» في موعدها المحدد وسط كل تلك الفوضى، كما لو لم يطرأ أي شيء غير عادي! كانت بعض الحبال بحوزة السائق فاستخدموها لإعادة تثبيت العجلات. قاد «تايتلر» ببطء لبضعة أميال أخرى قبل أن تتحطم العجلات تمامًا، فاضطروا للتخلي عن وسيلة النقل الثانية على الطريق كما فعلوا أول مرة، ساروا بإنهاك وسط الليل شديد الحرارة في شهر مايو.. كان العطش فظيعًا، ولم يكن هناك ماء سوى ماء البرك الأخضر المُلطخ بالوحل والذي لم يجف بعد على جانب الطريق. كان الفجر قد حل تقريبًا عندما حصلوا على عربتهم الأخيرة في ذلك اليوم؛ عربة أسلحة مليئة بالأسلحة المكسورة في طريقها إلى مخزن الذخيرة دلهي الذي قد تدمر تمامًا. هرب السائقان بعيدًا عند رؤية مسدس «تايتلر» وواصلت المجموعة طريقها ببطء، ووصلوا إلى «كارنال» في الساعة العاشرة صباحًا. انتظر «تايتلر» طوال اليوم أصدقاءهم وزملاءهم للانضمام إليهم. ولكن بحلول ذلك المساء، من بين كل الحشود التي غادرت برج فلاجستاف، لم ينجُ من دلهي سوى ستة فقط حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة «واجنتريبير» الشاقة على الطريق نفسه جعلت رحلة «تايتلر» الصعبة تبدو كما لو كانت نزهة. لقد غادروا دلهي بعد فوات الأوان، بعدما امتلأ الطريق بقبائل الغجر العازمة على نهب اللاجئين كما يتذكر «جورج»: «ربما

كنا قد قطعنا مسافة ميل واحد، عندما أشارت لي زوجي إلى مجموعة من الأشخاص مصطفين على كلا الجانبين من الطريق أمامنا، ومن الواضح أنهم لا ينتوون خيرًا، لذلك استعددت لحماية نفسي وعائلتي.. وبينما نحن نقترب، أغلقوا الطريق أمامنا، فصوبت سلاحي نحوهم، وهو ما أرغمهم على الابتعاد، لكنهم هروَلوا خلفنا وهم يلوحون بعِصِيِّهم بطريقة مخيفة للغاية، وما إن تخلصنا منهم حتى اصطدمنا بعدد أكبر، سدوا الطريق أمام خيولنا، ورفعوا الرماح والسيوف في وجوهنا بتهديد، وأخذوا يصرخون بصوت عالٍ لكي نتوقف، لم أملك إلا أن أرفع بندقيتي مرة أخرى آمرًا إياهم بالابتعاد لكن واحدًا، كان أكثر جرأة من البقية، تقدم إلى الأمام وأمسك برأس الحصان من اللجام، فأطلقت النار، وسقط الوغد أسفل العربة.. ليتراجع الباقون في خوف، بينما ألهبت زوجي ظهر الخيول بالسوط، فاندفعت للأمام، ولكن الغجر تبعونا بسرعة كبيرة، في محاولة للإمساك بنا، فكررت إطلاق الرصاص من بندقيتي وتلك المرة أصبت رجلًا إلى بطنه فسقط واكتفى الآخرون بالعويل وإطلاق السباب على رأسي ورأس أجيال عائلتي القادمة.».

لم يتقدموا قليلًا بعد حين أوقفت «إليزابيث» العربة لتعيد ربط ألجمة الخيول بإحكام، بينما أعاد زوجها تعبئة الأسلحة، في هذه المرة ظهرت مجموعة ثالثة من الغجر، وتمكنت هذه المرة من إصابة أحد الخيول بالهراوي ذات العصا الحديدية على رأسه. فأردى «واجنتريبير» الرجل الذي فعلها قتيلًا، ولكن ليس قبل أن تُعَرَّض زوجته أيضًا لضربة قوية من أحد الهراوات الأخرى، فيما ركض رجل آخر بجانب العربة وهو يمسك بسيف في يده، لكن «واجنتريبير» أطلق عليه النار كذلك.. وتمكن ثالث من الصعود إلى ظهر العربة وكان على وشك قتل العائلة بأكملها قبل أن يُسْقِطه «جورج» بمسدسه. وما إن ابتعدوا قليلًا عن جماعات الغجر، حتى تقابلوا مع مجموعة كبيرة من السيبويين، كانوا عائدون من التدرب في مدفعية أنفيلد في أمبالا وقد حاصروا العربة سائلين عما تقوم به الأسرة على الطريق في وقت كهذا، ويبدو أنهم كانوا جاهلين عن الأحداث التي وقعت.

كان الموقف عصيبًا، إذ يحدهم السيبويون من جهة ومن الجهة الأخرى كانت قبائل الغجر ترمقهم من مسافة بعيدة، فلم يملكوا أي بديل، وبناء على معاملة السيبويين الودودة لهم انطلقت «إليزابيث» فجأة في توسلاتها لطلب مساعدتهم، أخبرتهم أنها ابنة «جيمس سكينر»، أو «إسكندر صاحب»، وأنها بحاجة لحمايتهم، ويبدو أنها وُفِّقت في هذا إذ قالوا لها: «أنت حقًّا ابنة رجل عظيم». «كنا نعرف العقيد «سكينر»، وكان فوجنا هو الذي رافق رفاته من روهتاك إلى دلهي.»

كما تذكر «جوليا»: «وفي لحظات تقدم أربعة أو خمسة منهم للأمام ووقفوا بجانب عربتنا، وقاموا بتصويب بنادقهم على أعدائنا، طالبين منهم الابتعاد، وإلا سيطلقون النار عليهم بلا شك.. بعد هذا لم نُعَرَّض لأيَّة هجمات بأي مكان قريب.. إذ حصر المتمردون هجماتهم بالرماح والعصي الحديدية والحجارة الثقيلة التي ألقيت علينا من وراء الأسوار، والتي بفضل العناية الإلهية لم تصب أحدًا منا، فيما أصيب أحد خيولنا بجروح وكدمات شديدة، وشبه تدمرت عربتنا.» ومرة أخرى، نجَّاهم اسم «سكينر»، فبعد انبلاج الفجر بوقت قصير توقفت الأسرة قرب بئر بقرية، ونثروا بعض الماء على الخيول لإنعاشها، وسرعان ما لفتوا أنظار حشد تجمع حولهم بريبة وعدائية، لكن تبين أن أحدهم كان خادمًا قديمًا لـ«إسكندر صاحب»، والذي كان يملك عقارًا بالمنطقة في الماضي، تتابع «جوليا»: «كان شيخًا محترمًا وله لحية بيضاء طويلة، بدا أنه يعرف والدتي على الرغم من أنها لم تتذكره.. قال وهو يخلع عمامته، «أنت أحد أبناء الكولونيل «سكينر»» ووضع عمامته عند قدميها.. تسببت علامة إبداء الاحترام هذه، في مثل هذا الوقت، في إصابتها بالذهول، خاصة أنها رأت أن الرجل بدا ذا بعض الأهمية من أسلوب الآخرين تجاهه، والطريقة التي يعاملونه بها. سألته «من أنت؟» أجاب الرجل الشيخ، «لقد عشت في خير العقيد صاحب لسنوات عديدة، ومستعد أن أقدم حياتي لأي من أبنائه.. هل ستثقون في؟» يبدو أنه لم يكن أمامنا حل آخر، تولى الرجال الشيخ مقاليد العربة ورافقنا في رحلتنا».

في الساعة الحادية عشرة، لاحت لهم مجموعة أخرى قاربت على الهلاك على الطريق أمامهم؛ كان العقيد «جريفيث» و«تشارلز لو باس»، إلى جانب عديدٍ من الجنود المدججين بالأسلحة، اصطحبوهم معهم، وبحلول الرابعة عصرًا كانوا جميعًا قد وصلوا إلى «بانيبات» في أمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح يوم الثاني عشر من مايو، كانت «دلهي» قد خلت تقريبًا من أي بريطاني لأول مرة في تاريخها منذ سيطروا عليها بالكامل بعدما هزموا «اتِّحاد الماراثا» في عام ١٨٠٣. فيما يستيقظ «ثيو» بملابس هندوستانية لا تناسب مقاسه، مختبئًا في غرفة خلفية في منزل غريب، ويستيقظ «آل تايتلر» في «كارنال» و«آل واجنتريبير» في «بانيبات» ليلتهموا وجبات الإفطار من شدة الجوع، بينما كان «جيمس مورلي» يتأرجح في عربته يتفكر في الحياة بدون زوجه وعائلته؛ و«إدوارد فيبارت» يختبئ مع مجموعته وسط الحشائش الطويلة الكثيفة في الطريق إلى «ميروت» محاولين تفادي السيبويين الذين يبحثون عن أي لاجئين بريطانيين؛ ويحدق «غالب» باستنكار في الآثار التي تركها السيبويون في المكان؛ ويبدأ الشيخ «محمد باقر» تدوين كل ما حدث لـ«جريدة دلهي بالأردية» ووصف كل ما رآه من مناظر غريبة في

اليوم السابق، ويقوم الشاب «محمد حسين آزاد» بتأليف قصيدة عن الانتفاضة، كما قام «ظهير دلهوي» والحكيم «إحسان الله خان» بمحاولة تحجيم تجول السيبويين في الأجزاء الخاصة من القصر، بينما كل هذا كان يحدث في بداية النهار كان «ظفر» أيضًا يحاول بفارغ الصبر تخيل ما سيحدث في الأيام التالية.

في الليلة السابقة كان قد قام بإيواء الأربعين سجينًا بريطانيًّا الذين أُحضِروا بواسطة «معين الدين»، وخبأهم في أحد الأجزاء القليلة من القصر التي ما يزال بإمكانه أن يطلق عليها أنها ملكه، أو مقره الخاص، التسبيح خانة. وبناء على اقتراح «زينَّت محل»، أرسل أيضًا رسالة سرية بواسطة رسول الإبل إلى الحاكم البريطاني في «أجرا»، يخبره بكل ما حدث ويطلب المساعدة، فقد لاحظ «ظفر» أن السيبويين كانوا عنيفين وفوضويين قليلي التهذيب بلا أيَّة فكرة عن الأخلاق أو اللباقة؛ كما ذكر عن هذه الفترة: «وأعرب جلالة الملك عن استيائه الشديد من تصرفاتهم الهمجية وقلة احترامهم له وتجولهم بأحذيتهم المتسخة في كل جنبات القصر!» لكن على الرغم من كل تردده وخوفه وقلقه، وكل فوضى النَّهب بالمدينة ومضايقات الحاشية، كان «ظفر» يرى أن وصولهم إلى هنا قد لا يكون كارثة بالكامل، بل هي مشيئة الله، وفرصة لم يحلم بها حتى، لإعادة تأسيس سلالته المغولية العظيمة حاكمةً البلاد. وبِناء على ذلك فقد أجاز قرب منتصف الليل إطلاق إحدى وعشرين بندقية على سبيل الاحتفال ببداية هذه المرحلة الجديدة في عهده. لاحظ «موهان لال» موقف «ظفر» المتناقض ولكن المؤيد بشكل متزايد للانتفاضة، «وموهان لال» هذا أحد خريجي كلية «دلهي»، والذي يعد حليفًا للجالية البريطانية، ونتيجة لذلك اضطر إلى الفرار من دلهي بعد فترة وجيزة من الانتفاضة: «لم أسمع من أي مواطن في دلهي أو أي مكان آخر أن الملك «ظفر» كان على اتصال مع المتمردين قبل اندلاع التمرد. ولكن بعد أن جعل الأوغاد أنفسهم سادة القصر والمدينة.. فقد جاهدوا لإخراج جلالة الملك في موكب ملكي لإعادة الثقة للمواطنين، رأى الملك الآن لأول مرة نفسه محاطًا بقوات راسخة ومنضبطة، وعلى استعداد لتبنِّي قضيته. رأى أن السكان الذين خرجوا لمشاهدة موكبه لم ينظروا إليه بوجوه قاتمة غاضبة، بل وجد أن التغير الإيجابي في شئونه قد لاقى قَبُولًا من قبل مجموعة كبيرة من السكان. وقد استمع إلى أخبار الكوارث البريطانية التي حدثت للفوج الذي كان في انتظاره، فتلقى الإشاعات والأخبار الكاذبة التي تفيد بأن جميع قواتنا الأوروبية كانت مشتركة في صراعات ببلاد فارس، وأن الحالة غير المستقرة للسياسة الأوروبية بالكاد تسمح بإرسال التعزيزات إلى الهند، وقد أبلغوه أن هناك تمرُّدًا حدث أيضًا في مومباي وديكان، كل هذه الأشياء جعلت «بهادور شاه» يعتقد أنه وُلد من جديد لاستعادة مملكة تيمور المعظم في آخر أيام حياته.»

انفتاح «ظفر» المتزايد على التمرد والثورة، على الرغم من أنه لم يكن انفتاحًا صريحًا تمامًا إلا أنه غيَّر طبيعة الثورة بأكملها، كان هناك عديد من التمردات من قبل في الهند البريطانية، وأكثرها دراماتيكية، ما حدث في «فيلور» عام ١٨٠٦؛ كان هناك أيضًا بعض من الأعمال المسلحة للمقاومة الهندية للتوسع البريطاني. لكن أبدًا لم يكن هناك مثل هذا المزيج القوي من القوى من قبل، التي اجتمعت معًا لتحدي السيادة البريطانية. من خلال دمج الجيوش الهندية الخاصة بالشركة مع سحر المغول القوي، فإن قبول «ظفر» القيادة الاسمية للتمرد في الوقت المناسب حوَّله من مجرد تمرد عسكري بسيط - وإن كان تمرُّدًا بدعم من هوجة غير منظمة من القتل والنهب من قِبل المدنيين في دلهي - إلى أخطر تحدٍّ مسلح تواجهه أيَّة إمبراطورية غربية، في أي مكان في العالم، طوال القرن التاسع عشر بأكمله. لكن بالنسبة لـ«ظفر» كان السؤال الأكثر إلحاحًا هو ما إذا كان قد فعل ذلك لمجرد استبدال مجموعة واحدة من المتحكمين فيه، لتحل محلها لمجموعة أخرى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

وصف التخريب والشغب

في الساعة الرابعة من يوم اندلاع الانتفاضة، أغلق مساعدَا «تشارلز تود» المختصان بتشغيل التلغراف، «بريندیش»، و«بيلكينجتون»، مكتبيهما، وانطلقا هاربين إلى بر الأمان، أولًا إلى برج فلاجستاف، ثم إلى ميروت. قبل أن يفعلا ذلك، قاما بكتابة رسالتين استنجاديتين بشفرة مورس، إحداهما أُرسلت إلى القائد العالم والأخرى للمعسكرات في البنجاب والحدود. ولا تزال النسخ الأصلية لكلتا الرسالتين موجودتين في سجل محفوظات البنجاب في لاهور. الأولى، التي أُرسلت في منتصف النهار تقريبًا، هي الكاملة بين الاثنتين.. ورد فيها: «المعسكر في حالة حصار.. يُقال إن مقاتلين من فرقة ميروت الثالثة من سلاح الفرسان الخفيف، غالبًا، مائة وخمسون رجلًا، قد غادروا ميروت، واستولوا على القوارب، ولم تتمكن القوات التي تصدت لمواجهتهم من فعل شيء.. لقد قُتِل وجُرِحَ عدد كبير من الضباط، وأحيلت المدينة إلى حالة كبيرة من الفوضى والرعب، أُرسِلت مزيد من القوات لمواجهتهم لكن لا شيء حدث حتى الآن.» تم إرسال الرسالة الثانية قبل فرار الرجلين، وجاء فيها: «يجب أن نغادر المكتب، إنهم يحرقون جميع الأكواخ، هؤلاء المتمردون السيبويون الذين جاءوا هذا الصباح في فوضى، نعتقد أن السيد تشارلز تود قد مات أيضًا، لقد خرج هذا الصباح ولم يعد».

لقد كان استعمالًا مثيرًا للتكنولوجيا الجديدة التلغراف - وهو الشيء الذي اعتبره غالب من معجزات العصر وقتها - وصلت الرسالة إلى أمبالا، وفي غضون ساعات أُعِيدَ إرسالها إلى لاهور وبيشاور وشيملا. تلقى القائد، وهو الجنرال جورج أنسون الرسالة على الإفطار - بينما هو مسترخٍ وسط برودة العاصمة الصيفية في جبال الهيمالايا - يوم الثلاثاء صباحًا، بعد أن أتته البرقية بأسرع ما يكون أعلى الجبل المتعرج، ولم يبدُ أن أنسون هذا - الذي لم يخدم بشكل فعلي منذ معركة واترلو منذ أكثر من أربعين عامًا - قد أدرك خطورة ما يحدث، تمامًا كما كان قد تجاهل في وقت سابق قضية الخراطيش المدهونة. في المساء التالي، سجَّل أحد مستشاريه، وهو العقيد كيث يونغ، في مذكراته أنه «يبدو أنه يستخف بالأمر كله ولا يفهمه، لكن سنرى ما سوف يحدث!»

بعد يومين، كان القائد العام لا يزال عالقًا في مكانه بشيملا، وحتى أصدقاء أنسون الأكثر ولاءً بدأوا القلق من تجاهله للأمر. كتبت زوجة يونغ في رسالة: «يمكننا بكل بساطة لوم القائد على أنه لم يتصرف كجندي وبدا غير قادر على فَهْم أبعاد الموقف ومعالجته، فعندما تلقى الأخبار السيئة في صباح الثلاثاء، كان عليه أن يتصرَّف فورًا، لقد بذل العقيد بيشر قصارى جهده لإقناعه بألا يضيع أي وقت، لكنه رفض التحرك، كان ينتظر الأخبار التالية القادمة من

البريد، ما فائدة التلغراف الكهربي إذن إن لم يتم الاستجابة للبرقيات على الفور؟» عندما توجه أنسون أخيرًا إلى أمبالا بعد أربعة أيام، في الخامس عشر، لم تسر الأمور كما خُطِّط لها إذ اكتشف أن قواته لا يمكنها أن تتقدم لأبعد من ذلك، لأنه - ولخفض التكاليف وتوفير بعض النقدية - كان قد باع بعض الجمال التي تستخدم لحمل أمتعة الجيش مؤخرًا، والآن لا يمكنه أن يعثر على أي شخص يمكنه المساعدة في نقل الأفواج الأوروبية الثلاثة التي تجمعت في أمبالا - المعروفة باسم قوة دلهي الميدانية - ولو خطوة واحدة نحو وجهتهم. كانت هناك مشكلات أخرى أيضًا؛ لم يكن لدى أي من الأفواج في البداية أيَّة ذخيرة غير العشرين طلقة التي احتفظوا بها في حقائبهم؛ لأن الإمدادات الموعودة من شيملا فشلت في الوصول.. علاوة على ذلك، فقد فُقِدت أمتعة أحد الأفواج بين التلال وأمبالا، تاركة جزءًا من جنوده لا يرتدون سوى سترة بيضاء وسروال. والأسوأ من ذلك، رفض أنسون الاستجابة لتحذيرات موظفيه لنزع أسلحة السيبويين المتمركزين في أمبالا، ونتيجة لذلك قام هؤلاء السيبويون الساخطون بعد فترة وجيزة بالانضمام إلى المتمردين، وانطلقوا إلى دلهي آخذين معهم بعض الإمدادات العسكرية في طريق «جراند ترانك»، كتب الملازم الثاني الشاب فريد روبرتس: «يا أمي العزيزة، لن تصدقي أن الإنجليز يمكنهم أن يظهروا مثل هذه اللامبالاة التي أظهروها خلال هذه الأزمة، إنه أمر سخيف أن يتفكك الجيش بهذه الطريقة، لقد تعطل كل شيء تمامًا وكل هذا جرَّاء لامبالاة أكثر قائد عام للقوات المسلحة ترددًا رأيته في حياتي!»

لكنه لم يكن مجرد خطأ أنسون فحسب، كان هناك فشل أكبر في التخطيط أدى إلى فشل الأفواج الأوروبية في ميروت في تتبع المتمردين إلى دلهي؛ في الثاني عشر من مايو بعد يومين من اندلاع الانتفاضة في ميروت، كتب الجنرال أركديل ويلسون - أحد قادة الجيش - إلى زوجته يعترف لها: «لا نستطيع التحرُّك إذ ليس لدينا دواب لنركبها سوى خمسة عشر فيلًا وعدد قليل من الثيران.» كان زميل ويلسون، الجنرال هيويت، لا يزال متخاذلًا، فقد كتب ويلسون: «هيويت أحمق مُسِن مروع ولا يفكر في شيء سوى الحفاظ على جسده الكبير من الأذى.». ولطوال عشرة أيام، وجدت القوات في أمبالا نفسها منقطعة السبل وغير قادرة على التحرك في ذلك الحر الشديد عند سفح التلال، وما زاد الطين بِلة كانت بداية تفشي الكوليرا ببطء، وكان وباء شديد الخطورة، إذ كان مسئولًا في النهاية عن العدد نفسه تقريبًا من القتلى الذين سقطوا بسبب رصاصات المتمردين. يتذكر ريتشارد بارتر - ملازم شاب من فرقة جوردون هايلاندرز الخامسة والسبعين - : «كانت الرائحة كريهة ومثيرة للغثيان.. استلْقَت جثث ثلاثة أو أربعة من الرجال - الذين ماتوا جراء ذلك الوباء المروع - وقد تم لف أجسادهم في الألحفة التي كانوا يتغطون بها

في حياتهم.. كانت الحرارة شديدة، ولم تُحرك ولو نسمة هواء واحدة أوراق الشجر، وجلسنا بين الموتى والمحتضرين، الذين كانت آهاتهم تدوي في الصمت المطبق حتى من حفيف الأشجار.».

لم ينطلق أنسون وقواته الميدانية نحو العاصمة المغولية أمبالا حتى ليلة ٢٤ مايو –أي بعد ثلاثة عشر يومًا كاملة من تفشي المرض - فقط لكي يموت القائد العام للقوات المسلحة نفسه جرَّاء الكوليرا في ليلة ٢٧ مايو، بعد وقت قصير من وصوله إلى كارنال. بحلول ذلك الوقت، وبسبب عدم وجود أيِّ رد فعل أو تصدٍّ من البريطانيين، اندلعت تمردات بين أفواج السيبويين المتمركزة في ناوشيرا في الحدود الشمالية الغربية؛ وأمبالا وفيلور وفيروزيبور في البنجاب؛ ونصير أباد في راجبوت؛ وفي المقاطعات الشمالية الغربية في هانسي، وهيصار، ومراد آباد، وأجرا، وعليكرة، وإيتواه، ومواينبوري، وإلى أقصى الجنوب الشرقي مثل إيتا، إلى الشرق من أجرا. وبدا أن حالات التمرد، التي شُوهِدت على الخريطة، تتدفق إلى الخارج مثل موجات مركزها هو دلهي، وعُدَّت مملكة الإمبراطور ظفر شاه الثاني ومعاونيه من السيبويين بمثابة بؤرة لتطلعات المسلمين والهندوس وأحلامهم على حد سواء، ومما تسبب في مفاجأة البريطانيين، إن القوات المتمردة لم تنتفض كلها بعنف؛ فبعضها لم يقم بأي قتال أو حتى إهانة لضباطهم الإنجليز.. بل أعلنوا بكل هدوء استقالتهم من خدمة شركة الهند الشرقية، وأعلنوا انضمامهم وولاءهم إلى ملك دلهي بكل احترام حتى إن بعضهم قد أدَّى التحية العسكرية أمام ضباطهم الإنجليز، قبل أن يتوجَّهوا إلى مركز العاصمة الإسلامية في هندوستان، دلهي التي تضخَّمت أعداد المقاتلين فيها ضد الحكومة البريطانية.

لهذا السبب، كان مستقبل المغول والحكم البريطاني قد توقف الآن بشكل كبير على ما سيحدث في دلهي.. كتب فريد روبرتس لوالدته بعد ذلك بفترة وجيزة بينما بدأت القوات البريطانية تستعيد قوتها وتنطلق إلى الجنوب عبر طريق «جراند ترانك»: «مصير كل الهند يعتمد على نجاحنا.. لكن إن فشلنا، فالله وحده يعلم ما سيحدث.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحسن حظ البريطانيين، لم يكن كل قادتهم بطيئين وغير فعالين مثل أنسون وويلسون وهيويت. ففي لاهور، مقر رئيس مفوض البنجاب، كان السير جون لورانس متيقظًا، وسرعان ما نزع سلاح أربع مجموعات من السيبويين في صباح يوم ١٣ مايو، إذ حُمِّل اثنا عشر مدفعًا مجهزًا، يقودهم رجال المدفعية البريطانية فواجهوهم في ساحة معركة، في الليلة السابقة، كانت تسير خطط المجموعة بشكل صحيح لا يثير ريبة السيبويين، إذ أقاموا حفلة.. كتب أحد الضباط في مذكراته: «لقد مرت الليلة بشكل جيد للغاية، كانت خدعة

مثالية.. لم تحضر نصف السيدات، وأولئك اللائي حضرن الحفل بالكاد تمكنوا من إخفاء قلقهن.» في هذه الأثناء، إلى أقصى الشمال الغربي في بيشاور، التقى اثنان من أكثر المسئولين البريطانيين في الهند تشدُّدًا، وهما هيربرت إدواردز وجون نيكلسون، لمناقشة خططهم بمجرد وصول البرقيات من دلهي ليلة ١١ مايو، فتوصَّلا إلى تشكيل مجموعة قوية تتكون بشكل أساسي من القوات غير النظامية، وتكون قادرة على إرهاب البنجاب ودفعها للاستسلام. كتب إدوارد إلى جون لورانس في ١٢ مايو: «لن نتحدث عن هذا التمرد أبدًا، يجب إخماده، وكلما عجَّلنا باستخدام العنف وسفك الدماء انتهينا من الموضوع سريعًا.» وافقه لورانس على الفور، وفي غضون أربعة أيام شُكِّلت القوات في جيلوم، وتجهزت للتحرك بسرعة في أي اتجاه وسحق التمرد ضد حكومة بريطانيا أينما اندلع. كان لدى نيكلسون بعض الأفكار الأخرى المتعطشة للدماء أيضًا، وهو ما لم ينقله إلى رئيسه، ولكنه نقلها لإدواردز بعد ذلك بقليل عندما ظهرت تفاصيل مجازر دلهي التي قام بها السيبويون، إذ اقترح أن يطرحوا بشكل مشترك مشروع قانون لعقاب قاتلي نساء وأطفال دلهي [البريطانيين] بسلخهم أحياء، أو وضعهم على خازوق، أو حرقهم.. إذ إن فكرة الشنق كانت مدعاة للجنون نظرًا للفظائع التي ارتكبوها، راحة لن يقدمها لهم أبدًا.

عندما رفض إدواردز تنفيذ فكرة نيكلسون، قال نيكلسون إنه سيقْدُم على الفكرة بمفرده إذا لم يساعده إدواردز، ولم يكن جون لورانس بأيَّة حال من الأحوال كارهًا للتدابير القوية من حيث المبدأ. فبصفته النائب السابق للسير توماس ميتكالف في دلهي، فقد ارتقى بسرعة في الرتب من الخدمة المدنية للشركة بفضل سمعته في العمل الجاد وفعاليته، وكان قد منع ضباطه من الصعود إلى التلال بسبب الطقس الحار، وأعلن عدم موافقته على من أطلق عليهم مصطلح «رجل الكعك»، والذي كان يقصد به الشخص الذي - إلى جانب الإعجاب بالكعك كما هو واضح من الاسم - يتصف بكثير من الأناقة المبالغ فيها واللباقة والصفات اللطيفة... فلما سمع أن أحد مرءوسيه قد أحضر بيانو إلى منزله في البنجاب، بصق لورانس معلقًا: «سأحطم هذا البيانو!» وتسبب في انتقال ذلك الرجل خمس مرات من أحد طرفي البنجاب إلى الطرف الآخر في خلال خمس سنوات.

يقول أحد مرءوسيه، والذي عانى منه لفترة طويلة: «كنت قد أحضرت من كالكوتا وجبة عشاء رائعة، ونصحوني وقتها بشدة بالتكتم على الأمر حتى لا يتم نقلي أنا أيضًا من مكان إلى آخر.. كان لورانس رجلًا خشنًا فظًّا.. وكان الضابط النموذجي بالنسبة له هو الضابط النشيط، والذي يقضي جل وقته في المعسكر، ويعمل طوال النهار والليل تقريبًا، ويكفيه للعيش سرير وخيمة، ويأكل ويشرب بأي وقت وأي مكان، ولا تكون له روابط عائلية، ولا زوجة أو

أطفال يعوقونه.. ويحزم ملابسه بأكملها في حقيبة يمكنه أن يعلقها على جمل ويرحل في أي وقت..».

وإذ يبدو أن الشخصيتين - نيكلسون ولورانس - تبدوان متوافقتين تمامًا، لكن على الرغم من هذا فقد كانت علاقة الاثنين متوترة، لأن نيكلسون لم يكن معتادًا على أخذ الأوامر - ولا معتادًا على تلقي النقد - من أي شخص. وصَفَه أحد الضباط الشاب بأنه كان ذا حضور طاغ، وطوله حوالي ستة أقدام وبوصتين، ذو لحية سوداء طويلة، وعيون رمادية داكنة بحدقتين سوداوين تتسعان مع شعوره بالإثارة فيبدو مثل وجه النمر، ووجه جاد لا يبتسم أبدًا.. كان نيكلسون شديد الصرامة، ولا يعرف معنى كلمة «رحمة».. وتمتَّع بسمعة أفضل مبارز في الهند. وقيل إن نيكلسون، بينما كان مفوض المقاطعة في روالبندي، قام شخصيًّا بقطع رأس رئيس عصابةٍ محلي، ثم أبقى رأس الرجل على مكتبه كتذكار.. علاوة على ذلك، كان رجلًا قليل الكلام؛ ومثال على هذا رسالة وجهها إلى لورانس: «سيدي، يشرفني أن أبلغكم بأنني أطلقت النار على رجل جاء لقتلي. خادمك المطيع، جون نيكلسون.» لأسباب لا تزال غير واضحة، ألهم نيكلسون طائفة دينية كاملة أطلقت على نفسها اسم النيكلسونيين لعبادته، والتي يبدو أنها اعتبرته تجسيدًا للإله فيشنو. وتمتع نيكلسون بالتسامح الكامل مع أتباعه طالما ظلوا صامتين مطيعين، ولكن إذا أزعجوه أو عصوا أوامره فكان يرسلهم ليُجلدوا. لم تتغير العقوبة قط: «ثلاثين جلدة».

على الرغم من - أو ربما بسبب - مظاهر عبادته التي لا يمكن تفسيرها، كره نيكلسون الهند بشدة «أنا أكره الهند وسكانها أكثر كل يوم!»، ولم ينافسهم في السوء بالنسبة له إلا الأفغان فقط. «أكثر الأجناس شراسة وتعطشًا للدماء في الوجود». هذه الآراء كان قد شكَّلها بالفعل حين قُبِض عليه وأسره خلال كارثة الحرب الأفغانية عام ١٨٤٢. وبحلول الوقت الذي كان قد أطلق سراحه فيه، وجد جثة شقيقه الأصغر، وقد قُطعت أعضاؤه التناسلية وتم حشوها في فمه، فتزايدت كراهيته تجاه الأفغان، والهنود في الواقع، والمسلمين من أيّة جنسية.. قال: «غزاني شعور شديد بالكراهية.» فقط رغبته في نشر الإمبراطورية البريطانية المسيحية في هذه البرية الوثنية هي ما أبقاه في الشرق. في الواقع، بقاؤه وسط مذبحة الحرب الأفغانية تركه بشعور شبيه بالمعجزة الإلهية؛ إذا كان الرب قد أنقذه بالرغم من قتل عديدٍ من الجنود المسيحيين الآخرين، فلا بد أن ذلك كان لغرض مهم لا يدركه إلا الرب. ونتيجةً لهذا التفكير، احتاج نيكلسون أحيانًا إلى معاملة خاصة، الأمر الذي لم يكن يفلح فيه جون لورانس! العام السابق، بعد أن أهان لورانس نيكلسون من خلال منحه سكرتيرًا «أنجلو - هندي» مختلطَ العرق، كان رد نيكلسون هو التهديد بقتل لورانس، أو - على حد تعبيره - «بارتكاب جريمة

قتل مبررة.. فللأفراد أسبابهم مثل الأمم! وبصفتي فردًا، لدي سبب جيد للحرب ضد لورانس، مثل حرب إنجلترا ضد بلاد فارس أو الصين.. فلقد أهانني أمام سكان البنجاب كلها وأنا مؤمن أن العالم سيكون أقل ظلمًا وقمعًا إذا قام الرجال بأخذ حقوقهم بأيديهم أحيانًا.. ولن أتمكن بعد قتله من الدعاء له بالمغفرة، فسيكون ذلك منتهى النِّفاق، إذ يعمر قلبي شعور مختلف بالكامل.» كما كتب إلى إدواردز..

ربما كان نيكلسون، كما قال أحد المعاصرين له، «تجسيدًا للعنف، إلا إن مزاجه شبه المعقد هذا كان مناسبًا بشكل مثالي للتصرف مع الأزمة الراهنة.. فبينما كان أنسون وويلسون متردِدَيْن، بدأ نيكلسون على الفور التصرفَ، وجرَّد السيبويين من أسلحتهم وبدأ إخماد التمرد بشنق قادتهم. تخلَّى عن ممارسة إطلاقهم من أفواه المدافع كما كان يفعل المغول ليس من باب الرحمة، ولكن لأنه يعتقد أن البارود الذي يستخدم لصنع متفجرات المدافع قد يُوَظَّف بشكل أكثر فائدة. وسرعان ما أصبحت أفعاله مصدرًا لأسطورة من العصر الفيكتوري، وحيث إن رسائله وبرقياته هي المصدر الوحيد لعديد من أفعاله، فمن الصعب استنباط الحقيقة من المبالغات؛ إذ قيل إنه لم يكن ينام ولا يعرف الخوف؛ وأنه اقتحم بمفرده ودون أسلحة تقريبًا حصن أتوك؛ وتغلب على عِدَّة أفواج من السيبويين المتمردين بمساعدة مجموعة صغيرة للغاية من قوات باثان غير النظامية؛ وإنه في إحدى المرات شطر رجلًا إلى نصفين بضربة سيف واحدة، مُبديًا ملاحظة واحدة فقط بعد ذلك «هذا السيف ليس سيئًا..»

ولم يكن يأخذ أسرى، سمع أحد الضباط الذي كان جزءًا من مجموعة نيكلسون المتحركة الحوار التالي:

«جاك، الجنرال هنا.»

«كيف علمت بذلك؟»

«انظر هناك؛ ها هي آثاره!»

«هناك» هذه كانت زوجًا من المشانق، كل منها كان مزيَّنًا بستة متمردين معلقين، بينما كان بالقرب عديد من العربات التي تجرها الثيران، وكلها مليئة بالسيبويين المتمردين الذين ينتظرون دورهم في صف الإعدام.. عقد نيكلسون قليلًا من المحاكمات العسكرية. عندما كتب له السير جون لورانس يطلب «عودة المحاكمات العسكرية للهنود المتمردين»، مع قائمة بالعقوبات المختلفة التي فُرِضت، أعاد نيكلسون العنيد الرسالة ببساطة، بعد أن كتب على ظهرها بحروف كبيرة capital)): «عقاب التمرد عندي هو الموت!». في رحلته إلى دلهي، واصل استكمال قواعد الأمن، وفي ليلة صيفية حارة من

منتصف مايو، جلست مجموعة من الضباط البريطانيين الجياع الملتحقين بمجموعة نيكلسون غير النظامية، في خيمة فوضوية بالقرب من جالاندهار في انتظار العشاء. كان الطعام متوقَّعًا تقديمه قبل ساعة، لكن الرسول الذي أُرْسِل إلى خيمة الطهي عاد مع معلومة أن العشاء سيتأخَّر قليلًا.. في النهاية دخل نيكلسون خيمة الضباط رافعًا قامته بشكل مهيب وسعل لجذب انتباههم قائلًا: «آسف أيها السادة على إبقائكم في انتظار العشاء، لكنني كنت أشنق الطهاة.» وفقًا لنيكلسون، فقد اكتشف من خلال جواسيسه أن الطهاة قد وضعوا السم في حساء الضباط.. قام أولًا بدعوة الطهاة لتذوق الحساء، وعندما رفضوا أطعموا الحساء بالقوة لقرد تعيس الحظ والذي تلوى لبضع ثوانٍ قبل أن يتهاوى صريعًا.. في غضون دقائق، كما قال أحد الضباط الحاضرين: «كان طهاة المجموعة مشنوقين على شجرة مجاورة.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال هذه الفترة غير المستقرة، برز جندي بريطاني آخر بمزاجه المماثل لمزاج نيكلسون. قبل عام ١٨٥٧، كان معظم زملاء ويليام هودسون يعتبرونه خروفًا أسودَ([20]) كان هودسون هو الابن المتألِّق لرجل دين، وعلى عكس معظم معاصريه من أفراد جيشه في الهند، فقد حصل على تعليم جامعي في كامبريدج. لكن وفقًا لأخيه رجل الدين، كانت الكتب تجعل هودسون يصاب بالصداع، وكان أكثر اهتمامًا بتعريفه «جنديًّا مسيحيًّا». وصفه أحد معارفه بأنه «رجل طويل القامة ذو شعر أصفر شاحب، ووجه أملس، وشارب ثقيل، وعينين كبيرتين مضطربتين، وقاسيتين..» تحدَّث آخرون عن طبيعته المندفعة المتهورة، ومهاراته كمبارز مثالي بالسيف. بعد وصوله إلى الهند للقتال في حروب السيخ، ترقى ليصبح مفوضَ منطقة أمريتسار، قبل أن يتوجه إلى الحدود الشمالية الغربية لتولي منصب القائم بأعمال نائب مفوض منطقة يوسفزاي القبلية، ومساعد فيلق المرشدين الجديد.. لكن مثلما كانت ترقيته وانطلاقته مفاجئة، جاءت سقطته مدوية؛ ففي عام ١٨٥٤ تم إعفاء هودسون من منصبه بعدما أعلن التحقيق أنه أساء استخدام أموال الجيش واختلس منها، واتُّهم بالفساد وتزوير الحسابات، فضلًا عن الإهمال الجسيم. كتب في ذلك الوقت: «لقد تدمرت حياتي بالكامل». وعلى الرغم من أنه قد بُرِّئَ لاحقًا من جميع التهم، لكن القيل والقال لم يرحَمَاه، مشيرين إلى السجن غير اللائق دون محاكمة لشيخ قبيلة يوسفزاي وابنه البالغ من العمر اثني عشر عامًا، وكذلك قتل مقرض المال الذي يُعتقد أنه أقرضه المال.. كما قيل إنه كان يجري عمليات ثأر شخصية ضد كثيرين.. ولم يكن يحظى بشعبية بين رجاله.. نتيجة لذلك، استمرت سمعته المشكوك فيها، واتفق كثيرون مع الجراح إدوارد هير أنه كان عديم الضمير بالنسبة لجندي حقيقي، ووصفه أحدهم بأنه «يليق به فقط قيادة مجموعة من اللصوص الإيطاليين.»

قبل وقت قصير من اندلاع الثورة، تحديدًا في ٢١ مارس، قام راعيه السابق، الأخ الأكبر لجون لورانس هنري، بتبرئة نفسه منه بالكامل، وكتب: «أشك إذا كان أي رجل يستطيع مساعدتك الآن.» وعند اندلاع الثورة، كان هودسون لا يزال يضغط من أجل القيام بتحقيق رسمي وعام لتبرئته من جميع التهم الموجهة إليه. وكما هي الحال مع نيكلسون، أثارت طاقة هودسون، وقسوته وثقته الشديدة بنفسه انتباه القائد بسرعة، وسرعان ما أصبح نجم فريق أنسون. في غضون خمسة أيام من الثورة عُيِّن مساعد مدير التعبئة العام، وسمح له بتجنيد جيشه الخاص الصغير من فرسان السيخ غير النظاميين للخدمة في قسم المخابرات والحراسة الشخصية. بعد أيام قليلة، بينما كان هودسون في كارنال يستكشف الجيش الرئيس - حيث تشارك مسكَنَه مع مجموعة من لاجئي دلهي، بما في ذلك خطيب الآنسة الراحلة آني جينينجز، تشارلي توماسون، وعائلة واجنتريبر بأكملها– جاءت الأوامر من أنسون أن قوة هودسون يجب أن تشكل سلاحًا جديدًا من الفرسان غير نظامي تحت إمرته هو وباسمه «خيالة هودسون». كانت إحدى واجبات هودسون الأولى هي الذهاب عبر الريف المضطرب إلى ميروت، بمرافقة مجموعة صغيرة من سلاح الفرسان السيخ، ويعيد التواصل مع الرجال الذين تقطعت بهم السبل هناك. وقد أدى هودسون مهمته بشكل رائع، إذ انطلق في تمام الساعة التاسعة ليلًا يوم ٢١ مايو، ووصل إلى ميروت فجر اليوم التالي، وقام بالتواصل مع ويلسون فقط بعد أن وجد الجنرال الآخر هيويت في حالة يرثى لها من اللامبالاة والعجز، ثم استحم وتناول إفطاره ونام لمدة ساعتين، وبعدها واصل رحلته إلى كارنال واضطر إلى السير ٣٠ ميلًا. وتقابل مع أنسون في أمبالا في الثالث والعشرين من مايو، في رحلة استغرقت يومين قطع فيها ٢٥٠ ميلًا في مثل تلك الذروة من حرارة الصيف. في تلك الليلة عاد مرة أخرى إلى كارنال.. كتب لزوجته في المساء التالي: «بما أنني أمضيت ليلة واحدة فقط في السرير من أصل خمس ليالٍ؛ فأنا مرهق جدًا».. مثل نيكلسون، سرعان ما اكتسب هودسون سمعة التجاوزات في بعض الشئون القانونية، لا سيما مع أي متمردين سيبيويين يقعون في أسره.. كتب إلى زوجته في ١٦ مايو: «أميل إلى معاملة هؤلاء السيبويين المتمردين بعنف، لأن هذا هو ما يستحقونه.».. بعد ذلك بقليل أصبح أكثر صراحة وأوضح: «لم أسمح لرجالي بأسر السجناء مطلقًا، وإنما كانوا يطلقون عليهم النار في الحال». كما كان مبارزًا محترفًا، وقد كتب أحد ضباطه أنه لم يفشل قط في قتل منافسيه بالمبارزة، وكان يتبارز وكأنه يهش الذباب مع استفزاز منافسه بهدوء قاتل قائلًا باستهزاء: ماذا؟ هل تسمي نفسك هكذا مبارزًا؟ وكان يشعر بالسعادة أكثر والتقدير إن كان منافسه شرسًا ومنازلًا قويًّا. كما أثبت هودسون نفسه رئيسَ مخابرات فعالًا وقاسيًا.. قال عنه أحد الضباط

المعجبين به: «كان يعرف كل شيء، حتى ما كان يتناوله المتمردون على العشاء.»

في أثناء المسيرة إلى دلهي، جاء في جند هودسون شيخًا أعور اسمه رجب علي، ليكون مساعده الرئيس، وكان لرجب نشاطات سابقة مشابهة في الجاسوسية مع السير جورج كليرك والسير ويلسون، وبمجرد وصول رجب علي لـدلهي، قام بتكوين شبكة من الجواسيس والمخبرين، بدءًا من كبار المصرفيين الهندوس والمتعاطفين مع الإنجليز من الأرستقراطيين المغوليين، وبعض المسئولين البريطانيين السابقين، بالإضافة لواحد من محرري واجنتريبر السابقين في صحيفة دلهي جازيت. الأهم من ذلك كله أنه تمكن من تجنيد أحد أبرز رجال الشرطة السيبويين مخبرًا، وهو اللواء جوري شنكار من فوج هاريانا، والذي قدم تقارير منتظمة من المعلومات الاستراتيجية الحيوية، بالإضافة إلى تعطيل أعمال الشرطة من خلال اتهام عديد من ضباط الشرطة السيبويين الأبرياء (وغالبًا ما يكونون بارزين جدًا) بتهمة التجسس والتعاون. كما أقام رجب علي اتصالًا سريعًا بزينت محل، ورئيس وزراء ظفر، الحكيم إحسان الله خان؛ ومع الفصيل الموالي لبريطانيا في القصر بقيادة والد زوجة ميرزا فخرو، ميرزا إله بخش، الموالي لإنجلترا. كان مركز شبكة تجسس هودسون في المدينة هو مقر إقامة السكرتير الأول لوزارة الخارجية الرجل البدين، جيوان لال، الذي، على الرغم من حصاره في الظلام بقبو منزله، سرعان ما أصبح أهم عامل استخبارات بريطاني؛ فكل يوم كان يرسل مساعدين، بحسب وصف أحدهم: «كنا اثنين من البراهمة واثنين من الجات، أُرسلنا لغرض التجسس على المتمردين في كل الأنحاء، في القلعة وأبواب المدينة.. للحصول على أخبار عن أفعال المتمردين من كل ركن، من القلعة، وبوابات المدينة، إلخ.. ونقوم بتدوين كل شيء لإرساله إلى الجهات المختصة»

ووفقًا لمذكرات جيوان لال الخاصة، فـ «في ١٩ مايو، تلقى تعليمات بالبقاء في المدينة والتواصل مع أوروبي ذي عيون زرقاء، متنكّرٍ في زي شحاذ، كان الرجل المقصود يرتدي أسمالًا بالية لونها ضارب للحمرة كالتي يرتديها فقراء الهند، وعلى جبهته رُسِمت علامة «رامانانديي»، ويطوق رقبته عقود ثقيلة، فلم تميِّزه غير عينيه الزرقاوين، وأخبرني أنه عاش لفترة طويلة في بينارايس، واكتسب معرفة دقيقة باللغات السنسكريتية والأوردية، بحيث لا أحد يمكنه أن يشك فيه.. جلس لمدة ساعتين يتحدث عن نفسه، وعن جهل وغباء المتمردين. ثم أخرج من ثنايا ملابسه بعض الرسائل التي تتضمن المعلومات التي يجب أن أنقلها إلى رؤسائي ونصحني بالبقاء في المدينة.. وقدم لي بعض الأخبار عن المتمردين، والتي قد تكون مفيدة للحكومة. وأضاف: «رجالنا سيتواصلون معك وسيأتون إليك كي لينقلوا الأخبار إلى

الحكومة. كانت الصعوبة الكبرى التي تقابل الجواسيس أن كل الأشخاص الذين يمرون بالطرق أو عبر بوابات المدينة يتم تفتيشهم بدقة من قبل المتمردين الذين لم يتركوا حتى السراويل والأحذية دون تفتيش، وإذا عثروا على أي شيء مريب كانوا يقتلون حامله فورًا، وإذا اكتشفوا أن هناك جاسوسًا بالمدينة ينقل المعلومات كانوا يسرقون بيته ويقتلونه بلا رحمة، لكني كنت أرسل الرسائل من خلال مساعديَّ المتنكرَين في زي الشحاذين، واعدًا إياهم بأجر وفير مقابل خدمتهم..»

تمكنت آلاف الرسائل من الوصول والنجاة من تحت أيدي المتمردين بواسطة الجواسيس المتنكرين، ولا تزال هذه الرسائل موجودة في أوراق الأرشيف الوطني للهند. وهي تتراوح ما بين تحليلات طويلة ومفصلة لمواقع المتمردين - مواضع المدافع، والثكنات، وإمدادات المياه، ومخازن الجيش ومستودعات الأسلحة - ومشكلات المتمردين مثل نقص أعداد طلقات الرصاص، وحتى المشاجرات والخلافات داخل جيوش السيبويين. وقد صنعت هذه الرسائل من قطع الورق الصغيرة التي تتم خياطتها ببطانة الأحذية والملابس، وتكتب بخط صغير للغاية، لتحذر من هجمات وشيكة وتطلع الحكومة البريطانية على مواعيد وأماكن الهجوم، كما تقدم نصائح حول نقاط الضعف التي يجب أن يستغلوها في أثناء القصف المعادي وكيفية إتلاف جسر القوارب.. على الرغم من هذا لم تكن هذه الرسائل تتمتع بالمصداقية الكاملة؛ ففي كثير من الأحيان بالغ الجواسيس في تقدير حجم اليأس والسخط داخل المدينة، ونقلوا لأسيادهم البريطانيين ما أرادوا سماعه، مثلما أدرك هودسون وزملاؤه من ضباط المخابرات البريطانية بسرعة. لكن في الأشهر التي تلي هذا، حددت كمية المعلومات الاستخباراتية التي حصل عليها البريطانيون عن المدينة في مقابل قلة المعلومات التي حصل عليها المتمردون عن البريطانيين نتيجة الصراع الذي يدور في دلهي، إذ يبدو أن للبريطانيين الكلمة العليا، وبصفته رئيس شرطة المدينة، وصف سعيد مبارك شاه ما حدث لاحقًا: «الحقيقة هي أن جيش المتمردين لم يكن لديه أيَّة معلومات جديرة بالثقة حقًّا عن عدد وموقع القوات البريطانية، ولم يكن لديهم جاسوس واحد يمكن الاعتماد على ما ينقله من معلومات بالكامل».

بحلول بداية الأسبوع الأول من شهر يونيو، كان هودسون يقود قوة دلهي الميدانية إلى الجنوب على طول طريق جراند ترانك من كارنال نحو دلهي، متتبعًا القائد الجديد، السير هنري برنارد، والبالغ من العمر ستين عامًا، والذي قد أخذ بنصيحة السير جون لورانس: «تصرف في الحال، وتقدم مع مجموعة من القوات الأوروبية على الفور، وسوف يختفي الخطر، نفذ الأوامر قبل أن تشتعل الأرض.»، كان تحت إمرة هودسون مجموعة قوامها حوالي ٦٠٠ من الفرسان وِ٢٤٠٠ منِ المشاة، يدعمها صف آخر يتكون من حوالي خمسين

مدفعًا عاديًّا وميدانيًّا، يتقدمهم هودسون بسلاح الفرسان غير النظامي لاستكشاف الطريق بحثًا عن الكمائن، وفي الأثناء نفسها، كان نيكسلون مشغولًا في الحدود بجمع جيوش من السيخ لاستبدالها بالقوات الهندوسية التي خسرها في أثناء التمرد.. وعلى ما يبدو فإن نيكسلون وهودسون كان يقود ثِقَل الانتقام البريطاني بالكامل إلى بوابات دلهي المغولية المستقلة حديثًا بزعامة بهادور شاه ظفر الثاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الثاني عشر من مايو، احتفل ظفر بالخروج في موكب متجولًا في أنحاء دلهي بالكامل، لطالما كان التجول بالموكب أحد وسائل التسلية المفضلة لدى ظفر، والتي تعلن وتأكد سيادته بشكل احتفالي، ويبدو أن هذه السيادة كانت بحاجة ماسة للتأكيد في هذا الوقت. كما في اليوم السابق، كانت شوارع دلهي فارغة إلا من عصابات اللصوص وقطاع الطرق.. كتب ظهير دهلوي: «كانت الأمور لا تزال سيئة للغاية لدرجة أن عصابات اللصوص كانوا يحملون أجْولة فارغة، ويتجولون في الشوارع وينبهون منازل المحترمين والأغنياء بتحريض السيبويين أن تلك المنازل تخفي رجال الإنجليز، وحالما يقتحم السيبويون المنازل ويعيثون فيها فسادًا كانت جماعات اللصوص تنشغل فورًا بملء الأجولة الفارغة بالخيرات..» هكذا تعاملوا مع عديد من كبار الطبقة العليا من المغول بخشونة، ونهبوا أملاكهم.. وكان من بين هؤلاء حامد علي خان، الزعيم البارز للجالية الشيعية في دلهي، الذي اتُّهم بإيواء الأوروبيين، وجُرَّ إلى المحكمة، واضطر ظفر للتدخل لإنقاذه من الإعدام. كانت كثير من مناطق المدينة لا تزال مشتعلة من الحرائق التي اندلعت في اليوم السابق، فيما احتوت القلعة الآن على كثيرٍ من رجال السيبويين، الذين وضعوا حراسهم عند بوابات أن القصر، حسب قول محمد باقر: «صار القصر الآن أشبه بمعسكر الجيش». تحمَّل «الجواهرجيون» ومقرضو المال وتجار الأقمشة المشهورين وطأة العنف، ومثلهم صانعو الحلوى بدلهي، الذين وصلت شهرتهم بوضوح إلى أفادا وبيهار، ووفقًا لـتشوني لال: «دخلت قوات المشاة بالقوة ونهبوا محلات بائعي الحلوى في جميع شوارع المدينة، أما مقرض المال مهاجان نارايان فقد نُهب منزله بالكامل كما اختطِف صائغ يُدعى موهان لال من قبل السيبويين، وكادوا أن يطلقوا النار عليه قبل أن يفتدي نفسه بمنحهم ٢٠٠ روبية.»

كانت المحظيات أيضًا عرضة للخطر؛ حيث وجدت عديدات منهن أنفسهن محاصرات من قِبَل حشود من الجنود، وتم اختطاف واحدة منهن وهي راقصة تدعى مانجلو، التي حملها واغتصبها أحد الثوار رستم خان، وفي بعض الأحيان كان آل دلهي يدافعون عن أنفسهم، كما سجل «تشوني لال»: «قام المشاة وسلاح الفرسان بالهجوم على شارع «نجار سيث»، بهدف نهبه، لكن السكان

أغلقوا البوابات وهاجموا الجند بالطوب، وطردوهم.» في أماكن أخرى أيضًا، طبق سكان البلدة القانون في منطقتهم بأيديهم؛ في «هواز قازي»، على سبيل المثال، دارت حرب شوارع بين المتمردين وسكان المدينة. من حين لآخر، كان الغوغاء يعثرون على مجموعة من المسيحيين الناجين ويسحبوهم من مخبئهم إلى مخافرهم، حيث كانوا يقومون بقتلهم؛ ومن بين الذين قتلوا صباح اليوم الثاني عشر، كان مدير كلية دلهي، فرانسيس تايلور، الذي أُمسِك به وهو يحاول الهرب متنكرًا، وضربوه على الفور حتى الموت في الشارع. كما قُبِض على ابن عم إليزابيث واجنتريبر المدمن على الكحول، والمدعو جوزيف سكينر، من منزله، وشُنق في المخفر دون محاكمة؛ ثم نهبوا منزله. كما كان هناك عديد من الضحايا الذين لم يكشَف عن هويتهم.. هناك قصة يحكيها تشوني لال، تقول إنه تم إيواء أربعة من السادة الأوروبيين في منزل محمد إبراهيم بن محمد علي التاجر. وعند سماع الجنود هذا، ذهبوا إلى هناك وقتلوا الأوروبيين ونهبوا المنزل. كانت هناك امرأة أوروبية، تتنكر في زي امرأة محلية، تسير بالقرب من خزان «إلينبورو»، فقتلوها.. كما كان هناك سيدان أوروبيان يتنكران في زي هندي، وقُتلا أمام مركز الشرطة الرئيس.

بالنسبة لـمحمد باقر، كان هناك معجزة ما في السهولة التي يتم بها إيجاد البريطانيين: كتب في جريدة أخبار دلهي بالأوردية: «بفضل العناية الإلهية كان من السهل كشف الإنجليز المتخفِّين، لقد انقلبت عليهم غطرستهم وأتتهم العقوبة الإلهية بضربات من التعذيب والقتل بسبب عداوتهم للإسلام وتأييدهم للجهود التي تستهدف تدمير العقيدة الإسلامية. لكن وبخلاف استهداف المسيحيين، كان من المدهش قِلة الوطنية أو الروح الوطنية داخل أعمال العنف التي استمرت لأسابيع بعد الانتفاضة؛ وكأن التمرد فتح صندوقًا ضخمًا من الخلافات والاختلافات - الاقتصادية والطائفية والدينية والسياسية - والآن بعد أن بدأ العنف واعتادوا تصفية الحسابات، لن يكون من السهل إيقافه.. ففي غضون ذلك، استغل عديد من السيبويين ببساطة الفرصة التي أتاحها انهيار القانون والنظام لإثراء أنفسهم، كما فعل مثلهم عديدٌ من سكان دلهي. انطلاقًا من الالتماسات والشكاوى التي تدفقت للملك، والتي نجا كثيرٌ منها من بين أوراق هذه الفترة، كان الناس العاديون في دلهي هم الأكثر تضررًا لأنه لم يكن لديهم أيَّة طريقة لحماية بيوتهم.»

اتضح أن الفقراء معرضون للخطر خاصةً خارج المدينة، في ضواحي مثل كيشنجانج ونظام الدين. حيث وجد السكان أنفسهم معرضون للخطر ليس فقط من قبل السيبويين، بل أيضًا من قبائل الغجر الغوغائية والتي أتت من المنطقة الريفية المحيطة. ومن أكبر الوفود التي أتت أمام ظفر واستجدوا الحماية في الأيام الأولى من الانتفاضة، كانت وفود وصَلَت من الغرب، من ضاحية بهارجانج. كانت اللهجة التي استخدموها لمحادثة الإمبراطور مليئة

بألقاب المغول القديمة - نُودِيَ ظفر بألقاب مثل المعظم حاكم عرش الخلافة وملجأ سكان العالم - لكن الالتماس الذي قُدِّم أظهر حقيقة العجز المطلق لنظامه: «نحن قوم فقراء، سكان جايسينجبورا وشاهجانج، المعروفون أيضًا باسم بهارجانج، وقد اجتمعنا معًا في وجودكم الموقر، لأن شوارعنا كانت مرتبطة بالنظام الملكي منذ قديم الأزل، ولأن المتمردين خرجوا علينا من بوابة أجمري وأغاروا على المتاجر فسرقوا البضائع ونهبوا المنازل، حتى إن بعضهم دخل منازلنا الفقيرة فدمروها مع أنهم لم يجدوا شيئًا يسرقونه؛ فسرقوا الأسِرَّة والأطباق وأكوام الحطب، وعندما نذهب إليهم لاستجداء عطفهم ليتركونا في فقرنا ويأسنا يلوحون إلينا بالبنادق والسيوف، لقد عانينا كثيرًا من أعمال النهب والسرقة، لهذا نقدم التماسًا إلى جلالة الملك ليولي الأمر اهتمامه. إذا أمكن إرسال أمر ملكي إليهم كي لا يتسببوا في مزيد من المتاعب، ويتركونا نعيش حياتنا في سلام. لِتحلَّ شمس الرخاء والتوفيق وكل المجد من أجلك يا ملك الملوك».

كما وصل وفد كبير آخر إلى القلعة من تجار الذرة بالمدينة، الذين اشتكوا من أن القوات قامت بالاستيلاء على المخزون بأكمله دون ترك قطعة واحدة ولم تدفع ثمنه، وهددت بقتل جميع التجار إن حاولوا منعهم.. وظهر عجز الإمبراطور واضحًا عن مساعدة أي من هؤلاء الملتمسين، مما أوجب عليه إصدار قرار خاص لحماية التجار في الأسواق والإبلاغ عن أي شخص يعصي أوامره». لكن السيبويين ازدادوا طغيانًا، ووصل الأمر لممتلكات الملك نفسه، حتى إنهم نهبوا مصنع الثلج الخاص بالملك خارج بوابة أجمري، فدمروا مخزون الحصن من الجليد بلا هدف، حتى موظفي الملك اشتكوا من تعرضهم للهجوم من قبل الفرسان الذين نهبوا منازلهم ودمروها. كان الوضع في الريف خارج أسوار المدينة أسوء من هذا بمراحل، فعندما أرسل ظفر بعض رسله إلى حاكم ألاوار طالبًا منه الدعم والمساعدة، هجمت قبائل الغجر على الرسل في الطريق خارج مهرولي مباشرة؛ فعادوا عراة مليئين بالكدمات، قائلين إن الغجر جردوهم من خيولهم وملابسهم ومالهم؛ كما أخذوا خطاب الملك ومزقوه بأيديهم!

وعلى أمل وقف النهب وإعادة المدينة إلى طبيعتها، دعا ظفر بعضَ كبار رجال بلاطه إلى القصر ليتناقشوا فيما يمكن فعله. واستقبلهم ظفر جالسًا على عرش فضي كان في المخزن منذ توقف استقبال الهدايا من الحاكم العام البريطاني عام ١٨٤٢؛ أما الآن فقد أُخرِج، ولُمِّع، ورُكِّب في ديوان الاستقبال. مع وجود عدد قليل من الخيارات المفتوحة أمامهم، قررت المحكمة أن الإمبراطور يجب أن يخرج في هودج على ظهر الفيلة، ويجلس ميرزا جيوان بخت خلفه، يصحبهما فوج المشاة، وبعض حَمَلة البنادق، وخدمته المسلحة

الخاصة، وفرقة من الموسيقيين عبر المدينة المهجورة والمنهوبة والمدمرة، في محاولة لإحلال السلام في الشوارع.

دقت الطبول، بينما أفاد الإعلان الملكي من خلال الأسواق أن «البلاد قد عادت إلى حيازة الملك، وأن ظفر قد استعاد السلطة العليا التي كانت دائمًا ملكه وحقًّا من حقوقه، ويجب أن تتوقف أعمال النهب والسرقة في الحال وإعادة فتح المتاجر للعمل.» بالإضافة إلى ذلك، ذهب الأمير ميرزا مغول إلى جميع مراكز الشرطة الرئيسة ممتطيًا فيلًا، وأصدر إعلانًا بأن أي شخص يُدان بالنهب فسوف يعاقب بقطع الأنف والأذنين. كما أُطلِقت تحية تتكون من واحد وعشرين طلقة مع خروج ظفر من القصر، وأخرى مماثلة عند عودته. ومع ذلك، أثبت الموكب أنه مختلف تمامًا عن أولئك الذين اعتاد ظفر على الخروج معهم من قبل، حيث كان قديمًا يتوقف الموكب ليقوم رعاياه بالتقدم لتقديم عروض الولاء الرمزية للإمبراطور. بدلًا من هذا، قابلته الالتماسات والصراخ من كل ناحية، خاصةً من خدم البريطانيين المقتولين الذين فقدوا أعمالهم، ومن أصحاب المتاجر الذين عُرِّضت محلاتهم للنهب، ومن الطبقات الأعلى التي اقتُحِمت منازلهم، كلهم استجدوا بالملك وفي كل مكان توسلوا إليه لقمع أعمال النهب والاغتصاب الدائرين في جميع أنحاء المدينة.. في ذلك المساء دعا لإقامة مجلس ملكي وبكلمات فارسية جميلة دعا جميع المسئولين من أفواج السيبويين المختلفة لكبح السلوك السيئ لقواتهم، قائلًا: «مثل هذه الأشياء غير لائقة الآن، بعد أن عاد الملك للمغول، وهي السلالة الحاكمة التي أرغمت جميع الممالك على الانحناء أمام عظمتها.».

استمع المسئولون إليه بتهذيب وإجلال، ولكن في غضون فترة زمنية قصيرة ظهرت مجموعات أخرى من السيبويين، والتي أخذت تشتكي بصوت عالٍ أنها لا تستطيع الحصول على الطعام في البلدة، لأن متاجر الحبوب ترفض فتح الأبواب لها، وأبلغوا الإمبراطور بصراحة أن يجد لهم شيئًا ليأكلوه. متجاهلين النبرة واللهجة الرفيعة التي من المفترض استخدامها للتعبير عن جلالة الملك وفي حضرته، أخذوا يحدثونه بلهجة مهينة مثل، «أيها الملك!» «أيها الشيخ!» صرخ أحدهم وهو يمسك بيده: «اسمع!» بينما قال آخر وهو يمسكه من لحيته البيضاء: «استمع إليَّ». شعر الملك بالغضب من سلوكهم، لكنه لم يكن قادر على منع تلك الوقاحة، وسرعان ما وجد الراحة في الوحدة وفي ندب حظه ومصيره أمام خدمه المخلصين.. وجد ظفر نفسه في هذا اليوم الحافل بالتخريب والشغب، مرتبكًا وخائفًا من حقيقة أنه أصبح مجرد دمية بيد أولئك الذين كانوا في السابق سعداء لإطاعة أوامره، وعلى النقيض يستغلون الآن روح العصيان المنتشرة بين جميع طبقات المدينة في هذه الفترة، ولم يخشوا كذلك تقليده والسخرية منه! إذا كان ظفر من نواحٍ كثيرة ملكًا مثاليًّا، وقائدًا ممتازًا طبقًا للشروط المفروضة عليه من قبل البريطانيين قبل الانتفاضة،

كملك محتجزٍ في موقع إقامته الجبرية الافتراضية.. فسرعان ما أصبح واضحًا أنه كان شيخًا زاهدًا في الدنيا ليُناسب دور القائد في حالة الحرب. فقد كان على الرغم من كل شيء في الثانية والثمانين من عمره، ويفتقر إلى الطاقة والطموح، وفي الواقع كان يفتقر كذلك للدافع والعزيمة اللازمين لترويض نمر التمرد الذي لاح فجأة، حتى إن وضعه كان ضعيفًا لدرجة أنه لم يستطع حتى إيقاف السيبويين من تحويل قاعة الجمهور، أو «الديوان الأول»، إلى مخزن ذخيرة ومهجع للمدفعية، أو منع حراس المتمردين من التلصص على غرف «الحريم» عبر الأسوار، كما تشهد الالتماسات المتكررة من حريمه الغاضبات، ولا حتى كان قادرًا على منع الضرر الذي أصاب حدائقه المفضَّلة وكان قد قضى جزءًا كبيرًا من شهر مايو يضغط على الفرسان لإخراج خيولهم من حديقته، ولكن كل ذلك دون جدوى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي، الثالث عشر، حاول ظفر مرة أخرى إعادة بعض النظام لمدينته. في أثناء فحص الأضرار التي حدثت في اليوم السابق، أدرك الحاجة المُلِحَّة إلى إخماد الحرائق العديدة التي كانت لا تزال مشتعلة، خاصة حول مخزن الذخيرة المدمر.. إذ كانت معظم المنازل قد بُنيت من الطين والقش وحتى المنازل الفخمة كانت من شرفات ونوافذ خشبية مما ساهم في زيادة اشتعال الحرائق!

كان ظهير دهلوي هو الذي تطوَّع لجمع القوى البشرية اللازمة لإطفاء الحرائق، وقد كتب عن ذلك: «فكرت أنه، لا قدر الله، لو اشتعلت النيران في البارود المتبقي، سرعان ما ستشتعل المدينة بأكملها! أرسل قائد الشرطة مائتي دلو مياه أو ثلاثمائة، وجاء هو نفسه للمساعدة، فتعاوننا على إخماد الحرائق المشتعلة، في مخزن الذخيرة والمنازل وفي جميع أنحاء المدينة.. لحسن الحظ أننا تصرَّفنا في الوقت المناسب، فبداخل مخزن الذخيرة الذي على ضفة النهر كانت هناك جبال من الفحم والبارود ونحو مائتي مدفع محملًا وجاهزًا لإطلاق النار، كما كان هناك كثيرٌ من البنادق، فضلًا عن مسدسات لا حصر لها. لكن بعدها، وفي غضون يومين أو ثلاثة أيام قيل لي إن العصابات سرقوا البارود والبنادق والمدافع، ولم يتركوا لنا سوى قذائف المدفع. كانت هذه أيامٌ خطِرة بالنسبة لنا، نحن معشر الحاشية، فقد تربَّص الخطر بنا من كل مكان، وفي كثير من الأحيان كنت أحاصَر بالمتمردين الذين كانوا يوجهون مسدسًا نحو صدري. ذات يوم [بعد الانتفاضة بفترة وجيزة] كنا عشرين أو خمسة وعشرين شخصًا جالسًا في مخزن القلعة مع الحكيم إحسان الله خان، عندما حاصرتنا جيوش المرتزقة وأخرجوا أسلحتهم وقالوا: أيها الكفار! أنتم جميعًا موالون للمسيحيَّة! نحن نعلم أنكم تكتبون الرسائل إلى الإنجليز.. لقد صدمنا وقلنا لهم إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا لم يطلقوا النار علينا من

قبل، على الأقل سيريحوننا من التعامل مع هذا القلق الذي يزداد يومًا بعد يوم.. كان واحد أو اثنان من الضباط يتمتعون ببعض الحكمة والعقل، وكانوا قادرين على تهدئة الآخرين، فأقنعوهم بتركنا، لكننا كنا خائفين للغاية.».

كتب ظهير كيف توافد ثلاثمائة أو أربعمائة من السيبويين الإضافيين يوميًّا للانضمام إلى الرجال الذين تجمعوا في دلهي، حتى اجتمع تدريجيًّا سبعة آلاف أو ثمانية آلاف منهم، من جميع أنحاء الهند. كانوا يعيشون في رفاهية، يشربون الشراب الفاخر، ويلتهمون أفضل الأطعمة، وتوقفوا عن الطبخ بأنفسهم، فالتهموا أفضل أطعمة القصر، وفي المساء ينامون بسلام قريري الأعين.. لقد سيطروا على دلهي وفعلوا ما يريدونه بها، ولم يكن هناك من يناشده السكان ليوقفهم.. كانت دلهي كأنها «أندهير ناجري تشوبات راج» [قصة لمدينة تعيش في الظلام مع وجود حاكم غير كُفْء]. سرعان ما سئِم السكان العاديون في دلهي هذه الأوضاع المتردية، وكانوا جميعًا يدعون الله ليخلصهم من هذه الكارثة التي حلت فوق رءوسهم وأن تعود السلطة لأيدي الحكام الراشدين وولاة أمورهم. في غضون ذلك، كان المتمردون السيبويون وغوغاء المدينة يزدادون ثراءً يومًا بعد يوم، حتى إن بعضهم أصبح من الثراء إلى درجة أنه لم يعد لديهم مساحة كافية للاحتفاظ بما نهبوه، وباتوا يتعاملون بالعملات الذهبية بدلًا من الروبية تاركين أهل دلهي يتضورون جوعًا، كما أُغْلِق جميع المصانع، وجلس العمال أمام المحلات التِّجارية المغلقة دون عمل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ظل هذه الخلفية من الفوضى الخارجة عن القانون في المدينة، استعاد بلاط المغول - على الرغم من ضعفه - مكانة مركزية وأهمية سياسية كان قد فقدها قبل قرن من الزمان.. إذ تم استئناف عقد جلساته بجمهور لأول مرة منذ وصول الفرس إلى المدينة والسيطرة عليها عام ١٧٣٩، كما احتُفِي بالإمبراطور بهادور شاه الثاني مرة أخرى في جميع أنحاء هندوستان باعتباره أقوى ملك بين الملوك، وإمبراطور ابن إمبراطور مبجل، وسلطان ابن سلطان. وكما قال صِدِّيق الأكبر: «نحمد الله كثيرًا ونشكر للإمبراطور المبجل على وضعه الحد للحكم الاستبدادي للمسيحين واستعادته الحكم، وليبارك الله جلالة الملك المعظم، ظل الله على الأرض وخليفة رسول الله الكريم.»

ومع ذلك، على الرغم من كل هذا الخطاب، كان رد فعل العائلة المالكة خلف الكواليس هو الانقسام إلى فصائل متنافسة ومنقسمة بشدة، تألَّفت المجموعة التي احتضنت الانتفاضة بأكبر قدر من الحماسة من مجموعة من خمسة أمراء من الشباب الذين تم تخطيهم وتجاهلهم مسبقًا، كان مستقبلهم ينتظر بوضوح كئيب هذه الانتفاضة، فسواء اعتلى ميرزا جيوان بخت العرش خلفًا لظفر أم لا، وسواء استمر المغول في القلعة الحمراء أم لا، بدا أنهم

كلهم كانوا سيعيشون حياة مقيدة من الفقر اللطيف، وقد قدمت لهم الانتفاضة فرصة فريدة لتحسين وضعهم، وكان على هؤلاء الخمسة انتهاز الفرصة التي قدَّمها القدر إليهم على الفور. كان أربعة من هؤلاء الأمراء الخمسة رجالًا يتمتعون بموهبة قليلة أو حضور في البلاط، وبالكاد ظهروا في سجلات أحداث القصر قبل عام ١٨٥٧. ميرزا خضر سلطان هو الابن التاسع لظفر - الابن غير الشرعي لمحظية القصر رحيم بخش باي - كان قد بلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا في سنة ١٨٥٧، واشتهر بجماله الجسدي إذ وصفه غالب بأنه بجمال سيدنا يوسف، كما كان يتمتع بمهارة كتابة الشعر ويجيد الرماية؛ لكنه لم يظهر في مذكرات القصر إلا عندما طلب من والده الحصول على منزل خاص به في مهرولي عام ١٨٥٢، وسرعان ما رُفِض طلبه. ربما كان هذا بسبب ارتباطه الوثيق بميرزا فخرو ذي السمعة السيئة؛ وقد تم التأكد من أن زوجه وزوج ميرزا فخرو كانتا أفضل صديقتين.. كان ظهوره الثاني في مذكرات البلاط أقل أهمية؛ في أغسطس ١٨٥٢ وبّخه ظفر علنًا لضربه زوجه، وعندها سقط الأمير عند قدمي صاحب الجلالة وطلب المغفرة على خطئه، فضربه الملك مرتين أو ثلاث مرات بغضب شديد ثم عفا عنه، محذِّرًا إياه بأن يعيش في وفاق مع زوجه في المستقبل.

كان ميرزا خضر صديقًا مقرَّبًا لثاني الأمراء الذين قرروا تجربة حظهم مع المتمردين: ميرزا أبو بكر، الابن البكر لميرزا فخرو، وأكبر حفيد شرعي لظفر على قيد الحياة. ظهوره الوحيد في السجلات قبل عام ١٨٥٧ كان في نوفمبر ١٨٥٣، عندما فقد أحد أصابعه في حادث إطلاق نار، لكنه سرعان ما عوض الوقت الضائع الذي قضاه في غياهب النسيان خلال الانتفاضة.. من بين جميع أفراد العائلة المالكة، يبدو أن ميرزا أبو بكر أسرع من اغتنم الفرص التي قدَّمها له القدرُ؛ ففي غضون أيام قليلة من قيام الانتفاضة، بدأ يظهر الالتماسات والشكاوى المرفوعة إلى الملك بتهمة الزِّنا والسُّكْر وجلد الخدم وضرب الحراس والاعتداء على أي شرطي يحاول كبح جماحه. أما الأمير الثالث فكان أكثر غموضًا؛ فكل ما عرف عن ميرزا بختوار شاه قبل عام ١٨٥٧ أنه كان الابن الحادي عشر لظفر، وهو ابن غير شرعي من محظية أخرى لظفر تُدعى حنوة، وُلد عام ١٨٣٩، وتزوج من ابنة ميرزا فخرو عام ١٨٥٢. أما الأمير المتمرد الرابع فقد كان حفيدًا آخر لظفر: ميرزا عبد الله، ابن أكبر أبناء ظفر، والمدعو ميرزا شاروخ الذي توفي عام ١٨٤٧، وبعد وفاة والده قام هو وأمه المحظية خيروم باي بالذهاب للحج في مكة، ومنها عادا في ديسمبر ١٨٥٣، وقد ذُكِر في السجلات عند تلقيه هدية حج عبارة عن فرس أبيض من جده، وبعدها اختفى ميرزا عبد الله من السجلات حتى اندلاع الانتفاضة بمايو ١٨٥٧.

ومع ذلك، كان خامس الأمراء رجلًا مختلِفًا تمامًا عن الأربعة الآخرين، وسرعان ما أثبت نفسه رئيسًا فعَّالًا لأيَّة إدارة مدنية كانت موجودة خلال أشهر الانتفاضة. كان ميرزا مغول هو ابن ظفر الخامس وأكبر طفل شرعي على قيد الحياة. في ١٨٥٧ كان يبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا، ويقل عمره تسع سنوات فقط عن زوج أبيه القوية زينَّت محل. كانت والدته سيدة أرستقراطية من الأشراف، والتي عرفت باسم شرف المحل سيداني، وكانت من أبرز الشخصيات في حريم ظفر. وعلى عكس الأمراء المتمردين الأربعة الآخرين، كان ميرزا مغول يظهر بشكل متكرر في سجلات البلاط قبل الانتفاضة، إذ شغل منصبًا بارزًا في البلاط؛ حيث كان هو المستفيد الرئيس من نبذ ميرزا فخرو، بعدما حدث في فبراير ١٨٥٢، تولى ميرزا مغول منصبًا قويًّا بالقصر، وهو منصب مسئول القلعة، مما جعله فعليًّا مديرَ موظفي القصر وجميع من فيه. كما حصل على معظم عقارات ميرزا فخرو وثروته، وقد حقق هذا المركز الرفيع جزئيًّا من خلال الوصول إلى تفاهم مع زينَّت محل التي أصبح تحت رعايتها، ويبو أنها ساعدته ليكون حليفها ضد ميرزا فخرو، حيث تشير سجلات القصر أنها نصحته: «لا تخف بشأن هذا الموضوع.»، كان هذا عندما استشارها حول بعض مشكلاته في خلافة ميرزا فخرو بمكتبه.

توجد صورتان لميرزا مغول، يبدو في إحداهما صبيًّا جادًّا في العاشرة من عمره، يرتدي لباس البلاط بالكامل، في حفل تتويج ظفر عام ١٨٣٨، لكن لوحة أوغست شوفت الزيتية، والتي رسمها في أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر، قبل سنوات قليلة من اندلاع الانتفاضة، هي الصورة الأكثر كشْفًا عن هويته؛ حيث يظهر شابًّا وسيمًا نشيطًا ورياضيَّ المظهر، يرتدي أردية بيضاء متماشية مع بشرته الداكنة وعينيه البنيتين ولحيته السوداء الثقيلة، وإذا كانت لوحة شويفت لظفر تظهر رجلًا شيخًا مرهقًا وحزينًا فكانت، لوحته لميرزا مغول هي العكس، لوحة لشاب نشيط وطموح، وإن لم تخلُ الصورة من الإحباط فبدا وكأنه يحدق خارج الإطار بكبرياء وغضب مكبوت وبعض المرارة. على الرغم من أنه يرتدي عديدًا من الأحجار الكريمة مثل شقيقه جيوان بخت ووالده في لوحتيهما المرافقتين، فإن سيفه وخنجره يلفتان النظر أكثر من أي شيء آخر؛ ومن تعبير وجه ميرزا مغول، لا يترك لديك أدنى شك في أنه سيستخدم هذه الأسلحة إذا دعت الحاجة، وقد امتلأت الصورة بالطاقة والرغبة في الانخراط في هذا العالم، بعكس التعبير اللطيف واللامبالي المرتسم على وجه والده. كما كانت هناك أيضًا جدية وخطورة غائبتين تمامًا عن لوحة أخيه الأصغر الذي يبدو عابثًا.. وإن كان في عينيه أيضًا ترتسم بعض المرارة من افتقاده لشعوره بثقة ظفر فيه.

على الرغم من عدم الإشارة إلى مكان وجود ميرزا مغول في اليوم الذي وصل فيه السيبويون إلى دلهي، فإنه بحلول صباح اليوم الثاني عشر ظهر في البلاط مع إخوته الصغار، وقد تقدموا معًا بطلب قيادة الجيش، لكن ظفر رفض الطلب بناء على نصيحة زينت محل والحكيم إحسان الله خان، اللذان قالَا إنهم ليس لديهم العمر أو الخبرة الكافية لمثل هذه التعيينات، ولن يفهموا أيًّا من واجبات الجنود؛ كانوا مستائين كثيرًا نتيجة لذلك، ولكن في اليوم التالي عاد الأمراء ومعهم ضباط من الجيش لينضموا إليهم في طلبهم.

عارض ظفر طلبهم مرة أخرى.. وقال ظفر: «أنتم لا تعرفون متطلبات هذا العمل! ماذا ستفعلون كضباط؟» لكن الأمراء والسيبويين صمدوا بعناد، وبِناءً عليه، بعد يومين [أي في الخامس عشر من مايو] وافق على طلبهم وحصلوا على الأردية الرسمية، وبموافقة السيبويين سريعًا وبشكل غامض، حصل ميرزا مغول على لقب القائد الرئيس.. من الواضح أن ميرزا مغول وأبو بكر وخضر سلطان، كانوا على اتصال بالسيبويين سرًّا قبل اندلاع الانتفاضة، وهو ما اقتنعت به زينَّت محل بعد ذلك، ويفسر السرعة التي أقام بها ميرزا مغول علاقة جيدة مع السيبويين، بينما ظل باقي القصر على مسافة متشككة منهم لارتيابهم فيهم. في كلتا الحالتين، من هذه النقطة فصاعدًا، ألقى ميرزا مغول بنفسه بنشاط في العمل لإدارة الجيش ومحاولة إدارة المدينة، وهو ما فعله بالتعاون مع صديق ثيو ميتكالف ومنقذه، معين الدين حسين خان، الذي جعله رئيس الضباط في اليوم التالي لتعيينه. كانت واحدة من أكبر المفاجآت الواردة في سجلات التمرد هي كمية الأوراق التي وردت من ميرزا مغول ومكتبه؛ إذ احتوت الأوراق على عدة آلاف من أوامر ميرزا مغول؛ في الواقع، كثيرٌ منها لا تحتوي على أي شيء آخر سوى الأوامر.

تحتوي المجموعة ٦٠ وحدها على ٨٣١ طلبًا من سكرتارية ميرزا مغول. من اللافت للنظر أن كثيرًا من الروايات القومية الهندية لعام ١٨٥٧ وافقت الافتراض الشائع بين المؤرخين البريطانيين الإمبرياليين، إن أي أمير مغولي يجب بالضرورة أن يكون كسولًا، وعادةً ما يتم حذف اسم ميرزا مغول أيضًا باعتباره أرستقراطيًا وعديم الفائدة. لكن لو حكمنا بناءً على الوثائق الواردة في الأرشيف الوطني، فإن أرشيف ميرزا مغول واحدٌ من أكثر الأرشيفات نشاطًا وحيوية من بين كل أولئك الذين تبنوا قضية ثورة عام ١٨٥٧. أدرك ميرزا مغول أهمية تقديم بعض الدعم بخطط منظمة للثورة، وتقديم إدارة متماسكة لدلهي. لكن كما اتَّضح فيما بعد، نادرًا ما تجاوزت إدارته الأزمة ولم تنجح قط في تحويل نفسها إلى قوة قادرة على السيطرة على أفواج السيبويين المختلفة، ولا الأعداد المتزايدة من الجهاديين المستقلين المتجمعين في دلهي، ولكن هذا الفشل بالتأكيد لم يكن بسبب عجزه عن الإدارة؛ فمنذ الأسبوع الأول، أنتج ميرزا مغول سلسلة مستمرة من الطلبات

والأوامر؛ إذ حاول إعادة السيبويين بإخراجهم من المدينة إلى معسكرات الجيش مرة أخرى، وأرسل عديدًا من رجال الشرطة أو حراس القصر لإنقاذ الأسواق التي نُهِبت أو النبلاء الذين هوجِمت منازلهم، واعدًا السيبيويين بدفع الرواتب وزيادة الأجور وواعدًا وشعب دلهي بتوفير طعام كافٍ، وتلقي الالتماسات الفردية من السيبويين، وتوفير المجارف والفئوس وأكياس الرمل لعمليات إعادة البناء، وفرض قانونًا صارمًا على الجيش بحيث لا يمكن أن يكون هناك تفتيش للمنازل بدون تصريح، وكبح قبائل الغجر خارج الأسوار، وإنشاء دار صك النقود لإنتاج عملات معدنية عليها صورة ظفر، في محاولة لإسعاد والده المكتئب بشكل متزايد كما أراد أيضًا السيطرة على إخوته. ومما لا شك فيه أن ميرزا مغول كان وراء الخطابات التي أرسلت باسم ظفر لجميع أمراء الهند، طالبًا منهم الانضمام إلى الانتفاضة، ومناشدة إيمانهم على أساس أن جميع الأديان عُرِّضت للهجوم على يد البريطانيين. تشير الرسالة تحديدًا إلى القوانين البريطانية التي تحرم الساتي(21) وتسمح بحصول من يتحول لديانة المسيحية على الميراث، وتسهيل الحكومة البريطانية للنشاط التبشيري، والتحويل المزعوم للسجناء المسجونين في السجون البريطانية.. تقول الرسالة «لقد حارب الإنجليز جميع الأديان.. كان هذا هو هدفهم منذ البداية، وأنا الآن على اقتناع راسخ بأنه إذا استمر الإنجليز في هندوستان فسوف يطيحون بأدياننا تمامًا. ولأن الإنجليز هم العدو المشترك للهندوس وللمسلمين، علينا أن نتحد في إبادتهم.. وبهذا فقط ستنجو أرواح الهندوس والمسلمين ومعتقداتهم!»

هناك وثيقة أخرى، ربما لم يكتبها ميرزا مغول أو مكتبُه، وكانت إعلانًا مشهورًا ومعروفًا بالخطأ باسم بيان ملك دلهي على الرغم من أنه لم يكن له أيَّة علاقة بظفر، كما عرف باسم بيان أزامجارا... كانت لهجة ذلك الإعلان لهجة علمانية بالكامل تقريبًا، ويستهدف قاعدة عريضة من أصحاب المصالح المختلفة؛ في الواقع، هو أقرب شيء تم إنتاجه خلال الثورة عن الاستقلال الوطني. كانت الجملة الافتتاحية صرخة للاتحاد، مع الإشارة إلى أن الهندوس والمسلمين على حد سواء دُمِّروا تحت طغيان الكفار الإنجليز الخونة وقهرهم. مع ذكره: «لكن في الوقت الحاضر قامت الحرب مع الإنجليز من أجل الدين» ودعا الجميع، مهما كان مركزهم الاجتماعي للانضمام إلى جيوش المغول، ليس لأجل الدين فحسب بل لأن الإنجليز قد أفرطوا في فرض الضرائب على أصحاب الأراضي واحتكار الوظائف الهامة في المجتمع المدني والقوات المسلحة، كما عمدوا إلى إخراج الحرفيين الهنود من سوق العمال التجاري عن طريق إغراق السوق بالواردات البريطانية الرخيصة.

بعض المؤرخين سعداء بعثورهم على تلك الوثيقة النادرة من عام ١٨٥٧، لأنها تذكر صراحة المظالم الاقتصادية والاجتماعية، ورُبِطت تلك الوثيقة الحديثة

بالقلعة الحمراء وأنها بيان من ملك دلهي الإمبراطور ظفر، وبالتالي بالغوا في ذكر أهميتها وتأثيرها.. لكن كل هذا كان خطأ، إذ كان مؤلفها في الواقع هو الأمير المغولي الغامض فيروز شاه، الذي ربما يكون حفيد ظفر، والذي قاتل في أفادا، ولكناو، ولم يأتِ إلى دلهي قط في فترة الانتفاضة. ربما لهذا السبب جزئيًّا، كانت القضايا التي يتناولها مختلفة، من حيث النبرة والمضمون، عن تلك التي عُبِّر عنها باعتبارها مظالم رئيسة في ذلك الوقت في عاصمة المغول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان معظم الأمراء قد جربوا حظهم بأن يقفوا في صف الانتفاضة، على اعتبار أنه ليس لديهم ما يخسرونه، واحتمالية كسب كثيرٍ من ورائها، فقد أخذت زينت محل وابنها الوحيد المفضل جيوان بختً بالطبع الاتجاه المعاكس. وللسبب نفسه، كانت زينَّت محل تعارض تمامًا المسار الذي سلكه زوجها، واعتبرته مدمرًا لفرص جيوان بخت.. وكانت تلك هي أول مرة منذ زواجهما يقوم فيها ظفر بمخالفة نصيحتها علنًا بشأن قضية هامة وحساسة. بحسب مذكرات الحكيم إحسان الله خان: «لقد احتجّت الملكة على أن الملك لا يعيرها اهتمامًا، لكنه أجاب بأن ما شاء الله له أن يحدث سيحدث.» يبدو أن زينت محل قد حسبت أن البريطانيين سيعودون قريبًا ويهزمون السيبويين، وقد يؤدي ذلك الولاء لهم حتى الآن إلى إعاقة خلافة ابنها الحبيب. في كلتا الحالتين، مهما كان السبب، كانت هي التي شجَّعت ظفر على إرسال رسول على جمل سريع إلى والي المقاطعات الشمالية الغربية في أجرا ليلة اندلاع الانتفاضة. في وقت لاحق، حرصت على أن يحافظ جيوان بخت على وجود مسافة بينه وبين المتمردين وألا يتورط بأي شكل من الأشكال مع أساليبهم العنيفة، وعندما تولى ميرزا مغول منصب القائد العام للقوات المسلحة، حصل جيوان بخت على لقب وزير، لكنه بقي بعيدًا عن السيبويين ولم يشارك في إدارة المدينة.

وبجوار زينت محل وميرزا جيوان بخت كان هناك آخرون في القصر مؤيدين سرًّا للفصيل البريطاني، وهم رئيس الخصيان ومطيع أوامر زينت محل محبوب علي خان؛ ورئيس وزراء ظفر، الحكيم إحسان الله خان؛ وميرزا إله بخش، والد زوج الراحل ميرزا فخرو. في عام ١٨٥٢، كان إله بخش هو المنافس اللدود لزينَّت محل وجيوان بخت ومحبوب علي خان، أما الآن فقد أدت الأزمة إلى ترتيبات غير متوقعة لفصائل البلاط القديم، وأصبح ميرزا مغول، الذي كانت تحميه زينت محل سابقًا، عدوها اللدود، بينما أصبح ميرزا إله بخش، عدوها السابق، حليفها الآن! نأى ظفر بنفسه بعيدًا قليلًا عن زوجه ومستشاريه الرئيسَيْن. على الرغم من أنه كان مدركًا جيدًا للمخاطر التي يشكلها السيبويين، وشعر بالاشمئزاز من أخلاقهم وتصرفاتهم إلى جانب

شعوره بالقلق العميق والاكتئاب بسبب نهب مدينته، فقد أدرك مع ذلك إمكانية الانتفاضة من إنقاذ السلالة التيمورية، وضمان مستقبل سلالته، وهو شيء كان يعمل باستمرار من أجله منذ توليه الحكم في عام ١٨٣٧. لذلك قدَّم مباركته ودعمه العام للانتفاضة، وأخذ دوره كإمبراطور مغولي على محمل الجد، بينما يفعل كل ما في وسعه للحد من نهب السيبويين.. الدرجة التي بلغها زينت محل ومحبوب علي خان والحكيم إحسان الله خان في إدارة سياستهم الخاصة فيما يتعلق بالانتفاضة، كانت مستقلة تمامًا عن سياسة الإمبراطور، وكانت معارضة مباشرة لميرزا مغول والأمراء الآخرين، وظهرت تلك الدرجة بطريقة مؤثرة بعد خمسة أيام من اندلاع الانتفاضة، في اجتماع البلاط المغولي صباح يوم السبت ١٦ مايو.

بحسب يوميات كاتب الأخبار تشوني لال الذي كان حاضرًا، حضر الجنود والمشاة برفقة ضباطهم، وقدموا رسالة تحمل أختام الحكيم إحسان الله خان، ورئيس الخصي محبوب علي خان، والتي قالوا أنها تم اعتراضها عند بوابة دلهي بالمدينة، واشتكوا من أن الحكيم ورئيس الخصي قد أرسلوا هذه الرسالة إلى الإنجليز لدعوتهم للمجيء إلى المدينة على الفور، واعدين إياهم بمنحهم كامل السيطرة والتحكم في جميع الجند الموجودين الآن في دلهي، بشرط أن يعترف الإنجليز بميرزا جيوان بخت، نجل الملك من الملكة زينت محل، خليفةً للحكم! أقسم الحكيم ورئيس الخصيان - الذي كان مريضًا وكان لا بد من تقديمه إلى البلاط محمولًا وهو يرتدي ملابسه المنزلية - إن الوثيقة كانت مزوَّرة، لكن لم يصدقهم أحد. بدأت الأمور تسوء للغاية حين قام سلاح الفرسان والمشاة بسحب سيوفهم وحاصروا الحكيم معلنين تأكدهم من معاونته الإنجليز.. وفي هذه اللحظة تذكر أحد السيبويين السجينين البريطانيين الذين احتفظ بهما ظفر رهن الاعتقال في مكان آمن من القصر، والذين نما عددهم الآن ليصبح اثنين وخمسين بعدما أحضر الضابط الجديد، معين الدين، عدة عائلات ممن كانوا على وشك الموت بعد أن عُثِر عليهم مختبئين في المدينة.. اتهم السيبويون الحكيمَ ورئيس الخصيان بإبقاء السجناء على قيد الحياة حتى يستعيدهم الإنجليز ووقتها سيقومون بقتل الجنود الشرفاء!

مما لا شك فيه أن هذا ما كان يدور في خَلَدِ الرجال بالفعل على الأرجح! استدعى السيبويون السجناء، الذين كان ظفر يحتفظ بهم ويطعمهم في غرفة بجوار مطابخ القصر، وقاموا بربطهم وسحبهم إلى شجرة بالقرب من قاعة الاحتفالات بالقصر، وراحوا يسخرون منهم بشكل مهين ويخبرونهم بأنهم على وشك أن يتم ذبحهم. وفقًا لجيوان لال: «وقف الملك ورجاله مثل الدمى الغبية في البداية، مرعوبين مما كان يفكر فيه السيبويون. فصل الملك السيبويين إلى حزبين، مسلمين وهندوس، وناشدهما من الناحية الدينية حيث

لم تكن أيَّة ديانة تسمح بذبح رجال ونساء وأطفال لا حول لهم ولا قوة.. وقال ظفر: «لا يمكنني أن أدعكم تقتلونهم أبدًا، كما لم أكن سأسمح لأي أحد أن يقتلكم!»، مضيفًا أن الملكة كانت أيضًا ضد أيَّة مذبحة. سجل سعيد مبارك شاه بكاء الملك بعد ذلك، إذ طلب من المتمردين ألا يقتلوا النساء والأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة، قائلًا لهم «احذروا، فإذ ارتكبتم مثل هذا الفعل، فإن انتقام الله سيقع علينا جميعًا.. لماذا نقتل الأبرياء؟» لكن المتمردين رفضوا الاستماع له، وأجابوه «سنقتلهم، وفي قصرك، لتكون شريكًا معنا، وأيًا كانت النتيجة! ستعتبر واحدًا منا ومذنبًا بالقدر نفسه عند الإنجليز.»

قام معين الدين، وظهير دهلوي بتدوين أن الملك استمر في الجدال مع السيبويين، ورفض إعطاءهم موافقته على القتل، لكن الحكيم إحسان الله خان أسكته في النهاية. لقد توتر الحكيم بشدة بسبب انكشاف المراسلات، وحذَّر الملك من أنه إذا استمر في الجدال، فسوف يزهقون روحيهما كذلك! عندما رأى ظهير أن السيبويين كانوا يستعدون للمضي قدمًا في المذبحة، توسل إلى الحكيم أن يبذل جهدًا أخيرًا لوقف المذبحة.. كتب لاحقًا: «أخبرته أنه عليه أن يفعل أي شيء بسرعة لإيقافهم. أجابني: «ماذا يمكنني أن أفعل؟» أخبرته أن هذا هو الوقت المناسب لإثبات ولائنا، وأنه إذا أراد حماية الملك فيجب علينا أن نحاول إقناع المتمردين بوقف هذه الجريمة وإنقاذ الأسرى، وإلا فإن الإنجليز سيأتون ويُسوون دلهي بالأرض، قبل تحويلها إلى صحراء قاحلة انتقامًا من إراقة دماء الأبرياء. أجاب إحسان الله خان، «إنك لا تزال طفلًا، ولا تدرك أنه في الحياة العامة يجب على الرجل أن يستخدم عقله بدلًا من إفساح المجال لمشاعره، إذا حاولنا ثني المتمردين الآن سيقتلوننا قبل أن يقتلوا الإنجليز، وبعد ذلك سيقتلون الملك!» كان الأوان قد فات على أيَّة حال، فبمجرد انتهاء إحسان الله خان من جملته كانت جماعة الغوغاء قد بدأت مهمتها الكريهة؛ أجبروا السجناء على الجلوس، وأطلق أحدهم النار عليهم! بعد هذا قَتَل اثنان من الخدم المسلحين الشخصيين للملك كل الأوروبيين، رجالًا ونساءً وأطفالًا، بالسيوف حتى إن أحد السيوف قد كُسر. كما كان هناك حوالي مائتي مسلم يقفون عند المدافع، ينطقون بأشنع الإساءات للسجناء.

بعد المذبحة، أُخِذت الجثث على عربتين وأُلقيَت في النهر. تسبب هذا الحدث في إثارة كبيرة بين الهندوس في جميع أنحاء المدينة، الذين قالوا إن هؤلاء الرعاع الذين ارتكبوا هذا لا يمكن أبدًا أن ينتصروا بقسوتهم على الإنجليز. بالنسبة لظفر كانت المذبحة نقطة تحول؛ كان السيبيويون على حق في نقطة أن البريطانيين لن يغفروا القتل الجماعي للأبرياء، وأن فشل ظفر في منعهم جعله مشتركًا في الجريمة معهم هو وسلالته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول نهاية الأسبوع الثاني من الانتفاضة، حتى محمد باقر، المتحمس بالسابق، بدأ التفكير فيما يحدث.. كتب في مقال افتتاحي في صحيفة أخبار دلهي بالأوردية في ٢٤ مايو: «يُعَرَّض السكان لمضايقات شنيعة، وسئموا من النهب والسلب من قبل سكان المدينة نفسهم أو من قبائل الغجر التي أتت من الشرق، لم يعد لدى مراكز الشرطة ذرة واحدة من السيطرة والسلطة وساءت الأمور بشكل لا يمكن وصفه، فقد أحدثت قبائل الغجر والجات فوضى كبيرة بسرقة المحلات وقطع الطرق ونهب المنازل وحرقها، وأصبحت خطرًا كبيرًا يهدد أمن الطبقة الميسورة الحال وسلامها في دلهي. كما أكد أن بعض الغوغائيين الغجر قد تنكروا بهيئة الجنود السيبويين لينهبوا البنادق والأسلحة من مخازن الذخيرة؛ قُبِض على خمسة منهم ادعوا أنهم جنود في معسكرات الجيش، أو ضباط من طبقة أعلى فأُرسلوا إلى الفصيل الذين يدعون الانتماء إليه قبل أن تكشف أكاذيبهم، فقام قادة الجيش بالأمر بجلدهم وسجنهم.»

أدرك باقر أن وراء هذه الفوضى هناك مشكلة أساسية وواضحة بخصوص إدارة جيوش السيبويين، فيبدو أنه كان هناك قدر معين من التواطؤ والاتفاق بين الأفواج المختلفة قبل اندلاع الانتفاضة، لكنهم حين وصلوا إلى دلهى تفرقوا وانشق كل فوج عن قيادته الخاصة وبحث كل منهم عن مصلحته ومكاسبه وفقط؛ فقاموا بالتخييم بشكل منفصل، ولم يقبلوا بأي قائد سيبوي عام، وقاوَموا بشدَّة فكرةَ وجود قائد من أي فوج آخر لديه السلطة فوقهم. أما محاولات ميرزا مغول للتصرف كقائد أعلى، فهي لم تنجح بدرجة كبيرة، بما أن المغول لم يكونوا قادرين على دفع أجور السيبويين، أو حتى عقاب المجرمين منهم أو من بقية المجموعات المتمردة بشكل حاسم، فقد كان هناك حد للسلطة التي يمكن أن يمارسوها عليهم، وإلى حد ما، ظلت الأفواج عبارة عن مجموعات مختلفة من الجيوش، كل منها تحت حكم قائدها الخاص، الذي كان يتصرف كأنه أمير حرب شبه مستقل. «المتمردون بلا زعيم يقودهم»، هكذا صاغ كاتب الأخبار في راجا كابورتالا الموقف بإيجاز. ومما زاد الطين بلة، أنه بنهاية الأسبوع الثاني تزايدت المشاجرات بين أفواج المشاة والفرسان، فصارت شائعة بشكل متزايد.

كما ظل السيبويون من ميروت ودلهي يتوافدون لنهب المدينة، وقد كتب غالب في يومياته في ذلك الوقت أن السيبويين الذين تجمَّعوا بسرعة في مدينته «كانوا كثيري العدد كالجراد، دون قائد كالذئاب، عصابات لا حصر لها، بقيادة من لا يصلح للقيادة، ومع ذلك يقولون إنهم جاهزون للحرب!».

كان الإمبراطور مكتئبًا بالقدر نفسه. وفقًا لتقرير أحد الجواسيس، فإنه، وفي أثناء واحدة من المرات التي تمت فيها إراقة الدماء بين أهل دلهي وأهل ميروت، رفضت المجموعات الاستماع لقادتها، وبدلًا من ذلك تشاجروا معًا.. هز ظفر رأسه وقال: «لقد انتهينا». كما انزعج باقر، فكتب في جريدته: «جميعهم يثنون على كفاءة رئيس قسم شرطة المدينة، لكن الشرطة بأكملها من أصغر رتبة لأعلى رتبة لا حول لهم ولا قوة بكل مكان. فبسبب عدم السيطرة على المتمردين، أُشِيعت المجاعة بين الفقراء، واختفى المرابون أصحاب المال خوفًا من القتل. لذا يجب إعادة كل شيء للنظام بسرعة وذلك متمثلًا في إعادة توزيع الرواتب، وتقييد سلطة المتمردين.. وخاصة السيبويين الذين رفضوا طاعة رجال الشرطة تمامًا كما رفضوا فكرة القائد العام، وحينما حاولت شرطة المدينة الحد من أعمالهم الشنيعة، قاتلوهم على الفور عند بوابة لاهور، إذ عُرِّض الشرطي الذي حاول إيقافهم إلى ضرب أفضى إلى القتل.

أبلغ قائد الشرطة المحلية بعد ذلك رئيس قسم الشرطة معين الدين: «لاحظ ضابط الشرطة المسلح، بعض أكياس المسروقات مخبأة بقرب الجدار فحاول استخراجها، حينها هجم عليه السارق الذي كان ينتمي إلى الفرسان المتمردين وتشاجر معه وسحب سيفه إلى وجهه، وحين تصاعدت أصوات الشجار هب بعض الفرسان الآخرين لمساعدة رفيقهم وضربوا الشرطي حتى نزف ثم قاموا بجره وخطوط الدماء تسير خلفه إلى الأسر.. أليس من المفترض أن هؤلاء الفرسان قد جاءوا لخدمة الملك؟ إذا استمر الحال على ما هو عليه فسيكون من المستحيل إعادة النظام والانضباط مرة أخرى إلى البلاد!».

وأكمل قائد الشرطة المحلية كلامه بأن هذا حدث مرة أخرى حينما تجادل رجال الشرطة مع السيبويين الذين يفرضون إتاوة في منطقة «غالي قاسم جان» مقابل تمرير البضاعة المسروقة بهذا الممر، وإذا دُفِع لهم، فيسمحون للشخص بالمرور، ولكن من لا يمنحهم رِشوة يتعرض لمضايقات كبيرة من قبل الجنود، وكلما اعترض رجال الشرطة على هذا يساء إليهم ويهدَّدون بالقتل. ثم ازدادت الأمور سوءًا حين أصبحوا يقبضون على كل من لا يستجيب لضغطهم وابتزازهم، وطلبوا من رجال الشرطة أن يعودوا إلى مراكزهم ويتوقفوا عن التدخل في شئونهم..».

وبسبب ضعف إدارة ميرزا مغول، أدرك ظفر أنه يمتلك ورقة رابحة واحدة يمكنه لعبها لمحاولة ممارسة بعض الضغط على السيبويين وهي عدم التعاون. مارس هذه القوة لأول مرة ببراعة في يوم ١٤ مايو، عندما تجاهل السيبيويون أوامره بشأن الخروج من حديقة ضوء القمر المفضلة إليه. عندما

حدث هذا، ذهب ظفر إلى جناحه الملكي الخاص وأغلق المكان على نفسه، ورفض رؤية الجميع. لم يمضِ وقت طويل حتى بدأ بعض أفراد السيبويين الخروج من حديقته إلى ما تبقى من المعسكرات بشمال المدينة. وبعد ملاحظة أثر ذلك، أصدر ظفر قرارًا بعد أسبوع يهدد فيه بالابتعاد عن المدينة تمامًا والذهاب للأبد لمكة إذا لم يتوقف السيبويون عن نهب شعبه. كان التهديد نفسه الذي وجهه للسير توماس ميتكالف قبل خمس سنوات. هذه المرة نفع التهديد.. غطى باقر هذا التصرف بشكل إيجابي بجريدة أخبار دلهي بالأوردية: «اعتراضًا على حالة الخراب والنهب التي يواجهها السكان، والفوضى السائدة في جميع أنحاء البلاد، فقد أصدر جلالة الملك المفدى فرمانًا بأنه مع استمرار الجنود في مضايقة كل من السكان وخدم الدولة المخلصين، وتضييق عليهم حياتهم، التي سبق وضيقها عليهم الإنجليز، فيجب أن تكون هذه هي أيامه الأخيرة. إذ ليس لديه رغبة في العرش أو المال، وإن لم ينتهوا فسيتجه لعيش بقية أيامه في الضريح الصوفي في مهرولي مع مرافقة جميع رعاياه.. ثم سيخطط للهجرة ناحية الكعبة الشريفة بمكة، لقضاء بقية أيامه في الصلاة والتوبة وذكر الله تعالى.. يقال إنه عند قراءة هذا الفرمان، شرع جميع الحاضرين في المجلس الملكي بالبكاء.. فلنسأل الله العلي القدير، أن تنتظم المدينة، فسوف يريح هذا الناس ويزيل أخاديد القلق وخوف من جبين جلالة الملك..»

لكن لم يحدث أي من هذا.. بدلًا من ذلك، في ١٩ مايو، كانت هناك علامات على احتمال حدوث مزيدٍ من الانقسامات المدمرة للبلاد؛ ففي ذلك الصباح، وضح أحد الشيوخ المتشددين المسلمين في دلهي، وهو الشيخ محمد سيد، أُسُسَ الجهاد الإسلامي في خطبة بالمسجد الجامع، في محاولة واضحة لتحويل الثورة إلى حرب مقدسة حصرية للمسلمين. أمره ظفر على الفور بأن يتوقف «لأن مثل هذا التصرف المتعصب سيتسبب في إثارة سخط الهندوس.» على حد قوله.. في اليوم التالي، بينما وردت أنباء عن أن قوة دلهي الميدانية كانت تتجمع في أمبالا، ظهر الشيخ محمد سيد في القصر للاحتجاج على أقوال ظفر، زاعمًا أن الهندوس كانوا جميعًا من أنصار الإنجليز، وأنه لذلك كان الجهاد ضدهم مشروعًا تمامًا. في الوقت نفسه ظهر وفد من الهندوس في دلهي إلى القلعة، ونفوا بغضب تهمة الشيخ.. حينها أعلن ظفر أن الهندوس والمسلمين متساوون تمامًا في عينيه، وأن: «مثل هذا الجهاد مستحيل تمامًا، وهذه الفكرة عمل متطرف أحمق، لأن غالبية أفراد الجيش كانوا من الهندوس. ومثل هذا العمل يمكن أن يخلق حربًا أهلية ستكون نتائجها مؤسفة.. ستكون الحرب على الإنجليز فقط أما على الهندوس فأنا أحظرها تمامًا.» في هذه المرحلة من الانتفاضة، يبدو أن ظفر نجح في إسكات المجاهدين. ولكن بعد ثمانية أسابيع، عندما تجمعت أعداد كبيرة من

المجاهدين «الوهابيين» في المدينة من جميع أنحاء شمال الهند، بدا أن الموضوع أصعب من ذلك بكثير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موقف مؤقت

في الثالث والعشرين من مايو، بينما كان الجنرال أنسون ينطلق أخيرًا من أمبالا، اقترب فارسٌ يرتدي زيًّا هندوستانيًّا ممزقًا من المعسكرات البريطانية في كارنال وطالب بالانضمام إليهم. عند سؤاله عن اسمه وعمله، أجاب الرجل أنه السير ثيوفيلوس ميتكالف، فضحك الحراس عليه. حيث يُفترض أن مساعد قاضي الصُّلح في دلهي قد مات. في الواقع، وردت أنباء بأن رأسه قد عُلِّق على عمود خارج بوابة أجمري. لكن اتضح أن ادعاء الغريب كان صحيحًا، لقد كان ثيو بالفعل، وكان هاربًا لمدة أسبوعين تقريبًا.

في الأيام القليلة الأولى بعد اندلاع الانتفاضة، كان ثيو محميًّا على سطح زنانة «بيت الحريم» الخاص بـ«بهورا خان ميواتي» في بهارجانج، وقد تم الاعتناء به جيدًا وإطعامه. في المساء، اعتاد هو وبهورا خان الخروج في التجول في دلهي ومشاهدة المباني المحترقة، حتى إنه شاهد ذات ليلة، عرض الألعاب النارية للاحتفال بعودة السلطة المغولية. كل هذا الوقت، توقع ثيو سماع خبر وصول القوات البريطانية من ميروت لاستعادة حكم البريطانيين. ولكن في صباح اليوم الرابع، وهو ١٤ مايو، ومع عدم وجود دلالات على قرب وصولهم، قام بهورا خان بإخبار ثيو أنه قد تم تعقبه لهذا المخبأ، وإذا بقي ثيو في المنزل فسيهجمون عليه ويقتلون أسرته كلها؛ لذا توسَّل إليه بهورا خان أن يرحل إلى مكان آخر، وسيوفره له بمعرفته. وفقًا لمذكرات أخت ثيو، إيميلي: «في فترة الغسق، نُقِل ثيوفيلوس إلى حفرة من الحجر الجيري، والتي كانت عبارة عن كهف صغير، وزوده بهورا بسيف ومسدس، إذ كان من المحتمل أنه تمت مراقبته ومن ثم الهجوم عليه. كان مدخل الكهف صغيرًا للغاية وشعر السير ثيوفيلوس أنه لا يسمح إلا بجسد واحد بداخله وسيمكنه من رؤية أي معتدٍ.. سواء أفي تلك الليلة أم الليلة التالية، كان يعيش في خطر مميت، إذ يسمع خطى وأصواتًا في الخارج، وينتظر ظهور من سيعتدي عليه، حتى حدث هذا فجأة وكان هناك ما يكفي من الضوء ليرى ظِلًّا في المدخل، فوثب بسرعة وانقض على المعتدي حتى مزقه بسيفه!».

بمعرفته أن مخبأه اكتُشِف، قام ثيو في صباح اليوم التالي بإرسال رسالة إلى صديقه معين الدين، الذي صار الآن رئيس رجال شرطة ظفر، ليطلب منه المساعدة في السفر إلى جهاجار حيث يسكن هناك صديقًا قديمًا لـآل ميتكالف. ظلَّ معين الدين على اتصال سريٍّ مع ثيو، محذرًا إياه من أنه لا يبدو أن هناك أي احتمال لحل سريع للأزمة، كما افترض كلاهما سابقًا، و«إن ما من مصيره أن يحدث، سيحدث.». لكنه رد بإرسال «حصان جيد، وبعض المال.. مع نصائح حول كيفية السفر بأن يرتدي السير ثيوفيلوس زيَّ جندي محلي، ويجب أن يُطلق على نفسه اسم شيري خان، وهو الاسم الذي صار

يستعمله الآن فصاعدًا في كل مراسلاتنا.»، في اليوم التالي، تلقى معين الدين إيصالًا رسميًّا بالمال من جهاجار. افترض معين الدين أن ثيو سيكون بأمان مع صديقه حاكم جهاجار، فهو مثله تمامًا كان قد وصل إلى الحكم نتيجة دعمه للبريطانيين منذ البداية.

كما كان يعرف أن لدى الحاكم وآل ميتكالف النزعة الفنية نفسها وحب أعمال الورش الفنية لمظهر علي خان الذي كان قد كلَّفه توماس ميتكالف سابقًا بأعماله الفنية، وكان حاكم جهاجار أيضًا كلَّف غلام علي خان - عم مظهر - برسم سلسلة من الصور في قصره، واحدة وهو يرتدي ثوبًا صيفيًّا خفيفًا، والأخرى مع أعضاء المجلس والتابعين له في فصل الشتاء، كما طلب لوحة لنفسه في أثناء صيد أسد، وأخرى رائعة وهو يتجول في أنحاء المدينة ممتطيًا نمره الأليف.. وعلى الرغم من كل هذا التشابه، لم يستقبل هذا الصديق القديم ثيو كما كان متوقعًا! عند وصوله إلى قصر الحاكم، طلب ثيو في الحال مقابلته كصديق، فعاد رسول الحاكم متسائلًا عن اسمه، فأخبره.. أنزلوه عن حصانه وقادوه إلى غرفة الانتظار، وهناك ظلّ منتظرًا بعض الوقت حتى وصلت له رسالة الحاكم: «أهلًا وسهلًا بك في بيتي، لكنني لا أستطيع استقبالك.».

وخلال فترة ما بعد الظهر، مُرِّرَت عدة رسائل بينهما.. حيث أعرب ثيوفيلوس عن دهشته من أن صديقه يعامله بمثل هذه المعاملة الفظَّة.. في النهاية أرسل الحاكم رسالة إلى ثيو أخبره فيها أنه لا يستطيع أن يقابله أو يبقى في المنزل خوفًا من التعرض للهجوم من قبل ملك دلهي وجنوده لإيوائه أوروبيًّا، لكنه في المقابل سيوفر له حصانًا وحارسين ليصطحبوه كدليلين ليرياه طريق العودة إلى دلهي. كان الحاكم يدرك تمامًا أن السير ثيوفيلوس يعرف الطريق إلى دلهي مثل جنوده تمامًا، وكان من الواضح أنها طريقة غير وُدية لطرده، ومع ذلك لم يكن لديه سبيلٌ آخر سوى قَبُول العرض.. لم يكن الحصان الذي قدم إليه حصانًا قويًّا، بل مجرد حصان هزيل ويائس لا يمكنه السير سوى بخطوات بطيئة، مما جعل الجنديين المتقدمين أمامه مرشدَيْن له بعيدين عنه لمسافة ما. وتحت جنح الظلام، استغل ثيو الفرصة لما لاحظه من غَرَضٍ شرير في معاملة الحاكم له، وأمال خطَّ سير حصانه عن الطريق الرئيس، إلى الغابة الرملية، وابتعد بأسرع ما يمكن في اتجاه هانسي، لكن سرعان ما انهار حصانه من التعب فاضطر إلى المشي وحده نهارًا وليلًا، والنوم في الغابة وتناول الطعام الرديء والحليب الذي قدمه له القرويون على الطريق.. وهناك سمع من هؤلاء الناس كيف قُتِل الأوروبيين وكيف انتقل الحكم إلى ملك دلهي.

في صباح اليوم الذي يلي سماعه هذه القصة، اضطر ثيو إلى مغادرة الغابة والعودة إلى الطريق السريع. كان قد مشى بعض الوقت عندما سمع صوت بعض الفرسان يركضون في عجلة من أمرهم، وعندما نظر إلى الخلف رأى اثنين منهم يقتربان منه بسرعة حتى كادا يلحقان به، أدرك ثيو أنه الهدف الذي يسعون خلفه، وكانت الفرصة الوحيدة للاختباء هي القرية التي يقترب منها، والتي لم يكن ينوي المخاطرة بدخولها. ومع ذلك، لم يكن لديه خيار آخر، كان متأكدًا من أنه في هذه الساعة من الظهيرة، لابد وأن سكانها يأخذون قيلولتهم في الداخل أو في بعض الزوايا المظللة في الشوارع، ملتحفين بملابسهم الطويلة التي تخفي وجوههم من الحر، فقلَّد السير ثيوفيلوس هذا المثال واستطاع ببراعة أن يتخفَّى بين المجموعات النائمة. بعد بضع دقائق لحق به الفرسان وطلبوا بصوت عالٍ أن يُكْشف عن مكان الرجل الإنجليزي، لكن لم تأتِهما إجابة، بما أن جميعهم كانوا نيام، وخز أحد الفرسان الرجل الراقد بجانب ثيو برُمحه، فاستيقظ النائم وهو يسب الفارس لمقاطعة نومه بتلك الوقاحة، وأخبره بأنه لم يمرَّ أي رجل إنجليزي من هذا الطريق. سارع الجنديان بالرحيل وعندما تلاشى صوت خطواتهما المبتعدة تسلَّل ثيو من القرية سرًّا كما دخلها، وعاد إلى الغابة وظل مختبئًا حتى ساعة متأخرة من اليوم، وسرَّه أن يرى مطارديه عائدين إلى ديارهم دون أن يتمكنوا من الإمساك به. وبعد عدة أيام، تمكن من الوصول إلى هانسي في حالة مزرية، واتجه لقصر صديق آخر لعائلة ميتكالف، وهنا كان حظه أفضل مما كان عليه في جهاجار!

كان أليك سكينر هو الابن الباقي على قيد الحياة للعقيد جيمس سكينر، وأكبر إخوة إليزابيث واجنتريبر الكثيرين. كان منزل آل سكينر الكبير والمبني على الطراز الجورجي في هانسي هو القصر الذي بناه والدها مقرَّ حكمه للبلد، وفي الأيام السعيدة بالماضي، كان سكينر المعروف باسم «إسكندر صاحب» يدير من هنا كل من فوج فرسانه غير النظامي، وتدريب الخيول. لكن في هذا الوقت، لم يقضِ ثيو في القصر أكثر من ليلة واحدة فقط. كانت الانتفاضة لم تصل بعد إلى هانسي على الرغم من توتر الأجواء والإحساس الوشيك بحدوث المشكلات، لكن ثيو لم يتمكن من الراحة خاصةً بعد سماعه أن الجنرال أنسون في طريقه إلى كارنال، استعار حصانًا وانطلق في الفجر راكبًا دون توقف حتى وصل إلى المخيم البريطاني. ووصلت له أخبار في اليوم التالي أن الثورة اندلعت في هانسي بعد مغادرته بعدة ساعات، وبالكاد تمكن مضيفه سكينر من الهرب بوالدته المسلمة العجوز المسنة على ظهر جمل فارين عبر الصحراء إلى بيكانير.

كان ثيو منهكًا متعبًا مما مر به؛ وكانت أعصابه متوترة إلى حد الانهيار. طالما اعتبر السير توماس ثيو غير مستقرٍّ وخفيف الأعصاب؛ وما تبع ذلك كان إثباتًا

لصحة رأيه؛ إذ اشمأزَّ ثيو مما حدث له أو رآه، حتى إن أصدقاءه وزملاءه قد صرَّحوا بأن الغضب والعصبية والنظرة الزائغة التي ارتسمت على ملامحه عندما وصل إلى كارنال لم تتركه قط حتى نهاية الانتفاضة.. ونتيجةً لهذا، كان شرهًا للانتقام والتأكد أن مَن رفضوا مساعدته، أو ساهموا في قتل أصدقائه أو أسرته، سيتم شنقهم وعقابهم، سواء أحَسْب القانون أم خارجه. مثلما وصفه صديقه تشارلز سوندرز في وقت لاحق: «لقد كان ميتكالف مجنونًا بالانتقام من المسلمين، بدا وكأنه لديه عداء شخصي بسبب ما عانى منه ممن كان يظن أنهم أصدقاؤه..».

في صباح اليوم التالي كتب ثيو إلى سكرتير نائب الحاكم في أجرا: «سيدي المحترم، يشرفني أن أبلغكم بأنني وصلت إلى كارنال عبر هانسي، من دلهي، وعلى الرغم من أن صحتي ليست بأفضل حالاتها، إلا إنني أكتب لأتوسَّل لكم للسماح لي بمرافقة القوات والقائد العام إلى دلهي بصفة رسمية. فلِثِقتي بمعلوماتي عن دلهي وما حولها، إذ عشت في دلهي ثماني سنوات، أشعر بأنني سأكون ذو فائدة للحكومة في هذه المرحلة الطارئة الكبرى.

خادمك المطيع

ث. ميتكالف»

تمت الموافقة على طلب ثيو؛ ولكن كما أظهرت الأحداث اللاحقة، ربما كان من الأفضل للجميع لو أن طلبه قد رُفِض!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن ثيو هو الوحيد الذي استمر في التنقل من مكان إلى آخر، ففي جميع أنحاء هندوستان كانوا جميعًا يتنقَّلون من مكان إلى آخر، حتى لو لم يكونوا بريطانيين، فعلى أثر ثيوفيلوس قام الناقد الأدبي الكاتب باللغة الأوردية هالي، بالانطلاق في الطريق نفسه، بعد يومين من خروج ثيو.. فبعد أن تُتُبِّعَ من قبل عائلته الرافضة لدراسته في مدرسة حسين بخش الواسعة والجميلة، وأعادوه قسرًا إلى بانيبات الواقعة في جنوب كارنال على طريق جراند ترانك. وبعد عام من عودته، أي عام ١٨٥٦ أنجبت زوجته رضيعًا جعلت هالي يدرك أهمية الحصول على عمل ثابت، فذهب بمفرد إلى مركز «هيسار»، على بعد أميال قليلة من منزل سكينر في هانسي، وعلى الرغم من فقر صلاته بالمكان، فقد حصل على الوظيفة في مكتب نائب جامع الضرائب، وكان لا يزال يعمل هناك عندما اندلعت الانتفاضة. وبعد قيام مجموعة من قوات السيبويين المتمردة - بقيادة الجاسوس البريطاني مستقبلًا اللواء جوري شنكار صقل - بقتل محصل الضرائب وانطلقوا بعد سرقة الخزينة للانضمام إلى جيش ظفر في دلهي، فلم يكن لديه أي خيار سوى الهرب وهو

يعرف أنه يخاطر بحياته عائدًا إلى بانيبات. انطلق بحصانه الذي لم يكد يخرج به، حتى تربصت به قبائل الغجر على الطريق وهجموا عليه سارقين عتاده وحصانه، وكان عليه أن يسير بقية الطريق متسوِّلًا للحصول على الطعام حتى وصل إلى المنزل في حالة صحية شديدة السوء، وعلى الرغم من معالجتها من قِبَل طبيب شهير، فقد ظلَّ مريضًا لأكثر من عام، وعانى لبقية حياته من ضعف في المعدة والصدر والرئتين..

عانى حزب إدوارد فيبارت بالقدر نفسه من السوء، بعد هروبهم من بيت ميتكالف قبل أقل من ساعة من تعرضه للهجوم والحرق، تجولوا هنا وهناك في محاولة للعثور على مكان لعبور قناة يامونا العميقة، ولسوء حظهم أدركوا أن الطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي العودة للخلف والعبور أسفل المعسكرات. وفي الساعات التي أعقبت حلول الظلام، كان هذا هو المكان الأخطر في دلهي؛ حيث تجمَّع المتمردون السيبويون هناك للتنفيس عن غضبهم على الشركة عن طريق نهب وتدمير وحرق كل المنازل البريطانية. كما يذكر فيبارت في مذكراته: «بقلوب تعصف بالقلق، تسلَّلنا عبر ضفاف النهر، واقتربنا تدريجيًّا من المعسكرات المشتعلة؛ ولكن على الرغم من عدد اللصوص الضخم والذين كانوا واضحين للعيان وهم يقومون بنهب المنازل المجاورة، مررنا دون أن نُلاحظ، وما أثار راحتنا لدرجة لا توصف أننا وجدنا الممر الذي كنا نبحث عنه خاليًا تمامًا. ففي الحال استعددنا للسير، على أمل قطع نحو ثلاثة أو أربعة أميال بعيدًا عن المعسكرات قبل شروق الشمس. لكن لم يكن الأمر بهذه السهولة، خاصة مع وجود السيدات، لأن الماء كان أعمق بكثير مما توقعنا، كنت في مقدمة المجموعة، حين بدأ الماء يصل إلى صدري.»

انتقلوا على ضوء القمر الشاحب للسير في أرض مليئة بالأشواك التي لم تكن السيدات معتادات على السير فيها، فأصيبت أقدامهن بكثير من التقرحات والنزيف. لكن ما كان أكثر إثارة للقلق هو أن السيد فورست بدأ التصرُّف بشكل غريب بعد صدمته الشديدة بانفجار مقر مخزن الذخيرة في وقت سابق من اليوم؛ أحيانًا كان يتخلف كثيرًا عن الرَّكْب، وأحيانًا كان يختفي كليًّا. بحلول الفجر، لم يكن اللاجئون قد ابتعدوا لأكثر من ثلاثة أميال عن المعسكرات، وأصبحوا يدركون بشكل متزايد أن الأسلحة الوحيدة المتبقية لديهم كانت سيفين قديمين للجنود ومسدسًا عتيقًا. بعد أن شقّوا طريقهم في غابة من الشجيرات الكثيفة، استلقوا جميعًا فوق الحشائش، وهم في أشد التعب، كتب فيبارت: «بدأت أشعر بالنعاس، وكنت على وشك الخلود للنوم، عندما لكزني شخص ما في ذراعي فجأة، صارخًا بأن السيبويين قد لحقوا بنا! وأنهم على بُعد أقل من مائة ياردة، ويتحركون نحونا مباشرة.. رأينا حوالي ثمانية أو عشرة من السيبويين ومتمردي ميروِت، وكان اثنان منهم راكبين

على خيولهم، وتحت ضوء الفجر بالكاد أدركنا أن جميعهم مسلحون، بالرغم من أن نصفهم فقط من كانوا يرتدون الزي العسكري. كانوا يتحركون نحو دلهي، ويسيرون في اتجاهنا مباشرة فحاولنا الاختباء وسط الأدغال بقدر استطاعتنا، وراقبنا اقترابهم منا بقلق وأنفاس مكتومة. الآن يمرون ببطء في صف منتظم على بعد بضعة أقدام منا.. ثم فجأة انحنى واحد منهم والتقط شيئًا ما من على الأرض وأشار إلى رفاقه فتوقفوا جميعًا فجأة، فمع الأسف قد وجدوا زجاجة الماء الخاصة بنا والتي في غمرة ارتباكنا وعجَلَتِنا تركناها ملقاة على الأرض، خيم صمت تامٌّ، لم يقطعه سوى الهمس المنخفض بين السيبويين، قمت برفع بندقيتي وتعبئتها بشكل دفاعي لا إرادي، لكن بعد فترة وجيزة رأيناهم يتحركون بصمت..

لكن خلال الأيام التالية، تخلى الحظ عنهم، وهاموا على وجوههم في الصحراء، بدون طعام أو نقود، تحرقهم الشمس ويأملون أن يكون هذا الطريق هو الطريق الصحيح إلى ميروت.. ورأوا فورست وهو يفقد عقله تدريجيًّا، ويختبئ في الأدغال ويرفض اتباعهم.. قائلًا إنه يشعر بالإرهاق تمامًا من كل ما مر به لدرجة أنه يفضل أن يُترك هنا ليموت بسلام حيث هو.

بعد يومين، تقابلوا مع مجموعة مشردة من الهاربين من دلهي بقيادة الكولونيل «كينفيت»، قائد فيبارت، فارتفع عدد المجموعة إلى سبعة عشر فردًا. ومع ذلك، فقد أحاط بهم بعدها بوقت قصير مجموعة من الرجال الشرسين، المسلحين بالحراب والهراوات. كانوا مجموعة من قبائل الغجر اللعينة تحيطهم من كل الاتجاهات، يطلقون صيحة مخيفة وهم يندفعون نحوهم، تقهقر الإنجليز إلى الوراء وحاول بعضهم ضربهم لكن عبثًا؛ إذ كان الغجر يفوقونهم عددًا بشدة، وسرعان ما تمت هزيمتهم. «أمسك أحد الأوغاد بسيفي وحاول انتزاعه من يدي، وفي أثناء مقاومتي فاجأتني ضربة من الخلف في ظهري، وفي خضم هذه المشاجرة رأيت العقيد «كينفيت» يضبط البندقية فيصوبها نحو أحد المعتدين، لكن لحسن الحظ انطلقت صرخة من أحدهم بألا يطلق النار، فأنزل بندقيته. تركناهم بعدها ينزعون عنّا أسلحتنا، فلو كنا قد واصلنا النضال لكانوا أبادونا جميعًا بلا شك. بعد أن سيطروا علينا جردونا من كل شيء؛ من الأزرار والخواتم، والساعات وما إلى ذلك، لم يتركوا علينا أو على النساء سوى ملابسنا الداخلية بعد أن مزقوا الملابس العلوية، ثم بدأوا تقاسم الغنائم بينهم..»

ثلاثة أيام أخرى من التجوال وهم في أشد العطش، بعد أن اختفى فورست مرة أخرى ثم عُثِر عليه، حاصرتهم فرقة ثانية من الغجر، لكن «لم يجدوا شيئًا يسرقونه منا، واكتفوا بسحب الأزرار الذهبية الموجودة على معطف العقيد، والتي كان الأوغاد الآخرون قد أغفلوا عنها، ثم سمحوا لنا بالمرور.» ثم وصلت

المساعدة أخيرًا بعد أسبوع كامل من فرار المجموعة من دلهي، لكنها أتت من شخص غير متوقع على الإطلاق.. كان فرانز جوتليب كوهين، والذي كتب مجموعة من الأعمال الشعرية «بالفارسية والأوردية تحت الاسم المستعار فاراسو»، كان أحد آخر المغول البيض، البالغ من العمر ثمانين عامًا، وينتمي لعصر مختلف تمامًا. كان جوتليب ابنًا لجندي ألماني يهودي ثري، تزوج من أميرة مغولية، ووُلد فاراسو في عام ١٧٧٧، عندما كان والده في خدمة السيدة الغامضة سومرو. رأست البيجوم سومرو واحدة من أروع البلاطات المختلطة في الهند. قيل إنها كانت في الأصل راقصة من كشمير، وتدعى «فرزانا زيب أون نيسا»، من مواليد ١٧٥١، وبدأ صعودها السريع عندما أصبحت محظية المرتزق الألماني والتر رينهارت، المعروف باسم «سومبر» (وبالهندي «سومرو»).

عندما منح الإمبراطور المغولي راينهاردت عقارًا كبيرًا بشمال دلهي، اصطحب معه محظيته المسلمة وجعل من قرية سردانا عاصمة لهم، وحكم فئة من نبلاء المغول، ومجموعة من أكثر من مائتين شخص من المرتزقة الفرنسيين ومن أوروبا الوسطى، وكثير منهم على ما يبدو اعتنقوا الإسلام.. وكان من بين هؤلاء المرتزقة والد فاراسو، والمدعو جون أوغسطس جوتليب كوهين. بعد وفاة سومبر، حكمت محظيته المسلمة بدلًا عنه، أحيانًا من ساردانا، وأحيانًا من قصرها الكبير في دلهي أيضًا، لكن في تشاندني تشوك. وبعدما حولت دينها إلى الكاثوليكية المسيحية - مع الاستمرار في تغطية رأسها بالطريقة الإسلامية - ناشدت البابا مباشرة لإرسال قسيس لبلاطها. بحلول الوقت الذي وصل فيه الأب إلى سردانا، كانت البيجوم قد بدأت بالفعل بناء أكبر كاتدرائية في شمال الهند، بأسلوب هو مزيج من الزخارف الباروكية والمغولية، مع قبة كلاسيكية رائعة تتصاعد من حنيات مغولية مزينة بالمرقانة الفارسية المزخرفة على شكل قرص العسل. كما أشارت هندسة كاتدرائيتها، لم تكن البيجوم شخصية متشددة دينيًّا، فكما احتُفِل باحتفالات عيد الميلاد التي استمرت لثلاثة أيام في سردانا بقُدَّاس كبير، كان يُعرض في اليومين التاليين كثير من الاستعراضات وعروض للألعاب النارية. وكانت هذه فرصة لشعراء سردانا، ومنهم فاراسو، لإلقاء قصائدهم الأوردية. تم أيضًا الاحتفال بالأعياد الهندوسية كـدوسيرا وديوالي بحماسة مشابهة؛ بالإضافة إلى أن البيجوم انخرطت أيضًا في السحر؛ إذ تحتوي مذكرات وريثها «ديفيد أوكتيلروني دايس سومبر» على عدة إشارات إلى قيام البيجوم بتوظيف النساء لإلقاء التعاويذ وطرد الأرواح الشريرة.

أصبح ثلاثة من الضباط المرتزقة الأوروبيين لديها شعراء أوردو شهيرين، ومن أشهرهم فاراسو. حتى إنه تم تضمينه في قائمة أبرز الشعراء الهنود التي وضعها مدير كلية دلهي. وبحسب النقش الفارسي على قبر فاراِسو، «كان

في خدمة صاحبة السمو لمدة ٥٠ عامًا، وعمل آخر ٣٢ عامًا محصلًا للضرائب في بلدة «بودانا»..» وبعد أن استولى البريطانيون على ملكية البيجوم بعد وفاتها، استمر فاراسو، الذي صار رجلًا كبيرًا، في العمل بتحصيل الضرائب تحت حكم البريطانيين، واستقر في منزل بقرية هارتشاندبور. ومن هناك أرسل المنقذين ومجموعات البحث بمجرد أن وصلت له الأخبار عن وجود لاجئين بريطانيين نصف عراة يتجولون في ممتلكاته يتضورون جوعًا وعطشًا.

كتب فيبارت: «عندما وصل رسول من قرية هارتشاندبور، قائلًا إن رئيسه السيد كوهين قد سمع عن يأسنا ومحنتنا، فأرسله ليعبِّر عن تعاطفه مع وضعنا، ويطلب منا البقاء عنده.. شعرنا بسعادة غامرة بشكل غير طبيعي! عند الوصول إلى هناك بين الساعة السابعة والثامنة صباحًا، رحب بنا الرجل الشيخ وحفيديه بوُدٍّ. يبدو أنهم يمتلكون عدة أراض في الأرجاء، يدفعون مبلغًا معينًا مقابلها للحكومة سنويًا. عاش الرجل الشيخ نفسه هنا طيلة حياته منذ فترة طويلة في الواقع لدرجة أنه كاد أن ينسى لغته الخاصة، وأصبحت عاداته هي عادات السكان؛ لكنَّ حفيديه كانا مختلفين إلى حد ما في هذا الصدد، فكانوا يرتدون الأزياء الأوروبية. سرعان ما انتعشنا بكأس الشاي الساخن، وبعد ذلك أُحضِرت ملابس نظيفة لنا، وشرعنا في تجريد أنفسنا من الأسمال البالية القذرة التي كنا نرتديها، واستمتعنا بحمام رائع من الصابون والماء. خُصِّصت غرفة لسيدات المجموعة، وتمكَّنَّ أيضًا من تغيير أسمالهم لملابس نظيفة، وبالفعل بديْنَ بالِغات الأناقة في زيِّهن الجديد عندما انضممن إلينا على مائدة الإفطار في صباح اليوم التالي، لدرجة أننا بالكاد أمكننا التعرف إليهن، فقد بديْن مختلفات بالكامل عن المخلوقات اليائسة اللاتي كنَّ معنا بالأمس.. أما بالنسبة لـ«فورست» فقد أغلق على نفسه غرفة واستمتع بتدخين النرجيلة العشبية العطرة، وفي الرابعة عصرًا، قُدِّمت وليمة فاخرة ووفيرة أمامنا.. ولدهشتنا حين رفع العشاء، قُدِّمت عدة زجاجات من البيرة وزجاجة كونياك ممتازة..» بعد ذلك بوقت قصير، استدعى فاراسو فريق إنقاذ ومجموعة من سلاح الفرسان من ميروت لمرافقتهم، وبعد مرور ثمانية أيام من اليأس منذ فرار المجموعة من دلهي، أخيرًا، صار جميع اللاجئين السبعة عشر بأمان داخل ملجأ المعسكر البريطاني المحصن بشدة في ميروت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثمانية أيام، مساء يوم ٢٧ مايو، جمع الجنرال ويلسون أخيرًا، ما يكفي من القوات لترك ميروت ومطاردة المتمردين. بلغ عدد قواته ٢٠٠٠ فقط من المشاة، وخمسين من سلاح الفرسان، وست بنادق؛ كانت وجهتهم هي «آليبور»، على بعد ٨ أميال شمال دلهي، حيث كان من المفترض أن يلتقي بالقوة الميدانية الرئيسة المتجهة جنوبًا من أمبالا. قبل أن يغادر، كتب ويلسون - وهو رجل نبيل وأنيق في الستين - بثقة لزوجه، التي كانت في

محطة تل موسوري، كتب: «المتمردون لا يظهرون أيَّة رغبة في المجيء ومهاجمتنا.» ثبت أن الجنرال ويلسون كان مخطئًا تمامًا في تقدير الموقف، كما كان مخطئًا في عديد من الأشياء الأخرى، فقد كان ظفر في الواقع يحث السيبويين على الهجوم على ميروت بهدف إخراج أكبر عدد ممكن من السيبويين من قصره ومن مدينته، كما كانت لتلك الحملة ميزة إضافية وهي إبعاد حفيد ظفر المزعج، القائد الجديد لسلاح الفرسان، ميرزا أبو بكر، من القلعة الحمراء.

منذ ترقيته لقيادة الثوار قبل أسبوعين، أصبح ميرزا أبو بكر عائقًا كبيرًا؛ تحرر من وضعه السابق كأمير قاصر، وبدأ يتباهى بقواته، وقام بعديد من الاعتداءات في المدينة وحولها. كان ظفر قد أرسله للدفاع عن الضواحي ضد قبائل الغجر، فقام هو نفسه بنهب كل من ضاحية «سابزي ماندي»، والمنطقة المحيطة «سفدارجانج» وجورجاون.. وأحرق المنطقة كلها بعدما نهبها. بعد ذلك بقليل قاد رحلة استكشافية إلى «روهتاك» مع مير نواب «زعيم ثوار المدينة»، حيث، بحسب أحد الشهود العيان، قاما بنهب المدينة وحرقها، وأساءا معاملة الذكور، وأثاروا حفيظة النساء. قام مير نواب بخطف ثلاث فتيات هندوسيات من عائلات ثرية، محملات بمجوهرات باهظة الثمن. ثم عاد ميرزا أبو بكر وجيشه من المجرمين إلى دلهي، حاملين معهم خزائن الدولة، ويرافقهم الحراس السيبويين الخائنين.. منذ ذلك الحين، قام هو وزعيم الثورة بتسلية نفسيهما بمهاجمة قصر زعيم الجالية الشيعية في دلهي، المدعو حامد علي خان، وأحضرا المدافع لتفجير المنزل بحجة [لا أساس لها من الصحة] أنه متعاون مع الإنجليز. غضب ظفر عندما تلقى رسالة استغاثة من حامد علي خان، وطالب بوقف الاعتداء على الفور. ولكن عندما أمر ظفر الفرسان بعدم الانصياع لأوامر أبي بكر رفضوا، مجيبين إياه: «هو رئيسنا، فلماذا لا نطيع أوامره؟».

تم إيقاف أبي بكر عن قيادة سلاح الفرسان لفترة وجيزة، لكنه تجاهل الأمر تمامًا، فلمَّا سمع ظفر أن ميرزا أبا بكر ينتوي الآن قيادة حملة ضد البريطانيين في ميروت، كان سعيدًا جدًا للسماح له بذلك، وأمره «بالذهاب مع قواته نحو ميروت حيث يوجد مدفع إنجليزي يجب أن يسيطر عليه ويسلمه في أسرع وقت ممكن..».

في الواقع، كان قد تم التحريض على القيام بحملة إلى ميروت أكثر من مرة من قِبَل الشيخ محمد باقر في جريدة «أخبار دلهي بالأوردية»، ومؤخرًا بدا كثير الشكوى من التأخيرات غير الضرورية في القيام بالحملة، كتب في ٣١ مايو: «هناك أخبار كل يوم تفيد بأن القوات على وشك المغادرة إلى ميروت، لكن لا يبدو أنه سيحدث أبدًا! من الحكمة ألَّا تتأخر قواتنا في الاستيلاء على

ميروت وكارنال، ولن يتمكن المسيحيون من النجاح دون إرادة الله، كان قائد الثورة العظيم ميرزا أبو بكر حريصًا جدًّا على قيادة مثل هذه الحملة وقد طلب من جلالة الملك أن يأخذ عددًا كبير من القوات ليسوي الأمر بسرعة قبل فوات الأوان».

تبع ذلك تأخير أخير عندما أصر السيبيويون على مرافقة ظفر لهم في القتال، قائلين: «حتى ترانا ونحن نقاتل من أجلك!» أجاب الملك بأنه مُسِن عاجز، لا يمكنه التحرك إلا بصعوبة، وكان كذلك غير قادر على الذهاب لساحة صلاة العيد حتى في يوم العيد، على الرغم من أنها كانت قريبة خارج أسوار المدينة. ولم يشهد هو أو أسلافه طيلة مائة عام أيَّة معركة، مضيفًا: «لا أعرف شيئًا عن التكتيكات العسكرية، لكنكم أنتم تعرفونها» أجابه الضباط أنه إذا لم يتمكن من الذهاب بنفسه فعليه إرسال أحد أبنائه! في النهاية، قبل يومين من مغادرة ويلسون لميروت، في يوم ٢٥ مايو، وبسبب ضغط من الملك، غادرت قوة كبيرة من السيبويين، مدعومة بمدفعية ميدانية وخيول تحت قيادة ميرزا أبو بكر، غادروا دلهي في محاولة للاستيلاء على ميروت، لم يكن لدى أي من الجانبين أيَّة فكرة أن جيشًا معاديًا كان يتقدم نحوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مسيرة ويلسون من ميروت فوضوية مثل مسيرة أنسون من شيملا، لم يعثروا على أيِّ جمال تحملهم، وباعتمادهم على الثيران الريفية التي لم تكن مناسبة لنقل الجيش، اعترف ويلسون لزوجته في ٢٨ مايو: «كانت المسيرة الأولى عبارة عن فوضى رهيبة وشديدة الارتباك، ولكنني آمل أن تتغير الأمور إلى الأفضل الليلة، المشكلة أن العربات مزعجة للغاية وغير ملائمة للحرب!» لم يذكر ويلسون لزوجته شيئًا عن العمليات الوحشية الانتقامية من السكان المحليين الذين كانوا تعساء الحظ بما يكفي ليعترضوا طريق قواته.. حتى الشرطي المساند للإنجليز، والمدعو سعيد مبارك شاه صرح أن: «مع تقدم القوات البريطانية، مارست تلك الأخيرة كثيرًا من العنف، وتم سرقة مئات المسافرين الأبرياء وقتلهم، وكذلك قُتل كثير من اللصوص!» التقت قوتا الحملتين المتنافستين أخيرًا، لدهشة كليهما الكبرى، عند الجسر المعلق الفولاذي الجديد الذي شيَّده البريطانيون فوق نهر هندان، في الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم ٣٠ مايو. انتهى الاشتباك القصير الأول بعبور البريطانيين الجسر، ودفْع السيبويين للخلف مع إصابات طفيفة فقط؛ لكن عاد المتمردون في اليوم التالي، في الساعة الواحدة بعد الظهر، من أجل قتال أكثر شراسة.

حسب أقوال معين الدين: «بدأت المعركة، باشتباك المدفعية.. صعد ميرزا أبو بكر على سقف منزل بالقرب من الجسر الذي يقطع نهر هندان، وراقب

المعركة عن بعد، وبين الحين والآخر كان يرسل لقواته لإخبارهم عن الدمار الذي أحدثته نيرانهم بالقوات الإنجليزية.. وضع بالقرب من الجسر دبابة تمكن بها من تبادل إطلاق النار مع الإنجليز، لاحقًا، انفجرت قذيفة بالقرب من الدبابة، غطت سلاح المدفعية بالغبار، واختبر معها ميرزا أبو بكر لأول مرة آثار انفجار قذيفة، نزل على عجل من فوق سقف المنزل، وامتطى حصانه، وركض برفقة مرافقيه من الثوار بعيدًا عن المكان، متجاهلًا صرخات قواته، ثم تلاه تقهقهر عام. عندما وصل خبر هزيمة القوات إلى دلهي، صدرت أوامر بإغلاق البوابات وعدم استقبال السيبويين العائدين، وعندما وصل هؤلاء وجدوا جسر القوارب في يامونا محطمًا، وعلى الرغم من ذلك حاولوا العبور، فانهار الجسر، وغرق نحو مائتين.».

على الرغم من فوز ويلسون بانتصار مهم ورمزي، إلا أن مدفعية السيبويين كانت أكثر فاعلية مما كان متوقعًا، وكان عدد الضحايا البريطانيين ضخمًا؛ في الواقع، لقد أوقفت تقدم ويلسون تقريبًا.. كتب في ذلك المساء لزوجه: «كانت خسارتي فادحة، وبوجود قوة صغيرة مثل تلك التي معي، فإن هزيمة أخرى من هذا القبيل ستبيدنا تمامًا». هو نفسه كاد أن يلقى حتفه مرتين تقريبًا لكنه نجا بأعجوبة دون أن يصاب بأذى.. علاوة على ذلك، لم يكن هناك حتى الآن أي مؤشر على ظهور قوة دلهي الميدانية التابعة للجنرال بارنارد. وسلاح الفرسان الذي كانت مناوراته السريعة هي المفتاح للانتصار البريطاني، قد نفدت ذخيرته تمامًا.. وكتب ويلسون بقلق في الأول من يونيو: «لم يعد معي غير قوة صغيرة لمواجهة كل قوة المتمردين». لفترة وجيزة فكر في التراجع إلى ميروت، ولكن في اليوم التالي تم تعزيزه بشكل غير متوقع من قبل فوج سيرمور ومجموعة من خبراء المتفجرات الذين أتوا من ديهرا دون، والذين كانوا يبحثون أيضًا عن الجنرال بارنارد. كتب العقيد ريد، قائد فوج سيرمور: «لقد وجدت العميد ويلسون في وضع صعب، ويخشى هجومًا آخر.. لقد ابتهج بانضمامي إليه وقد فوجئ تمامًا بوجودي». في غضون ذلك، وبتَرَدُّد ويلسون، فَقَد الإنجليز بهجة الانتصار على السيبويين فوق جسر هندان. أشار معين الدين إلى أن السيبويين كانوا يشتبكون الآن مع الإنجليز في الميدان المفتوح. وعلى الرغم من أنهم كانوا متأكدين من النجاح، فبسبب التغلب عليهم مرة شعروا بتخوف شديد من المستقبل، لكن مع تراجع قوة الإنجليز وترددهم بدأ السيبويون يحاربون بضراوة وينسون خوفهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت أحد أهم الأسباب التي أدت إلى تأخر قوات برنارد عن موعد اللقاء مع قوات ويلسون، هو عدد الهنود الذين ذبحوهم بينما هم يمرون عبر طريق جراند ترانك.. كتب أحد الضباط إلى شقيقه من المسيرة: «لا يتساوى في نظري الرجل الأبيض مع أولئك الزنوج، فلو تعاملت برحمة مع هؤلاء

الوحشيين القاسيين، ستكون جبانًا في نظرهم لأنك لا تدافع بضراوة عن مبادئك وقضيتك الخاصة.». في الليلة التي سبقت لقاء القوة الميدانية مع ويلسون، وقع حادثٌ دمويٌّ بعدما عثر رجل من فرقة حاملي الرماح التاسعة تحت جسر مجرى مائي جاف صغير على قدم طفل بريطاني صغير داخل حذائه، مقطوعة من عند مفصل الكاحل!

كان ريتشارد بارتر، وهو ملازم أول في التاسعة والعشرين في فرقة جوردون هايلاندرز الخامسة والسبعين، نائمًا في خيمته عندما تم إحضار القدم في ذروة حرارة النهار، حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. بعدها مباشرة ارتفعت أصوات جدال مثل أصوات خلية نحل ضخمة مضطربة، وفي فترة زمنية قصيرة للغاية نشب حريقٌ في كل القرى القريبة من خط سيرهم، كما أُعدِم تسعة قرويين وعلقوهم في شجرة كبيرة على جانب الطريق.. اتضح فيما بعد أن ثيو ميتكالف، كان أحد قادة عصابات الإعدام خارج نطاق القانون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالنسبة لكثيرين في القوة الميدانية، فإن التقارير عن الفظائع التي ارتكبها متمردو السيبويين - كانت معظمها إشاعات لم تحدث شملت عمليات اغتصاب جماعي لم تثبت صحتها - كانت تؤكد أفكارهم المسبقة وآراءهم في السكان المحليين. بالنسبة لروبرت دانلوب، وهو مدني أسكتلندي تطوع للانضمام إلى وحدة سلاح الفرسان غير النظامية المعروفة باسم «الإرسالية الكاكية»، فإن ذبح النساء والأطفال الأبرياء والضعفاء البريطانيين في دلهي وميروت أثبت له ما كان يؤمن به منذ فترة طويلة عن قسوة السكان المحليين ودناءتهم وغدرهم، يأتي كثيرٌ من البريطانيين إلى هنا محمَّلون بالآمال والأمنيات ويطمحون لمنح السكان الامتيازات والرفاهية، لكن التعايش معهم والخبرة تمنحهم اقتناعًا قويًّا عن مدى انحطاطهم.. وهو ما كان من اللازم الرد عليه بقسوة مثلها. امرأة واحدة وقفت ضد هذه المواقف العنصرية، وكانت هارييت تايتلر؛ بعد الهروب من دلهي، قامت هي وزوجها بالذهاب إلى أمبالا، حيث تمكن روبرت - الذي فقَدَ عمله بعد تفكك فوجه - من الحصول على منصب جديد في قيادة القوة الميدانية المتولية خزينة الجيش العسكري..

عاد آل تايتلر ببطء عبر الطريق نفسه الذي فروا منه قبل ثلاثة أسابيع بشكل يائس، وشعروا بالرعب من وحشية القوات البريطانية التي رافقتهم. في اليوم نفسه الذي جُلبت قدم الطفل فيه إلى المخيم، شاهدت هارييت - التي شارف حملها على الانتهاء - رجلًا فقيرًا، خبازًا مسلمًا، بملابس بيضاء نظيفة متدليًا من فرع شجرة أكاسيا. «مما تمكننا من جمعه من معلومات، عرفنا أن ذلك المسكين تأخر لعدة أيام في جلب الخبز لإفطار الرجال، لذلك هدد تومي

أتكينز بشنقه إذا حدث ذلك مرة أخرى وهو ما فعلوه بالنهاية! لا أستطيع أن أفهم كيف تمكنوا من القيام بمثل هذا العمل القاسي! من فعلها يستحق الإعدام هو نفسه، لكن أعتقد أنه بسبب قلة عدد الجنود المتاحين، لم يتم عقاب الفاعلين.» تمكن روبرت تايتلر بعد ذلك بقليل من إنقاذ أحد أتباع المعسكر من مصير مماثل: «خارج خيمة زوجي مباشرة، سمعنا صرخة يرثى لها من شيخ فقير يصرخ بالرحمة يا سادة الرحمة، ورأينا بعض الجنود يسحبونه بعيدًا، على ما يبدو لشنقه. أرسلت زوجي وراءهم، ليطلب منهم ترك الرجل الكبير. بمجرد أن وصل إليهم سألهم عما سيفعلونه بهذا الرجل المسكين، فأخبروه أنه ينتوون شنقه بالطبع، لأنه متمرد.. فأخبرهم أنهم مخطئون، لأنه ليس متمردًا، وإنما مجرد سائق عادي. لكنهم أصروا على كونه متمردًا، فأجاب زوجي أنه يفهم أنهم يرغبون ببعض التسلية، فطلب منهم إطلاق سراح الرجل والشاب المسكين والركض خلف كلب كان يتجول بالمكان وشنقه بدلًا من ذلك.. وبالفعل سمحوا للرجل بالذهاب وركضوا وراء كلب، وأعدموه هناك.»

في يوم الأحد السابع من يونيو، قاد الجنرال ويلسون قواته أخيرًا إلى معسكر الجنرال بارنارد الذي نُصِّب حديثًا في أليبور، على بعد ثمانية أميال شمالًا من دلهي. تم تقديم ثيو هناك إلى رئيسه الجديد، هيرفي جريثيد، وهو المفوض السابق في ميروت، والذي كان أكبر ضابط بريطاني مدني في القوة الميدانية.. كتب جريثيد: «يقول ميتكالف إنه جيد بما يكفي للعمل معنا، ومعرفته الجيدة بدلهي ستكون مفيدة جدًّا بالنسبة لي.» وقد عمل الاثنان معًا بشكل جيد، كتب جريثيد بعد ذلك بقليل: «يعجبني ميتكالف كثيرًا، إنه زميل مبهج ومرح للغاية.. لا شيء يضايقه.» هنا أيضًا تلقى ثيو رسالة من أخته جي جي وزوجها إدوارد كامبل؛ تمكن الأخير من الفرار سالمًا، عندما قامت قواته بالتمرد في سيالكوت، وشق طريقه منذ ذلك الحين إلى شيملا، حيث لُمّ شمله مع جي جي، التي كانت حاملًا وقتها، في كونستانتيا بالمنزل الذي كانا قد تزوجا فيه في عام ١٨٥٢. ولكن أُمر إدوارد على الفور تقريبًا بالمغادرة والتقدم إلى الأسفل للانضمام إلى ثيو في قوة دلهي الميدانية.. كتب إلى والدته فور وصوله: «نحن نتابع بقلق تقدم الجيش نحو دلهي، كثيرٌ من الأشياء تعتمد على الطريقة التي يتم التعامل بها مع الأمر.. نحن جميعًا بين يدي الله الآن.».

كما كان ويليام هودسون ورئيس شبكة التجسس رجب علي، في معسكر أليبور التابع للقوة الميدانية، مشغولان بتنسيق التقارير التي تتدفق الآن من الجواسيس في دلهي. كان هودسون محبطًا للغاية بسبب بطء القوة الميدانية في مواجهة السيبويين.. كتب إلى زوجه: «البلاد كلها تعاني من حالة تمرد، في الحقيقة إن مقاطعة أجرا هي الوحيدة في المقاطعات الشمالية الغربية التي

تقع تحت سيطرتنا الآن.. يا له من درس رهيب عن شرور التأخير.. أخشى أنه سوف يمر وقت طويل قبل أن ينتهي هذا، لكن شخصيًّا ليس لدي سبب للتذمر.» عندما خرجت القوة الميدانية من المخيم في الساعة الواحدة صباحًا في الثامن من يونيو، كان هودسون في الصدارة، يستكشف الطريق، وكان هو من قام فيما بعد بجلب أخبارٍ عن خط الجبهة المحصن والذي تمت إقامته حديثًا للمتمردين أمام القوات البريطانية حول قوافل المغول القديمة في بادلي كي سيراي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يضيع ميرزا مغول الوقت بين الهزيمة على جسر هندان ووصول قوة دلهي الميدانية البريطانية إلى أليبور. ضُغِط على فرق الخدمة لإصلاح أسوار دلهي المُهملة، بينما نُصبت دبابات المدفعية في سليمجارا، وعند عديدٍ من المعاقل على أسوار المدينة، وكذلك خارج المدينة على طول تلال أرافالي إلى الشمال الشرقي من المعسكرات البريطانية. كانت الأوامر الصادرة من سكرتارية ميرزا مغول إلى قائد الشرطة مليئة بالإلحاح: «اجمع أكبر عددٍ ممكن من العمال لقيادة الدبابات، بأقصى قدر من السرعة! لا تتأخر! لن أقبل أي أعذار أو كسل من جانبك أو من جانب موظفيك.»، كما وردت وثائق أخرى تطلب الإبل، وعربات الثيران، والسلال لحمل التراب والفئوس والمجارف وحاملات المياه للمساعدة في بناء التعزيزات والخنادق. كان الأمر الأكثر إثارة للإعجاب هو الموقف الدفاعي القوي الذي قام ميرزا مغول بإنشائه في نزل كارافان القديم على طريق جراند ترانك، مما يمنع الدخول إلى دلهي من جهة الشمال، إذ كان مكانًا مثاليًّا للتوقف عنده، مع وجود المستنقعات على كلا الجانبين، تم ترسيخ خط المدفعية بين النزل وتلة صغيرة إلى الغرب، ويمتد الخط الدفاعي على جانبي الطريق فيوفر في الأسلحة ويعد دفاعًا قويًّا للمغول؛ إذ إن أيَّة قوة قادمة من اتجاه أليبور لن يكون أمامها خيار سوى التوجه إلى أسفل الجسر مباشرة ومواجهة المدافع المغولية المحتشدة.

أُرسِلت قوة مشاة كبيرة بقيادة ميرزا خضر سلطان، يعاونه رئيس الخصيان محبوب علي خان، في الساعة السادسة مساءً من اليوم السابع، وتم وضعها بين وخلف الدبابات لانتظار الهجوم البريطاني الوشيك الذي كان متوقعًا في صباح اليوم الثامن. قبل ذهابهم، قام محبوب علي خان بتوزيع الخبز اللذيذ والحلوى على الجنود، وقام قادة السيبويين بتقبيل قدمي الملك وخرجوا للمعركة. انتبه ظهير دهلوي لصوت نفخات البوق، فنظر خارج جدران القلعة الحمراء، وشاهد الجنود وسلاح المدفعية يغادرون المدينة متسائلا عمَّا سيجلبه لهم هذا الصباح. بعد ساعات قليلة، أرسل ميرزا مغول رسالة إلى والده، أكد فيها له أنه لا داعي للقلق. كتب: «السلام على ملك العالم وملجئه.. لا تشغل بال جلالتك بأي خوف من أعدائنا، لقد بقى خادمك الأمينِ - أنا - طيلة اليومين

الماضيين مع القوات، حاضرًا في الخنادق، لا يغفل عن أي شيء. اطمئن، ولا تشغل بالك، لن يقترب أعداؤنا من مملكتك، لقد جلبت معي كل القوات لمواجهة الكفار وقتلهم، المعركة على وشك البدء، وبفضل نعمة الله التي لا تنضب يا صاحب الجلالة، أنتم على وشك أن تشهدوا انتصاركم على جميع الأعداء.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما بدأت القوات البريطانية التقدم في الساعة الواحدة صباحًا، وجد ريتشارد بارتر من فرقة جوردون هايلاندرز الخامسة والسبعين نفسه في خط المواجهة. بعد ثلاث ساعات من المسيرة، أي بعد الساعة الرابعة والثلث صباحًا بقليل، ظهر موقع قوات المتمردين وسط الظلام، مضاءً بنيران شعلة واحدة أشعلها حملة البنادق من السيبويين.. كتب فيما بعد: «ارتفع عمود من الدخان، ومرت قذيفة شقت طريقها من خلال بعض الأشجار على يمين الطريق. تم إعطاء الأمر إلى الفرقة الخامسة والسبعين للتقدم والتعامل إلى اليمين.. بينما نحن نتحرك تنفيذًا للأمر، انطلقت طلقة أخرى من العدو وأصابت حصان مترجمنا «جرانت» في صدره، لتمر بسلاسة عبر جسده وتخرج من الذيل، مما أدي إلى سقوط راكبه بشكل سيء ولكن دون إصابة. بعد هذا ارتفعت صرخة على يساري بالقرب من مكان مقتل حصان جرانت ورأيت أول جريح لدينا يسقط بالخلف، وقد جُرح ذراعه برصاصة. ثم فجأة هجموا علينا بشكل كثيف وسريع، كنا نقف أمام الدبابات مباشرة وكان من السهل عليهم إطلاق النار نحونا، فأمرنا الجنرال بالاستلقاء أرضًا، بينما اتخذت الأفواج الأخرى مواقعها. لم أشعر بالأسف وأنا أترجل عن جوادي، وانكمشت على نفسي بقدر ما أستطيع، بينما أخذت الطلقات تصدح فوق رءوسنا بشكل غريب لا يُنسى أبدًا. بعد بضع دقائق جاء الأمر: «بتقدم الـفوج الخامس والسبعين ليستولي على دبابة» على الفور كان الطابور قد اصطف، وسرعان ما كان زملاؤنا يسقطون، إذ كانت طلقات العدو تصيب أي هدف محتمل.

أتذكر طلقة واحدة على وجه الخصوص خلعت رأس رجل، أو للدقة، نسفتها بالكامل لتطير الأشلاء وتغطي الرقيب «والش» بالدم وشظايا الدماغ حتى مر عليه بعض الوقت قبل أن يتمكن من الرؤية مرة أخرى. سرعان ما وصلت قوات بارتر إلى مسافة مائة وخمسين ياردة من دبابات السيبويين، وتمكنوا من رؤية فرقة مشاة السيبويين في صف راقدين أرضًا، ويطلقون النار على القوات البريطانية المتقدمة. تم إحداث ثُغرات في خطوطنا المختلفة، لكنها سرعان ما انغلقت في اللحظة التالية، وواصلنا التقدم؛ رأيت قذيفة شظية تنفجر في وجوه أحد أفراد قواتنا في الجناح الأيمن، لتصنع فجوة واسعة، واضطر الرجال القريبون منها للابتعاد قسرًا. ناداهم بارتر بألا يتقهقروا، لكنهم أجابوه على الفور بألا يخف وأنهم لن يهربوا، وسرعان ما سدُّوا الفجوة التي

أحدثها رفاقهم الذين سقطوا. حان الوقت لإنهاء كل هذا وتم إصدار الأمر بالاستعداد للتحرك، في البداية تقدم صف طويل من حملة الحراب، وأطلقوا صرخة انتقامية زلزلت الأرض من حولهم وهم يرمون السهام، كان العدو يترقب تحركاتنا وقد صوبوا حرابهم ناحيتنا أيضًا، وتقدموا نحونا في ثبات، لكن عندما ارتفع صراخ قواتنا البريطانية لم يتحملوه، فتذبذبت خطاهم وتعثرت. بدأ كثيرون إطلاق النار لكنهم لم يوَفَّقوا في الإصابة بشكل صحيح، وفي النهاية، بينما كنا نغلق صفوفنا عليهم، استداروا هاربين بحياتهم الثمينة، وتلتهم صيحة ساخرة من زملائنا. في ثلاث دقائق وقفت الفرقة الخامسة والسبعون حابسة الأنفاس، ولكن منتصرة، داخل دبابة العدو، يستولون على البنادق الثقيلة فيها، واستولينا على عدد من الأسلحة الميدانية والذخيرة»

كان هذا الاستيلاء على بنادق المتمردين الميدانية لحظة استراتيجية حاسمة بالنسبة للبريطانيين، فتُرِكت قوات السيبويين إلى حد كبير دون أي دعم في الأسلحة لبقية الحصار. بحلول الساعة الثامنة صباحًا كان كل شيء قد انتهى. وكان أول من فرَّ من جانب المتمردين هو ميرزا خزر سلطان، في البداية كان قد وضع نفسه في طليعة الأحداث، وارتدى غطاء رأس لامعًا للغاية يتألق في ضوء الشمس، ولكن بمجرد أن سقطت القذيفة البريطانية على يمين الأمير حتى ابتعد بحجة فصل مستودعات الذخيرة عن موقع الأحداث.. حاول محبوب علي خان منعه من الهروب لكن دون جدوى، وبعد ذلك «لم يكن هناك شيء يمكن أن يبقِي السيبويين في ساحة المعركة، فتدفقوا إلى المدينة بسرعة عبر بوابات كشمير ولاهور وكابول، تاركين البوابات مفتوحة خلفهم.» وفقًا لسعيد مبارك شاه، «قُتِلت أعداد هائلة من المتمردين والخيول والمشاة والمدفعية، وجُرح مزيدٌ في ذلك اليوم، وتناثر عشرات القتلى في ساحة المعركة، لكن معظم الجرحى تمكنوا من العودة إلى المدينة، إما اعتمادًا على أنفسهم، وإما بمساعدة أصدقائهم..». بالنسبة لبعض البريطانيين، كان ذلك بمثابة انتصار له مزيَّاته وعيوبه؛ إذ لم تكن المشكلة الوحيدة أنهم عانوا من خسائر فادحة أكثر مما توقعوا، بل وأكثر مما تستطيع قوتهم الصغيرة أن تتحمل فقط؛ بل الأسوأ من ذلك هو أنه كان هناك من بين القتلى بعض السيبويين الذين عرفوهم وصادقوهم. كان هذا صحيحًا بشكل خاص بالنسبة لضباط فرقة المشاة الأصلية الثامنة والثلاثين، التي كانت تتمركز في معسكرات دلهي جنبًا إلى جنب مع السيبويين حتى اندلاع الانتفاضة، العلاقة التي دمرها الهجوم البريطاني لدرجة أنهم بالطبع لن يدخلوا ميدان الحرب مرة أخرى كجسد واحد.

رأى روبرت تايتلر صديقه القديم، ثاكور سينغ، الذي توسل ليهرب مع آل تايتلر بالعربة عندما كانوا يفرون من برج فلاجستاف، لكنهم رفضوا طلبه لعدم وجود مكان؛ كان يرقد ميتًا جنبًا إلى جنب مع عمه، الذي كان يعرفه آل

تايتلر لأكثر من عقد. دوّنت هارييت مشاعرها المعقدة بشأن السيبويين الموتى في مذكراتها: «رأيت بعض أفضل رجال الهندوس وأكثرهم وسامة وطولًا ومكانة راقدين فارغين من الحياة، وقد تورمت أجسادهم من الحرارة وعاريين تمامًا. كانت جنودنا قد سلبت منهم ذهبَهم وفضتهم وجواهرهم، وآخر ما بقي من الملابس على أجسادهم، تاركين المساكين عاريين تمامًا كما خلقهم الله، كان قلبي مليئًا بالشفقة والحزن لرؤية تلك المشاهد المروعة.. لكن لم يسعني إلا أن أفكر أنهم استحقوا هذا المصير بعد قتلهم نساءنا المسكينات وأطفالهن، والذين لم يؤذوهم قط.»

في الساعة الحادية عشرة، توقف الخط الأمامي للقوات البريطانية للاستراحة لفترة وجيزة في حديقة أوكتيلروني القديمة - حديقة مبارك - التي كان قد اشتراها وأطلق عليها اسم عشيقته. ومع ذلك، قرر بارنارد عدم التوقف عن التقدم، ودون انتظار الراحة.. قام بالتقدم من خلال المعسكرات المحترقة نحو التلال، وفي الطريق رأى ما حلَّ بالمكان حيث ترامى الأثاث الفاخر في جميع الاتجاهات وتلطخت جدران بعض المنازل بدماء الضحايا.. هنا قسّم قوته إلى مجموعتين تسيران في صف واحد حتى يتمكن من الهجوم من الجانبين. على المرتفعات، تم الاستيلاء على دبابات ميرزا مغول التي قد نصبها حديثًا بقليل من المقاومة. بحسب ظهير دهلوي، الذي كان يراقب بقلق من فوق أسوار المدينة، ترك المتمردون الذين نُشِروا على التلال مواقعهم وتخلوا عن المدافع والخيام والذخيرة وهربوا إلى داخل المدينة عند رؤية زملائهم المتمردين الذين كانوا يحاربون منذ قليل يفرون بأسرع ما يمكن. عندما وصل الجيش الإنجليزي إلى المعسكر رأوا أن كل التحصينات التي كانت على التلال قد خلت من السيبويين تمامًا. لذلك صعدوا واحتلوا تلك المواقع، وأحرقوا معسكرات المتمردين، وقلبوا مدفعا مهجورا تُجاه المدينة.

كانت المقاومة الجادة الوحيدة التي واجهها البريطانيون هي قوة في برج فلاجستاف، هنا قام السيبويون بالدفاع عن أرضهم ووجهوا قذيفة على الأوروبيين قتلت كثيرين وأصابت عددًا أكبر، كما كانت هناك أيضًا محاولة متأخرة للقيام بهجوم مضاد من خلال ضاحية «سابزي ماندي»، حيث قامت قبائل الغجر بالدفاع عن نفسها بأسلحة بيضاء. بحلول الساعة الخامسة مساءً، كانت التلال بأكملها سقطت بين يدي البريطانيين. بعد ذلك بوقت قصير، وجد البريطانيون أن العربة التي كانت مليئة بجثث الضحايا البريطانيين الأوائل للانتفاضة كانت لا تزال تقف بالقرب من برج فلاجستاف؛ الآن كل ما تبقى منهم هو الهياكل العظمية والزي الرسمي للضحايا بأزراره اللامعة.

في هذه الأثناء، في وسط المدينة، لم يكن خفيًّا على أحد حجم الهزيمة التي عانى منها السيبويين. كان ظهير دهلوي في طريقه للعمل في القصر عندما

رأى أول خسائر المعركة تتوالى عليهم. «في حوالي الساعة الثامنة صباحًا، كنت في طريقي إلى القلعة، وعندما مررت ببوابة سوق جوهاري رأيت عددًا كبيرًا من الجرحى العائدين إلى المدينة، وسرعان ما تم تمريضهم بواسطة أربعة أو خمسة من الجنود المرتزقة، وأحال لون الدم الشوارع إلى اللون الأحمر وكأنه احتفال عيد الهولي.

مر فارسان بالقرب مني على ظهر جيادهما، فرأيت آثار البارود على ملابسهم وكأنها ثقوب صغيرة وعلى وجوههم كانت هناك بقع دم، كما تساقط الدم عن جروحهم، ولكن ما أثار دهشتي هو رؤيتي للمسدسات التي يحملونها في يمينهم، ولم يكن هناك أي ألم أو ذعر على وجوههم، ويتحدثون مع بعضهم البعض كأن شيئًا لم يحدث. كنت مندهشًا مما يحدث، فكيف تمكنوا من البقاء على قيد الحياة بهذه الجروح، ناهيك عن الابتعاد فوق ظهور خيولهم لمسافة أربعة أميال بعيدًا عن المعركة. بعد ذلك بقليل رأيت جنديًّا راكبًا على ظهر حصانه، هو كذلك يحمل آثار البارود، والدم يتدفق من جروحه مثل ماء الصنبور، بحيث غطته الدماء بالكامل. وخلفه كان هناك رجل آخر يسير على قدميه وقد فقد ذراعه.. كان معه اثنان من المرتزقة يؤكدان له أنهما سيأخذانه إلى مستشفى المخيم، لكن ذلك الرجل كان يقاوم هذا ويطلب منهم الابتعاد عنه ليموت وحيدًا.. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى القلعة كنت قد رأيت عديدًا من هؤلاء الجنود الجرحى.».

وسط تصاعد الشعور بالذعر، نأى ميرزا مغول بنفسه عن المعركة، قائلًا إنه كما في لعبة شطرنج، عندما يكون الملك بجوار القلعة، فإنه يكون بعيدًا عن الخسارة. وفقًا للجاسوس جيوان لال، على الرغم من حجم الانتصار البريطاني، فإن ذلك اليوم مَثَّل فرصة كبيرة ضائعة حيث إنهم لم يحاولوا الاستيلاء على المدينة. كتب: «صعد سكان المدينة على أسطح منازلهم، وشاهدوا بخوف شديد تبادل إطلاق النار من مسافة بعيدة، وأخذوا يسيئون للمتمردين الذين شوهدوا وهم يعودون إلى المدينة، متهمينهم بالجبن، بينما أساءت القوات على بوابات المدينة معاملة الفرسان، الذين عادوا في وقت مبكر من اليوم تاركين أرض المعركة ولجئوا إلى المدينة.. بسبب نتيجة المعركة، بدا أن الجنود فقدوا كل شجاعتهم.. من المؤسف أن الإنجليز لم يتقدموا في هذا اليوم، لو فعلوا ذلك، لاستطاعوا الاستيلاء على المدينة لأن بواباتها كانت مفتوحة، وقد أبدى سكان المدينة دهشتهم لتراجعهم.» ومع ذلك، كان هناك بعض الحكمة في قرار بارنارد بالتوقف عند التلال، ليتمكن من تأمين المرتفعات المطلة على المدينة. في تلك الليلة نصب البريطانيون خيامهم مكان المنازل المحترقة، فبعد أن غزوا التلال، ونصبوا أسلحتهم على الجدار الشمالي للمدينة، أدركوا عدم استقرار موقفهم والاضطراب الذي حدث في صفوفهم، فلم يخاطروا بمحاولة دخول المدينة في الوقت الحاضر.

في الأيام التي تلت هذا، من نقاط المراقبة الخاصة بهم في أعلى نقطة في التلال، تمكن البريطانيون من رؤية الأفواج المتتالية من المتمردين المتدفقين إلى المدينة عبر جسر القوارب ومن أسفل شوارع جراند ترانك، وراقبوا بحسرة أيضًا عدم وجود أي احتمال للإغاثة البريطانية - على نطاق مماثل - لقواتهم الصغيرة. في اليوم التالي، بدأت دبابات الثوار ضرب الأماكن البريطانية المكشوفة بقوة ودقة مدهشين وثابتين، وبدأ تعاقب الهجمات ليلًا ونهارًا من المدينة في التسبب بتآكل أعداد البريطانيين، بدأ كثيرون يدركون أن انعكاسًا غريبًا للأدوار كان في طور الحدوث. بصفته قسيسًا للقوة الميدانية، قال القس جون إدوارد روتون بإيجاز: «بالنسبة لمدني مثلي، أعترف أن حلم الاستيلاء على دلهي كان مجرد درب من دروب المستحيل مع عدم وجود إلا كتيبتين فقط من كتائب المشاة الصغيرة من سلاح الفرسان الأوروبي، وعدم وجود قوة سلاح المدفعية.. جئنا لمحاصرة دلهي، لكننا سرعان ما علمنا أننا، في الواقع، كنا المحاصرين والمتمردون هم المحاصرون!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدم بالدم

بدأ قصف دلهي في العاشر من يونية؛ في البداية لم تكن هناك أضرار جسيمة، إذ لم يكن لدى البريطانيين في هذه المرحلة إلا عدد قليل نسبيًّا من المدافع والبنادق.. وبالنسبة لمعظم أهل دلهي، فإن مبارزات المدفعية لم يكن يرد عليها بشكل جاد، وتفوقوا على البريطانيين بشكل كبير من قِبَل خطوط المدافع الثقيلة المحتشدة على طول معاقل أسوار المدينة وكما لاحظ ويليام هودسون نفسه في اليوم الأول من الحصار: «يملكون مدافع رائعة، ومشغلي مدافع محترفين، ورجالهم متفوقون علينا في دقة تصويب النيران». وبهذه النتيجة، تدفَّق سكان دلهي على أسطح بيوتهم، كما يتذكر سارفار المُلك: «اتخذ الملك والأسرة المالكة مقاعدهم على سطح القصر، وأخذ السلاطين يراقبون من معاقل القلعة الحمراء. كان الطقس حارًّا في ذلك الوقت، وكل ليلة كنا نشاهد وهج قذائف المدافع وهي تمر فوق رءوسنا مباشرة؛ إذ اعتبرناها من الألعاب النارية.» ومع ذلك، كان الأمر أقل إمتاعًا عندما سقطت إحدى الكرات على أحد المنازل، كما حدث بعد شهر في بيت عائلة سارفار المُلك. وعن هذا كتب: «اخترقت القذيفة سقف الطابق العلوي وسقطت على الشرفة حيث كنا نتناول طعامنا، ركض عمي على الفور نحوها وأخذ يرمي أوانيَ مملوءة بالماء عليها!» كان القصر هدفًا سهلًا لجنود المدفعية البريطانيين، وسرعان ما قاموا بتثبيت مدافع الهاوتزر بحيث تسقط القذائف داخل قلعة شاه جيهان الحمراء بشكل دائم.. لاحظ ظهير دهلوي الطريقة التي كان البريطانيون يقومون بها بقصف الغرف الملكية الرخامية البيضاء الجميلة، وكتب قائلًا: «كل يوم كان هناك إطلاق النار من على طول التلال، ومع تمكنهم يومًا بعد يوم من إتقان تصويبها، كانت القذائف تُحدِث فوضى عند انفجارها، وإن سقطت قذيفة على مبنى من عدة طوابق، كانت تخترقه مباشرة حتى تصل إلى الأرض، وإذا سقطت على سطح مستوٍ فإنها تقتحمه بشدة - لما لا يقل عن عشرة ياردات في الأرض - مدمرة كل شيء حولها.. ثم بدأت الأمور تسوء أكثر؛ كانت الغرف الملكية القديمة بالقلعة تتفجر تمامًا إذا أصيبت بضربة مباشرة. وفي وقت لاحق من الحصار، كان الأمر أشبه بجحيم على الأرض، حيث تُطلق عشر قذائف في وقت واحد وسط الظلام، وتنفجر الواحدة تلو الأخرى.. وسرعان ما ألحقت قذيفة مدفعية أضرارًا ببرج الشاه العظيم الذي يُطِل على جبهة نهر يامونا، بينما سقطت أخرى بالقرب من لال بردا، مما أسفر عن مقتل فتى الإسطبل ورجل آخر. بينما سقطت قذيفة ثالثة على زنانة الحريم في جنوب القصر حيث قتلت «شاملي» إحدى خادمات زينَّت محل. هكذا انتقلت زينَّت من القلعة إلى البيت الخاص بها في لال كوان، والتي اعتبرت أنها أقل تعرضًا للقصف، وربما

أيضًا أكثر استقلالية عن السيبويين، الذين كانوا الآن في كل مكان في القصر، كما سمح لها بإبعاد ابنها الوحيد المحبوب ميرزا جيوان بخت عن المتمردين.

بعد ذلك بوقت قصير، مر وابل من القذائف بالإمبراطور نفسه، كان سعيد مبارك شاه - الذي عُين مؤخرًا ليكون رئيس قوات الشرطة بدلًا من معين الدين - في القصر في ذلك الوقت. كتب: «في حوالي الساعة الثامنة صباحًا، قبل أن يخرج الملك من جناحه الملكي، جلس ثلاثون أو أربعون من النبلاء حول حوض الزينة في فناء القصر في انتظار وصوله. وما إن خرج جلالته حتى سقطت ثلاث قذائف أمامه وخلفه مباشرة، وللمعجزة، لم تصب القذائف أحدًا، ابتعد الملك على الفور وانفضَّ الجَمْع في أقل من لمح البصر.

في ذلك المساء دعا الملك رؤساء الجيوش وخاطبهم: «إخوتي، لم يعد هناك مكان آمن لكم أو لمواطني هذه المدينة أو حتى لي، لم يمنع إصابتنا من وابل الرصاص المتواصل إلا الصدفة كما ترون، فقد اعتادت تلك القذائف على السقوط يوميًّا فوق قصري وفي المكان الذي كنت معتادًا على الجلوس فيه! تقولون إنكم أتيتم إلى هنا للقتال ولإبعاد المسيحيين.. لماذا لا تفعلون هذا سريعًا وتوقفون هطول تلك القذائف فوق قصري؟»

بالنسبة لظفر، كان هذا ثاني حدث مزعج خلال أسبوع؛ ففي الرابع عشر من يونيو توفي رئيس الخصيان محبوب علي خان بشكل غير متوقع. لقد كان مريضًا لبعض الوقت، لكن إشاعات سرت على نطاق واسع في القصر قالت إنه مات مسمومًا! في كل أنحاء المدينة، كانت الأحوال تزداد سوءًا. وفقًا لـسعيد مبارك شاه، فبيْنَ نَهْب الثوار والسيبويين، وقصف الإنجليز، كان شعب دلهي - سواء أكانوا سيئين أم جيدين، حسني التصرف أم معادين للإنجليز - قد شعروا الآن أنهم مثل الفئران المحاصرة في قفص لا سبيل للفرار منه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالنسبة لغالب، كان القصف هو القشة التي قصمت ظهر البعير. لقد عانى الشهر الماضي من مشهد شنيع وصفه بالتالي: «كان كل رجل لا قيمة له يسير منتفخًا في كبرياء، يرتكب ما يشاء؛ بينما الرجال من ذوي الرتب العالية والأثرياء، يستلقون الآن في الزنازين المظلمة يحترقون في لهيب اليأس، وأصبحت جواهر أفضل النساء تملأ حقائب اللصوص الحقيرة.. كما اصطدم العشاق معهم لأهوائهم المنحرفة التي يطالبون بها النساء، وأصبحنا جميعًا نعاني الآن من أهواء هؤلاء الأوغاد!»

والأسوأ من ذلك بالنسبة له هو الاضطراب الذي تسبب فيه كل هذا لنظام البريد بالبلاد.. كتب: «النظام البريدي في حالة فوضى مطلقة، وقد توقفت الخدمة تقريبًا. من المستحيل على سُعاة البريد أن يستمروا في عملهم،

وبالتالي لا يمكن إرسال الرسائل أو استلامها». ومما زاد من سخط الشاعر ومعاناته القصف الذي حدث من التلال: «تصاعد الدخان الكثيف من البنادق والمدافع وأدى إلى تجمع السحب الداكنة معلقة في السماء، وصدحت الأصوات فوق رءوسنا كأنها أمطار من الحجارة. في بيوت النبلاء لا يوجد زيت للمصابيح، يقبعون في ظلام دامس طيلة الوقت، ويضطرون لانتظار وهج القذائف لرؤية ما حولهم، في هذه الفوضى يهاب الرجال الشجعان ظلالهم فيما يتحكم الجنود السيبويين بالملك أكثر فأكثر..».

ومع ذلك، بالنسبة لمعظم الناس في دلهي، فإنَّ توقُّف الخدمة البريدية والقصف المتقطع كان أقل ما يقلقهم. بعد شهر من اندلاع الانتفاضة، أصبحت الحياة الآن صعبة للغاية بالنسبة لعامة الناس في المدينة، خاصة الفقراء. فمن ناحية، كان دفع عمال النظافة والكناسين إلى خدمة الجيش وأعمال البناء للأماكن التي سبق ودُمرت أو مباني الدفاع الجديدة كان يؤثر على نظافة المدينة وصلاحيتها للحياة، فكانت القمامة، والجمال الميتة تترك لتتعفن في شوارع حي النخبة دارياغانج. ومن ناحية أخرى كان استمرار وجود السيبويين في جميع أنحاء المدينة يمثل مشكلة، حتى عندما توقفوا عن النهب، فإن الخوف من عنفهم وابتزازهم وتقلبهم المفاجئ جمَّد العمل في المدينة. في يوليو، أرسل «راتان تشاند»، مدير المنشآت الملكية، رسالة منمقة بالفارسية إلى ظفر، يتوسل إليه أن يعمل على إعادة تشاندني تشوك إلى الحياة، «لأن فرسان الجيش قد احتلُّوا المحلات التِّجارية والطرق بينهم وربطوا خيولهم هناك. لذلك فر معظم التجار الذين يستأجرون المحلات التجارية، والبقية منهم يعملون على إخلاء محلاتهم. هذا يعني أنه لن يوجد دخل متاح من الإيجارات، فحتى المحلات التي أُصلِحت من قِبَل الحكومة قد توقفت الآن عن العمل.»، كما استمر مقرضو الأموال الأثرياء في تحمل الإهانات، ففي الأول من يوليو اشتكى الشريكان جوجال كيشور وشيو براساد من أنهم يتلقون زيارات يومية من الفرسان الذين يأتون من أجل السرقة، ويهددونهم بالموت أو السجن.. «في الأيام الثلاثة الماضية اضطررنا للاختباء، بينما عُرِّض موظفونا وخدمنا للمضايقة والاضطهاد، سنهرب الآن من هنا في اضطراب وأسى، فكل شرفنا وسمعتنا ذهبت أدراج الريح.»

وحتى التجار الأقل مكانة، رأوا أن وجود السيبويين في أي مكان في المنطقة المحيطة بهم يكفي لإرهاب الناس فيمتنعون عن الخروج وشراء بضائعهم. في العشرين من يونيو، كتب الضابط المسئول عن مركز الشرطة بشاندي تشوك، وحافظ أمين الدين، إلى رئيس الشرطة، يخبره أن: «هناك شخص يُدعى أناندي، وهو بائع خشب، يشكو من أنه طيلة الأحد عشر يومًا الماضية، تجمع فوج من سلاح الفرسان بالقرب من متجره. مما سبب للناس الرعب فلم يعد أحد يأتي إلى متجره لشراء أي شيء مما يجعله يخسر كل أمواله،

لذلك كنت أتساءل عما إذا كان صاحب المتجر المذكور قد يُسمح له بنقل متجره من هذا المكان. في انتظار أوامرك.»

على الرغم من توقف العمل، إلا أن الأسعار كانت ترتفع بسرعة. ولم يكن لهذا علاقة بوصول البريطانيين، أو بأيَّة خطة من قِبلهم لتطويق وحصار المدينة.. فما يحدث كان سببه قبائل الغجر والمتمردين الذين يسيطرون الآن وبشكل فعال على معظم المناطق في دلهي، بعدما سلبوا كل المتنقلين داخل وخارج دلهي وعلى طول الطرقات، فأبقوا المدينة في حالة حصار أكثر فعالية بكثير من التي طبَّقها البريطانيون في الشمال. كانت تجربة أحد تجار الخيول هارياني محراب خان مثالًا على ما يحدث في دلهي، إذ قدم من قريته إلى دلهي التي مزقتها الحرب بغرض بيع خيوله الثلاثة، وبالفعل تمكن من بيع اثنين في دارياجانج، لكن عند عودته إلى منزله انقضت عليه قبائل الغجر ونهبوا المال الذي كسبه وسرقوا الحصان المتبقي.

كانت نتيجة هذا الحصار الناجم عن الفوضى تضاؤل البضائع بسرعة في المدينة وارتفاع الأسعار بسرعة أكبر، كما كتب الشيخ محمد باقر في العدد الأول من أخبار دلهي بالأوردية الذي نشره بعد وصول البريطانيين إلى التلال: «بدأ الناس يعانون بشدة من افتقارهم للسلع الأساسية، وحتى إذا تمكنوا من الحصول على الأساسيات، فلم يكن باستطاعتهم شراءها نظرًا للأسعار المرتفعة للغاية.. وبسبب الغلق الدائم للمحلات طيلة اليوم، فما أن تفتح حتى يتجمع حوالي ألف شخص أمام محل لا يعرض إلا مائة رمانة فقط. بالإضافة لكون الأشياء المتاحة ذات نوعية رديئة للغاية، لكن الجوع هو السيد الأكبر والاحتياج هو السيد حقيقي، فكان الناس يلتقطون ما يمكنهم الحصول عليه على أنه نعمة كبرى.. لم يكن هناك قمح، لكن الشعير كان يفي بالغرض، ويباع السمن الرديء القذر بمبلغ وقدره، أما الدقيق فأصبح العثور عليه من المستحيلات كالعثور على طائر العنقاء الأسطوري.

ومع ذلك، فإنَّ مشكلاتك لم تنتهِ بعد؛ فعندما تحصل على القمح وتعطيه للطحان، والذي يوافق على طحنه بعد ألف توسل، وبحلول الوقت الذي تعود فيه لاستلامه، يقول إن بعض الفرسان قد استولوا عليه، وأنه لم يستطع صدَّهم.. أما من الحدائق بداخل المدينة، فكانت ثمار المانجو وغيرها من المنتجات تصل إلى أماكن قليلة، لكن الفقراء والطبقة الوسطى لا يمكنهم إلا أن يلعقوا شفاههم ويشاهدوا هذه الأطعمة الشهية الطازجة تمر من أمامهم إلى منازل الأثرياء. أما التَّبغ فلم يعد متوفرًا إلا في مكان واحد فقط - السوق خارج المسجد الجامع - ويباع بأسعار فاحشة بالنسبة لمعظمنا. انظر إلى الدروس التي علمنا إياها الله سبحانه وتعالى: لقد اعتدنا رفض أجواد أنواع

القمح، والشكوى من رائحة الشعير الكريهة التي لا تليق إلا بالفقراء.. أما الآن فنحن لا نتردد في القتال من أجل أحقر البقايا..»

واختتم محمد باقر بالعودة إلى موضوعه المفضل وهو الولاء للإمبراطور، الذي يشير إليه على أنه ظل الله على الأرض؛ وانتقاد السيبويين بشكل غير مباشر لعدم منحه ما يستحقه من الاحترام: «لن يمضيَ وقت طويل حتى نتأكد من التخلص من هؤلاء البريطانيين، وندعو الله أن يطيل عمر جلالة الملك.. ظل الله على الأرض، الملك المبجل المختار لحكمة إلهية.. المتواضع الذي قضى سنوات عديدة تحت الحصار البريطاني لقصره وحكمهم الغاشم، وعلى الرغم من أنه لم يحرض أحدًا على الثورة، ولم يطمع في العرش أو في ثروة لنفسه، فقد ساق الله إليه الأقدار ليُتِم عليه نعمته بفضله، لذا فمن واجبنا أن نحرص على ألا يقع الملك مرة أخرى أسيرًا في يد أحد، ومن الواجب على كل من الجيش والشعب التعامل مع قرارات الملك على أنها أوامر من الله ورسوله.. وأن نتَّعظ مما حدث للبريطانيين نتيجة احتيالهم وإخلائهم باتفاقهم وعدم الولاء للمغول.»

اتخذ بعض آخر موقفًا مخالفًا تجاه نقص الغذاء في المدينة. تضمنت الالتماسات التي قُدمت لظفر في ذلك الوقت عددًا من بستانيي الحدائق الملكية، اشتكوا فيها من الفرسان الذين يداهمون أشجار الفاكهة، على الرغم من وجود حراس القصر: «جلالة الملك! كان محصولنا بقيمة ألف روبية، يتكون من موز وعنب وبرقوق ناضج، لكن الفرسان الملاعين نهبوا المحاصيل ولم يتركوا منها شيئًا، وحتى المحاصيل التي لم تنضج بعد فقد دمرتها خيولهم! بينما اكتفى الحراس - الذين ليس لهم أيَّة فائدة على الإطلاق - بالاحتجاج فقط، مما لا يجدي مع الفرسان خاصةً بعدما يشتبكون مع الحراس وينتزعون أسلحتهم..». ومع ذلك، على الرغم من كل تلك الأحوال المتردية المتزايدة، فقد كان هناك تيار خفي قوي من الثقة في المواجهة الوشيكة مع القوة البريطانية الصغيرة المتمركزة على التلال؛ فبمجرد أن تجاوز سكان المدينة صدمتهم لعودة البريطانيين، ورأوا الضعف العددي للقوة الميدانية البريطانية الذي سرعان ما أصبح واضحًا، وكذلك توافد جيوش السيبويين المتزايد إلى المدينة، آمنوا بمحاولات أفواج السيبويين المختلفة لطرد المسيحيين المكروهين من تحصيناتهم المنيعة. ولكن مثلما أظهرت المحاولات القليلة الأولى، لن تكون مهمة سهلة كما تبدو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأسبوعين التاليين لتمركز البريطانيين على التلال، استقبلت القوات المتمردة عدة آلاف من التعزيزات من أمبالا وجالندهار في الشمال، وهاريانا ونصير أباد في الغرب. والأضخم كان جيش المتمردين الذي توجَّه ببطء نحو

دلهي من باريلي.. أي إنه في النهاية وفي كل أنحاء هندوستان، فقد تمرد معظم جيش السيبويين المكون من ١٣٩ ألفَ شخص - باستثناء ٧٧٩٦ شخص فقط - كما كان أكثر من نصف المتمردين الآن إما في دلهي وإما في طريقهم إليها. كما أفادت تقارير بوجود قوة كبيرة تتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف مدني مسلح - فلاحين من «الجات»، الذين انتفضوا تحت قيادة الزعيم شاه مال جات - وهاجموا للتو القوة البريطانية المتبقية لحراسة الجسر في الجزء الخلفي من الخطوط البريطانية في باجبات، مما أدى إلى قطع الطريق أمام القوات الميدانية، والاتصالات، والتعزيزات، والإمدادات القادمة من ميروت وإليها. وقد زادت المشكلات أمام البريطانيين، بإدخال عنصر جديد إلى الخليط المتباين بالفعل من المدنيين والمتمردين واللاجئين الذين تجمعوا داخل أسوار المدينة، حيث وصل إلى دلهي كذلك عدة تجمعات كبيرة من الجهاديين المستقلين، المكونة من تشكيلة مختلفة من الشيوخ الوهابيين، والفقراء النقشنديين المتشددين، بالإضافة إلى عديدٍ من المدنيين المسلمين الأتقياء - خاصة النساجين والحرفيين - الذين اعتبروا أنه من واجبهم تحرير ما اعتبروه دار الإسلام من حكم الكفار المكروهين، تقدم خلال الأسبوع الأول أربعمائة رجل من جورجاون وهانسي وهيصار القريبين، ولكن العدد الأكبر في المجموعة - أكثر من أربعة آلاف جندي - جاءوا من إمارة تونك المسلمة الصغيرة في ولاية راجاستان، والتي كان لها تاريخ من الترحيب الشديد بالوهابيين، الذين طالما اعتبرهم ضباط المخابرات البريطانية بؤرة للتعصب ومركزًا سريًّا لتدريب حركات المجاهدين.

عند وصولهم، أقام الجهاديون معسكرًا في كل من ساحة المسجد الجامع وساحة زينة المساجد على ضفاف النهر، وهو أجمل جامع في دلهي. مما دل على عدم الثقة والتوتر بين السيبويين والجهاديين الذين بالرغم من أنهم قاتلوا جنبًا إلى جنب في كثير من الأحيان، إلا أن هذا لم يمنع السيبويين من تفتيش من يدخلون ويخرجون من المسجدين بانتظام، واحتجزوا عدة أشخاص اعتبروهم مشبوهين.. من حين لآخر كان التوتر بين السيبويين على اعتبار أن الأغلبية العظمى منهم من الهندوس والمقاتلين المجاهدين المسلمين يتحول لقتال شوارع واسع النطاق.. كان المجاهدون يدعون إلى الجهاد في مساجد المدينة، وهو ما لاقى ترحيبًا من قلة من الإسلاميين الأكثر تطرُّفًا في دلهي، ومن بينهم كان الشيوخ «الوهابيون» من الجالية البنجابية المسلمة. كان معلم «سارفار الملك» الأفغاني الأصل، وهو رجل ضخم الجثة، أيضًا أحد أولئك الذين ذهبوا للقتال مع الجهاديين على التلال، ووفقًا لسارفار: كان قوي البنية، برأس ضخم وشعره يتهدل على كتفيه، كان خبيرًا في تلاوة الأذكار وإمامة الصلوات. وجاء ذات يوم إلى والدي، وقال إن الله سبحانه وتعالى قد أنعم علينا بنعم كبيرة وسيكون من المؤسف إن لم نحسن

استخدامها. وعندما سأله والدي عن تلك النعمة أجاب، «الجهاد والاستشهاد»، حاول والدي أن يبذل قصارى جهده لثنيه عن عزمه، لكنه كان في حالة من النشوة للاستشهاد، وفي النهاية رحل، وقد ارتدى عمامته على رأسه وسيفًا في وسطه وبندقية في يده.

ومع ذلك، على العموم، فإن شعب دلهي القلق بالفعل من عدد السيبويين العنيفين والجياع داخل أسوارهم تشككوا في نتيجة استضافة مزيد من المحاربين المتعصبين. كان هذا صحيحًا بشكل خاص نظرًا لبُعد الجهاديين عن الوُدية تجاه الهندوس في دلهي - الممثلين في نصف سكان المدينة - والأهمية التي عقدتها النخبة في دلهي على عدم الإخلال بالتوازن الدقيق بين الهندوس والمسلمين في المدينة.. كتب سعيد مبارك شاه: «هدفهم المعلن كان حملة على الكفار، لكن هدفهم الحقيقي كان الاستيلاء على دلهي.»

تدفق خمسة آلاف رجل من المجاهدين من مختلف الجهات إلى دلهي بوصفهم الغزاة، يرتدون سترات زرقاء وعمائم خضراء، فلم يلاقوا إلا اللامبالاة والإهمال وهو ما دفع أحدهم ليقابل ظفر ويشتكي من هذه المعاملة الظالمة: «يا كريم يا رحيم، يا قاتل الكفار المنحلِّين، نحن الجهاديون أظهرنا شجاعة وتفانيًا كبيرين، ولكننا حتى الآن لم نتلقَّ أي تقدير لذلك.. نأمل فقط أن يتم الاعتراف بخدماتنا ونُكافأ، حتى نتشجع على الاستمرار في المعركة.».

وجاء الْتِماس مماثل من رجل وصف نفسه بأنه المسئول الرئيس عن حركة تونك الجهادية، وكانت شكواه أكثر جدية؛ إذ تخلى السيبويون عن الجهاديين في أثناء الهجوم وتُركوا ليواجهوا الكفار وحدهم: «لقد انضممنا إلى الحرب يوم أمس، وأرسلنا ثمانية عشر رجلًا من الكفار إلى الجحيم بيدنا كما قتلنا خمسة من مواليهم، وجرحنا خمسة آخرين، لكن يا جلالة الملك.. بقية الجيش لم يقدم لنا أيَّة مساعدة بينما كنا نشتبك في القتال مع الكفار.. لو أنهم ساندونا، فقط لإظهار الدعم، كما توقعنا منهم، وبمشيئة الله، لكان من الممكن أن يتحقق لنا النصر الكامل بالأمس، أنا على ثقة من أن تقديم بعض الأسلحة، مع حفنة صغيرة من الأموال لأتباعي، سيكون كافيًا حتى نتمكن من محاربة الكفار وقتالهم والثقة بأنفسنا.». وكُتبت على ظهرها ملاحظة كتبها ميرزا مغول، يقول فيها إن مستودع الأسلحة قد صار فارغًا الآن، ويجب إرسال بعض الأموال.. لكن من الواضح أن المال لم يكن كافيًا، وبحلول نهاية يوليو، كانت أحزاب الجهاديين تأتي أمام ظفر قائلة «إنهم لم يكن لديهم طعام ويتضورون جوعًا.».

الشيء الوحيد الذي نجح الجهاديون في فعله كان مقلقًا ومنفرًا للهندوس في دلهي؛ في البداية لم يكن هناك أي اختلاف ملحوظ في مدى استجابة الهندوس والمسلمين في دلهي لاندلاع الثورة.. وخلال شهري مايو ويونيو،

كان الدعاة الهندوس المتشددون متحمسون تمامًا مثل نظرائهم المسلمين، كتب المؤرخ الأوردي «زكي الله»: «في تشاندني تشوك والأسواق الأخرى، يصدح الكهنة بوصايا «شاستراس» بأن عليهم محاربة القوات الإنجليزية!»

كان أحد هؤلاء - من البراهمة - ويُدعى بانديت هاريتشاندرا، وقد برز بشكل خاص في عديد من تقارير المخابرات البريطانية.. ذكره أحد الجواسيس: «كان يخبر الضباط أنه بفضل فنونه الفلكية عرف أن القوى الإلهية ستدعم الجيش، وحدد يومًا يقول إنه ستحدث فيه معركة مرعبة، مثل تلك التي حدثت بالماضي بين «كورافاس» و«باندافاس».. ويبشر السيبويين بأن أقدام خيولهم ستغرق في دماء البريطانيين، وبعد ذلك سيكون النصر لهم، وقد آمن به كثيرٌ من رجال الجيش، لدرجة أنهم أوكلوا إليهم مهمة اختيار الوقت والمكان المخصصين للهجوم والقتال.»

كما كانت هناك إشارات إلى أن الحكيم إحسان الله خان يدفع للبراهمة - على الأرجح بناءً على تعليمات ظفر - لأداء صلاة يومية للنصر أمام اللهب المقدس، بل إن هناك إشارة إلى أن أحد البراهمة قال لظفر «أنه إذا سُمِح له بالبقاء في منزل محمي جيدًا لمدة ثلاثة أيام وجلبوا له كل ما يحتاجه من مواد، فإنه سيصنع موادًّا سحرية تساعد الملك على الانتصار.». يبدو أن ظفر قد آمن به، وأعطاه كل ما يحتاجه. كما جاءت جميع منشورات البلاط لتؤكد مرارًا وتكرارًا على الوحدة بين الهندوس والمسلمين وحرمة البقرة والخنزير، وقدسية الدينين. وظهر كتاب ثوري يدعى «فتح الإسلام» والذي على الرغم من عنوانه، قد أكد على الحاجة للتعاون والتعايش بين الهندوس والمسلمين وأكد كذلك على الدرجة التي يعتقد مؤلفه أن أباطرة المغول كانوا دائمًا يعتنون بها برعاياهم من الهندوس: «يجب أن ينضم الهندوس إلى الإمبراطور للدفاع عن دينهم، ويجب أن يتعهد الهندوس والمسلمون رسميًّا بأن يصبحوا إخوة لبعضهم بعضًا ويقضوا على الإنجليز، وكما قام الملوك المسلمون بحماية أرواح وممتلكات الهندوس وأطفالهم بطريقة حمايتهم لممتلكات المسلمين وأرواحهم نفسها، فكان الهندوس بالقلب والروح مطيعين ومخلصين للملوك المسلمين.. هكذا كنا وهكذا سنقدم دومًا العون والحماية لبعضنا بعضًا.» بالطريقة نفسها، اختلطت عديد من أفواج السيبويين بالهندوس والمسلمين، لدرجة أنهم - كما لاحظ السير سيد أحمد خان لاحقًا - بدأوا اعتبار بعضهم بعضًا أخوة. كما بدأ بعض الهندوس في استخدام لغة المسلمين في التماساتهم إلى المحكمة، والحديث عن الثورة بصفتها جهادًا، ووصف البريطانيين بالكفار.

ومع ذلك، فكلما زاد عدد الجهاديين في المدينة، وكلما اكتسبت الانتفاضة في دلهي نكهة إسلامية متزايدة، استفاقت الفتنة النائمة، وأصبح عديدٌ من

الهندوس قلقين ومضطربين بشكل متزايد. بالتأكيد كان بعض الجهاديين كذلك مقتنعين بأن «جميع السكان الهندوس يقفون بصف البريطانيين، وأن الصيارفة والهندوس كانوا متحالفين مع المسيحيين». هناك أيضًا التماس معبر لظفر من عجوز مسلمة ذات مكانة، ترى بوضوح أن الثورة لا تعدو كونها عذرًا للهندوس الإقليميين ليأتوا إليها وينهبوا بيتها - بدأت خطابها لظفر بوصفه بـيا بني العزيز، وقرة عيني، وفلذة كبدي - وأكملت: «الرجاء إرسال خمسة فرسان من الأتراك [أي المسلمين] لحمايتي من شر الهندوس وفسادهم، لأنه كما تعلم، الهندوس في سوق سيتا رام سيئو التصرف تجاهنا، ولديهم زعيم مخادع، وقد تمكن الهندوس عن طريق الخداع أن يدخلوا بعض جواسيسهم في الجيش، فقاموا بنهب بيتي وسرقتي».

على هذه الخلفية من الأحداث، ربما ليس من قبيل المصادفة أنه بعد فترة وجيزة من وصول الجهاديين، ضم الشيخ محمد باقر في مقالاته بالجريدة دعوة لهندوس المدينة ألا يفقدوا إيمانهم، مما يعني بالطبع أنه يشتبه في أنهم بدأوا في فعل ذلك. في عدد ١٤ يونيو كتب رسالة رائعة موجهة إلى قُرائه الهندوس. فيها دعا جميع مواطنو دلهي للتكاتف ضد العدو البريطاني المشترك، الذي شابهه بـ«رافانا»، ملك الشياطين في الملحمة الهندوسية «رامايانا». كتب: «يا مواطني بلدي الحبيب، بالنظر إلى الاستراتيجية والذكاء الخادع للإنجليز، وقدرتهم على ترتيب العالم بالطريقة التي يرغبون فيها، لِما لهم من نفوذ وخزائن وعائدات فائضة، فربما قد تشعرون بالإحباط وتشكون في إمكانية التغلب على مثل هؤلاء الأشخاص. ولكن إخواني الهندوس، إذا نظرتم في كتبكم المقدسة سترون كم السلالات الرائعة التي ظهرت في أرض هندوستان، وكيف كانت نهايتهم جميعًا.. لماذا لا تصدقون أن الله قد أرسل مساعدته الخفية لهزيمة هذا المملكة البريطانية التي لا يتعدى عمرها المائة عام لأنهم احتقروا أولياء الله، ونادوكم أيها الإخوة والأخوات باعتباركم «رجالًا سودًا»، فأذلهم الله وأعزكم! أدركوا هذا، وسوف تتخلصون من خوفكم وقلقكم، والهروب وإدارة ظهركم الآن سيكون أقرب إلى إنكار العون الإلهي..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما أثار الجهاديون قلق الهندوس، لكنهم في الأسابيع المقبلة وضعت شجاعتهم الانتحارية السيبويين في موقف محرج خاصةً عندما تبين أن أبرز الجهاديين من النساء. وحسب ما قاله سعيد مبارك شاه، الذي فوجئ تمامًا، فـ«إن عديدًا من النساء انخرطن في القتال باليد، وقد قُتِل عدد كبير منهن على يد الأوروبيين. في كثير من الأحيان تقوم اثنتان من النساء المسلمات من عجائز رامبور بقيادة الهجوم، وقد أشهرا سيوفهما، وأخذتا يسخران من السيبويين حِينما رأوهم يتراجعون للخلف، ونعتوهم بالجبناء وصرختا عليهم

ليروا كيف أن المرأة تتقدم بالرجال إلى الأمام حيث لم يجرءوا هم على التقدم: نحن نذهب دون خوف بين أمطار الرصاص التي تهربون منها، وإن تعلل السيبويون بأنهم يذهبون لجلب الذخيرة، تصرخ النساء فيهم: «توقفوا وقاتل، وسوف نجلب ذخيرتكم من أجلكم». وكثيًرا ما جلبت هاتان السيدتان إمدادات من الخراطيش للرجال في داخل الدبابات، وتقدمتا بلا خوف وسط وابل النيران، ولكن ولإرادة الله، لم تصابا قط. في النهاية، تم أسر واحدة من الاثنتين.. لكن في كل مرة كانت الجموع تتوجه إلى الحرب، كانت النساء تتقدمن المسيرة.. سرعان ما أصبح سبب الفشل المتكرر للهجمات على التلال واضح، لم يكن هناك نقص في الشجاعة بقدر ما هو غياب لأي خيال تكتيكي، أو إبداع أو تنسيق. كتب هيرفي جريثيد في الخامس والعشرين من يونيو: «كان من الممكن أن ينتهي التمرد مبكرًا، لكن ومع الهجوم المستمر للقوات المتمردة، بدا أنهم يقاتلون دون أيَّة معرفة بالموضوع.»

علاوة على ذلك، كانت المشكلة نفسها هي ما أحبطت كل محاولات استعادة النظام في المدينة - عدم وجود رؤية واضحة ومعترف بها للسلطة التنفيذية– مما أفسد محاولاتهم للقتال بشكل متماسك أو فعال. منذ اليوم الأول لعودة البريطانيين إلى التلال، كان المتمردين يوميًّا يتدفقون من بوابة لاهور على الجانب الغربي من المدينة، ويتخذون طريقهم صاعدين التلال المنحدرة، عادة عبر ضاحية «سابزي ماندي» الغربية، على مرأى ومسمع من البريطانيين. ومن هناك شنُّوا سلسلة من الهجمات الأمامية الجريئة على المواقع البريطانية.. عادة ما كانوا يوجهون قوتهم بالكامل إلى نقطة القوة البريطانية الرئيسة على خط المواجهة، القصر الأبيض، الذي شُيِّد في أوقات أكثر سعادة من قِبَل ويليام فريزر. ولكن على الرغم من شجاعة السيبويين المتهورة في كثير من الأحيان، فقد طردهم جنود الجورخا مرارًا وتكرارًا، الذين قاموا بسرعة وببراعة بتحصين القصر.. كان موقفهم قويًّا، وخلف أكياس الرمل التي وضعوها، كان الجورخا مصممين على التحمُّل.. كتب الرائد ريد، قائد الجورخا، في الثالث عشر من يونيو، بعد أربعة أيام من الحصار: «سمعنا هذا الصباح أنه سيصل فوجان جديدان من المتمردين إلى المدينة، وقيل لنا إنهم كانوا مسلحين وسيهاجموننا في الرابعة مساءً. فكنت مستعدًّا تمامًا لهم، وسمحت لهم بالاقتراب لدرجة لم يعد يفصلنا عنهم سوى عشرين خطوة، وعندها فتحت وابل النيران من البنادق من جميع الجوانب، كلفتهم مجموعتين فوق التل.. أما خسارتي فلم تتجاوز ثلاثة قتلى وجريحان، وثلاثة بُتِرت أذرعهم اليمنى.. ساروا في طريق جراند ترانك في صفوف يرأسها ضابطهم الذي جعل نفسه هدفًا واضحًا جدًّا عندما أخذ ينادي رجاله يحثهم على الابتعاد، لقد قاتلوا بيأس، لكن ضابطهم قُتِل على يد «لال سينغ». اقتلعت وسام الشرف

من على صدره، وانخفض عدد المتمردين إلى حوالي خمسة آلاف جندي من المشاة وسلاح الفرسان.».

أثارت شجاعة السيبويين إعجاب ضباطهم البريطانيين القدامى على الدوام؛ لكن خططهم لم تعجبهم. لابد وأن مشهد القوات المتجمعة كان مثيرًا للإعجاب بالتأكيد عند رؤيته من أسوار المدينة، ظن ظهير دهلوي أن الحرب كانت من العجائب التي لم يسمع بها أحد أو شاهد مثلها من قبل، لأن الجيشين في الأصل تابعان للحكومة البريطانية، إذ دُرِّبَ المتمردون على يد ضباط الجيش البريطاني المخضرمين، فبدا الأمر كأنه قتال بين المعلم وتلميذه. لكن هجمات السيبويين غير المنسقة، فوج وراء الآخر، ومهاجمتهم للمواقع البريطانية يومًا بعد يوم، نادرًا ما أثَّرت في البريطانيين على الرغم من قلة أعدادهم. كان هودسون مُفْرطًا في الثقة عندما قال: «إنهم لا يفعلون ما هو أكثر من إزعاجنا، والأذى الوحيد الذي يسببونه هو جعل رجالنا يقفون في الخارج لساعات في هذه الحرارة الحارقة.».

فشلت استراتيجية السيبويين بشكل لافت للنظر في الاستفادة من مزيَّتهم العددية الهائلة وعكست حقيقة أنه، بسبب لوائح الجيش، لم يكن لدى أيٍّ من قادة المتمردين أي تدريب في قيادة مجموعات أكثر من مائة رجل، ولم يتعلَّموا كيفية إدارة الجوانب الاستراتيجية لجيش كبير عمليًّا.. ومما زاد الطين بلة، أن الأرض التي يفرضون سيطرتهم عليها، يجب عليهم كل صباح أن يقوموا باستعادتها، فكل ليلة يخلد السيبويون للنوم في المدينة وفي معسكراتهم المختلفة، ليكونوا خارج نطاق المدافع البريطانية، يتركون التلال وما حولها في أيدي البريطانيين. في هذه المرحلة من الحصار، ترك الجهاديون انطباعًا أقل من السيبويين، نظرًا لأنهم نادرًا ما اقتربوا بدرجة كافية من الخنادق البريطانية. وفقًا لمراسل التايمز العظيم ويليام هوارد راسل، الذي رآهم وسط المعركة شرق دلهي: «كان الغزاة في الغالب رجالًا حسنِي السلوك، وكبار السن، ذوي لحى خالطها الشيب، يرتدون العمائم الخضراء، وكان كل واحد منهم لديه خاتم فضي منقوش فيه نص طويل من القرآن. جاءوا ورءوسهم تحت دروعهم وسيوفهم تومض وهم يلوحون بها فوق رءوسهم ويصرخون «الدين! الدين!» ويرقصون مثل المجانين. ظهر من بينهم رجل شجاع أخذ يقترب صارخًا فينا بصوت جَهْوَرِي، وتقدم وسط وابل من الرصاص بشجاعة. ثم خرج جندي شاب من بين أفراد قواتنا، مطلقًا النيران من بندقيته بين عيني الرجل، وتبعه بدفعة من خنجره في وجه الرجل المسكين، مما قضى عليه.»

في البداية، لم يبدُ حجم الخسائر مهمًّا للمتمردين، مع معرفة أن الوافدين الجدد يتدفقون يوميًّا على معسكر المتمردين، مما أدى إلى تضخم عددهم

وملء الأماكن الفارغة.. ولكن مع امتداد الحصار من يونيو إلى يوليو، تلاشت حماسة السيبويين لمواجهة أي من رصاص المدفعية البريطانية وحراب الجورخا، وهو شيء مفهوم. من بين أوراق التمرد، ظهرت بعض الأوامر التي تشير إلى تراخي حماسة المتمردين. يشكو التماس قدمه حفظة مقام ضريح القدم الشريف من أن السيبويين كانوا يتهربون من واجباتهم ويختبئون في الضريح؛ في أثناء وجودهم هناك، قاموا بتهديد حرَّاس المقام الصوفي، وسرقوا الألواح الخشبية والعوارض والخواتم: «لقد جعلوا بالفعل مساكن صائدي الطيور، وصانعي الحجارة، وعديدًا غيرها مُقفرة. لكن إذا حاولنا منعهم من المجيء إلى هنا، كانوا يظهرون أسلحتهم ويهددون بقتلنا..».

والأكثر دلالة على هذا التراخي هو أمر يائس من ميرزا مغول بصفته القائد العام، يعود تاريخه إلى ٢٣ يونيو، يتوسل فيه للسيبويين لـإنهاء العمل الذي بدأوه. نصَّ الأمر كان كما يلي: «إلى جميع ضباط الفصائل والثوار الذين لم يذهبوا إلى الخنادق.. على الرغم من أن هذه الحرب بدأت بسبب الإيمان والدين فإن كثيرًا منكم لم يذهبوا إلى المعركة، وبدلًا من ذلك، قضيتم وقتكم بعيدًا في الحدائق أو المحلات بينما يختبئ آخرون داخل البيوت لحماية حياتهم! لقد جعلكم سمو الإمبراطور جميعكم تقسمون أمامه وعلى لحيته على أن تقوموا بمحاربة الكفار والقضاء عليهم، لكنكم لا تظهرون النية للقيام بذلك. كم هو محزن عندما تكون هذه المواجهة من أجل الدين والإيمان، وبينما وفَّر لكم سموه الحماية، ما زلتم تمتنعون عن الذهاب للمعركة! تذكروا، الفصيلة التي لا تذهب إلى المعركة ستتوقف مخصصاتها من الغد، وأما الفصائل ووحدات سلاح الفرسان التي تظهر الشجاعة والثبات اليوم، كما أظهرته بالفعل من قبل، فسيحصلون على مكافآت وميداليات مرتبة الشرف من البلاط.. علاوة على ذلك فسيكون صاحب السمو الإمبراطور ممتن للغاية.»

وبهذه الرسالة كانت هناك حاشية تقول: «إلى جميع ضباط الفصيلة الثانية، لقد تم إصدار الأمر لكم بالذهاب نحو «تيليوارا» والهجوم من هناك، لكن تم إعلامنا الآن أنكم لم تذهبوا، وبدلًا من ذلك أخذتم تتسكعون في الحدائق القريبة من هناك. هذا غير مقبول على الإطلاق! يجب أن تذهبوا إلى هناك على الفور وتقضوا على الكفار!»

كان الجانب الأكثر حزنًا في المذبحة التي يواجهها السيبويون كل يوم، دون أن يدركوا ذلك، هو أنهم وجدوا في الواقع نقطة ضعف للبريطانيين في وقت مبكر في الحصار. في التاسع عشر من يونيو، انفصل السيبويون عن روتينهم المعتاد ليقوموا بهجوم ليلي غير متوقع منهم على التلال، من ثلاثة اتجاهات، مما استهلك موارد البريطانيين إلى أقصى حدودها. وقبل غروب الشمس

بساعة، بدأ هجوم ضخم مفاجئ من مؤخرة التلال، ليس فقط من ضاحية «سابزي ماندي» ولكن أيضًا من «مبارك باغ» في الشمال الغربي، ومن بيت ميتكالف شرقًا، بقيادة قوة متمردة مجهزة تجهيزًا جيدًا من نصير أباد. استمر القتال طوال الليل، ولم يُترك للبريطانيين أي وقت لاستعادة قوتهم. وفقًا للقسيس البريطاني، القس جون روتون، «خرج العدو بأعداد ساحقة بالمدفعية وسلاح الفرسان والمشاة.. واعتقدنا بأن مثل هذه الهجمات الخلفية لم تكن من قِبَلهم قط، فقد كانت بشكل منهجي ومنتظم، كما اتضح من تأثيرها في النهاية، إن لم يكن قد اتضح قبل ذلك بكثير. ظللنا نقاتل بشكل يائس، تحت نيران شديدة للغاية؛ بينما ظلام الليل قادم بسرعة.. تركت نتيجة هذا الاشتباك انطباعًا محبطًا للغاية داخل معظم عقول الرجال في المخيم. ليس لأن نجاحنا كان بشق الأنفس، على الرغم من أنه تم بثمن باهظ، ولكن لأن عيني العدو اطلعت على الميزة التي قد يكتسبها فوقنا، إذا استمر في الهجوم علينا من المؤخرة. الحقيقة هي أن نعرف نقاط ضعفنا هو أفضل ما قدمه لنا عدونا، لم نكن بلا مخاوف، لكن لحسن الحظ، ثبت أن تلك المخاوف لا أساس لها.. لقد كان نموذجًا لافتقاد المتمردين للمعلومات الاستخبارية، لدرجة أنهم لم يكن لديهم فكرة عن إلى أي مدى اقتربوا من النصر في وقت مبكر جدًا من الحصار. ومن سوء حظهم، لم يقم المتمردون بمحاولة أخرى لشن هجوم منسق حقًا على مؤخرة الصفوف البريطانية حتى وقت لاحق؛ وبحلول ذلك الوقت كان الأوان قد فات.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بداية شهر يوليو، وصل صهر «ثيو ميتكالف»، «إدوارد كامبل»، إلى التلال، وتم وضعه بالقرب من القصر الأبيض، في الوقت المناسب تمامًا لمواجهة هجوم السيبويين الضخم. مثل أي شخص آخر في المعسكر البريطاني، صدمه بشدة هشاشة الموقف البريطاني. في المساء التالي حمل قلمه وكتب إلى زوجه الحامل جي جي في شيملا. آخر مرة أتى فيها لدلهي كانت قبل خمس سنوات، في عيد الميلاد، عندما كان يراسلها من الطرف البعيد من التلال نفسها، في بيت آل ميتكالف، تحت عيون السير توماس الرافضة. بدأت الرسالة بأخبار العائلة: كتبت جي جي تطلب مزيدًا من التفاصيل عن هروب ثيو، وكيف يبدو الآن منزل العائلة في دلهي: «هل رأيت أنقاض المنزل القديم؟ هل تم تدمير بيت الكتب؟» في رده، أوضح كامبل أنه أُرسِل ثيو مع حصان هادسون بالتزامن مع وصوله تقريبًا، وأنهما لم يحظيا بعد بالفرصة لإجراء محادثة مناسبة؛ كان شقيقها الآن مشغولًا بالهجوم على بعض القرى من خلف البريطانيين، لكن عيون ثيو انتفخت وآلمته مرة أخرى، واعتقد «كامبل» أن صهره «ثيو» يجب أن يأخذ إجازة ويذهب حتى شيملا للتعافي بشكل صحيح من محنة هروبه من دلهي. هذا سيسمح له أيضًا بالمساعدة في

رعاية أخته الحامل. أضاف كامبل: «لا أرى فائدة من وجوده هنا، باستثناء المعلومات التي قدَّمها عن البلد، وهو الشيء الذي لا يبدو أنهم يهتمون به كثيرًا. كان بيت ميتكالف قد دُمِّر بالكامل، وهيكله الخارجي الآن أقصى شرق موقع القوات البريطانية، على ضفة نهر يامونا. وكان الضرر في رأي كامبل أن اللصوص قد أشعلوا النيران في كل الغرف، والسقف الوحيد المتبقي هو الموجود على غرفة ثيو القديمة قبل زواجه.».

ولكن كانت هناك أخبار أفضل من «ديلكوشا»: «أرسلنا بعض الرجال لرؤية بيت الكتب، ويقولون إنه في حالة لا بأس بها، ولم يُنهب، وأن الخدم كلهم هناك، إنه أمر غريب جدًا، أليس كذلك؟» عرف إدوارد أن هذا سيعني كثيرًا لجي جي، التي كانت، مثل بقية أفراد العائلة، مستاءة بشدة من فقدان منزل أسرتهم المحبوب. كذلك كان يعني شيئًا ما بالنسبة لهم من الناحية المالية، فمثل العديد من العائلات البريطانية الأخرى في دلهي، الذين فقدوا جميع ثروتهم تقريبًا في الحادي عشر من مايو. كان يتم انتقاد ثيو كثيرًا داخل الأسرة في الأشهر التي سبقت اندلاع الانتفاضة، لفشله في القيام بمزاد علني لمكتبة والده وأعماله الفنية.. وهو ما لم يكن ليشكل فارقًا، فما كان سيتم بيعه بالمزاد كانوا سيضعون أمواله في الحساب العائلي في بنك دلهي، الذي اشتعلت النيران في كتبه وأصوله قبل عدة ساعات من حريق بيت آل ميتكالف! الآن على الأقل كان هناك احتمال أن قد حُفِظت بعض ممتلكات والدهم سليمة في المنزل الآخر بالقرب من «مهرولي».. بعد أن نُقِل هذا الخبر السار، مضى كامبل في إعطاء جي جي تقييم قاتم للموقف البريطاني الحالي على التلال: «خرج المتمردون في حوالي الساعة الثامنة صباحًا، وواصلوا هجومهم العنيف على الدبابات.. كان الخطر الرئيس يكمن في القذائف - وهي من أشد النيران التي عُرِّضت لها في حياتي. اضطررت إلى مواصلة إطلاق النيران طوال اليوم لمنع المتمردين من التسلل من يسارنا حيث كانت نقطة ضعفنا. كانت فترة عسيرة لي، لأنني شعرت بالموقف الحرج الذي كنا فيه، إذ كانت قواتنا المسلحة الآن ضعيفة للغاية - لدي ثلاثون رجلًا فقط صالحين للقتال، بدلًا من حوالي ٧٠. كان لدي حوالي أربعة رجال جُرِحوا، لكن حمدًا لله لم يُقتل أحد. هناك كثير لأكون ممتنًا له، وإلى جانب النيران المباشرة من الأعداء الذين ظلوا يحاولون التسلل إلينا، كان لدينا وابل متواصل من الرصاص الذي يمر فوقنا ويضرب الصخور من جميع الجهات. لقد أصيب رقيب معي في ذراعه، وأصيب رجل واحد في يده، وآخر في عنقه..»

تمامًا كما طمأن الشيخ محمد باقر قُرَّاءه بالدعم الإلهي الذي يقف بصف المتمردين، مضى كامبل الآن ليؤكد لجي جي أن الله كان إلى جانب البريطانيين.. كتب: «أنا على ثقة من أن إلهي سيريح زوجي الصغيرة، لأن

راحته هي الحقيقية الوحيدة التي ستصمد أمام جميع الاختبارات. لقد أدرت الأمور جيدًا بمفردك يا جي جي، ولا يجب عليكِ أن تخافي على دلهي يا عزيزتي. تعرفين، أخبرتك أنها ستكون فترة شاقة وطويلة، ومما أراه من الدفاعات الطبيعية والبشرية بالقصر، لا أعتقد أننا سنستطيع تحملها بشكل جيد، أو القيام بأي خير للبلاد حتى نتمكن من جمع قوة أكبر - حصارٌ أكبر وإمداد أكبر من الذخيرة لبنادقنا. أعتقد أن الهجوم في ظل الظروف الحالية لا يمكن إلا أن يكون كارثيًّا. أعتقد أن يد الله كانت معنا بشكل واضح. وأنا واثق من أنه يجعلني دائما أقوم بواجبي بشجاعة وشرف. لا أستطيع أن أشعر بالمتعة التي يشعر بها الآخرون حينما ينظرون إلى المتمردين القتلى.. إنهم أيضًا مخلوقات الله، وأشعر بالأسى حيال تلك المذبحة. صلِّي للسماء لكي يتغمدنا الله بنعمه..».

عكست مخاوف كامبل الإدراك المتزايد بين البريطانيين في التلال، لقد جاءوا لحصار المدينة، لكن من الواضح أنه لم يكن لديهم الآن العدد الكافي من القوات لتطويق المدينة أو الاستيلاء عليها، ولم يكن أمامهم خيار سوى - بطريقة ما - أن يتماسكوا ويتحمَّلوا كل ما يلقيه المتمردون عليهم حتى يحين وقت الخلاص. وفي غضون ذلك، كان على حوالي أربعة آلاف جنديٍّ من البريطانيين أن يتواجهوا مع أكثر من عشرين ألفًا من المتمردين يوميًّا! كتب الجنرال ويلسون لزوجه: «ما زلنا نشك في قيمة ما نفعله هنا، بصراحة أشك في مدى استطاعتنا الاستيلاء على دلهى، فبدون معاونة الله لنا، ستكون النتائج كارثية.. لكن أنا على إيمان كامل بأن الله لن يتخلى عن قضية شعبه..». وإذا كان هناك بعض الإحباط من تجمد الوضع الحالي في المدينة، فقد كان هناك أكثر من ذلك بكثير على التلال. كتب فريد روبرتس: «كنا نقضي وقتنا جالسين في أماكننا، مدركين تمامًا أننا لا نستطيع فعل ما هو أكثر.. هذا التواجد حول دلهي مثبط للهمم للغاية.. نتمنى لو نخوض معركة مع الأعداء وننهي الأمر، ولكن هؤلاء المتمردين عددهم مهول، ويزداد مع الوقت..».

على عكس سكان البلدة، كان لدى البريطانيين إمدادات منتظمة إلى حد ما من الطعام، تأتيهم عبر طريق جراند ترانك من أمبالا في قوافل مسلحة؛ ولكن - بكل المقاييس الأخرى - كان وضعهم أسوء من وضع آل دلهي. بصرف النظر عن الهجمات اليومية والقصف المستمر من المدينة، لم يكن للقوات الميدانية أي مأوى أو ظل غير خيامهم، حتى مات عديدٌ من الجنود من السكتة الدماغية وضربة الشمس، وتحولت وجوههم إلى اللون الأسود تمامًا بشكل مروع! كما لم يكن هناك أي مياه، باستثناء قناة يامونا على بعد ميل واحد إلى الخلف، لكنها كانت ملوثة وذات نكهة مقززة. أما بالنسبة للنظافة فكانت الترتيبات بدائية إلى أقصى الحدود. بعد أسبوع أو أسبوعين، ظهرت رائحة

أجساد أموات السيبويين المنتفخة سوداء اللون المتعفنة، الواقعة على المنحدرات المؤدية إلى التلال أكثر فأكثر بشكل لا يمكن تحمله، وكان من الصعب جدًّا على الصخور السماح بحفر أي شيء باستثناء قبور ضحلة للغاية. كتب أحد الجنود إلى والدته: «أول أمس كان يومًا صعبًا للغاية.. فقد كان هناك ما يقارب خمسة عشر قتيلًا من المتمردين على بعد عشرة ياردات قد تحللت أجسادهم تمامًا، وانتشرت رائحتهم الكريهة، التي ازدادت بعد مرور ثمانية وثلاثين ساعة على موتهم».

كانت المجموعات الصغيرة من التعزيزات البريطانية القادمة من البنجاب، كانوا يشمون الرائحة الشنيعة فيدركون أنهم اقتربوا من المدينة قبل رؤيتها بفترة طويلة، كتب العقيد جورج بورشير عندما اقترب من دلهي: «من خلال أنوفنا، أدركنا أي مشاهد شنيعة نحن مقبلون عليها، استقبلنا الموت بكل أشكاله من أليبور إلى المخيم.. حتى الأشجار، التي قُطِعت للحصول على طعام البعير، بدت ميتة، وقد مدت أغصانهم العارية نحو السماء كما لو كانت تستجدي الرب لينتقم ممن يدمروها!» كان البعوض سِمة أخرى للمخيم لم يفلت منها إلا قليلون. كتب الأب روتون، قسيس المعسكر: «إنهم يسعون إليك في خيمتك، وعندما تتناول وجباتك، وحين تصلي، أيًا كان الطبق الذي اخترته لتتناوله، فبمجرد أن تزيل الغطاء من عليه، سرعان ما يستقر فيلق من البعوض فوقه؛ وحتى كأس الشاي سرعان ما يمتلئ بالبعوض في دقائق ويصبح سطح السائل مقززًا مع ظهور الذباب الطافي عليه، وقد مات بعضهم، وبعض آخر مازال يحتضر.»

أرعبت القذارة المطلقة للحياة في معسكر التلال ملازمًا شابًّا، هو تشارلز غريفيث، الذي وصل لتوه من فيروزبور. مثل الأب روتون سالف الذكر، تملكته على الفور كراهية عميقة للذباب، وبدا أنه من المستحيل تجنبها.. كتب أنه في عديدٍ من الأيام كان يستيقظ ليس على صوت البوق أو انفجار القذائف، ولكن بسبب الإحساس الذباب الزاحف فوق شفتيه: «لقد أظلموا السماء حرفيًّا، وهبطوا بأعداد كبيرة يغطون كل شيء من حولنا. كانوا كريهين وبغيضين، وأدركنا أنهم يدينون بوجودهم للجثث الفاسدة، وأنهم يتغذون على جثث الرجال والحيوانات الميتة المتعفنة التي لم تدفن في كل اتجاه.. كان الهواء ملوَّثًا بالفساد والحرارة الشديدة.. لذا لم يكن من المستغرب أن تزداد الأوبئة يوميًّا في معسكرنا، وأن يزورنا الموت حاصدًا ضحاياه من كل مجموعة، سواء من السيبويين أم الأوروبيين على حد سواء!» ساءت الأمور بعد اندلاع الرياح الموسمية في السابع والعشرين من يونيو، وبين عشية وضحاها تحولت التلال إلى ما أطلق عليه جريفيث «مستنقعًا طينيًّا» وسماه هودسون «مستنقعًا ضبابيًّا». كتب في مذكراته كيف تحول المعسكر حرفيًّا إلى بركة، وأصبحت الرائحة شنيعة.. خرجت الأفاعي من جحورها، وتكاثرت

فجأة وكانوا مرعبين بقدر - إن لم يكن أكثر - صواريخ العدو.. وكانت العقارب السوداء تتكاثر حولهم وتزحف بانتظام على الفراش ليلًا.

وكما لو لم تكن الحرارة والرطوبة والرائحة كافيين، فإن دوي المدافع، ونباح أبناء آوى والكلاب وما وصفته جريدة دلهي جازيت بقرقرة الجمال العنيدة جعل الراحة أملًا بعيدًا. والأخطر من ذلك، ففي هذا المستنقع الرطب والراكد، سرعان ما اندلعت الكوليرا أيضًا مرة أخرى، فطافت بالمخيم بسرعة مذهلة وقاتلة. في مثل هذه البيئة غير الصحية، ومع وجود أقل القليل من الإمكانات الطبية، لم يكن من المستغرب أن لا أحد من الجرحى الكثيرين الذين تعرضوا لبتر أطرافهم قد نجوا ليرووا حكاياتهم. كان للضباط على الأقل إمكانية الوصول إلى بعض العزل الصحي العسكري، وهي الميزة التي لم تتوفر للاجئين المسيحيين والأنجلو - هنديين الجائعين الذين وصلوا إلى المعسكر، وشعر الأب روتون بالرعب لـدى رؤية أطرافهم الواهنة، وعيونهم الجاحظة، وملامحهم القاسية، كما تم منع ذلك العزل الصحي على هارييت تايتلر الحامل بطفلها، وعن أطفالها، الذين أجبروا على العيش في عربة تحتوي على صندوق أموال الجيش الذي كان على زوجها أن يحرسه. كتبت: «لم يكن لدينا مكانٌ للعيش خارج عربتنا.. هناك بقينا ليلًا ونهارًا، نتناول وجباتنا في سرعة.. كان الوضع خطيرًا، ولم يمر وقت طويل حتى انفجرت قذيفة بالقرب من العربة وسقطت شظية ملتهبة أسفل العجلة، لكن ولحسن الحظ لم يصب أحد بأذى، وفي المساء جاء الضابط ويلوك لرؤيتنا، حينئذٍ سقطت قذيفة فوق برج فلاجستاف وكانت تصدر طنينًا وهي تقترب من البرج، حتى سقطت داخل الجدران الطينية قريبة من المكان الذي كنا فيه، وانفجرت هناك، قفز الكابتن المسكين ويلوك قائلًا، «يا إلهي، ما هذا؟» أجبته بهدوء، «أوه! إنها مجرد قذيفة. لقد اندهش بشدة من الطريقة اللامبالية التي لفظتها بها، وأخذ يكررها كأنما يحاول استيعابها، وبعد ذلك أصبح المثل الدارج في المعسكر: أوه! إنها مجرد قذيفة. يا له من صديق مسكين، لم يعش طويلًا بما يكفي ليكتشف مدى اعتياد المرء على مثل هذه الأصوات من خلال سماعها ليلًا ونهارًا.»

أنجبت هارييت ولدًا في عربتهم في الساعة الثانية من صباح اليوم الحادي والعشرون من يونيو. لم تكن هذه هي اللحظة السعيدة التي عادة ما تكون فيها مثل هذه الأحداث.. كتبت هارييت بحزن: «وُلد طفلي مصابًا بالدوسنتاريا - لقد رأيت بالفعل عديدًا من الأطفال يموتون بسببها في الهند - ولم يكن من المتوقع أن يعيش أكثر من أسبوع تقريبًا. لكن عندما تخطى الطفل الخطر المحدق أخبرني الطبيب بلطف: الآن يا سيدة تايتلر، سيكون من المناسب أن تفكري في إعطائه اسمًا. طفل مسكين، لم يكن قدومه إلى هذا العالم المزعج بذلك الوقت العصيب أمرًا يبشر بالخير. رقد هناك، بالقرب من باب

الشاحنة، لا تغطيه إلا قطعة قماش مربعة صغيرة فقط، وكان القمر يشرق فوق وجهه الصغير، ولا أصوات حوله سوى صوت الإنذارات وإطلاق النار والقذائف..» وعندما اندلعت الرياح الموسمية بعد أسبوع، وبدأت المياه تتدفق عبر السقف المليء بالفتحات، قام روبرت زوج هارييت بنقلها هي والطفل إلى داخل عربة أسلحة فارغة، وغطى لهم أرضيتها بالقش. «مشَت حافية القدمين وقد لفَفْتُ ملاءة مبللة حول طفلي، ودخلت عربة الأسلحة وبقينا هناك.. بعد هذه التجربة كنت أتوقع أن أموت أنا والطفل، ولكن بِرَحمة الله لم يحدث ذلك، واستطعت إرضاع طفلي بدون مساعدة زجاجة الحليب المعتادة. نمنا على الأرض فوق القَشِّ ووضعنا لحافًا تحتنا، لكن بدون وسائد تريحنا، حتى اشترى زوجي ملاءات ضابط مسكين قُتل فبِيَعت ممتلكاته.. لكن طفلي المسكين لم يرمش بعينه قط، وكان ينام طيلة الوقت بهدوء وهو مستلقٍ على فراشه المصنوع من القش، أعتقد أنه لو كان قد وُضِع على فراش من الريش في قصر فلا أظنه كان لينام بذلك الهدوء.»

بعد الضغط عليها لاختيار اسم مناسب للطفل، ابتكرت هارييت اسمًا غريبًا مثل ظروف ولادته: «ستانلي دلهي فورس تايتلر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومع تقدم شهر يوليو وتزايد الأمطار، وصار قيام البريطانيين بأعمال التحصينات مع مرور الوقت أكثر تعقيدًا، وبدأ مزيد ومزيد من البريطانيين الموت من الكوليرا بدلًا من رصاص السيبويين. وأصبح القيام بزيارات منتظمة إلى قسم الكوليرا في مستشفيات المخيمات جزءًا من واجبات الأب روتون. كتب بعد ذلك: «لقد تطلب الأمر أعصابًا قوية لتحمل المشاهد المقززة بداخل هذه العنابر.. كان المرضى يتقيئون باستمرار جاعلين المكان كريهًا للغاية، وكان البعوض يستقر على وجهك، ويزحف إلى أسفل ظهرك، من خلال الفتحة في ياقة القميص، وأحيانًا يدخلون إلى فمي عندما أقرأ آيات الإنجيل مع رجل يحتضر.. هناك كثيرٌ من المشاهد المؤلمة التي شهدتها داخل تلك الجدران.. كنت أتمنى فقط أن أتم واجبي حتى النهاية، وأقوم بالدعاء لجميع المرضى، وبعد ذلك أمسك بالكتاب المقدس في يدي، وأقوم بقراءة بعض المقاطع المناسبة من الكتاب المقدس. في الخامس من يوليو، تسببت الكوليرا في مقتل الجنرال البريطاني الثاني.. كانت قد قتلت الجنرال أنسون في كورنال في مايو، وها قد أزالت الآن خليفته، الجنرال بارنارد. ولو أن أنسون وبارنارد كلاهما قد بدوَا غير مناسبين للأزمة من جهة، فإن ثالث من تولى القيادة، وهو الجنرال الكبير السير توماس ريد، كان الأسوأ على الإطلاق.. قال عنه ويلسون: «شيخ وضعيف، غير صالح لتولي القيادة.»

فيما طرح آخرون الرأي نفسه بصراحة أكبر، كتب الشاب الأسكتلندي الملازم توماس كاديل من شرق لوثيان: «أنا لا أفهم كيف سنتمكن من الاستيلاء على دلهي بقيادة شخص مثل هذا!»، كما تنبأ هيرفي جريثيد في اليوم الذي تولى فيه ريد، كان الجنرال مريضًا جدًّا بحيث يتعذر عليه فعل أي شيء. بعد أسبوع كان لا يزال يقبع في جوف خيمته.. كتب جريثيد لزوجه: «لم نرَ أو نسمع شيئًا عن الجنرال ريد، وكنت أتمنى أن أقول الشيء نفسه عن حصانه الذي اشتراه للتو، وربطه بالقرب من مقره، والذي لم يتوقف صهيله المزعج لمدة ساعتين مضت». لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتخلَّى ريد عن المواجهة تمامًا، ويختار بدلا من ذلك التقاعد في شيملا. غادر التلال في اليوم السابع، بعد أقل من أسبوعين من تقلده المسئولية، جنبًا إلى جنب مع قافلة من المرضى والجرحى. كان آخر ما فعله هو طرد وحدتين من سلاح الفرسان الموشكين على التمرد، والذين بدا أنهم من المحتمل أن ينقلبوا عليهم في أي وقت، وسلم القيادة إلى الجنرال ويلسون. والذي على الرغم من حَذَره المفرط بالمقارنة مع أسلافه الثلاثة، فقد أثبت أنه ذو عبقرية استراتيجية لا مثيل لها. لم يكن لديه انطباع جيد عن صعوبة المهمة الموكلة إليه. كتب لزوجه بعد تعيينه: «أوه! إيلين عزيزتي، لكم هي مخيفة تلك المسئولية التي ألقيت على كتفي، وأنا أعلم ضعفي وعجزي، أشعر كما لو أنني سأفقد وعيي تحت العبء».

مع ذلك، على الرغم من افتقاره إلى الطاقة والثقة، كان ويلسون مفكرًا عسكريًّا واضحًا وتمكن من رؤية أن البريطانيين لم يكن لديهم في الوقت الحالي خيار سوى اختيار استراتيجية دفاعية، والحفاظ على مواقعهم حتى وصول التعزيزات من البنجاب. لذلك نهى عن المغامرات التي كانت تقلص عدد البريطانيين، مثل الهجمات المرتدة المكلفة وغير المنضبطة في كثير من الأحيان أو ما أطلقوا عليه «صيد الجرذان»، ومطاردة رجال السيبويين المنسحبين أسفل التل إلى حدائق «سابزي ماندي»؛ حيث مثلت اثنان من هذه الهجمات المضادة نتائج كارثية، كفقد مائتين وعشرين رجلًا مرة واحدة، ومائتين آخرين بعد خمسة أيام فقط. كما أنه حسَّن بشكل منهجي الدفاعات والتحصينات، وهدم الجسور الموجودة فوق قناة يامونا في مؤخرة المعسكر البريطاني لتجنب أي احتمال لمزيد من الهجمات المفاجئة من الخلف. في الثامن عشر من يوليو كتب رسالة يائسة إلى السير جون لورانس في لاهور، يبرز فيها خطورة الموقف البريطاني، والحاجة لإرسال لورانس تعزيزات إلى التلال على الفور، مهما كان الثمن:

«سري للغاية..

سيدي المحترم، لقد تشاورت مع العقيد بيرد سميث، كبير مهندسي القوات، وتوصلنا إلى استنتاج مفاده أن أيَّة محاولة الآن للاعتداء على مدينة دلهي ستنتهي بهزيمتنا. تتكون القوة في الوقت الحاضر من ألفين ومائتين أوروبي وألف وخمسمائة مواطن محلي، ما مجموعه ثلاثة آلاف وسبعمائة من حاملي السلاح، في حين أن أعداد المتمردين لا حصر لها، وتزداد أعدادهم بالمتمردين من كل جهة.. أي إنهم في حالة استعداد مثالية مع دفاعات قوية مجهزة جيدًّا.. هاجم المتمردون مواقعنا عشرات المرات، وفي هذا اليوم، شنوا هجومهم الحادي والعشرين.. صحيح، أنه قد تمت هزيمتهم، لكننا فقدنا كثيرًا من الرجال ما بين قتلى وجرحى.. لقد عقدت العزم على الاحتفاظ بموقفنا الحالي حتى النهاية، وأعتبر أنه من المهم الآن إبقاء المتمردين داخل دلهي أكثر من احتلال البلاد والسيطرة عليها. ولـأتمكن من ذلك يجب تعزيزي بالذخائر والرجال بسرعة. وحيث إنه لا توجد فرصة للاعتماد على القوات المتجمعة بالأسفل في كالكوتا، أدعوكم بشدة أن ترسلوا لي بأسرع ما يمكن دعمًا من البنجاب؛ فوجًا أوروبيًّا كاملًا إن أمكن، وفوجًا واحدًا أو اثنين من أفواج السيخ أو البنجابيين. أقول لك بصراحة إنه ما لم يتم تعزيز هذه القوة بسرعة، سيتقلص عددها قريبًا ما بين إصابات وأمراض، ولن يصبح أمامنا شيئًا سوى التراجع إلى كارنال. لا يمكنني توقع الكوارث التي ستحدث نتيجة مثل هذا الإجراء المؤسف. هل لي أن أطلب ردًّا فوريًّا عن طريق التلغراف يوضح ما التعزيزات التي يمكنك إرسالها لي ومتى أتوقع منهم الانضمام لمعسكري. المخلص دومًا

آركاديل ويلسون»

كان أحد أسباب قرارات ويلسون المشددة هو ما حدث عند جسر القوارب، في الأول من يوليو، عند وصول أكبر قوة متمردة واجهها البريطانيون حتى الآن. من التلال، تمكنوا من رؤية صفوف كتيبة باريلي ممتدة إلى ما يمكن للعين أن ترى، قبل أن تختفي نهايتهم وسط ضباب شديد الحرارة. كانت القوات تتألف مما لا يقل عن أربعة أفواج من المشاة حوالي ٢٣٠٠ من الرجل، وكذلك ٧٠٠ من سلاح الفرسان و٦٠٠ من حَمَلَة بنادق المدفعية، بما في ذلك بعض مدفعية الخيول التي تشتد الحاجة إليها، و١٤ فيلًا، و٣٠٠ حصان احتياطي، وألف عربة ثيران، والإبل حاملة الخيام والذخيرة والإمدادات، وكنزًا بقيمة ٤٠٠ ألف روبية، وفي المؤخرة، ثلاثة أو أربعة آلاف غازٍ.. في اليوم الثاني من يوليو سار هؤلاء الجنود عبر جسر القوارب، وتم الترحيب بهم عند بوابة كالكوتا بالفاكهة والحلويات من قِبَل والد زينت محل، نواب قولي خان. بينما كان البريطانيون ينظرون بلا حول ولا قوة من خلال مناظيرهم، ويشاهدونهم يتقدمون وسط الزينة الملونة التي تتطاير في كل مكان، بينما السيبويون يهتفون مرحبين، بالطريقة نفسها التي تمت بها تحية قوة بريطانية

أصغر بكثير بالحجم، والتي أتت من فيروز بور إلى المعسكر البريطاني في ذلك الصباح. أشار سعيد مبارك شاه: «لم يكن هناك متسع في المدينة كافٍ لهذا التجمع الواسع، لذا فإن الكتيبة خيمت خارج بوابة دلهي [جنوب المدينة].. كان هذا ضروريًّا لأن حشود السيبويين الموجود بالفعل في المدينة قد احتلَّت كل المنازل ومعظم المحلات التجارية. على سبيل المثال، استحوذت الفرقة الثالثة والسبعين بأكملها على سوق أجمري بالكامل، أي ستة أو سبعة من السيبويين في كل متجر.»

لا تقل أهمية الحجم الهائل لقوة باريلي عن قيادتها؛ رجلان بدا أنهما قادران على توجيه القوة وتوحيدها، التي كانت حتى الآن ما يفتقده المتمردون. أحدهما كان قائدًا من المدفعية يدعى بخت خان، وهو من قدامى المحاربين في الحروب الأفغانية. رجل طويل سمين ضخم البنية من سلالة روهيلا، له شارب ضخم وسوالف لا تقل ضخامة، تم انتخابه قائدًا من قِبَل قوات باريلي، ووصل إلى دلهي تسبقه سمعة طيبة كمسئول وقائد عسكري فعال. ولحسن الحظ، كان بخت خان معروفًا شخصيًّا لعديد من الضباط البريطانيين على التلال؛ كان العقيد جورج بورشير قد تعلم اللغة الفارسية منه في منزله في «شاه جهان بور» وكتب أن: «المجتمع الإنجليزي مغرم جدًّا به.. وهو شخصية شديدة الذكاء.» بينما وصفه بعض الضباط البريطانيين بأنه مجرد رجل سمين وطموح اجتماعيًّا، والأهم من ذلك كله بالنسبة لرجال الجيش على التلال كان «فارسًا سيئًا». وكان زعيم المتمردين الآخر هو المرشد الروحي لبخت خان، الداعية الإسلامي الشيخ سرفراز علي. كان الشيخ، الذي صار معروفًا الآن باسم «إمام المجاهدين»، قد أمضى سنوات عِدة في دلهي، وكان على اتصال جيد بالبلاط والمدينة. كما كان من أوائل رجال الدين الذين استعدوا للجهاد ضد البريطانيين في الأيام التي سبقت اندلاع الانتفاضة؛ في الأول من مايو في شاه جهان بور ألقى كلمة قال فيها لجمهوره «لقد أصبح ديننا في خطر بعد أن فقدنا سيادة الأرض، وانحنينا خاضعين للغرب الكافر النجس، لكن الآن، هل سنتنازل عن الامتيازات التي نلناها عن النبي ﷺ؟»

ولكن قبل ذلك، كان سرفراز علي قد درس في دلهي في مدرسة المفتي صدر الدين أزوردا، والمسماة «دار البقعة»، إلى الجنوب من المسجد الجامع، وبفضل تعلمه الجبر والهندسة، أصبح من أكثر علماء دلهي البارزين؛ في الواقع، قبل التمرد، كان السيد أحمد خان قد أشاد به كواحد من ألمع الجواهر في تاج دلهي الفكري. ليس من الواضح ماهية العلاقة بين سرفراز علي وبخت خان قبل اندلاع الانتفاضة، وربما بحسب بعض المصادر كان سرفراز علي هو الذي أقنع بخت خان بالانضمام إلى التمرد؛ لكن من المؤكد أنه بحلول الوقت الذي وصل فيه الجيش إلى دلهي، كان بخت خان طوعًا لأوامر سرفراز بشدة. ولم يكن بخت خان وحده؛ فالأربعة آلافِ جهادي الذين جاءوا

مع الجيش كانوا يعتمدون على الشيخ في توجيههم روحيًّا. وإذا كان بإمكان أي شخص أن يوحد السيبويين، والجهاديين، ونخبة دلهي، فهذان هما الرجلان المناسبان للقيام بذلك. ربما كانت هناك آراء مختلفة ومتشككة حول بخت خان فوق التلال، لكن يبدو أن ظفر ومستشاريه لم تكن لديهم مثل هذه الشكوك. فبعد يوم واحدٍ من وصولهم، استُدعي بخت خان والشيخ سرفراز إلى القصر، واستُقبلَا بشكل رسمي. وفي سياق هذا الاستقبال ظهرت بعض صفات بخت خان الأقل دبلوماسية على السطح لأول مرة. فمثل عديد من «الوهابيين»، ازدرى بخت خان الحكام المتعلقة قلوبهم بالدنيا، واعتبرهم غير مسلمين، وتمنى استبدالهم بنظامٍ وحكم إسلامي صحيح. وصل بخت خان وسرفراز مع مائتين وخمسين رجلًا من ضباطهم، يرتدون ملابسهم الرسمية، وانطلقوا بشكل يفتقر لاحترام الإمبراطور عبر الديوان الأول ووقفوا أمامه في جناحه الملكي الخاص دون أن ينحنوا أمامه في تبجيل.

كان واضحًا أنه مهما كانت مميزاته في ساحة المعركة، ومهما كان قائدًا نشطًا، كان بخت غير دبلوماسي على الإطلاق، وسرعان ما كان موقفه الفاضح من بلاط الإمبراطور يثير الشكوك.. كان الحكيم إحسان الله خان حاضرًا وسط الجمهور، وكتب: «مثل بخت خان نفسه أمام الملك، مع ضباط فوجه والجهاديين الذين كانوا معه. لكن على عكس آداب البلاط، لم يقدم احتراماته عند «لال بُردة»(22)، وكذلك لم يفعل رفاقه، وعلى الرغم من احتجاج الكثيرين، فإنه لم يبد اهتمامًا. عندما اقترب من كرسي الملك، حياه كأنهما على قدم المساواة، فاخرج سيفه من جرابه وقدمه للملك. وقد فزع الملك من هذا النقص في اللباقة، لكنه أشاد بشجاعة جنوده ... قال اثنان من ضباط بخت خان: «يجب أن تمنح يا جلالة الملك بعض الأسلحة لبخت خان، لأنه يستحق أن يكون قائد الحرب..» في البداية اعتذر الملك قائلًا أن الأسلحة ليست جاهزة، لكن يجرى تجهيزهم في المستودع. لم يقدم بخت خان ولاءه للملك، بدلًا من ذلك قال: «سمعت أنك منحت أمراءك السلطة على هذا الجيش، وهذا تصرف خاطئ! امنحني تلك السلطة، وسأقوم بكل الترتيبات المناسبة.. فماذا يعرف هؤلاء عن الجيش الإنجليزي؟» أجاب الملك: «إنه تم تعيين الأمراء بناءً على طلب ضباط الجيش!» ثم تم إنهاء المقابلة معه. وعلى الرغم من سلوكه، اعتقد ظفر أنه من الممكن أن يثق بـ بخت خان، وعلى مدار الأيام التالية استمر في منحه الألقاب وأعطاه سلطة عسكرية عليا على كل جيوش المتمردين، ليحل محل القائد العام السابق، ميرزا مغول. فيما بعد قام ظفر بتعيين بخت خان حاكمًا عامًا، بينما تم منح ميرزا مغول لقب القائد العام الذي جعل لبخت خان سلطة فعلية عسكرية فوقه!

في المقابل، قام بخت خان بمحاولات نشطة لحل العديد من المشاكل التي شلت المتمردين على الرغم من تفوقهم العددي الساحق على القوة

الصغيرة البريطانية التي تقصفهم من التلال. كما حاول حل المشاكل الناجمة عن نهب السيبيين للمدينة، وقام بالترتيبات اللازمة لدفع جميع رواتب العائلة المالكة. كما تم إعطاء تعليمات صارمة إلى قائد الشرطة، وقامت الشرطة التابعة له باعتقال جميع اللصوص، إذ صدرت أوامر بأنه يجب إزالة السيبويين من الأسواق ونقلهم لمعسكر جديد خارج بوابة دلهي. وفقًا للجاسوس جيوان لال، فإن ما تلا من الأيام كان زوبعة من الأوامر والحلول؛ أمر الجنرال بإعلان - بقرع الطبول - أن على كل أصحاب المتاجر الاحتفاظ بأسلحة معهم، وعدم مغادرة منزلهم عُزل. أما الأشخاص الذين ليس لديهم أسلحة فعليهم أن يتقدموا بطلب إلى المقر ليحصلوا على سلاح، ومن المقرر إعطاؤهم إياه مجانًا. كما أعلن أنه سيتم عقاب أي جندي يقوم بالنهب بقطع ذراعه.. أما جميع الأشخاص الذين يحتفظون بذخيرة منهوبة، فيتوجب عليهم أن يسلموها إلى مقر مستودع الأسلحة وإلا ستكون العقوبة شديدة... كما قام الجنرال بتفقد المستودع، وأمر أن يتم فرز الأسلحة بشكل صحيح، كما تم إصدار أمر آخر بأن يتم إعفاء الأمراء [الأصغر سنًا] من جميع الواجبات المرتبطة بالجيش وصدرت أوامر لكل القوات بأن تقوم بمسيرة في الصباح ... كما تم إعدام ثلاثة جواسيس مواليين للمعسكر الإنجليزي... وتم استعراض القوات من بوابة دلهي حتى بوابة أجمري. وتحدث الجنرال بلطف مع الرجال واكتسب ودهم، لكنه حذرهم من مضايقة ونهب أهل المدينة.

والأكثر إثارة للإعجاب كانت الاستراتيجية العسكرية الجديدة التي استخدمها بخت خان. إذ قام بإرسال قوة على طول نهر يامونا إلى آليبور في الثالث من يوليو، لكنه فشل فشلًا جزئيًا، بعد أن تم رصدهم ونصب كمين لهم عند عودتهم من حرق قاعدة إمداد الجيش البريطاني في القرية؛ ولكنه كان على الأقل تصرفًا يعتمد على الشجاعة والإقدام، وهي نقطة لا بأس بها.. في الوقت نفسه، طور بخت خان نظام الحرب الجديد بحيث يظل البريطانيون في حالة اختلال توازن باستمرار. قام جواسيسهم بإبلاغ البريطانيين بالقاعدة الجديدة: «لن يمر يوم واحد بدون مناوشات، ولهذا الغرض تم تقسيم الجيش إلى ثلاثة أجزاء بحيث يقاتل واحد على الأقل كل يوم.»

كان لزيادة وتيرة الهجمات تأثير فوري تقريبًا؛ فوفقًا لريتشارد بارتر: «بفضل النظام الذي وضعه بخت خان كنا بالكاد قادرين على الصمود، استُهلِكت قوانا بالكامل، ولم يكن هناك أمل في الراحة، كما يئس بعض الجنود من مواجهة العدو، فتخلصوا من حياتهم عمدًا، نظرًا لأن الموت كان سيأتي عاجلًا أو آجلًا، فكلما انتهى الأمر عاجلًا، كان ذلك أفضل!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في التاسع من يوليو، بالضبط بعد أسبوع من وصوله إلى دلهي، شرع بخت خان في محاولة منظمة لإنهاء الوجود البريطاني إلى الأبد. بدأ الأمر ببراعة في الساعة الخامسة صباحًا، بقصف هائل من المدينة، تلاه، في ظل الأمطار الغزيرة، هجوم خلفي قام به بعض من سلاح الفرسان غير النظامي التابع لبخت خان، وكانوا يرتدون نفس الزي الأبيض الذي يرتديه الجنود البريطانيون غير النظاميين. وبفضل الارتباك الناجم عن هذا التنكر، تمكنوا من التعمق داخل المعسكر البريطاني - كأول جنود من جيش التمرد ينجحون في اختراق الدفاعات - قبل أن يدق ناقوس الخطر. مزقوا بعض جنود المدفعية، وشبه نجحوا في الاستيلاء على البنادق البريطانية الضخمة المهمة قبل أن يتم اكتشافهم ودفعهم إلى الخلف. في نفس الوقت تدفق جيش باريلي خارج المدينة واتجهوا صوب ضاحية «كيشنجاني» بقصد الالتفاف حول الجناح الأيمن من جيش البريطانيين.، وعلى الرغم من تمكن البريطانيون من طردهم؛ إلا أنهم لم يفروا ولكن بدلًا من ذلك قام السيبويون بجذب البريطانيين بعيدًا عن تحصيناتهم واستمروا في قتالهم أسفل المنحدرات، مما أضعف قوات البريطانيين كثيرًا نظرًا لقلة التغطية هناك.. تأثر الملازم تشارلز غريفيث حد الإعجاب بالانضباط الصلب والتنظيم المثالي الذي استمر السيبويون به في التراجع، يلتفتون من آن لآخر ويصوبون على البريطانيين، وبين الحين والآخر كانوا يستمرون في التقدم ويديرون أسلحتهم للخلف ويطلقون الرصاص!

هطل المطر فجأة بشكل ثقيل ومرعب، متخللًا ملابسنا القطنية الخفيفة، وفي دقائق قليلة وصل للجلد، كما سقط الكثير من رجالنا، وأصبحنا في وضع خطير وصعب، فالخسارة من جانبنا أصبحت ثقيلة لدرجة أن حث الرجال على التقدم كان صعبًا للغاية؛ تجاوزت الخسائر في هذا اليوم أي يوم آخر منذ بدء الحصار، حيث بلغ عدد الضحايا ٢٢١ رجلًا ما بين قتلى وجرحى. وعلى الجهة الأخرى، ناحية الغرب قليلًا، قاد بخت خان بدعم من المجاهدين الهجوم الذي استولى على المعسكر البريطاني في حديقة تيس هازاري. كان الاستيلاء السهل مقياسًا للحالة النفسية الهشة للجيش البريطاني ما بين خوف وإحباط وتوتر، لدرجة أنه وفقًا للرائد ويليام إيرلند، بعد طرد العديد من القوات البريطانية من معسكرهم، نفثوا عن غضبهم في عدد من الخدم الهنود العزل، الذين كانوا قد تجمعوا ليحظوا ببعض الحماية بالقرب من فناء الكنيسة. فقتلوا العديد من أولئك البؤساء، بينما استطاع بعضهم الاختفاء خلف القبور، أطلق البريطانيون النار على امرأة، وقاموا بالكثير من المعارك الدامية وعمليات الإعدام التي أوضحت مدى وحشيتهم، وكيف يعتبرون الآن حياة المواطن المحلي أقل قيمة من حياة الحيوانات؛ ولم يحاول ضباطهم تصحيح تلك الفكرة.. كان من المروع كيف أن الخدم الذين تصرفوا بإخلاص مذهل تم

التعامل معهم بقسوة شنيعة من قِبَل الضباط، إذ قاموا بضربهم وقتلهم.. مزقت رصاصات البريطانيين المواطنين الضعفاء، وقاطعو العشب والحمالون، الذين أصيب العديد منهم أثناء خدمتهم، وظلوا لأشهر على الأرض الجرداء، معرضين لأشعة الشمس نهارًا وبرودة الجو ليلًا ... كانت نبرة الحديث وسط تلك الفوضى جامحة وشرسة: «تم إعلان مذبحة عامة لسكان دلهي، رغم أن الكثير منهم كانوا يتمنون لنا الانتصار ...»

يسلط هذا المقطع الضوء على شيء غالبًا ما يُنسى في ما ورد من روايات عن الحياة على التلال؛ حقيقة أن ما يزيد قليلًا عن نصف الجنود، وتقريبًا كل الخدم، لم يكونوا بريطانيين، بل هنودًا. كان الموقف بشكل عام، نوعًا غريبًا جدًا ومختلفًا من الحروب المعتادة الدينية، حيث تم دفع إمبراطور مسلم إلى الحرب ضد مواطنيه المسيحيين من قِبل جيش متمرّد أغلبيته من الهندوس السيبويين، والذين جاءوا بمحض إرادتهم (بل وأيضًا عكس إرادته هو في البداية) ليطلبوا بركاته كحاكم مسلم وقائد للمغول الذين اعتبروه الحاكم الشرعي. بل أنه من الغريب أن تكون نقطة الضعف وأحد أكبر التهديدات للتماسك والوحدة بين القوات المغولية الجديدة كان وصول مجموعات من الجهاديين المسلمين، والذين في النهاية شكلوا ما لا يقل عن نصف جيش المتمردين في دلهي؛ وما هو أغرب أنه عندما قام البريطانيون بالهجوم المضاد ضد تلك القوات، فعلوا ذلك من خلال تشكيل جيش جديد يتكون بشكل كبير من سلاح البشتونيين والبنجابيين المسلمين غير النظاميين ليواجه المغول! وهو ما يُظهره نصب تمرد دلهي التذكاري، إذ أن أعداد الضحايا - الذين تم تصنيفهم على أنهم مواطنون محليون - لا تقل عن ثلث القوات البريطانية من الضباط و٨٢ في المائة من الرتب الأخرى. بنهاية الحصار، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه التعزيزات الأخيرة إلى التلال من البنجاب، ربما كانت حوالي أربعة أخماس القوة البريطانية تتكون من الهنود نفسهم! وانتفاضة دلهي التي بدأت كمنافسة بين البريطانيين وجيش السيبويين الهندوسي، قد انتهت كحرب بين قوة متمردة مختلطة، نصفها على الأقل من الجهاديين المسلمين والمواطنين، يهاجمون جيشًا من السيخ والمرتزقة المسلمين من الحدود الشمالية الغربية والبنجاب.

ورغم ذلك، كانت لهجة الخطابات القادمة من التلال تتمثل في «تفوق السلالة البريطانية» و«جبن السكان المحليين»، والمشكلة الأكبر أن هذه اللغة العنصرية جاءت من مجموعة كانت الخلفيات العائلية الخاصة بها أبعد ما يكون عن الأصول الإنجليزية النقية؛ في الواقع، بعض الحالات التي ذكرت هذه التفاصيل، كانت في الواقع، وهو ما يثير الدهشة، من أصول شديدة الاختلاط! كانت «إليزابيث واجنتريبير» تنحدر من عائلة أغلبها مسلمة، مثل العديد من أبناء عمومتها من آل سكينر، وربما كانت والدتها كذلك مسلمة هي الأخرى.

كما كان لدى ثيو وجي جي ميتكالف عددًا من أبناء العم من البنجابيين السيخ من جهة جيمس ميتكالف، ابن أخ السير توماس الأكبر، والمقيم السابق في دلهي، السير تشارلز، من المحظية السيخية الجميلة التي التقى بها في بلاط رانجيت سينغ في لاهور، ووفقًا للتقاليد، تزوجا بالطقوس الهندية المعتادة.

عندما كان مراهقًا، كان جيمس - نصف البنجابي - قد نشأ مع أولاد عمه في إنجلترا، وهو يعيش حاليًا في لندن، حيث اعتاد - تشارلز (شقيق ثيو الأصغر) والذي صار فيما بعد مترجمًا لروايات المتمردين مثل الجاسوس جيوان لال ومعين الدين - أن يزوره ويختلس النظر لزوجة ابن عمه الجميلة «فتاة محلية مرحة، وعندما يحين وقت زواجي، لن أتردد في الزواج من امرأة جذابة مثلها.»، كما كتب لجي جي. وكتب كذلك: «في الحقيقة، وبكل بصراحة، أعجبت بها كثيرًا منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، قلت لجيمس أن السيدة تبدو نسخة مطابقة لجي جي..». كان الأب روتون أكثر لفتًا للانتباه، فجميع مراسلات ذلك الأب تحدثت عن الإنجليز كشعب الله المختار، على الرغم من العدد الضخم من أولاد عمومته المباشرين من ذوي الأصول الأنجلو - هندية. مثل جيمس روتون الذي لا يجيد التحدث بالإنجليزية، والاثنان وعشرون ابنًا لابن عمه الذي اعتنق الإسلام، والمدعو فيليكس روتون، والذي تزوج من العديد من الزوجات الهنديات، والذين كانوا جميعهم في تلك اللحظة يقاتلون إلى جانب المتمردين في أفادا، حيث وقاموا بدور نشط في محاصرة الإقامة البريطانية في لكناو. وفقًا لوثائق شركة الهند الشرقية: «يبدو أن السيد فيليكس روتون تطوع للانضمام إلى المتمردين حتى يوليو الماضي [أي يوليو ١٨٥٧]، فكان الأب الروحي لهم، في شكل من أشكال عدم الولاء، إذ لم يفعل شيئًا لمساعدة البريطانيين، رغم أنه من نسل رجل أوروبي، وكان جميع أبنائه يحملون السلاح في وجوهنا، وهو بالطبع مسئول عن الأبناء الذين أنجبهم.»

حتى فريد روبرتس، على الرغم من جميع رسائله المليئة بالشتائم حول «السكان الأصليون الوضيعين»، كان لديه أخ مسلم أنجلو هندي، وهو جون روبرتس، المعروف أيضًا باسم «تشهوت صاحب»، والذي انخرط في تلك اللحظة، مثل أبناء عم الأب روتون، في النضال ضد البريطانيين في لكناو. عاش جون حياته على الطراز الهندي بالكامل، وكان مسلمًا متدينًا، اهتم بأداء الشعائر الدينية مثل الصلاة والصوم، وتزوج من سيدة من لكناو تدعى «شاهزادي بيجوم»، وهي حفيدة نواب رمضان علي خان. شارك «جون» «فريد» موهبة نظم الشعر، ف عرف باسم مستعار وهو «جان»، وكان يكتب الشعر بالأوردية حيث لم يكن قادرًا على القراءة أو الكتابة باللغة الإنجليزية.. غضب والدهم، الجنرال السير أبراهام روبرتس، عندما سمع أن جون قد انحاز إلى صف المتمردين وقطع صلته به، في نفس الوقت الذي افتخر فيه بأخيه غير الشقيق كبطل في التلال. كتب الجنرال الغاضب: «آمل أن تتمكن

من الحصول على بعض المساعدة من أولئك المتمردين الذين ساعدتهم في حمل السلاح ضد الإنجليز.. لو كنت قد ذهبت مثل الآخرين إلى المقيم الإنجليزي، لكانوا أنقذوك، لكن الآن ليس هناك فرصة لك للحصول على أي شيء.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيما يتعلق بالثوار، كان هجوم التاسع من يوليو على البريطانيين هو الأكثر نجاحًا حتى الآن. على الرغم من أنه لم يتناسب مع التوقعات العالية جدًا في كل من القصر والمدينة، وظل هناك شعور قوي بخيبة الأمل لأنه حتى الآن لم يقوموا باختراق مؤثر، ولايزال البريطانيون راسخين بقوة على التلال. تعمق هذا الشعور بالإحباط في الأسابيع التالية بسبب نقص وشُح المعلومات الاستخباراتية عن التلال في المدينة مما يعني أن أحدًا من المتمردين لم يدرك كيف أثبتت تكتيكات بخت خان نجاحها؛ ولم يدركوا هشاشة الموقف البريطاني والضغط الذي كان يمارسه بخت خان عليه، كان كل ما يستطيعون رؤيته هو أن القوات البريطانية بقيت على حالها، ومن هنا بدأ التذمر ضد بخت خان. كان ميرزا مغول أيضًا قد استاء بشدة من الطريقة التي يتلقى بها الأوامر منه، في حين أن السيبويين الآخرين كرهوا طاعة قائد من فوج مختلف.. فبدأت هيبة بخت خان وحزمه مع السيبويين في الاضمحلال ببطء، تزامنًا مع فشل الهجمات في تحقيق أي نصر.. وفي نهاية شهر يوليو بدأت الشكاوى والالتماسات ضد بخت خان تُناقش علانية في الدوربار «البلاط الملكي».

وفي اليوم التاسع والعشرين، اشتكى أحد السيبويين من أن عدة أيام مرت دون أن يقوم الجنرال بقيادتهم نحو القتال. غضب بخت خان، لكن الإمبراطور لاحظ أن ما قيل كان صحيحًا، لذا بعد مرور عدة أيام وحين ألغى بخت هجوم كان مخطط له بسبب الأمطار الغزيرة، غضب ظفر وقال: «يبدو أنك لن تسيطر على التلال أبدًا، وقد بددت كل الأموال التي أحضرتها لي، وأفرغت الخزانة الملكية.. سمعت أن أعداد الجنود بدأت في التناقص إذ يغادرون الجيش عائدين إلى منازلهم وقراهم يوميًا.. لقد قتلت كل أمل لي في الانتصار». في اليوم التالي وصلت الالتماسات من ألفين جندي في جواليور وستة آلاف من الجهاديين في نصير أباد، قائلين إنهم مستعدون للسير إلى دلهي إذا أعطى الملك الأمر بذلك. لكن ظفر أملى الرد: «هناك ستون ألف رجل في دلهي، ولم يتمكنوا من طرد الجيش الإنجليزي من التلال؛ ماذا يمكن أن يفعل الستة آلاف رجل خاصتك أكثر من ذلك؟»

عندما اشتكى بخت خان بعد ذلك من أن السيبويين لم يعودوا يطيعونه، أجابه ظفر: «اطلب منهم إذن مغادرة المدينة.» بعد قليل أضاف ظفر أن: «لا يمكن

أن تظل المدينة تعاني من مضايقات وتهديد الجنود الذين أتوا بهدف القضاء على الإنجليز، وليس تدمير مواطني بلدهم.. يتفاخر هؤلاء الجنود دائمًا بأنهم يخرجون من معسكراتهم ويتركون حربهم ويأتون إلى المدينة! من الواضح تمامًا أن الإنجليز في النهاية سيستولون على هذه المدينة وسوف يقتلونني!» ليست مفاجأة كبيرة إذًا أنه في نهاية شهر يوليو تم إجراء تغيير آخر في القيادة العسكرية؛ إذ تمت تنحية بخت خان من منصب القائد العام، وبدلًا من ذلك تم تسليم السلطة العليا إلى إدارة البلاط، برئاسة ميرزا مغول، نيابة عن أبيه. كان البلاط مؤسسة غريبة؛ نوع من المجلس العسكري الانتخابي، يظهر فيه التأثير القوي للسياسة الغربية بدلًا من الأفكار السياسية المغولية، لدرجة استخدام الكلمات الإنجليزية للمناصب المختلفة في البلاط. وفقا لنصوص القانون الاثني عشر، يتكون المجلس العسكري من عشرة أعضاء؛ ستة من هؤلاء يتم اختيارهم (بالانتخاب) من الجيش وهم اثنان من المشاة واثنان من سلاح الفرسان واثنان من المدفعية، أمَّا الأربعة أعضاء الباقين يكونون من القصر، وتكون اجتماعات البلاط منتظمة وتتصرف كلجنة تربط الجيش بالمجتمع المدني.

ومن حين لآخر يتدخل البلاط بشكل فعال، مثلما قام بانتقاد ميرزا خضر سلطان لاعتقالاته وتحصيل الضرائب من تجار المدينة دون سلطة لهذا، لكنه لم يتصرف قط كوحدة قيادة مركزية أو مركز حقيقي للحكم، وكان بخت خان دائم الابتعاد عنه؛ وفي السجلات التي نجت من بين أوراق التمرد يبدو أن ميرزا مغول وحلفائه العسكريين، ومنهم جيش باريلي، الذي لا يزال تحت قيادة بخت خان، عملوا بشكل مستقل تمامًا عن المجلس! بالنظر إلى هذا، يبدو أن البلاط قد حقق في الواقع عكس ما هو مطلوب منه بالكامل، وبدلًا من التنسيق بين أفواج المتمردين المختلفة، فقد تسبب في زيادة الانقسامات القائمة بينهم، مما حولهم إلى فصائل متنافسة تعمل تحت قيادة أمراء الحرب الذين يمسكون زمام الإدارة. في كلتا الحالتين، جلبت نهاية نظام بخت خان العسكري راحة فورية للبريطانيين على التلال. كما أشار ريتشارد بارتر: «سخر ملك دلهي ورجال بلاطه من قادته الراغبين في الانتصار، وأدى ذلك إلى تبادل الاتهامات ورفض البعض تحمل النظام الذي يُمثله بخت خان. وهكذا، عندما كنا بالكاد قادرين على الصمود، توقفت الهجمات، كما لو كان ذلك بفضل العناية الإلهية، ومنح الرب قواتنا الراحةَ التي هم في أمس الحاجة إليها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تفاقمت سرعة سقوط بخت خان بسبب آرائه المتشددة «الوهابية». وكانت هناك شكاوى بأنه لم يوفر احتياجات الطبقة العليا من الهندوس، الذين تقدموا بطلب رِسمي إلى الملك يسألونه عمَّا إذا كان يمكن أن يولي ميرزا

مغول القيادة بدلًا من بخت خان، كما قام - على غير إرادة الملك - بـجمع كل علماء المدينة وجعلهم يقومون بالتوقيع على فتوى الجهاد؛ التي تنص على إلزام جميع المسلمين بالتسلُّح والقتال بقيادة إمام الجهاديين الشيخ سرفراز علي؛ صرَّح عدة شيوخ - بما في ذلك صديق غالب المفتي صدر الدين أزوردا - بعد ذلك بأنهم أُجبروا على التوقيع رغمًا عنهم، وأنه تم تهديديهم في حالة الرفض بتدمير عائلاتهم.. وبسبب هذه الفتوى، استطاع الجهاديون في نهاية شهر يوليو تحقيق أكبر فتنة في الجبهة المشتركة التي كانت قد حوفِظ عليها بنجاح من قبل الهندوس والمسلمين. مع اقتراب عيد الأضحى، يزداد رعب رجال البلاط، الذين بذلوا دائمًا جهودًا ضخمة لعدم السماح للمدينة بأن تنقسم على أسس مجتمعية عنصرية، لكن الجهاديين تعمدوا الإساءة إلى المشاعر الهندوسية.

عادة، في جميع أنحاء العالم الإسلامي، يحتفل المسلمون بعيد الأضحى، بالتضحية بماعز أو شاة لإحياء ذكرى تضحية إبراهيم وفداء الله إسماعيل - في القرآن، إسماعيل هو ابن إبراهيم الذي كان على وشك أن يُقدَّم أضحية للرب، وليس إسحاق كما في العهد القديم - . ولكن كما كتب محمد باقر: قرَّر المجاهدون ذبح بقرة في الفناء المفتوح أمام المسجد الجامع يوم العيد! وقالوا إنه إذا اعترض الهندوس على هذا فسيقتلونهم، وبعد تصفية الحسابات مع الهندوس فسوف يبيدون الفرنجة.. وقالوا: «حتى ننال شرف الشهادة، يجب أن نقتل الهندوس والفرنجة!».

بعد ذلك بوقت قصير، في التاسع عشر من يوليو، قام بعض الهندوس السيبويين بقطع حناجر خمسة جزارين مسلمين اتُّهموا بقتل البقر! إذن كانت هناك أزمة تلوح بالأفق، وتشير إلى اقتراب اندلاع فتنة طائفية دينية، وهو ما كان يخشاه ظفر على الدوام، إذ كان نصف سكان دلهي تقريبًا من الهندوس، وكان يتفهَّم جيدًا أنه لن يستطيع السيطرة على الحكم بأمان دون موافقة نصف رعاياه، بالإضافة لأن أمه هندوسية، وكان دائمًا يتبع ما يكفي من العادات الهندوسية.. ارتأى ظفر أنه ولوقف هذه الفتنة وتخويف المتشدِّدين، يجب أن يرد ردًّا حاسمًا غير معتاد، وفي اليوم نفسه الذي ذُبح فيه الجزارون، أصدر مرسومًا بـحظر ذبح الأبقار، ونهى عن أكل لحوم البقر وبأن من سيتم الإمساك به وهو يذبح بقرة فسينال عقابًا رهيبًا هو إطلاقه من المدافع. نفذت الشرطة الأمر على الفور، بل ذهبت إلى حد اعتقال أي بائع كباب يُمسك به وهو يشوي كبابًا من لحم البقر. أرسل أحد هؤلاء، حافظ عبد الرحمن، إلى البلاط، يقسم إنه لم يكن جزَّارًا ولا يمكن تحميله مسئولية ذبح البقر؛ علاوة على ذلك، فقد امتهن مهنته الحالية - شواء الكباب - فقط بعد تدمر عمله المعتاد بسبب أعمال الشغب التي قام بها السيبيويون! لكن على الرغم من هذا لم يتم إطلاق سراحه.

بعد ذلك أمر ظفر بإحصاء جميع أبقار المدينة، بواسطة الحرس والعمال الذين تلقَّوا تعليمات مشددة بعمل قائمة بجميع الأبقار التي يتم تربيتها من قِبَل أتباع الإسلام، وإبلاغ الشرطة بها ومن ثَمَّ إرسالها إلى القصر.. وهو ما تم في غضون ست ساعات. ثم قُرِعَت الطبول يصاحبها صوت عالٍ يعلن بأمر قائد الشرطة سعيد مبارك شاه أن: «ذبح البقر ممنوع تمامًا لأنه سيسبب فتنة لا داعي لها ولن يؤدي إلا تعزيز موقف العدو؛ وأن أي شخصٍ يقوم بالتفكير في هذا أو يعمل على تحدى أمر الحاكم سوف يعاقب بشدة». ثم تَبِع ذلك أوامر أخرى، بما في ذلك أمر توجيهي سريالي غريب أنه سيتم توفير مأوى لجميع الأبقار المسجلة في وسط المدينة بمركز الشرطة.. ربما كان ظفر غير راغب أو غير قادر على حبس الجهاديين، لكنه كان يمكنه حبس الأبقار! ومع ذلك فقد أثبت هذا الأمر أنه صعب التنفيذ. وكتب سعيد مبارك شاه إلى البلاط محذِّرًا من أنه «إذا تم استدعاء أبقار جميع المسلمين فسوف يصل عددهم إلى ما يقرب من خمسمائة إلى ألف بقرة، لهذا نحن بحاجة إلى حقل كبير حيث يمكن وضع الأبقار لبضعة أيام، وبما أن تابعك المخلص لا يعرف مكانًا من هذا القبيل، فسيكون مُلاك البقر قلقين للغاية على أملاكهم..» فتم وقف تنفيذ الخطة، وبدلًا من ذلك قام أصحاب الأبقار بتوقيع تعهدات أنهم لن يسمحوا بالتضحية بماشيتهم.

وفي النهاية، أُرسِل المفتي صدر الدين أزوردا للتوسط مع المجاهدين، وقد كان اختيارًا ذكيًّا للمبعوث، وليس فقط لأن أزوردا كان أكثر المفكرين المسلمين احترامًا في دلهي، وفقًا للسيد أحمد خان: «أحكم الحكماء».. وحسب قول شاعر دلهي المدعو صابر «هو الذي استطاع التفوق على أفلاطون، ونزل بأرسطو من ذروة الكمال لتراب النَّقيصَة.» ولكن أيضًا لأن أزوردا كان دبلوماسيًا بالفطرة؛ فهو نتاج المدرسة المتشددة للشاه ولي الله الذي كان شاعرًا وصديقًا للشعراء؛ وعضوًا قياديًّا من علماء دلهي الذين اعتادوا على التوسط بنجاح بين المغول والمقيم البريطاني. وعلاوة على ذلك، لم يكن أزوردا مستشارًا مقرَّبًا وحليفًا لظفر فحسب، بل كان أيضًا مدرسًا وشيخًا للشيخ سرفراز علي، وقد أثر في حياته حتى غادر ذلك الأخير دلهي. لا يوجد سِجِل لما حدث تفصيلًا بين الاثنين إلا عند نهاية الأمر، وافق الشيخ سرفراز على إقناع المجاهدين بالتخلي عن ذبح الأبقار وأكل لحوم البقر في العيد. بفضل كل احتياطات ظفر، مر العيد بسلام في الأول من أغسطس. وأصيب البريطانيون - الذين أدركوا من خلال جواسيسهم التوتر الطائفي المتزايد، وكانوا يأملون بفارغ الصبر حدوث شغب طائفي كبير - بخيبة أمل. تذمَّر هيرفي جريثيد في رسالة إلى زوجته بأنه: «ما حدث يعتبر إهانة للمسلمين الذين يقاتلون من أجل إيمانهم، ففي هذا العيد، تحت قيادة ملكهم المسلم، لم يُسمح لأحد بالتضحية ولو ببقرة!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالنسبة لظفر والشيخ محمد باقر، فإن حادثة الأبقار والجهاديين والذبح قد شكلوا نقطة تحول. فطوال شهرين ونصف عُرِّضت مدينتهما للنهب والإرهاب بسبب موجات السيبويين والجهاديين. ولكن على الأقل بدا الأمر في البداية كما لو أنه مجرد فترة انتقالية، وعند انتهائها سيكون هناك الأمل في استعادة النظام وتمكين سلالة المغول التي كان الرجلان سالِفَا الذِّكر ينظران إلى أباطرتها كخلفاء، ويعتبرونهم الحكام الشرعيين الوحيدين في بلاد هندوستان. لكن بنهاية شهر يوليو، بدا الانتصار على البريطانيين بعيدًا بشكل متزايد.. واتضحت أكثر النتيجة المنطقية من المؤشرات الظاهرة، وهي الانهيار الوشيك للفكرة التي يمكن أن تجمع أهل دلهي معًا؛ أي التعايش السلمي بين الهندوس والمسلمين.. أي إنه ليوافق على استمرار وجود السيبويين والمجاهدين في أرضه، عليه أن يدفع هذا الثمن الباهظ للغاية.. وهو ما لا يمكنه فعله.

مع بداية الأسبوع الذي تلا مقتل الجزارين، قام كلا الرجلين، بشكل منفصل تمامًا، بإرسال مقترحات إلى المعسكر البريطاني، على أمل الوصول إلى نوع من التسوية مع القوات على التلال. بالنسبة لظفر وباقر، أخذ هذا القرار وقتًا طويلًا لتنفيذه.. ومع تقدم شهر يوليو، أصبح ظفر أكثر اكتئابًا وانفصالًا عاطفيًّا عن الثورة. كان ولاؤه دائمًا لمدينته وسلالته، وقد أصبح من الواضح بشكل متزايد أنه لم يتم خدمة مصالح أي منهما بهذه الأزمة، بل على العكس تمامًا، فقد أصبح من المرجح الآن أن تؤدي الثورة إلى تدمير دلهي والسقوط الأخير للمغول بعد أكثر من ثلاثمائة عام في السلطة.. وعندما ذهب أحدهم إلى الملك في ثوب البلاط الكامل، مع عمامة على رأسه وحزام حول خصره، وطلب بعض القوات لمحاربة البريطانيين، أجابه ظفر: «لا أملك أي قوات لأعطيها لك، لقد بلغت من العمر ثمانين سنة وصرت عاجزًا.. هذه المعركة ليست معركتي.. بل معركة المتمردين.. إذا كانت لديك رغبة في القتال، اذهب إلى ضباط هذه القوات واتفق معهم».

صار ظفر غير قادر على الاستناد إلى زوجته، زينَّت محل، التي انتقلت للعيش الآن في منزلها في المدينة، غاضبة مما رأت من سياسات كارثية - في رأيها - لزوجها الموالي للمتمردين، ولم يعد هناك خادمه رئيس الخصيان محبوب علي خان.. وهكذا أصبح سلوك ظفر غريبًا لدرجة أنه بدأ الانهيار؛ كان عمره قد بلغ ثمانين عامًا، وقد ظهرت عليه بعض علامات الشيخوخة حتى من قبل الثورة، لكن مع استمرار الحصار، ازدادت كآبته، وأصبحت ردود أفعاله تجاه الأحداث في البلاط أكثر كارثية وتمركزًا حول الذات. في بعض الأحيان كانت قراراته غريبة الأطوار لدرجة الجنون، كأنه النسخة الهندية من الملك لير بمسرحية شكسبير الشهيرة، مثل عندما عيَّن والد زوجته ليصبح حاك أوده،

وهي منطقة لم يسيطر عليها المغول منذ منتصف القرن الثامن عشر. لاحقًا، حاول إقناع جنرال السيبويين الساخط بالبقاء في دلهي من خلال منصب حاكم منطقتي ديكان وجوجيرات، وهما المنطقتان اللتان كانتا أيضًا خارج أيدي المغول لما قبل منتصف القرن الثامن عشر. وبحلول أوائل أغسطس، كان قد تراجع ليقوم بكتابة الشعر، بأبيات غريبة تتصف بأنها، مثل حالته المزاجية، تتأرجح بين الكآبة والتفاؤل غير الواقعي.. كما أرسل الجاسوس جوري شانكار في السابع من أغسطس: «الملك يعمل طوال اليوم في تأليف القصائد الشعرية! وتقول إحدى تلك القصائد:

أيا ظفر، سنسيطر على لندن قريبًا..

فإنها ليست ببعيدة.»

عندما لم يكن يكتب الشعر، كان يمضى كثيرًا من وقته في محاولة طرد السيبويين من حدائقه المحبوبة، والتي كان قد زرع كثيرًا مما فيها من نباتات بنفسه. وقد حقق هذا أخيرًا في يونيو، فقط ليجد بعد أسبوعين أن مائتي جندي من الفرقة الخامسة والأربعين، وطبيب وعائلته قد تمركزوا هناك. فكتب بسخط لـميرزا مغول: «الموكب الملكي كثيرًا ما يتنازل وينزل إلى الحديقة، وفي هذه الأحيان ينزعج كثيرًا لرؤيتهم. لذلك وُجِّهت أنت - أي بني - للتحدث إلى ضباط البلاط في هذا الشأن، ولتعمل على رحيل هؤلاء الجنود والطبيب وعائلته.».

في أوقات أخرى بدا على ظفر وكأنه يرغب في الهروب، مستخدمًا تهديده المستمر بمغادرة دلهي والذهاب للحج ليشغل نفسه بالصلاة طيلة الوقت، ربما كان في البداية مجرد محاولة منه لتحقيق الوحدة في صفوف الثورة والضغط على السيبويين لطاعته وليكفوا عن نهب مدينته. ولكن بحلول شهر يوليو، بدا الأمر وكأنه انعكاس عميق لأمنيته في الهروب ببساطة من رعب مسئوليات منصبه؛ لقد شاهد ما يكفي من تمزق في كل شيء خطط له وعمل من أجله؛ واحة الثقافة والحضارة التي بناها، واستمرار السلالة التي حاول أن يحافظ عليها طوال حياته.. شاهد تمزق هذا الحلم وتدميره أمام عينيه.. تكشف إحدى الوثائق الدرجة التي وصل لها ظفر من إثارة الشفقة، والتي تم إبرازها في محاكمته: رسالة إلى عبد الرحمن خان، الشاب الصغير القاصر الإقطاعي، حاكم بلدة جهجار الصغيرة - وهو الرجل نفسه الذي رفض إيواء ثيو بالسابق - وكان ظفر يتوسل إليه ليأتي وينقذه.. كان يخاطب الحاكم - وهو رجل غني مرفه، لم يشهد حربًا واحدة في حياته - بتلقيبه بـ«نمر الحرب»، وأوضح أنه بسبب حدوث عديدٍ من الظروف غير السارة، وكونه غير قادر - نتيجة لتقدمه في السن وضعف جسده - على التعامل مع شئون الحكومة والبلد، لم تعد لديه رغبة الآن إلا في الانخراط في الأعمال الصالحة

التي يرضى عنها الله والناس، ليقضي ما تبقى من حياته في خدمة وعبادة الله.. وتابع موضحًا خطته غير العملية تمامًا:

أولًا أن يتحرك مع كل أعضاء بيت آل تيمور الجليل، ومعهم جميع ممتلكاتهم وأحفادهم إلى الضريح الصوفي لخواجة قطب في مهرولي، وبعد ذلك، بعد جمع كل ما هو مطلوب للرحلة، الانتقال من الهند التي مزقتها الحرب إلى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتوسل إلى نواب جهجار، أن يلبي الأمر بسرعة، ويصطحب معه من يثق بهم تمامًا. «لحماية شخصنا المبجَّل حتى رحيلنا إلى بيت الله المقدس في مكة المكرمة. بهذه الطريقة سنتمكن من الذهاب إلى رحلتنا الروحانية وستسعدنا، وستنتقل شهرتك بالمثل في جميع أنحاء البلاد.» ومع ذلك، فقد كانت هناك صعوبة صغيرة في هذه الخطة.. كتب ظفر: «لا توجد عربات من أي نوع لشرائها هنا، لذلك تأكد من إحضار أربعمائة أو خمسمائة عربة، وخمسمائة أو ستمائة جمل.» لكن الحاكم صمم على التزام الحياد وعدم التعاون مع أي من الجانبين، فقدم اعتذاره وقال إنه آسف للغاية، ولكن بسبب عدم الاستقرار في هذا الزمن، هو غير قادر على مساعدة الملك، ظل الله على الأرض. بعد ذلك بوقت قصير، وفقًا لجاسوس بريطاني، ظهر ظفر وهو يتلو المقطع التالي، بعد أن تركه السيبويون في إحدى الأمسيات:

«هوت السماء فوقنا..

لم يعد بإمكاني الراحة أو النوم.

الآن رحيلي الأخير هو الشيء الوحيد المؤكد..

سواء أكان ذلك في الصباح أم في الليل.»

رآه ظهير دهلوي - الذي كان يتردد قليلًا على ظفر طوال الحصار - يغرق في كآبته بينما شهر يوليو يفسح الطريق لأغسطس، حتى وصل إلى حالة تقترب من اليأس. كتب ظهير بعد ذلك بوقت طويل: «كان دائمًا في مزاج كئيب وحزين، وكانت عيناه دائمًا ممتلئة بالدموع.. في المساء كان يذهب ويجلس في «التسبيح خانة»، وحده ويلعن الثوار.. تلقينا تعليمات بتناوب الأدوار في التردد عليه، وذات ليلة بينما كنت في الخدمة، سمعنا الحارس يطلب منا جميعًا أن ننتبه، فارتدينا جميعًا عمائمنا واستعددنا للتحية. عندما ظهر الملك، نهضنا كلنا وقمنا بتحيَّته. جلس الملك في التسبيح خانه على العرش المنخفض، متَّكئًا على وسادة. ثم خاطبنا قائلًا: «هل تدركون العواقب الكاملة لما يحدث؟» أجاب شاه زاده حامد خان: «بعد مائة وخمسين سنة يا صاحب الجلالة تمكنت من استعادة هيبتك، وقد عادت إمبراطورية المغول المفقودة من جديد.» هز الملك رأسه. قال: «يا أطفالي، أنتم لا تفهمون.. اسمعوني، لم

أفعل شيئًا يستحق كل هذا الدمار.. لم يكن لدي كنوز ولا ثروات، لا أرض ولا إمبراطورية. كنت دائمًا متسوِّلًا، صوفيًّا يجلس في زاوية بحثًا عن الله، مع قلة من الناس يأكلون من حولي خبزَ يومي. ولكن النار العظيمة التي اشتعلت في ميروت بإرادة الله، قد انتقلت إلى دلهي، وأضرمت النار في هذه المدينة العظيمة.. الآن يبدو أنني وسلالتي في طريقنا للاضمحلال.. قد لا يزال اسم الأباطرة من آل تيمور العظماء (المغول) حيًّا، ولكن سرعان ما سيطويه النسيان.

هؤلاء الخونة من السيبويين، والذين تمردوا على أسيادهم، وأتوا إلى هنا بحثًا عن المأوى، سوف يختفون كلهم قريبًا. لقد كانوا غير مخلصين لقادتهم، فماذا يمكن أن أتوقع أنا منهم؟ لقد أتوا لهدم بيتي، وبمجرد أن يخربوه بالكامل فسيهربون. ثم سيقطع الإنجليز رأسي ورأس أولادي، وسيعلقون رءوسنا على بوابات القلعة. لن يرحموا أحدًا منكم، وإذا نجا أي منكم، فليتذكر ما أقوله: حتى إن أخذت لقمة من الخبز في فمك، فسوف يخرجونها ويسرقونها، وسيُعامَل النبلاء في هندوستان مثل الشحاذين.»

بالنسبة لظفر، إجراء اتصالات مع البريطانيين، واستكشاف إمكانية التصالح، لم يكن صعبًا؛ في الواقع كانت زوجته ورئيس وزرائه بالفعل على اتصال غير مباشر مع التلال من خلال قائد استخبارات هودسون، الشيخ رجب علي. ربما اختار باقر الطريق نفسه وطُلب منه جمع نشرة إخبارية ليتم إرسالها إلى قسم المخابرات في المعسكر البريطاني. توجد ترجمة معاصرة، لما يبدو أنه أول تقرير لباقر بقي في أرشيف دلهي، ويعطي مؤشرًا عن سبب إصابة مثل هؤلاء المتمردين المتحمسين بخيبة أمل شديدة في أقل من ثلاثة أشهر. كتب: «منذ أن قتل السيبويون الهندوس الخمسةَ جزارين لذبحهم الأبقار، ثارت خلافات كبيرة بين الهندوس والمسلمين في قوات المتمردين! بالإضافة لكوننا نحن، الطبقة العليا من السكان، قد تقلص عددنا لأقصى درجة بسبب عنف السيبويين المتطرفين، وليس لدينا أي أمل في النجاة بحياتنا.. ومِن ناحية أخرى جواسيس الجنرال بخت خان يلاحقونني أينما ذهبت.. هناك حراس على منزل المفتي صدر الدين خان [أزوردا] وجميع المخارج والمداخل مغلقة. اقترحت على الملك من خلال زينت محل أن يفتح البوابات ويدعو الإنجليز للحضور والاستيلاء على المدينة، مخبرًا إياه أنه إذا تمكن من القضاء المتمردين فسيكون ذلك شيئًا عظيمًا يستفيد منه هو وأولاده.. وافق الملك على نصيحتي ووعد بتنفيذها. لكن الحكيم إحسان الله خان، بسبب الاختلاف بين مذهبينا، حال دون تنفيذ مشوراتي.. إذ إن الحكيم سنيٌّ، بينما أنا شيعيّ.»

لم يُفِد أي من الرجلين من هذه المحاولات المتأخرة للتوصل إلى شيء. على الرغم من أن الجنرال ويلسون على التلال ولورانس في لاهور أوْصَيَا بأن

مراسلات ظفر يجب بحثها على الأقل، لكن كانينج كان مُصِرًّا أنه لا ينبغي إجراء أيَّة مفاوضات من أي نوع، ويجب ألا يتم بأيَّة حال من الأحوال أن يُسمح لظفر بالاعتقاد بأنه سيحتفظ بلقبه القديم أو موقعه بمجرد سحق التمرد.. وهكذا تُرك بلاط المغول في مهب الريح، غير قادر على تحرير نفسه من الارتباط بالثورة التي نفر منها على نحو متزايد، وأصبحت هزيمتها الآن مجرد وقت. في هذه الأثناء، احتفظ هودسون بمحمد باقر كجاسوس، لكنه فشل في أن يؤمِّن له أي نوع من الضمان بأن خيانته ستنقذ حياته عندما تسقط المدينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول نهاية يوليو، كانت هناك مؤشِّرات واضحة على أن التوازن العسكري أصبح الآن يتأرجح بشكل لا رجعة فيه لصالح البريطانيين.. على الرغم من أن عدد القوات الموجودة على التلال كان لا يزال أقل بكثير من أولئك الموجودين في المدينة، فإن عدد الهجمات كان يقل وتصبح أقل حماسة يومًا بعد يوم، بينما كان الخلاف يتزايد بين قيادة المتمردين.. كتب جريثد في رسالة وجهها إلى زوجته في التاسع والعشرين من يوليو: «بدأت الأمور تتغير، والأمواج تضرب بقوة أقل على صخرة دفاعنا.» في المعسكر البريطاني بدأت الأفكار الآن تتحول إلى أفكار للانتقام؛ حيث تتم مناقشة إبادة شعب دلهي بصراحة وحماسة، بالإضافة إلى تدمير المدينة وتسويتها بالأرض.. هذا الانتقام أذْكته الصِّحافة البريطانية، التي كانت قد سمعت للتو عن أسوء جريمة حرب ضد المدنيين البريطانيين طيلة فترة الانتفاضة كاملة؛ مذبحة لـ٧٣ امرأة و١٢٤ طفلًا في بيبيجار في كانبور.

كان جورج واجنتريبر من أكثر المتعطشين للدماء، والذي - بعد هروبه من دلهي - شق طريقه مع زوجته وعائلته إلى لاهور، حيث يقوم الآن بتحرير صحيفة دلهي جازيت التي وُلدت من جديد، والتي صارت معروفة الآن باسم دلهي جازيت إكسترا، وتهدف إلى أن تكون نشرة إخبارية ومشجعة النَّاجين من أعضاء الجالية البريطانية في دلهي. إصدارًا بعد الآخر.

دعا واجنتريبر بشكل جنوني للتدمير الكامل لدلهي و«إبادة الشياطين الذين لوَّثوا جدرانها وشوَّهوا صفحات التاريخ بجرائمهم الشنيعة.. اجتاحت عاصفة الفظائع والجرائم الشريرة التي ارتبطت بالثروة البريطانيين المحتلين للبنغال، تاركة وراءها شظايا من الرعب والخراب، لا يعادلها إلا الجرائم التي قام بها كلاب الجحيم الذين نفَّذوا حتى الآن مخططهم الشيطاني لرفع لواء نبي الإسلام الفاسق مرة أخرى، في معارضة للتدبير الجديد المقدم للبشرية، في شخص يسوع المسيح ابن الله.. أعلن الهندوس والمسلمون عن نفسهم ودينهم للعالم كله من خلال كتلة من القسوة الشيطانية التي لا مثيل لها في

تاريخ العالم. وبالمثل ستكون العقوبة التي توشك أن تقع بما يعادل فعلتهم.. يجب أن يُسرع الجندي البريطاني، كملاكٍ منتقم في المذبحة التي تنتظرنا في دلهي. دعونا ننظر إلى ما هو أبعد قليلًا، يجب أن تعود القوات البريطانية لاحتلال دلهي خلال فترة وجيزة، وأن تتبوَّأ القيادة العامة مركزها في قصر المغول، ووَضْع حبلٍ حول عنق الملك بديلًا عن تاجه، والتضحية بحياته للعدالة البريطانية. ماذا بعدُ؟ جوابنا هو: دع دلهي تغرق في الصمت.. تسكن كصمتِ الموتى داخل القبور.. بينما تستمر العدالة في مسارها، تسجن وتذبح وتضحي بحياة أي مواطن اشترك في هذه العاصفة الرهيبة.».

تلك المجزرة بحق سكان دلهي، بأوامر وتبريرات من زاوية الإنجيليين الفيكتوريين من خلال قراءتهم للكتب المقدسة المسيحية، شارفت على التحقق في الخامس من أغسطس، عندما وصلت الأخبار على التلال أن هناك تعزيزات ضخمةً في طريقها أخيرًا. من أجل إدارة هذا العمل الفذِّ، اضطر جون لورانس إلى تجريد البنجاب من جميع القوات البريطانية تقريبًا، لتحمل العدد المقبل الجديد وهو ما يُعَد مخاطرة كبيرة.. إذ كان الجيش القادم بطول ميل واحد فقط، محمل بالمدفعية الثقيلة، في فيروز بور، وهو يتحرك الآن متثاقلًا أسفل طريق جراند ترانك، وبينما كانت المجموعة الراحلة الأسرع بكثير قد وصلت إلى أمبالا بالفعل، كانت القوة ما زالت على بعد أيام قليلة من الوصول. لكن ما رفع من معنويات القوات البريطانية على التلال، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين كانوا يتطلعون لتصفية حساب دموية داخل أسوار دلهي، كانت الأخبار التي أشيعت مع اقتراب المجموعة المتحركة، أن جون نيكلسون كان يقودها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انقلاب المَدِّ

قاد العميد جون نيكلسون جيشه إلى المعسكر البريطاني في تلال دلهي قبل الإفطار مباشرة يوم الجمعة الرابع عشر من أغسطس. مصطحبًا معه ألف جندي بريطاني، وستمائة من الفرسان غير النظاميين - جميعهم من البنجاب المسلمين - من «مولتان»، ودبابة مدفعية بريطانية؛ يتبعهم ألف وستمائة سيبوي من السيخ، مما أدى إلى مضاعفة حجم جيش ويلسون الصغير.. لكن كان وجود نيكلسون نفسه، لا القوات التي برفقته، هو الأمر الذي ترك أكبر انطباع في قوة دلهي الميدانية المحاصرة. كتب هودسون لزوجه: «نيكلسون هذا يوازي حشدًا في حد ذاته.. أعاد للمعسكر حيويته وفكرة حدوث شيء حاسم..». كان تشارلز جريفيث، الذي كان متخوِّفًا في العادة، أكثر حماسة.. كتب: «أكثر ما أضاف لقوتنا كان وجود البطل جون نيكلسون بيننا.. تُروى عديد من القصص عن براعته ومهارته، كان رجلًا ذا مكانة عظيمة، ومظهره يُفصح عن هذا بالكامل.. وكأنه ملك، يتَّسم بالهدوء والثقة بالنفس، غزير المعرفة وممتلئٌ بالجرأة، لا يمكن أن تثبطه الصعوبات.. وبث روحه التي لا تقهر طاقة جديدة في الرجال من حوله.. كان اسمه يتردد على كل الألسنة، وقد أدرك كل جندي أنه بقرارته الصارمة سيتحقق الانتصار.».

منذ مغادرته بيشاور في مايو، صار نيكلسون - الذي كان في السابق جنديًّا مغمورًا وموظفًا مدنيًّا في السادسة والثلاثين من عمره على الحدود الشمالية الغربية، وغير معروف خارج دائرة معارفه الصغيرة - في غضون أسابيع قليلة أسطورةً بين البريطانيين في شمال الهند. وبعد كل شيء، كان البريطانيون بحاجة ماسة إلى بعض الأبطال بعد سلسلة من الأخطاء الفادحة وعدم اللامبالاة التي عجَّلت بالانهيار، فالاستجابة البطيئة والمترددة هي ما سمَح للتمرد أن يتفشى بهذه السرعة.. وعلى العكس تمامًا، كان نيكلسون مزيجًا من الالتزام والصرامة والجاذبية والشجاعة، إلى جانب وحشيته التي لا ترحم الأعداء.. وبسبب الهجمات اليومية على قواتهم الميدانية لمدة شهرين حتى الآن، والقصص التي تتسرب ببطء عن مزيدٍ من الثورات في جميع أنحاء هندوستان؛ والأخبار السيئة القادمة من حصار لكناو والمذبحة المروعة في كانبور.. كان هذا بالضبط ما كان مطلوبًا لبث الروح الحماسية في القوات البريطانية المحبطة خلف أسوارهم في الجزء العلوي من التلال.

كان اكتئابهم قد تزايد في الآونة الأخيرة بسبب عدم كفاء الجنرال الشيخ «هيويت» وضعفه في ميروت، والجنرالات الضعفاء وكبار السن «أنسون»، و«بارنارد»، و«ريد»، الذين تسببوا في ضعف القوة الميدانية وجعلها بعيدة كل البعد عن الانتصار.. وبالنسبة لهم، كان نيكلسون هو الترياق المثالي لهؤلاء المسنين المتعبين والرجال المتوترين. قبل وقت طويل من وصوله إلى دلهي،

كانت القصص تدور بالفعل حول مسيرات إجبارية للمجموعة المتحركة لمسافة ستة وأربعين ميلًا في اليوم؛ وقصص عن كيف - بينما رجاله يستريحون في الظل - كان نيكلسون ينتظر، راكبًا وثابتًا على حصانه، تحت وهج شمس الظهيرة، وكيف أنه لم ينمْ قَطُّ، وفي الليل، عندما يخلدون جميعًا للراحة، يجلس هو يكتب رسائله؛ وقصصًا أخرى عن الدرجة التي يكره نيكلسون بها السيبويين، وهي كراهية لا يمكن وصفها بكلمات.. الأهم من ذلك كله، كان المعسكر البريطاني مغرمًا بأخبار انتصار نيكلسون الأخير في تريمو جات، حيث واصل سلسلة من المسيرات الإجبارية للقوات، ونصب كمينًا لمجموعة من السيبويين المتمردين من سيالكوت كانوا متجهين إلى دلهي، وبعد أن أمسك بهم قادهم إلى نهر رافي، وتأكد من مطاردة آخر رجل فيهم.. كان السيبويون في عجلة من أمرهم يهربون إلى النهر.. في فترة من التقلُّبات قادتها الرياح الموسمية، ومن لم تقتله رصاصات القوات، أغرقته مياه النهر ولقي حتفه.. وبحلول أغسطس، وصلت قصص نيكلسون وقواته إلى كالكوتا، حيث كتب كانينج الذي وافق على أفعالهم: «نيكلسون يجتاح البلاد كأنه تجسيد للانتقام، وبث الرعب في القلوب.»

كان هناك عدد قليل جدًّا ممن بقوا محصنين ضد السقوط في شَرَكِ هذا المختل الذي يجسد كل الأحلام الإمبراطورية بالنسبة للإنجليز، أي إنه كانت هناك استثناءات؛ في أثناء المسيرة أصيب الملازم الشاب إدوارد أوماني بالصدمة من شراسة نيكلسون العبثية.. كتب أوماني في دفتر يومياته يوم الحادي والعشرين يوليو: «يبدو أنه شديد الوحشية.. على سبيل المثال، أمر رجلًا مفتول العضلات بجلد صبيٍّ طباخ ذات مرة، لوقوفه في طريق خط المسيرة.. بكى الصبي، وعاد لعمله مرة أخرى متوجِّعًا، لكنه مات من آثار الضرب!». كان أوماني مذعورًا من درجة الحرية التي منحها نيكلسون لقواته للتصرف بعنف شديد ضد الأسرى الضعفاء؛ هناك رجل من المجموعة الثانية غير النظامية، كان قد قاد متمردي سيالكوت لمكان ضحل من النهر ليُسهِّل عليهم العبور، فقُطعت يديه، وطُعِن بحربة، ثم أُعدِمَ! كما كان يتم جر مجموعات من السجناء وأيديهم مقيدة إلى الغابة، وطعنهم بالأسياخ. مثل هذه الأعمال الوحشية ستقف عارًا علينا على المدى الطويل، وليس لأن هؤلاء الرجال فعلوا الشيء نفسه بنا، سببًا في أن نحاكيهم.. من يجب أن نقتلهم بكل الوسائل شنقًا وبإطلاق النار هم المذنبون حقًّا.. ولكن يجب إنقاذ الأبرياء. ترك نيكلسون أيضًا انطباعًا سيئًا عند بعض الضباط الأقل وحشية في التلال. كتب الرائد ريد، الذي كان قد تحمل وطأة هجمات السيبويين معه في منزل هندو راو (القصر الأبيض سابقًا): «أظنني لم أكره رجلًا بحياتي من النظرة الأولى مثلما كرهته، لم أستطع تحمل أسلوبه المتغطرس وسخريته الغريبة.. سأل عدة أسئلة عن موقع العدو، ثم تجاهلني بالكامل..».

كان هيرفي جريثيد أيضًا غير متأكد من كيفية التعامل مع هذا الرجل، الذي أصبح يُنظر إليه بشكل متزايد على أنه القائد الحقيقي للقوة الميدانية.. ففي أثناء فوضى الضباط التي حدثت ليلة وصوله، جلس نيكلسون بصمت طوال تناول الطعام، وقد وقف خادمه الضخم من البشتون خلفه: «يلتهم الطعام بيد، ومسدسه الجاهز للإطلاق في اليد الأخرى.»، اشتكى جريثيد لزوجِه في اليوم التالي: «كان الجنرال نيكلسون على العشاء رجلًا مهيبًا جدًّا، لا يتحدث أبدًا - وهي صفة جيدة بالنسبة لرجل مدني - لكن ليس الآن، ليس في الجيش.. فلو كان كل شيء بيننا رسميًّا وكنا قليلي الكلام خلال الشهرين الماضيين، فلا أعتقد أننا كنا سنتمكن من البقاء على قيد الحياة.. تبادل الحديث مع بعضنا بعضًا في أثناء وجبة العشاء هو ما حافظ على معنوياتنا.».

كان نيكلسون محصَّنًا ضد أي نقد من هذا القبيل، في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كان يتجول على ظهر جواده بالخارج في التلال، ويدرس الدفاعات، ويتفقد الدبابات وأعمال التحصين، وبدأ تشكيل خطته للاستيلاء على المدينة. يذكر أحد الجنود: «ظهر فجأة شخص غريب من العدم، ذو مظهر لافت للغاية زار جميع خيامنا، وطرح كثيرًا من الاستفسارات حول قوتنا وتاريخنا وقوة وتاريخ الأعداء، لم يكن على ملابسه أيَّة إشارة على رتبته.. من الواضح أنه لم يكلف نفسه عناء هذا.. لكن سرعان ما عرفنا أنه كان الجنرال نيكلسون، الذي لم يكن شخصًا معروفًا بعد في المخيم، وترددت همسات في الوقت نفسه بأنه يمتلك أذكى عقلية عسكرية ممكنة.. كان رجلًا ذا صدر ضخم وأطراف قوية، وبوصف أدق، شديد الخشونة؛ على الرغم من هذا كان جذابًّا ذا لحية طويلة سوداء، وصوت رنان عميق.. وهناك شيء من القوة الهائلة والموهبة والقدرة على حكم قيادة المناصب العليا بشكل لا يستطيع إخفاءه.».

كان تناقُض تلك الشخصية مع شخصية الجنرال ويلسون الأنيقة والخجولة المبتهجة لافتًا للانتباه للغاية، وكان الصِّدام بينهما حتميًّا، خاصةً بالنظر لعدم قدرة نيكلسون المعتادة على تقبل الأوامر من أي شخص.. استاء ويلسون من موقف نيكلسون المتعالي إذ كان على الرغم من كل شيء، هو القائد هنا! بينما أُصيب نيكلسون بالذهول من حذر ويلسون الشديد وقلقه المستمر.. كتب نيكلسون إلى جون لورانس: «يقول ويلسون إنه سيقوم بالهجوم فور وصول حَمَلة البنادق الثقيلة، لكنه قال ذلك بطريقة مترددة تجعلني أشك فيما إذا كان سيفعل ذلك حقًّا.. إنه لا يستطيع التعامل مع تلك الأزمة على الإطلاق، وأعتقد أنه يشعر بهذا في قرارة نفسه.» كشفت الرسائل اللاحقة أن الخلاف قد تعمق.. كتب نيكلسون للورانس في منتصف أغسطس: «يكاد ويلسون أن يفقد أعصابه.. يقول ذلك بنفسه، وواضح تمامًا أنه يقول الحقيقة.» بعد ثلاثة أسابيع كتب نيكلسون رسالة أسوء إلى لورانس: «لقد رأيت كثيرًا من

الجنرالات السيئين غير المجدِّين في حياتي، لكنني لم أر مثل هذا الجهل من قبل، ولن يجبرني أي شيء على الخدمة ولو ليوم واحد تحت قيادته بعد حل هذه الأزمة.»، ولكن حتى مع استمرار نيكلسون في الشكوى، فإن نهج ويلسون - لبناء دفاعات على التلال وانتظار وصول مزيدٍ من القوات - تم تبريره.. لأن هجمات المتمردين لم تتوقف، وعلى الرغم من أنها صارت أكثر ندرة، فإنه في كل مرة يقوم فيها فوج جديد من السيبويين المتمردين بمهاجمة جسر القوارب، تقوم القوات بإيقافه.

كان النجاح البريطاني المتزايد في التعامل مع مثل هذه الهجمات الجماعية دون أي خسائر تقريبًا من جانبهم يرجع إلى حد كبير بسبب الاحتياطات الدفاعية لويلسون؛ قبل عدة أيام، عند وصول فوج جديد من السيبويين من راجستان، يتكون من عدة آلاف من الرجال وعشرة بنادق ميدانية وثلاث قذائف هاون، قاموا بالهجوم على التلال.. استمر هجومهم طوال الليل وحتى ظهر اليوم التالي.. بحلول وقت الغداء، كان قد مات أكثر من ألف سيبوي، على النقيض من الخسائر البريطانية الضئيلة؛ بلغت ستة وأربعين جريحًا وقتيلًا فقط. كانت أحد أكبر الهزائم التي لاقاها العدو وفقًا لـهنري دالي - أحد جنود الجيش البريطاني - كانت خسارته كبيرة؛ فقد بدَّد ذخيرته على العربات ولم يشتبك مع رجال البريطانيين قط.. هذه هي الأمثال التي يجب أن نضربها عن التصرف في موقف دفاعي. كان البريطانيون الجالسون بأمان داخل تحصيناتهم، أكثر وعيًا من أي وقت مضى بشجاعة خصومهم الشديدة. كتب تشارلز غريفيث: «لم أرَ ما يمكن أن يتجاوز شجاعتهم المتمثلة في القتال كل يوم تقريبًا، وعلى الرغم من تعرضهم للهزيمة في كل مرة، لكنهم يعودون مرارًا وتكرارًا للمواجهة من جديد.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن الهجمات من المدينة أقل فاعلية فحسب، بل صارت كذلك نادرة أكثر فأكثر؛ كما كتب هيرفي جريثد لزوجته في الرابع من أغسطس: «بالكاد تم إطلاق رصاصة واحدة منذ ٢ أغسطس، ولم تقترب دباباتهم منَّا، وسيكون الأمر مجرَّد وقاحة لو حاولوا هجومًا آخر.» مع ازدياد هدوء القتال، وزيادة ثقة البريطانيين، صار لديهم مزيدٌ من وقت الفراغ. ذهب بعضهم للصيد في قناة يامونا في الجزء الخلفي من التلال.. بينما لعب آخرون كرة القدم، والكريكيت، وذات يوم كان هناك سباق جياد. بدأ جريثيد امتطاء جواده يوميًّا للتمشية خارج المعسكر، كما أشار: «يمكنني الآن الركوب بأمان لمسافات طويلة!» واعترف لزوجه أن الرائحة الكريهة المتصاعدة من جثث الحيوانات النافقة خارج حدود المعسكر تسلب المتعة من هذه الرحلات. كان هناك أيضًا مزيدٌ من الطعام ومتع الحياة حولهم؛ إذ مدهم قطيع ضخم من الأغنام تم اقتياده من فيروزبور بلحم الضأن الطازج، في حين قام حكام البنجاب،

الموالون للإنجليز، بإرسال إمدادات منتظمة من الحبوب. ولمسيرة يوم إلى شمال دلهي، قام تابع لهم بحراسة قاعدة إمداد بريطانية مُدارة بكفاءة في «راهاي».. ولمن يستطيع الشراء بالمال، أُفتتح متجر يبيع بعض المنتجات النادرة الغريبة مثل مسحوق الأسنان، والدبابيس، والورق، والشوكولاتة وبعض نبيذ «موسيل» الجيد، على الرغم من أن سعره بلغ ثماني روبيات للزجاجة، أي بعيدًا عن متناول معظم الجيوب.. وكانت البيرة التي قدمها التجار الفارسيون معقولة السعر بالمقارنة، إذ كان سعر الدزينة كاملة ١٢ روبية.

ربما كان لا يزال هناك كثيرٌ من الوفيات اليومية جراء الكوليرا، وكانت رائحة تعفن أجساد البشر والحيوانات على التلال أسوء من أي وقت مضى؛ لكن كان هناك مزيد من الوعي في الخنادق بأن الأحوال قد بدأ تتغير، وتنقلب لصالحهم، وبدأت المعنويات ترتفع أكثر من الشهر السابق. كتب هيرفي جريثيد في السادس من أغسطس: «يجب أن أقول إن هناك نحيبًا أقل ومزيدًا من البهجة في المعسكرات على التلال أكثر من أي مكان آخر في الهند.. هُزِم المتمردون في خمسة وعشرين معركة منذ أن وصلنا إلى هنا، وقد انتهى مدهم بالتعزيزات التي كانوا يعتمدون عليها، كما قد أرهقوا مزودهم بالذخائر.. من ناحية أخرى، ستكون قوتنا قريبًا قد وصلت إليها كل التعزيزات اللازمة، وربما لن يمر الشهر قبل أن تسقط المدينة بلا أيَّة صعوبة.. وينتهي حلمهم الواهم بأن يسقُط حكمنا، وبعدها نستعيد سلطتنا.».

حافظ آخرون على معنوياتهم مرتفعة من خلال الحلم بثروات دلهي وكنوزها، على أمل الحصول على «ماسة صغيرة لطيفة أو اثنتين» من «الزنوج الأثرياء المسنين» على حد قولهم. كتب تشارلز جريفيث: «كانت دلهي في عام ١٨٥٧ واحدة من أكبر - وبالتأكيد أغنى - مدن هندوستان وأهمها وأجملها.. وكنا نعلم جيدًا أن هناك ثروة لا تُقَدَّر بثمن داخل أسوارها، وكان مجرد التفكير في تلك الثروات التي ستقع في أيدينا عن الاستيلاء على تلك المدينة المتمردة، يرفع معنوياتنا ويبهجنا.».

بدأت قوة الرياح الموسمية التراجعَ الآن، وانحسر مستوى المياه في مستنقعات يوليو لتُفسح المجال بحلول شهر أغسطس إلى المساحات الخضراء الأشجار المورقة واللامعة.. بعض الضباط البريطانيين الشاعريين لاحظوا ما لم يلاحظوه من قبل؛ جمال الطبيعة المذهل لموقعهم. كان الشخص الذي لاحظ ذلك هو الضابط الذكي هاري جامبير؛ كان في الثالثة والعشرين من العمر فقط، ولم يمضِ وقت طويل خارج بلدة «إيتون» الإنجليزية، كان في دلهي في ١١ مايو، وفَرَّ في تلك الليلة مع العقيد كنيفيت. بعد عدة أيام انضَمَّ هو وكنيفيت إلى حزب فيبارت، حيث سقط جامبير رأسًا

على عقب - كما فعل كثيرون قبله - في حب الجميلة آني فورست، التي طالما أعجب بها من مسافة بعيدة. أصبح هاري وآني قريبين في أثناء المحنة المشتركة المتمثلة في التعرض للنهب من قبل الغجر، والتجول جياعًا، ونصف عاريين، قبل أن ينقذ «فاراسو» مجموعتهما أخيرًا. من التلال كتب جامبير رسائل مبهجة وشاعرية إلى آني في ميروت؛ وصف فيها حياته اليومية على التلال، بدءًا من طبق البطيخ والمانجو الذي كان يتناوله على الإفطار، وصولًا إلى المناورات العسكرية التي شهدها. كان قد أمضى هو وآني بعض الوقت معًا في حفلات دلهي قبل اندلاع الثورة، وكتب الآن ليخبرها كيف كان المكان مختلفًا تمامًا من فوق التلال: «المشهد من هنا بديع جدًّا، تخيَّلي أنكِ في برج فلاجستاف عند غروب الشمس.. وخلفك تتوهج الغيوم، واللون الأخضر يمتد كموج بحرٍ، وبيوت سوداء.. انظري الآن نحو المدينة، التلال على اليمين واليسار، بينما تقفين على أرض مستوية خضراء، تتخللها أماكن مزروعة بكثافة، وتمتد إلى أسوار المدينة! كما يظهر ملعب الراكيت نظيفًا، والضباط يلعبون فيه من حين لآخر؛ أمامي تمامًا أرى منازل بلا سقف ومتفحمة، تثير بداخلي موجة مختلفة من الذكريات؛ أضواء، وموسيقا، وتنانير، وأجساد راقصة - وكما ستتذكرين أنتِ إن لم أفعل - يمكنني أيضًا أن أضيف الآنسة هاء بوجهة نظرها اللطيفة ووجها الفاتن..

ما وراء أكواخ القوات يمكن رؤية قلعة لودلو - كانت سابقًا منزل المقيم البريطاني، سيمون فريزر - وخلفها منزلان مبنيَّان من الحجر.. ومن خلال تلسكوب يمكن رؤية المتمردين وهم يتسللون متخفيين بالأسوار لإطلاق النار على حُرَّاسنا، على الرغم من أنهم دائمًا ما يخطئون التصويب! تمتد المدينة فتجعل لعاب المرء يسيل إذا كان فنَّانًا. يشق النهر طريقه لأسفل فتلمع مياهه الفضية، يشقها خط دقيق وهو جسر القوارب الذي لا يزال سليمًا؛ ثم تلمح وميضًا، يتلوه عمودٌ من الدخان، وتنطلق رصاصة من جهة مخزن المياه لإسطبلات آل ميتكالف.. تفتقر قبة الكنيسة لوجود الصليب، بينما يبدو المسجد الجامع صامدًا بشكل مثير وشديد الجلال بجانبها - كأنما المسيحية، تحتل مرتبة أقل أمام إيمان نبيهم المدعي - تُطلق المدافع عبر أنقاض بوابة كشمير قذيفة تصطدم بالمسجد القديم فوق التلال، فتتفجر حوله.. ويستقبل منزل هندو راو القذائف نفسها من بوابات «موري»، و«كابول»، و«لاهور»، بينما تطلق المدافع الموجودة عند بوابة أجمري نحو منطقة «سابزي ماندي».».

بينما كان جامبير حسَّاسًا بدرجة كافية لملاحظة جمال المشهد ووصفه - على الرغم من وصفه الغريب - ألا أنه كان يدرك أن وحشية القتال ستتسبَّب في زيادة صلابة قلبه وقلة حساسيته، وكان صريحًا بما يكفي لكتابة هذا إلى آني. وصف كيف أنه في إحدى الاشتباكات، تم ضرب قوة من سلاح الفرسان

السيبويين، فهرب أحد الأحصنة بلا راكب، تتبعه رجلان محتميان بالجدار ليمسكا به فوجدا بالقرب منه أحد الثُّوار مصابًا بجروح طفيفة فركلاه بأقدامهما في رأسه حتى لقيَ حتفَه! «شعرت بقلبي متصلبًا كالحجارة، ولم أشعر بأيَّة شفقة نحوه.. على عكس من حالي مع الحصان، كان الحصان عربيًّا أبيض اللون، قد أصابته رصاصة طائشة، وغزت الدماء لونه الأبيض اللامع، فتوتَّرت عيناه وتضخم أنفه وارتجفت أطرافه من شدة الألم، فأشفقت عليه ومنحته رصاصة الرحمة معربًا عن أسفي الذي لم أشعر به نحو الإنسان!».

الشيء نفسه الذي أصاب إدوارد فيبارت.. فإن كان جامبير قد علم أن أخته انتقلت من كانبور إلى لكناوٍ قبل اندلاع الانتفاضة بقليل، ونجت من المذبحة هناك.. كان فيبارت أقل حظًّا. بعد فترة قضاها في التعافي مما حدث في دلهي، اكتشف قبل أن يغادر ميروت مباشرة أن والديه وإخوته الأصغر واثنتين من شقيقاته قد قُتلوا في مذبحة كانبور؛ وكان يعتقد - خطأً كما اتضح فيما بعد - أن شقيقتيه قد تعرضتا للاغتصاب قبل قتلهن. احتفظ فيبارت بروح الدعابة وإنسانيته في أثناء أحداث الحادي عشر من مايو وخلال رحلته اللاحقة إلى ميروت. لكنه الآن فَقَد كل شيء عاش من أجله، ولم يعد يتمنى غير الانتقام والثأر أو أن يموت دون ذلك.. بل اقتنع تمامَ الاقتناع أن الله قد أنجاه من الموت من أجل الانتقام لعائلته فحسب. كتب إلى عمه جوردون، أحد أقاربه القلائل الباقين على قيد الحياة في إنجلترا: «أعيش فقط من أجل الانتقام لوالديّ، والدتي الحبيبة، ووالدي المسكين، وإخوتي وأخواتي الصغار.. أحسُّ الآن أن الحياة لا يمكن أن تحمل لي أيَّة سعادة أو متعة مرة أخرى.. كل ما يمكنني التفكير فيه هو والداي المسكينان وإخوتي.

لا أشعر بشيء، أسير في الحياة بلامبالاة وكأنني آلة ميكانيكة، يا إلهي! لماذا أنقذتني من الموت وأخذت مني عائلتي! بقلب نازف أتناول الرسائل فور ورودها وأقرؤها بالكامل؛ أقرأ كل التفاصيل المروعة عن مأساتهم في كاونبور! أحيانًا أتوهم أن الله ما كان ليفعل بهم هذا، وأحيانًا أعتقد أنهم مازالوا على قيد الحياة! وأرى وجه والدتي الحبيبة أمامي وأنا أقرأ الرسالة التي كتبتها لي عندما سمعت عن هروبي: «إلى أن أموت، سأظل أشكر الله وأصلي له لأنك يا ابني الحبيب قد نجوت.»، لقد فقدتك الآن يا أمي الحبيبة، ولم يتبقَّ لي سوى هذه الرسالة الثمينة.. أغلق عيني فأرى والدي الذي ودعته قبل أن أعود إلى دلهي، قبل أربعة أيام فقط من اندلاع الثورة المشئومة، بينما كان يمسك بيدي، قال لي «بارك الله فيك يا ولدي»، وأنا الآن على قيد الحياة، بينما هو رحل.. عندما أفكر فيما قد يكون قد عانى منه، مع عدم وجود أحد بالقرب منه لمواساته أو منحه العزاء، أجد نفسي مدفوعًا بالوحشية أقسم على الانتقام من هؤلاء القتلة الأشرار! لقد جئت إلى التلال، ولا أبالي بالموت، كل ما

يهمني هو الثأر، لأكون قادرًا على القول، إذا عشت: «نعم، كنت هناك أيضًا، لقد كنت كذلك في دلهي وثأرت لعائلتي.»، أحيانًا، أشعر بقشعريرة لدى رؤية هذه المخلوقات السوداء تُقتل، إلا أنه مجرد شعور لحظي لا يتخطى الثانية؛ وعندما رأيت خمس جثث ميتة منهم بصقت عليها، وبالأمس رأيت اثنين منهما يعدمان رميًا بالرصاص قبل أن يتم إلقاؤهم في النهر، نعم، هكذا يتحقق القصاص.. اقتلوا ولا تعفوا أيها الجنود! تذكروا كاونبور!»

تسربت أنباء عن عنف الانتقام البريطاني من الثورة إلى دلهي. في الآونة الأخيرة وصل إلى دلهي مجموعة من الثوار الذين فروا من مذبحة البريطانيين التي أُطلق عليها «جيش القصاص» في كانبور، وأخذوا يروون قصص القتل الجماعي المرتكبة من قِبَل قوات الجنرال نيل؛ كيف تم التدمير، وإشعال الحرائق في كل قرية في طريق الجيش، وقتل كبار السن من الرجال والنساء، ومعهم الأطفال، بإحراق منازلهم، كما رووا قصصًا عن السيخ الذين قاموا بتعذيب الأسرى السيبويين أحياء وحرقهم وخوزقتهم؛ وكيف أُجبِر الآخرون على تنظيف أرضية موقع المذبحة.. وبعد ذلك، يتم تدنيسهم عبر حشر لحم الخنزير ولحم البقر وكل شيء يمكن أن يكسر معتقدهم الإيماني في حناجرهم، ويخيطون رقعة من جلد الخنازير في جلودهم قبل أن يُعدموا! لم تكن هذه هي النهاية الكافية بالنسبة إليهم؛ أمر نيل بأن - على عكس ما تمليه الديانتان الإسلامية والهندوسية - يُدفن الهندوس، ويُحرق المسلمين.. في كل مكان أقنع البريطانيون أنفسهم بأن ما ارتكبه السيبيويون من فظائع ضد نسائهم وأطفالهم يعفيهم من أيَّة ضرورة لمعاملتهم كبشر.. كتب العقيد إيه آر دي ماكنزي: «لأنهم ذبحوا النساء العُزَّل والأطفال، فلن نكون رجالًا بحق لو عفوْنا عنهم، سنعاملهم كما نعامل الأفاعي؛ ونقتلهم أينما قابلناهم.».

سرعان ما أصبح تصرفًا استثنائيًّا من البريطانيين أن يعتبروا أي شخص على الجانب الآخر من المعركة من البشر! كتب الكابتن ج. إم. وايد: «ببساطة لا أستطيع اعتبار هؤلاء السيبويين من البشر، إنهم مجرد زواحف، تستحق القتل.» ساعد جورج واجنتريبير على تغذية مثل هذه النيران من خلال جريدة نيو دلهي جازيت إكسترا التي تصدر في لاهور.. ذكر في افتتاحية أحد الأعداد: «جيشنا غاضب إلى درجة الجنون تقريبًا مما رأوه من وحشية المتمردين.» علاوة على ذلك، فبالنسبة لبعض القوات، كان غضبهم وتعطشهم للانتقام ليسا ناجمين عن رغبةٍ بقدر ما هما حقٌّ مكتسب من خلال ما ورد في الكتاب المقدس. كان أحد الجنود البريطانيين، ويدعى «والاس»، معتادًا على جلد أسراه من السيبويين وهو يردد المزمور ١١٦. وصف الجنرال نيل الموضوع بقوله: «إن كلام الله وحدوده تسري فوق رحمة البشر.». كان الأب «روتوز» متَّفقًا بالكامل، كتب: «لم يدرك المتمردون أن الثورة كانت في الحقيقة

معركة مبادئ، صراع بين الحقيقة والباطل؛ ولأنهم اختاروا الانضمام للجانب المظلم، فلن ينتصروا في المعركة. علاوة على ذلك، فقد لُوِّثَت أيديهم بدم النساء الأبرياء والأطفال العاجزين، وذلك الدم الآن يناشد السماء للانتقام. ومما لا شك فيه أن ذلك النداء قد لُبِّيَ وأن الرب سينتقم منهم.».

لم يكن هيرفي جريثيد آسفًا لانتشار الخوف عبر دلهي، لما سمعوه من قصص عن الانتقام البريطاني الوحشي.. كتب إلى زوجه: «روى الثوار الذين وصلوا إلى المدينة من كاونبور حكايات كئيبة عن هزيمتهم، وقدروا عدد ضحايا المذبحة بـ ١٠ آلاف شخص، وحكوا حكايات شنيعة عن سكان الأراضي المرتفعة الذين يرتدون التنورة الاسكتلندية، يحكون عن رجال يرتدون تنورات من سيلان، آكلي لحوم بشر، ويُعتبر جنود الجورخا بجوارهم مجرد فئران. أصبح الخوف الآن هو المسيطر بين العامة والسيبويين، وربما يفر المتمردون من المدينة بأكملها، إذ أصبح موقفهم ضعيفًا ليس عسكريًّا فحسب بل حياتيًّا كذلك؛ إنهم بحاجة ماسة للمال، والذخيرة والطعام.. بدأت أتلقَّى رسائل من الأمراء، يخبروننا أنهم كانوا مواليين لنا طوال الوقت باعتزاز، وأنهم لا يريدون إلا معرفة ما يمكن أن يفعلوه من أجلنا، عليهم أن يكتشفوا ذلك بأنفسهم، لأنني لن أخبرهم أو أرد عليهم حتى!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما بدأ الجنود على التلال الشبع، ولم يعد لديهم كثير مما يدعو للقلق، كان نظراؤهم في دلهي في الوقت نفسه على حافة المجاعة. كان التقييد العسكري والاستراتيجي للسيبويين قد ازداد الآن، ولا سيما بعد فشلهم في جمع المعلومات الاستخباراتية، والتنسيق بشكل فعال مع مراكز المتمردين الأخرى مثل كانبور ولكناو، أو لإقناع معظم الحكام المستقلين في وسط الهند وراجبوت، بالتحرك والانضمام إلى القضية. أو على وجه الخصوص، بعدما فشلوا في معرفة كيف كان بإمكانهم بسهولة مهاجمة البريطانيين من الخلف على التلال. كتب نيكلسون في ٢٨ أغسطس: «أعتقد أن ويلسون كان لديه سبب كبير للقلق، فإن قام العدو بمهاجمتنا من الخلف، لم نكن سنتمكن من إرسال أكثر من خمسمائة أو ستمائة رجل للدفاع هناك. لكن، فات الأوان بالنسبة لهم لتجربة تلك اللعبة الآن - ولمعرفتهم ذلك - يجهدون أنفسهم بوضع خطة جديدة.»

ومع ذلك، مع استمرار الحصار، صارت إخفاقات التنظيم الإداري والمالي للمتمردين واضحة أكثر، وبقدر ما يمكن أن تؤدي عيوبهم العسكرية والاستراتيجية إلى هزيمتهم، فلقد تسببوا أيضًا في اضطرابات وفوضى، تجعل من استعادة النظام حلمًا مستحيلًا.. كان هذا واضحًا بشكل خاص بالنسبة لهم في فشلهم في إقامة «أرض محررة» محكومة جيدًا أو مملكة مغولية يمكنهم

من خلالها الحصول على عائدات ضريبية، وقوى عاملة، والأهم من ذلك كله، موارد الغذاء.. كان فشلهم كارثة، وهو ما أحسه الشيخ محمد باقر في ذلك الوقت وكتب عنه مرارًا وتكرارًا في مقالاته الافتتاحية: «يا لها من لامبالاة غريبة، إننا لم نحصل على روبية واحدة من عائدات الضرائب، الله وحده يعلم ما السبب أو الغرض من هذا التقصير والتراخي.. يجب أن يُنتدَبُ بعض الأمراء أو النبلاء لجمع الجزية والإيرادات من حكام المقاطعات وغيرهم من الأعيان، بحيث يتم إحكام إدارة جلالة الملك وسيطرته عليهم.. في جميع الأماكن والنواحي التي حصلنا عليها وحررناها من الكفار، يجب أن يُعيَّن نائب أو ممثل لجلالة الملك، وإحاطته ببعض القوات الإسلامية.. وبدء تحصيل الضرائب. ليس هناك شكٌّ في أنه بدون القيام بتدابير مثل هذه فإن الأعيان والحكام المحليين حول هذه المناطق لن يتخلوا عن خوفهم من الكفار الذي ما زالوا يضمرونه في قلوبهم، وسيتُجدد أملهم في رؤية حكومتهم المغولية تستعيد مكانتها.»

ازداد الأمر سوءًا مع بداية يوليو وأغسطس، وعمَّت حالة من الجوع والعطش في المدينة؛ قطع البريطانيون خط تدفق قناة يامونا إلى المدينة في أوائل شهر يونيو، وصار مصدر المياه الوحيد حينها هو الآبار قليلة الملوحة داخل المدينة ومياه النهر إلى الشرق، مما كان يعرض ناقلي المياه والمستحمّين في المياه للقذائف البريطانية. على الرغم من ذلك، ظل كثيرون يأتون لأخذ الماء، وللصيد مكشوفين في تلك المساحة المفتوحة، مخاطرين بالإصابة بقذيفة طائشة في سبيل اصطياد ما يصلح كطعام. نعرف أنه ببداية يونيو، تدفَّقت الالتماسات من المواطنين الجوعى، والجهاديين والسيبويين يتوسلون للحصول على الطعام، ومع ازدياد تراكم الالتماسات في القلعة الحمراء، وتفشِّي الجوع الشديد في شوارع المدينة أصبح الأمر بارزًا في تقارير الجواسيس. في السابع من يونيو، بدأ حتى موظفو العائلة المالكة يشتكون من أنهم لم يتلقوا أي مؤن منذ شهر. وفي الثاني عشر من يونيو كتب قائد الشرطة إلى مساعديه يتوسل إليهم أن يجدوا بعض الطعام في الجزء السفلي من المدينة، للكتائب الجديدة القادمة من هاريانا التي تحركت للتو إلى دلهي، فكان يأتيه الرد: «لم يبقَ شيء في المحلات، لا دقيق، لا بقوليات، لا شيء. ماذا يمكننا أن نفعل؟»

بحلول الخامس عشر من يونيو، كان ضباط الأفواج المختلفة يأتون إلى القلعة ويشتكون من أن قواتهم لا تستطيع مهاجمة البريطانيين وهم جوْعَى! وأن بعض السيبويين قد بدأوا العودة إلى ديارهم، إذ دفعهم الجوع للرحيل قبل انتهاء المعركة. بعد ستة أسابيع، في الثامن والعشرين من يوليو، قام «كيشان ديال» و«قادر بخش» - والذين عمِلا قائدين للسيبويين القادمين من ميروت - بالمجيء للبلاط ليشتكوا أن رجالهم الذين كانوا قد تَرَكوا وراءهم كل ممتلكاتهم في ميروت يتضورون جوعًا الآن: «بدأ الجوع يقتلنا، مرت

حوالي عشرة أيام لم نحصل على حبة قمح واحدة.. إن رجالي مستاءون من كل شيء، وقد اختفى مقرضو الأموال المرابون حتى ليقرضوهم أيَّة نقود..»

لم يقتصر الأمر على المرابين فحسب، بل رفض التجار وأصحاب المتاجر أيضًا تقديم أي مشتروات بالآجل؛ في الرابع من أغسطس، ذهبت مجموعة من حلوانيي دلهي بشكل جماعي إلى قائد الشرطة، وأعلنوا أنه نظرًا لعدم تحصيل أموالهم مقابل الإمدادات السابقة، فلن يقدموا أيَّة حلويات مرة أخرى دون ثمن! وبحلول الرابع من أغسطس، كان اللواء القادم من «نيماش» - الذي قد وصل حديثًا - يهدد علنًا بالعودة إلى دياره فورًا إذا لم يُقدم لهم أي طعام. مثلَ قائدان تحت راية اللواء أمام ظفر، ليخبراه عن مدى سوء وضعهم: «جلالتك، لقد أتينا ممثلين عن نيماش ووصلنا إلى العاصمة بعد اجتياز مسافة كبيرة وتجاوز عديدٍ من العقبات، راغبين في تقديم خدماتنا إلى جلالتك والإمبراطورية.. حتى الآن كنا - خدمك المطيعين - ندفع نفقات الخيول والفرسان والأسلحة والماشية والفيلة والجمال من جيوبنا. جلالتك، الخيول والأسلحة والفيلة والجمال تنتمي إلى الحكومة البريطانية - وحتى في هذه الظروف - كنا نتحمل نفقاتهم. ولكن الآن، ومنذ أربعة أو خمسة أيام، كانت القوة بأكملها، بما في ذلك الجنود والحيوانات، يتضورون جوعًا، ولم يبقَ مالٌ لدفع حتى نفقاتهم الأساسية. كل جنودنا حريصون ومصممون على القتال، لكنهم يسألوننا: كيف يمكن لرجل صام عن الطعام بالكامل ليومين أو ثلاثة أن يقاتل؟ لذلك نتمنى أن يكون بوسعكم - من سخاء ورفعة قلوبكم - تقديم جميع النفقات التي تكبدتها القوة الملكية وتشريف هؤلاء اليَئِسين بالاستجابة لطلبهم. وحتى اتخاذ الترتيبات اللازمة للدفع، فلا يوجد جندي على استعداد لخوض المعركة.. ومن فضلك لا تفسر هذا على أنه عصيان، وإن كنت لا تريد بقاء قوة نيماش، فيرجى إعطاؤنا إجابة واضحة. ما يريده الله سيكون، وقد أرسلنا التماسات لا حصر لها في وقت سابق ولكن لم نتلقَّ أي رد حتى الآن. مع فائق الاحترام والتفاني.

الجنرال سوداري سينغ والرائد حيرا سينغ».

بعد هذه الرسالة، وإن كان قد أُقنِع لواء نيماش بالبقاء، على الرغم من عدم توافر أموال أو طعام على الفور؛ لكن الجواسيس أبلغوا عن تيار متزايد من الفارين من جيش الثوار؛ بحسب الجاسوس «تراب علي»، «في الأسبوع الأول في أغسطس وفقط، عاد سبعمائة وخمسين من الفرسان وستمائة جهادي، إلى موطنهم الأصلي؛ لأنهم لم يحصلوا على قوتهم اليومي في المدينة. طوال شهري يوليو وأغسطس، بذلت المحكمة الإدارية بقيادة ميرزا مغول جهودًا محمومة لجمع الأموال لدفع ثمن الطعام وتغطية نفقات الجنود. في البداية حاولوا الاقتراض من المرابين بالمدينة، لكنهم نجحوا في جمع ستة

آلاف روبية فقط، وهو ما يكفي لـعدد قليل من الأيام فقط. كما كُلَف ثانادار - «قائد وحدة عسكرية» في «تشاندني تشوك» - بوظيفة استخراج الأموال من المصرفيين والمرابين في «كاترا نيل»، وقد أفادت التقرير أن بعض هؤلاء الناس اختفوا في منازلهم؛ بينما لم يستجب الآخرون، في حين أن معظمهم يقدمون عذرًا أو آخر لإبقاء نائب الثانادار بعيدًا، ويتهربون من الدفع. وقد استمر هذا الوضع لـشهر كامل؛ كلما ذهب الموظفون لتأدية وظائفهم، أغلق المرابون أبوابهم، دون رد.. يختفون! اقترح ميرزا مغول نهجًا أكثر قوة: «إصدار أمر، أنه إذا ظل هؤلاء المرابون مختبئين، فإنكم سوف تفجرون بيوتهم بالمدافع.». طُلِب العون من لاكسمي تشاند، مقرض المال الشهير في ماثورا، وعلى الرغم من أنه عُرِض عليه منصب «فوتادار» (أمين الصندوق) مقابل قرضٍ قدره خمسمائة ألف روبية، إلا أنه رفض تقديم العون..»

وردًّا على ذلك، قُبِض عليه واقْتِيد إلى معقل قوات باريلي، حيث عُرِّض لمعاملة شديدة السوء. في السابع من أغسطس، تمكن اليأس من ميرزا مغول، فأمر باعتقال جميع مرابين المدينة والمصرفيين وجلبهم إلى القلعة، حيث هددهم بالموت إذا لم يقدموا ثرواتهم للثورة. وكان من بين المعتقلين الجاسوس جيوان لال، الذي تفاجأ بالسيبويين عندما فتح باب بيته للسماح لناقلي المياه للدخول، قُيِّد ونُقل إلى القلعة الحمراء، حيث أرعبه ما رآه.. وعن هذا يحكي: «تم اصطحابي إلى الطابق العلوي للمثول أمام ميرزا مغول، وهناك رأيت حشدًا ضخمًا من الناس قد حشر إلى هنا بطريقة غريبة وغير منظمة. وفي أحد الأركان جلس ميرزا مغول متكئًا على وسادته، وأمامه يجلس كوراي سينغ قائد سلاح الفرسان مسترخيًا في جلسته. لم يكن هناك أي شيء له علاقة بآداب السلوك بالبلاط، وكان مسئولو الملك يتنقلون هنا وهناك بأريحية ودون نظام.. وفي أحد الأركان جلس حوالي ٢٥ مصرفيًا، كانوا رهن الاعتقال؛ كما أُمِرت أنا الآخر بالجلوس معهم. طلبوا منا المال، وهددونا بوضع البنادق بالقرب من أكتافنا وأطلقوا النار. ولكن على الرغم من هذا بقينا متماسكي الأعصاب، وقد عزمنا على الموت بشرف عن الرضوخ لتهديدات المتمردين، وهكذا بقينا في هذه الحالة اليائسة طوال الليل، وحتى الساعة الرابعة عصرًا في اليوم التالي.. طوال النهار والليل، كانوا يشيرون بمسدساتهم ويهددونا بالقتل. لكن.. في النهاية حُرِّرنا على يد ميرزا إله بخش - الموالي للإنجليز - والذي أخذ ميرزا مغول جانبًا وحذَّره بقوله: «سوف يستولي الإنجليز على دلهي وبالتالي سيقبضون عليك، لكن لتنجوَ ربما ستحتاج مساعدة مواليين الإنجليز هؤلاء.. أنصحك بإطلاق سراحهم، والاحتفاظ بوُدِّهم لتجده عند الحاجة!».

عندما فشل ميرزا مغول في تهديد المصرفيين، حاول إقناع التجار في السوق بتزويده بخمسمائة ألف روبية، وكذلك توفير الطعام إلى الجيش بالآجل، مع

الوعد بأن «المال سُيدفع عندما توَزَّع الغنائم.». لكن التجار رفضوا قبول العرض، حتى بعد ضغط قائد الشرطة وتهديدهم بالسجن والاستيلاء على محلاتهم.. بحلول أوائل أغسطس، كان الجواسيس يبلغون عن أن عديدًا من التجار البنجابيين، بالإضافة إلى عدد من الأشراف، قد أُلقوا في السجن حتى رضخوا. سرعان ما انضم إليهم في سجنهم عديد من المرابين الآخرين، بما في ذلك واحد من أبرز مقرضي المال، وهو ساليجرام.. ظلوا في السجن لمدة أسبوع، حتى علم ظفر بما يحدث، وعندها أمر جلالته ميرزا مغول على الفور بالتوقف عن المعاملة السيئة لرعايا الملك، وأنه من الأفضل الاعتماد على الأساليب الدبلوماسية والموافقة على ما يمنحونه إياه.

على الجانب الآخر، كانت هناك أيضًا محاولات مختلفة لجمع ثلاثمائة ألف روبية من نبلاء المدينة، وبعض الجهود الضعيفة لفرض ضرائب على القرى الواقعة إلى الغرب من دلهي - قريتا مهرولي وجورجاون - اللتان كانتا تحت حكم ظفر اسميًّا؛ ولكن - أيضًا - لم يتم تحصيل إلا قليل من المال فقط بنهاية الشهر. كان رجال ميرزا مغول يزدادون يأسًا كل يوم، وكانوا في أمسِّ الحاجة إلى المال لدرجة أنهم بدأوا الحفر بحثًا عن الكنز المدفون في سجن المغول في ساليمجاره، أمام القلعة الحمراء. كتب الجاسوس جوري شانكار: «يقول الناس إن كنوزَ أسلاف الإمبراطور مدفونة هناك، حتى إن بعضًا يذكر مواضِع بعينها، لكن لا شيء حقيقي حتى الآن.»

في وقت لاحق، عثروا على بعض القطع الحربية الصغيرة، ولكن الكنز كان حلمًا بعيد المنال! أَجَّجت درجة مماثلة من اليأس الشائعات الزائفة بأن الجيش الفارسي كان قادمًا لإنقاذ المتمردين، وأنهم شقُّوا طريقهم عبر أفغانستان إلى الهند عبر بيشاور، وأنهم يعبرون الآن نهر السند في أتوك. وقيل إن هجومًا بحريًّا آخر للقوات الإيرانية في طريقه عبر مومباي. كتب باقر بجريدة أخبار دلهي بالأوردية: «لا يمكننا التحقق من الأخبار، لكنه ليس احتمالاً مستحيلًا».

لم يكن المال هو الشيء الوحيد الذي نفد بحلول منتصف أغسطس، وإنما عانوا من نفاد الأسلحة كذلك. كان هذا هو أحد أكثر الأمثلة توضيحًا للإهمال والعشوائية من جانب المتمردين، لأنهم عند اندلاع الانتفاضة استطاعوا الاستيلاء على أكبر ترسانة من الأسلحة والذخيرة في شمال الهند.. لكن في الأيام العشرة الأولى من الانتفاضة، لم يتم حراسة الذخائر التي نجت من انفجار مخزن الأسلحة، حتى جاء سكان البلدة، وقبائل الغجر من الريف واستولوا على بعضها. وكانت النتيجة أنه بحلول أواخر يوليو، حدث نقص في القذائف، كما نفد البارود، وواجهت محاولات تصنيعه مشكلة نقص الملح الصخري والكبريت في المدينة. وبدأت محاولات مختلفة للتواصل مع صانعي

الألعاب النارية المشهورين عبر هندوستان من أجل المساعدة؛ كان أحد صانعي الألعاب المشهورين يدعى «أكبر خان»، وهو من سكان ميروت، عرض أن يصنع قذائف بحجم وقوة كافيين لتدمير قوة ميدانية بأكملها. واقتناعًا بقدرته على القيام بذلك، قدموا له أربعة آلاف روبية لتغطية حجم المصروفات وأمروه ببدء العمل في الحال داخل القصر؛ لكن لا يبدو أن التجربة كانت ناجحة. أضيفت إلى هذه المحاولات، محاولة أخرى لاستخدام المشروبات الكحولية التي تم الاستيلاء عليها من منازل الإنجليز لتصنيع المتفجرات، وفي الثاني من سبتمبر أُرسلت ١٤٤ زجاجة نبيذ إلى مصنع البارود، لكن النتائج لم تكن جيدة كذلك. لاحظ البريطانيون أنه في حين عملت مدفعية المتمردين بشكل جيد للغاية في بداية الحصار، فإنه بدءًا من شهر يوليو فصاعدًا أصبح شائعًا بشكل متزايد أن قذائف المتمردين تفشل في الانفجار.

دُمِّرت مدفعية السيبويين تمامًا، حين جاءتهم أخطر ضربة في السابع من أغسطس، عندما أشعلت قذيفة بريطانية طائشة أحد مصانع البارود الرئيسة للمتمردين، ليشتعل خمسمائة شخص يعملون هناك. افترض السيبويون على الفور أنه كان هناك خائن في الصفوف، وهاجموا بيت رئيس وزراء ظفر، الحكيم إحسان الله خان واتهموه بالخيانة. ثم أشعلوا بيته وساووه بالأرض، مما أصاب غالب بالحزن الشديد؛ إذ كان صديقًا مقرَّبًا للحكيم، وقد قضى عديدًا من الأمسيات البهيجة في ذلك المنزل. وعبَّر عن كتابه عن الثورة، عمَّا رآه على أنه اعتداء آخر على وجه دلهي المتحضِرة والمثقفة، والتي أحبها وساعد على إنشائها. كتب غالب أنه على الرغم من أن حياة الحكيم قد أُنقذت، إلا أن المنزل دُمِّر بالكامل. ذلك القصر، الذي كان لا يقل في الجمال والزخرفة عن قصور الصين الفاخرة، قد دُمِّر ونُهب، وأُحرقت الأسقف الخاصة به، وتحولت نقوش السقف وزخارفه العظيمة المزينة إلى رماد، أما الجدران فصارت سوداء تمامًا بسبب الدخان، فبدا القصر كأنه يتَّشح بعباءة سوداء حزنًا على حاله.

«لا تنخدع بما تمنحه السماء

قد تغدر بك فجأة

وتصبُّ الكرب والعذاب

على من كان عزيزها يومًا»

بحلول منتصف أغسطس، وبعد مشكلات المجاعات وفرار السيبويين وتوقفهم عن القتال بسبب الجوع، ووفقًا لـرسالة استخباراتية تلقَّاها هودسون في السادس عشر من أغسطس، كان ظفر مكتئبًا جدًّا، ومنفصلًا

عما يحدث من حوله، وربما صار غير قادر أو راغب حتى في محاولة منع السيبويين من الفرار؛ من وجهة نظره، كان على الأقل قد نأى بنفسه عن المشاركة في الثورة.. كتب جاسوس مجهول: «بالأمس كان حوالي مائتين من الفرسان المسلحين بالكامل، وفوق صهوة خيولهم، في طريقهم لخارج المدينة، عندما أوقفتهم بعض قوات المتمردين، وأبلغت القلعة، دعاهم الملك إلى البلاط وسألهم عن سبب ذهابهم. قالوا: سيقلق أهلنا ونساؤنا علينا؛ وعلاوة على ذلك لم يتبقَّ شيء لنأكله، وهذا هو السبب الحقيقي وراء ذهابنا.. فطلب منهم الملك أن يقوموا بتسليم أي أسلحة كانت معهم، ثم سمح لهم بالذهاب. وبعدها أعلن صراحة في البلاط: «لا يهمني من يذهب أو يبقى، لم أطلب من أي شخص المجيء إلى هنا ولن أمنع أحدًا من المغادرة.. من يريد البقاء فليبقَ، ومن يريد الرحيل فعلى الرحب والسعة.. ليس لدي أيّ اعتراضات.. لقد نزعت عنهم أسلحتهم وتركتها هنا حتى إذا جاء الإنجليز إلى هنا، يمكنني تسليمها لهم، وإذا أراد السيبويون أخذها فليفعلوا، ليست لدي مصلحة في الأمر.».

وربما ليس من الغريب أن يكتب الشيخ محمد باقر - مؤيد ظفر الأكثر ولاءً - : «لم تكن الحالة النفسية لصاحب الجلالة على ما يرام». في نهاية الشهر، ازدادت حالة الجوع سوءًا. وفي الثلاثين من أغسطس، جاءت القوات الجائعة والهزيلة الوحيدة المتبقية في الميدان، وهي خائبة الأمل إلى القصر لتعلن أنها لا تستطيع الاستمرار ما لم يتم إطعامهم. «من اليوم الذي وصلنا فيه إلى هنا كنا نخدمك بإخلاص ونضع حيواتنا عند قدميك.. لكنك لم تقدِّم لنا أيَّة معونة، وكل ما أتينا به قد أُنفِق.. إذا كنت لا تستطيع توفير المؤن لنا إذن فيجب أن تخبرنا، لمْ يترك لنا الجوع أي خيار غير أن نتحرر من ارتباطنا بجلالتك ونعود من حيث جئنا، يا صاحب الجلالة.. باستثنائك أنت يا صاحب الجلالة، كل شخص آخر في مدينة دلهي، بما في ذلك موظفو القصر، متحالفون مع الإنجليز.». في غضون ذلك، ظلَّ الناس في المدينة خلف الأبواب المغلقة، يصارعون للبقاء على قيد الحياة بأقصى ما في وُسعهم. مع تقدم شهر أغسطس، بدأ الانطباع الذي يظهر من الالتماسات في أوراق التمرد أن دلهي مدينة محطمة وشبه مهجورة وتعاني من مجاعة. جلس المقامرون، ومعهم من أشار إليهم مقدمو الالتماسات على أنهم «محتالون وأوغاد وشخصيات سيئة»، يلعبون الورق في المنازل المحترقة التي نهبها السيبويون، أو تلك التي تلقت إصابات مباشرة من قذائف بريطانية؛ هناك وثيقة من «مير أكبر علي»، من سوق فايز، يشتكي فيها من أن المقامرين كانوا يجلسون على قمة الأنقاض، حتى يتلصصوا على فناء الزنانة «بيت الحريم» الخاص به، ويتحرَّشون بالنساء في الداخل بكثير من الألفاظ الشائنة.

في حين يجلس التجار المفلسون المحبطون على درجات السلم، يدخّنون الماريجيوانا.. وفي ظل غياب القانون والنظام أكثر فأكثر، كانت مجموعات من السيبويين الجياع لا يزالون يطالبون بإتاوات للحماية من أصحاب المحلات في تشاندني تشوك.. بينما يداهم الآخرون المنازل لسد ما يعانونه من جوع، وكانوا يشرحون أسبابهم: «ليس لدينا ما نأكله».

أما خارج أسوار دلهي كان الوضع أسوأ؛ في وقت مبكر من يونيو، كان الموظفون في دلهي يرفضون تجاوز أسوار المدينة ما لم يكونوا برفقة حراسة عسكرية.. واشتكى الفقراء من مقرضي المال، الذين على الرغم من ادِّعائهم الفقر، ورفضهم إقراض المال لمساعدة الثورة، فقد ازداد جشعهم لتحصيل الديون المستحقة، وهناك جبال من الالتماسات الباقية من أوراق التمرد للفقراء المنكوبين المشتكيين من جشع مقرضي المال وابتزازهم. مع عدم وجود قوة شرطة فعَّالة، كان من السهل أيضًا تصفية الحسابات القديمة، تلقوا شكوى من سكان منطقة «ماليوارا» أن «رادها» و«كنهايا»، وهما امرأتان قويتان قد حوكمتا من قبل بسبب أعمالهما السيئة، تخططان علنًا للانتقام: «تقومان هما وجماعتهما بتهديدنا ويقولون إننا آذيناهم من قبل برفعنا دعوى ضدهم، وسيثأرون منا الآن في غياب الحكومة! حياتنا في خطر، من فضلكم اطلبوا من قائد الشرطة إنقاذنا والتحقيق في هذه القضية.».

كما أتاح انهيار الحياة الطبيعية فرصة للعشاق للهروب معًا، فيبدو أن الفوضى المتنامية في أغسطس قد سهَّلت موجة الفرار. إذ حسب قول أحد الأزواج المخدوعين، هربت زوجه مع عشيقها بعد سرقة ثروته كلها. كما قامت امرأة تُدعى «حسينية»، كانت متزوجة من شيخ مسلم، بانتهاز الفرصة أيضًا للهروب مع رجل آخر. أوضح الشيخ لظفر أنه كان متحوِّلًا من الهندوسية بالأساس، وقد فر من ميروت عند اندلاع الانتفاضة، وأتى ناشدًا الأمان في دلهي. لم يمضِ وقت طويل بعد وصولهما بالقرب من مسجد «عيد جا» التقت «حسينية» بـ«خودا بخش» الإسكافي، والذي وصفه الشيخ بأنه «وغد مقامر». ربما كانت الزوجة تفتقد حيوية حياتها القديمة، وربما وجدت رفقة الشيخ هادئة ومملة بعض الشيء، غادرت «حسينية» الشيخ المسلم، آخذة معها، على حد قول الزوج المخدوع: «كل الأشياء الثمينة التي أحضرتها من الديار.».

كان بعض العشاق من السيبويين، والذين كانوا، كما هي الحال في عديدٍ من الحروب، من الجنود الممشوقين الجذابين، الذين لم يفتقروا لوجود المعجبات. كان «بير بخش» صانع الأواني، والذي كان يقيم ليس فقط مع زوجته، ولكن أيضًا مع أرملة شقيقه «ضيا»، التي طبقًا لأقوال الجيران كان يعنفها على الدوام، وفي آخر أغسطس اختفت هاربة مع شخص يدعى «زامير».. يبدو أن السيبويين وفَّروا لها الأمان بعد معركة منزلية شرسة..

قالت «ضيا» للبلاط عندما كانوا يجمعون الأدلة للقضية: «كل سكان منطقة «كاترا» يشهدون على عنف بير بخش وضربه لي.» لكن «بير بخش» نفى التهمة، مدَّعيًا أن زوجته هي من ضربت «ضيا»: «كل ما فعلته لها هو أنني صفعْتُها مرة واحدة.. لقد كانت في الأصل معركة بين النساء.» وقال أيضًا إنه لم يكن ينوي الزواج من «ضيا»، ويبدو أن المحكمة حكمت لصالح «زامير» بأخذ «ضيا» معه؛ الأكيد أن بير بخش كان عليه أن يوقِّع على تعهُّد بعد تكرار أي عنف مع هذه المرأة وإلا سيقوم بدفع غرامة خمسين جنيهًا.

انتهز آخرون الفرصة لإشباع رغباتهم من خلال اختطاف واغتصاب النساء، وكانت المحظيات والغانيات عُرضة للخطر بشكل خاص طوال الانتفاضة. كانت المحظية «مانجلو» - التي اختُطِفَت في وقت مبكر من مايو من قبل رستم خان - لا تزال في الأسر في أواخر يوليو، على الرغم من تلقِّي «رستم» أمريْن من القصر بالإفراج عنها. وقد وردت شكاوٍ عديدة بشأن هذا الرجل في القصر، منها ما ورد من شقيق مانجلو المدعو «تشاندان»، الذي يبدو أنه عمل قوَّادًا لها، ومن رجل آخر وصف نفسه بأنه «شهيدي، مسافر من معسكر جورجاون» وقال: «صرت بلا مأوى بسبب أعمال العنف ضد الفرنجة الملحدين»؛ إذ كان واحدًا من عديدٍ من اللاجئين من الريف، الفارين بلا مأوى من أعمال القصاص التي تلحق بالقرى التي تعتبر معادية، أو المتهمين بمساعدة البريطانيين في أثناء فرارهم من دلهي ليلة ١١ مايو. وبحسب كلام «شهيدي»، فقد وقعت حادثة مروعة عندما قام الضابط «فرزند علي» بقتل محظية تُدعى «إمام» بخنقها حتى الموت! ويخشى شهيدي أن يتكرر الأمر ويقتل «رستم خان» المحظية «مانجلو» التي يهددها ويضربها طوال النهار وطوال الليل.

عندما صدر أمر آخر للإفراج عن مانجلو، مزقه الريسالدار (قائد سلاح الفرسان) لدى رستم المدعو فايز خان، كتب «تشاندان» مرة أخرى إلى البلاط، مكررًا أن: «رستم خان قام بسجن مانجلو وضربها، وبالرغم من صرخات المسكينة، فلم يحاول أحد مساعدتها.. وعلى الرغم من الأوامر المتكررة فإن الريسالدار لم يطع الأوامر.. هل لهذه الحالة من الفوضى والظلم من نهاية؟ آمَلُ أن يُصدر مرسومًا آخر إلى الريسالدار المذكور لاسترداد المحظية، يجب أن تتحرر المسكينة وتُعوَّض عمَّا عانته، حتى نتمكن من الدعاء لرفاهية وصحة جلالتكم..».

لم يكن السيبويون فقط هم من أطلقوا شهواتهم في شوارع المدينة المحاصرة، فقد كان الأمراء أيضًا يسعون وراء شهواتهم مثلهم بلا رادع، وكان أسوءهم جميعًا، ميرزا أبو بكر! كان يقضي أحد لياليه في بيت ميرزا غلام غاوس، الذي تُعَد شقيقاته من أجمل جميلات دلهي. يُزعم أن ميرزا أبو بكر

قال لـ«غلام غاوس»: «أنا ثمل جدًا، وبدأ يتفوَّه بكلمات بذيئة» وعندما أخبر غلام غاوس شقيقاته أن يختبئن، رفع أبو بكر سيفه عليه، وصوبه نحوه، لكنه نجح في صده. في غضون ذلك، حاولوا إخلاء المنزل، لمنع حدوث أي حادث غير مرغوب فيه، وحيث كان هناك بعض التأخير في حدوث هذا، بدأ أبو بكر بإساءة معاملة الموجودين، ثم أطلق نحوهم عددًا لا يُحصى من طلقات البنادق عند البوابة، حاول أحد الرجال تهدئة الأمور لكن ميرزا أبو بكر ضربه ثلاث مرات بسيفه! بحلول ذلك الوقت، كان أربعون جنديًّا قد تجمعوا وبدأوا فرض النظام في المنطقة. بينما كان هذا يحدث، كان غلام يهرِّب أخواته من فوق السور، وقام بإرسالهن إلى لال كوان من أجل سلامتهن.

كان من الجيد أنه فعل ذلك، لأنه لم يمرَّ كثير من الوقت حتى خرج ميرزا أبو بكر ورفاقه محملين بقروات المنزل، حتى إنهم ابتعدوا ومعهم حصان وزوج من العربات كانوا في الفناء الداخلي. وبينما هم في طريقهم، تواجهوا مع قائد الشرطة، الذي أتى راكبًا جواده للتحقيق في الاضطرابات التي حدثت، لكن ميرزا أبو بكر تجاهل اعتراضاته، وبدلًا من ذلك اندفع نحوه شاهرًا سيفه، واستولى على حصانه أيضًا. لكن في هذه المرحلة، كان ميرزا عبد الله، ابن أكبر أبناء ظفر، الراحل ميرزا شاروخ، قد وصل ووبَّخ ابن عمه على التسبب في كل هذا، وتمكن من إقناعه بمغادرة المكان والعودة إلى القلعة الحمراء. لم يكن مفاجئًا أنه في ضوء هذا الانهيار الحضري الفوضوي المتزايد، كانت كتابات الشيخ محمد باقر في جريدة أخبار دلهي بالأوردية كلها كئيبة. كتب باقر في مقالته الافتتاحية بتاريخ ٢٣ أغسطس: «الموت يحوم في الأرجاء.. يجب أن يُنظر إلى ما يحدث في كل مكان حولنا على أنه نتيجة لأفعالنا السيئة وخطايانا.. لقد قدَّسنا ذواتنا وانجَرَفنا وراء شهواتنا، دون تحكيم كلام الله وأوامره.». كما تحدَّث باقر بإسهاب عن أعمال الانتقام التي يقوم بها البريطانيون في كانبور وأماكن أخرى، فكتب: «الآن بدأ الكفار المسيحيون يرتكبون أعمال السلب والنهب وخاصة ضد المسلمين.. أينما يفرضون سيطرتهم، يسارعون بإعدام الرجال بشكل عشوائي، وتدمير قرى بأكملها، وحينما لا يكون بوسعهم أن يتسببوا في أي ضرر للجيش المنتصر، فإنهم يوجهون غضبهم على رعايا الإمبراطور المساكين!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن أخطر تهديد لأي أمل متبقٍ في النصر على البريطانيين كان الخلافات بين الأفواج المختلفة؛ وكانت تلك الخلافات تتزايد بشكل أسوء من أي وقت مضى. حيث كان قادة اللواء القادم من نيماش، آخر إضافة ضخمة إلى جيش المتمردين، ضد سلطة بخت خان بشكل أكبر حتى من قادة أفواج ميروت ودلهي، وفي ٢٣ أغسطس ذهبوا إلى حد اتهامه - ظُلمًا بالكامل - بالتواطؤ مع البريطانيين، «منعه لجنوده من خوض الحرب بجدية حتى يتلقَّى البريطانيون

تعزيزات من إنجلترا..». في خضم كل هذا، تم تحريضهم من قِبَل الجاسوس البريطاني والعميل المُحرِّض «جوري شانكار صقل»، من فوج هاريانا، الذي اصطحب معه شاهدًا من السيخ، وقام ذلك الأخير بتقديم أدلَّة كاذبة على أنه رأى بخت خان يتواصل مع البريطانيين في التلال. أقسم بخت خان على ولائه، لكن ظفر عرض بصراحة إمكانية منعه من دخول القلعة، بينما بدأ ضباط كتيبة نيماش تدبير مؤامرة لنزع سلاح قوات باريلي. وبهدف إعادة سلطته والقيام بمحاولة أخيرة لطرد البريطانيين، قام بخت خان بوضع خطة جديدة عبقرية وطَمُوحَة؛ كانت خطته إرسال قوة كبيرة عبر بوابة أجمري، تنطلق وكأنها تتراجع غربًا.. لكن بدلًا من المضي قدمًا باتجاه جايبور، تعبر القوة قناة يامونا من الجسر القريب، ثم يعودون مرة أخرى لنصب كمين للبريطانيين من الخلف. كانت خطة من النوعية المميزة التي كان يجب على المتمردين طرحها قبل شهرين عندما كان البريطانيون في أضعف حالاتهم. في هذه المرحلة كان ظفر سعيدًا بالموافقة على أيَّة خطة من شأنها إبعاد السيبويين عن مدينته. قال لهم: «اذهبوا، فليحفظكم الله! أظهروا ولاءكم من خلال مهاجمة الإنجليز؛ دمروهم وعودوا منتصرين..».

لذلك، مع هطول الأمطار في الرابع والعشرين من أغسطس، غادر بخت خان المدينة مع واحدة من أكبر القوات التي تجمعت حتى الآن لشن هجوم واحد؛ ٩٠٠٠ رجل وثلاثة عشر مدفعًا. انطلقوا فوق الطرق الطينية، ناشدين قرية نجفجارا، على أمل عبور القناة إلى الجنوب من القرية. عندما وصل السيبويون إلى قناة يامونا، إلى الشمال من بالام، تزايدت حدة الأمطار أكثر من أي وقت مضى، وكانت المفاجأة أنهم وجدوا أن الجسر قد دُمِّر بأوامر الجنرال ويلسون، كجزء من استراتيجيته لإبعاد السيبويين عن مؤخرة الجيش البريطانيين. لكن كان بخت خان مستعدًّا لذلك، وقام بإصلاح الجسر، لكن تمت المهمة بشكل كارثي وسرعان ما انكسر الجسر مرة أخرى بمجرد أن بدأت القوات عبورَه. لتمر أربع وعشرون ساعة أخرى من الإصلاحات حتى صار الجسر صالحًا للعبور من فوقه، وفي أثناء الانتظار، كانت القوة بأكملها معرَّضة للجو القاسي والبرودة والأمطار. علاوة على ذلك، كانوا يتضوَّرون جوعًا فعليًّا لمدة ثلاثة أيام. في الخامس والعشرين من أغسطس، تحركت القوة المتمردة مرة أخرى - مبتلين، وجائعين، وبأسوء حال ممكنة - في صف واحد على طول ضفاف مستنقع نجفجارا.. كان الأمر صعبًا، وفقًا لما قاله سعيد مبارك شاه: «كانت القوات في أقسى حالات التعب بالفعل عند وصولهم إلى المستنقع، لكن لم يكن لديهم أي وقت للراحة. غُرست عجلات عربات المدافع باستمرار في المستنقع فكان التقدم بطيئًا للغاية، وكان على السيبويين أن يخوضوا في الماء الذي يصل إلى ما فوق ركبهم.»

عندما غادروا دلهي، كانت قوات باريلي التابعة لبخت خان في المقدمة. ولكن بعد التوقُّف عند الجسر، صار لواء نيماش - بقيادة خصوم بخت خان وأعدائه، الجنرال «سوداري سينغ» والقائد «حيرا سينغ» - في المقدمة، تتبعهم مجموعة صغيرة من فوج نصير أباد.. قبل يومين فقط، حاول قائدَا لواء نيماش الإطاحة ببخت خان من قيادته.. لم تكن توليفة تبشِّر بالخير بالنسبة لنجاح الحملة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شاهد البريطانيون جيش السيبويين الضخم وهو يغادر المدينة عبر المناظير المقربة.. كتب تشارلز جريفيث: «لقد شوهدوا من التلال وهم يخرجون من بوابتا «لاهور» و«أجمري»، ويتقدمون نحونا من الجهة الخلفية». عندما وصلت تقارير رحيل بخت خان إلى الجنرال ويلسون، كان يعلم من الرجل الذي سيرسله لردعه؛ في الواقع، كان من نواحٍ كثيرة حريصًا على إخراج جون نيكلسون من المعسكر والتخلص منه أكثر من أن حرص ظفر على التخلص من بخت خان. انطلق نيكلسون مع المجموعة المتحركة تحت غطاء يقيها الأمطار الغزيرة في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي. بالإضافة إلى رجاله، أحضر ثلاثة أفواج من مدفعية الخيول ومجموعة مختلطة من المشاة البريطانية من القوات الحربية، بما في ذلك شقيقه الأصغر، تشارلز نيكلسون، وكذلك تشارلز جريفيث، وإدوارد فيبارت. إجمالًا، بلغ عدد أفراد جيش نيكلسون الصغير ألفان وخمسمائة رجلٍ، نصفهم من البريطانيين. وكان ثيو ميتكالف في الصدارة، بصفته دليلًا للطرق الخلفية في دلهي. كان أمر ويلسون الوحيد هو التمسك بالطرق وعدم السقوط في مستنقعات الرياح الموسمية. لكن سرعان ما تجاهل نيكلسون النصيحة وأخذ طريقًا مختصرًا، كان ثيو قد أوصى به، يمر عبر الريف الغارق في المياه، حيث توجب سحب الخيول والمدافع عبر الوحل. ولكن، على الرغم من الوحل والأمطار الغزيرة، نجح نيكلسون في تحفيز المجموعة للتحرك بسرعة لا بأس بها، معتقدًا كالعادة بأن عنصر مفاجأة العدو هو كل شيء. تحركت المجموعة بسرعة لمدة ست ساعات، وتوقفوا عند الساعة العاشرة صباحًا للاستراحة وتناول وجبة إفطار لمدة ساعتين في قرية «مونجلي»، ثم استأنفوا المسيرة ظهرًا، وسط سيول الأمطار الغزيرة. وكانت التعليمات بأن تسير المجموعة في صمت، دون أي ضوضاء من أي نوع.

قبل الساعة الرابعة عصرًا بقليل، على بعد ميلين شمال نجفجارا، عندما كان ثيو في المقدمة، يحقق في طريق مختصر آخر محتمل، تصادف مع مقدمة جيش نيماش الذين هاجموا على الفور! حاولوا قتله، ولكن كما حدث في الحادي عشر من مايو، تمكن ثيو من تفاديهم، واستطاع العودة بسرعة وأمان إلى المجموعة الرئيسة. أما أمام القوات البريطانية مباشرة، على الجانب

الآخر من القناة، كانت هناك مساكن مغولية قديمة للراحة. هناك، كان الحرس المتقدم لقوة نيماش يستريح، يحرسهم تسعة من حَمَلة البنادق، في انتظار بقية مجموعتهم للحاق بهم؛ فيما كانت قوات باريلي مع بخت خان مازالت في الخلف، تتقدم نحوهم بالقرب من جسر بالام.. كان عديد من السيبويين نائمين؛ بينما قام آخرون، بعد أن خلعوا أسلحتهم، بنصب الخيام، وقد خلع كثيرون منهم أحزمتهم وملابسهم. كان قد مرت على القوات البريطانية المنهكة اثنتا عشرة ساعة على الطريق، وقد ساروا لحوالي عشرين ميلًا تحت الأمطار الغزيرة، يخوضون في الكثبان الموحلة، ويعبرون المستنقعات والماء يصل إلى خصرهم حاملين عبوات الذخيرة فوق رءوسهم؛ لكن على الرغم من حالتهم اليائسة تلك، لم يتردد نيكلسون في إصدار الأوامر بالقيام بهجوم فوري، حتى يُباغِتوا السيبويين.

كانت مدافع السيبويين قد تركت على الجسر فوق القناة، لذا جعل نيكلسون القوات البريطانية تعبر القناة من مكان ضحل إلى الضفة، وسرعان ما تم تنظيم صفين من الرجال على كل جانب. وطاف نيكلسون ببداية الصفين ونهايتهما وهو يأمرهم بالحفاظ على ذخيرتهم حتى الاقتراب من دبابات العدو، ثم أمرهم بالتسلُّح بالحراب بثبات. كتب تشارلز جريفيث: «رد عليه الرجال بتحية قَبُول.. وسرعان ما تقدم الصف عبر السهل المنبسط، بكل ثقة وقوة كأنهم في استعراض حربي.. وحين أطلق العدو النار، ردت عليه بنادقنا بسرعة، حتى قطع المشاة ببنادقهم في خطوة سريعة مسافة مائة ياردة، وهنا قمنا بتسديد ضربتنا. ثم سمعتُ صرخة حماسة للحرب من قِبل الجنود البريطانيين، وهجم الصفان بأقصى سرعة نحو الخيام والنزل.

كان الملازم جابيت من فَوْجِي أول من وصل إلى التحصينات، وتمكَّن من المرور من خلال ثغرة بصفوف العدو، فتلقَّى سهمًا في جانب صدره الأيسر، وسقط أرضًا، ليموت إثر نزيف داخلي في الحال. لكن الرجال تبعوه، مكتسحين كل شيء أمامهم، واستولوا على البنادق الأربعة في النزل، ووجهوا الحراب صوب المتمردين، وأطلقوا سهامهم.»

تولى نيكلسون القيادة، ولكن إدوارد فيبارت كان من أوائل من اشتبكوا مع السيبويين. كتب إلى شقيقته الوحيدة التي ظلَّت على قيد الحياة في اليوم التالي: «اقتحمنا موقعهم فجأة وأخرجناهم منه، واستولينا على المخيم بأكمله والذخيرة والأمتعة؛ قاتلنا بشجاعة في وجههم فيما هم يتخفُّون خلف حاوية مربعة مثقوبة من كل مكان. كنَّا جميعًا نهتف بقوة، بأمر قادتنا، وأخرجناهم بتهديدهم بالحراب.. أوه! لا أستطيع أن أخبرك عن شعور الجنون الذي احتلَّني وأنا أثأر منهم، فكرت فيَّ وفي الدينا المحبوبين، وشعرت بلهيب الانتقام يستعر بداخلي! كانت تلك هي معركتي الأولى، وقد تغمَّدني الرب برحمته

مرة أخرى فحافظ على حياتي، على الرغم من أن الرجال القريبين مني قد عُرِّضوا للقتل. أصابت رصاصة معدن سيفي، فأنقذت حياة رجل خلفي! لكن أين المتعة في كل هذا؟ ليس أمامنا في الحياة إلا الظلام واليأس.. أشعر بوجه والدتي العزيزة ماثلًا دائمًا أمامي وهو ما يصيبني دائمًا بالحزن..».

لم يكن فيبارت هو الشَّخص الوحيد الذي أصيب بالحزن في ذلك اليوم. عندما هاجم نيكلسون، كان معظم السيبويين لا يزالون في الطريق، وقد اصطفوا على طول ضفة المستنقع، غير قادرين على التحرك يمينًا أو يسارًا، إذ حتى على الضفة كان الوحل فظيعًا، وكان كثيرٌ منهم قد غاصوا حتى ركبهم في الطين. كتب سعيد مبارك شاه: «بينما يكافحون للسير في المجاري الطينية، انفتحت نيران البنادق البريطانية عليهم!».

تدفقت الطلقات فجأة من اثنتي عشرة بندقية على قوات لواء نيماش وثُبِّت المشاة والمدفعية بلا حول لهم ولا قوة، إذ لم يكن بإمكانهم لا التقدم ولا التراجع، وبدأ عددهم التناقصَ. وكما لو لم يكن هذا كافيًا، لم يكونوا قادرين على رؤية البنادق البريطانية التي كانت تقوم بكل هذا الدمار في صفوفهم، إذ أخفتهم الأشجار والمزروعات الضخمة. وعلى الرغم من صعوبة موقفهم الشديدة، أطلقت القوات النيران في كل مكان حتى لو لم ترَ شيئًا. ولكن عندما لا يستطيع الرجال لا التقدم ولا التراجع، فإن موقفهم يكون سيئًا للغاية، وليس بوسع الرجل سواء أكان شجاعًا وجبانًا إلا أن يتوقف ويموت. في ذلك اليوم، قُتل ٤٧٠ من لواء نيماش من الخيول، والمشاة، والمدفعية. والأسوأ من ذلك بالنسبة لتماسك قوة المتمردين كان رد فعل بخت خان عندما وصلت له الأنباء بالقرب من جسر بالام أن القوات بالأمام قد اشتبكت مع البريطانيين. قبل ثلاثة أيام، كان جنرالات نيماش اتهموه بالخيانة، والآن كان يرد على اتهامهم بأنه لم يكن في عجلة من أمره لإنقاذهم!

بدلًا من ذلك، عند سماع صوت المدافع، أوقف بخت خان التقدُّم. كتب سعيد مبارك شاه فيما بعد: «كانت الحقيقة المؤلمة أنه وضباط قوة نيماش لم يكونوا على عَلاقة جيدة.. في هذا الموقف، رغب كلا الطرفين في تدمير الطرف الآخر. كل قائد أراد أن يكون اسمه وحده مشهورًا، ويتم ويُقَدَّم باعتباره منتصرًا. لحسن الحظ تقدمت كتيبة نصير أباد على اليمين وقتلت ما يزيد عن مائة من البريطانيين، وبالتالي مكنت الجزء المتبقي من رجال نيماش من الخروج من المستنقع. لو لم يحدث هذا، لما تمكن أي رجل، ولا أي حيوان حتى ينتمي إلى لواء نيماش من الهروب حيًّا. سقطت بنادقهم غنيمة في أيدي البريطانيين، وهرب من استطاع الهروب في حالة من الفوضى التامة، بينما طاردتهم طلقات الرصاص دون توقف في أثناء هروبهم. في النهاية، وصلوا إلى قوات بخت خان التي كانت لا تزال سليمة وبأفضل

حال، وهم في أشد الإنهاك وفي فوضى تامة، فتراجعوا معهم، بينما قام الأوروبيون بتدمير المدافع التي تم الاستيلاء عليها فحولوها إلى أشلاء، ووضعوها على ظهور الأفيال وحملوها إلى معسكرهم على التلال.».

بالنسبة لكلا الجانبين، كانت نقطة تحوُّل حاسمة. لأول مرة منذ معركة «بادلي كي سيراي» التي حدثت قبل شهرين ونصف، تشتبك قوة دلهي الميدانية مع قوات المتمردين في معركة طويلة، فكان حجم الهزيمة ضربة قوية لمعنويات المتمردين، وكان كل هذا يعني أنه لم يكن لدى أي من الجانبين أيُّ شك في حدوث هجوم واسع النطاق على المدينة في أيَّة لحظة. بعد أسبوع، في الرابع من سبتمبر، وصلت الإمدادات أخيرًا إلى الحصار، فتوغَّل صف طويل يبلغ طوله ثمانية أميال من الأفيال التي تسحب ستين مِدفعًا ثقيلًا وقذائف هاون، مسبوقة بصفوف طويلة من العربات التي تجرها الثيران، مليئة بالذخيرة والقذائف، وقنابل عنقودية، كثير منها أُنتِج حديثًا في مصانع الذخائر بالبنجاب، والتي استمرت في العمل بكفاءة طوال فترة الثورة. كان عديد من المدافع ضخمًا للغاية، حتى إن أحدها بلغ وزنه ٢٤ رطلًا، وتطلب الأمر فِرَقًا من الفيلة لسحبها.. رافق هذا الصف أربعمائة من المشاة الأوروبيين، ومجموعة كبيرة من الفرسان السيخ و«كتيبة بيلوش»، والذين وصفهم تشارلز جريفيث بقوله: «رجال يبدون شديدي الوحشية والمظهر!».

في اليوم التالي، ذهب هيرفي جريثيد لتفقد جميع الإمدادات التي يتم تفريغها بواسطة المهندسين. انشغل ريتشارد بيرد سميث، وهو خبير من البنجاب وُظِّف رئيسًا للمهندسين في القوات الميدانية، بوضع خططه. كتب جريثيد: «يبدو أن الإمداد بالرصاص والذخيرة كافٍ لطحن دلهي وتحويلها إلى تراب، لم أرَ برنامج العمليات، لكن العمل اليومي كان يتم كتابته بتفاصيل دقيقة بالطباشير على الجدران. ولم يكن بيرد سميث بالرجل الذي ينسى أصغر التفاصيل.».

كان معسكر المهندسين مميَّزًا، وجاهز للتحول إلى مسرحٍ للعمل، هناك منصة للبنادق، وأماكن تصلح لتكون مخازن أسلحة، وأكياس الرمل، والسلالم، وكل لوازم الحرب. بدأ البريطانيون في اليوم التالي نصبَ الدبابات الثقيلة التي من شأنها تحطيم أسوار المدينة، بينما عمل خبراء المتفجرات البنجابين تحت إشراف المهندسين العسكريين البريطانيين. لكن يبدو أنه لم يكن من الممكن إبقاء هذه الضجَّة سرًّا، وعلى الفور استهدفت مدفعية الثوار المكان بأكمله، ومن الغريب أن من عانى من وطأة قصف الجانب الثائر من الهند هم الهنود أنفسهم المنضمُّون للجيش البريطاني، بينما كان أسيادهم البريطانيون يتأمَّلون ما يحدث عن بُعد.. كتب فريد روبرتس: «مع ذلك، بالرغم من الشجاعة التي تُميِّز السكان المحليين، فإن سقوط الرجال واحدًا بعد الآخر،

كان يجعلهم يتوقفون للحظة، ويبكون قليلًا على الصديق الذي فقدوه، ثم يغطون الثغرة التي حدثت بسقوطه ويستكملون عملهم.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد القائد بخت خان من نجفجاره محمَّلًا بالعار، وعُرِّضَ للإساءة في البلاط لتركه قوات نيماش تُهزم دون محاولة الذهاب لنصرتهم. حتى ظفر، والذي تجاهل بشكل متزايد ما يحدث في الأسابيع الأخيرة، استعاد بعض حيويته في ضوء الكارثة، وأرسل رسولًا إلى القائد بخت خان، يخبره أنه ارتكب أشد الخطأ في حق بني جلدته حينما تجاهل نداء المعركة. لمدة أسبوع بدا الجيش كأنه على وشك القيام بتمرُّد ثانٍ على قادته، لكن هذه المرة ليس على البريطانيين إنما على قادته الحاليين من المغول. تصاعد الكلام بين السيبويين عن خلع زينَّت محل - التي اتهموهما علانية بالاستمرار في تبادل المراسلات مع البريطانيين - واستبدالها بـضَرَّتها - تاج محل - «ما لم توزع رواتبهم خلال خمسة عشر يومًا!» على حد قولهم. كما اعتقل والد زينَّت محل، ميرزا قولي خان، لفترة وجيزة من قبل مجموعة من السيبويين، الذين كانوا يتصرفون بشكل مستقل على ما يبدو. بينما ناقش آخرون فكرة خلع ظفر لصالح ميرزا جيوان بخت الذي لم يظهر تقريبًا طوال فترة الحصار.

ذات يوم تجمع خمسمائة سيبوي خارج «الديوان الخاص»، واتهموا ميرزا أبو بكر وميرزا خزر سلطان باختلاس الأموال، وأنهم «جمعوا مبالغ كبيرة من الناس في المدينة ولم يعطوا شيئًا للجيش.» في غمرة يأسه، سلم ظفر كل ما تبقى من فضة في القصر للسيبويين قائلًا: «بيعوها وقسموا ثمنها فيما بينكم كأجر لكم.» لكن مع اقتراب دبابات الحصار البريطانية، والتي لم تلبث أن بدأت في الثامن من سبتمبر قصفَ أسوار المدينة، ثار الاعتقاد بين الثوار بأن النهاية باتت وشيكة، مما دفعهم إلى حالة من التماسك والوحدة التي استعصت عليهم طوال فترة الحصار. ويعود كثيرٌ من الفضل في ذلك إلى ميرزا مغول، الذي بدأ مكتبه إصدار سيل من الأوامر للدفاع عن المدينة، وأصدر بيانًا باسم والده للمواطنين ليتحدوا ضد الكفار..

«هذه الحرب هي حرب على الدين!»، هكذا كتب في اليوم السادس، وصاحبت كلماته قرع الطبول عبر المدينة. «إنهم يحاربون عقيدتنا، ويجب أن يهب جميع المسلمين والهندوس من سكان المدينة الإمبراطورية، أو القرى المحيطة بها لنصرة معتقداتهم ودياناتهم؛ بذبح الإنجليز، والأهم خدمهم.» كانت حينها مدافع القوات البريطانية ترسل تحياتها الآن من الوجه الشمالي لأسوار المدينة؛ وبحلول الثاني عشر من سبتمبر، كانت جميع البنادق الستين تطلق رصاصاتها دون توقف، بأسرع ما بوسعهم، طيلة أربع وعشرين ساعة في اليوم. كتب تشارلز جريفيث: «كان الضجيج والجلبة كافيين لإصابة المرء

بالصمم.. كنا نسمع وابل الرصاص ليلًا ونهارًا، في تتابع لا نهائي.». بالتأكيد كان الأسوأ أن تكون مكان الطرف المتلقي.. كتب ظهير دهلوي: «كانت المدافع والقذائف من التلال تعمل دون توقُّف.. الله وحده يعلم كم كان عددهم هناك. في ذلك اليوم كانت كل أبواب المدينة وأسوارها تتخبط، بينما النار تتساقط من السماء.. بدا الأمر كما لو أن أحدهم قد فتح بابًا من أبواب الجحيم على الأرض.».

ما لم يدركه البريطانيون هو أن ميرزا مغول على الجانب الآخر من الجدران بدأ بناء نظام متطور من المتاريس ودفاعات الشوارع، فقام ببناء «دمدمة» - حصن من الطين - أمام بوابة كشمير، مدركًا أنه بمجرد أن يصل البريطانيون إلى داخل المدينة، فإن قواتهم ستكون كذلك أكثر ضعفًا بكثير مما كانوا عليه وهم وراء تحصيناتهم القوية فوق التلال. يبدو أن خطته كانت تعمل على حساب تشجيع البريطانيين أن يتركوا تحصيناتهم المنيعة، ويجذبهم إلى شوارع المدينة، حيث سيفقدون ميزتهم الاستراتيجية، وحيث المدفع مجهز بالقنابل، وكذلك الأعشاش المليئة بالقناصين، كل هؤلاء سيكونون جاهزين في انتظارهم، فقام بالسماح للبريطانيين بأخذ الأرض بين التلال وأسوار المدينة دون مقاومة كبيرة، ولكن بمجرد أن أصبحوا ضمن نطاق أسوار المدينة، رد الثوار عليهم بكامل قوتهم! لكن كان هدفهم الأسهل هو الفرق البريطانية المكشوفة التي تعمل على بناء منصات أسلحة على الأرض المسطحة بالقرب من الأسوار، فقد بدت هدفًا سهلًا أكثر من أي هدف آخر ظهر أمام المتمردين منذ يونيو.. كتب ميرزا مغول للضباط في الثامن من سبتمبر: «الكفار الآن في مرمى نيراننا.. تعالوا وقاتلوا معنا.. لنطلق عليهم النيران قبل أن يتخطوا الأسوار. يجب ألا يكون هناك تأخير ولا تقصير في تلبية نداء الواجب، فالعدو الآن على الأبواب، ويجب على الجميع مؤازرة إخوانهم بشجاعة.».

علاوة على ذلك، تمكن الجهاديون لأول مرة من الاقتراب بما يكفي لاستخدام أسلحتهم؛ قيل إن «إمداد علي خان»، أحد جهاديي بخت خان أظهر شجاعة فائقة، «وعلى الرغم من أنه كان محاصرًا، إلا أنه تمكن من الفرار بصعوبة كبيرة.» ومن بين الذين رافقوه في هذا الوقت كانوا «الشيخ نوازيش علي مع قوة من ألفين رجل، وفوج وصل حديثًا وهو «الغزاة الانتحاريون» من جواليور، الذي تعهَّد بالصوم والقتال حتى يلاقوا الشهادة على يد الكفار، فكان شعارهم: «من أتى ليلاقي الموت، لا حاجة له للطعام.» كان أحد المتمردين الآخرين الذي تميز في هذا الوقت هو الرقيب جوردون، وهو إنجليزي اعتنق الإسلام، وقد جلبه السيبويون إلى شاه جهان. وفقًا لسعيد مبارك شاه، «أطلق جوردون النار ضد الدبابات الإنجليزية، وكانت ضربته موفقة، وأسعدت السيبويين للغاية، فقدموا نذرَ الطاعة إليه، لكنه أجاب «لقد فات الأوان، لا

أستطيع فعل أي شيء الآن. إذا كنتم قد تصرفتم بناءً على نصيحتي في البداية، فلم تكن الدبابات البريطانية لتتمكن من التقدم ولو لخطوة، أما وقد صارت الأمور ميئوسًا منها تريدون مني أنا أن أوقف تقدمهم؟ هذا مستحيل، لكنني سأقاتل معكم حتى الموت.».

ذهب الشيخ سرفراز علي - إمام المجاهدين - إلى البلاط في العاشر من سبتمبر، وحكى عن كم كان الجهاديون ممتنين لأنهم أخيرًا حصلوا على الفرصة لإثبات شجاعتهم وتفانيهم! وأنهم يتطلعون إلى المشاركة في المعركة القادمة بقوة أكبر من أي وقت مضى. وفقًا لتقديرات هيرفي جريشيد، بسبب عدد حالات الفرار من السيبويين التي حدثت في أغسطس، ارتفعت نسبة المجاهدين بشكل كبير وأصبح عددهم الآن يقارب نصف جيش المتمردين المتبقيين؛ إذ قُدِّر عدد جيش المتمردين المتبقي في دلهي بحوالي ستين ألف رجل، بينهم خمسة وعشرون ألفًا من المجاهدين المسلمين. أرسل ميرزا مغول منادين للبلدة حول الشوارع داعين المواطنين العاديين إلى الانضمام إلى الدفاع. وجاءت الدعوة نفسها من الجهاديين، الذين بدأوا التجول في شوارع دلهي ينادون: «أيها المواطنون، كل من يتمنى أن يكون نت الشهداء المؤمنين فليأتِ وينضم إلينا..». وبفضل حديثهم هذا جمعوا عددًا عظيمًا من الناس، على استعداد للشهادة، ولن يتراجعوا أبدًا.

وفي العاشر من سبتمبر، تم إرسال الأوامر إلى جميع قادة الجيش للانضمام معًا في آخر معركة. كتب ميرزا مغول لتذكير قادة الهندوس والمسلمين: «دفاعًا عن قدسية البقرة، وضد دنس الخنازير، دفاعًا عن إيمانكم ودياناتكم، وإذا أردتم الحياة الحسنة في الدنيا والآخرة، يجب أن تعِدوا جيشكم من المشاة والفرسان والمدفعية للوصول لبوابة كشمير ومهاجمة خصومنا الفاسدين الكفار الخسيسين.. لا داعي للتأخير.. تحركوا على الفور تنفيذًا لـأمر الإمبراطور، اثبتوا على الحرب.. كل ضابط يجب أن يشكِّل قوته وينظمهم استعدادًا للهجوم.. ولو قام أي شخص، سواء أكان ضابطًا أو سيبويًّا بتقديم أي أعذار، ففضلًا أرسلوا على الفور تقريرًا عنهم للإمبراطور.».

بدأ البريطانيون في الحادي عشر من سبتمبر تنسيق إطلاق جميع أسلحتهم، بحيث تصيب الطلقات الأسوار في وقت واحد بدوي يصم الآذان. بحلول منتصف النهار، بدأت أسوار المدينة أخيرًا الانهيار، مرسلة سُحبًا من الغبار نحو السماء وسرعان ما فُتح ثُقبَان كبيران في الأسوار، أحدهما بالقرب من حصن كشمير، والآخر بالقرب من ضفة نهر يامونا، عند مخزن المياه. وعلى الرغم من تضور المتمردين جوعًا، حاربوا بقوة لا مثيل لها، وأرسلوا مجموعات كبيرة من سلاح الفرسان من البوابات للتحرش بـالمهندسين وحَمَلة البنادق؛ في غضون أيام قليلة، تعدَّى عدد ضحايا الجيش البريطاني

الأربعمائة قتيل. كتب تشارلز جريفيث: «على الرغم من أن دباباتهم في المعاقل كانت صامتة، فقد صوب المتمردون بنادقهم جيدًا في الفضاء المفتوح أمام الأسوار؛ فأرسلوا عاصفة من الصواريخ من أحد أبراج مارتيلو وأطلقوا سيلًا من الرصاص من الأسوار والخنادق المتقدمة فاشتعلت النيران في عديد من الدبابات البريطانية تاركة خلفها كومة مشتعلة من أكياس الرمل، والبقايا المعدنية.».

حتى إدوارد فيبارت اضطر للاعتراف بأن: «المتمردون يقاتلون بعناد، على الرغم من أن حصونهم كانت مجرد كومة من الأنقاض، لكنهم ما زالوا يردون نيراننا وأعدادهم تتزايد يومًا بعد يوم، لدرجة أنهم يخرجون ويهاجموننا من جميع الجهات.. لن يتم إبعادهم أبدًا عن الأسوار ما لم نستخدم الحِراب.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول يوم الأحد الثالث عشر من سبتمبر، صار من الواضح أن الهجوم كان وشيكًا، وكثيرون خمنوا أنه سيحدث في صباح اليوم التالي؛ أمضت القوات البريطانية اليوم في التدرب. كما صوَّتوا على من سيصبح من بينهم جامع الغنائم، المسئول عن الاستيلاء القانوني على خيرات المدينة التي تم الاستيلاء عليها.. ولدهشته هو نفسه، كان إدوارد كامبل هو من حصل على أكبر عدد من الأصوات، سمع عن تعيينه في الخط الأمامي الجديد في حديقة المغول القديمة التي اسمها قدسية، أمام بوابة كشمير، والتي كان نُقِل لها من منزل هندو راو قبل خمسة أيام.

في اجتماع لكبار القادة في الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم، أعلن ويلسون أن نيكلسون سيكون قائد الهجوم، والذي حُدِّدَ موعده مؤقّتًا ليكون عند شروق الشمس في صباح اليوم التالي. كان من المفترض أن يكون هناك أربعة صفوف، كل صفٍّ منهم يفترض أن يدخل إلى المدينة من خلال فتحة مختلفة في الوجه الشمالي للسور، والتوجه إلى هدف مختلف؛ كان هناك صف خامس بمثابة صف احتياطي، وقد انزعج إدوارد فيبارت عندما وجد أنه عُيِّن لقيادة هذا الصف، والذي يعني أنه لن يشارك في الهجوم. في غضون ذلك، كان على ثيو ميتكالف قيادة الصف الذي يستهدف المدينة عبر بوابة كشمير وغرضه الاستيلاء على المسجد الجامع، والذي سيتم استخدامه بعد ذلك قاعدةً لمهاجمة القلعة. بالنسبة لمعظم الناس، أمضوا الأمسية في كتابة الوصايا والرسائل الأخيرة. كتب أحد الضباط الشاب لأمه القلقة: «أعتقد أننا سنتسلق الأسوار، حاولي تصور الأمر ونحن نحاول الصعود فوق درجات السلم بسرعة، مع محاولة العدو دفعنا للسقوط، بتوجيه حرابهم نحونا ونيرانهم علينا. وعلى الرغم من هذا، أعتقد أنها ستكون متعة كبيرة أن نجمع رجالنا بأسرع ما يمكنهم، لننتصر عليهم. أعرف أن المشهد ليس مما يمكن

التفكير فيه بسعادة، ولكن عندما تحين اللحظة، فإن الإثارة تجعل المرء يشعر بالسعادة بشدة.. آمل ألا تجعلني شدة الإثارة أتفوه بألفاظ شائنة، على الرغم من أن هذا مسموح به هنا، لأن المرء عندما يكون في أشد الإثارة والانفعال، لا يحاسب على ما يتفوه به.. لكنني أعدك أنني سأحاول ألا أفعل هذا بكل ما فيَّ من قوة.»

حضر إدوارد كامبل الموعظة الكنَسِيَّة الأخيرة التي قام الأب روتون بتقديمها على التلال، وقد كانت عظته تقول: «أنا على أتم استعداد للتضحية بي.»، وهو مقطع من رسالة القديس بولس إلى القديس «تيموثاوس». لكن الجزء الذي أثار إعجاب الأب روتن حقًا كان قراءة جزء من العهد القديم، يحكي عن دمار مدينة نينوى «مدينة قديمة بالعراق» المليئة بالخطيئة، فحكى كيف كانت تلك المدينة مليئة بالأكاذيب والسرقة»، وأسهب في حديثه، فقرأ من سفر ناحوم «أحد أسفار العهد القديم»: «اِسْتَقِي لِنَفْسِكِ مَاءً لِلْحِصَارِ. أَصْلِحِي قِلاَعَكِ. هُنَاكَ تَأْكُلُكِ نَارٌ، يَقْطَعُكِ سَيْفٌ، يَأْكُلُكِ كَالْغَوْغَاءِ، تَكَاثَرِي كَالْغَوْغَاءِ. تَعَاظَمِي كَالْجَرَادِ.. وَفُرْسَانٌ تَنْهَضُ، وَلَهِيبُ السَّيْفِ وَبَرِيقُ الرُّمْحِ، وَكَثْرَةُ جَرْحَى، وَوَفْرَةُ قَتْلَى، وَلاَ نِهَايَةَ لِلْجُثَثِ. يَعْثُرُونَ بِجُثَثِهِمْ..»

كانت الاستعدادات لمقاومة الهجوم داخل المدينة قد اكتملت أيضًا تقريبًا، وقد وضع بخت خان اللمسات الأخيرة على الدفاعات في المنطقة المحيطة ببوابة كابول التي كان سيقودها هو؛ يبني المتاريس وحواجز من أجولة الرمل. في ذلك الصباح، أرسل إلى منافسه القديم ميرزا مغول، ويبدو أنه قد قاما بعقد تسوية مؤقتة، وطلب مائتين عامل، وإرسال بعض الألواح الخشبية والسلال والحقائب الخيشية إليه.. وقد لُبِّيت كل طلباته على الفور. أما ميرزا مغول، فقد أصدر أمرًا أخيرًا في غضون ذلك لسكان البلدة لمقاومة الهجوم بكل سلاح يمكنهم العثور عليه، كما أشرف على إنقاذ المنطقتين الأقرب للثُغرات وإرسال سكانها لـأجزاء أخرى أكثر أمانًا في المدينة.. وأما في القلعة الحمراء، فقد حرص ظفر على مواصلة مهامه وكأن لا شيء غير عادي كان يحدث - في هذه الحالة منح لقب «سفير الدولة» لرجل أتى لتقديم الولاء والهدايا للبلاط. لكنه في السر خشي الأسوأ.. كتب سعيد مبارك شاه: «كان الملك يشعر بالاكتئاب اللحظي الشديد حين يسمع أن البنادق على أسوار المدينة قد تم إسكاتها، فيتناول القرآن فيفتحه ليرى ماذا سيقرأ، وكانت عيناه على الآيات التي تعني أنه لن ينفعه أولاده ولا حاشيته، فيصمت الملك المسن.»

ورغم محاولات الحكيم إحسان الله خان إقناعه بأنه بذلك سيتسبب في إحداث فتنة. لكن ظفر لم يقتنع. في هذه الأثناء، كانت زينَّت محل في الجانب الآخر من المدينة في بيتها في لال كوان، مستغرقة في مفاوضات اللحظة

الأخيرة مع البريطانيين من خلال رئيس المخابرات لدى هودسون - رجب علي - . منذ الرابع من أغسطس، كانت الملكة على اتصال منتظم مع البريطانيين، تبث مشاعرها حيال ما يحدث، وتأمل في أن يكونوا قادرين على التوصل لاتفاق مقابل استيفاء شروط معينة. كان هودسون ينقل التطورات بانتظام إلى السير روبرت مونتجمري، رئيس مكتب الاستخبارات في لاهور، وأخبره بأن زينَّت محل كانت «من أفضل الجواسيس البريطانيين، وأنها موالية لبريطانيا بشدة، وعرضت مساعدتها في الاستيلاء على المدينة، بنسف جسر القوارب حتى!»

ففي الخامس والعشرين من أغسطس، اليوم الذي انطلق فيه نيكلسون لمواجهة بخت خان أرسلت زينَّت محل مبعوثًا إلى جريثيد، تعرض فيه التأثير بنفسها على الملك لكن جريثيد رد بتهذيب: «نتمنى لكِ السعادة، ليس لدينا أيَّة ضغينة ضد النساء والأطفال، أعذريني لكن ليس مصرحًا لي بإجراء اتصال مع أي شخص ينتمي إلى القصر». لكن زينَّت محل لم تكن من النوعية التي تقبل بالرفض، فأملت أن تصل لما هو أبعد من خلال التواصل مع هودسون نفسه. كانت حركة ذكية، لأن هودسون كان يحب المؤامرات، و - على الرغم من عدم حصوله على إذن - أعاد فتح الاتصالات، على ما يبدو على مسئوليته الخاصة. في التاسع من سبتمبر طلبت زينَّت محل لقاء رجب علي في بيتها في لال كوان. بحلول اليوم الثالث عشر، بالرغم من أن قبضتها كانت تضعف في الوقت الذي اقترب الهجوم البريطاني أكثر فأكثر، فإنها كانت لا تزال متمسكة بحلم عمرها، الهدف نفسه الذي عملت من أجله بلا كَلَل لسنين طويلة. وكما قال هودسون في تقريره: «طالبت زينَّت محل، مقابل مساعدتها، أن يكون نجلها وريثًا للعرش، وتصبح خلافة العرش مضمونة له، بينما يظل المنصب الملكي كما هو، وسيستمر بوضعه نفسه دون تغيير، وسيتم دفع متأخرات الأشهر الخمسة التالية لثورة مايو على الفور، حاولت بصعوبة كبيرة أن أنبهها لوضع المنصب الملكي الحقيقي، واستحالة اعتلاء الملك أو أي من هذه العائلة على الإطلاق العرش الذي فقدوه للأبد. عندما جعلتها تدرك بالنهاية أن الموضوع ليس متعلقًا فقط بأن منصب الملك وابنه قد صارا على المحك، ولكن حياتهما نفسها كذلك، نجحت في تجنيد زينَّت محل لصفنا، بتقديم ضمان لها على الحفاظ على حياة ابنها وأبيها. بهذا الشرط فقط وافقت على استخدام نفوذها على الملك.»

بينما كانت هذه المفاوضات السرية جارية في لال كوان، كان الشيخ محمد باقر في غضون ذلك ينشر العدد الأخير على الإطلاق - في ظنه - من أخبار دلهي بالأوردية. كانت الافتتاحية الكئيبة لكن تدور حول التوبة وعدم محاولة فهم طرق الله الغامضة.. أخذ ينصح القراء: «لا يجب أن يفقد قلبك عزيمته، ولكن بدلًا من ذلك آمن بقدرة الله القدير.. على الرغم من أن الكفار يتقدمون

نحونا ويحفرون بمعول جديد في مدينتنا كل ليلة تقريبًا، فإن الشيء المهم هو تقدير روح وشجاعة جيشنا المقاتل، وأن نرى كيف يحاولون الهجوم على مواقع الكفار ليلًا ونهارًا. إذا كان الله تعالى يضع هذا العائق بطريقنا فلابد أن هناك سبب ما: من يدري أي فعل غطرسة أو ظلم قد ارتكبناه بالماضي عن غير قصد فتسبَّبَ فيه؟ دعونا نتوجه إلى الله بالاستغفار والدعاء، وعلينا أن نتخذ من هذه النقطة بداية للامتناع عن ارتكاب أي تجاوزات على إخواننا من البشر، أو استغلالهم وإيذائهم بأي شكل من الأشكال. يقال إن الناس في المدينة، وخاصة الفقراء منهم، في حالة يرثى لها. من الضروري في مثل هذا الوقت تقديم الإغاثة والعون للجماهير الكادحة حتى يدعوا بإخلاص من قلوبهم لانتصار حكومة الإمبراطور. تذكروا أنه عندما يحين الوقت وعندما يرغب سبحانه وتعالى في ذلك، سينصرنا على الفور. من يدري أي نوع من الاختبارات يرغب في أن يعرِّضنا له، فيقوم بتأخير انتصارنا هكذا؟ هو فقط من يعلم الغيب. والحكماء يخضعون وينتظرون حكمه.».

في ذلك المساء، على التلال، جعل «روبرت تايتلر» «هاريت» تعده بأنه إذا سارت الأمور بشكل سيء في صباح اليوم التالي، فإنها ستأخذ عربة الثيران مع الأطفال، وتنطلق في الوقت المناسب إلى أمبالا. كتبت هارييت: «كان عليه أن يبقى حارسًا للغنائم في حالة حدوث هزيمة عامة، وإن حدث ستكون تلك هي أسوء بقعة في المخيم للبقاء على قيد الحياة، فالعدو كان متعجلًا للاستيلاء على كل الروبيات التي يستطيعون الحصول عليها، لم أكن على الثقة نفسها في إمكانية الهروب، فلا أظن أن أي شخص كان بوسعه الرحيل من هنا بأمان. «شيملا» انتهى أمرها، ومثلها «كوسوالي»، والهند كلها على استعداد لرفع سلاحها نحونا، ومع ذلك جهز روبرت ثيراننا لتكون على أتم الاستعداد للتحرك.»

خلد معظم البريطانيين للنوم في وقت مبكر.. كتب ريتشارد بارتر: «لم نستطع النوم بشكل جيِّد تلك الليلة في المخيم.. كنت أغرق في النوم بين الحين والآخر، ولكن ليس لفترة طويلة، وعندما استيقظ كنت ألمح الأضواء في أكثر من خيمة من خيام الضباط، وكان الحديث يدور بنبرة منخفضة بين الرجال، وقد تصاعدت أصوات انغلاق قفل أو انطلاق بنادق يبدو بعيدًا في الهواء الساكن، واشيًا بالتحضيرات القائمة للحرب الوشيكة.». لم يكن إدوارد كامبل أيضًا قادرًا على النوم، وبدلًا من ذلك كتب ما اعتقد أنها قد تكون رسالته الأخيرة إلى جي جي، حيث سلَّم مصيره ومصير عائلته لله.. أخذ يكتب في خيمته بخط مهتز: «فليُعِنَّا الله.. زوجي الغالية، تذكري أننا بين يدي الله الذي كان رحيمًا وحليمًا معنا حتى الآن. ثقي بأن الله سيقدم لنا الخلاص، أشعر أكثر فأكثر بمدى أهمية الابتهال إليه بالدعاء وطلب الراحة منه، هو الوحيد الذي يستطيع منحنا السلام والسكينة.. أسمع رنين الإنذار مما يجعلني

مضطرًّا أن أنهي الكتابة وأنضم للرجال. فليحفظك الله يا زوجي الحبيبة، وليحفظ أرواحنا نحن وأحباءنا..»

نهضت القوات في منتصف الليل، وبدأت تتجمع في صفوفها المختلفة. وعلى ضوء الفوانيس، تمت تلاوة أوامر الجنرال ويلسون عليهم. كان على كل رجل أن يحمل مائتي طلقة، وكان الهدف من كل صف محدَّدٍ، بدءًا من المسار الذي كان عليهم أن يسلكوه، أو ترك الجرحى حيث سقطوا، ليس هناك نهب فردي، كل ما هو ثمين في المدينة سيتم وضعه في خزانة مشتركة تحت إشراف إدوارد كامبل، لن يأسروا أحدًا؛ سيقتلونهم جميعًا، ولكن من أجل الإنسانية وشرف إنجلترا، فلن يتم أذية النساء والأطفال. في الساعة الثالثة صباحًا، انطلقت الصفوف المهاجمة الأربعة أولًا إلى برج فلاجستاف، ثم نزلوا في صمت من التلال، مستخدمين أشجار فاكهة ظفر في المنطقة التي كانت رائعة الجمال ذات يوم - حديقة قدسية باغ المغولية - كغطاء..

استمرت أصوات المدفعية ودبابات الهجوم كل هذا الوقت يطلقون النار بالسرعة التي كانوا عليها خلال العشرة أيام الماضية، ووفقًا لـ«بارتر»: «أضاء ظلام ما قبل الفجر فجأة بومضات مستمرة، بينما امتلأ الهواء بقذائف العدو.». استمر هذا لمدة نصف ساعة، حتى بزوغ الفجر في الأفق، فصمتت البنادق فجأة كلها معًا. لمدة ثانية وسط هذا السكون تمكن الجنود من سماع تغريد طيور صغيرة بين الأشجار، وشم رائحة أزهار البرتقال والورد في حديقة ظفر، وقد فاحت الرائحة على الرغم من رائحة الكبريت المنتشرة بالمكان.. كانت ثانية، محضَ ثانية توقف فيها العالم.. ثم أعطى نيكلسون الأمر، وبعد ثلاثة أشهر من الثورة والحصار، تقدم البريطانيون أخيرًا فوق أسوار دلهي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القتل للجميع!

بدأ الهجوم على المدينة كما خُطط له بالضبط، ففور أن صدرت الأوامر بالبدء، أعطى قادة كل صف إشارتهم، لتتصاعد الهتافات الحماسية، وتركض القوات بأسرع ما يمكنها منطلقة من حديقة (قدسية باغ) عبر الأرض التي طالما حرَّمها ظفر على البشر بين الحديقة وأسوار المدينة، وسرعان ما واجهتهم عاصفة هوجاء من رصاصات السيبويين الذين كانوا بانتظارهم.. «كانت العقبة الأولى هي الخندق الذي يبلغ عمقه ٢٠ قدمًا وعرضه ٢٥ ذراعًا، عندما ثُبِّت السلالم عنده، وجدنا أنفسنا محبوسين في حفرة، غير قادرين على التقدم ونيران الأعداء تغرقنا من كل جهة.. مرت حوالي عشر دقائق قبل أن تنجح القوات الأولى في الخروج من الجانب البعيد من النفق على قيد الحياة؛ ولكن بمجرد أن وصلوا إلى الثغرة المتصدعة هناك، صارت الحماسة شديدة بطريقة جعلت التوقف صعبًا.» كتب فريد روبرتس لأمه: «انطلق رجالنا بشكل منظم، مثل مجموعة من كلاب الصيد.. وقمنا نحن بإطلاق المدافع بشكل جيد لدرجة أننا جعلنا الهجوم من هناك مثاليًّا واعتلوا الأسوار بخسارة طفيفة نسبيًّا».

لكن الأمر بدا أقل سلاسة إذ كنت - مثل ريتشارد بارتر - أول من يصل: «تدفقت رءوس العدو من الثغرات على طول الأسوار كالنحل، بينما أشرقت الشمس بكامل بهائها على العمائم البيضاء والوجوه السوداء، وانعكس ضوؤها على السيوف والحراب.. كان رجالنا يهتفون بجنون عندما وصلوا إلى الثغرة، أما العدو الذي تباطأت رصاصاته عندما توقفت مدافعنا، فقد بدا للوهلة الأولى متفاجئًا تمامًا بظهورنا، ولكنهم تعافوا سريعًا من المفاجأة، واستأنفوا عملهم بجدية، بهطول أمطار من الرصاص عن يميننا، بينما دوى صفير القنابل والقذائف فوق رءوسنا من جهة وقوفهم، فبدت الأسوار كخط من النيران يشتعل في وجوهنا. كان لهذا أسوء الأثر على مَن ما زالوا يصعدون السلالم، إذ وكأنما انشقت الأرض من تحت أقدامهم بصنع زلزال، فيسقط الرجال بسرعة. تكرر الأمر ثلاث مرات وتكومت مجموعات من القتلى والجرحى، كان الوصول إلى الثغرة عملًا شاقًّا، فقد كانت مثل ضفة منحدرة من رمال البحر يزيدها صعوبة قصف الرصاص بالإضافة إلى المتاريس التي كان العدو يطلق النيران منها باستمرار، كان الوضع صعبًا لدرجة أنني شعرت بحرارة الرصاص على خدي. حاولت الدفاع بإطلاق النار بيدي اليمنى، بينما كنت أصعد السلم بيدي اليسرى، ممسكًا سيفي تحت ذراعي قدر المستطاع، لأننا لم نحمل غمدًا نضع به السيوف. استمروا في إطلاق كُتَل ضخمة من الحجارة نحونا لإسقاطنا عن السلم... تراجع المدافعون في النهاية مرة أخرى إلى المدينة، تاركين فيتزجيرالد وأنا نواجه

المتاريس، ودَّعنا بعضنا بعضًا وافترقنا، فاتجه هو لليمين، وأنا إلى اليسار تجاه بوابة كشمير. لم أره مرة أخرى، فقد قُتل بسبب انفجار أحد القنابل، بعد أن افترقنا مباشرة!».

في أثناء الجري، سمع بارتر انفجارًا هائلًا، فنظر لأعلى، ورأى بوابة كشمير وهي تُنسف لشظايا تساقطت في دلهي! استدعت خطة الهجوم عشرة خبراء متفجرات ومسئولًا عن المتفجرات لوضع عبوة ناسفة كبيرة على الفور أمام البوابة، وانفتحت الفجوة لكي تندفع القوات منها بسرعة.. كان الهجوم قد بدأ متأخِّرًا قليلًا عما كان مخططًا له، فصار الوقت الآن وضح النهار، وهو ما يعني أنه أكثر صعوبة مما يبدو على الورق. عندما تم إعطاء الإشارة للهجوم، فتح المدافعون البوابة الصغيرة في أسفل بوابة كشمير، وبدأوا إطلاق النار مباشرة على خبراء المتفجرات في أثناء محاولتهم توجيه ضربة ثانية من الجسر المتضرر، والذي لم يبقَ منه سوى بقايا. كان فيليب سالكيلد، البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، في المقدمة، واحدًا ممن رافقوا إدوارد فيبارت في الهروب من البوابة نفسها في مساء يوم الحادي عشر من مايو، والذي كان في أيام الفوضى التي تلت ذلك قد تبرَّع بحذائه لآني فورست. كان فيليب يقود الآن مجموعة التفجير الذين يحملون المتفجرات، وقد تناقص عددهم من سبعة رجال إلى أربعة من بينهم سالكيلد، قاموا بتثبيت المتفجرات على الباب الخشبي للبوابة وتركيب الفتيل بطيء الاشتعال الذي سيستخدمونه للتفجير.

سرعات ما وجد الهنود ثغرة يفتحون منها النار على خبراء المتفجرات الأربعة في أثناء محاولتهم تثبيت المتفجرات. وفي غضون ثوانٍ قليلة، كانت كل المجموعة باستثناء ثلاثة إما قتلوا وإما أصيبوا بجروح بالغة، بينما أصيب سالكيلد بجرحين قاتلين. لكن أحد الناجين الثلاثة، وهو الرقيب سميث، على الرغم من أنه أصيب بشدة هو الآخر، تمكن من إعادة إشعال الفتيل المنطفئ وألقى نفسه تحته الجسر عندما وقع الانفجار، ففصل الجانب الأيمن من البوابة المزدوجة من مفصله. في حين أعطى أحد الناجين الآخرين ويدعى هوثورن، الإشارة للقوات البريطانية للهجوم والسيطرة على البوابة. كانت الساعة الآن هي السادسة إلا ربع، وما زالت قوات الصف الثالث مستلقية أرضًا داخل قدسية باغ، خارج نطاق التصويب، تنتظر بفارغ الصبر نداء البوق. ولكن بسبب ضجيج البنادق من وراء الأسوار لم يُسمع أول نداءين من إشارات هوثورن؛ فقط الثالث هو ما سُمِع بصعوبة. أحد أولئك الذين كانوا ينتظرون الصوت هو الملازم كندال كوجيل، ذو الأصول الإنجليزية الأيرلندية المختلطة، وهو رجل غاضب دومًا وعنيف ينتمي للمذهب البروتستانتي، كان يحلم بالانتقام لأشهر من موقعه بالمعسكر الموجود على التلال. كتب لأبيه: «لقد حانت اللحظة الحاسمة، وأنا متلهف بشدة لأسفك دمهم، وقد أصابني

نوع من الوحشية والجنون لأظفر بانتقامي! بصراخ شيطاني هرعت خارجًا من حالة التخفي، فتدفقت الطلقات فوقنا مثل المطر، وأخذ الرجال من حولي يتساقطون كالذباب، لكني لسببٍ ما شعرت أن هناك ملاكًا يحرسني ولا يمكنهم لمسني.. تصاعدت اللعنات والشتائم من الجرحى والمحتضرين يلعنون مصيرهم الذي رماهم هكذا في العراء، غير قادرين على الثأر من أحد.. كان مشهدهم وهم يتلوون في عذاب مثيرًا للشفقة لأقصى الحدود.

كانت الخطة هو أن نهجم من الجهة اليسرى، لكن النيران الآتية من جهة اليمين كانت ثقيلة لدرجة أنه تم إسقاط كل الرجال الذين تسلقوا السلم، لذلك اندفعنا إلى اليمين لنحل محلهم. بعد ذلك شعرت وكأنما أسكرتني اللحظة، أتذكر فقط رفع سيفي أمام وجهي والهجوم على السلالم وإلقاء من يواجهني نحو الخندق، كانت هناك مشكلة أخرى، إذ كانت السلالم التي معنا بطول ثمانية أقدام فقط والخندق الذي واجهناه كان بعمق عشرين قدمًا.. لكن في خضم كل تلك الأحداث واصلنا التقدم إلى الساتر الترابي على الجانب الآخر، وأخيرًا، وصلنا لأعلى. كان المتوحشون يواجهوننا بأقصى قوتهم، ونحن نتقدم بانتظام مستخدمين السيوف والحراب.. ومع الأسف أول شيء ضربه سيفي كان جسد ضابط من فريقي، وكان قد أُصيب قبلها برصاصة لكنه سقط بضربة سَيْفي.. وفي اللحظة التالية كان سيفي يمزق متمردًا خلف الآخر، حتى اضطربت صفوفهم وقمنا بالاختراق، لم أفكر أبدًا في استخدام مسدسي.. وبعد عشر دقائق من القتال اليدوي، سقطت البوابة الرئيسة وحاوية الحراسة في يد البريطانيين، ورفرف علم بريطانيا العظمى فوق الممر.».

لكنهم قابلوا مقاومةً أشد على مسافة أبعد قليلًا، عند بيت آل «سكينر» - أمام كنيسة سانت جيمس - الذي حُصِّن من قِبَل قوات نصير أباد، حيث استخدمته مقرًّا لها طوال فترة الحصار. فيما اتخذ آخرون مواقع إطلاق النار فوق جدار باحة الكنيسة المنخفض، وأطلق كلا الفريقين عاصفة من الرصاص والقنابل، فتمكنوا من إبادة عديد من الصفوف الأمامية للبريطانيين قبل التراجع. يعتقد سعيد مبارك شاه أنه ربما سقط حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة جندي بريطاني في الطريق ما بين بوابة كشمير وبيت آل سكينر.. ولكن بسبب تركيز الصفوف الثلاثة البريطانية على المنزل وفناء الكنيسة، لم يكن أمام السيبويين التابعين لقوات نصير أباد سوى التراجع وأخذ أسلحتهم معهم.

في الخارج، أمام كنيسة «سانت جيمس»، قام «نيكلسون» بجمع ما تبقى من جيوش الصفوف الثلاثة، على الرغم من أن كثيرًا ممن كانوا بالصف الخاص به كانوا قد انطلقوا بالفعل دون انتظار أوامره حتى لا يعطوا الوقت الكافي للمتمردين لإعادة تجميع صفوفهم، فأخذ «نيكلسون» ما بقي من مجموعته

واتجه غربًا على طول الحاجز. كان هدفه هو اللحاق بجنوده المفقودين، والسيطرة على بوابتي «كابول» و«لاهور» بأسرع وقت ممكن، ومن هناك ستنضم الصفوف الثلاثة إلى الصف الرابع، تحت قيادة الرائد «ريد»، الذي كان من المفترض أن ينطلق من منزل «هندو راو»، عبر ضاحية «كيشينجانج». وبهذه الطريقة، حسب خطة «ويلسون»، سيتمكن البريطانيون من السيطرة على المحيطين الشمالي والغربي للمدينة بالكامل بحلول وقت الغداء. وتنفيذًا للخطة انطلق «ثيو» مع الصف الثاني، المكون إلى حد كبير من الجورخا وقادهم عبر الشوارع الخلفية تُجاه المسجد الجامع، فيما شق الصف الثالث طريقه إلى الجنوب الشرقي باتجاه القلعة الحمراء من خلال الطريق الذي يمر بكلية «دلهي»، وفي غضون ذلك، تقدم الجنرال «ويلسون» من قلعة «لودلو»، الذي راقب الهجوم من فوق سطحها، وأقام مقره الرئيس فوق حطام بيت «سكينر» المدمر، كما أنشأ مستشفى ميدانيًّا بالقرب منه داخل كنيسة «سانت جيمس».

لكن، في هذه المرحلة - بعد السابعة صباحًا مباشرة - بدأت الأمور تسوء فجأة بالنسبة للبريطانيين. فحسب اعتقادهم، كان اقتحام الأسوار هو أصعب جزء من الهجوم، وقد أنجزوا تلك المهمة الصعبة الآن، بخسائر منخفضة نسبيًّا، وقبل الموعد المحدد. ولكن أثبتت المرحلة التالية، أن التقدم عبر الشوارع أشد صعوبة مما ظنوا! فبمجرد معرفة أن البريطانيين يتقدمون نحو القلعة، كان من المتوقع أن تنهار أعصاب السيبويين، ويهربون على الفور. لكن على العكس تمامًا، وجد البريطانيون أن السيبويين قد بدأوا مهاجمَتَهم ومقاتلتهم بقوة وبسالة لدرجة أنهم كادوا أن ينجحوا في طردهم من المدينة وإرغامهم على العودة إلى التلال. قام «بخت خان» و«ميرزا مغول» بعمل استعداداتهما بشكل جيد، حسب وصف «فريد روبرتس» بعبارة موجزة: «كانت المعاناة في انتظارنا، إذ كان «تشارلز جريفيث» مع الصف المتجه جنوبًا نحو القلعة، والذي بدأ للتو التقدمَ ببطء عبر حدائق كلية دلهي المدمرة والمنهوبة، عندما سقط هو وفوجُه فجأة في كمين!» ففي غضون ثوانٍ، ومن كل نافذة وباب، ومن ثغرات المباني، وعلى أسطح المنازل، هبَّت عاصفة من الرصاص، يتخللها بين الحين والآخر، قنابل ميدانية تنفجر بين الجنود، فيسقطون على الفور بين قتلى وجرحى، لكن هذه الروح بين السيبويين لم تُؤَدِّ إلا إلى زيادة سخط البريطانيين ورغبتهم في الانتقام، فبعد بعض المواجهات الشديدة، أفرغ البريطانيون الحدائق والمنازل من المتمردين، وأعدموا كل من وُجِد هناك. لكن خسائرهم الشديدة للغاية، منعتهم من أيَّة محاولة للتقدم أبعد من ذلك، وبدأوا تحصين الكلية كنقطة قوتهم في خط الدفاع.

تكرر الأمر مع «ثيو»، ففي أثناء تقدم صف «ثيو» إلى داخل المدينة وجدوا أنفسهم محاصرين من قِبَل المجاهدين؛ كان «ثيو» يشق طريقه بحذر شديد عبر الممرات الخلفية، متغاضيًا عن فقد بعض رجاله بسبب رصاصات القنَّاصة وسقوط القنابل العنقودية عليهم بين الحين والآخر. كانت الشوارع شبه مهجورة، وللغرابة فإن المقاومة التي صادفتهم في البداية كانت ضعيفة وبسيطة، فمروا بتوتر واضطراب ملحوظ عبر أسواق «تشاندني تشوك» المهجورة، وتقدموا وسط صمت مخيف حتى البوابة الشمالية للمسجد الجامع، ليدركوا فجأة أنهم لم يُحضروا أيَّة متفجرات لتفجير بوابات المسجد وفتحها، في اللحظة نفسها التي انفتحت فيها أبواب المسجد، وظهرت حشود المجاهدين وهم يصرخون نازلين درجات سلالم المسجد الجامع. ووفقا لـ«سعيد مبارك شاه»، ألقى المجاهدون أنفسهم على الإنجليز، الذين تأخر استيعابهم أكثر من اللازم، ففقدوا اثنين من حَمَلة البنادق، وحوالي أربعين قتيلًا. تقهقر البريطانيون إلى «تشاندني تشوك»، بينما المجاهدون الذين يدعمهم مدفع ميداني تم أُحضِر من بوابة لاهور، لاحقوهم بإطلاق النيران خلفهم، وألقوا قذيفة مباشرة وسط صف الإنجليز، مما أسفر عن مقتل ما يزيد عن خمسين منهم وجرحهم. بقيت أشلاء قوة «ثيو» لمدة نصف ساعة في «تشاندني تشوك»، في محاولة للتصدي للمجاهدين، وعلى أمل أن يتمكن الصف الذي يقوده «جريفيث»، والذي كان من المفترض أن يلتقي بهم الآن، من المجيء لإنقاذهم، ولكن بعد مرور ثلاثين دقيقة، صار من الواضح أن الصف الآخر يواجه مشكلة أيضًا، فصدرت الأوامر بالتراجع إلى بوابة «كشمير».

وعلى الجانب الثالث، كانت قوة «نيكلسون» هي الأخرى تواجه صعوبات شديدة في أثناء الاستيلاء على بوابة «كشمير»، فكما سبق الذكر، كان الصف قد انقسم وفقد «نيكلسون» معظم قواته، لأنهم تقدموا إلى الأمام على طول الأسوار بدونه. كان «ريتشارد بارتر» أحد هؤلاء المتقدمين، إذ قام بالانطلاق بحذر شديد على طول أسوار المدينة، كتب: «كنا نحاول الإسراع قدر الإمكان متفادين إطلاق نيران المدافع التي كنا نمر بها بين الحين والآخر، ونغطي رءوسنا خشية القنابل العنقودية، لكن، عندما ينشغلون في إعادة تحميل مدافعهم، كنا نهجم عليهم فجأة ونقتل بعضَ رجالهم». وبين الحين والآخر، كانت مجموعة «بارتر» تتوقف لمهاجمة المنازل التي يسكنها السيبويون، ليفاجئوهم ويقتلوهم جميعًا، ثم يتابعون تقدمهم. لكن لم يكونوا جميعًا لديهم جرأة بارتر وإقدامه، حيث اتخذ آخرون نهجًا أكثر انهزامية في مواجهة الخطر. كتب الملازم «آرثر موفات لانج» في مذكراته: «كنا نجري فيما يتصاعد منا الصراخ والعويل، بينما بنادق العدو تعوي في وجوهنا من كل منعطف وشارع، وتنهال علينا من أسطح المنازل، فتُسقط الرجال والضباط. لم أشعر بأي

شعور سوى الحاجة الماسة للاستمرار في الجري، فقط تساءلت لِكَم من الوقت يمكن أن أظل حيًّا بينما الهواء من حولي مليئًا بالرصاص.. تدفقنا عبر بوابة «كابول» وتقدمنا حتى كدنا نصل لبوابة «لاهور» تحذونا نيران البنادق والمدافع، حتى ظهر العميد «جونز» ونادى الضابط المهندس، وسأله عن مكان بوابة «كابول» فأجابه: «لقد فوتناها بالخلف، وباتت تبعدنا عنها مسافة.. في الحقيقة، في الوقت الحالي، نحن نقترب من بوابة لاهور.» أعلن –مع الأسف - أن الأوامر التي تلقاها كانت بالتوقف عند بوابة «كابول».. «كان تقدمنا إلى الأمام تصاحبنا هتافاتنا البطولية، يمدانا بشعور جيد، لم نكن ننظر إلى الخلف أبدًا، لكن الآن كان علينا النظر إلى الخلف، وكانت الأحوال سيئة للغاية، إذ تسبب المتمردون الرابضون خلف الزوايا وفي الممرات في حالة من الذعر تدريجيًّا، حتى إن بعضنَا حاول الهرب ورفض العودة مرة أخرى، لكننا شجعناهم، وعلى الرغم من تعطُّل مسيرتنا بسببهم لنصف ساعة، إلا أننا تقدمنا جميعًا في النهاية، واتجهنا صوب بوابة «كابول».».

كانت قوات «باريلي» بقيادة «بخت خان»، صامدة تطلق النيران في كل مكان على بوابة «لاهور»، وبدا أن هزيمة البريطانيين مسألة وقت لا أكثر. لكن، في هذه المرحلة ظهر «نيكلسون». تقدم «نيكلسون» وهو يصرخ في قواته المذعورة ليحتشدوا خلفه، وسحب سيفه ببسالة، في مواجهة الرصاص والقنابل العنقودية، وتقدم مباشرة نحو الشارع الضيق.. الحواجز عن يمينه والبيوت عن يساره. كان يصرخ في الجنود من خلفه ليقوي من عزيمتهم، لكن في منتصف الطريق، أدرك أنه لا أحد خلفه! فاستدار ليناديي القوات لدعمه فيما هو يقف وحيدًا. وبينما هو لا يزال يلوح بسيفه في يده، قام قناص من السيبويين، بإطلاق النار عليه، فأصابت الرصاصة صدره تحت الإبط المكشوف برفع ذراعه. انتبه إليه واحد من حَمَلة البنادق البريطانيين، والذي جاء متأخِّرًا، سأله عن بُعد بالإشارة إن كان قد أصيب؟ «نعم، نعم!» هكذا أجاب «نيكلسون» بغضب قبل أن يسقط على الأرض.

نُقِل «نيكسلون» إلى بوابة «كابول»، ثم أخذه رجال الإسعاف إلى المستشفى الميداني على التلال. لكن، في ظل الفوضى المتزايدة، مع توقف الهجوم البريطاني، ومع سقوط كل رجال الصفوف المختلفة في حالة من الفوضى، قام رجلا الإسعاف بترك «نيكلسون» المصاب وحيدًا على جانب الطريق. بعد مرور بعض الوقت، مرَّ «فريد روبرتس» بالصدفة.. كتب واصفًا الموقف: «في أثناء تقدمي عبر بوابة «كشمير»، لاحظت وجود عربة إسعاف محمولة مرمية على جانب الطريق بدون أي شخص بجوارها، وكان من الواضح أن هناك رجلًا جريحًا بداخلها. ترجَّلت لأرى إن كان بإمكاني مساعدته، وفوجئت بكامل الحزن والأسى أنه كان «جون نيكلسون»، وكان يحتضر. أخبرني أن حاملي العربة تركوها وذهبوا لنهب ما يستطيعون من غنائم، وأنه

يعاني من ألم شديد، وتمنى أن يتم اصطحابه إلى مستشفى. كان مستلقيًا على ظهره، بلا جروح ظاهرة، وباستثناء شحوب وجهه، الذي كان شاحبًا دائمًا، لم تكن هناك أيَّة علامة على الألم الذي ولابد أنه كان يكابده. حاولت بث الأمل فيه بإخباره أنه ليس مصابًا بشدة فلا داعي للقلق، فقال إنه يشعر بدنو الموت منه، وليس هناك أي أمل بالنسبة له! كان مشهد ذلك الرجل العظيم يرقد عاجزًا وعلى وشك الموت أكثر مما أستطيع تحمله. مات آخرون حولي يوميًّا، قُتل الأصدقاء والرفاق بجانبي، لكنني لم أشعر قط بما شعرت به لحظتها، بدا لي أن فقدان «نيكلسون» في تلك اللحظة هو بمثابة خسارة كل شيء.. حتى المعركة.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول الظهيرة، كانت القوات البريطانية تغرق في موجة من الإحباط، وقد تضاءلت فرحة دخولهم عبر الأسوار أمام حقيقة إدراكهم حَجْم القوات التي يواجهونها، وشدة إصرار الثوار على مقاومتهم.. كتب العقيد «جورج بورشير» المتفاجئ: «كان واضحًا أن العدو ينوي المقاومة مهما كلفه ذلك، وقد اشتبكوا معنا في كل شارع في أثناء تقدمنا.» سيطر البريطانيون الآن على ما يزيد قليلًا عن ربع المدينة، لكن ذلك الربع كلفهم خسائر أكبر مما يمكنهم تكبدها؛ ما يقرب من ثلث الذين انضموا للهجوم على المدينة عند الفجر لقوا حتفهم بحلول غروب الشمس، مما يعني خسارة حوالي ١١٠٠ رجل و٦٠ ضابطًا، بما في ذلك حبيب «آني فورست» المدعو «هاري جامبير»، بالإضافة إلى «هيرفي جريثيد»، الذي لم يكن ضحيةً للرصاص بل للكوليرا.

تحول المستشفى الميداني إلى مكان مرعب بدرجة لا توصف. تنقَّل الأب «روتون» من سرير إلى آخر في محاولة لتهدئة المحتضرين، بينما انشغل الجراحون والمعالجون جميعًا في العمل. كما تم إجراء كل أنواع البتر تقريبًا؛ كالساقين والذراعين وحتى الأصابع، وترامت الأعضاء، التي لم تعُد جزءًا من الأجساد، بلا مبالاة أو اكتراث على الأرض. أما في العنابر، فقد تراكمت جثث الجرحى، مما اضطرهم لوضع اثنين أو ثلاثة رجال في نعش واحد. كان «إدوارد فيبارت»، لا يزال فوق التلال، ويشعر بالغضب من الإبقاء عليه في القوات الاحتياطية، وحرمانه فرصة الاشتراك في الهجوم: «كان يجب أن أكون أول من يشترك في الهجوم.. لكن الخطة التي رُسِمت كانت تقتضي بأن أبقى في المعسكر وأتناوب على رعاية الجرحى والمحتضرين، الذين كانوا يزدادون عددًا كل دقيقة، لم أشهد من قبل مثل هذه الفظائع.. تألَّم قلبي لرؤية تلك المشاهد المروِّعة.. ذهبت لأسأل عن قائدنا المسكين الذي بُتِرت ساقه، فكل ما وجدته هو جسده الدامي ملفوفًا بالشراشف.. يبدو أن أولئك المتمردين يقاتلون بأقصى ما يملكون.»

لم تكن الروح المعنوية في حالة أفضل في المقر البريطاني في دلهي في منزل «آل سكينر»، حيث بدأ الإحباط الكامل من الوضع الظهورَ على موظفي المقر. كتب «فريد روبرتس» لوالديه: «في الساعة الثانية عشرة تناولت وجبة الإفطار في الكنيسة، التي كانت هدفًا للطلقات والقنابل المنهالة علينا بسرعة كبيرة لم أرَها من قبل في حياتي. كان اليأس يغطينا ويجبرنا على التراجع. رأيت أفضل ضابط لدينا، «نيكلسون» المسكين، محمولًا في عربة الإسعاف المتنقلة، وقد رَسَمت قبضة الموت سطوتها على وجهه.. كان العجز هو سيد الموقف، العجز الذي جعل ضُبَّاطنا في أسوء حالاتهم. ولزيادة الطين بلة، لا أعرف ما إذا كان هذا مقصودًا أم لا، كانت متاجر البيرة والبراندي كلها مفتوحة دون حماية، وشرب عديدٌ من رجالنا كميات مهولة منها حتى ثملوا، حتى إن بعضهم ضلوا طريقهم إلى أفواجهم، إذ كانوا جميعهم قد فاض بهم الكَيْل من العمل الشاق الذي بذلناه طيلة الخمسة أو الستة أيام السابقة. استسلمتُ للنوم، وعلى الرغم من كل الضوضاء المحيطة، لم أستيقظ حتى غروب الشمس.. حين استيقظت قمت بالتجول حول مواقعنا، فوجدتها في حالة اضطراب وفوضى، إذ لم تتمكن أي حصص غذائية من الدخول إلى المدينة، كما لم يكن من الممكن إقناع الطهاة الملاعين بالدخول إذا كانت أمطار النيران لا تزال ثقيلة للغاية وتأتي من كل زاوية.. في ذلك الوقت، رأيتُ الأوروبيين في حالة سُكر شديدة، وكان السكان الأصليون الذين انضموا مسبقًا إلى جيشنا ينهبون كل شيء.». أصيب «هودسون» بالرعب من السرعة التي انهار بها انضِباط الجيش وروحه المعنوية.. كتب إلى زوجه: «لأول مرة في حياتي، أرى جنود الإنجليز يرفضون الانصياع لأوامر ضباطهم. وقد اعتلت أرواحهم حالة من الإحباط التام بسبب العمل الشاق وكثرة ما احتسوه من الخمور.» والأسوأ من ذلك، أن الجنرال «ويلسون» فقد كل ثقته بنفسه، وكان يفكر بشدة في التراجع. كتب «هودسون»: ««ويلسون» محطم إلى حد ما بسبب الإرهاق والقلق، حتى إن قدميه لا تقويان على حمله.».

بحلول فترة بعد الظهر، توافدت مزيدٌ من الأخبار المقلقة المحبطة، إذ لم يفشل الصف الرابع تحت قيادة الرائد «ريد» في الاستيلاء على بوابة «لاهور» فقط، ولكن بعد انسحاب قوات حاكم كشمير، المساندة لقوات «ريد»، اضطر للانسحاب عائدًا إلى منزل «هندو راو»، تاركًا خلفه هجومًا مضادًّا تحت قيادة «بخت خان» وقوات «باريلي» التابعة له، مدعومين بمجموعة من المجاهدين من مخيمات «باريلي» و«نيماش». بينما قام قسم آخر من الجيش نفسه بشن هجومٍ مضادٍّ قويٍّ على أسوار حصن «موري» بأعداد كبيرة، واستمروا في التقدم للأمام في أثناء الليل. كان «كيندال كوجيل» من بين القوات المحاصرة في هذه الجبهة الشمال غربية، بين حصن «موري» وبوابة «كابول»، ووجد أن المجاهدين - «نسل الشياطين والمتعصبين» على حد

وصفه - خصومٌ مخيفون أكثر من غيرهم، ومثل عديد من زملائه تفاجأ أن تبجحه السابق وشهوة سفك الدماء بداخله سرعان ما تراجعا أمام سطوة الخوف الشديد.. كتب: «كان مواطنو دلهي والسيبويون يدافعون عن كل بوصة من المكان، مما صعَّب المهمة خاصةً مع عددهم الضخم من الرجال ومن المدافع الميدانية، ضد رجالنا القلائل المتبقين ببنادقهم العتيقة.. لكن بما أن الأوامر كانت صارمة بشأن السيطرة على المكان، لم يكن هناك أيُّ مفر من التحلي بالشجاعة والاستمرار في الهجوم، رغمًا عن الجنود والضباط المتعبين إلى أقصى حد. كان علينا السيطرة على كل بوابة حتى النهاية، تركنا فوجَ حراسة عند كل بوابة وحصن، بحيث كان لدينا عند بوابة كابول حوالي مائتي رجلٍ تقريبًا فقط في مواجهة حوالي ٣٠٠٠ رجل واثنين من حَمَلة البنادق الخفيفة من العدو، كان علينا الاعتماد على الخدعة، فلو أننا هاجمناهم، لكانوا حاصرونا واستعادوا السيطرة على البوابة. لذلك كان علينا أن نستلقي على الأرض ونترك البنادق تطلق النار فوق رءوسنا حتى يقتربوا، ثم نبدأ الاشتباك حينها. استمر تبادل النيران من الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة الرابعة عصرًا. دون أمل في الانتصار أو قدوم أيَّة مساعدة لنا، ولم نكن نعرف ما الذي يجري على يسارنا أو بالخلف، كما لم يكن لدينا ما نأكله أو نشربه طوال اليوم وقد طفح بنا الكيل. حتى عزائي الوحيد الذي كان زجاجة ماء صودا بها براندي مخفف مُعلقة بجواري، أصابتها رصاصة وها قد تسرَّب ما كان بداخلها على الأرض.. تمنينا أن يحل الظلام ليتوقفوا، لكنهم حتى في الظلام لم يتوقفوا عن مهاجمتنا، وظلوا يهاجمونا طيلة الليل!»

كان «ويلسون» لا يزال منزعجًا من فقدان «نيكلسون»، ومدركًا أن تقدم «بخت خان» حتى منزل هندو راو يهدد بتطويق قواته وفصلهم عن معسكرهم البريطاني على التلال، وأصبح أكثر قلقًا واكتئابًا مع كل ساعة تمر، فصار واضحًا أن أعصاب «ويلسون» قد بدأت الانهيار تحت ضغط الموقف. مما جعل ضباطه يتدخلون لمنعه من إصدار أمر فوري بالانسحاب من المدينة، وعلى رأسهم الضابط المهندس «ريتشارد بيرد سميث»، الرجل الذي خطط لتفاصيل الهجوم والذي أصر أنه: «يجب أن نتماسك»، قالها بنبرة حازمة لا هوادة فيها، وضعت حدًّا لأي نقاش. كما كتب أحد كبار الضباط التابعين لـ«ويلسون»، واسمه «نيفيل تشامبرلين»، إلى «لورانس» في لاهور للتعبير عن قلقه الشديد من أن أعصاب «ويلسون» المرتبكة ستجعلهم يخسرون المعركة للسيطرة على دلهي: «لقد صار يتصرف كرجل مجنون أكثر منه كجنرال يقود جيشًا منتصرًا، ومن الواضح جدًّا أنه، كما يخبرهم جميعًا طيلة الوقت، قد جُن تمامًا! يجب أن نُعيد الإمساك بزمام الأمور وإلا فلن ننجز أي شيء. لقد صار محبطًا ويئِسًا، جوابه عن كل الاقتراحات هو «مستحيل» وهو

بذلك يثير الصعوبات. أخبرني مرةً أنه ينوي العودة إلى التلال، وبصراحة إنه لأمر مؤسف لسماع مثل هذه النية.».

عندما وصلت أخبار رغبة «ويلسون» في التراجع إلى «نيكلسون» المحتضر في المستشفى الميداني على التلال، قام على الرغم من الألم والإرهاق، بمد يده إلى مسدسه قائلًا: «الحمد لله أنني ما زلت أملك بعض القوة لأتمكن من إطلاق النار عليه، إذا لزم الأمر.» في اليوم التالي، كانت أعصاب «نيكلسون» قد هدأت قليلًا، طلب من الجرَّاح إرسال ملاحظة إلى «لورانس» في لاهور، قائلًا: «أخبر السير «جون» أنني أوصيه بفعل ما في وسعه لإقالة «ويلسون» المنهار هذا، وعلاوة على ذلك فأنا أعتبر إبقاء رجل مثل «ويلسون» في قيادة هذه القوة تهاونًا بحق وطننا!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بداية كل هذا، ومن وجهة نظر القلعة، استيقظ «ظهير دهلوي» في وقت مبكر من صباح الرابع عشر من سبتمبر، وامتطى جواده كالمعتاد في طريقِه لأداء مهامِه في القلعة الحمراء. كان قد اعتاد على صوت إطلاق النار العالي، لكنه لم يكن مدركًا تمامًا لماهية القتال الدائر على بعد أقل من ميل بالشمال. حتى لاحظ أول علامة على حدوث شيء غير عادي، عندما خرج من «تشاندني تشوك» والتقى مسئولًا ملكيًّا آخر، ذاهبًا في الاتجاه المعاكس، يخبره أنه ليس عليه القلق من شيء وأنه لا فائدة مما يفعله البريطانيون، بما أن بوابات القلعة مغلقة بإحكام. «عندها فقط لاحظت أن جميع المحلات التِّجارية في المدينة كانت مغلقة، وأن السوق كان قد عاد مهجورًا، لا يسير فيه إلا رجل أو اثنان فقط يتجولان هنا وهناك. فكرت أنني يجب أن أذهب واستطلع بنفسي الأمر، لكن عندما وصلت إلى بوابة لاهور –للقلعة - رأيتها موصدة بإحكام، وقد وُضع مدفعان على وضع الاستعداد أمام البوابة، وفي الجوار، احتشد بعض الناس يستمعون إلى أحد الضباط وهو يحكي لهم عن نتيجة قتال الصباح. عند هذه النقطة تقدَّم فوج من الفرسان من الداخل وصرخوا في الحرس ليقوموا بفتح البوابات لأنهم يريدون الخروج، وعلى الفور أمرهم الضابط بالتوجه إلى بوابة كابول بالمدينة، مكان تجمع التعزيزات. عندما سمعت هذا، التفتت بعيني ناحية الطريق إلى بيتي، لم أكن قد ابتعدت كثيرًا عندما رأيت جنودًا آخرين يركضون مسرعين بجانب منزل «بهواني شانكار»، في محاولة واضحة للفرار من القتال. اشمأزَّ سكان البلدة من منظر الفرسان الجبناء وسألوهم: «أبعد توريط مدينتنا في هذه الحرب، تهربون كالجبناء الآن؟» فألقى الفرسان أسلحتهم وسيوفهم وقالوا: «على الأقل قاتلنا من أجلكم، فلم لا تجرِّبون أنتم القتال مرة؟»»

قرَّر «ظهير» أنه يجب أن يعود إلى منزله ويحذِّر عائلته؛ ولكنه لم يستطع لأن كل الأبواب أمامه كانت مغلقة، فاضطر أن يركض ناحية «كوتا داريبا» في «تشاندني تشوك»، فوجد أن البوابة كانت مغلقة كذلك، لكن البوابة الصغيرة جدًّا داخل البوابة الكبيرة تُركت مفتوحة، فمرَّ من خلالها بمشقة فقط ليجد أن القتال قد وصل الآن حتى مركز الشرطة، وبسبب سوء الحظ كان في الطريق أمام صف «ثيو» الغاضب المتوجه للمسجد الجامع، وعن هذا يحكي: «صُوِّبَ وابل من الطلقات نحوي من جانب مركز الشرطة، وغطت الطلقات الجو من حولي وكأنها عاصفة ثلجية.. في صراع مع الجنود الإنجليز الغاضبين، الذين كانوا يطلقون النار على أي شخص يمكنهم رؤيته. سقط رجل يقف بجانبي أرضًا، وقد أصيب بطلق ناري في المعدة، سحبته إلى برِّ الأمان من خلال البوابة الصغيرة في البوابة الرئيسة، ثم ركضت مباشرة إلى المنزل.. عند وصولي، ذهبت إلى غرفتي واستلقيت على الفراش، مصدومًا حتى النخاع. كنت قد رأيت للتو بأم عيني أن الجيش الإنجليزي قد دخل إلى المدينة، وأن الفرسان والجنود المفترض بهم الدفاع عنا قد هربوا، فدخل الإنجليز البيوت وبدأوا قتل كلَّ من يرونه أمامهم. اعتقدت أن وقت الموت قد حل، وأنه لا يوجد ما يمكن فعله سوى الصلاة والانتظار ورؤية ما سيحدث. لم أخبر والدتي أو أفراد عائلتي بأي شيء مما رأيت، وبدلًا من ذلك مكثت في غرفتي لأصلّي. بعد حوالي ساعة ونصف، كانت هناك سلسلة صاخبة من الانفجارات المتتالية، والتي بدت وكأنها قادمة من خارج منزلي مباشرة. كنت متفاجئًا فيما يتعلق بكيفية دخول المدافع إلى شارعنا الضيق، فاصطحبت اثنين أو ثلاثة من الخدم وخرجنا من البيت لنرى ما يحدث.».

عندما وصلتْ مجموعة «ظهير» إلى الطريق الرئيس سألوا المارة أين اختفى الجيش الإنجليزي، فأجاب أحدهم إنهم قد طردوهم للتو. توجه «ظهير» ومجموعته إلى سوق «شوري»، خلف المسجد الجامع، وهناك رأوا الناس يتجوَّلون مسلحين بالسيوف والسكاكين وعيدان الخيزران المسنونة، وأيَّة أسلحة يمكن أن يجدوها. «عندما وصلت إلى جانب المسجد الجامع رأيت كومة ضخمة من الجثث التي بدت للحظة وكأنها مجموعة من الحطب؛ تناثرت في جميع الأنحاء والحارات التي تفصل بين المسجد ومركز الشرطة. سألت الناس في الشوارع عما حدث؟ فأجابوني بأنه في الوقت نفسه الذي قام فيه بعض الجنود الإنجليز باقتحام البيوت وبدء نهبها، هاجمت وحدة من الجيش الإنجليزي مباشرة المسجد الجامع محاولين اقتحامه، ولقدسية المسجد وحرمة الدم بداخله، قام من كانوا يختبئون في الداخل بالخروج من المسجد ومواجهتهم بالأسلحة والصراخ بدلًا من تدنيس أرض المسجد بالدم، فقُتل كثيرٌ من جنود الإنجليز وجُرحوا، قبل أن يتراجعوا في نهاية المطاف نحو بوابة كشمير، حيث ثبتوا هناك موقفهم وأقاموا مدافعهم.».

عاد «ظهير» إلى المنزل مرة أخرى وحاول أن ينام قليلًا، متغافلًا عن كل ما يدور حوله، باحثًا عن نقطة سلام بداخله.. ومع ذلك، ففي الصباح التالي انقلبت الوقائع، وانتشرت شائعات في جميع أنحاء المدينة بأن القوات الإنجليزية هاجمت منزلًا خلف منزله في أثناء الليل، وتسلّقت إلى الغرف من خلال الأشجار، وقامت باقتحام زنانات الحريم في البيوت، حيث قتلوا النساء في أثناء نومهن، ثم سرقوا مجوهراتهن. لم يكن من الواضح مدى حقيقة تلك الشائعة، لكن يبدو أن النهب في هذه المرحلة قد اقتصر على المناطق التي قد سقطت بالفعل في أيدي البريطانيين حول بوابة كشمير.. وشعور النصر الذي اجتاح المدينة في اليوم السابق بعد طرد الإنجليز من المسجد الجامع بدأ يتراجع بسرعة بعد ما حدث داخل البيوت في جميع أنحاء المدينة، مُفسِحًا المجال لمشاعر الذعر المتزايد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمعَت عائلة «سارفار الملك» في أثناء تناول وجبة الإفطار في اليوم الرابع عشر أن البريطانيين قد اقتحموا الأسوار، فقررت العائلة أنه ليس هناك وقت للانتظار وإلا فسيتعرضون للقتل؛ وكان عليهم - بينما لايزال هناك فرصة للهروب - أن يتواصلوا مع أحد أبناء عمومتهم «ضياء الدولة»، وإن كانت هناك مخاطرة بمحاولة الوصول إلى منزله في «ألوار» بـ«راجبوتانا».

عمٌ وحيدٌ لـ«سارفار المُلك» كان ضد الخطة: «لقد قرر بالاطلاع على أوراق حظه وحساباته الفلكية أن الإنجليز بالتأكيد سيُهزمون ولم يُرِد الرحيل معنا.. تركه والدي بكل أسف، وكان عائدًا إلى منزلنا بالقرب من بوابة دلهي، حتى يرافقنا إلى منزل أخيه الأكبر. لكنه لم ينجح في الوصول إلينا؛ ففجأة تصاعد صراخ عالٍ من الجزء الشمالي من المدينة، واندلعت معارك في كل الشوارع والممرات. كان البريطانيون مع حلفائهم الهنود والمرتزقة المسلحين بكل أنواع الأسلحة، وقد أسكرتهم نشوة النصر، وامتلئوا بالرغبة في النهب، أسالوا أنهارًا من الدم.. دون التفريق بين امرأة وطفل، أو صغير وكبير. ثم اقتحموا الزنانات، وبدأ الرجال النهب والسرقة، بينما السيدات - اللواتي وصفهن أحد الشعراء دون مبالغة، أنه لا حتى ضوء الشمس لمس أجسادهن من قبل، من فرط طهرهن وتخفيهن في الحجاب– الجاهلات مصيرَ أزواجهن، يهربن بفزع في كل مكان.

كانت البوابة - بوابة دلهي أو البوابة الجنوبية - للمدينة قريبة من منزلنا، فهربت العائلة بأكملها؛ أنا ووالدي وعمي مع السيدات والأطفال والخدم، من خلالها في سرعة وهلع، ولجأنا إلى قبر القديس - خارج الأسوار - . لكن سرعان ما انضم إلينا خدم آخرون، كانوا خدم عمي الذي من المفترض أن نهرب إليه، وعلمنا منهم بوفاة عمي و«ضياء الدولة». يبدو أنهما، بعد أن سلّحا

نفسَيْهما، تركوا المنزل قادمين نحونا سيرًا على الأقدام مع سيدات المنزل والأطفال والخدم، لكن في «تشاندني تشوك» أو بالقرب منه، واجهوا «ميتكالف» الأعور - ثيو - وقاتلاه حتى قُتلا، ولم يعرف أحد ما حل بالنساء والأطفال.. فقط الخدم هم من استطاعوا الهرب. كان تأثير هذا الخبر مُحزنًا للغاية لدرجة لا يمكن وصفها.. فحالتنا كانت سيئة، وخشينا أن نلاقي المصير نفسه وتُسلب منا حيواتنا وممتلكاتنا من كلا الجانبين، المتمردون من جهة، والإنجليز وأنصارهم من الجهة الأخرى؛ وبدا لنا أن الحزبين يتنافسان مع بعضهما بعضًا على أيهما سيسرق وينهب أكثر؟».

لم تكن عائلة «سارفار المُلك» وحدها في هذا؛ فجميع المناطق التي استعادها أو استولى عليها البريطانيون الآن - الحي الشمالي الشرقي من المدينة– كانت تُنهب بشراهة، ويقتل الإنجليز كل من يجدونهم أمامهم. على عكس توقع نسبة كبيرة من سكان «دلهي»، لا سيما المرابين وذوي الممتلكات أو الأعمال التجارية، الذين كانوا قد عانوا لفترة أربعة أشهر من النهب على أيدي السيبويين، فكانوا يتُوقُون لنهاية تلك الفوضى، إيمانًا منهم بأن عودة حكم شركة الهند الشرقية بكل ما فيها من مضايقات وظلم واضح، من شأنه على الأقل أن يُرسي عودة القانون والنظام إلى البلاد. لكن وعلى الرغم من معرفة البريطانيين بهذا الدعم الضمني من خلال جواسيسهم، إلا إنهم وبمجرد اقتحامهم الأسوار، نسي البريطانيون كل حلفائهم وأنصارهم.. حتى أكثر الجواسيس إخلاصًا لم يكونوا آمنين، وهو ما حدث للشيخ محمد باقر في الخامس عشر من سبتمبر، عندما قُبِض عليه واعتقاله دون تفسير! كان هذا الظلم الشديد في كل شيء مرعبًا أكثر من غيره لتابعي إنجلترا من المواطنين المتملقين: كتب «معين الدين حسين خان»: «لم تكن حياة أحد في المدينة آمنة.. قبضوا على جميع من يرونه أمامهم بتهمة انتمائهم للمتمردين ثم قتلهم!» أما «غالب»، الذي كان يكره السيبويين منذ البداية، لم يكن بأقل ذعرًا من وحشية البريطانيين العائدين. كتب: «انتقم المنتصرون العائدون بغضب من كل من قابلهم في الشوارع.. كان دخولهم مروِّعًا، قتلوا الضعفاء وأحرقوا منازلهم، وانتشرت المجازر وامتلأت الشوارع بالرعب من تلك الفظائع التي ربما دائمًا ما تعقب الفتوحات.».

كان الأكثر وحشية من بين القتلة البريطانيين، هم أولئك الذين فقدوا أصدقاء أو أفراد عائلاتهم عند اندلاع الانتفاضة. بعد فترة وجيزة من دخول البريطانيين المدينة، التقى «تشارلز جريفيث» بـ«جون كليفورد»، جامع الضرائب السابق، والذي كان الأخ الأكبر لصديقة «آني جينينجز» وزميلتها في الجوقة، الآنسة «كليفورد». كان جون قد أوصل أخته لقضاء بعض الوقت مع آل «جينينجز» في القلعة الحمراء في الليلة التي سبقت اندلاع الانتفاضة، والآن يلوم نفسه على وفاتها، والتي سبقها –حسب الإشاعة البريطانية - اغتصاب جماعي. لم

يكن «جريفيث» واحدًا من المتسامحين محبي السلام، لكنه شعر بالتوتر الشديد بسبب ما رآه.. وكتب عن هذا: «صديقي القديم أصبح شخصًا مختلفًا بالكامل! لقد تغيَّر وتأججت كل عواطفه إلى أقصى حد، ولم يعد يفكر في شيء سوى الانتقام! مسلحٌ بالسيف والمسدس والبندقية، كان حاضرًا في كل مواجهة مع المتمردين منذ مغادرة «ميروت» تقريبًا.. أخذ ينشر الموت من حوله ببندقيته دون رحمة، ودون خوف على حياته، كان يتصرف بتهور مادام الهدف هو تحقيق انتقامه من قتلة أخته.. التقيت به في أحد الشوارع بعد أن دخلنا إلى المدينة، صافحني قائلًا إنه قتل كل من صادفهم، حتى النساء والأطفال، ومن طريقته الحماسية وثوبِه المُغطى ببقع الدم.. أعتقد أنها كانت الحقيقة. ليس «كليفورد» وحده، بل كل الضباط الآخرين الذين فقدوا زوجاتهم أو أقاربهم في دلهي، كانوا يتصرفون بطريقة «كليفورد» نفسها.».

ومع ذلك، وجد البريطانيون أنه من الممكن تبرير جرائم الحرب الوحشية تلك بمنطق شبه ديني، فكانوا يصفونها بطريقة أو بأخرى عدل من الله يطبقونه هم على الرجال الأقل منزلة من البشر، أخوة بالشياطين في نظر البريطانيين، فلم يعد القتل الجماعي قتلًا جماعيًّا، ولكن بدلًا من ذلك أصبح الانتقام الإلهي، وبالتالي تعتبر القوات منفِّذة للعدالة الإلهية. كان الأب «روتون»، على سبيل المثال، واضحًا تمامًا بشأن هذا: «فكرت في الله، وفيما منحه لنا.. ثم فكرت في أن الإنسان، يجب أن يحارب ويقتل ويسفك دم الأعداء، قبل أن ينتقم الرب منا ومنهم على حد سواء لأننا لم ننصره.».

حتى «إدوارد كامبل»، وهو شخصية لطيفة كانت بمعايير ذلك الوقت ليست متشددة، لكن على الرغم من ذلك، كتب عن الهجوم على دلهي على أنه «معركة إخلاص وعبادة»، وأحب أن يعتبر نفسه وهو يؤدي واجبه أنه «جندي المسيح الصالح». وافقه «تشارلز جريفيث» الرأي، فكتب: «لقد كانت أوقاتًا صعبة، حين فقد الرجال المسيحيون والجنود الشجعان صوابهم بسبب القتل البشع لأقرب الناس لديهم وأعزهم، فتصلَّبت قلوبهم وانعدمت فيها الشفقة، وأقسموا على الانتقام من المتمردين.. مشاعر متأجِّجة ملأت قلوب من اشترك في قمع التمرُّد تقريبًا. كل جندي في صفوفنا عرف أن يوم الحساب على الفظائع التي ارتُكبت قد حان، وبروح لا هوادة فيها كرَّسوا حياتهم لتحقيق هذا الغرض.. لقد كانت حرب إبادة بدون أسرى، ودون إظهار أدنى قدر من الشفقة أو الرحمة.. باختصار، كانت واحدة من أشد الحروب التي شهدها هذا العالم قسوة وانتقامًا.. تراكمت جثث الموتى في الشوارع والأماكن المكشوفة، وقُتِل كثيرون في منازلهم، حتى الأبرياء منهم، لأن رجالنا كانوا يقاتلون بجنون دون تمييز.. ولا يوجد مشهد مرعب أكثر من مشهد المدينة التي اجتاحتها عاصفة كتلك.».

وُصِف موقف عديد من البريطانيين تجاه الأشخاص الذين وقعوا في أيديهم على يد جندي كتب تلغرافًا من «دلهي» إلى «بومباي» كتب فيه: «حُكم الجنرال «ويلسون» بأن يتم الإبقاء على حياة النساء والأطفال، حكمٌ يفتقد إلى الحكمة والصواب، لأنهم ليسوا بشرًا وإنما شياطين، أو - في أحسن الأحوال - وحوش برية تستحق فقط ميتة الكلاب. أُعدم كل سكان المدينة منذ اقتحامنا للمدينة على الفور؛ كان العدد كبيرًا بقدر ما تستطيع أن تفترض، أستطيع أن أقول لك بكل فخر وسعادة أنه عندما نعثر على حوالي أربعين أو خمسين شخصًا في كثير من الأحيان يختبئون في منزل واحد، أشخاص عاديون من سكان المدينة وليسوا من المتمردين، ينظرون إلينا بأمل، وثقة بقواعدنا المعتدلة المعروفة بالعفو، فإنهم سرعان ما يصابوا بخيبة أمل.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طوال يومي الخامس عشر والسادس عشر من سبتمبر، كان مصير «دلهي» على كِفة ميزان. لم يحرز البريطانيون أي تقدم آخر، باستثناء التقدم ببطء نحو كلية «دلهي» في صباح يوم السادس عشر من سبتمبر، حيث سيطروا على مخزن الذخيرة على الفور بجانب الكلية؛ وتنقلوا أيضًا ببطء من منزل إلى منزل بدءًا من منزل آل «سكينر» في اتجاه «تشاندني تشوك». وصف «تشارلز جريفيث» الأمر بقوله: «تم الاستيلاء على عدد قليل من المنازل، وإرساء قواعدنا بداخلها، ولكن لم يتم التحرك على أيِّ نطاق واسع، بسبب الحالة المحبطة لنسبة كبيرة من المشاة الأوروبية.». جلبت هذه التطورات المتواضعة البريطانيين داخل نطاق المقاومة في القلعة الحمراء؛ فصاروا غير قادرين على التحرك أكثر بسبب قوة المقاومة، لكنهم استثمروا توقفهم وإحباطهم في نَصْب دبابة في حديقة كلية دلهي، وإلقاء القذائف على قصر شاه جيهان الرائع. أما على الجبهة الغربية، فلم يحرزوا أيَّ تقدم آخر من أي نوع على طول أسوار المدينة، وظلوا محاصرين من قِبَل قوات «بخت خان» ومدفعيته الذين احتشدوا ليقوموا بحرق الحصن.

كتب الرائد «ويليام إيرلندا»: «بسبب حالة الإحباط العامة، تشتت القوات البريطانية ببطء، يشربون وينهبون، وسرعان ما فقدوا كل مظهر من مظاهر الانضباط، بحيث أصبح لا يمكن السيطرة عليهم! وحتى خطورة موقفنا لم تكن كافية لإجبارهم على الالتزام.» أما في المقر الرئيس في منزل آل «سكينر»، كان ضباط «ويلسون» منشغلون بمحاولاتهم لإيقاف قائدهم عن الانسحاب كليًّا إلى التلال، أو حين يكون في مزاج أسوء ويرغب في الانسحاب حتى «كارنال». كتب لزوجِه مساء يوم الخامس عشر من سبتمبر: «ما نملكه الآن هو ما استولينا عليه مسبقًا، ولا شيء أكثر من هذا، تناول جنودي كثيرًا من البيرة من المتاجر، وصاروا بلا فائدة، قتال الشوارع يرعبهم، إذ فقدنا كثيرين، سواء من الضباط الأوروبيينِ أم من المرتزقِة، دون تحقيق

أي تقدم يُذكر.. أنا بلا فائدة وغير قادر على أيٍّ مجهود. إجمالًا، موقفنا ليس جيدًا.. لا أستطيع أن أخبرك بما هو أكثر.».

في هذه المرحلة، كان من الممكن أن تنتقل مِلكية المدينة إلى الجانب الآخر، فإن كان المتمردون قد تعاونوا وقاموا بهجوم مضاد، خاصةً الهجوم الذي يستهدف السيطرة على مؤخرة موقع البريطانيين غير المحمِيِّ بشكل جيد، أو الاستيلاء على المعسكر على التلال، لكانوا أجبروا البريطانيين على الانسحاب فورًا من المدينة. لكن كل ما أمكنهم تحقيقه ظهر مساء يوم الخامس عشر من سبتمبر هو القيام بهجوم مضاد متواضع، من مدفعية المتمردين على حصن «سليمجاره»، والذي انتهى بطرد البريطانيين من فتوحاتهم الجديدة، ليعودوا إلى موقعهم القديم في كلية دلهي. بالنسبة للعديد من قادة المتمردين، وبالنسبة أيضًا لسكان المدينة، فقد تزايدت حدة الإحباط بسبب هذا الفشل في الرد بشكل أكثر فاعلية مع مرور الساعات. كما كانت هناك حالات من الفرار والاكتئاب التي عانى منها السيبويون، الذين عُرِّضوا لهجوم من قبل سكان دلهي.. وعن هذا يُقال: «بسبب المعاملة السيئة التي عُرِّض سكان دلهي لها بالسابق من قبل السيبويين، قاموا الآن بنزع أسلحة السيبويين، وضربهم بالنعال وإهانتهم بكل طريقة ممكنة، صارخين «أين شجاعتكم التي تباهيتم بها؟ وأين ذهبت قوتكم، ألم يعد بإمكانكم مواجهتنا؟»»

ثم، في وقت متأخر من صباح اليوم السادس عشر من سبتمبر، تجمَّع سكان المدينة بشكل عفوي خارج القلعة الحمراء. وكان معهم عديد من المجاهدين بقيادة الشيخ «سرفراز علي»، وعدد من الضباط الرئيسين من جيش المتمردين، الذين دخلوا القصر وتوَسَّلوا إلى ظفر ليقودهم في المعركة، مؤكدين له، بحسب شهادة «سعيد مبارك شاه،» أن: «الجيش بأكمله، ومواطنو دلهي، وسكان البلد المحيط مستعدون لاتباعه، والقتال وراءه، والموت من أجله حتى يُطرد البريطانيون.» ومع تزايد أعداد المجاهدين والمواطنين المتجمعين خارج القلعة - بعضهم مسلحٌ بالعِصِيّ، وقليل منهم بالسيوف، وبعض آخر بالبنادق العتيقة - بدا هذا فجأة وكأنه نقطة تحول للوضع داخل القصر الذي بدا أكثر كآبة منذ اليوم الرابع عشر من الشهر، حين أرسل «ميرزا مغول» رسالة عاجلة إلى «ظفر»، وتوسل إليه لتوفير أموال إضافية لدفع رواتب القوات حتى يتمكنوا من تناول الطعام والقتال بصورة صحيحة. أجاب ظفر: «أرسلوا ألجمة الحصان الذهبية، والهودج الفضي والكراسي لميرزا مغول ليبيعها ويدفع جميع العائدات. لم يتبقَّ لدي شيء آخر.».

صارت القذائف تتساقط الآن كل دقيقة تقريبًا في مكان ما داخل أسوار القصر، وفقًا لما أرسله «نيفيل تشامبرلين» إلى «لاهور» مساء اليوم السابع

عشر من سبتمبر: «لا بد أن قصر الملك صار دافئًا للغاية بكل تلك النيران التي تُطلق عليه؛ فنحن نلقي القذائف في كل أنحاء القصر، من الشمال إلى الجنوب.» وكأنما لم يكن هذا كافيًا، فقد توقفت الإمدادات الغذائية إلى المدينة تمامًا، وصار الناس - بمن فيهم الأمراء والسلاطين - يتضورون جوعًا حرفيًّا.. الآن، مع تجمع الشيوخ والمجاهدين ومطالبتهم له بقيادة هجوم مضادٍّ بنفسه، كانت تلك لحظة حقيقية لإيضاح موقفه، لكن «ظفر» لم يعرف ماذا يجب أن يفعل. منذ عيد الأضحى الماضي، كان الإمبراطور يتأرجح بين الاكتئاب وكراهية السيبويين لكل ما فعلوه بمدينته وقصره، ولم يكن متحمِّسًا لدعم موقف «ميرزا مغول». وفي كثير من الأوقات كان يقنع نفسه بأنه كان مراقبًا محايدًا في صراع ليس له علاقة به وأنه لم يتدخل ولم ينحَز لأيَّة جهة، لكن موقف التردد هذا لم يكن متاحًا الآن، كان عليه أن يقدم إجابة، رغمًا عن ارتباكه واضطرابه، فإما أن يقود الهجوم المضاد، كما طُلِب منه، وإما أن يرفض القيام بذلك. كتب «سعيد مبارك شاه»: «تردد الملك، وقد شعر بالخوف على حياته، في حين كان المجاهدون يتوسَّلون إليه بجدية قائلين: نهايتك تقترب وسيتم أسرك. لِمَ تترك نفسك لتموت تلك الميتة المهينة المُكَلَّلة بالعار؟ لماذا لا تموت في أثناء القتال لتُخلد اسمك من بعدك؟ أجاب الملك بالموافقة وأنه سيقود القوات في الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم.».

بمجرد أن أُعلنت النية الملكية لقيادة الجيش للمعركة، تجمعت حشود أخرى من المتمردين والغزاة وأهل المدن أمام القصر، ليبلغ عددهم ما لا يقل عن سبعين ألف رجل. وانصاعوا للأمر الملكي بأن يقتربوا ببطء من البوابات الضخمة، فتقدمت القوات نحو مقر مخزن الذخيرة، لكنهم لم يصلوا أبعد من ذلك، فعلى بعد مائتي ياردة منها، سقط كل من تقدم أكثر من هذا برصاص البريطانيين الذي هطل على الشارع مثل المطر. لكن في الجهة الأخرى وبعيدًا عن مخزن الذخيرة، استطاعت القوات أن تحرز بعض التقدم، وكان الملك يراسلهم من خلفهم باستمرار للتأكد من مدى تقدم جيشه، لكنهم لم يكادوا يشتبكون مع البريطانيين حتى شق الحكيم «إحسان الله خان» طريقه إلى الملك، وأخبره أنه إذا ذهب أبعد من ذلك، فسيتم إطلاق النار عليه بلا شك، لأن حَمَلة البنادق الأوروبيين يختبئون في كثير من المنازل. همس الحكيم: «علاوة على ذلك، إذا رأوك على رأس الجيش، تقود القتال، فكيف يمكنني شرح سلوكك غدًا للبريطانيين، ما العذر الذي يمكنني تقديمه لهم بعد أن انضممت إلى المتمردين في المعركة؟» لم يعد بإمكان «ظفر» البقاء على الحياد. كان عليه أن يتخذ قراره بطريقة أو بأخرى، لكنه التردد! وبينما كان لا يزال يفكر، استمر الحكيم الموالي للبريطانيين في اللعب على مخاوفه. وفقًا لروايته الخاصة، قال للملك: «فكر، ماذا إن قاد السيبويون

جلالتك إلى مقدمة المعركة، ثم يهربون فتؤخذ جلالتك أسيرًا! لن أسمح بهذا، هؤلاء الناس جلبوا العار على جلالتك من أجل اللا شيء.. لم يكن يجدر بسموك المجيء أبدًا من الأساس!».

كتب «سعيد مبارك شاه»: «عند سماع هذه الكلمات، غادر الملك وعاد موكبه إلى القصر بحجة الذهاب لصلاة العشاء. ارتبكت جموع الناس والقوات، ثم بدأوا يشعرون بالقلق، وفي النهاية تفرقوا.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان قرار «ظفر» بمباركة الانتفاضة بعد ظهر يوم الحادي عشر من مايو هو نقطة تحول حاسمة حولت تمرد الجيش ليصبح أكبر ثورة واجهها البريطانيون طيلة القرن التاسع عشر، فإن انهيار أعصاب «ظفر» الكارثي في مساء يوم السادس عشر من سبتمبر كان هو اللحظة الحاسمة لبداية نهاية ذلك التمرد. أشارت عديدٌ من المصادر الأوردية أن الثقة والتصميم اللازمين لمقاومة البريطانيين، وأن صمود السيبويين بشكل ملحوظ حتى تلك اللحظة، بدأ التغيُّر انطلاقًا من تلك النقطة. لم يكن الأمر وكأنهم قد هُزموا فجأة. فعلى الجانب الآخر، قبل ذلك الوقت، كان البريطانيون يقتربون من حافة الانهيار، حيث استمرت معنويات قواتهم في الانهيار؛ في وقت متأخر من اليوم الثامن عشر، كان «ويلسون» لا يزال يكتب للوطن قائلًا: «رجالنا يكرهون قتال الشوارع المقيت هذا بشدة، ومصابون بالذُّعر ولن يتقدموا. أنا لا أستطيع إيجاد حلٍّ على الإطلاق.». كان يمكن للمتمردين هنا إحراز تقدُّم، لكن ثقة المتمردين تآكلت بشكل قاتل من خلال تراجع «ظفر» المخيف، وبمجرد أن بدأ الذعر، تفشَّى بسرعة بين صفوفهم. كان الجيشان يترقبان بعضهما بعضًا لمدة ثلاثة أيام الآن، وبفضل فشل «ظفر» في القيادة، جزئيًّا على الأقل، فقد كان المتمردون هم أول من أصابهم الضعف..

بدأ سكان دلهي، الذين أدركوا الآن أن الانهيار بات وشيكًا، حزمَ أمتعتهم والفرار إلى بر الأمان؛ إذ أفادت قوات المراقبة البريطانية المتمركزة على سطح منزل هندو راو في ذلك المساء أنه: «فرَّ كثيرٌ من الناس والحيوانات عبر بوابة أجمري.» وانطلقوا في صفوف طويلة مزدحمة، ورأى «هودسون» أن قوات «باريلي» كانت قد بدأت تفجيرَ مخازن الذخيرة الخاصة بهم استعدادًا للفرار بحياتهم، كما أفاد الجواسيس أن قوات «باريلي» و«نيماش» قد أرسلوا أمتعتهم ومعداتهم لتسبقهم على الطريق المؤدي إلى «ماثورا»، معتزمين اتباعها عند أول فرصة للهروب من المدينة نفسها.

كتب «سعيد مبارك شاه»: «الروح العالية للمتمردين الآن انخفضت تمامًا، وفكروا في إخلاء المدينة بالكامل. على الجانب الآخر، كان الأوروبيون ينتهزون الفرصة، ويشقون طريقهم إلى الشوارع الرئيسة والأسواق،

ويطلقون النار على كل من ليس منهم..»، وكان كل ما تبقى من السيبويين والمجاهدين مجرد فلول تناثرت بطول «تشاندني تشوك» إلى القصر، وحتى بوابة «لاهور»، فكل الباقيين قد هربوا بحياتهم. كانت تلك الليلة، في السادس عشر من سبتمبر، هي الليلة الأخيرة، بعد أكثر من مائتي عام من الحكم، التي يمضيها الأباطرة المغول في القلعة الحمراء في «شاه جيهان أباد».

وفقًا لما ذكرته عائلة ابنته المفضلة، السيدة «كلثوم زماني»، انفرد «ظفر» بنفسه في التسبيح خانة (غرفة الصلاة) خاصته، يصلي ويفكر، بينما في الخارج يستمع إلى أصوات القتال تقترب أكثر فأكثر من القلعة الحمراء. وفي الساعة الحادية عشرة أرسِل أحد الخصيان لاستدعاء «كلثوم زماني»: «كانت أصوات الطلقات نارية في كل مكان.. قال لي الإمبراطور: فليحفظك الله. اذهبي الآن مع زوجك. لا أحب أن أنفصل عنك، ولكن سيكون من الآمن لكِ الآن الابتعاد عني! ثم دعا وابتهل بصوت عالٍ من أجل سلامتنا وباركنا، وسلمنا بعض الجواهر والأشياء الثمينة الأخرى، وسأل زوجي «ميرزا ضياء الدين» أن يأخذنا بعيدًا. غادرت قافلتنا القلعة في وقت متأخر من الليل.. وصلنا إلى قرية «كورالي»، حيث تناولنا وجبة بسيطة من خبز الشعير واللبن، ولكن في اليوم التالي اتجهنا صوب ميروت - وجهة كثيرٍ من اللاجئين البريطانيين من دلهي قبل أربعة أشهر من الآن - إذ هاجمتنا مجموعة من الغجر وجردتنا من كل شيء حتى ملابسنا تقريبًا.».

بعد منتصف الليل وقبل الفجر ببعض الوقت، في الصباح الباكر من يوم السابع عشر من سبتمبر، تسلَّلَ «ظفر» بهدوء من القلعة الحمراء بجوار بوابة المياه دون أن يخبر رئيس وزرائه، أو حتى «زينَّت محل». كان وحيدًا باستثناء مجموعة صغيرة من الرجال المصاحبين له، وأحضر معه فقط مجموعة مختارة من كنوز أجداده، بما في ذلك مجوهرات الدولة وبعض الممتلكات. وبينما كان الفجر ينسحب من السماء، أخذ «ظفر» زورقًا أسفل نهر يامونا، ربما إلى ميناء المراكب الصغيرة في الحصن القديم «بورانا قيلة»، ومن هناك شقَّ طريقه إلى الضريح الصوفي العظيم لـ«نظام الدين»، والذي يقع على بعد ثلاثة أميال جنوب شرق «شاه جيهان أباد». وفقًا لما ذكره ورثة عائلة حفظة الضريح، عائلة «نظام الدين»، قام «ظفر» بتسليم رفات أجداده إلى خزينتهم. واشتملت هذه على الكنوز التي حملها خاصة من القلعة الحمراء؛ فسلمهم ثلاث شُعَيْرات مقدَّسة من لحية الرسول ﷺ أمانةً مقدسة متوارثة من كل أب إلى ابنه في منزل آل تيمور، منذ القرن الرابع عشر، وقد ارتبط «ظفر» بتلك الشعيرات بشكل خاص؛ حيث أشارت مذكرات القصر ومصادر أخرى لكونه يقوم بغسل تلك الشعيرات بنفسه في ماء الورد. انفجر «ظفر» بكاءً، بعد أن صلى، وتناول فطورًا بسيطًا قدَّمه له حفظة الضريح، قائلًا: «طالما شعرت أن هؤلاء الجنود المتمردين سوف يجلبون كارثة على

رءوسنا.. كانت لدي مخاوفي من البداية؛ وها قد تحققت تلك المخاوف.. فرَّ هؤلاء الجنود قبل الإنجليز، على الرغم من شخصيتي الميالة إلى التقشُّف والصوفية، ولكن في عروقي تسري دماء نسل عظيم، ستجعلني أقاتل حتى آخر قطرة من دمائي. لقد مر أجدادي بأيام أسوء من هذه الأيام ولم يفقدوا إيمانهم قط. لكني أرى بأم عيني المأساة القادمة نحوي في سرعة، والتي سوف تنهي مجد سلالتي. لم يعد لدي أي شك في أنني آخر من يجلس على عرش الهند من آل «تيمور» العظيم! شعلة السيادة المغولية تخفُت بسرعة، لن تبقَى سوى لبضع ساعات. وبما أنني أعرف هذا، لماذا يجب أن أتسبب في مزيدٍ من إراقة الدماء؟ لهذا السبب غادرت القلعة.. إن المُلك كله لله، يمنحه لمن يشاء.».

وبعدما قال ذلك، قام «ظفر» بتسليم الموروثات إلى عُهدة حفظة الضريح، وانطلق هودجه باتجاه قصره الصيفي المتاخم للضريح الصوفي لـ«قطب صاحب» في «مهرولي». وهناك أرسل لـ«بخت خان» لمقابلته هناك، ولكن قبل أن يصل إلى هناك، تبعه «ميرزا إله بخش»، وأخبره أن الغجر كانوا يكررون ما فعلوه بالبريطانيين في المرة السابقة لكن معهم هم، لذا لا يجب عليه إكمال طريقه في هذا الاتجاه. ما قاله «ميرزا إله بخش» كان صحيحًا، لكن ما لم يعرفه «ظفر» هو أن «ميرزا إله بخش» كان جاسوسًا يعمل لصالح «هودسون»، وكان قد جاء بتكليف مباشر منه، واعدًا إياه بأنه سيبذل قصارى جهده لخيانة نسيبه، ولمنع «ظفر» من الهروب بعيدًا عن المدينة. بتلك الطريقة - على الرغم من أنه لم يستشر أيَّة سلطة أعلى فيما يتعلق بالشروط التي انشغل بالتفاوض حولها - كان «هودسون» يأمل في أن يصبح بطلًا إمبراطوريًّا عظيمًا، وهكذا يعزز عودته منتصرًا، من خلال جلب الإمبراطور منكسرًا ذليلًا إلى السجن. ولتحقيق الغاية نفسها، حاول «هودسون» إبرام صفقة بشكل منفصل تمامًا مع «زينَّت محل» ووالدها «ميرزا قولي خان»، الذين كانا لا يزالان في منزل «زينَّت محل» في «لال كوان». وكانت الصفقة هي أنه في مقابل إقناع «ظفر» بالاستسلام، ستضمن حياتها وحياة الرجال الثلاثة في حياتها؛ والدها، وابنها «ميرزا جيوان بخت»، وزوجها «ظفر». ولم تتضمن صفقة «زينَّت» ووالدها التي تفاوضا حولها بكل جدية، أيًّا من أبناء زوجها من الزوجات الأخريات.

بعد أن أُقنِعَ بتغيير رأيه، أمر «ظفر» حملة الهودج الخاص به بالدوران، والعودة إلى «نظام الدين»، حيث انتظر «زينَّت محل» للانضمام إليه. ومعًا قاما بالذهاب إلى ضريح أسلاف «ظفر» الضخم القريب منهما. كان هذا القبر العظيم ذو القبة الرخامية يعود لـ«همايون» - ثاني أباطرة المغول - والذي كان أول مقبرة ضخمة بناها المغول قبل ثلاثمائة عام تقريبًا، في منتصف القرن السادس عشر، وكان لا يزال أروع آثار المغول في دلهي. ومن هناك

أمر «ظفر» بإرسال الأفيال إلى بيت الحكيم «إحسان الله خان»، ليخبروه بالانضمام إلى العائلة الإمبراطورية في الضريح، ثم اعتزل «ظفر» إلى حُجرة بالضريح لينتظر ويصلي. انتشرت الأخبار التي تفيد بأن «ظفر» قد فعل أخيرًا ما هدَّدَ به لفترة طويلة - مغادرة القلعة والذهاب لضريح خواجة قطب - وعبر جنبات البلدة كالنار في الهشيم صباح اليوم السابع عشر من سبتمبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول منتصف الصباح، كانت هناك تيَّارات كبيرة من الناس تتدفق من بوابة «أجمري»، بينما قرر الآخرون أنهم لا يجدر بهم الخوف من البريطانيين بقدر ما يجب عليهم الخوف من قبائل الغجر، كان اعتقادهم هذا خاطئًا، لكنهم قرَّروا تجربة حظِّهم، وتوجهوا ناحية بوابة «كشمير»، التي يسيطر عليها البريطانيون، وهناك قُتل عديدٌ من الرجال والصبية البالغين بالرصاص، في حين لم يُسمح للنساء والأطفال بالمضي قُدُمًا إلا بعد أن قام الحراس بتجريدهم بشكل منهجي من النقود والمجوهرات والمتاع التي يحملونها. وخرج هؤلاء المهجَّرين ليسلكوا الطرق نفسها - طريقَا كارنال وميروت - التي سلكها البريطانيون الهاربون قبل أربعة أشهر. راقبتهم «هارييت تايتلر»، والتي كانت قد مرت بالتجربة نفسها واضطرت هي نفسها إلى الفرار من المدينة في الحادي عشر من مايو، وهم يغادرون، وكانت الوحيدة التي وجدت متَّسعًا في قلبها لتشعر بما هم فيه من مِحنة.. كتبت عن هذا الموقف: «يا لها من تجربة أن ترى أعدادًا لا تُعَدُّ ولا تُحصى من النساء والأطفال تخرج من بوابتا «كشمير» و«موري». النساء اللواتي لم يسبق لهن أن رأين الجزء الخارجي من جدران الزنانة أو مشين أكثر من خطوات قليلة عبر ساحات الفناء الصغيرة، ولم تَعْتَدن إلا على رؤية عائلتهن أو عبيدهن، صار عليهن الآن مواجهة نظرات الجنود الأوروبيين المتفحصة.. شعرت بالأسف على هاته اليائسات، خصوصًا النساء الهندوسيات المسكينات اللاتي كن من عائلات رفيعة المستوى، واللاتي كان عليهن التزاحم مع النساء الأخريات من ذوات الطبقات الاجتماعية الأقل..».

راقبت عائلة «ظهير دهلوي» بقلق الناس من حولهم يغادرون طوال صباح اليوم السابع عشر، غير متأكدين مما يجب عليهم فعله. ولكن، في ذلك المساء، حَضَر «حامد علي خان»، زعيم الجالية الشيعية في دلهي، للتوسل إلى الأسرة للذهاب معه ومغادرة المدينة قبل فوات الأوان. وفقًا لـ«ظهير»: «سأل «حامد علي خان» والدي: «كيف تجلس بهذا الهدوء في منزلك؟ لقد غادر الملك القلعة، وجميع رعاياه يهربون الآن من المدينة. بالله عليك، اتْرك بيتك واهرب من المدينة مع أسرتك هذا المساء. ألا ترى أن القتل والنهب يدمران دلهي؟ سأقوم الآن بأخذ زوجِي وأولادي وترك هذا المكان. من فضلك، اسمح لي باصطحاب نساء عائلتك مع عائلتي في العربة.».

كان منزل «حامد علي خان» بجوار بوابة «كشمير»، لكن قبل شهر - بعد أن بدأ البريطانيون قصف المنطقة - كان قد استأجر منزلًا بجوار منزلنا قبالة سوق «تشاندني تشوك» وعاش هناك. قرر أبي أن يأخذ بنصيحته، وعلى الرغم من أن الشمس كانت في طريقها للغروب، فقد أمرنا بالاستعداد للرحيل. في غمرة الذعر المسيطر، غادروا جميعًا أيًّا كانت الملابس التي كانوا يرتدونها. كانت والدتي مذعورة لدرجة أنها لم تحمل أي جواهر معها، باستثناء الخاتم الذي كانت ترتديه حينها. أما زوجي، فعلى الأقل احتفظتْ بملابس زفافها التي كانت تساوي حوالي ألفي وخمسمائة روبية، كما احتفظت أيضًا بصندوق صغير من الجواهر، قامت بلف كل الأشياء في مرتبة قطنية ولفها مثل المَسند، ثم بَسَطتها في أرض العربة.».

انطلقت المجموعة في شوارع المدينة التي عاشوا فيها طيلة حياتهم، وأصبح من المستحيل التعرف إليها الآن، وفي الطريق، رأوا مشاهدَ مروعة في الشوارع أمام أعينهم المذعورة: «عندما غادرنا رأينا عذاب الناس وعجزهم وخوفهم وفقرهم.. رأينا محنة النساء اللاتي تخفَّيْن داخل الحجاب طوال حياتهن، ولم يخرجْنَ هكذا في الشوارع من قبل قَط، حتى إنه بالنظر إلى مِشيتهن الكسيرة تجد أنهن كن غير معتادات على المشي أبدًا.. كما رأينا كثيرًا من الأطفال وسمعنا بكاءهم الممزِّق للقلب، كان مشهدًا لا يوصف. تدفقنا جميعًا خارجين من مدينة دلهي عبر البوابة، هاربين من كل شيء، وكأنه يوم الحشر؛ آلاف من النساء وأطفالهن، ورجالهن القلقين من التعرض للنهب طوال الوقت، كانوا جميعًا يغادرون المدينة. دون أن يعلم أحد بحقيقة وضعه أو إلى أين سيتَّجه، أو ما تخفيه له الأيام، كنا نتحرك بلا أمل، ندفع بعضنا بعضًا وكأننا آلات بلا روح. وبعد رحلة شاقة، وصلت مجموعتنا إلى بارف خانا «بيت الجليد» حيث قام «حامد علي خان» باستئجار المكان كله من أصحابه. قضينا جميعًا الليلة هناك، سعداء لأننا بأمان يحمينا سقف ما، على الرغم من أنه لم يكن لدى أي منا أي شيء ليأكله.».

في عصر ذلك اليوم، قامت قوات «بخت خان» بالتحرك أخيرًا من موقعها المتقدم في «كيشينجانج» والتخلي عن تقدمها، وهو ما أسعَدَ الجنرال «ويلسون» بشدة، عندما وجد أن مؤخرة جيش البريطانيين على التلال، لم تعد مهدَّدة، فشعر لأول مرة منذ فترة طويلة أنه قادر على المُضي قدمًا ببعض الحماسة. وعلى الرغم من أن القلعة المدمرة كانت لا تزال صامدة، وأن النصف الغربي من المدينة استمر في تحدي البريطانيين، إلا أنه في النصف الشرقي منها أحرزت القوات البريطانية تقدُّمًا ثابتًا في الشوارع. وبحلول مساء اليوم السابع عشر، بعد أن رحل «ظهير» عن منزله بقليل، كان البريطانيون قد اتَّخذوا مواقِعَ هامة على طول «تشاندني تشوك». وفي أثناء تقدُّمهم، كانوا يتوقفون لنهب المنازل التي يمرُّون بها، ويطردون السكان

المحظوظين، ويقتلون غير المحظوظين. وفي كلتا الحالتين، لم يُترك أي منزل مأهول بالسكان وراء القوات البريطانية المتقدمة، فكانت المدينة التي احتُلَّت خلفهم فارغة من البشر بالكامل. وكان ابن الشيخ «محمد باقر»، الشاعر والناقد «محمد حسين آزاد» من المحظوظين، نسبيًّا على الأقل. فعلى عكس عديدٍ من شباب دلهي، لم تُطلق النار عليه؛ يحكي أنه كان في منزله ذلك المساء مع زوجه والعائلة: «اقتحم الجنود المنزل فجأة، ولوَّحوا ببنادقهم نحونا صارخين: «اخلوا المكان حالًا!» اسوَدَّ العالم كله أمام عيني، كان منزلنا مليئًا بالأمتعة، فوقفت متسمرًا مكاني.. ماذا آخذ معي؟ لقد وُضعت كل الجواهر في صندوق وألقيت في مكان آمن، لكن عيني سقطت على رُزمة أشعار «زوق» التي كرس «آزاد» حياته لإعداد الطبعة المنقحة للنشر بعد وفاة معلمه عام ١٨٥٤.

فكرت «إن منَّ الله عليك برحمته يا «محمد حسين» وظللت حيًّا، يمكن لكل هذه الأشياء المادية أن تعوَّض، لكن كيف لـ«زوق» أن يعوَّض! ومن يمكنه أن ينظِم مثل تلك القصائد مرة أخرى؟ فبوجودها فقط تظل ذكرى «زوق» حية حتى بعد موته؛ وإن فقدتُها فقد فُقِدت ذكراه». لذا التقطتُّ الرزمة وأخفيتها تحت ذراعي، نجوت بها، تاركًا خلفي منزلًا مؤثَّثًا بشكل جيد، و٢٢ خادمًا يصارعون الموت، وغادرت أنا وأسرتي المنزل أو بالأحرى المدينة. رددت لنفسي» ألم يخرج «سيدنا آدم» من الجنة؟ وأنا من نسل آدم، فإن «دلهي» جنتي وها أنا أتركها كما فعل هو من قبلي.»».

عندما خرجتْ أسرة «آزاد» من دلهي، أصابت رصاصة طائشة أو قطعة من شظية منفجرة ابنة «آزاد» البالغة من العمر عامًا واحدًا، فسرعان ما انزلقت في غيبوبة بلا رجعة، وبعد أيام قليلة ماتت! في تلك الليلة، لجأت عائلة «آزاد» أيضًا إلى البيت الجليدي نفسه الذي احتمى به «ظهير»، على الرغم من عدم ذكر رواية «آزاد» ولا رواية «ظهير» لوجود الآخر.. على الرغم من أن حالتهما كانت متشابهة؛ إذ غادروا المدينة في حالة من الذُّعر الشديد، ولكن بحساب مواردهم، وجدوا قليلًا من الدقيق - الذي أصبح الآن باهظ الثمن كالذهب - وعجنوه خبزًا في قدر مكسور. وأشعلوا النيران من أوراق الشجر والأغصان الجافَّة، ومن بعض اللاجئين الآخرين استعاروا الثُّوم والفُلفل الحار وملحًا لصنع الغموس، وعلى الرغم من ظروف الطعام وطبيعته البدائية، اعتاد «آزاد» أن يخبر أبناءه - فيما بعد - أنه استمتع بصلصة الثوم والروتي نصف المطبوخ تلك أكثر من أجود أطباق البرياني أو الكورماس أو البولاو التي كُتِب له أن يستمتع بها في وقت لاحق من حياته.. كانت وجبةً بطعم النجاة.

في اليوم التالي تمكنوا من العثور على عربات تُقِلُّهم إلى «سونبات»، وودع «آزاد» عائلته لكنه لم يذهب معهم. فإن كان فَقَد بالفعل في «دلهي» بيتَه

وابنته، لكنه لا يمكن أن يفقد أباه، لذا وعلى الرغم من المخاطرة الشديدة، فإنه عاد في اليوم التالي إلى «دلهي» لمحاولة إيجاد الشيخ «محمد باقر» ومساعدته، المحتجز الآن في السجن البريطاني. تمكن «آزاد» بطريقة ما من التواصل مع ضابط سيخي كان صديقًا لوالده، ووافق على مساعدته. كما قدم له المأوى والحماية بالتظاهر بأن «آزاد» كان رفيقه، بهذا التنكُّر، قاد الضابط «آزاد» إلى الميدان حيث كان «باقر» والسجناء الآخرون ينتظرون حكم الإعدام. وفي هذه اللحظة، بينما كانوا يقتادون محمد باقر ناحية حبل المشنقة، رفع عينيه إلى ابنه، وسرعان ما عرفه وتبادلَا نظرةً طويلةً أخيرةً مُحَمَّلةً بالشجن والوداع. وبعدما شُنق الشيخ «محمد باقر» مباشرة، قام «أزاد»، الذي كان مدركًا لإصدار أمر بالقبض عليه هو أيضًا، بالهروب من المدينة، وبدأ حياة تجوال جعلته يقضي أربع سنوات في الارتحال وحده في فقر مدقع بطول الهند وعرضها؛ إلى «مدراس» وتلال «نيلجيري»، ثم «لكناو»، وفي النهاية إلى «لاهور»، حاملًا قصائد معلِّمه أمانةً في عنقه طيلة الطريق. ولم تتحسن حاله إلا في عام ١٨٦١، عندما تمكن من تأمين وظيفة متواضعة في مكتب البريد العام في «لاهور»، وهنا فقط بدأ إعادة بناء حياته، كما بدأ العمل على إعداد نسخة منقَّحة من قصائد «زوق» التي كان يملكها، كما وعد معلمه أن يفعل، وهو العمل الذي سيكون نُصبًا تذكاريًّا لمدينة امتلأت يومًا بالإبداع الفكري والفني، ثم دُمِّرت بالكامل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منتصف صباح اليوم التالي، ١٨ سبتمبر، كُسفت الشمس بالكامل لمدة خمس دقائق، وأظلمت المدينة بشكل يُنذر بالسوء لما يقرب من ثلاث ساعات، قبل أن يعود الضوء ببطء، وإن كان الجنود البريطانيون قد شعروا بالقلق من الحادث، حيث لم يحذرهم أحد بشأنه، كان الأمر بالنسبة للهندوس أمرًا في غاية الأهمية وأكبر من مجرد قلق. حتى في الوقت الحالي في الهند، لا يخرج بعض الهندوس من الطبقة العُلْيَا خلال فترة الخسوف، ولمدة أربعٍ وعشرين ساعة على جانبي وقت الكسوف، تكون كل المعابد الهندوسية مُقْفلة. وبالنسبة لمغول دلهي، وخاصة في البلاط المغولي حيث عمل الهندوس منجمين، كان الكسوف حدثًا ذا أهمية مرعبة، إذ كان فألًا وإشارة حادة على الغضب الإلهي الشديد.

لكن على الرغم من أن الكسوف يعتبر أسوء لحظة ممكنة لبدء أيَّة رحلة، كانت هذه هي اللحظة التي قرر فيها السيبويون حتى آخر رجل فيهم التخلي عن قتال ميئوس منه، والهروب من المدينة المنكوبة. في ذلك المساء، عندما فَتحت السماء أبوابها لرياح موسمية متأخرة، كان السيبويون بأكملهم قد هربوا على طريق «آجرا»، الذي كان مسدودًا بالفعل بسكان دلهي الذين سبقوهم، يفرون بأسرع ما يمكن من البريطانيين وحلفائهم السيخ والباثان

والجورخا العنيفين الذين يسعون خلفهم. كتب «تشارلز جريفيث»: «كان للظلام أثرٌ في زيادة مخاوفهم الخرافية، وهو ما عجَّل فرارهم من المدينة التي نزل عليها غضب الرب القدير. في تلك الليلة وردت أخبار أن المتمردين كانوا يقومون بإخلاء المدينة من الجانب الجنوبي بأعداد كبيرة، وأن لواءَيْ «باريلي» و«نيماش» قد انطلقا هاربين في اتجاه «جواليور». من المؤكد أن علامات الضعف قد ظهرت جلية بين صفوف العدو بتلك الفترة، وقلَّت محاولات الاعتداء على مواقعنا التي استولينا عليها مجددًا، كما قل عدد عابري جسر القوارب نهارًا بسبب وجود بعض حَمَلة بنادقنا. ولكن في ليلة التاسع عشر، في أثناء الجلوس في بهو الكنيسة نراقب القذائف وهي تنفجر فوق القصر والأنحاء المجاورة، سمعنا بوضوح بين فترات إطلاق النار، همهمة بعيدة من الأصوات المشوشة، كانت همهمة حشد كبير. جاء الصوت من اتجاه النهر، وبالنظر إلى مصدره، كانت جموع البشر يهربون عن طريق جسر القوارب، يهجرون المدينة التي ستقع في أيدينا قريبًا.».

بعد ظهر يوم التاسع عشر، وبعدما صُدِوا أكثر من مرة بخسائر فادحة، استولى البريطانيون أخيرًا على معظم أنحاء المدينة، وهكذا استعدُّوا للاعتداء على القصر في صباح اليوم التالي، يوم ٢٠ سبتمبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مصير لاجئي دلهي في أيام السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من سبتمبر سيئًا بقدر سوء مصير أمثالهم البريطانيين الذين تشرَّدوا في أوائل مايو؛ مروا على الطرق نفسها، شاعرين بالذعر نفسه، وعُرِّضوا للهجوم والسرقة من قِبَل عصابات الغجر نفسهم والقبائل المفترسة التي جرَّدت البريطانيين من ملابسهم في وقت سابق من الصيف. وعلى الرغم من قلة عدد الروايات من منظور هؤلاء اللاجئين الهنود لقلة من ظلَّ منهم على قيد الحياة، مقارنة بعدد البريطانيين الناجين الضخم وما حدث لهم في الحادي عشر من مايو، والذين ظهرت شهادتهم مطبوعة في غضون بضعة أشهر من نهاية الانتفاضة، فقد نجت بعض عائلات دلهي القديمة، وتركت ميراثًا شفهيًّا يُحكى عن المغامرات التي حلت بأجداد أجدادهم في عام ١٨٥٧. بعضها تم جمعها من العجائز في أوائل القرن العشرين بواسطة خواجة «حسن نظامي» في كتاب بعنوان (دموع النساء)، والذي نُشِر أخيرًا في عام ١٩٥٢.

أشهرهم هي قصة «ميرزا شاه زور»، الذي فرَّ من دلهي مع زوجه الحامل وأخته الصغرى وأمه في زوج من العربات بعد فترة وجيزة من مغادرة الإمبراطور للبلاط، ومثل عديدٍ من اللاجئين المغول، توجَّهوا أولًا إلى ضريح «قطب صاحب» في «مهرولي» حيث أمضوا ليلتهم، ثم في صباح اليوم التالي استكملوا رحلتهم، حتى عُرِّضوا للهجوم والنهب من قِبَل مجموعات

الغجر على بُعد كيلومترات بالقرب من «تشاتاربور»، وجردوهم من كل شيء إلا حياتهم. يتذكر «ميرزا شاه زور»: «انخرطت النساء في البكاء، وبذلت قصارى جهدي لتعزيتهن بأن هناك مرفأ آمنًا قريبًا منا. ومع ذلك لم تتوقف والدتي عن التعثر في كل خطوة وهي تندب المصير الذي جعلها ترى مثل هذه الصعوبات الشديدة في عمر كهذا. حتى وصلوا إلى القرية الآمنة، التي يسكنها الرعايا المسلمون، الذين قدَّموا لنا المأوى».

ساعد القرويون المسلمون اللاجئين، وأطعموهم، لكنهم بعد أيام قليلة طلبوا من «ميرزا شاه زور» تقديم نوع من المساهمة في المقابل: «سألوني «لماذا تجلس بلا عمل طوال اليوم؟» «لماذا لا تفعل شيئًا؟» أجبتهم أنني سأسعد بمساعدتهم، وأنني أتيت من عائلة عسكرية، ويمكنني إطلاق النار، وأعرف كيف أقاتل بالسيف. عندها بدأ القرويون الضحك قائلين: «هنا لا نحتاج منك أن تطلق الرصاص، ولكن أن تدير المحراث وتحفر الأرض. ظهرت دموع العجز في عيني عند سماع هذا ولمَّا رأى القرويون هذا أشفقوا عليّ وقالوا «حسنًا، لمَ لا تحرس حقولنا؟ ويمكن لنسائك خياطة الملابس على أن نشاركك مما نحصده.» هكذا تطورت حياتنا؛ أنا أقوم بحراسة الحقول طوال اليوم، ومطاردة الطيور الضارة، والنساء يحُكن الملابس بالبيت.».

عاشوا مع القرويين عامين رافقوهم في معاناتهم، وتعلموا معنى الجوع الحقيقي؛ حتى إن الفيضانات الموسمية كادت أن تجرفهم بالكامل؛ وفي ظل عدم وجود طبيب ليعتني بهم، ماتت زوجة «ميرزا شاه زور» في أثناء الولادة. وبعد فترة وجيزة، تمكن من تبقوا من العائلة من العودة إلى دلهي، لبدء حياة جديدة اعتمادًا على معاش تقاعدي قدره خمس روبيات في الشهر قدَّمه البريطانيون لقليل ممن نجوا من العائلة الإمبراطورية. بينما عانى الآخرون من مصيرٍ مُشابه، حتى «ظفر سلطان» الابن المفضل لـ«ميرزا بابور»، الأخ الأصغر - الموالي للبريطانيين - للإمبراطور، والذي اشتهر بارتداء ملابس بريطانية صِرفة، وبناء بيت على الطراز الإنجليزي داخل القلعة الحمراء عانى من مصير مماثل، ففي التاسع عشر من سبتمبر، مع اقتراب سقوط القصر، وضع «ظفر سلطان» والدته العمياء في عربة وأمر السائق أن يخرجهما من خلال بوابة «أجمري» نحو «كارنال». في الليلة الأولى، بعد نجاحهم في الهروب من كل من البريطانيين وقبائل الغجر، توقفا بالقرب من قرية، وسقطَا بسرعة نائمين. وفي صباح اليوم التالي، استيقظَا ليكتشفا أن السائق قد هرب، وأخذ العربة معه، فهامَا على وجهيهما حتى وجدا مأوى في قرية قريبة، حيث تم إعطاؤهما وجبة طعام، ولكن لم تمرّ فترة طويلة، حتى هاجمهما السكان، مشتبهين - وكان معهم حق - في أنهما أحضرا معهما بعض الجواهر التي لا تقدَّر بثمن. بعدما اقتلعوا من «ظفر سلطان» كل شيء كانا يحملانه، ألقَوا في الغابة، وهناك اكتشف أن والدته المسنة، التي ضُربت على

رأسها بفأس، كانت تحتضر، يحكي «ظفر سلطان»: «سألتها بم تشعر، فقالت: «أنا أخت زوجة إمبراطور الهند المعظم وانظر إلى مصيري أموت في الغابة، ولن أظفر حتى بكفن لأدفن فيه». كانت تلك جملتها الأخيرة قبل أن تسلم الروح إلى خالقها. فاستجمعت قواي بطريقة ما لدفنها بقدر ما أستطيع.» أصبح «ظفر سلطان» فقيرًا يتجول من مدينة إلى أخرى. ذهب إلى «بومباي»، ومنها إلى «مكة»، حيث عاش عشر سنوات على صَدَقة الحُجاج. في النهاية عاد، عبر «كاراتشي»، إلى «دلهي»، يقول: «لأنني لم أستطع أن أنسى تلك المدينة، عملت في نقل الطوب للمساعدة في بناء خط سكة حديد جديد، وفي النهاية ادَّخرت ما يكفي لشراء عربة الطوب الخاصة بي.».

رفض عرضَ معاشٍ تقاعدي حكومي، لأنه فكَّر أنه من الأفضل «كسب لقمة العيش من العمل الشاق عن الاعتماد على معاش تقاعدي من البريطانيين.» عندما التقى خواجة «حسن نظامي» بـ«ميرزا ظفر سلطان» عام ١٩١٧، كان قد صار شيخًا أصمَّ، تعرف إليه عندما قُدِّمَ إلى المحكمة بعد دخوله في معركة مع رجل أعمال بنجابي ثري مخمور، وقام هذا الأخير بإخراج سوطه وبدأ ضرب الرجل الكبير بعد أن اصطدمت عربته المحملة بالطوب بسيارة رجل الأعمال. لقد تلقى الضربات القليلة الأولى بهدوء، ولكن أخيرًا، احتشدت بداخله الشجاعة للمقاومة، وضرب رجل الأعمال بشدة فكسر أنفه! وقال ظفر سلطان في جلسة محاكمته: «الأغنياء لا يفكرون في الفقراء على الإطلاق! لكن، لم يكن الأمر هكذا دومًا، فقبل ستِّين عامًا، كان أجداد هذا الرجل عبيدًا لدي. وليس هم فقط، ولكن كل هندوستان كانت تستجيب لأوامري.. لم أنسَ نسبي وأصلي النبيل، فكيف يمكنني تحمل مثل تلكم الإهانات؟ انظروا كيف هرب ذلك الجبان عندما ضربته.. يبدو أنه ليس من السهل التغلب على آل تيمور!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في العشرين من سبتمبر تقدم البريطانيون من خطهم الأمامي «أنقاض بنك دلهي» نحو القلعة الحمراء. قبلها، في ليلة التاسع عشر، اصطفت المدافع أمام القصر، وفي الساعة العاشرة صباحًا من اليوم العشرين، تقدمت مجموعة تفجير للأمام تحت غطاء يحميهم من النيران، لوضع المتفجرات تحت البوابات. وعلى عكس الاستيلاء على بوابة كشميري، لم تكن هناك مقاومة تقريبًا في القصر، وأصبح من الواضح أن معظم مدافعي القصر قد فروا بالفعل، باستثناء عدد قليل من المجاهدين المصممين الذين فضَّلوا الموت بدلًا من تسليم عرش إمبراطورهم –خليفة المسلمين، الذي تحيط به الملائكة - بدون جهاد.

كان «إدوارد كامبل» أحد أولئك الذين قادوا الهجوم، لكن كثيرًا مما نعتمد عليه مصدرًا للمعلومات هنا هو ما تركه نائبه، وهو نقيب شاب في الجيش يدعى «فريد مايسي»، والذي كتب إلى والدته وأخواته في «سويسرا»: «بعد فترة من الانتظار المليء بالحماسة، أحدثت المتفجرات انفجارًا هائلًا، فسقط أحد أبواب البوابة الضخم بكامل ثقله، ثم صرخنا جميعًا ونحن نقتحم المكان، الضباط، وخبراء المتفجرات، والأوروبيون، والسكان الأصليون، بدون أي نظام أو ترتيب.. وأجزم أنه لو كانت هناك أيَّة مقاومة وقتها، لكانت قد حدثت فوضى عارمة! حاولت أن أجعل ضابطًا أو اثنين يقومون بتنظيم رجالهم لكنهم اندفعوا في فوضى يتبعهم رجالهم. كان هناك بعض إطلاق النار من البنادق في الممر المؤدي إلى الفناء الأول من بعض الفدائيين الذين كانوا أغبياء بما يكفي للقتال، فقُتِلوا. لكن كان الخطر الأكبر من اندفاع بنادقنا نحن وإطلاق النيران في فوضى أكثر مما كان مِن بنادقهم هم، لذلك كنا سعداء بالخروج من الممر في العراء. ذهبنا إلى اليسار لأن هذا كان الطريق نحو «ساليمجاره»، الذي وشى أحدهم أن الملك ذهب في هذا الاتجاه.. قمت بقيادة مجموعة برفقة قائد أفغاني يُدعى «مير خان»، والذي ساعدنا بجسده القوي، كان رجلًا وسيمًا ذا لحية سوداء وعيني نسر، وكان متحمسًا جدًّا لفكرة القبض على الملك (وربما قتله أيضًا).

مررنا عبر عدة بوابات وشوارع ضيقة - يجب أن أحيطك علمًا بأن هناك مدينة كاملة داخل أسوار القصر - كنا نتوقع في كل لحظة رصاصة طائشة تصيبنا، لكننا لم نرَ إلا رجلين فقط في طريقنا، وقد قام صديقنا الأفغاني بإطلاق النار على كليهما وماتًا على الفور، ثم أمسكت برجل يختلِس النظر عبر المدخل، وأجبرته على المجيء معي. لم يكن مسلَّحًا وبدا أنه سائق عربة من عربات الثيران. أخبرته إذا بقي بالقرب مني ودلَّنا على الطريق وأعطانا معلومات هامة، فسأحرص على ألا يصيبه مكروه، لكنه لم يكن يدرك أن ضماناتي في ذلك اليوم كانت بلا قيمة. كان صديقي الأفغاني ورائي مباشرة. قلت له إن الرجل الشيخ أسيري، وأنني قد وعدته ألا يصيبه مكروه، فقرَّب الشيخ رأسه من الأرض وأخذ يشكرنا بمقدار ما سمح له خوفه أن يفعل، ثم سار اليائس بجانبي يدلنا على الطريق. كنا قد ابتعدنا بالكاد بمقدار عشر ياردات عندما شعرت بأزيز ووميض، وسقط أسيرنا وقد أصابه وابل من الرصاص، إذ قام ذلك النذل الأفغاني بإطلاق الرصاص عليه، وكاد أن يصيبني أنا الآخر في أثناء قيامه بذلك. كنت غاضبًا جدًّا، لكن الأفغاني لم يكن مهتمًّا، ولم يستطع فهم سبب تقديم وعُود لقذر قُبِض عليه في معقل العدو.».

بعد فترة، سمع «مايسي» ورفاقه إطلاق نار من وسط ساحة القصر، فقرروا الانضمام إليهم، إذ بدا الجزء الخاص بهم في القصر في فوضى تامة، وكانت المجموعة كاملة رجالًا وضبَّاطًا وخيولًا كلهم مجتمعين في اضطراب معًا؛ إذ

تم استدراجهم إلى طريق مسدود بالقرب من بوابات قاعة الاحتفالات المغلقة بإحكام.

يُكمل: «لكنهم لم يتوقفوا، ومع الانفجارات المستمرة، وطلقات البنادق، وغيرها من الإجراءات العنيفة، تهاوت البوابات، فاندفعنا إلى الساحة المركزية للقصر، والتي يوجد على الجانب الآخر منها الديوان العام، أو قاعة الجمهور. امتلأ البلاط بالعربات المنهوبة وارتمى هناك مسدس أو اثنين، من الواضح أنه قد رُمِيَا في أثناء الهروب على عجل. فاتجهنا صوب الديوان العام، والذي وجدنا أنه تحوَّل لنوع من الثكنات؛ كان هناك حوالي خمسة عشر رجلًا مريضًا أو جريحًا هناك، وأراد رجالنا بشدة أن يهاجموهم.. ومع ذلك، طلب الضباط منهم أن يبقوا هادئين حتى يقوموا باستجوابهم. كان هناك شاب مسلم، من الواضح أنه مريض للغاية، كان قريبًا مني وسألته إلى أين اتجه الجنود والملك، توسل الرجل للإبقاء على حياته، فأخبرته أنني سأحميه إذا كان بإمكانه أن يأتي معي، على شرط أن يكشف عن مكان الملك. فأخبرني أن الملك وزوجه وأبناءه الصغار كانوا في الشقق الخاصة التي كانت في البلاط الداخلي. كان الوغد يكذب؛ إذ كان الملك قد هرب قبل أيام وكان يعرف ذلك جيدًا. لكننا صدقناه، وناديت بتفتيش البلاط فورًا. في ذلك الوقت، ظهر الأفغاني ذو اللحية السوداء، ولم يكد يلحظ الأسرى حتى هجم عليهم مع رجاله، ولم يستطع أحد إيقافه. مع الأسف، وقعت مجزرة غير آدمية هناك، وشت بها أصوات الصراخ والآهات، فلم أعد أستطيع التحمل، تركت الرجل الذي تحدثت إليه حيًّا في رعاية بعض الجنود لكنه قُتل هو الآخر بعد ذلك. سمعت أنه من بين اثني عشر أو خمسة عشر رجلًا، كان «مير خان» قتل ثمانيةً بنفسه، لم أرَ قط في حياتي مثل هذا الوحشية المتعطشة للدماء.».

يبدو أن السرية التي أجرى بها «هودسون» مفاوضاته كانت كبيرة إلى درجة أنه لا أحد في الجيش البريطاني المقتحم للقصر كان يعرف أن الإمبراطور لم يعد في قصره، فقد كان «هودسون «على اتصال مباشر مع «ميرزا إله بخش»، وكان يعرف بالضبط مكان وجود جميع أفراد العائلة الإمبراطورية من أصغرهم لأكبرهم. على أيَّة حال، بعد أن اخترقت القوات البريطانية البلاط المغولي تدفقوا في الأفنية الداخلية، وجابوا الأروقة بحثًا عن العائلة المالكة، الذين اعتقدوا أنهم ما زالوا هناك. وفقًا للضابط الشاب: «سرعان ما اقتحمت القوات البريطانية المسلحة الحرم المغولي المعزول، إذ دخلوا الغرف المحرمة، حيث لم تطأ أقدام الإنجليز من قبل: غرف أباطرة المغول الخاصة، وغرف «نور محل»، وأجنحة الحريم الإمبراطوري، وغرف التخزين، والمخازن، والحمامات الإمبراطورية، كلها نُهبت وفُتِّشت في سبيل العثور على الملك وعائلته، ولكن سرعان ما اكتشفنا أن الخزانة كانت خالية، ثم علا صوت السرقة، وخرج مارد الجشع من المصباح بشكل لم أرَه من قبل في

حياتي، فلم يعد أحد قادر على إيقافه، إذ قام حشد متنوع من القوات والأتباع بنهب كل حفرة وزاوية، وقلبوا كل شيء رأسًا على عَقِب بحثًا عن أي شيء يصلح للسرقة حتى إنهم فتحوا أقفال الأبواب بإطلاق النيران من البنادق نحوها، مع تزايد أعداد الرجال أكثر فأكثر، تطاير الرصاص من كل صوب أكثر فأكثر، وصار الخطر كبيرًا. لم أرَ قط مثل هذه الفوضى.

سرقوا كل شيء كان يخص الملك وأعضاء البلاط يومًا، من أثاث، وملابس رجالية ونسائية، وملابس الراقصات، وأواني الطعام والشراب، والزخارف الثمينة، أمَّا الكتب والمخطوطات، فقد قُطِّعت كلها ورُمِيت في جميع الأنحاء، من قِبَل جنودنا الغاضبين. وقام بعضهم بالبحث في الصناديق المغلقة عن الجواهر واللوحات والبنادق والمسدسات، وأي شيء خطر ببالهم لكنهم لم يجدوا شيئًا. جرب بعضهم تناول الحلويات، وبعضهم الآخر، الأقل حظًّا، تناولوا أوعية ضخمة، لما بدا كأنه مشروب ملكي ولسوء الحظ تبيَّن أنه دواء، واكتشفوا بعد فوات الأوان أن الملك كان لديه شغف بالصيدَلَة، وأبقى علاجاته قريبة منه. في النهاية، لم نجد شخصًا واحدًا في الغرف الخاصة، وبالنسبة للسرقة، كان معظم ما تركوه خلفهم مجرد قمامة، ولم يكن هناك شيء له أيَّة قيمة. لكنني أخذت وسادة خفيفة جديدة من جناح الملك الخاص تمتلكها «كيت» - زوج مايسي - الآن.. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استوليت عليه في دلهي، ومع ذلك، صمَّمت على الاحتفاظ بهذا التِّذكار الصغير، وقد أخبرت جامع الغنائم - إدوارد كامبل - على هذا. أخيرًا، بدأ الرجال أخيرًا أخذ قسطٍ من الهدوء بعد الإرهاق الشديد الذي أصابهم، وقام كل ضابط بجمع فرقته. ثم أرسلنا تقريرًا بالاستيلاء على القصر إلى الجنرال «ويلسون».».

في ذلك المساء، كان الجنود البريطانيون يرقصون بنصر داخل المسجد الجامع، بينما قام السيخ بإشعال نيران النصر بجوار محراب المسجد المقدس، وانتقل الجنرال «ويلسون» وموظفو المقر الرئيس من كنيسة سانت جيمس إلى البلاط الخاص بالقلعة، حيث تم تناول عشاء مُكون من البيض ولحم الخنزير.. فكَّر «فريد مايسي» حين اقترح الجنرال «ويلسون» نخبًا في صحة الملكة «فيكتوريا»: «أتساءل ما شعور صاحب القصر الأصلي عن هذا الذي نفعله؟». بعد العشاء، أرسل «ويلسون» أحد ضباطه ببرقية إلى لاهور، معلنًا بفخر: «لقد انتهت معركتنا الآن، تلقى التمرد هزيمة مدوية، وعادت أيامنا مرة أخرى.».

تم نقل الأخبار أيضًا إلى «نيكلسون»، الذي كان يلهث متشبِّثًا بالحياة في خيمته على التلال، بحضور خادمه وحارسه الشخصي. عندما ذهب «نيفيل تشامبرلين» لزيارته وإخباره بالمستجدات وجده عاجزًا كما لو كان طفلًا

رضيعًا، ويتنفس بصعوبة، وبالكاد يقوى على الكلام حيث تخرج كلماته مصحوبة بألم شديد. ومع ذلك كان لا يزال بصحة سمحت له لإطلاق رصاصة من مسدسه ليُسكت فرسانه غير النظاميين، الذين تجمعوا في وقفة احتجاجية خارج خيمته. عندما قيل له إن المدينة أصبحت الآن في أيدي البريطانيين أجاب: «كانت أمنيتي الأخيرة أن نسترد «دلهي» قبل أن أموت، وقد تحققت.» ثم توفِّيَ بعد ثلاثة أيام ودُفن تحت شاهد رخامي مسروق خاصة لهذا الغرض من حديقة ظفر المحبوبة «ضوء القمر»، أو «مهتاب باغ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أثناء اقتحام القصر، والاحتفال بتقديم نخب للملكة «فيكتوريا»، كانت واحدة من أسوء المذابح طيلة فترة الانتفاضة تحدث في أماكن أخرى من المدينة، إذ قد يكون الخطر زال بالنسبة للبريطانيين، ولكن بالنسبة لعديد من سكان دلهي - والذين اعتقدوا أنهم نجوا سابقًا - بدأت أسو الأحداث الآن فقط؛ ففي الصباح، اجتاح البريطانيون أسوار المدينة، واستولوا على بوابتي لاهور وأجمري، وحصن جارستين. وفي الوقت نفسه قام «هودسون» وفرسانه غير النظاميين باقتياد خيولهم خارج أسوار المدينة حتى وصلوا لمخيم السيبويين الكبير خارج بوابتَيْ أجمري ودلهي، وبالتالي طُوِّقت المدينة وحوصرت أخيرًا. لم تكن تلك الأماكن مهجورة تمامًا، إذ وجدوا هناك بعض المرضى والجرحى من السيبويين، الذين لا يستطيعون المشي، فقُتِلوا في الحال بالسيف، وتُركت جثثهم مع قمامة حطام المخيم، من الذخيرة والملابس والمسروقات، والطبول والأدوات، وأواني الطهي، والتي كان قد تخلى الهاربون عنها في رحلتهم. بعد ذلك بوقت قصير، صدر الأمر بتطهير المنطقة المحيطة ببوابة دلهي، وكان «إدوارد فيبارت» أحد أولئك الذين شاركوا في المذبحة التي تَلَت ذلك. كتب إلى عمه «جوردون» في رسالة تتأرجح بين التبجح الدموي وومضات من الوعي عند إدراك أيِّ أهوال كان يرتكبها: «لقد رأيت كثيرًا من المشاهد الدموية والمروعة، وكل ما أرجوه من الله ألا أرى مرة أخرى أبدًا أحداثًا مثل تلك التي شهدتها بالأمس، بدأ كل شيء عندما صدرت الأوامر للمجموعة بإخلاء المنازل الواقعة بين بوابتي دلهي وتركمان، وهما البوابتان اللتان يتعيَّن علينا الاحتفاظ بهما. كانت الأوامر محددة بأن نقتل كل شيء يتحرك أمامنا، وأعتقد أنني - ولابد - قد رأيت حوالي ٣٠ أو ٤٠ شخصًا أعزلَ وقتلتهم على الفور، كان الأمر شنيعًا وقد أرعبني تمامًا. حتى النساء اللاتي نجت من الموت، كان صراخهن عندما رأين أزواجهن وأبناءهن يذبحون، أفظع من القتل، ربما لو كنت قتلتهن لكنت رحمتهن قليلًا.

كان استرداد المدينة وتأكيد سلطتنا أمرًا مروِّعًا، إذ تناثرت أكوام الجثث في كل مكان وفي كل بيت اقْتُحِم، وامتثل سكان البلدة المساكين العُزَّل ضحايا

لجندنا الغاضب.

عندما انتهيت قررت أن أتجول بالمدينة، ويمكنك بسهولة أن تتخيل ما المشاعر التي راودتني عندما زرت الأماكن التي اعتدت زيارتها بالماضي، ذهبت إلى جميع الأماكن التي استطعت تذكرها، وحاولت تقريبًا تخيل أن شيئًا لم يحدث؛ ولكن عندما فتحت عيني، سرعان ما تبخَّر ذلك الوهم بسبب آثار المدافع والبنادق التي سقطت في كل مكان، واشية بالكامل بالصراع الذي كان محتدمًا هنا منذ وقت ليس ببعيد. مشيت خطوات أبعد قليلًا فصادفتني كومة من الجثث في المرحلة الأخيرة من التعفُّن، وامرأة عجوز تحتضر جوعًا، عندها فقط تساءلت كيف تمكنت من الشعور بالسعادة في إراقة الدماء والحرب. تجاوزت العجوز وعلى بعد بضعة ياردات أخرى، مررت ببعض جنودنا المخمورين، ليثيروا بداخلي بعض الشفقة، التي لا تخلو من الاشمئزاز. لو تجولتَ بعيني فأينما تذهب سترى رجلًا سيء الحظ يُجَرُّ خارج مخبئه، ليُقتل بوحشية. فليعلم الله أنها ليست شفقة، ولكن عندما يجرون رجلًا شيخًا ذا لحية رمادية ويقومون بإطلاق النار عليه أمام عينيك، مستحيل أن تنظر للأمر بلا مبالاة. ومع ذلك ليست هناك طريقة أخرى لأن هؤلاء اليَئِسين السود هم من سيكفّرون بدمائهم عن قتلانا من أبناء الوطن الذين يصيحون بداخلنا جميعًا بصوت عالٍ طلبًا للانتقام، وسوف أنتقم لهم.. نعم، أنا ابنهم. نعم! لا يجب أن تعتريني الشفقة، سأنخرط في القتال، ولن أتهرب من إراقة دماء هؤلاء القتلى الملاعين أبدًا، وليمدني الله بالقوة والشجاعة.».

كانت المذبحة الأسوأ هي تلك التي تمت في منطقة «كوتشا شيلان»، حيث قُدِّر عدد القتلى في «دلهي» بـ ١٤٠٠ قتيل. حاول خلال المذبحة السيد «محمد علي خان» مقاومة النهب وقَتلَ ثلاثة جنود بريطانيين كانوا قد تسلّقوا جدار بيته ودخلوا الزنانة «بيت الحريم الخاص به». فهرب رفاقهم لطلب المساعدة من بقية الفوج، الذين عندما اكتشفوا ما حدث أحضروا مدفعًا ميدانيًّا وفجروا البيت بالكامل..

تبع ذلك مذبحة جماعية في ذلك الجزء من المدينة. بعدما ملَّ البريطانيون وحلفاؤهم من ضرب السكان بالحراب، أجبروا أربعين ناجيًا على السير إلى نهر «يامونا»، وجعلوهم يقفوا بصف واحد بجانب أسوار القلعة، وأطلقوا النار عليهم. وكان من بين القتلى بعض أمهر الشعراء والفنانين في دلهي، لأن كوتشا شيلان اشتهرت بكونها المنطقة التي تضم أكبر تجمع فكري في المدينة. كتب «ظهير دهلوي»: «كانوا أشخاصًا معروفين وميْسُورِي الحال، ومصدر فخر لمدينة دلهي.. لم يماثلهم أحد في أيامهم، ولن نرى مثلهم مرة أخرى. على سبيل المثال، كان هناك الخطّاط العظيم «ميان أمير بانجا كاش»، الذي لم يكن له مثيل على هذه الأرض. كما كان هناك أيضًا واحد من

أعظم شعرائنا الشيخ الإمام «بخش صاحبي»، وولداه، والكاتب الشهير «مير نياز علي». لقد قُتِل حوالي ألف وأربعمائة شخص بالمنطقة، بعضهم اقْتِيد إلى بوابة راج إلى جانب النهر حيث تم رميَهم بالرصاص، وألقيت الجثث كلها في النهر. مما جعل عديدًا من النساء يفقِدن عقولهن بسبب ما رأته، حتى إنهن غادرن منازلهن مع أطفالهن وقفزن جميعًا في الآبار، ولأشهر بعد ذلك، ظلت آبار «كوتشا شيلان» مكدسة بالجثث وتفوح منها رائحة نتنة.. لا أستطيع الكتابة عن هذا أكثر ووصف ما حدث تفصيلًا.».

كان أحد الناجين من المذبحة هو «قادر علي»، ابن شقيق الشاعر «صهباي» الذي عاش معه في دلهي، والذي حكى في شيخوخته قصة هروبه لمؤرخ دلهي «رشيد الخيري». قال: «بدت دلهي وقتها كأنها يوم الدينونة، وأطلق النار على السجناء بدلًا من شنقهم، ملأ الجنود بنادقهم، وتقدم نحونا ضابط مسلم قائلًا: ستموتون الآن، البنادق أمامكم والنهر من خلفكم، من يستطيعون السباحة فقط هم من سيتمكنون من القفز في النهر والهروب.. كنت أنا واحدًا من هؤلاء بصفتي سباحًا ماهرًا، لكن «مأمون صاحب» (صهباي)، وابنه الشيخ «سوز» لم يكن لديهما أدنى معرفة بالسباحة. لم أستطع أن أتحرك.. أن أنقذ حياتي وأتركهما ورائي، لكن مأمون صاحب ترجاني لأفعل ذلك، فقَفَزت في النهر وسبحت بعيدًا، وأنا أنظر إلى الوراء بين اللحظة والأخرى، وبعد أن قطعت خمسين أو ستين ياردة، سمعت طلقات الرصاص ورأيت صفًّا من الناس يسقط ميتًا!».

عُرِّض «ظهير دهلوي» لخسارة شخصية أخرى في ذلك اليوم، حيث فقد حماه - والد زوجه - الذي كان قد آوى سرًّا ثلاث نساء إنجليزيات طوال الحصار، وشعر بالثقة أن النساء ستضمن سلامته في ظروف مثل هذه، وهكذا بقي في المدينة بعدما هرب باقي أفراد الأسرة. لكنه قُتِل رميًا بالرصاص مع ابنه وخادميه من بعض الغوغاء الإنجليز بالرغم من ثقته هذه.. في تلك الليلة، بينما كان الضباط يحتفلون في البلاط بالانتصار، كان النَّهب على أشده في المدينة، وكان أحد الضباط في القصر قد أحيط علمًا بما يحدث، وهو الرائد «وليام أيرلندا». كتب: «كان جنود السيخ يحلُمون بالجواهر والكنوز التي سينهبونها من دلهي المغولية وتجعلهم أغنياء إلى الأبد، لكن الجنرال «ويلسون» قد أمر بأن ما يُنهَب من المدينة يجب أن يُوَزَّع على الجيش، وخوفًا من خيانات السيخ، وُضع الحراس على جميع البوابات، فنجح الحرس في إيقاف كل ما حاول السيخ تهريبه عبر البوابات، لكنهم لم يكونوا من النوعية التي تحبط بسهولة؛ فأعدوا العربات المحملة بالغنائم المخفية ليقودوها ليلًا حتى الأسوار، وتهريبها إلى أصدقائهم في الناحية الأخرى، كذلك اختطِفت نساءٌ وحملوهن معهم.. كان لهذا فائدة أيضًا بالنسبة للبريطانيين، فعندما شوهدت غنائم دلهي تمر عبر ولاية البنجاب، تم تصديق أخبار الاستيلاء على دلهي في

مدن المسلمين الضخمة بالشمال الغربي.. لقد كانت أحداثًا بشعة تلك التي تجري هناك، إذ أُطلق النار على كثير من المواطنين وهم يشبكون أيديهم طلبًا للرحمة، على الرغم من معرفتنا بأن معظمهم كانوا يعاملوننا بلطف، قلت لنفسي إنه يجب احترام العُزَّل والعجائز من الجنسين، خاصة أولئك الذين لم يخطئوا بحقنا قط. كما إنه تصرف لا يليق بالرجال أن يقوم ضابط بقتل شيخ يرتجف، أو أن يقوم جندي بتفجير دماغ صبي جريح، أو ضرب النساء.».

بحلول صباح يوم الحادي والعشرين، بدأت الأخبار تصل لـ«ظهير» وعائلته في المنزل الجليدي بأن جميع الموالين لبريطانيا في البلاط، الذين بقوا في المدينة، واثقين من حسن المعاملة، قد قُتلوا على يد البريطانيين. ومن بين هؤلاء كان «مير حيدر علي»، أحد الشخصيات البارزة الموالية لبريطانيا في البلاط. ومع إدراك «ظهير» أن أي شخص له علاقة بالبلاط يعتبر الآن هدفًا مشروعًا للبريطانيين، فَهم أن الوقت قد حان لأن ينفصل هو وشقيقه عن بقية أفراد الأسرة ويفرَّا إلى بر الأمان.

يحكِي: «سمعنا أن الجواسيس الذين كانوا يدعمون الإنجليز مستمرون الآن بالعمل كمخبرين، ويساعدونهم في النهب والقتل والعثور على الناس ليشنقوهم، في مقابل روبيتين لكل اسم يوشون به.. أخبر «حامد علي خان» والدتي أنه لا يشعر بالأمان بوجودي أنا وأخي في المنزل الجليدي، وطلب منهم أن يبعدونا إلى مكان أكثر أمانًا، لأن هؤلاء الناس - البريطانيين ومخبريهم - لن يتركوا أي شخص على صلة بالبلاط على قيد الحياة. فقلت لوالدي بكل احترام: هذا صحيح، يجب أن نغادر، وعليك أن تتحمل انفصالنا وتسمح لي أنا وأخي بالذهاب.. سنذهب في معية الله، ولا يجب عليك القلق عليَّ، بل أنا قلق بشكل خاص بشأن سلامة أخي لأنه كان يعمل في الجيش الملكي، لن يتركه البريطانيون أبدًا. إذا شاء الله أن يبقينا أحياء، سنعود ونجدكم.

ثم أخذت بعض القطع الفضية الرفيعة ووضعتها في حذائي، بين الجزء العلوي وقاعدته، ووضعت قطعتين في ثنية ملابسي، وربطت دوباتا «شالًا هنديًّا» حول خصري، وأخذت عصا في كفي. أخَذَت زوجي (التي كانت خجولة جدًّا) تبكي بهدوء، إذ كانت قد فقدت للتو والدها وشقيقها، والآن ها هو زوجها يذهب أيضًا.. لقد فقدت كل حياتها التي كانت تعرفها فجأة، وبينما كنت بصدد المغادرة، همست في أذنها أنها الآن في رعاية الله، وأنني إذا نجوت، فسأعود من أجلها، لكن إذا قُتلتُ فلتغفر لي! وعلى صوت دعوات عائلتي خرجت في اتجاه ضريح «خواجة صاحب» [في مهرولي].»

كان «ظهير» قد قطع بالكاد أكثر من نصف ميل عندما رأى فرقة من سلاح الفرسان قادمة نحوهما. «عند وصولهم إلينا أحاطوا بنا وقالوا إنهم يريدون

رؤية ما كنا نحمله، لم يعثروا على أي شيء، لكن أحدهم قام بانتزاع عمامتي وأخذها لنفسه، فقمت بربط الشال الهندي حول رأسي، بعد ذلك بقليل رآه قاطع طريق آخر، وانتزعه لنفسه أيضًا.. كانت بداية مشئومة وواضحة لما يمكن أن يكون حياة بدوية بالكامل على مدى السنوات الخمس المقبلة، نتجول في أروقة شمال الهند، مختبئين ومتجنبين الدوريات البريطانية.».

على الرغم من أن «ظهير» عاد عدَّة مرات إلى «دلهي»، إلا إنه لم يتمكن من العودة إلى بيته وعائلته مرة أخرى، واستطاع البقاء على قيد الحياة عن طريق تبديل الخيول، والسفر من بلاط إلى آخر، حيث منحته مهاراته في الخط والشعر الأوردي على الأقل بعض الطعام والمأوى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ليلة العشرين، توقف الجنرال «بخت خان» عند قبر «همايون» وحاول إقناع ظفر بمرافقته إلى «لكناو»، حيث كان ينوي مواصلة المقاومة. ومرة أخرى كان الحكيم «إحسان الله خان» هو الذي أقنع ظفر بالبقاء: قال «تذكَّر أنك الملك، ليس من المناسب لمركزك أن ترحل وتتبع هؤلاء المجانين. تمرد جيش الإنجليز من السيبويين ضد قادتهم، وقاتلوهم. ما علاقة سموك بهم؟ تحلَّ بالشجاعة، ولن يعتبرك الإنجليز مذنبًا». وبهذه الكلمات منع الحكيم الملك من مرافقة الجيش في هروبه. وفي تلك الأثناء، قام «ميرزا إله بخش» المخادع بإقناع «ميرزا مغول» بالبقاء هو الآخر وعدم الهروب. في تلك الليلة توجه «ميرزا إله بخش» إلى دلهي وأخبر «هودسون» عن مكان «ظفر» و«ميرزا مغول»، ربما بتحريض من «زينَّت محل» والحكيم «إحسان الله خان». كما أبلغ «هودسون» بأن «ظفر» كان معه بعض كنوز الدولة، وعلى الفور ذهب «هودسون» لرؤية «ويلسون» وطلب الإذن بالذهاب والقبض على «ظفر»، مجادلًا بأن «لن يكتمل النصر إذا سُمِح للملك وأقاربه من الذكور أن يبقوا طليقين»، رفض «ويلسون» في البداية بحجة أن الموضوع خطِر للغاية، لكن تحت ضغط من «هودسون» و«نيفيل تشامبرلين»، سمح لـ«هودسون» بالذهاب إذا أخذ رجاله فقط ولم يحتَج إلى قوة كبيرة، مضيفًا أنه لا يريد إزعاجًا منهما؛ إذا أراد «هودسون» الذهاب، فيمكنه القيام بذلك على مسئوليته الخاصة، ولكن سيضطر إلى إدارة العمل بالكامل بنفسه دون أي تدخل من «ويلسون» أو بقية قواته. في صباح يوم الحادي والعشرين من سبتمبر، أعلنت تحية ملكية عند شروق الشمس أن «دلهي» قد عادت مرة أخرى تابعة للتاج البريطاني. لكن المدينة التي استُولي عليها - العاصمة القديمة لهندوستان، عاصمة المغول العظيمة - صارت مُقفرة الآن كمدينة الموتى، باستثناء مجموعات اللصوص البريطانيين السكارى. كان اليوم الأول لاسترداد الحكم وعودة الهيمنة البريطانية غريبًا، وفقًا للرائد «وليام أيرلندا»، والذي كان من أشد المنتقدين لوحشية زملائه طيلة الحملة: «كانت المدينة

«المحررة» مرعبة، يعمها الخراب ومآسي الحرب، باستثناء المنازل التي تم إيواء الجنود فيها، ساد الصمت في بقية المنازل المهجورة. لم يكن هناك تجار جالسين في الأسواق، ولم تعد صفوف الإبل أو عربات الثيران تمر من خلال البوابة؛ لا مارة في الطرق، ولا رجال يتبادلون الحديث على أبواب البيوت.. لم يعد هناك أطفال يلعبون وسط التراب، ولا أصوات نسائية تتصاعد من خلف النوافذ. كما تناثرت قطع الأثاث المنزلي من جميع الأنواع في الشوارع، وما زاد من حزن المشهد كان آثار السكان الهاربين أو المقتولين، حيث كان الرماد لا يزال أسود في المواقد، والحيوانات الأليفة تتجول صعودًا وهبوطًا في جميع الاتجاهات بحثًا عن أصحابهم الذين اختفوا فجأة. والمنازل هنا وهناك خَرِبة ومحترقة أو محطمة بطلقات المدفع، وتناثرت شظايا القذائف والجثث المتعفنة التي أكل نصفها الغربان وأبناء آوى. كان التجار الذين قد تمسكوا بحوانيتهم حتى النهاية في أثناء التمرد، لم يطردهم إلا القصف والحكايات المتداولة عن أفعال ».

ووفقًا أيضًا للملازم «إدوارد أوماني»، والذي كان من المرشدين، وهو عالم أوردو وفارسي، كان مذعورًا مما رآه عندما أشرقت الشمس. كتب: «المدينة كلها خالية من السكان.. لا يرى المرء إلا عجائز في الستينيات من عمرهم، من الرجال والنساء، بين الحين والآخر، يسيرون بطول الشارع إلى إحدى البوابات لمغادرة المكان؛ باستثناء هذا، لا ترى أحدًا من السيبويين أو سكان المدينة.. فقط رجالنا في البيوت الفارغة من سكانها، ينهبون محتوياتها، فقط.. من بين ١٥٠،٠٠٠ نسمة، كانوا كلهم قد غادروا تقريبًا، حتى عندما غزا «نادر شاه» المدينة، لم يحدث مثل هذا.»

بعد ذلك بوقت قصير، رافق «وليام هودسون» «ميرزا إله بخش» و«كبير مخبريه» الشيخ رجب علي، ومجموعة صغيرة من المرافقين من سلاح الفرسان غير النظامي البنجابي، وانطلقوا من القلعة باتجاه ضريح «همايون» مع مجموعة أخرى من سلاح الفرسان، حوالي خمسين فردًا، كانت رحلة تملأ «هودسون» بالأمل في أن تساعده على استعادة سمعته في الجيش، وأن تخَلِّد اسمه في كتب التاريخ للأبد. كل شيء قد رُتِّب الآن، وحان الوقت لاعتقال الرجل الذي كان كثير من البريطانيين مقتنعين بأنه هو سبب التمرد كله، العنكبوت القابع في منتصف الشبكة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مدينة الموتى

بدأت خطة «هودسون» للقبض على الملك بداية مشئومة؛ فمع اقتراب الشيخ «رجب علي» و«ميرزا إله بخش» من ضريح «همايون»، تعرضوا لكمين من قبل مجموعة من المجاهدين وأصيب أربعة من مرافقيهم من الفرسان بجروح بالغة، ففرَّا هاربين سريعًا وعائدين نحو دلهي، لكن «هودسون» التقاهم بعد مسافة قصيرة وقام بإقناعهم بمتابعة مهمتهم، لأن الهجوم بدا وكأنه من فعل متعصبين وليس من حاشية الملك. وعند وصولهم اختبأ «هودسون» وسط بعض الأنقاض، بعيدًا عن أنظار الواقفين عند بوابة الضريح، وأرسل مفاوضيه - المتوترين بشكل واضح– «رجب علي» و«إله بخش». وقد صاحبتهما حراسة مسلحة صغيرة من خمسة عشر رجلًا من فرسان «هودسون»، بقيادة السيخ راسيلدار (قائد سلاح الفرسان) سيردار «مان سينغ». أولى «هودسون» مهمة قيادة المفاوضات إلى «رجب علي»، وكان على «رجب علي» أن يمرَّ عبر حشد كبير من اللاجئين المتوترين، والشاهزادا (الأمراء)، ورجال الحاشية، والجهاديين الذين كانوا قد احتموا داخل جدران الضريح، وعندما وصل إلى «ظفر» أخيرًا، نقل إليه المفاوضات وأخبره أنه إذا خرج بهدوء وسلَّم نفسه، فسيحرص «هودسون» على التأكد من سلامته، ولكن إذا غامر بمغادرة الضريح، فقد كان لديه أمر بإطلاق النار عليه وعلى الحاضرين بلا رحمة.

لساعتين محطمتين للأعصاب لم يحدث شيء، حتى إن «هودسون» كان على وشك افتراض أن مبعوثيه قد قُتلا، كتب: «لكن وبعد تأخير طويل، جاء «مان سينغ» ليعلمني بأن الملك قادم. وبعدها، ظهر «ميرزا إله بخش» و«رجب علي»، يرافقان محفة الملك، تتبعهم عن قرب محفة سيدة القصر - يرافقها ابنها ميرزا جيوان بخت ووالدها ميرزا قولي خان - مع مرافقيهم ومجموعة من الهاربين من القصر والمدينة. توقفت المحفتان وأُرسِلت لي رسالة بأن الملك راغب في أن يسمع مني مباشرة أننا سنُبقي على حياته. فذهبت إليه، واغتنمت الفرصة لإدخال رجالي بين حزب الملك المباشر والحشد التابع الذي يتحرك خلفهم، والذين بدوا شديدي التهديد لنا.. ترجَّلت للحظة وطمأنت الملك والسيدة (كلاهما كانَا شديدَا الاضطراب والخوف بشكل واضح) بالوعد بالإبقاء على حياتهما، شريطة عدم القيام بأيَّة محاولة للهرب أو الانقلاب.».

بالإضافة إلي ضمان حياته، وعد «هودسون» الملك بأنه له يكون عرضة للعار بأي شكل، أو يتعرض لأيَّة إهانة شخصية. «ثم أعلنت كلامي مرة أخرى بنبرة عالية بما يكفي ليسمعها الحشد، مضيفًا أمرًا لرجالي بإطلاق النار على أي شخص يحاول التحرك ضد بنود الاتفاقية. ثم طلبت من «إله بخش» والشيخ «رجب» المُضِيَّ قدمًا مع المحفتين ليكونا بعيدين بمسافة كافية عن الحشد

من خلفهم». بالنسبة لـ«هودسون»، بدا أن الرحلة نحو دلهي قد استغرقت وقتًا طويلًا للغاية. كما قال لأحد زملائه: «بطء وتيرة حركة حاملي المحفات، وتبديلهم المستمر للكتف الذي يحملون عليه، والحشد المتحرك خلف الملك، كل هذا أبقى الجو متوترًا بشدة. لكن المتمردين وجنود الملك اقتربوا إلى محفة الملك، دون أن يقوموا بأيَّة محاولة لإنقاذه، ومع اقتراب المجموعة من أسوار المدينة، قلَّت كثافة حشود المتطرفين ببطء، حتى إننا عندما وصلوا إلى بوابة لاهور، وجدت جنودي وحدهم مع أسراهم.».

سأل الحارس عند البوابة «هودسون» عمَّن يركب على المحفة، وهو السؤال الذي رد عليه بـ«ملك دلهي». ثم مرُّوا بمنطقة «تشاندني تشوك»، ودخلوا القلعة، أي عاد «ظفر» إلى قصر أجداده، لكنه لم يعد الإمبراطور، بل صار الآن أسيرًا. توقفوا جميعًا فجأة عما كانوا يفعلونه لمشاهدته.. وصف جرَّاح بريطاني الموقف بقوله: «رجل كبير ارتسم القلق على وجهه النحيف، بينما هم يحملونه ويمرون عبر جنبات قصره المنهوب.. لم تُظهر معالم وجهه أي شيء، وكأنما قام شخص ما بمحْوِها». سلَّم «هودسون «غنيمته «لتشارلز سوندرز»، خليفة «هيرفي جريثيد» رئيسًا للإدارة المدنية في دلهي، ثم ذهب لإبلاغ الجنرال «ويلسون». ولدهشة وخيبة أمل «هودسون»، لم يبدُ «ويلسون» مسرورًا بخبر أسْر الملك.. كان كل ما قاله وفقًا لـ«فريد مايسي» الذي كان أيضًا في الغرفة في ذلك الوقت: «حسنًا، أنا سعيد لأنك عثرت عليه.. لم أتوقع أن أرى أيًّا منكما مرة أخرى». يُكمل مايسي: «كان الجنرال الشيخ في الواقع يشعر بغضب هائل من إحضار الملك حيًّا.. بدا لي أن ذلك لم يكن موضع ترحيب منه، مما جعلني أشك طوال الوقت في تأكيد «هودسون» المستمر للملك بأن الجنرال «ويلسون» موافق على ضمان حياته.» في وقت لاحق نفى الجنرال «ويلسون» بشدة أن يكون قد فعل ذلك، وهناك سبب لتصديقه، لأن السلطات المدنية والعسكرية في دلهي كان تلقَّت تعليمات صارمة ومحددة من «كانينج» في «كالكوتا» بعدم تقديم أيَّة اتفاقيات للمغول باستثناء الاستسلام غير المشروط.

بعد ظهر ذلك اليوم، نُقِل ظفر إلى بيت «زينَّت محل» في «لال كوان»، حيث، كأنما لم تكن معاناته كافية، تم وضع «كيندال كوجيل» العدواني القبيح المظهر حارسًا له.. كتب «كوجيل» إلى أخيه في اليوم التالي:

«شعرت بالرضا لاستقبال ملك الهندوستان سجينًا، وعلى الفور شددت الحراسة عليه، ربما لم يكن تصرفًا رجوليًّا مني، ولكنني لم أستطع منع نفسي من مناداته بالخنزير والشتائم الأخرى المماثلة، وكنت على استعداد أن أطلق النار عليه فورًا إذا فكَّر فقط في النظر لأعلى، وأعطيت الحرَّاس أوامرَ بأنه إذا حاول أن يهرب، أن يطلقوا النار عليه.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي، قام «هودسون» بإقناع «ويلسون» بإرسال رحلة استكشافية ثانية إلى ضريح «همايون»، هذه المرة كان الهدف هو القبض على «ميرزا مغول»، و«ميرزا خضر سلطان»، و«ميرزا أبو بكر»، الأمراء الثلاثة الذين قادوا القوات المغولية خلال الانتفاضة، والذين تم تأكيد وجودهم في الضريح الآن من قِبَل «ميرزا إله بخش». كما حدث من قبل، اشترط «ويلسون» ألا يزعجه السجناء بطلباتهم، ولأنه لم تتم مناقشة أي ضمانات للإبقاء على حياة الأمراء، كان «هودسون» مستعدًّا لتنفيذ الأوامر بحذافيرها، فانطلق بصحبة مائة فارسٍ على خيولهم في الثامنة صباحًا، يرافقهم كما في المرة السابقة مفاوضَاه الشيخ «رجب علي» و«ميرزا إله بخش». مرة أخرى، توقف «هودسون» ونائباه البريطانيَّان خارج المدخل إلى مُجمَّع الضريح، وأرسلوا الهنديين للتفاوض. حسب أقوال الملازم «ماكدويل»، الوحيد الذي حكى ما حدث: «أرسلناهما ليخبرا الأمراء بوجوب تسليم أنفسهم دون قيد أو شرط، أو يتحملوا النتيجة. ومرَّت نصف ساعة طويلة، حتى خرج رسول ليقول إن الأمراء يرغبون في معرفة ما إذا كانوا سيبقون على حياتهم إذا خرجوا، وكان «الاستسلام غير المشروط» هو الجواب. فكان علينا الانتظار مرة أخرى.. وغمرنا القلق، إذ لم نجرُؤْ على أخذهم بالقوة، فلو فَعَلنا ذلك سيضيع كل شيء، لكن الانتظار جعلنا نشُكُّ في قدومهم. وفجأة سمِعنا صراخَ المجاهدين المتعصبين يتوسلون للأمراء ليقودوهم ضدَّنا حتى يقتلونا، كنا مائة رجل فقط وعلى بعد ستة أميال من دلهي. وكانوا حوالي ثلاثة آلاف من المسلمين [في حديقة الضريح المسورة]. بينما في ضاحية قريبة تُدعى «نظام الدين»، كان يوجد حوالي ثلاثة آلاف آخرين، كلهم مسلحون، لذلك كان الموقف خطِرًا جدًّا، لكن باختصار، عرف الأمراء أنه سيُقبَض عليهم عاجلًا أم آجلًا، فعقدوا العزم على تسليم أنفسهم دون قيد أو شرط، وهم يتوهَّمون - فيما أظن - أننا كما أبقينا على حياة الملك، فإننا سنبقي على حياتهم كذلك. لذا أرسلوا رسولًا لينبئنا أنهم قادمون، فأرسلنا عشرة رجال للقائهم، وبأوامر من «هودسون»، قُمْت بوضع القوات على الجانب الآخر من الطريق، على استعداد لاستقبالهم وإطلاق النار عليهم في الحال إذا تمت أيَّة محاولة انقلاب منهم. ثم سرعان ما ظهروا في عربة صغيرة تجرها الثيران، مع خمسة جنود على كل جانب. خلفهم احتشد حوالي ألفي أو ثلاثة آلاف مسلم بلا مبالغة، التقينا بهم وانضممنا إليهم أنا و«هودسون» على الفور، تاركين رجالنا خلفنا. عندما تلاقينا انحنوا في تحية، وانحنى «هودسون» بالمثل، وأمر السائق أن يمضي قُدُمًا، وأن يصطحب الفرسان الأمراء معهم على الطريق بينما تتجمع قواتنا بين الحشد وبين الأمراء لفصلهما عن بعضهما بعضًا، وفي البداية حاول الحشد المرور ببطء بين رجالنا لكنهم لم ينجحوا في الوصول إلى رجال البِلاط، مما أجبرهم على العودة إلى حديقة الضَّريح، فتبعناهم - «هودسون»

وأنا (التصقت به طوال الوقت) - مع أربعة رجال، وصعدنا الدَّرج، ومررنا عبر القنطرة، ثم أمر «هودسون» الحاشية بإلقاء أسلحتهم.. ولم يفعلوا إلا بعدما كرر الأمر.

كلُّ ما أردناه هو كسب الوقت لإبعادهم عن الأمراء، فلم يكن بوسعنا فعل أي شيء لو أنهم هاجمونا بأمر منهم، وبقينا هناك حوالي ساعتين نجمع أسلحتهم، وأؤكد لكم أنني شعرت في كل لحظة أنهم سينقضُّون علينا، لكنني لم أقل شيئًا، وظللت أدخِّن طوال الوقت لأظهر أنني غير مهتمٍ؛ ولكن في النهاية، عندما تم كل شيء، وتم وضع الأسلحة كلها في عربة، التفت «هودسون» نحوي وقال: «سنذهب الآن.» توجهنا إلى الخارج ببطء، وشكَّلنا القوات، وغادرنا بحذر، يتبعنا الحشد. عندما ابتعدنا بمسافة ميل واحد، التفت «هودسون» نحوي وقال: «حسنًا يا «ماكدويل»، لقد تم الأمر أخيرًا»؛ وتنفس كلانا الصعداء بارتياح.».

ما حدث بعد ذلك محل خِلاف. وفقًا لـ«هودسون»: «عندما لحقنا أخيرًا بالأمراء، على بعد ثلاثة أميال، بالقرب من أسوار دلهي، وبالقرب من الممر المعروف بعد ذلك باسم «خوني داروزة»، أو «بوابة الدم»، اقترب حشد كبير من الأمراء بشكل مريب، وبدا أنهم على وشك إنقاذهم.» وفقًا لروايات أخرى، بما في ذلك رواية «ماكدويل» نفسه: «كان الأمر لا يتعدى حشدًا صغيرًا ولم يكن يمثِّل بأي شكل من الأشكال تهديدًا»، لكن وإن اختلفت الروايات في السبب، فليس هناك شك فيما فعله «هودسون» بعد ذلك. قام بإيقاف العربة وأمر الأمراء الثلاثة بالخروج والتجرد من ملابسهم. ثم أخذ مسدسًا، وأطلق عليهم النار بدم بارد الواحد تلو الآخر. ثم جرَّد الجثث من خواتمهم وأساورهم الفيروزية، والتي وضعها في جيبه، وقام بالاستيلاء على السيوف المرصعة بالجواهر. في اليوم التالي كتب «هودسون» إلى أخته قائلًا إنه على الرغم من كونه مُنهكًا بسبب مجهوداته المختلفة، إلا أنه: «لا يسعني إلا أن أكون سعيدًا بالتهاني الحارة التي تلقيتها من جميع الجهات على نجاحي في تدمير أعداء بلادنا. ستفرح أمتنا كلها.. لست قاسيًا، لكنني أعترف أنني استمتعت بفرصة تخليص الأرض من هؤلاء اليَئِسين.».

تم أخذ الجثث بعيدًا وتركها عارية أمام «مقر الشرطة»، حيث اصطفت القوات البريطانية لرؤيتهم. كتب «فريد مايسي»: «رأيتهم هناك ممددين بشكل مُهين وقاسٍ، ويجب أن أعترف أنني مسرور برؤيتهم هكذا، فلم يكن هناك ثمة شك في ذنبهم، وأعتقد حقًّا أن الملك كان، إلى حد كبير، دمية في أيديهم.» كما أشاد «تشارلز جريفيث» بـ«هودسون» «لتخليص العالم من هؤلاء الأوغاد، افتخر به الجيش البريطاني في دلهي بالكامل.. رأيت الجثث بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، ولم أشعر أنا أو غيري بأيَّة شفقة على اليائسين

الذين سقطوا جزاءً عادلًا على جرائِمهم، كان أكبرهم «ميرزا مغول» رجلًا قويًّا متماسكًا في مقتبل العمر، الثاني «ميرزا خضر سلطان» كان أصغر منه إلى حد ما، والثالث «ميرزا أبو بكر» شابًّا هادئًا لا يزيد عمره عن عشرين سنة. كان لدى الأمراء ثقبان صغيران من الرصاص فوق منطقة القلب، وقد تلطخ اللحم ببقايا البارود، لأن الطلقات أُطلقت عن قرب.. وبقِيَت الجثث ملقاة أرضًا لثلاثة أيام، ثم دُفِنوا في قبور مهينة.».

كان موقف «مايسي» و«جريفيث» هو السائد بين البريطانيين في دلهي؛ إذ على الرغم من وجود سلسلة كاملة من التُّهم التي وُجِّهت إلى «هودسون»، فلم يكن من بين هذه التهم قسوته في إطلاق النار على الأمراء، بل رأفته في افتراض قدرته على ضمان حياة ظفر والمفاوضة على ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طوال فترة الصباح، وبينما كان «هودسون» مشغولًا في ضريح «همايون»، كان الجنود البريطانيون الفضوليون يذهبون في مجموعات للفرجة على الملك الأسير، الذي جلس يئِسًا في بيت زوجه «مثل وحش في قفص»، بحسب قول أحد الضباط المدعو «هيو تشيتشيستر» والذي كتب إلى والده: «رأيت الخنزير (الملك)، كان رجلًا طاعنًا في السن، يشبه الخدم الكِبار، وكان الناس قديمًا يخلعون أحذيتهم في حضرته لكننا لم نعد نفعل ذلك الآن.».

ضباط آخرون كتبوا إلى الدِّيار ليصفوا كيف عاملوا الملك بقدر كبير من عدم الاحترام والإذلال، حيث أجبروه على الوقوف وأداء التحية لهم، وتفاخر أحدهم بأنه قد شدَّ الملك من لحيته. ومن بين زوار «ظفر» ليلة الثاني والعشرين، كان المفوض المدني الجديد «تشارلز سوندرز» وزوجه «ماتيلدا» اللذان نقلا له نبأ قتل اثنين من أبنائه وأحد أحفاده. كان «تشارلز جريفيث» واحدًا من الحراس الموجودين، كتب: «كان ظفر يجلس القرفصاء على فراش وُضِع فوق مصطبة متواضعة، في شرفة الفناء، ممثلًا آخر ملوك سلالة المغول الكبرى.. لم يكن هناك شيء مهيب في مظهره، باستثناء اللحية البيضاء الطويلة التي وصلت إلى بطنه. كان متوسِّط الطول، تعدى عمره السبعين عامًا، ويرتدي ملابسَ بيضاء وعمامة مخروطية الشكل من اللون والمادة نفسهما، وفي ظهره وقف اثنان من المرافقين يلوحان فوق رأسه بمروحتين كبيرتين من ريش الطاووس، كإشارة على سيادته وعلو مكانته! وهو ما بدا متناقِضًا مع وضعه بعد ما حُرِم من صِفاته الملكية، وصار أسيرًا في أيدي أعدائه. لم ينبَس ببنت شفَة؛ بل جلس في صمت طوال اليوم ينظر للأرض، وكأنه غافل تمامًا عمَّا يدور حوله، وعلى فراش آخر، على بعد ثلاثة أقدام من الملك، جلس الضابط الذي يقوم بالحراسة، بينما وقف اثنان من الحُرَّاس الأوروبيين أقوياء البنية على كلا الجانبين، وقد ثبَّتا حرابهما ليتصرفا فورًا عند

أيَّة محاولة إنقاذ تحدُث، فيما كان على الضابط إطلاق النار على الملك على الفور إن بدر منه أي شيء.».

عندما أُبلغ «ظفر» بوفاة الأمراء الثلاثة، شعر بالصدمة الشديدة والاكتئاب حتى إنه لم يكن قادرًا على الرد. لكن وفقًا لـ«ماتيلدا سوندرز»: «شعرت «زينَّت محل» بسعادة غامرة عندما سمعت الخبر من وراء الستار المعلق في الغرفة الصغيرة التي تجلس فيها؛ ابتهجت بوفاة أكبر أبناء الملك، لأن ابنها - ميرزا جيوان بخت - بتلك الطريقة صار لديه فرصة لتولي العرش. لكن مع الأسف، ابنها لن يجد عرشًا يعتليه، وهذا ما كانت ستكتشفه تلك المرأة المسكينة المخدوعة قريبًا.».

ثم ذهبت «ماتيلدا سوندرز» إلى «تاج محل» التي كانت محتجزة في غرفة منفصلة عن منافستها اللدودة، كتبت «ماتيلدا»: «ذهبنا لرؤية إحدى زوجاته الأخريات، كانت جميلة جدًّا تُدعى «تاج»، وكانت في حالة يائسة وحزينة للغاية ترتدي حجابَ المسلمات الأسود الذي يغطي الرأس والكتفين، وقد ماتت والدتها وشقيقها من الكوليرا في أثناء الهجوم البريطاني، ولم تعد الزوجة المفضلة لدى الملك، إذ تسببت غيرة «زينَّت محل» الشديدة منها في دخولها السجن لمدة ٣ سنوات.

عندما كنت أوشكت على المغادرة، ناداني الملك وأخبرني أنه يأمل في أن يراني مرة أخرى، وأن أعمل رسولَ سلام بينه وبين «تشارلي» العزيز. أجبت «لا، لن أفعل ذلك أبدًا!» قلتها بشكل قاطع، وكررتها مرتين بالهندية والإنجليزية لأتأكد من أن الشيخ اليائس قد فهمني تمامًا. ثم تحدَّثت إلى حرسه الموجودين خارجًا، بينما كان «تشارلز» يعاون السيدة «جرانت» على ركوب الفيل، وطلبت منهم أن يحافظوا على الملك سالمًا فلا يدعوه يهرب. أجابوني: «أوه، لا تقلقي يا سيدتي.. ليس هناك خوف من ذلك، نحن متمسكون به جدًّا!» فابتعدتُ متمنية لهم يومًا طيبًا.».

في المساء نفسه، رأى الضابط الشاب «هنري أوفري» جثث الأمراء التي ترقد عارية أمام مركز الشرطة، كتب في مذكراته أن هذه كانت بداية أعمال القصاص التي خطط البريطانيون لها منذ فترة طويلة: «على الرغم من أنني اكتفيت من كل تلك الدماء التي سُفكت، لكن ليس لدي شكٌّ في مدى حتمية قتل كثيرين منهم قبل أن نقول إننا أنهينا مهمتنا على أكمل وجه.». ولم يمر كثيرٌ من الوقت قبل أن تتحقق نبوءته، حيث نُصبت المشانق في جميع أنحاء المدينة المدمرة.. كتب أحد سكان دلهي: «يقال إنه لا يوجد حي من أحياء دلهي يخلو من عمليات بناء المشانق، وكان أكبرها الذي في وسط منطقة «تشاندني تشوك»، بناءً بشِعًا من الخشب، يزيد من بشاعته كونه البناء الوحيد وسط المنطقة المحطمة.» كما لاحظ الملازم «إدوارد أوماني» في

أثناء تمشيته في منطقة «تشاندني تشوك» بعد ذلك بوقت قصير، ما ذكره عَرَضًا في مذكراته، أنه رأى «تسعة عشر رجلًا مشنوقين أمام مركز الشرطة على مشنقة واحدة، وتسعة على مشنقة أخرى.».

امتلأت نفْس «أوماني» بالتقزز لرؤية ذلك، وكأن أيام باريس خلال الثورة الفرنسية قد عادت، تجمَّعت أعداد كبيرة من الضباط لمشاهدة عمليات الإعدام. كتب في مذكراته في تلك الليلة أن: «ازدحمت منطقة «تشاندني تشوك» بالضباط والأوروبيين. كم تبدو زائلة هذه الحياة! عندما ترى كيف يموت الإنسان بهذه السرعة، هي لحظات فقط وينفصل الجسد المتحرك عن الروح التي تذهب للمثول أمام خالقها، ومن المرعب أيضًا رؤية الحشد المتجمهر للمشاهدة، ومحاولة التفكير في تباين شعورهم أو تفهمهم لما يحدث أمام أعينهم.».

وأشار أيضًا إلى أنه «كان هناك اتفاقٌ أن يكون الحبل قصيرًا جدًّا، وهو ما يعني ضِمنًا موتًا بطيئًا وطويلًا بالاختناق؛ بينما الحبل الطويل من شأنه أن يكسر العنق ويؤدي إلى الموت الفوري.»، كان المشاهدون الآخرون صريحين بابتهاج أن الحبل القصير هو استراتيجية متعمدة لإطالة أمد وفاة الضحية وتعذيبها. وفقًا لأحد المصادر، فقد تمت رشوة الجلادين من قِبَل حشود الجنود البريطانيين الواقفين بالقرب، يدخنون السجائر، ليتأكدوا من أن الجلادين يبقون ضحاياهم يحتضرون لفترة طويلة الوقت؛ لأنهم أحبوا أن يروا المجرمين يرقصون «رقصة الموت»، كما أطلقوا على صراع اليَئِسِين المحتضرين، وقام عميد واحد بمفرده بالأمر بإعدام نحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ يئِس بالحبل القصير، قبل الاستقالة من منصبه.

بعض الجلادين الآخرين جرَّبوا أساليب أكثر تعذيبًا في إعدام ضحاياهم، وقد بدأت هذه الأنباء تشعر اللورد «كانينج» في «كالكوتا» بالقلق. وفي الخامس والعشرين من سبتمبر كتب إلى الملكة «فيكتوريا» عن الحقد العنيف داخل نسبة كبيرة جدًّا من المجتمع الإنجليزي ضد كل ما هو هندي: «هناك انتقام مسعور وعشوائي يحدث، حتى من جانب كثيرين ممن يجب عليهم أن يكونوا قُدوة أفضل لمن حولهم، ولم يبدُ أن أيهم يعتقد أن شنق وإطلاق النار على ٤٠ أو ٥٠ ألفًا من المتمردين يمكن أن يكون تصرفًا خاطئًا! كما لم يُشنق كل السجناء في دلهي؛ بل أُعدِم كثير منهم رميًا بالرَّصاص» وهو ما أكده «هيو شيشيستر»: «لم نقم بشيء سوى إطلاق النار على هؤلاء الأشرار في الأيام الثلاثة الماضية، وقد قُدِّر عدد المعدومين بالرصاص حوالي من ثلاثمائة إلى أربعمائة رجل بالأمس فقط» مشيرا إلى أنه ربما سُمِح لبعض الأولاد الصغار الذين صادفهم البريطانيون بالمرور بحرية من بوابات المدينة، لكن معظمهم قد تقررت عليه عقوبة الإعدام! وفقًا للرائد «وليام أيرلندا»: «سُلِّم المجرمون

الذين قُبِض عليهم إلى لجنة عسكرية لتتم محاكمتهم، فتم الأمر بسرعة وكانت العقوبة الموحدة هي الإعدام، وكأن السادة القضاة الأفاضل ليسوا في حالة مزاجية للتساهل..».

لم تكن الرغبة في إراقة الدماء والانتقام هي الدافع الوحيد وراء هذه المذبحة الجماعية المروعة، بل كان هناك أيضًا الجشع، حيث كان يُدفع روبيتين للمخبرين لدى كل عملية اعتقال، ويسمح أيضًا للآسرين بالاحتفاظ بكل الأموال والذهب التي يجدونها عند الأسرى المتمردين. كل هذا دُوِّن في صحيفة «دلهي جازيت إكسترا» بواسطة «جورج واجنتريبير»، الذي عاد من لاهور بعد سقوط المدينة لتغطية أعمال القصاص التي تطلع إليها منذ فترة طويلة.. كتب بعد وقت قصير من عودته: «أنا سعيد بأن الإعدام هو أكثر الأنشطة انتشارًا هنا، كل صباح يُحضَر ستة أو ثمانية متمردين من القرى المجاورة ومن ثَمَ إعدامهم، ومن بينهم الفرسان الذين هاجموا «تشاندني تشوك» من قبل، لكن كم تغيروا! فبالكاد يمكنك التعرف إلى ملامحهم، التي لا تتلاءم مع سكان مدينة القصور - دلهي - بعد الآن».

أبقت الإصدارات اللاحقة من الصحيفة قراء «واجنتريبير» على اطِّلاع دائم بالمذبحة المستمرة، كما كتب أحد محرري الصحيفة بعد عدوته بأسبوعين: «شُنق أربعة عشر متمردًا أمام مركز الشرطة صباح أمس، بالإضافة إلى مزيد هذا الصباح.». لكن يبدو أن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لـ«واجنتريبير» الذي هاجم أحد الضباط بسبب ضعفه وتساهله كتب: «لدينا في دلهي رجل طيب القلب وشديد اللطف، لدرجة أنه بالرغم من انتشار روح الانتقام من ملك دلهي وكل ذريته بسبب قسوتهم الوحشية وهمجيتهم، فإنه يشعر بالشفقة على الابن البريء وريث العرش، الشاب الصغير البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا [ميرزا جيوان بخت]، وفي خضم مشاعره هذه، فإنه يحاول الحد من الإهانات التي يتعرض لها القنفذ الصغير، ولا يقترب أبدًا من السجين الملكي بدون التبجيل الكافي! ليس هناك رجل قوي بحق سوى «ثيوفيلوس ميتكالف»، فـ«ميتكالف» هو الوحيد الذي كان يقوم بأعمال القصاص والإعدام على أكمل وجه، وبتعليمات السير «ثيوفيلوس»، انتصرنا على أولئك الأوغاد، إما عن طريق تهجيرهم من المدينة، وإما سجنهم أو - بالطريقة المفضلة لدي - إعدامهم.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يوم الأحد الموافق ٢٧ سبتمبر، أقام الأب «روتون» صلاة شكر خاصة في البلاط الملكي. ووعظ «روتون» مقتبسًا من الإنجيل: «مَاذَا أَرُدُّ لِلرَّبِّ مِنْ أَجْلِ كُلِّ حَسَنَاتِهِ لِي؟» كانت تلك العظة تمثل للأب روتون، الشكر على الخلاص من الشر على يد الخير، كتب: «ليس هناك ما هو أكثر إثارة للإعجاب من هذا

التجمع، وانتصار القوة المسيحية على الرغم من صغر عددها ودخولنا هذا القصر الإمبراطوري الأثري في العاصمة الهندوستانية المسلمة، نجوب في الأركان الأربعة لتلك القاعة الرخامية التي احتضنت منذ وقت قصير اجتماعات الملك ومستشاريه للتآمر والتخطيط ضد بريطانيا العظمى! انظروا كيف انقلب الحال، وكيف انهزم أولئك الأشرار وتم إحباط أغراضهم الخبيثة تمامًا، وكيف يقف الجيش المنتصر - جيش الرب لتحقيق الغايات الكريمة - بإخلاص، يحيطنا حضوره الإلهي من كل جانب، فلنسبح للرب ملك المجد والكرامة والقوة والسلطان.». اقتبست واحدة من النساء القلائل الحاضرات، السيدة «كوبلاند»، نظرة «روتون» للأحداث وكتبت: «في هذه القاعة الرائعة، التي احتضنت بالماضي أوامر ومؤامرات الإمبراطور المستبد، الذي امتلك القوة الوحيدة لمنح الحياة وانتزاعها من ملايين العبيد الخاضعين، تتردد الآن صلاة المسيحيين.».

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، تحركت مجموعة من القوات باتجاه «أجرا» في مطاردة متأخرة لـ«بخت خان» ورفاقه المتمردين من السيبويين، بالرغم من أنه في هذه المرحلة لم يكن هناك إلا ألفان وستمائة رجل من قوة دلهي البريطانية الميدانية لمواصلة القتال في «أجرا». لتكون تلك المعركة الأخيرة لعام ١٨٥٧، لإغاثة المقيم البريطاني المحاصر في «لاكناو». كانت خطوتهم الأولى هي الخروج من المدينة المهجورة.. كتب «ريتشارد بارتر»: «كانت المسيرة شنيعة، مع تقدم الجيش المكون من سلاح الفرسان والمدفعية عبر الجثث المنتفخة في «تشاندني تشوك»، بروائحتها الكريهة والمخيفة. شعر الرجال والضباط بالإعياء، وظننت أننا لن نجتاز المدينة أبدًا، كانت رحلة صعبة لا أتمنى أن تتكرر مرة أخرى أبدًا، وقد انتاب الخيول المشاعر نفسها التي انتابت البشر، فكانت تصهل بتوتر وترتجف وهي تتقدم فوق الجثث التي غطت أرض الشارع.»

كان «فريد روبرتس» مرعوبًا بالقدر نفسه، وكتب: «كانت المسيرة عبر دلهي في وقت مبكر من الصباح مروعة، لم يكن هناك صوت يمكن سماعه في طريقنا إلى بوابة «لاهور» بالقرب من «تشاندني تشوك» باستثناء صوت خطواتنا؛ لم يكن هناك مخلوق واحد حي حتى يمكننا رؤيته. تناثرت الجثث في جميع الاتجاهات، على الهيئة نفسها التي قُتلوا بها، وتباينت بينهم مراحل التحلل. وبشكل مروع، في كثير من الحالات كانت أوضاع الجثث وكأنها حية، فبعضهم كانت أذرعهم مرفوعة كأنها تشير لأحدهم، كان مشهدًا غريبًا ورهيبًا ويفوق الوصف، ومثيرًا للاشمئزاز بشكل لا يمكن تصوره، محملًا بمختلف الروائح الكريهة والمثيرة للغثيان.».

وعلى الرغم من أن القوات المغادرة كانت تتجه مرة أخرى إلى الصراع، وأن كثيرين منهم سيفقدون حياتهم في المعارك الشرسة التي تنتظرهم في «لاكناو»، إلا إنهم كانوا في موضع حسد من جامعي الغنائم أو الحامية الصغيرة التي تُركت بالخلف وسط مدينة الموتى ذات الرائحة الكريهة المقززة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحد أولئك الذين تلقوا الأخبار السيئة بأنه سيبقى في دلهي كان الملازم الشاب «إدوارد أوماني». ولكونِه عالم لغويات واعد، فقد كان «أوماني» قبل ذلك جزءًا من فرقة «نيكلسون» وكتب في مذكراته عن رعبه من معاملة هذا الأخير الوحشية، ليس فقط مع المتمردين ولكن أيضًا مع تعيسي الحظ الذين يعملون معه. ومع ذلك، فقد تعرض هو نفسه للندوب وتعامل وعومل بوحشية بسبب العنف الذي شارك فيه؛ وتتأرجح مذكراته، مثل رسائل «إدوارد فيبارت»، بين الحساسية الشديدة والوحشية المروعة. في الواقع فقد أدرك هو نفسه تأثير أعمال العنف على الجيش البريطاني وكتب في مذكراته في الأول من نوفمبر بعد سماعه نبأ وفاة «جون كليفورد»: «لا أحد يتأثر بموت أحد! كان «كليفورد» صغيرًا جدًّا ومليئًا بالحماسة عندما رأيته آخر مرة قبل أيام قليلة، عندما أخبرت زملاءنا بوفاته، كانوا يعلقون بـ«أوه!» ربما واحد فقط علق بـ «يا له من مسكين!»، فقط، هذا كل شيء، يموت أحدهم ويحزن المقربون منه جدًّا ولوقت قصير ثم تستمر الحياة!» ومع تأثره هذا، فإنه هو نفسه كتب بعد بضعة أسابيع فقط: «عند عودتنا إلى المدينة، قتلنا كلَّ من لم يستسلم لنا.».

قبل يومين من مغادرة الجيش إلى المعركة الأخيرة، تلقى «أوماني» الأوامر أنه سيكون سجَّان «ظفر»، كانت وظيفته الأولى هي العثور على سجنٍ آمنٍ للملك السابق داخل أسوار القلعة الحمراء، فوجد منزلًا مناسبًا - كان بالسابق مقرَّ إقامة أمير شاب يُدعى «ميرزا نيلي»– وحينها عُرف أنه بالإضافة إلى مسئوليته عن «ظفر» وجناحه المباشر، سيكون مسئولًا أيضًا عن اثنتين وثمانين امرأة، وسبعة وأربعين طفلًا واثنين من الخصيان من حاشية الإمبراطور. كان قد تم إحضارهم للتو إلى القلعة من ضريح «همايون» في موكب يتكون من أربع عشرة عربة، فوضعهم في حبس صارم تحت مسئوليته، وفي اليوم التالي، قبل أن يتمكن حتى من بدء التفكير في كيفية إطعام أو تنظيم الترتيبات الصحية لهذا العدد الكبير من الناس، تفشى مرض الكوليرا بين سجنائه الملكيين، مما أدى إلى وفاة أول بيجوم في الليلة التالية.

كانت أماكن إقامة «ظفر» وعائلته الجديدة شديدة القذارة، كتبت السيدة «كوبلاند» عندما زارته: «دخلنا غرفة صغيرة قذرة، منخفضة السقف، وذات

جدران بيضاء، وقد جلس رجل كبير السن ضئيل الجسد على أريكة منخفضة، يرتدي بذلة بيضاء قطنية قذرة، وملفوف بأغطية رثَّة مزرية. عندما دخلنا وضع الأرجيلة التي كان يدخنها جانبًا، وقام - بالرغم من أنه كانت سابقًا إهانة له أن يجلس أحدهم في حضرته - بتحيتنا متذلِّلًا، وقال إنه «بورا كوشي» [سعيد جدًا] لرؤيتنا». كما كتب زائر آخر: «حُجِز في غرفة صغيرة تحتوي فقط على محفَّة واحدة، ولا يُقدم له إلا القليل من الطعام. كان الضباط والجنود يعاملونه بازدراء، على الرغم من أن السيد «سوندرز» كان يتعامل معه بطريقة متحضرة.».

شاركته الزوجات والأميرات سجنه، وانكشفت السيدات التعيسات، اللواتي لم يفعلن ما يستوجب العقاب، على الضباط والجنود الذين تمكنوا من الدخول إلى الحجرات، وكان هذا عار لا يوصف بالنسبة لامرأة هندية حتى من أدنى الطبقات الاجتماعية، فكانوا عندما يدخل أي رجل إلى الغرف، كن جميعًا يُدرن وجوههن إلى الحائط، وهو ما استمتع به عديدٌ من زوار «ظفر» البريطانيين الذين تعمدوا إذلال العائلة ببساطة عن طريق كسر خُلوة السيدات ورفع حجابهن.. كتبت السيدة «كوبلاند»: «بدا الأمر سخيفًا للغاية، خصوصًا وأن المغول لم يقدِموا على إهانة أي أوروبي وقع في أيديهم من قبل..». بالإضافة إلى ذلك، كان «ظفر» ممنوعًا من الوصول إلى حكيمه، الذي كان يطلبه باستمرار، وكذلك الغسّال «الذي يقوم بغسل الملابس»، والحلاق الخاص به.

حتى «جون لورانس»، الذي تصرَّف في معظم الأوقات بصفته واحدًا من ذوي التأثير المعتدل على التجاوزات البريطانية في هذه الفترة، نصح «سوندرز» بعدم الاهتمام بالملك السابق.. كتب في ديسمبر: «لا الملك ولا أي عضو في الأسرة، يستحقون أيَّة خدمة نقدِّمها لهم! في الوقت الحاضر، سيكون خطأ كبيرًا منا أن نظهر له أي اهتمام..». مهما كان الظلم الذي ينطوي عليه هذا، كان «لورانس» محقًا تمامًا في تقديره للرأي العام البريطاني؛ فعندما قام «أوماني» بأخذ «ميرزا جيوان بخت» في رحلة على ظهر الفيل في منطقة «دارياجنج»، على أمل استخراج معلومات حول أصول الثورة وأسبابها من الصبي بفصله عن والديه، انتقدت جريدة «سجلات لاهور» إدارة «دلهي» لإبقائها الملك وعائلته في تَرَف، وبدأت حملة تطالب بشنق «ظفر» وتسوية مدينته بالأرض، كما لو لم يكن سيئًا بما فيه الكفاية للملك أن «يعيش محبوسًا في بذخ شديد»، كما سخرت الجريدة في إحدى مقالاتها، واستكملت كلامها بـ: «ابنه الأصغر يلعب دور الأمير في هذه المدينة، فيما تزال تفوح منه رائحة الدماء الإنجليزية التي سفكها، يتجول في «تشاندني تشوك» يتبعه ضابط بريطاني خلفه! من المفترض أن يُكلَّف بهذه المهمة رجل مؤهل للقيام به، أما هذا الضابط فيمكنه التفرغ لمراقبة وضع الأفاعي لبيوضها!».

أثبتت الحملة التي نادت بضرب دلهي وتسويتها بالأرض شعبيتها وشيوعها بشكل خاص بين قراء صحيفة «سجلات لاهور».. كتب أحد القراء: «بصفتي قد قرأت عددكم الصادر في اليوم الثامن عشر للتو، والذي قمتم فيه، كما قمتم في معظم إصداراتكم الأخيرة، بتأييد تدمير دلهي بالكامل، بالإضافة إلى المسجد الجامع وما إلى ذلك، فأنا أعتبره واجبًا تجاه بلدي وواجب جميع الإنجليز، مساعدتكم في الانتقام الدموي وإسقاط دلهي». وبهذا ضربت الجريدة على وَتَر حساس لدى القوات البريطانية في دلهي. كتب «هيو تشيتشيستر» إلى والده: «هناك عدة مساجد جميلة في المدينة، وهي ممتعة وجميلة المنظر، لكنني أفضل أن أراها كلها مدمرة! فلقد دَنَّس أولئك المتوحشون الأوغاد كنائسنا ومقابرنا ولا أعتقد أننا يجب أن نولي أي اعتبار لدينهم القذر».

اعتقد «تشارلز رايكس» أنه يجب الإبقاء على المسجد الجامع، فقال: «يجب أن يُحَوَّل إلى كنيسة، وتسمية كل حجر فيه باسم شهيد مسيحي». كانت السيدة «كوبلاند»، كعادتها، أكثر صراحة.. كتبت في مذكراتها: «لا أستطيع الامتناع عن التفكير في أن هذه المدينة، بدلًا من تسويتها بالأرض، يجب أن تبقى شاهدة بجدرانها وشوارعها الملطخة بالدم، على عقاب كل من يجرؤ على إلحاق الإهانة بشرف إنجلترا. فلربما بتدميرها ينسى كثيرون هذه الإهانة التي لا يجب أن تُنسى.. دلهي، هي أقدس مدنهم، وأكبر أثر على عظمتهم الغابرة، ويجب أن نتركها كما هي لإظهار اشمئزازنا من جرائمهم، واستيائنا منها بتلك الطريقة، وهو ردٌّ فعل أقوى من مجرد شنق المئات منهم.. وعلى أنقاضها المدمرة الآن، يجب تشييد كنيسة أو نصب تذكاري، وعليه يتم تسجيل قائمة تضم جميع ضحايا التمرد - إذا كان من الممكن جمع أسماء كل الذين ذُبِحوا - وتجمع الأموال اللازمة لتشييده من غرامات تُفرض على كل مواطن متورط في التمرد».

وسط هذه الهستيريا الفظَّة وتبجيل الذات، تجرَّأ رجل واحد فقط على الدعوة علنًا إلى أن معاملة «ظفر» بشكل أفضل. جاء «هنري لايارد»، النائب السابق من بلدة «آيلسبري»، لزيارة «ظفر»، فشعر بالفزع مما رآه. وقال «لايارد» للناس في لندن: «كثير من الناس يلومون على أن ملك دلهي لم يُعاقب عقابًا عادلًا على جريمته.. لكنني رأيت ملك دلهي؛ وسأترك الحكم لكم، بعد الاستماع إليَّ، لتحديد ما إذا كان قد عُوقِب بما فيه الكفاية، ولن أخبركم برأيي حول الطريقة التي نتعامل بها معه، وإن كانت طريقي تليق بأمة عظيمة مثلنا أم لا!

رأيت ذلك الشيخ المحطَّم.. ليس في غرفة، وإنما في جُبٍّ حقير في قصره مستلقٍ على فراش قذر، بلا شيء يغطيه سوى غطاء يائس ممزق. بينما أنا

أنظر إليه، يبدو أنه تذكر عظمة مكانته السابقة.. نهض بصعوبة من على فراشه؛ أظهر لي ذراعيه التي نهشها المرض والذباب، كما نهشها نقص المياه؛ وقال بصوت آسف إنه ليس لديه ما يكفي ليأكل. هل هذه هي الطريقة التي يُعامل بها المسيحيون ملكًا؟ رأيت نساءه أيضًا متجمعات في الزاوية مع أطفالهن؛ وقيل لي إنهم لا ينالون ما يكفي من طعام أو أي شيء، ويعيشون مثل الشحَّاذين! أليس هذا عقابًا أكثر من كافٍ لرجل اعتلى العرش ذات يوم؟».

حتى «أوماني»، الذي كان لديه اعتقاد راسخ أن البريطانيين كانوا متساهلين جدًّا مع دلهي وكان يجب أن يفرِضوا عقابًا أكثر عُنفًا، ولم يكن يميل إلى تحسين ظروف السجن، فوجئ بأنه ببطء أصبح مغرمًا بظفر، الذي كان يعتقد أنه يشبه «السير تشارلز نابير» إلى حد كبير.. في الواقع، سرعان ما خلُص إلى أن ظفر كان كبيرًا في السن، وخرِفًا لدرجة أنه لم يكن مسئولًا تمامًا عن أفعاله خلال الثورة. ولم يمر وقت طويل حتى بدأ الملك المسن رد المودة غير المتوقعة لسجانه؛ بحلول منتصف أكتوبر، كان «أوماني» يسجل في مذكراته: «بدا ظفر كما لو أنه سيحتضنني، ولكنه بدلًا من ذلك وضع ذراعه اليمنى على كتفي الأيسر وربت علي.».

صار «أوماني» أيضًا مفتونًا بشكل متزايد بـ«زينَّت محل» التي على حد قوله، كانت مسيطرة على زوجها الكبير المريض؛ لكن هذا لم يمنع أنه من بين ست عشرة امرأة من الحريم تحت تصرفه، بدت هي فقط من تهتم لأمر الملك الكبير.. كتب «أوماني» في مذكراته: «كان أبناؤه وعبيده يعاملانه باحترام شديد، لكن الوحيدة التي تهتم بأمور ظفر بشكل كبير هي زوجته المفضلة «زينَّت محل»، لكن لو حدث وكانت تتكلم ونطق هو بكلمة واحدة، فإنها تخبره أن يلتزم الصمت لأنها تتحدث، فطالما أراد هو أشياء تافهة، وإن لم ترضِه تلك الأشياء كان يقذفها بعيدًا، الأمر الذي يغضب الملكة السابقة التي تحمل مالية العائلة.». وأضاف لاحقًا عن «زينَّت محل»: «ربما تتحدث بلطف لكن لهجتها لا تخلو من بعض الحدة، لم أرَها قط، باستثناء مرة واحدة، رأيت يدها وذراعها اللذين أظهرتهما عندما أرادت بعض المال مني.. أعتقد أنها ليست جميلة، ومع ذلك تبدو لي ذكية جدًّا وامرأة مثيرة للاهتمام.».

فردٌ واحد فقط من العائلة لم يعجب «أوماني» به من البداية، وهو نجل «زينَّت محل» المحبوب، والمدعو «ميرزا جيوان بخت». كان مدلَّلًا قاسيًا، وسرعان ما أُثبِت أنه أكثر من راغب في الإدلاء بشهادته بشأن أنشطة أيٍّ فرد من الأسرة خلال الثورة. في وقت مبكر من أسرِه، ضحك جيوان بخت عندما رأى «أوماني» يجلِد خياط «ظفر»، الذي تسلل إلى السجن بدون إذن أو تصريح. حذَر «أوماني» الأمير الشاب قائلًا: «إذا ضحكت في أثناء عقاب

أحدهم مرة أخرى، فمن المحتمل أن أكرر الأمر نفسه، معك». ولم يمر وقت طويل، حتى عرض «جيوان» على «أوماني» الاطلاع على مكان وجود كنز والدته المدفون مقابل مائة سيجارة اشتراها «أوماني» من التجار الفرس «كواسجي» وشركاه، الذين انتقلوا الآن من التلال إلى سوق القلعة. كتب «أوماني» في مذكراته: ««جيوان بخت» سيساعدنا إذا شجعته، لا أظنه يمتلك - في رأيي - أدنى شرارة من الشرف والمودة، وفقًا للنظرة الإنجليزية لهاتين الصفتين على الأقل..

لقد أخبرني عن أشياء كثيرة تُوَرِّط والده في الثورة، وقد تحدَّث عن جواهر وممتلكات والدته التي أخبرتنا أنها لا تملك أي شيء، في الواقع أخبرني كثيرًا أن والدته كاذبة! وهو نذل جبان، بعد أن أوصلنا لكنوز أخيه، ذهب إلى والده ووالدته خائفًا مرتجفًا، مختلقًا قصة كاذبة عن المكان الذي كان فيه.. ليس لديه أيَّة مودة لإخوته، ويقول عنهم إنهم سيئو السمعة.. هل هناك حاجة لقول مزيد لإظهار مدى انحطاط من كان في يوم من الأيام فخورًا بانتسابه لسلالة آل «تيمور»؟ يا له من نسلٍ وضيع خائن!».

بحلول منتصف نوفمبر، وردت أنباء من «كالكوتا» تفيد بأن تفاصيل اللجنة العسكرية لمحاكمة جميع أمراء ونبلاء دلهي، بما في ذلك الملك، تم الاتفاق عليها. بعد ذلك بوقت قصير وصل الرائد «جي إف هاريوت» إلى دلهي نائبًا للقاضي لبدء مختلف المحاكمات، وتم طلب «أوماني» لمساعدة «هاريوت» في ترجمة الوثائق التي عُثِر عليها في القصر، ومن المفترض أن توفر هذه الوثائق دليلَ إدانة عائلة المغول بأكملها وبلاطهم، ومن المفترض أيضًا أن محاكمة «ظفر» - الذي يعتبره كثيرٌ من البريطانيين قائد المؤامرة الكامنة وراء الثورة - ستكون للتحقيق في أسباب الانتفاضة. كتب «أوماني» بعد اجتماعهما الأول في السابع والعشرين من نوفمبر: «انطلاقًا من طريقة «هاريوت»، ليس لدى أي من السجناء فرصة في الإفلات من العقاب!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مهما كانت الظروف السيئة التي عانت منها العائلة المالكة، فقد كان وضعهم أفضل من الطبقات الدنيا في دلهي، والذين تناثر معظمهم الآن في الريف المحيط، مختبئين وسط القبور والأطلال، يبحثون عن الطعام من الفاكهة البرية أو يتسوَّلون للحصول على الطعام، نعم، كان هناك عددٌ قليل جدًّا من السكان مازالوا داخل أسوار المدينة يتضورون جوعًا، وفقًا لـ«تشارلز جريفيث»: «كانت الغُرَف تحت الأرض، في جميع أنحاء المدينة، مليئة بالبشر، أولئك الذين لم يتمكنوا، بسبب العمر أو العجز، من الانضمام إلى الجماعات التي نزحت من المدينة خلال الأيام الأخيرة من الحصار. مئات من كبار السن من الرجال والنساء والأطفال، متجمعين معًا، يتضورون جوعًا في هذه

الأماكن، التي كانت أكثر شيء يائس رأيته في حياتي.. لم تكن هناك وسيلة لإطعامهم في المدينة، التي إن خرجوا إلى شوارعها لتسببوا في إثارة الطاعون. لذلك بأوامر من القائد، أُخرِجوا من بوابات دلهي. كانت رؤية هجرتهم القسرية عبر بوَّابات دلهي مشهدًا حزينًا للغاية؛ قيل لنا إنهم أمَّنوا لهؤلاء اليائسين المئونة في مكان ما على بعد أميال، وأنها ستنقذ تلك المخلوقات المسكينة من المجاعة؛ لكن ولمعرفتنا كم القسوة التي أصبحت عليها السلطات فيما يتعلق بالمعاناة الإنسانية، كانت لدينا شكوكنا حول هذا الموضوع، وأخشى أن كثيرين قد ماتوا من الجوع ونفقوا في مكان ما.

أمَّا داخل المدينة، فحتى الخدم البريطانيون الأكثر ولاءً الذين اختاروا البقاء في بيوتهم وجدوا الحياة صعبة بل مستحيلة، إذ تجوَّلت فرق اللصوص الرسمية وغير الرسمية، من منزل إلى منزل، عابرين فوق بقايا الأثاث المكسور ومحتويات المتاجر المحطمة التي تناثرت في الشوارع، واستولوا على كل ما كان ما يزال بإمكانهم الاستيلاء عليه، وقاموا بإجبار كل السكان الذين وجدوهم يحتمون في الأقبية على إرشادهم للمكان الذي أخفوا فيه ممتلكاتهم الثمينة.».

كتب «تشارلز جريفيث»: «بالنسبة لنا جميعًا - الجنود - فمن المفترض أن نهب المدينة كان مكافأة مناسبة للكدح والحرمان الذي عانينا منهما طوال الفترة السابقة، كما إنه كانت لدينا شكوكنا في نسبتنا من تلك الصفقة إذا سلمناها بموجب القانون العسكري المعترف به، فكون المدينة التي استُولِيَ عليها بالحرب هي جائزة للقادة وحكومة الفاتحين، كان أمرًا مخالفًا للطبيعة البشرية، وغريزة الافتراس، وسيكون من الغريب إن لم يقم الجنود باستغلال النهب والسرقة الذي أحاط بهم من كل جانب، ولا يمكن توقع أن المرء، بعد أن يمتلك كثيرٌ من الأشياء الثمينة سيقوم بتسليم كل غنائمه إلى السلطات! وفي كثير من الأحيان، عندما كنت أتجوَّل بحثًا عما أنْهَبُه، كنت أمرُّ ببعض الضباط الذين لديهم وجهة النظر..».

في الأثناء نفسها، بدأ موزعو الغنائم العملَ، كتبت السيدة «موتر» أن زوجها انطلق بعد الإفطار مع مجموعة مسلَّحين بالمعاول والعتلات وخطوط القياس، واستغرق الاستيلاء على منزل قيل إنه يحتوي على كنز طيلة يوم كامل، حيث كانوا يمسحون كل جزء من المبنى عن طريق القياس الدقيق للأسطح بالأعلى وأسطح الغرف بالأسفل، فكان بإمكانهم اكتشاف أيَّة مساحة مخفية، ثم اختراق الجدران، وسرعان ما يكتشفون إذا كانت هناك غرفة سرية أو خزائن سرية أو تجاويف، كما كانت هناك مكافآت كبيرة تنتظر من يعثر على شيء. في إحدى المرات، عاد «موتر» ومعه ثلاث عشرة عربة محملة بالغنائم، ومن بين الأشياء الثمينة الأخرى، ثمانون ألف روبية، وهو ما

يساوي بالعملة الإنجليزية ثمانيةَ آلاف جنيه إسترليني. وفي إحدى المرات الأخرى، عُثر على أواني فضة وذهب وحقيبة تحتوي على ألف روبية.

كتب «تشارلز جريفيث»: «في وقت قصير جدًّا، امتلأت غرف جامعي الغنائم بالكنوز من كل نوع، من الجواهر والأحجار الكريمة والألماس والياقوت والزمرد واللآلئ التي لا تُعَد ولا تُحصى، من تلك الأحجام الكبيرة في حجم بيض الدجاج والأحجام الصغيرة التي تستخدم للقلائد، بالإضافة إلى حُلي ذهبية من أجمل السلاسل المنقوشة والأساور والخلاخيل، أذكر أنني قمت بزيارة غرفة، وكانت بها منضدة موضوعة بالمنتصف وقد تراصَّت عليها الكنوز المبهرة.».

كتب عديد من الجواسيس والمتعاونين أدلة على أنهم ساعدوا البريطانيين، لكن الجنرال «ويلسون» أمر بعدم صلاحية «بطاقات الحماية» التي مع الجواسيس والمتعاونين ما لم يقم هو بالتوقيع عليها بنفسه، وكانت نتيجة ذلك أن قليلًا منهم حصلوا على أي شيء، حتى حماية ممتلكاتهم، حسبما ذكر تقرير قسم استخبارات الشركة: «قبل انقضاء يومين أو ثلاثة أيام لم يكن هناك بيت لم تنهب محتوياته، وعانى أصدقاء الحكومة وأعداءهم بالقدر نفسه».

عُرِّض منزل الجاسوس جيوان لال - الذي كان مسئولًا استخباراتيًّا رئيسًا طوال فترة الحصار، ونجا من محاولات المتمردين المتتالية للقبض عليه وإعدامه - لنهب جنود السيخ بشكل كامل في الحادي والعشرين من سبتمبر. وكان مصيرًا مشابهًا ينتظر «ميرزا إله بخش» الذي – على الرغم من خيانته لنسيبه ظفر، وحتى خيانة حفيده ميرزا أبو بكر - نُهب منزله وسحب موزعو الغنائم جميع ممتلكاته منه. أكثر الرسائل التي عبَّرت عن مشاعر الخيانة - التي أحسَّ بها جميع الموالين لبريطانيا - تأثيرًا كانت تلك التي كتبها مدرس الرياضيات السابق بكلية دلهي والمتحول للمسيحية السيد «رامشاندرا». كان «رامشاندرا» قد هرب من دلهي في الحادي عشر من مايو، وهو اليوم نفسه الذي قُتِل فيه زميله المتحول للمسيحية مثله الدكتور «شامان لال»، في صباح اليوم الأول من الانتفاضة. عندما عاد إلى «دلهي» بعد سقوط المدينة، توقع أن يُرَحَّب به في وطنه من قِبَل زملائه المسيحيين، ولكنه بدلًا من ذلك وجد نفسه يعيش في خوف على حياته تمامًا كما فعل في أثناء الثورة، ولكن بينما كان قبل ذلك يُسْتهدف بسبب إيمانه، فهو يعاني الآن بسبب لون بشرته. وقد قرَّر الكتابة عن تجربته وإرسالها إلى العقيد «بيرن»، الذي عُيِّن مؤخرًا حاكمًا عسكريًّا لدلهي. في الرسالة وصف كيف كان يعمل بسعادة بصفته مساعدًا لجامعِي الغنائم، ومترجمًا للوثائق لمحاكمات المتمردين، ولكن مع ذلك كانت حياته مهددة باستمرار. كتب: «منذ أكثر من شهر طُلب مني التوجه

إلى منزل السيد «مورفي» بالقرب من الكنيسة لترجمة بعض الأوراق من الفارسية إلى الإنجليزية. وبينما كنت أعبر الطريق، رأيت بعض الضباط الإنجليز يقفون على طريق مسجد «حامد علي خان» يرشقون كُرات الطين على جميع المارة من الهنود، وقد ضاعت كل تفسيراتي لكوني تابعًا للحكومة ومسيحيًّا هباءً، بل على العكس أعتقد أنهم كانوا أكثر سخطًا بسبب هذا؛ فلقد أساءوا إليَّ وألقوا كراتهم الطينية بقوة أكبر، وفي وقت لاحق، عند عودتي من جانب المسجد المذكور بحثًا عن بعض الكتب التي وُظِّفت لجمعها من قِبَل جامعي الغنائم، تعرضت ثانية للهجوم، على الرغم من أنني كنت أحمل إذنَيْن من جامعي الغنائم، وعلى الرغم من أنني صرخت لإبلاغ الضباط أن لدي إذنًا من جامعي الغنائم يسمح لي بالمرور.. ولكن ما أحزنني أكثر أن الخطر لم يكن يحاصرني فقط في الشوارع المهجورة ولكن في منزلي أيضًا. منذ حوالي اثني عشر يومًا، في حوالي الساعة التاسعة مساءً، كنت أنا واثنان من أصدقائي نتحدث معًا، وفجأة ارتفع صوت اصطدام الحجارة بأبواب بيتي وجدرانه، حتى إن تلك الحجارة وصلت إلى فراشي وسقطت بعنف شديد..».

كما وصف «رامشاندرا» كيف أدرك أن الضباط الإنجليز الواقفين أمام منزله هم جامعو الغنائم نفسهم، وأنهم استمروا في مهاجمته هو ومنزله على فترات منتظمة في الأيام والليالي التالية. «ذات يوم، في أثناء عودتي من منزل «إدوارد كامبل» في القلعة، تلقيت ضربة قوية على رأسي من ضابط إنجليزي كان يرافقه نبيل آخر يركبان على ظهور الخيل، وبعد أن ضربني بعصاه، طلب مني أن أنحنِيَ أمامه تحيةً له.. قمت بأداء التحية أكثر من مرة، وهتفت أنني مسيحي، وموظفٌ من قِبَل جامعي الغنائم، فتخطاني متوجهًا ناحية البلاط الملكي وهو يسبّني ويقول إنني أسود مثل الشياطين. شعرت بالصدمة والذهول من تلك المعاملة السيئة، فتوقفت قليلًا في المكان الذي تلقَّيْت فيه الضربة، والغريب أن وقفتي ونظرتي الذاهلة ضايقت الضابط فعاد راكضًا نحوي وترجل من فوق جواده، ليصوِّب نحوي كثيرًا من الضربات المؤلمة على ذراعي وظهري..».

وصف رامشاندرا أيضًا المعاناة التي عانى منها في أثناء الانتفاضة بسبب تحوله للمسيحية: «ما أراحني في أثناء تلك المحنة، هو التفكير في أن ما مررت به لا يُقارن بما عانى منه الضباط، والمدنيون، والعسكريون، والمبشرون الإنجليز. لكنني قلت لنفسي أنه إذا كان المتمردون قد وجدوني لكانوا قتلوني بسبب تركي عقيدة آبائي واعتناقي المسيحية، وأنني سأموت على إيمان المسيح المخلص، مثلي مثل الشهداء والرسل والمسيحيين الأوائل. وقد كانت تلك راحتي في كل ما مررت به من أخطار، لكن ليست هناك راحة عندما أتعرض كمواطن مسيحي للخطر من قبل الضباط المسحيين، فقط لأنني لست إنجليزيًّا مولود في بريطانيا وبشرتي ليست

بيضاء! لم تكن هذه هي الحال حتى بين المتمردين في دلهي الذين على دين باطل، فقد كانت هناك مؤاخاة بين المسلمين والهندوس على الرغم من اختلافهم. كانوا يكرهون المسيحيين فقط، وأولئك الذين كانوا موالين لهم.

هذه هي استغاثتي، ليست فقط استغاثة المواطنين المسيحيين، لأن هناك عددًا قليلًا جدًّا منهم في دلهي، وإنما استغاثتي من أجل الهندوس وبعض المسلمين الذين لا يزالون يعيشون في المدينة، لكنهم معرَّضون للخطر من قبل الإنجليز، وخاصة الضباط الإنجليز.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «غالب» واحد من بين هؤلاء المسلمين القلائل الذين بقوا في المدينة والذين تحدث عنهم «رامشاندرا» كان محظوظًا بأن يظل حيًّا في أثناء قتل عديد من أصدقائه وتلاميذه أو طردهم. حيث اختبأ في منطقة «باليماران» التي يسكن فيها الحكيم «إحسان الله خان» وعديد من كبار رجال الحاشية والمواليين لبريطانيا، الذين سبق وأرسلوا القوات والإمدادات إلى البريطانيين على التلال، فبفضلهم كان «غالب» واحدًا من مواطني دلهي الوحيدين الذين لم يتم الاقتراب من منازلهم، وتقريبًا الوحيد من نخبة البلاط الذي نجا من فترة سقوط دلهي فخرج بممتلكاته سليمة. ومع ذلك، فقد كانت فترة عصيبة بالنسبة له.. كتب «غالب» كيف أغلق هو وجيرانه بوابة المنطقة وكوَّموا الحجارة خلفها لتحصين أنفسهم ضد ما يدور حولهم من الاعتقالات الجماعية، والاغتيالات، والقتل أو السجن، أو قتل العشرات من أصدقائه.. وفي الوقت نفسه، تمنَّوا أن يستمر مخزونهم الضئيل من الطعام والماء حتى عودة السلام.

في دفتر يومياته، كتب الشاعر واصفًا مخاوفه حول كيفية البقاء على قيد الحياة بينما كانت مدينته قد تدمرت تمامًا من حوله: «لا يوجد بائع ولا مشترٍ؛ لا يوجد بائع قمح لنشتري منه الدقيق، وليس هناك غسالون يمكن أن نعطيهم ملابسنا المتسخة، ولا يوجد حلاق لقص الشعر، أو عامل لتنظيف الأرضية. كان من المستحيل علينا مغادرة ملجئِنا للحصول على الماء أو الدقيق.. تدريجيًّا، انتهت كل المؤن التي كانت لدينا في منازلنا، على الرغم من أننا استخدمنا الماء بحذَرٍ شديد، لكن لم تتبقَّ قطرة ماء واحدة في كأس أو جرَّة، مضغنا الجوع والعطش طوال الليل والنهار، بينما بالخارج تفشَّت المذابح الجماعية وامتلأت الشوارع بالأهوال.. كنا كالسجناء؛ لا يزورنا أحد ولا تصل لنا أخبار أحد، لذا لم يكن بإمكاننا معرفة ما يحدث بالخارج. ثم ظَهَرت السحب ذات يوم وأمطرت السماء، فقمنا بوضع ملاءة في الفناء ووضعنا الجِرار تحتها، وبهذه الطريقة جمعنا المياه.. واحترق قلبي عندما طَلَب مني الطفلان اللذان

أقوم بتربيتهما بعض الفاكهة والحليب والحلويات ولم أستطِع إشباع رغباتهما..»

كان «غالب» قلقًا كذلك على شقيقه المريض عقليًّا، والذي لم يتمكن من الوصول إليه، في البداية سمع أن بيت أخيه نُهِبَ، لكن تبعَ ذلك أنباء أسوء، بأن أخاه خرج إلى الشارع وقتله البريطانيون.. وكما لم يكن هذا كافيًا، لم يستطع «غالب» الخروج من حصاره لدفنه، كما إنه حتى إن خرج فسيكون من الصعب العثور على الماء لغسل الجسم، أو العثور على الكفن المناسب ليتم لف جثمانه فيه. أخيرًا، في الخامس من أكتوبر، بعد ثلاثة أسابيع من دخول البريطانيين عبر بوابة كشمير، دخلت القوات البريطانية إلى المنطقة، واقتادوا «غالب» إلى العقيد «بيرن» ليتم استجوابه. كان غالب دائمًا رجلًا أنيقًا، فتأكد من أنه كان يرتدي أفضل غطاء للرأس على الطراز التُّركي في أثناء الاستجواب. نظر العقيد إلى هذا المنظر الغريب وسأل بلهجة ثقيلة ما بين الأوردو والإنجليزية: «هل أنت مسلم؟» قال غالب: «نصف مسلم.» سأله العقيد «وماذا يعني ذلك؟» فقال غالب: «يعني أنني أشرب الخمر، لكني لا آكل لحم الخنزير» وهنا ضحك العقيد، وأطلعه «غالب» على الرسالة التي سبق وأرسلها لجلالة الملكة. فسأله العقيد «لماذا لم تحضر بنفسك إلى التلال؟» أجاب «غالب» بكبرياء: «مكانتي تتطلب أن يحملني أربعة رجال في هودج، لكن أربعتهم هربوا وتركوني، لذلك لم أتمكن من المجيء.».

وبحسب رواية «غالب» عن الاجتماع، أضاف أيضًا: «أنا كبير في السن، ومقعد، وأصم، وغير مؤهل للمفاوضات والقتال، لكنني كنت أدعو من أجل انتصاركم، طالما كنت أدعو لكم، وكان بإمكاني فعل ذلك من هنا.».

تركه العقيد بيرن يذهب، وبهذا كان «غالب» الوحيد تقريبًا، الذي نجا - دون مغادرة المدينة - من الكارثة التي دمَّرت دلهي. ولكن الآن كان عليه أن يواجه الشعور بالوحدة الشديدة لكونه الناجي الوحيد، حياة لا يوجد فيها أي شخص يشاركه ذوقه أو فنه أو ذكرياته. حسب تقديره هو، كان هناك بالكاد ألف مسلم في المدينة، مات عديد من أعز أصدقائه وخصومه وأعدائه ومنافسيه؛ بينما تناثر الآخرون في الخنادق والأكواخ الطينية في المناطق الريفية المحيطة. في هذه الأثناء، حاول «غالب» تفادي الانخراط في أي متاعب في المدينة المحتلة التي شعر بنفسه فيها كأنه «سباح وسط محيط من الدم»، كما كتب في أبيات وردت في رسالة إلى صديق له في «رامبور»:

«بوسع كل جندي بريطاني مسلح

فعل ما يشاء

يتجول داخل المنازل والأسواق

يرعب القلوب ويزلزل الأرواح
يحوِّل الأسواق لمذبحة
والبيوت لسجون
حتى كل حبة غبار في دلهي
صارت متعطشة للدماء
حتى إن لم أكن الناجي الوحيد
فليس بوسعي أنا ومن نجى معي
سوى البكاء لأننا عشنا..»

كتب في رسالة أخرى: «لقد انطفأت شرارة الحياة من الهند، تعرَّت الأرض فجأة، مات الآلاف، ومن نجى ارتمى في السجن.».

وفي ثالثة: «يُصَاب الناس بالجنون، ولن يكون غريبًا إذا فقدتُ عقلي من هجوم كل هذا الحزن عليّ؟ أيُّ حزن لم أعانِ منه؟ حزن الموت، الانفصال، أم ضياع الدخل والشرف؟ لقد عانيت من كل هذا، بالإضافة إلى الأحداث المأساوية في القلعة الحمراء، فقد قُتِل عديدٌ من أصدقائي في «دلهي». كيف يمكنني أن أنساهم؟ كيف يمكنني إعادتهم إلى الحياة.. لقد غادرني أقاربٌ وأصدقاءٌ وطلابٌ وعشاقٌ، كلُّهم ذهبوا! من الصعب للغاية أن نحزن على قريب أو صديق واحد بينما كل هذا العدد قد اختفى فجأة.. يا الله! لقد مات كثير من أصدقائي وأقاربي لدرجة أنني إذا ما مِت الآن، فليس هناك شخص واحد ليحزن علي.» واختتم «غالب» كتابه بصرخة يأس مماثلة، فكتب: «أحزاني غير قابلة للشفاء وجراحي لن تلتئم أبدًا.. أشعر كما لو كنت بالفعل في ذمة الله تعالى.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كانت الحياة صعبة بالنسبة لأولئك الذين أظهروا تعاطفًا مع البريطانيين بالماضي، فقد كانت أكثر صعوبة بكثير بالنسبة لأولئك الذين ابتهجوا بسقوطهم، والذين يتضورون جوعًا الآن وينبشون بحثًا عن الطعام في كل مكان خارج المدينة، كتب «غالب» لأحد المراسلين، آملًا، خلافًا لجميع الأدلة من حوله، أن البريطانيين لم يخسروا كل المشاعر الإنسانية: «هل الضباط البريطانيون لا يعلمون أن عددًا كبيرًا من النساء البريئات والنبيلات، الصغار والكبار على حد سواء، مع أطفالهن الصغار، يتجولن في الغابات خارج دلهي؟ لم تعد لديهم وجبات يأكلونها ولا ملابس يرتدونها، ولا مكان للنوم ليلًا حتى، ولا

مكان للاحتماء من أشعة الشمس الحارقة.. الآن لا يسع المرء إلا أن يبكي على مصير هذه المدينة».

حتى «جورج واجنتريبير» العنيد صُدِم مما رآه بضواحي دلهي: «في كل أنحاء دلهي تناثرت الجثث، جثث الإبل والخيول والثيران، وقد جفَّت جلودها فتشققت كاشفة عن العظام، ولوثت الهواء برائحة التعفن.. كل شجرة إما تم اقتلاعها أو تسويتها بالأرض من كثرة إطلاق النار، أما منازل الطبقة النبيلة المحاطة بالحدائق، ومنازل غيرهم من الأثرياء الهنود بدلهي فصارت كتلة من الأنقاض، بينما في الأفنية تناثرت بقايا جثث سكانها التي بدأت تتحلَّلُ.. بينما أعبرُ الطريق، رأيت على يساري هيكلًا عظميًّا كاملًا لرجل، العظام كلها متصلة وبيضاء كالثلج، وكلها سليمة غير مصابة، باستثناء ثقب في الجمجمة. وعندما اقتربت من الغابة التي كانت كثيفة الأشجار في وقت ما في «سابزي ماندي»، أدهشني التغيير الذي حدث خلال ستة أشهر فقط، فبدلًا من النباتات الطويلة اليانعة والأشجار، صدمني المنظر الشنيع المرسوم لأميال أمامي، حيث بقيت الجذوع العارية وحدها شاهدًا على ما كان غابة لا يمكن تخيُّلها.. ربما عديد من هذه الأشجار - في الواقع معظمها - تم تجريدها من الأوراق لإطعام الماشية، ولكن جزءًا كبيرًا منها دمَّرته النيران، كذلك تدمرت المنازل والأسوار التي لم تسْلَم هي الأخرى من آثار الرصاص.».

وسط هذه الأنقاض، كافح أهل دلهي، الأغنياء والفقراء على حد سواء، بحثًا عن مأوى وطعام. على حد تعبير «غالب»: «سكان هذا المدينة، يموتون يوميًّا من الجوع والافتقار إلى مأوى.». ظهرت أكواخ يائسة على جانب الطريق، يسكنها غالبًا بعض المرابين والأغنياء، والتجار وأصحاب المتاجر، حتى حلَّ شهر نوفمبر، وصدر مرسوم عن السلطات البريطانية يحظر بناء مثل هذه الأكواخ، وهدمها على الفور. وسرعان ما انتشر الموت بين عديد من السكان اليائسين، على وجه الخصوص أولئك الذين لجئوا إلى ما حول القصر الصيفي القديم لـ«ظفر» في مهرولي وضريح «نظام الدين». كتب الرائد «أيرلندا»: «مئات من الضعفاء هلكوا بسبب العوز واليأس، فيما لم يسمح لهندوس المدينة بالعودة حتى نهاية نوفمبر، أما المسلمون فلم يُسمح لهم بالدخول من البوابات إلا بتصريح، ووضع علامة موالاة على منازلهم، إذ كانوا مطالبين بإثبات ولائهم قبل العودة مرة أخرى.».

لا تزال عائلة «سارفار الملك» الأرستقراطية تحتفظ بخدمها، لكنهم مع اختبائهم في أحد الأضرحة خوفًا من الاعتقال، وجدوا أنفسهم يعيشون حياة جامعي القمامة. كتب «سارفار الملك»: «كان خادمانا يخرجان كل يوم وينضمَّان إلى اللصوص الآخرين فيعودون بأنواع مختلفة من الطعام مثل الأرز ولحم الضأن ودقيق القمح، ويخلطونهم معًا قبل أن يضعوهم في إناء ممتلئ

بالماء، متوازنًا على ثلاثة أحجار وطبخهم. وكان على من يشعر بالجوع الاقتراب بحذر وقلق من النار، ويأكل/تأكل ما يكفيه/يكفيها، قبل أن يعود للاختباء». يتذكَّر «سارفار الملك» تسلُّق شجرة تمر هندي لإلقاء الفاكهة لأصدقائه، ورعبه من رؤية رتل من القوات التي ترتدي ملابس الجيش تقترب منه، وارتياحه عندما غيروا مسارهم وذهبوا في اتجاه آخر.

كان الأسوأ مصيرًا هم كل من ارتبطوا بالبلاط، حتى ولو بشكل عَرَضي، وكان الموت هو العقوبة المعتادة التي تُنزل على رجال الحاشية إذا قُبِض عليهم. وبإدراك «ظهير دهلوي» ذلك استمر في المضي قدمًا بسرعة قدر استطاعته لتجنُّب القبض عليه. لم تكن قصته مختلفة، فبعد هروبه من «مهرولي» توجه نحو «جهجار» مع عديد من اللاجئين الآخرين - الطريق نفسه الذي سلكه «ثيو» في مايو– وأقام عند ابن عمه له، وهناك تناول وجبته الأولى الحقيقية التي سيقضي عدة أيام يتمنى أن يتناول مثلها، مكث هناك لمدة أسبوع، يتعافى من محنته، ولكن في اليوم الثامن، أيقظه ابن عمه في الليل وأخبره أن الإنجليز قد وصلوا، وأنهم يعتقلون لاجئي دلهي بشكل جماعي، وأخبره أن عليه المغادرة على الفور إذا رغب في المحافظة على حياته.

ومن جهجار، مشى إلى بانيبات، حيث التقى بجزء من عائلته في منزل قريبته، لكن مرة أخرى، بعد أيام قليلة، حاصر الإنجليز البلدة من جميع الجهات وبدأوا إجراءَ عمليات اقتحام المنازل بحثًا عن المتمردين والنبلاء المغول ورجال الحاشية. تمكَّن «ظهير» من الهروب بأعجوبة، حيث تصادف أنه خرج من المنزل في لحظة اقتحام الإنجليز نفسها، لكن خاله وشقيقه وزوج أخته، كلهم قُبض عليهم وشُنقوا! استطاع «ظهير» الهروب ليلًا بمساعدة «باز خان»، وهو صديق سابق عمل في القلعة، وتمكنَا من عبور نهر الجانج والوصول إلى باريلي. وهناك نجحَا أخيرًا في اللحاق بركب جيش المتمردين الفارّين، فقط لكي يُقبض عليهما على الفور كجواسيس بريطانيين! كانوا على وشك أن يتم اقتيادهما وإطلاق النار عليهما، عندما مر «مير فاتح علي»، وهو نبيل من دلهي، والذي انحاز لجانب المتمردين، وصادف أنه مرَّ بالقرب منهم على جواده، وتعرف إليهما: «رآني، فقفز عن جواده، وقطع بسيفه الحبال التي تم قيَّدتني أنا و«باز» بها، وأخذنا إلى الجنرال «بخت خان»، فوبخه: «أيها الخونة، لقد دمرتم منزلًا ملكيًّا، وخربتم دلهي، ودمرتم رعاياه وشردتموهم وما زلتم تواصلون الأذى، هذان الرجلان من حاشية الملك المُخلصين، هربا من الإنجليز لإنقاذ حياتهما، وأنتم تعاملونهما كجواسيس! لو لم أرَهما في هذا الوقت لكنتم قتلتم هذين البريئين!»

تمكن «ظهير» من الفرار بصعوبة من الاعتقال من قِبَل البريطانيين للمرة الثالثة في رامبور، وعثر على مأوى ومنصب شاعر حاشية في بلاط حاكم مدينة جايبور، ومن هناك بعد فترة شق طريقه إلى حيدر أباد، حيث، مثل «سارفار الملك»، قام في النهاية ببناء حياة جديدة في خدمة «نظام الدين» إذ في السنوات الأولى من القرن العشرين، كتب «ظهير» أخيرًا، «بلغة زوق وغالب ومؤمن» الملاحظات التي احتفظ بها عن حياته في دلهي المغولية، وهروبه منها، وكتب في نهاية مخطوطته: «عمري تجاوز السبعين الآن، لقد أصبحت ضعيفًا جسديًّا وعقليًّا، وبدأت ذاكرتي تضعف، كما أعاني من صعوبة في السمع ولم أعد أستطيع الرؤية جيدًا. لقد تحطم قلبي بسبب المآسي التي شهدتها».

لم يرَ «ظهير دهلوي» دلهي مرة أخرى. توفي عام ١٩١١ ودفن في منفاه في حيدر أباد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مثَّلت رحلة فرار «ظهير دهلوي» حالة نموذجية لمصير معظم السلاطين ورجال حاشية ظفر، فقلة قليلة جدًّا هم الذين استطاعوا تضليل جماعات البحث البريطانية لفترة طويلة، لأسباب ليس أقلها المكافآت السخية الموضوعة مقابل حصد رءوس كل مَن ارتبط بالقلعة الحمراء. خلال شهري أكتوبر ونوفمبر، أُرسلت مجموعات البحث لتعقب أعضاء القصر الملكي، وكان أول من أُحضِره هما اثنان من أبناء ظفر، «ميرزا بختار شاه»، البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، وميرزا «مياندو»، البالغ من العمر سبعة عشر عامًا. كان أولهما قد قاد قوات ميروت، بينما قاد ثانيهما فوجًا يُسمى «ألكسندر بولتون».. حوكموا على وجه السرعة من قبل الرائد «هاريوت» وحُكم عليهما بالإعدام.

أشار «أوماني» في مذكراته يوم الثاني عشر من أكتوبر: «نزل «واترفيلد» ليخبر السجينين أنهما سيُعدمان غدًا، كنت معه وقت إبلاغهما بالخبر، ولم يبدُ أنهما شعرا بما ينتظرهما على الإطلاق، كل ما رغبَا فيه هو رؤية نسائهما وأطفالهما.. فأخذت زوجَا «ميرزا مياندو» وطفلَه ليروه لبضع دقائق. وفي اليوم التالي نُقِلَا إلى الخارج في عربة، والتي سارت أمامها مدفعية تمهد الطريق. وعند الوصول إلى مكان الإعدام - الشاطئ الرملي أمام القصر - تم تشكيل الصف في هيئة طابور وأُخرج السجناء من العربة وعُصبت أعينهما. وقف أمامهما اثنا عشر رجلًا من حَمَلة البنادق.. ومع ذلك، فمن أطلق النار كان الجورخا الذين صوَّبوا في أماكن لا تُميت فورًا وذلك لضمان وفاة بطيئة ومؤلمة، واضطر الضابط المسئول في النهاية وبعد دقائق مملة إلى قتل الاثنين بمسدسه. كتب «تشارلز جريفيث»:

«كان الضحايا في أشد حالات السوء والقذارة، لكنهما واجها مصيرهما بصمت ورباطة جأش.»، لقي معظم أبناء وأحفاد ظفر النهاية نفسها، عاجلًا أم آجلًا. لاحظ الرائد «وليام إيرلندا» أنه: «كان لدى الأمراء كل الفرص للهروب، ومع ذلك، من المدهش أن عددًا كبيرًا منهم قد قُبِض عليهم بسهولة؛ في النهاية أُخِذ تسعة وعشرين ابنًا للبيت الملكي وأُعدموا!»

لاقى عديدون من أفراد العائلة المالكة نهاية رهيبة لدرجة أن «غالب» قام بتغيير الاسم الأوردي التقليدي للقصر - القلعة الميمونة - إلى القلعة المشئومة. فقط اثنان من أبناء ظفر هما من قيل أنهما نجحا في الهروب. ففي الوقت نفسه الذي اعتقل فيه «ميرزا بختار شاه» و«ميرزا مياندو»، اعتقِل أميران آخران –«ميرزا عبد الله» و«ميرزا قويش»– اللذان كانا يختبئان بيأس في ضريح «همايون»، ووُضِعا تحت حراسة السيخ. وفقًا للتاريخ الشفوي الذي سجله الكاتب الأوردي «أرش تيموري» في السنوات الأولى من القرن العشرين، شعر قائد قوات السيخ بالشفقة على هذين الشابين، وسألهما «لماذا أنتما واقفان هنا؟ قالا: الصاحب (الإنجليزي) طلب منا الوقوف هنا».. نظر إليهما وقال: «ألا تخافان على أنفسكما؟ إن عاد فسوف يقتلكما، اركضا فورًا في أي اتجاه مبتعدين عن هنا، ولا تتوقَّفَا حتى لالتقاط أنفاسكما.» وبعدما قال هذا، أدار ظهره لهما، وهرب الأميران كل في اتجاه.

بعد مرور بعض الوقت، عاد «هودسون» ورأى أن السجينين قد فرَّا. فسأل السيخي: «أين ذهب هؤلاء الرجال؟» أجابه كما لو كان يجهل مقصده: «من تقصد؟» فقال «هودسون»: «الأميران اللذان كانا يقفان هنا!» قال: «لا أفهم.. أي أميرين؟».

توجه «ميرزا قويش» من فوره مباشرة إلى منطقة «نظام الدين»، إلى صهره، وأخبره أنه هرب من «هودسون»، فأخبره الآخر أن عليه الهرب فورًا، فحلق رأسه، ولفه بقطعة قماش، كما لف قطعة قماش حول خصره؛ وهكذا بدَّل مظهره إلى مظهر درويش فقير، وتمكن بهذا من الوصول إلى أودايبور [في راجستان]. حيث التقى هناك بأحد خصيان الحاكم الذي جاء أيضًا من دلهي. واستطاع الخصي إقناع الحاكم بأن الدرويش الجديد الذي وصل توًا له كرامات، وإذا حدَّد له سموه راتبًا ثابتًا، فسيظل يدعو له بطول العمر والثروة. حقق الحاكم له تلك الرغبة وأصدر أوامره بمنح الدرويش روبيتين كل يوم راتبًا ثابتًا، وهكذا عاش باسمه الجديد «ميان صاحب» اثنان وثلاثون عامًا بعد التمرد. أمَّا «هودسون»، فلم يتوقف عن البحث عنه في كل مكان وزاوية، ولكن دون جدوى، حتى إن الحكومة علَّقت ملصقًا لاعتقاله وأعلنوا عن مكافأة كبيرة أغرت عدة أشخاص، فذهبوا إلى أودايبور، وبمساعدة رئيس شرطة المدينة وصلوا إلى المنزل الذي كان يعيش فيه «ميرزا قويش»

متخفيًا، ولكنهم لم يتعرفوا إليه، ومات رجلًا حرًّا في أودايبور. أمَّا بالنسبة لـ«ميرزا عبد الله» فقد هرب إلى ولاية تونك وعاش في ظل ظروف صعبة للغاية، متجولًا هنا وهناك كشحاذ مثير للشفقة وتوفي في النهاية فقيرًا جائعًا. لم تكن الأوامر واضحة فيما يلي القبض على الأمراء المختلفين، لم تكن هناك سياسة واضحة بشأنهم؛ فأولئك الذين أثبت تورطهم بأي شكل من الأشكال في الثورة شُنقوا على الفور، لكن ذلك ترك أعدادًا كبيرة من الأمراء الذين كان من الواضح أنهم غير مذنبين بأيَّة جريمة غير جريمة الانتماء إلى سلالة المغول.

أظهرت سجلات الحكومة البريطانية في دلهي في هذه الفترة - والتي بقيت على حالها في أرشيف مكتب مفوض دلهي - الطبيعة التعسُّفِيّة والفوْضَوية الشديدة للبريطانيين في الاستجابة لهذه المشكلة. شُنِق بعض هؤلاء الأمراء، وبعض آخر نُقل إلى المعتقل الإمبراطوري الجديد الذي أُقيم في مكان حار ورطب بجزر أندمان، وأُرسِل بعضهم إلى المنفى الداخلي. كما سُجن معظمهم في مدينة أجرا، وكانبور أو الله أباد، حيث ماتت أعداد كبيرة منهم في غضون عامين بسبب ظروف سجنهم القاسية. ومن بين هؤلاء رجل مشلول، وصبي يبلغ من العمر ١٢ عامًا، ورجل شيخ، لكن بعض الحالات تمت مراجعة أحكامها من قبل «سوندرز» في أبريل ١٨٥٩ بأوامر من «جون لورانس».

كان على مفوض دلهي أن يعترف بأن «بالنسبة لكل الأمراء والسلاطين المسجونين تقريبًا، فإن التحقيقات التي قمت بها لم تؤدِّ لإدانة أي من الأطراف المذكورة أعلاه، بل من المستحيل في معظم الحالات إثبات أيَّة صلة بالتمرد! ولم تثبت إدانة أي من السجناء بأيَّة جريمة أكثر خطورة من كونهم أعضاء في عائلة الملك السابق. في عيون عديدين يعتبر هذا كافيًا لتبرير إيقاع أشدِّ العقاب عليهم، لأنه من المعروف أن كل آل تيمور (كما كان متوقعًا بشكل طبيعي جدًّا) كانوا يفكرون في احتمال أن تتمكن سلالتهم من النهوض مرة أخرى، وهكذا وقفوا متفرجين وبحماسة على الأعمال العدائية والمشاهد المروعة التي خرجت من القصر. لذا كان القصاص الذي وقع على أهل البيت شديدًا، وكانت نسبة الوفيات بين السجناء الذين مَثَّلت قضاياهم أمام المفوض ضخمة للغاية. حيث أرفِقت قائمة بخمسة عشر أميرًا ماتوا في السجن في الثمانية عشر شهرًا الماضية. لذلك أوصي بأن يُرحَّل السجناء الناجين من دلهي إلى رانجون حيث من غير المحتمل أن يكتسبوا أي نفوذ محلي أو صداقة مع أحد، أو «بيناريس» وهي مدينة هندوسية، أو «ملتان» إذا اعتُبر بقاؤهم تحت مسئولية حكومة البنجاب ضروريًّا.».

في هذه المرحلة، ظهرت الفوضى الكاملة لنظام العقوبات، الذي جاهد للتعامل مع العدد الهائل من الأسرى المسجونين بعد الانتفاضة. وأرسلت السجون المتتالية رسائل إلى «سوندرز» تنفي فيها وصول أي من السجناء الذين سُجل أنهم قد تم إرسالهم اليهم؛ اتضح أن السجناء المنفيين إلى «بورما» أُرسلوا بدلًا من ذلك إلى جزر «أندمان» أو إلى «كراتشي»؛ وتبين في هذه المرحلة أن عدد القتلى خلال عامين فقط كان أعلى بكثير مما كان متوقعًا في السابق. اعتُقِدَ أيضًا أن مجموعة من السلاطين التعساء أرسلوا إلى «أجرا» لكنهم لم يصلوا، فتم البحث عنهم في «كانبور»، ثم اكتشفوا في النهاية أنهم كانوا في سجن «الله أباد»، ثم انتقلوا مؤخرًا إلى «كالكوتا» لإرسالهم إلى جزر «أندمان»؛ وكانوا على وشك الانطلاق إلى هناك عندما أُرسلوا بدلًا من ذلك –عن طريق الخطأ - إلى المنفى في «كراتشي» في الجهة الأخرى من الهند.

في النهاية، قُسِّم الناجون - بمن فيهم عديد ممن لم يكونوا قد اعتقلوا وإنما كانوا يعيشون بسلام في دلهي - لعدد صغير أُرسِل إلى «كراتشي»، والغالبية العظمى من السلاطين الذكور تم نفيهم إلى «مولمين» في «بورما»، أي إنه لم يُسمح لأي رد من سلالة المغول بالاستقرار في دلهي، حتى إن تمكنوا من إثبات براءتهم كاملة، على الرغم من أن خمسة من أمراء «كراتشي» هربوا فيما بعد ويُعتقد أنهم عادوا إلى العاصمة المغولية متخفيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن العائلة المالكة فقط هي التي كان البريطانيون عازمين على اعتقالها وتقديم أفرادها للمحاكمة للتخلص منهم. في أثناء فترة الثورة حاول معظم ملاك الأراضي المحليين إمساك العصا من المنتصف، محاولين استرضاء كلا الجانبين، دون أن يدعموا أيًا منهما. ومع ذلك، اعتبر البريطانيون الحياد ذنب، وُقبض على النبلاء ورجال البلاط واحدًا تلو الآخر، وسُجنوا وحوكموا وأُعدموا. كان أحد المعتقلين صديق «غالب» المدعو «مظفر الدولة» في «ألوار» واثنين آخرين من نبلاء «دلهي» وشنقوا بالقرب من «جورجاون»، فقد قرر جامع المقاطعة إنه لا يوجد سبب لإعادتهم إلى دلهي ومحاكمتهم هناك وهكذا أُعدموا في مكانهم! أما الزعيم الشيعي «حامد علي خان»، الذي غادر دلهي مع عائلة «ظهير دهلوي»، فقد أُلقي القبض عليه بالقرب من «كارنال». وكذلك الحكيم «محمد عبد الحق» والسيد «محمد خان»، والذي كان صديق «ميرزا خضر سلطان» الأمين، والذي قاد جناحًا من جيش المتمردين في معركتي «جسر هندون» وفي «بادلي كي سيراي»، فقد قُبض عليهم معًا في «جهجار»، وبعد إعادتهما إلى دلهي للمحاكمة، تم إيقاع أقصى العقوبة بهما بموجب القانون في ٢٥ نوفمبر. كما أُحضِر حاكم بلدة «فاروخ نجار» من قصره واتضح أنه مدمن الأفيون، فعانى من أعراض الانسحاب الرهيبة عندما

توقف إمداده بشكل قاطع في ظل نظام سجن «أوماني الصارم»، وفي النهاية أُعدِم. كما ذهب «ثيو» ميتكالف شخصيًّا للقبض على حاكم «جهجار، الذي رفض منحه المأوى في الأسبوع الأول من الثورة، وكان «أوماني» معجبًا بشكل خاص بشجاعة حاكم «جهجار»، واصفًا إياه بـ«يبدو رجلًا شجاعًا ووسيمًا نوعًا ما». وتأثَّر «أوماني» بالحكم عليه بالإعدام: «بكى ابناه بشدة، وكان مشهدًا مؤلمًا للغاية.. شعرت بالشفقة والحزن لأنه كان رجلًا حسن المظهر وتَحَمَّل عقوبته برباطة جأش، كما قام خدمه بتحيته باحترام شديد عند مغادرته لتنفيذ حكم الإعدام.».

لم يكن «أوماني» وحده الذي تأثر بشنق كل هؤلاء النبلاء؛ حيث أُعجبت شاهدة أخرى، وهي السيدة «موتر»، بشكل خاص بـالكلمات المذهلة ومنطق دفاعهم في المحكمة، خاصة ما قاله حاكم «جهجار»: «كانت إنجلترا هي التي سلَّحت ودربت الأشرار الذين جلبوا الجحيم على تلكم الأرض، وليس من العدل أن نتوقع منه أن يفرض هو الطاعة على السيبويين، بينما لم يتمكن حكام البلد بكل سلطاتهم من فرض طاعتهم عليهم.» لقي الأمير مصيره على المشنقة بهدوء وثبات وتحمل للدرجة التي أثرت في زوجي، الذي يقود الحرس، فحمل أشد الاحترام للرجل. وقد تماثلت هذه الكآبة مع كآبة موت أمير بلدة «بالابجاره»، الذي - بصفته هندوسيًّا - ربما كان محايدًا بين الإنجليز وبين الإمبراطور المسلم. كان شخصًا لطيفًا، وشابًّا ووسيمًا، وكان هذا مصيرًا صعبًا ليلاقيه نبيل مثله في ظروف تكون فيها كل الطرق محفوفة بالخطر، والموت يتربص به من كل جهة، وعقاب كل الأفعال، بل عقاب على أنك لم تفعل شيئًا! كان هناك شيء مؤثر في الكلمات الأخيرة التي قالها أمام القضاة: «كنت آمنًا على غصن شجرة مزدهرة، لكن أفعالي أدت إلى تفتيت الغصن الذي استندت عليه.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سرعان ما أثبت «ثيو ميتكالف» أنه أحد أكثر جامعي الغنائم والجلادين شراسة، إذ يبدو أن رغبته في الانتقام كانت تتزايد منذ وصوله إلى المعسكر البريطاني في نهاية تجواله هائمًا على وجهه. وبحلول أكتوبر وصل به الأمر إلى حد نصْب حبل مشنقة في منزل «آل ميتكالف»، وهناك قام بإعدام أي هندي اعتبره مذنبًا، مصرِّحًا أن هذا هو القصاص لتخريب بيت عائلته والخيانة التي عانى منها شخصيًا. كانت إحدى هذه الانتقامات هي ما سجلته جريدة «دلهي جازيت»، بخصوص قرية كانت قامت بتسليم واحد من خدم «ثيو» للمتمردين في أثناء الثورة. وعلى سبيل الانتقام، قيل إن ثيو أطلق النار على واحد وعشرين رجلًا من سكانها القرويين، ومن منزله الجديد الذي اتخذه بالقرب من بيت «زينَّت محل» الرائع في «لال كوان»، أرهب «ثيو» المنطقة المحيطة بدلهي، وانقضِ على مجموعات من اللاجئين تحتمي في المقابر

والأضرحة، وقام بشنق أي رجل ظنَّ فقط أنه شارك في الانتفاضة. وفقًا لما نشرته جريدة التايمز في يناير ١٨٥٨: «كان «ميتكالف» يشنق يوميًّا أقصى عدد يمكنه أن يعدمه بنفسه، فقد كان يحمل كراهية شديدة تجاه السكان الأصليين.». كما كتب «ظهير دهلوي»: «كان ميتكالف كلما رأى شابًّا يطلق النار عليه بمسدسه دون أي سبب ودون تحرٍّ.».

في الواقع، كانت سمعة «ثيو» مخيفة للغاية لدرجة أنه سرعان ما أصبح «فزاعة دلهي» نوعًا ما، فكان اسمه وحده كافيًا لإحداث الرعب. وفقًا للسيدة «كوبلاند»: «عندما كنت في «دلهي» كان «ميتكالف» محمومًا بالبحث ومطاردة وإعدام المتمردين والقتلة، كان كأن لديه عينًا سحرية لكشف الجُناة. ذات يوم، كان بمنزل الجنرال «بيني»، بين مجموعة من الحراس، وفجأة أحس أن هناك قاتلًا يختبئ في المنزل، فأخرجه على الفور وأعدمه، وبالطريقة نفسها اكتشف أيضًا قاتل السيد «فريزر» المسكين، وأمر بشنقه. وفي يوم ما جاء صائغ من السكان الأصليين ليقدم بضاعته للسيدة «جارستين»، التي شعرت أنه يغالي في ثمن بضاعته، فهددته بـ«سأرسلك إلى «ميتكالف»؛ وعندها انطلق الرجل مسرعًا لدرجة أنه ترك الحلي وراءه ولم يظهر وجهه مرة أخرى.».

كانت هذه الفترة مخيفة، حيث لم يمرَّ يوم بدون كثيرٍ من عمليات الشنق والقتل، وكأن الإعدام صار القاعدة وليس الاستثناء. حتى إنه فقد معناه وتسبب للبريطانيين بكثير من الملل لتَكراره، كما برز في هذه الفترة استعداد «ميتكالف» لإطلاق النار والإعدام لدرجة جعلته يُعتقد أنه مسئول عن عدد استثنائي عن عمليات القتل التعسُّفِي. وبدأت أنباء تجاوزاته الوصولَ إلى السير «جون لورانس» في لاهور، الذي سرعان ما أصبح قلقًا بشأن هذه الأنباء والتقارير التي تفيد بأن «الضباط المدنيين يقومون بعمليات الإعدام بإرادتهم الخاصة ولمتعتهم». ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ «لورانس» إجراء استفسارات عما إذا كان «ثيو» بحاجة لمن يكبح جماحه، أو حتى صرفَه من الخدمة. كتب «لورانس» إلى «سوندرز»: «إذا كان ما سمعته صحيحًا، فمن واجبنا التدخل وعدم السماح لـ«ميتكالف» بكل هذه السلطة التي يمنح بها الحياة ويقتلعها حسب أهوائه الخاصة، إن موظفيّ هناك يشعرون أن حماسته تتعارض مع التروِّي العادل المطلوب في مثل هذه الفترة، وأنه كلما أسرعنا بسحب سلطة القتل منه كان ذلك أفضل لمصالحنا في الهند.» وكان قلق «لورانس» يزداد طرديًّا مع الأنباء التي تصل له، فكتب إلى سوندرز مرة أخرى: ««ثيو» لديه صفات عسكرية جيدة، وبدا كم هو متميز في أيام «دلهي» الأولى، لكنه يخطئ الآن بشكل شديد ويتصرف بشكل غير حكيم، بسبب السخط الذي يشعر به ضد المسلمين، صار من الصعب جدًّا التعامل معه،

كان والد «ميتكالف» من أقدم وأفضل أصدقائي، وأنا شخصيًّا سأكون سعيدًا بمساعدته؛ ولكن هناك اعتبارات أعلى من هذه!».

كان من ضمن مهام «إدوارد كامبل» كجامع غنائم هي المشاركة أيضًا في أعمال الانتقام، لكنه أظهر حماسة أقل بكثير للمهمة من حماسة صهره العنيف وتعطشه المتزايد للدماء، وكتب بانتظام إلى «جي جي» من جولاته الاستكشافية المختلفة بحثًا عن خيرات وكنوز دلهي، فكتب لها ذات مرة: «في أثناء بحثي في المدينة، وجدت كتابًا قديمًا فارغًا، فقطعت منه ورقة لأكتب لكِ عليها، ثم أرسلت لطلب بعض الحبر من أحدهم وأرسلت إليك خطابي، كما أنني احتفظت ببعض الأشياء الصغيرة لكِ مما أجده، مجرد أشياء بسيطة فقط، لكنني أعتقد أنك ستحبينهم، وسأرسلهم في أول فرصة..». كون المرء جامعَ غنائم هي وظيفة ذات رواتب عالية ومكانة، كما إنها مربحة للغاية، ولكن لم تكن الشيء الذي يروق لـ«كامبل»؛ فكتب إلى «جي جي» في ذلك الأسبوع: «إنه عمل قذر جدًّا؛ تخويف المرابين وأصحاب الأملاك ودفعهم إلى الكشف عن المكان الذي خبَّئوا فيه ثرواتهم.. تعرفين يا عزيزتي، كيف أنني لا أقوى على تعذيب أحد أو ترهيبه، فتركت لـ«ريفورد» تلك المهمة، ليقوم هو بتخويفهم والاستيلاء على ثرواتهم. لكنني مع أنني متأكدٌ أنني لست قاسيًا بالمرة، إلا أنني لا أستطيع أن أستمر طويلًا بالمهمة نفسها. يهرب الناس منَّا بمجرد رؤيتنا، وإن لم نحصل على شخص واحد ليدلنا على المكان الذي يخفون فيه أموالهم ينتهي بنا الأمر ننقب للأبد، إنه عمل مضنٍ ومُتعب.. وربما أزعجتك كثيرًا بالتحدث عنه، لكن أتعرفين؟ وجدنا في أثناء البحث أحد الكراسي القديمة المسروقة من بيت «ميتكالف». أخشى أن المسكين «ثيو» فكر في أنه يستحق امتلاكه، وسوف يُجن عندما يجد أنه سيتعين عليه شراؤه من جديد لأن ذلك الكرسي، مثله مثل أي شيء آخر موجود الآن في «دلهي»، اعتُبِر ملكية للحكومة.. وهو شيء يحزنني قوله باعتباري واحدًا من جامعي الغنائم.»

ثم إنه كتب شيئًا ما كان يأمل ألا تفهمه «جي جي» بشكل خطأً: «أخشى أن «ثيو» يتصرف بشكل خاطئ تمامًا، وإنه يستخدم معرفته ودرايته بالمدينة لخدمة مصلحته الخاصة، ولا يمكنني أن أخبرك كم إن هذا مؤلم بالنسبة لي!» كان يقصد –وهو ما تبرره الاتهامات اللاحقة لـ«ثيو» - أن «ثيو» مشتبه به في إعدام مواطني دلهي البارزين إذا رفضوا تسليم ثرواتهم إليه. كما كانت هناك شائعات بأنه كان يقوم بعمليات نهب خاصة ويستقبل الرشاوي لحماية المرابين الذين يرغبون في الاحتفاظ بممتلكاتهم وكانوا على استعداد للدفع لحماية أنفسهم.. كان «ثيو» بالتأكيد يئِسًا بما يكفي للتصرف بهذه الطريقة؛ إذ كان قد فقد كل شيء قبل اندلاع الثورة وفي أثنائها؛ والده، زوجته، منزله وميِراثه وِأمواله التي تم استثمارها في بنك دلهي. عِلاوة على ذلك، لكونه

رجلًا مدنيًّا رسميًّا، لم يكن لديه أي حق في المطالبة بأموال الغنائم، التي من المفترض أن تذهب فقط للجيش. اعترف «إدوارد كامبل» بأن هذا على الأقل كان غير عادل: «أعتقد أنه يجب أن يحصل على نصيبه من أموال الغنائم كرجل عسكري، حيث شُجِّع على التصرف مثل جندي، وتعيينه في قيادة إحدى مجموعات الجنود التي انطلقت نحو دلهي حتى المسجد الجامع، وأنا آمل في أن يحدث هذا، وإلا فإننا، بصفتنا جامعي الغنائم، يجب أن نتدخل.».

واختتم «إدوارد» حديثه قائلًا: «أميل بشدة إلى التخلي عن منصب جمع الغنائم هذا يا «جي جي»، لكنها وظيفة جيدة، وسيكون من الخطأ بالنسبة لي أن أضحِّي بفرصة الحصول على كل هذا المال خلال فترة قصيرة جدًّا.. آمل أن يعيدونا إلى الوطن - إنجلترا - قريبًا، لأن عددنا أصبح قليلًا جدًّا الآن لدرجة أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا في التجنيد حتى نصل لعدد قوتنا السابقة. بلغ عدد قتلانا وجرحانا منذ ٣٠ يونيو - عندما وصل «كامبل» لدلهي - حوالي أربعمائة قتيل، أي نصف عدد القوات تقريبًا!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول نهاية يناير ١٨٥٨، كان البريطانيون قد انتهوا من محاكمة جميع نبلاء البلاط وشنقهم، وجاء دور «ظفر» نفسه ليواجه المحاكمة. طوال الخريف وبداية شتاء عام ١٨٥٧، بينما كانت معركة «لاكناو» لا تزال مستعرة في النصف الشرقي من هندوستان، بذلت الإدارة البريطانية في دلهي كثيرًا من الجهد للتحضير للمحاكمة التاريخية للرجل الذي كان من الواضح الآن أنه سيكون «المغولي الأخير». أُرسل المترجمون من «لاهور» للمساعدة في التعامل مع الكميات الكبيرة من الأوراق التي سُرِقت من مستشاري القصر ومن معسكر المتمردين؛ كما فُحص مدى شرعية الضمان وطبيعته الذي قدمه «هودسون» للحفاظ على حياة «ظفر»، وتمت مناقشة طبيعة محاكمة الإمبراطور، والتُّهم التي ستُقدَّم. في النهاية تم الاتفاق على أن الضمان كان مُلزمًا قانونًا، على الرغم من أنه قد مُنح بمخالفة لـتعليمات متكررة من اللورد «كانينج»؛ واستقر الرأي أن يُتهم «ظفر» بتهمة «التمرد والخيانة والقتل» و«عدم الالتزام بالولاء» كواحد من الرعايا البريطانيين أمام لجنة عسكرية، ويجب أن يمتثل لجلسة استماع التهم الموجهة إليه في نهاية يناير ١٨٥٨.

كان الرائد «هاريوت» الذي قام قبلًا بمحاكمة معظم بلاط «ظفر» وعائلته وشنقهم، هو المُكلَّف الآن برئاسة محاكمة الرجل الذي أوضح أنه يعتبره «زعيم المتمردين».. لكن، ما لم تتم مناقشته مطلقًا هو ما إذا كانت الشركة مخوَّلة قانونًا لمحاكمة «ظفر» من الأصل! فعلى الرغم من أن الحكومة اعتبرت أن «ظفر» كإمبراطور حصل على معاش تقاعدي من الشركة،

وبالتالي كان متقاعدًا تابعًا للشركة وواحدًا من رعاياها، إلا أن الوضع القانوني الفعلي كان غامضًا أكثر من ذلك بكثير. لأن ميثاق الشركة الصادر عام ١٥٩٩ للتجارة في الشرق مستمد من البرلمان والتاج، فإن سلطته للحكم في الهند فعليًّا بشكل قانوني تدفَّقت من شخص الإمبراطور المغولي، الذي تولى رسميًّا الشركة بصفته جابي الضرائب في البنغال في السنوات التي أعقبت معركة بلاسي، في ٢ أغسطس ١٧٦٥. وفي عام ١٨٣٢، اعترفت الشركة بأنها تابعة للإمبراطور المغولي على عملاتها المعدنية وحتى على خَتْمها الكبير الذي كان مغطًى بنقش «تابع مخلص لشاه علم»؛ إلى أن أُزيل هذا فقط تحت ضغط من السير «تشارلز ميتكالف» في عام ١٨٣٣. منذ ذلك الحين، لم يحدث شيء لتغيير العلاقة القانونية بين الطرفين، على الرغم من أن الشركة توقفت من جانبها عن تقديم هدايا الولاء ولم تعد تعلن تبعية عملاتها أو ختمها، لا لـ«شاه علم» ولا لـ«أكبر شاه» ولا لـ«ظفر» نفسه، ففقد المغول سيادتهم على الشركة. من وجهة النظر هذه، يمكن أن يُحاكم «ظفر» بالتأكيد كملك عدو مهزوم. لكنه لم يكن قط خاضعًا تابعًا، وبالتالي لا يمكن أن يسمى متمردًا مذنبًا بالخيانة. بدلًا من ذلك، من وجهة النظر القانونية، يمكن إثبات أن شركة الهند الشرقية هي المتمرد الحقيقي، ومذنبة بالتمرد ضد رئيس أقسمتْ بالولاء له لما يقرب من قرن.

من تمكن من التعبير عن عبثية اتهام الشركة لـ«ظفر» بشكل رائع كان مراسل صحيفة التايمز «ويليام هوارد راسل» الذي وصل إلى أنقاض دلهي في هذا الوقت تقريبًا. وكانت الهياكل العظمية لا تزال متناثرة في الشوارع، وقباب المدينة ومآذنها مثقوبة من القذائف، لكن جدران القلعة الحمراء كانت لا تزال تبدو رائعة.. كتب «راسل» في مذكراته الهندية: «نادرًا ما رأيت جدرانًا رائعة لتلك الدرجة، وذكرني منظر الجدران الحمراء اللامعة العظيم بأروع جزء في قلعة «وندسور»».

كما تأثَّر «راسل» بوسائل الراحة في قلعة «لودلو»، مسكن «سيمون فريزر» القديم، الذي امتلكه مؤخَّرًا «سوندرز»، المفوَّض المدني، وقام بإصلاحه وتجديده. وكتب «راسل»: «انطلقت العربة ذات الخيول خلال الرواق الرائع، فخرج رجل إنجليزي لطيف دمث الخلق، ودون أن أعرف أين أنا، اقتادوني حيث تجلس امرأة إنجليزية فاتنة في حجرة نظيفة وأنيقة، تتوسط مجموعة من الزائرين. لم أكن قد رأيت وجه امرأة إنجليزية منذ أن غادرت كالكوتا، هذا بالإضافة إلى جمالها الواضح، فيما أنا في أسوء حال ممكن، يغطيني التراب - والقذارة على ما أخشى - فبدوت شخصًا غريبًا مثيرًا للريبة. شعرت كما لو أنني عدت فجأة إلى الحياة المتحضرة، وسط كماليات لم أرَها منذ زمن طويل، وغزتني الراحة لِما في المنزل من وسائل الراحة والرفاهية؛ غرف فخمة واسعة، وسجاد ناعم، وأرائك، وكِراسٍ مريحة، وكتب، ولوحات وكثير

من وسائل الراحة الأخرى في الداخل. أما فَي الخارج، جلس بعضٌ في ظل المظلات الهندية، يتناولون أطباق الكسكسي كوجبة إفطار أولى، حيث إن هناك وجبتَيْ إفطار، واحدة في الساعة ٨ والأخرى في الساعة ٣.».

أمَّا وجهة «راسل» النهائية، فكانت أقل من هذا بكثير، إذ تم اقتياده لاحقًا إلى ممر خلفي قاتم مظلم للقلعة الحمراء، حيث زنزانة الرجل الذي قيل له إنه العقل المدبر للثورة، وتساءل مندهشًا: «هل ذلك الرجل الشيخ ذو العينين الباهتتين الحالمتين والشفتين الرقيقتين اللتين تعتليان فمًا بلا أسنان، هو الذي وضع تلك الخطة الضخمة لاستعادة إمبراطورية عظيمة؟ هل هذا هو الرجل الذي وضع خطة أكبر تمرد في تاريخ العالم، والذي راقب من جدران قصره القديم بلا اهتمام النيران وهي تلتهم البريطانيين؟».

كان «ظفر» مريضًا عندما دخل عليه «راسل»، وقد كاد جسده المنحني يسقط فوق حوض من النحاس الأصفر، حيث كان يتقيأ بعنف.. كان شيخًا ضئيلًا ضعيفًا، يجلس أرضًا، ويرتدي سترة رخيصة وقذرة إلى حد ما، وقدماه الصغيرتان النحيلتان عاريتان، ورأسه مغطى بقبعة مهترئة، ولم تخرج كلمة واحدة من شفتيه. جلس في صمت ليلًا ونهارًا، وعيناه تحتضنان الأرض، وكأنه غافل تمامًا عن الظروف التي يعيش فيها، وقد بهتت عيناه ككل مَن هم في عمره، وقد سمعه بعضٌ يتلو أبياتًا من تأليفه، أو يكتب بعض أبيات الشعر على الحائط بعصًا محترقة.

لكونه على علم بتاريخه، وتاريخ المغول عامةً، وأثارته روعة أطلال قصر المغول الكبير، كان «راسل» متشككًا بشدة في شرعية اتهامات الشركة ضد «ظفر.» فمن قلعة المغول أُرسلت المراسيم المتغطرسة التي أعطَت لعدد قليل من التجار المرتجفين الحقَ في امتلاك الأراضي في الهند بشرط الخدمة والخضوع، وحتى في أقصى سنوات تدهوره، كان سليل «أكبر» يحيط نفسه ببقايا الكرامة التي لم يستطع الحاكم العام للهند الحفاظ عليها، وكان الضباط البريطانيون في دلهي ملزمين أن يظهروا في اجتماعاتهم معه كل علامات الاحترام الظاهرة التي يحق للملك أن يطلبها من خدمه.

قيل عن الملك إنه جاحدٌ لانقلابه على حلفائه، كان بلا شك شيخًا ضعيفًا ويائسًا، ولكن الحديث عن الجحود في حق من رأى كل سلطان أسلافه يُسحب منه تدريجيًّا حتى كان لقبه في النهاية قد تُرك له بلا أقل أهمية فعلية، بالإضافة إلى خزينة الدولة الفارغة، والقصر المليء بالأميرات المُفلسات، فكل هذا كان لا يُحتمل! فكيف يمكن أن يكون ممتنًّا للشركة على الحال التي وجد نفسه فيها؟ وإن كنا الآن قد صرنا نمتلك الحقوق والمواثيق نفسها لسيادتنا على الهند واستولينا على الأملاك التي امتلكها المؤسسون المسلمون لبيت دلهي، وأصبحت لدينا السيطرة نفسها على هندوستان التي

امتلكوها من قبلنا بحق فتْحِهم لها، فنحن لم نأتِ إلى الهند كما فعل المغول على رأس جيوش عظيمة، بقصد إخضاع البلاد المعلَن. وإنما تسللنا كمقايضين متواضعين، واعتمد وجودنا على الأمراء وملوك دلهي؛ والكرم الذي أظهرناه لم يكن سوى اعتراف صغير بالخدمات التي منحها أسلافه لعرقنا.

واختتم «راسل» كلامه بالإشارة إلى أنه إذا كان الملك سيحاكم أمام محكمة قانونية سليمة، وليس أمام لجنة عسكرية، فإن التهم الموجهة إلى «ظفر» يكاد يكون من المستحيل إثباتها: «ما يعرفه أي محامٍ إنجليزي في محكمة إنجليزية عادلة، أنه سيكون من الصعب جدًّا على حكُومتنا أن تتوصل إلى وضع اتهام ضد ملك دلهي بتهمة الخيانة وشن الحرب ضدنا بصفتنا مجرد أثرياء بارزين في دولته!».

كتب «راسل» أيضًا أنه يعتقد أن «ظفر» بالكاد يمكن إلقاء اللوم عليه لرغبته في التخلص من استعباده. كتب: «لم أستطع الامتناع عن التفكير، وأنا أنظر إلى الرجل الشيخ، أن حكامنا كانوا مسئولين إلى حد ما عن الجرائم التي ارتكبها، في رأيي، كان منصب الملك من أكثر المناصب التي لا تطاق قبل اندلاع الثورة. قصره كان في الواقع منزلًا قائمًا على العبودية؛ كان يعلم أن الامتيازات القليلة اليائسة التي تُركت له، تركت له كاستهزاء من القوة التي كانت لديه، وأنه سيتم سلبها من خلفائه، وسيتم حرمانهم حتى من الحق في العيش في قصرهم، ونفيهم إلى مكان ما خارج جدرانها. رفضنا السماح لأقاربه من العائلة المالكة بالالتحاق بشركة الهند الشرقية؛ حكمنا عليهم بالعيش المهين، في الفقر والديون، داخل حدود قصرهم، ثم عاتبناهم على كسلهم وخِستهم وشهوانِيَّتهم. أغلقنا بوابات الترقية العسكرية بالنسبة لهم - أخذنا منهم كل شيء طموح مشرف - وبعد ذلك امتلأت أوراقنا وحوارات غرف الطعام لدينا بالحقد ضد الأمراء الكسالى الشهوانيين. الأفضل للمرء أن يموت ألف مرة، عن أن يحيا في مثل هذه الحياة المهينة، وهذا الوجود المهين. ولو أن الشيخ وأبناءه امتنعوا عن سفك دماء الأبرياء، ولو أنهم ماتوا وهم يدافعون عن بلادهم لكنت شعرت بالتعاطف مع مصيرهم.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «ظفر» لا يزال مريضًا جدًّا في اليوم المحدد أخيرًا لمحاكمته، ٢٧ يناير ١٨٥٨. بزغ فجر يوم شتاء بارد رطب غائم، كتب «إدوارد أوماني» في مذكراته أنه كان ممتنًا لدفء النيران الموجودة في غرفة نومه. أبلغ «أوماني» «سوندرز»: «يبدو أن الشيخ محطمٌ للغاية هذا الصباح.. بدا ضعيفًا للغاية، وبالكاد يستطيع الكلام. لا أعتقد أنه يمكن أن يتحمل وقتًا أطول بهذه الطريقة.». كما فَقَد «ظفر» قدرته على المشي، وكان على «أوماني» مساعدته في الخروج؛ يدعمه من جانب «ميرزا جيوان بخت» ومن الجانب

الآخر أحد الخدم.. اقتادوه إلى قاعة الجمهور القديمة الخاصة به، حيث كان سيُحاكم الآن بتهمة الخيانة من قبل أولئك الذين لا يزال لديه من الأسباب ما تجعله يعتبرهم تابعيه. لتذكيره بحالته الحالية، لم يُسمح لـ«ظفر» بإمساك منفضة الذباب، أو الجَوْزة الخاصة به. كان من بين المتفرجين الذين اتَّخذوا أماكنهم بالفعل «تشارلز» و«ماتيلدا سوندرز»، و«إدوارد فيبارت»، وكذلك «جورج واجنتريبير» - ممثلًا جريدة «دلهي جازيت» - و«هارييت تايتلر»، التي مُنِحت غرفة في القلعة بعد أن قام زوجها «روبرت» بنقل صندوق كنز الفوج إلى القلعة في ليلة الاستيلاء عليه نفسها. بدأت المحاكمة في حالةٍ من الفوضى، إذ على الرغم من أن الإجراءات كانت ستتم باللغة الهندوستانية جزئيًّا، إلا إنه اتَّضح أنه ولا واحد من القضاة الخمسة - كلهم من ضباط الجيش من ذوي الرتب الصغيرة نسبيًّا - كان يفهم تلك اللغة.

كتب «إدوارد فيبارت»: «كان رئيس المحكمة هو الوحيد الذي يعرف اللغة الهندوستانية، وعلى الرغم من أنه كان من المقرر أن تبدأ إجراءات المحاكمة في تمام الساعة الحادية عشر صباحًا، إلا أن رئيس المحكمة العسكرية، العميد «شورز»، لم يظهر في المحكمة قبل الظهيرة، ثم ظهر فقط لفترة وجيزة ليعلن أنه قد تلقَّى أوامرًا للذهاب لـ«أجرا» لتولي القيادة هناك.. وطوال هذا الوقت، كان «ظفر» ينتظر في الخارج تحت حراسة قوية من حَمَلة البنادق.». عندما بدأت الإجراءات أخيرًا في وقتٍ لاحق من بعد الظهر، تحت رئاسة العقيد «دوز»، تمت تلاوة التهم وسؤال ظفر - المستند على فراش من الوسائد بين دوز والمدعي العام الرائد هاريوت - عما إذا كان يقر بالذنب أم لا. لكن سرعان ما اتضح أن الشيخ لم يستطع فهم ما كان يحدث من حوله أصلًا، لذا كان هناك مزيدٌ من التأخير، قبل أن يُقنع بالنطق بأنه غير مذنب. على مدار الأيام التي تلت ذلك، قُدِّمت مجموعة كبيرة من الأدلة، واستدعاء الشهود للإدلاء بروايات شهود العيان عن اندلاع الثورة وأهم أحداثها، كما تمت قراءة المقاطع الرئيسة من المخطوطات التي تم الاستيلاء عليها من مستشارين القصر ومكتب «ميرزا مغول»، ومقر الشرطة، ومعسكر الجيش، كل هذا قُرِئ بالكامل.

كتب أحد الشهود ويُدعى «تشارلز بول»: «تم عرض كل ورقة، على وكيل السجين - محامي «ظفر» المدعو «غلام عباس» - كما طالعها بنفسه، فأعلن الملك جهله بوجود مثل هذه المستندات، ونفى أن يكون قد وقَّع عليها، وسعى من خلال معارضته للمكتوب فيها بإقناع المحكمة ببراءته بالكامل..». لكن، سرعان ما بدأ انتباه «ظفر» يتشتت.. كتب «بول»: «يبدو أن الملك السجين اعتبر الإجراءات غير مهمة على الإطلاق، ومثيرة للملل، ووجد راحته في النوم..» لكن، فمن حين لآخر، وعند مقاطع محددة، كانت العينان المنطفئتان تلمعان فجأة، ويرتفع الرأس المنحني في انتباه ملحوظ لبضع لحظات، قبل

العودة إلى حالة من الخمول واللامبالاة من جديد.. بدا ابنه «ميرزا جيوان بخت» أكثر حيوية، وتعالت ضحكاته وصوته هو يتجاذب أطراف الحديث مع مرافق والده دون أن يظهر حرجًا مما يحدث على الإطلاق، ولم يمضِ وقت طويل على الشاب الذي اعتبره «أوماني» وقِحًا للغاية وغير محترم، قَبل أن يُحظَر من حضور جلسات أخرى.

مع حرمانه من صحبة ابنه الصغير الحبيب، أبدى «ظفر» اهتمامًا أقل بما يحدث، بل إنه في كثير من الأحيان لم يكُن على ما يرام للمثول أمام المحكمة من الأصل، وكثيرًا ما تم تأجيل المحكمة بسبب اعتلال صحته. وعندما كانت تنعقد المحكمة، كان ظفر يظهر سلوكًا وتصرفات غريبة، لا تتوافق على الإطلاق مع الموقف الجاد الذي هو فيه. من حين لآخر، بينما تُقَدَّم الأدلة، كان يلف نفسه في ردائه، ويتكئ على الوسائد الموضوعة من أجل راحته بشكل غير مبالٍ بالإجراءات من حوله؛ كما أنه في كثير من الأحيان، كان يستيقظ فجأةً، كما لو كان يحلم، وينكر بصوت عالٍ بعض العبارات التي أدلى بها شاهد قيد الاستجواب؛ قبل العودة مرة أخرى إلى حالة من عدم الإدراك، فيسأل سؤالًا بلا مبالاة، أو يضحك ساخرًا من بعض العبارات التي تُتَدَاول من ضمن الأدلة، وأحيانًا كان يقوم بتسلية نفسه باللعب بوشاحه، فيقوم بلفه حول رأسه وفكه كطفل شقي جاهل لا مبالٍ، في إحدى المرات، أبدى مثل هذا الجهل المطبق بخصوص سؤال أمام المحكمة، يتعلق بمكائده المزعومة مع بلاد فارس، فسأل عمَّا إذا كان الفرس والروس هما الأشخاص ذاتهم!

كان «ظفر» يعلن مرارًا أنه بريء تمامًا من كل شيء يتهمونه به، وفي إحدى المرات عرض دفاعًا قصيرًا متماسكًا بشكل لافت للنظر، مكتوب باللغة الأوردية، ينفي فيه وجود أيَّة صلة له بالانتفاضة أو الثورة والتأكيد على أنه كان طوال الوقت أسيرًا عاجزًا لدى السيبويين. أعلن «ظفر»: «لم تكن لدي معلومات استخباراتية عن الأمر قبل يوم واحد من اندلاع الانتفاضة، وعندما اقتحموا قصري توسلت إليهم أن يرحلوا. أقسم بالله الذي يشهد عليّ إنني لم أصدر أوامر بقتل السيد «فريزر» أو أي أوروبي آخر.. أمَّا فيما يتعلق بالأوامر الصادرة بختمي وتوقيعي، فإن الحقيقية هي أنه منذ اليوم الذي جاء فيه الجنود وقتلوا الضباط الأوروبيين جعلوني أسيرًا لديهم، وقاموا بالسيطرة عليَّ! جميع الأوراق التي تخدم مصلحتهم، قاموا بكتابتها بأنفسهم وجلبوها لي، ليجبروني على توقيعها بختمي الخاص. في كثير من الأحيان كانوا يجعلونني أختم الظرف الخارجي لمظاريف فارغة غير معنونة، فليست لدي فكرة عن أي أوراق أرسلوها فيها أو إلى من أرسلوها. كما اعتادوا على اتهام خدمي بالتواصل مع الإنجليز والتحالف معهم، حتى إنهم أعلنوا أنهم سيعزلونني ويعلنون «ميرزا مغول» ملكًا. دعونا نتروَّى ونفكر مليًّا فيما حدث، ما القوة

التي كنت أمتلكها وقتها بأي شكل من الأشكال؟ إن ضباطهم ذهبوا إلى حد أن يطلبوا مني أن آسِر الملكة «زينَّت محل» سيدة القصر، متحججين بأنها تحافظ على علاقات ودية مع الإنجليز..

كل ما حدث كان من فعل جيش المتمردين، وأنا كنت في قبضتهم، فماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كنت عاجزًا، ومقيّدًا بمخاوفي، لقد فعلت كل ما يطلبونه، وإلا لكانوا قتلوني على الفور.. وجدت نفسي في مأزق جعلني أكره حياتي. كنت قد نويت على قبول الفقر، وارتداء ملابس متواضعة كالدراويش، منتويًا الذهاب أولًا إلى ضريح «قطب صاحب»، ومن هناك إلى «أجمري»، ومن «أجمري» إلى «مكة» لتكون وجهتي النهائية. إذا كنت في تحالف معهم فعلًا، فكيف عقدت العزم على كل هذه الأشياء؟ إن كنتم تسألونني عن قيادتي الجيش المتمرد فيجب أن أذكر أنهم لم يوجِّهوا لي التحية حتى، ولم يظهروا لي أيَّة علامة أخرى للاحترام. اعتادوا على المشي في قاعة الجمهور الخاص وقاعة الصلاة بأحذيتهم. أيَّة ثقة يمكنني أن أضعها في الجنود الذين قتلوا أسيادهم البريطانيين من قبل؟ وكما قتلوهم، فإنهم جعلوني أسيرًا وعاملوني بأشد قسوة ممكنة، وأبقوني فقط على عرشي المتواضع من أجل استخدام اسمي تغطيةً على أفعالهم. إن هذه القوات قتلت أسيادها، رجالًا عظماء السلطة والقوة والمال، فكيف كنت سأقاومهم بدون جيش، وبدون مال؟ أقسم بالله إنني أقول لكم الحقيقة!».

بالنسبة للادعاء، فإن «ظفر» لم يحاول تقديم دفاع قانوني جاد ومتناسق، أو اختيار استجواب أي من الشهود العيان في أثناء المحاكمة، على الرغم من كثرة الشهود والأدلة التي ظهرت، فكانت عبثية سير الادعاء تبدو أكثر وأكثر وضوحًا. بصرف النظر عن السؤال الذي بالأعلى حول ما إذا كان للمحكمة البريطانية سلطة محاكمة «ظفر»، فقد اختار المدعي العام، الرائد «هاريوت»، بناء قضية تعتمد على أدلة تخمينية للغاية قائمة على الظَّن والقِيل والقَال لتغطية هذا الضعف الواضح ونقص الحقائق حول ما كانت عليه الانتفاضة، لدرجة أن «هاريوت» لم يقنع أحدًا من البريطانيين المراقبين بحُجَجِه. أكد «هاريوت» أن «ظفر» كان العقل المدبر الشرير وصاحب الدور الرئيس وراء مؤامرة إسلامية عالمية تمتد ما بين القسطنطينية ومكة وإيران، وحتى جدران القلعة الحمراء. أعلن «هاريوت» أن نية «ظفر» كانت تخريب الإمبراطورية البريطانية ووضع المغول مكانها. على عكس كل الأدلة التي تشير لقيام الثورة أولًا بين السيبويين من الهندوس بأغلبية ساحقة، وأن السيبويين الهندوس من الطبقة العليا هم الذين شكَّلوا الجزء الأكبر من قوات القتال؛ كما تجاهل الرائد «هاريوت» كل الاختلافات والصراعات الواضحة بين السيبويين والجهاديين، وبين المسلمين الشيعة في بلاد فارس، والبلاط السُّني في دلهي، فجادل أن التمرد كان نتاج تقارب كل هذه القوى المُؤامرة

حول أطماع سلالة «ظفر» الإسلامية المتعصبة، مصرِّحًا: «يجب أن ننسب المصائب المروعة التي حدثت بعام ١٨٥٧ بشكل أساسي إلى المؤامرات الإسلامية. حيث كان المتمردون على اتصال فوري بالملك السجين في قلعته. ولم تقتصر المؤامرة منذ البداية على السيبويين، ولا نشأت بينهم كما يُشَاع، ولكن كان لها تداعياتها في جميع أنحاء القصر والمدينة، وكان «ظفر» هو الزعيم البارِز للمتمردين في دلهي؛ ميت القلب بلا أي شعور بالشرف، ويجب ألا ننساق خلف هذا التحوير ولَيِّ الحقائق الواضحة أمامنا، ف»ظفر» هو من شكَّل مِحوَرًا لمجموعة الأشرار التي أحاطت به، كما نرى مدى اهتمام المجتمع المُسلم مبكرًا بهذا الأمر وانخراطهم فيه، وكيف تشكّلت تلك المؤامرة بشكل كامل وحصري على يد المسلمين. ربما يكون السؤال هو، أكان «ظفر» المحرك الرئيس للأحداث، وقائد المتمردين، أم كان مجرد دمية عديمة الضمير بين أيديهم؛ دمية قام المجتمع الإسلامي بملء رأسها بأفكار مسمومة من أجل النهوض بالدين المتعصب الأعمى؟ كثير من الناس، في اعتقادي، سوف يميلون إلى هذا الرأي الأخير. لكن يجب أن ندرك أن التعصب الإسلامي هو الذي يرقد تحت كل تلك النيران، وأن التعصب الانتقامي لهذا الإيمان الغريب هو الذي كان يناضل من أجل الحكم، مؤامرة كانت الفتنة وسيلتها، وكان ذلك السجين الجاني شريكًا فيها، وكانت كل جريمة حدثت هي نتيجتها المخيفة، تجمعت حماسة المسلمين المتعصبة من كل مكان، وقادها هذا الشيطان إلى كل أفعالها».

في الواقع، أظهرت الانتفاضة كل علامة على أنها بدأت من قبل السيبويين الهندوس من الطبقة العليا، كردِّ فعلٍ على المظالم العسكرية التي حدث في الجيش ونظروا إليها على أنها تهديدٌ لإيمانهم؛ ثم انتشرت روح الثورة بسرعة في جميع أنحاء البلاد، وجذبوا بثورتهم مجموعات ممزقة أخرى تنفر بقوة من السياسات البريطانية القاسية. من بين هؤلاء كان البلاط المغولي، والعديد من الأفراد المسلمين الذين شقُّوا طريقهم إلى دلهي وحاربوا كجهاديين مدنيين متَّحدين ضد العدو الكافر. لذا، فإن جدال «هاريوت» المتعصب والمليء بكراهية الإسلام - الإسلاموفوبيا - قام بالمبالغة في تبسيط هذه الصورة المعقدة - بشكل خيالي تمامًا - إلى كونها مؤامرة إسلامية عالمية ليس لها علاقة بمعاملة البريطانيين للجيش، وأن هناك شخصية معينة - وهي ظفر - قابعة في مركز المؤامرة كعنكبوت يفرد شباكه، وهو العنكبوت الذي يجب الانتقام منه الآن. وعلى الرغم من هذا، فإن هذه الصورة البسيطة جذبت بالتأكيد الجُهلاء وقراء الصحف الوطنية المتعصبة في بريطانيا، بغض النظر أنه في الحقيقة كانت تلك الحجج معيبة بشكل واضح بالنسبة لأي شخص في دلهي، لأسباب ليس أقلها أن المتمردين يتكونون على الأقل من ٦٥٪ من الطائفة الهندوسية العليا.

في أثناء جلسة الاستماع في الثالث فبراير، في محاولة لإثبات الروابط الموجودة مُسبقًا بين السيبويين و«ظفر»، ركز «هاريوت» على الإشارة إلى اثني عشر شخصًا سيبويًّا أتوا لظفر عام ١٨٥٣ ليترجَّوْه أن يصبحوا من مريديه أو من تلاميذه الروحيين. في الواقع هذا لم يظهر أكثر من حقيقة أن «ظفر» كان يعامله بعض المؤمنين المسلمين كرجل صوفي مقدس يمتلك معجزات وقوى روحية، لكن بالنسبة لـ«هاريوت»، كان هذا دليلًا حيويًّا على أن «ظفر» كان مشغولًا بمحاولة تخريب الجيش لمدة ثلاث سنوات ونصف على الأقل قبل نشوب الانتفاضة. كان «أوماني» على سبيل المثال مُدركًا تمامًا أن ما كانت تزعمه النيابة مجرد هراء، وأنه أظهر نقصًا تامًّا في فَهْم أي من تعقيدات المجتمع الهندي، أو المظالم المختلفة التي أدَّت إلى الثورة.. كتب في مذكراته: «في رأيي، كون المسلمين سببًا في اندلاع الانتفاضة هو مغالطة واضحة، ونظرية «هاريوت» أنه ليس هناك أيَّة حالة من الغضب داخل الجيش تجاه الشركة هو خطأ تمامًا. ما حدث هو أن السيبويين الموجودين في الجيش رأوا أن لديهم القوة، وصمموا على محاولة احتلال البلاد، ثم تلى ذلك انضمام المسلمين للثورة وهو ما لا يثبت بأيَّة حال من الأحوال أن التمرد كان من المسلمين بالأساس.».

في الواقع، مع ظهور شاهد بعد الآخر للشهادة، أصبح واضحًا أن «ظفر» كان يجهل تمامًا أي خطط قد تكون وجدت للتحضير للثورة، وكان بريئًا فعلًا من أي شيء آخر غير محاولة حماية نفسه ورعاياه في «دلهي».. كتبت إحدى المشاهدات للمحاكمة، السيدة «موتر»: «مما اطلعت عليه يبدو أن «ظفر» قد أدان المذبحة التي أقامها المتمردون في بلدة «كاونبور»؛ كما كانت هناك كثير من الأدلة أنه سعى جاهدًا لحماية مواطني «دلهي» كالجنود والنبلاء والسكان من اعتداءات ونهب قبائل الغجر والمتمردين.. كان من الواضح مدى اليأس الذي ارتسم على وجه الشيخ عندما كان محبوسًا داخل زوبعة التمرُّد هذه، بلا طاقة ولا قوة للسيطرة على الطبيعة القاسية للبشر من حوله. تمت ترجمة التماسات عديدة من أفراد الشعب مع تصريحات الملك هذه. كان كثير مما قاله مثل شكواه المريرة من وقاحة السيبويين سليمًا، كان مجرد دُمية. لا أستطيع أن أقول إن بلادنا تعاملت بكرمها المعتاد مع آخر فرد من بيت تيمور. يجب أن نعترف بالحقيقة إلى الأبد، أن جيشنا هو الذي أشعل النيران في البلاد، وأن تردُّدنا هو الذي أدى إلى الكارثة، تصرفنا بلا مبالاة، ولا أعتقد أن لدينا عذرًا حقيقيًّا على أن التمرد كان حدثًا غير متوقَّع.. ولكم كنت مسرورة لملاحظة سلوك عديدٍ من الشهود عند استدعائهم للإدلاء بالشهادة، وسط كل الفقر والازدراء الذي وقع على الملك، كان الشهود يركعون على الأرض مع تشابك الأيدي أمام الرجل اليائس المرتمي على الفراش، وينادونه بـ«حاكم العالم» على الرغم من أن اللجنة لم تكن تناديه إلا بلقب «توم» (وهو لقب لا

يُستخدم إلا عند مخاطبة العبيد والخدم)، أظهر الشهود للشيخ الضعيف الذي لا يملك من أمره شيئًا درجة من الاحترام لم يظهروها للمحكمة، التي كان أمرهم بيدها ولم يكن عليها إلا القيام بالإشارة فقط ليتم إعدامهم.».

استمرت جلسات المحاكمة لمدة شهرين، بسبب اعتلال صحة «ظفر» كما سبق وذكرنا، حتى إنه في إحدى المرات، نُقل الإمبراطور وهو يئن إلى المحكمة؛ خلال المراحل الأولى من المحاكمة، ظهرت على وجه «ظفر» علامات القلق والتوتر، ولكن مع مرور الأسابيع، بدا كما لو أن وجهه يخلو من الملامح أكثر فأكثر، وصار يشعر باللامبالاة، كان على ما يبدو في حالة من الخمول والكسل واليأس، وقد أغلق عينيه خلال الجزء الأكبر من الإجراءات، حتى عُقدت المحكمة العسكرية لآخر مرة في التاسع من مارس، وفي الساعة الحادية عشر صباحًا، وقد ازدحمت القاعة بالمتفرجين، وألقى «هاريوت» خطابه الختامي. وضَّح فيه - لمدة ساعتين ونصف - مرة أخرى، نظريته عن الانتفاضة وكونها مؤامرة إسلامية عالمية. قال: «لقد حاولت أن أوضح إلى أي مدى ارتبط السجين - بصفته خليفة الإسلام في الهند - بتنظيم تلك المؤامرة، إما زعيمًا لها أو شريكًا بلا ضمير.. وبعد ما ثبُت من غدر هذا القائد المسلم، هل هناك أي شخص من الحاضرين يمكن أن يصدق أنه لا عَلاقة له بهذا المخطط القوي والمؤامرة المُتَسَّقة؟ إذا أخذنا الآن نظرة بأثر رجعي للظروف المُختلفة التي استطعنا الاستدلال عليها خلال استفساراتنا الموسَّعة، سنرى مدى ارتباط الإسلام بالمأساة التي حدثت.. فبالتعاون بين سلطات المسلمين في بلاد فارس وتركيا وشراكة الملك المسلم هنا وتصديقه لرؤى مزعومة زائفة، وقوى خارقة مفترضة، ونبؤات إسلامية بسقوط سلطة إنجلترا، قام هؤلاء المتعصبون بأكثر الحروب الدينية تعصبًا وقاتلوا بدم بارد من أجل إعلاء الإسلام وكلمته وحرَّضوا السيبويين المسلمين على التمرُّد. أما الهندوس الذين يزعمون بأنهم هم من بدأوا الانتفاضة فأنا لا أرى ممثليهم في أي مكان..» ثم أضاف «هاريوت» فقرة ختامية تنتقد فكرة كون الانتفاضة يمكن أن تكون مرتبطة بأي شكل من الأشكال بنشاط المبشرين المسيحيين، مثلما اقترح بعضهم بالفعل: «إن التبشير هي محاولة صريحة غير مستترة لاكتساب مزيدٍ من الأتباع للمسيح، ولم يسبق لي أن شاهدت أدنى علامات الاستنكار من مواطني دلهي نحوهم.. فالمسيحية، عندما يُنظر إليها في صورتها النقية، لا تثير أي مخاوف داخل المواطنين.».

قبل الساعة الثالثة عصرًا بقليل، انعزل القضاة معًا للتداول وللوصول إلى حُكم. بعد بضع دقائق عادوا ليعلنوا بالإجماع أن «ظفر» مذنب في كل التهم الموجهة إليه. أشار رئيسهم: «عادة، مثل هذا الحكم يستوجب عقوبة الإعدام لكونه خائِنًا ومجرمًا.» «ومع ذلك، والفضل يرجع لضمان «هودسون» لحياته بالاتفاقية التي أجراها، كان مثل هذا الحكم مستحيلًا. بدلًا من ذلك، حُكِم على

«ظفر» بأن يُنفى لبقية حياته، إما إلى أحد جزر «أندمان»، وإما إلى أي مكان آخر قد يختاره الحاكم العام في المجلس.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبع ذلك الحكم تأخير لمدة سبعة أشهر، بينما كانت الرسائل تتنقل ذهابًا وإيابًا بين «دلهي» و«كالكوتا» و«رانجون» و«أندمان»، وحتى مستعمرة «كيب»، في محاولة من البريطانيين لإيجاد مكان مناسب لنفي «ظفر». فقد كانت هناك مخاوف من أنه قد يتم القيام بمحاولة إنقاذٍ وتحالفٍ إذا أُرسِل «ظفر» إلى منطقة أخرى قبل توقف القتال تمامًا في بعض الأجزاء غير المستقرة في شرق بلاد هندوستان. بالنهاية، في نهاية سبتمبر ١٨٥٨، تقرر أنه من الآمن الآن أن يُرسل «ظفر» بعيدًا عن «دلهي»، على الرغم من أن وجهته النهائية لم يتم تسويتها بعد. كان من المقرر أن يرافقه الملازِم «أوماني» إلى المنفى، وعليه التأكد من أن سجين الدولة (كما يشار إلى «ظفر» الآن) يجب ألا يعقد أيَّ اتصال مع أي شخص في الطريق. وهكذا في الساعة الرابعة صباح يوم السابع من أكتوبر، وبعد ثلاثمائة واثنين وثلاثين عامًا من غزو الإمبراطور المغولي «بابار» لأول مرة للمدينة، غادر الإمبراطور المغولي الأخير «دلهي» على عربة تجرها الثيران.

رافق الملك زوجاته، وولداه المتبقيان، والمحظيات والخدم، مجموعة من واحد وثلاثين شخصًا في المجمل، يرافقهم فرقة حَمَلَة الرماح التاسعة، وسرب من مدفعية الخيول، ومحفتين، وثلاثة من الهَوَادِج. كانت الرحلة سِرِّية حتى بالنسبة لـ«ظفر» نفسه، ولم يعرف الشيخ شيئًا عن رحيله قبل أن يوقظه «أوماني» في الساعة الثالثة صباحًا يومًا وطلب منه الاستعداد.. كتبت «ماتيلدا سوندرز» لحَماتها في الأسبوع التالي: «رُحِّل في أسرع وقت ممكن، وظلَّ كل شيء سريًّا وطي الكتمان، على الرغم من أن «تشارلز سوندرز» بالطبع كان يعرف منذ فترة طويلة، وكان يستقبل وسائل النقل لهم للسفر مثل الهوادج المتنقلة وعربات الثيران ومعدات الخيام في عربات مغطاة وبطريقة سرية. ولم يُترك شيئًا من الترتيبات للمصادفة، وفي الساعة الثالثة صباحًا ترك زوجي العزيز «سوندرز» فراشه في القلعة وساعد السيد «أوماني» في إعداد المتاع. وفي تمام الساعة الرابعة تركهم في حراسة حَمَلة الرماح ورآهم يمرون بأمان فوق جسر القوارب في طريقهم إلى الخروج من البلد..

فليذهب الملك لبئس المصير.. ترافقه ملكتاه وابناه الصغيران، وزوج الابن الأكبر، إلى جانب بعض فروع العائلة الجانبية الذين كان لهم خيار البقاء لكنهم فضَّلوا مشاركة الملك مصيره.. لم يكن هناك أحد ليودعهم وهم يرحلون؛ كانت الدنيا هادئة تمامًا في تلك الساعة المبكرة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

المغولي الأخير

أبلغ الملازم «أوماني» السلطات في الثالث عشر من أكتوبر «تجري الأمور بالنسبة للملك السابق والسجناء الآخرين بشكل رائع.. كانوا كلهم في حالة معنوية جيدة للغاية؛ حيث استقروا بشكل مريح في خيامهم بحلول الساعة الثامنة صباحًا، وبخلاف إيقاظهم كل يوم في الساعة الواحدة صباحًا للمشي قليلًا، فليس لدي ما أشكو بشأنه..» طالما استمتع «ظفر» بالنُّزهات والمواكب والبعثات، وفي شبابه كان الانطلاق للصيد فيما حول «دلهي» أحد المُتَع الرئيسة للتسلية، وحتى في سن الشيخوخة، عندما كانت تهب الرياح الموسمية على قصره الصيفي في «مهرولي»، غالبًا ما كان يتِّخذ هذا عذرًا للقيام برحلات صيد طويلة في الغابة الموجودة بالجنوب. لكنه لم يسبِقْ له في حياته أن سافر أكثر من يوم أو يومين مبتعدًا عن عاصمته، وكان عبوره إلى المنفى هي أطول رحلة له على الإطلاق.

لكن الآن، بعد الضغط الشديد الذي عانى منه في أثناء الانتفاضة والحصار، والذل الذي عانى منه في أثناء سجنه ومحاكمته، كانت الرحلة إلى المنفى - التي لم تكن بالضبط عطلة - تمثل على الأقل راحة نسبية من الأهوال التي عانى منها خلال الثمانية عشر شهرًا الماضية. ارتحلت المجموعة في قافلة، فيما يهرول سِرب من سلاح الفُرسان حَمَلة الرماح أمامهم كحارس أمامي لهم. ثم جاءت المحفة المظللة التي تحمل ظفر وابْنَيْه، محاطان من الجهات الأربع بمجموعات من حَمَلة الرماح. ثم جاءت عربة الحريم المغلقة لـ«زينة محل»، والتي رافقتها زوج «ميرزا جيوان بخت» الصغيرة «نواب شاه زماني بيجوم»، ووالدتها «مباركة النساء». كما حملت العربة الثالثة الملكة «تاج محل»، ومعها مرافقوها، بما في ذلك خصيها، وهو شاب هادئ وديع يُدعى «خواجة باليش». أما بالخلف فكانت هناك خمس عربات تخزين ذات أسقف مائلة تسير ببطء، تسحبها الثيران، كانت تحتوي أيضًا على المرافقين من الذكور والإناث وجزء من المحظيات وحريم «ظفر»، أربعة في كل عربة، وكل عربة برفقة مجموعة من حَمَلة الرماح. لم تكن هناك اضطرابات ولا شكاوٍ، بخلاف حادثة وشيكة على جسر القوارب، عندما كادت إحدى عربات التخزين أن تنقلب بمحظيات «ظفر» في نهر يامونا، وقد رضت الأسرة بالترتيبات التي صنعها أوماني لمخيمهم.

كان الطقس مثاليًا؛ في مطلع النهار وفي أثناء الليل كانت تهب رياح باردة، أما في فترة الأصيل فكانت الشمس مشرقة والجو دافئًا وظلَّ الجو هادئًا حتى وصولهم إلى كاونبور (كانبور حاليًا)، وسرعان ما انتابت المغول الدهشة لرؤية قطار بخاري يستقله الركاب لأول مرة في حياتهم، ورؤيته وهو يبتعد مطلقًا دفقة من بخاره المعتاد وصافرته الغريبة، بينما كانت الفرقة

الموسيقية تعزف مقطوعة موسيقية إنجليزية على الرصيف. اعترف الملك لـ«أوماني» بأن المشهد أعجبه، وأنه كان أيضًا يتطلع إلى رؤية البحر والسفر على متن سفينة، قائلًا إنه لم يركب أي شيء أكبر من القارب النهري من قبل.. الشيء الوحيد الذي ذكرهم بالسبب الكئيب لرحلتهم كانت الشواهد التي بقيَت تذكيرًا بالقتال الذي دار قبل وصولهم بوقت قليل، حيث تناثرت الأكواخ المدمَّرة التي التهمتها النيران، ومراكز الشرطة المحترقة. في بعض الأحيان كانوا يصادفون قتالًا حقيقيًّا، حيث في أحد المرات، كان «ظفر» على مرأى من المتمردين الذين سيطروا على حصن «شونية»، بينما كانت القوات البريطانية في طريقها للاقتحام والتعامل معهم، وفي المرحلة الأخيرة من الرحلة إلى «الله أباد» مروا على الأراضي التي يسيطر عليها المتمردون الآن.

تخلَّلت الرحلة بعض الحوادث، حيث: «سحب خيل أحد حَمَلة الرماح فارسه إلى الماء، وأدخله إلى المياه العميقة، وأغرقه الحصان تحت سطح الماء لبضع ثوانٍ حتى مات، واستمر البحث عن جثته لمدة ثلاثة أرباع الساعة.» لكن بغض النظر عن هذه الحادثة، أسعدت الرحلة رفقاء «ظفر» الذين كانوا في حالة معنوية جيدة، وفقًا لـ«جورج واجنتريبير» في صحيفة «دلهي جازيت»: «على الرغم من كل شيء، كان السجناء مبتهجين، وكثيرًا ما كانت تتعالى أصوات النساء وهن يتحدثن ويضحكن خلف ستائر خيمتهن، وكأنهن لم يندمن كثيرًا على مغادرتهن «دلهي».» وكان هذا تناقُضًا صارخًا مع مزاجهم في أثناء السجن في «دلهي»؛ فبالإضافة إلى الإذلال الذي لحق بهم من قبل البريطانيين، أضافت العائلة الإمبراطورية إلى بأسهم مزيدًا من التوابل، عن طريق العداء والخلاف الذي ظهر بينهم. وفقا لـ«أوماني»، قبل رحيلهم، كانت «زينَّت محل» تتشاجر بصوت عالٍ مع «جيوان بخت» بعد أن وقع الأخير في حب إحدى حريم والده. كما بدأ استخدام موارد الأسرة المالية الشحيحة لرشوة الحراس لإحضار زجاجات البيرة، فكتب «أوماني» مستهجنًا: «يا له من مثال على حالة أخلاق العائلة الملكية السابقة، الأم والابن في عداوة، الابن يحاول إقامة علاقة مع محظية والده، ولاستكمال حالة عدم المبالاة بشريعة دينه، يقوم بشراء الخمور وشربها.».

كما دخلت «زينَّت محل» في سلسلة من المشاحنات الصاخبة مع عدوَّتها اللدودة المدعوة «تاج محل»، والتي سُجِنت لمدة ثلاث سنوات قبل التمرد باتهامها أنها كانت على علاقة بابن شقيق «ظفر» المدعو «ميرزا كمران». لذلك تحسَّنت ظروف «تاج محل» - واحدة من قلة قليلة من الناس في دلهي - بشكل واضح بسبب اندلاع الانتفاضة.. لكن بعد المشاجرة، أعلنت «تاج محل» على الفور أنها لا تريد أن تكون لها عَلاقة بـ«زينَّت محل» أو «ظفر»، وقبل انطلاقهم أخبرت «أوماني»: «لا علاقة لي بالملك، ولن أرحل معه، ليس لدي ابنٌ منه، ولن أتزحزح من هنا.».

أجاب «أوماني: «لكن يا سيدة «تاج محل» يجب أن تذهبي مع الملك السابق، وإذا لم تذهبي بموافقتك، سآخذك إلى هناك بالقوة.»

أجابت «تاج محل»: «إن أردت أن تقتلني فافعل، لكن لن أذهب.».

كتب «أوماني» إلى «سوندرز»: «حاشية الملك السابق بأكملها تكرهُها، إجمالًا سيكون وضعهم في مكان واحد جميعًا مصدر إزعاج كبير».

وعلى الرغم من هذا، ففي الأسابيع القليلة الأولى من الرحلة، بدا أن ملذات السفر والفرح من التحرر من السجن - المتمثل في حبسهم بقصرهم السابق - قد هدَّأ الخلافات القائمة بين أفراد العائلة المالكة. لكن مع اقتراب المجموعة من «الله أباد»، ظهرت التوترات والاضطرابات على السطح مرة أخرى، وعند وصولهم إلى حصن المغول القديم هناك - الذي يسيطر عليه البريطانيون الآن - قررت نصف المجموعة بقيادة «تاج محل»، ومعها محظيات «ظفر»، وحماة «ميرزا جيوان بخت» وزوج أخته، العودة إلى دلهي بدلًا من الاستمرار في الطريق للمنفى. فقط خمسة عشر شخصًا من أصل واحد وثلاثين شخصًا اختاروا الاستمرار مع ظفر. في أثناء انتظار حل هذه المشكلة، قام «كانينج»، الذي صادف أن يكون موجودًا أيضًا في «الله أباد»، بلقاء أوماني –دون أن يقابل ظفر - وأخبره أنه قرر بحزم أن «بورما» يجب أن تكون منفى الإمبراطور السابق بدلًا من «كيب». ومع ذلك، فإنه لم يقرر بعد ما إذا كان يجب أن يبقى العاهل المخلوع الآن في «رانجون»، أم يجب إرساله إلى بلدة «تونجو» في مناطق تلال «كارين»، التي توفر ميزة الانعزال، والبعد عن الخط المعتاد للمسافرين وحركة المرور، لدرجة أنه لا يمكن لأي شخص غريب، خصوصًا مواطني هندوستان، الدخول إليها دون جذب اهتمام السلطات الفوري.

في غضون ذلك الوقت، خضع «ظفر» لفحص طبي، وقد قرر تقرير الأطباء «أن حالته جيدة بالنسبة لسِنه المتقدمة، وأنه في حالة أفضل مما توقعنا، صحيح أنه متعب قليلًا، لكنه سليم وقوي بالنسبة لعمره، ولا يعاني من أية أمراض.» لم تجد اللجنة أي اعتراض على أسس مهنية يمنع «ظفر» من الترحيل عن طريق البحر إلى «رانجون» أو إلى مكان إقامته في المستقبل هناك أو أي مكان غيرها في مقاطعة «بيجو» [جنوب بورما]. على العكس من المقاطعات العليا [في هندوستان]، كان مناخ «بيجو» معتدلًا محتمَلًا على مدار العام، ولا تحدث فيه تقلبات كبيرة في درجات الحرارة مثل تلك التي تحدث في مقاطعات الهند الشمال غربية، ونظرًا لتلك الصفات، فهو طقس مناسب للمحافظة على حياة الملك السجين في مرحلة سنه المتقدمة.».

بعد أن اتَّخذ «كانينج» قراره بشأن أي بلد يريد أن يُرسِل «ظفر» لها، كتب «كانينج» إلى الرائد «فاير»، المفوض في «رانجون»، موضحًا القواعد الأساسية التي ستحكم المعاملة المستقبلية للعائلة الإمبراطورية.. قام «كانينج» بإبلاغ الرائد «فاير»: «بأمرٍ من الحاكم العام، يجب أن يظل السجناء رهن الاعتقال المشدد، وعدم السماح لهم بأي اتصال مهْما كان، سواء أكان شفهيًّا أم كتابيًّا، مع أي شخص، بخلاف أولئك الذين سيتم ذكرهم بدقة، ليقوموا بمرافقتهم، كما يجب الحرص على أن تتم معاملة السجناء برعاية وكِياسة، وألا يُعرَّضوا للإهانة، ولا لأي إزعاج آخر غير ضروري للحفاظ على سلامتهم.. يجب أن يكونوا أحرارًا من جميع النواحي، ولكن ليس من الملائم أن يحصل أي منهم على مخصصات مالية. سيبقى الملازم «أوماني» مسئولًا عن السجناء ورفاقهم من أفراد أسرهم.. ويجب أن يقوم بزيارة السجناء يوميًّا وتلبية رغباتهم، وإبلاغك دون تأخير بأي من الظروف التي تبدو له أنها ذات أهمية.».

انطلقت المجموعة التي أصبحت خمسة عشر شخصًا من «الله أباد» في السادس عشر من نوفمبر، حتى وصلوا بعد يومين إلى «ميرزابور» ومن هناك صعدوا على متن باخرة. حيث أرسل «أوماني»: «لا يظهر على السجناء أي اضطراب أو توتر، بل إن الشيخ يبدو مستمتعًا جدًّا، بالنظر إلى كونها المرة الأولى التي يصعد فيها على متن سفينة.» أبحرت السفينة عبر نهر الجانج، ومرَّت بجبال الجاتس الرائعة ومعابد بيناريس، وفي أثناء رحلتهم صادفوا زوجين من الزوارق الحربية البريطانية وهي تقوم بدوريات بحث عن المتمردين الذين قد يعبرون النهر بالقرب من الموقع الذي قامت فيه معركة «بوكسار» منذ زمن بعيد، حين خاض المغول والبريطانيون الحرب لأول مرة عام ١٧٦٤، في عهد جَد «ظفر» المدعو «شاه علم» - كانت بداية تقدم البريطانيين نحو دلهي - . قام السجناء في «رامبور» بتبديل باخرتهم بعدما أصابها عطل ما في الباخرة المدعوة «كويل»، واستكملوا رحلتهم وصولًا إلى مرفأ «دايموند هاربور» في الرابع من ديسمبر، وهناك صعدت مجموعة ظفر بسرعة إلى سفينة ملكية حربية تُدعى «ماجرا»، لتنطلق السفينة حاملة معها المغولي الأخيرة بعيدًا عن الوطن، وبلا أي أمل في العودة.

وهو ما أوضحه أكثر من مراقبٍ وَقَف على ضفة النهر: «في الرابع عشر من ديسمبر، في تمام الساعة العاشرة صباحًا، اصطُحِب ملك دلهي السابق على متن سفينة ملكية حربية تُدعى «ماجارا»، والتي بدت غريبة بالنسبة لسفينة تنتمي للبحرية الملكية، إذ ازدحم سطحها الرئيس بكثيرٍ من الأثاث المنزلي، وبعض مؤن اللحوم، ما بين حية ومذبوحة؛ ماعز، وأرانب، ودواجن، وكذلك أرز وبازلاء، جلبهم الملك السجين ومرافقيه معهم لاستهلاكهم الشخصي بموافقة الملازم «أوماني»، والذي كان مسئولًا عنه منذ أن نُقِل.. رافق الملك السجين

زوجان محجَّبتان بالكامل بحجاب ثقيل للغاية لدرجة أن بعض الحرس كانوا يقودانهما لعدم قدرتهما على الرؤية من خلال حجابهما. كما احتفظ «ظفر» على الرغم من انكساره وانهياره تمامًا ببعض من شِيَم أصوله النبيلة فبدا الكبرياء واضحًا في حركاته وإيماءاته، ووجهه ذي التجاعيد العميقة، وملابسه المصنوعة من الكاشمير، فحافظ على هدوئه واتزانه على الرغم من كل ما يمر به، وتبادل الحديث –بطريقة طبيعية - مع بعض الضباط عن مناصبهم على متن الباخرة كما لو أنه يقوم برحلة أو نزهة.. كما اصطحب معه ولدين، وكان أول ما فعلاه عندما لمست أقدامهما سطح السفينة هو طلب بعض الكرز؛ باختصار كانت العائلة بأكملها تأخذ الأمور ببساطة، وبعد وقت قليل من إقلاع السفينة، نزل الملك السابق إلى الأسفل، وتمدَّد على الفور على أريكة من الوسائد التي رتَّبها له حاشيته وغطَّ في النوم في غمضة عين، وبعدما تمت عملية نقله هو ورفاقه بسرعة وأمان، عاد الحرس إلى «كالكوتا» بينما ابتعدت السفينة لتشق نهر «هوجلي» إلى وجهتها في رحلة استغرقت خمسة أيام.».

في الثامن من ديسمبر، غادرت «ماجارا» المحيط المفتوح وأبحرت فوق المياه البُنِّية الموحلة في المستنقعات التي تحد دلتا «إيراوادي» ونهر «رانجون». واستطاع الركاب أن يروا على مبعدة الأبراج الذهبية الرائعة لمعبد «شويداجون» القائم فوق خضرة استوائية كثيفة على ضفة النهر، كتب «أوماني»: «كان معبد «شويداجون» مُذهلًا، رأيته من على بُعد مسافة عشرين ميلًا، فلاحظت أن هناك ثلاث شُرفات، ومن وسط الشرفة العلوية ارتفعت كومة من العمارة المُتْقنة فبدا المبنى أنيقًا عاليَ الارتفاع، وقد غُطِّيَ بطبقة من الذهب..».

عند وصولهم إلى ميناء «رانجون»، وفقًا لما قاله «أوماني» الغاضب: «تجمع حشد كبير من المواطنين والأوروبيين لمشاهدة السجناء في أثناء ترجلهم وانتقالهم إلى أماكن سكنهم.» تبع ذلك مضايقات أخرى؛ إذ اتضح أن الطعام أغلى بكثير في «رانجون» عما هو عليه في الهند، بالإضافة إلى مُرتَّبات الخدم، الذين فشلوا في تقديم الاحترام والتحية بانحناء مثلما كان آل دلهي المهزومة يفعلون، وهو الأمر الذي أغضب «أوماني»، فكتب لـ«سوندرز» بعد أسبوع: «وقاحة الخدم هنا تفوق الاحتمال. بدا سلوكُهم كما لو أنهم يتفضَّلون علينا بموافقتهم على خدمتنا، وقاحتهم تدهشني جدًّا وتغضبني كثيرًا.».

لكن ما أغضب «أوماني» أكثر هو أن المُفوض - الرائد «فاير» - لم يفعل شيئًا يُذكر على سبيل الاستعداد لوصول «ظفر»، إذ لم يكن هناك سكن لائق جاهز لاستقبالهم.. كتب «أوماني»: «يبدو أن الرائد «فاير» لم يُحدد بعد موضع سكن السجناء بشكل دائم؛ حيث في الوقت الحالي لم يكن هناك سوى

غرفتين صغيرتين، أصغر من أي غرف مرَّت عليهم من قبل، تقع هذه الغرف بالقرب من الحرس الرئيس في منطقة التجميع الجديدة أسفل معبد «شويداجون» مباشرة، وقد حظي المرافقان الملكَ السجين، بأربعة خيام متجاورة محاطة بستار من القماش ليفصل الحريم، وهو أمر غير مريح بالمرة، وأعتقد أن الحكومة ملزمة بمعاملتهم بشكل أفضل من هذا.».

كانت «رانجون» غير ملائمة بالنسبة لـ«أوماني» و«ظفر» والحاشية، ليس فقط بسبب المسكن، بل لأن جوَّها ومعالمها كانت غير مألوفة بشكل لافت للنظر بالنسبة إليهم؛ فبعيدًا تمامًا عن حداثة الميناء النهري، والطقس الاستوائي الحار، والنهر المحاط بأشجار النخيل والمزدحم بالبواخر وأطواف من جذوع الخشب وقوارب الصيد ذات الأشرعة، تميَّزت العمارة البورمية بالأبراج، وتيجان الأعمدة، والأفاريز المذهبة. بالإضافة إلى الأديرة البوذية بأجراسها الضخمة، وتماثيل بوذا العملاقة، ودعاماتها الخشبية المنحوتة، كما كانت هناك أيضًا أبراج المدينة المتقنة البناء، ومواقع الحج؛ وقد انتشر الرهبان في كل مكان، بملابسهم ذات اللونين الأحمر والأصفر، وقد حملوا بأيديهم أوعية من الخشب لجمْعِ التبرعات، بينما كانت النساء يرتديْن ملاءات من الحرير ومظلات مطرزة، في حين ارتدى الرجال أردية «باسو» الشعبية؛ وتدفَّقت موسيقا فرق الشوارع في كل مكان، ومن حين لآخر رأوا البحيرات الزرقاء الهادئة التي كانت ذات يوم ملكًا لملوك «بورما». هل ذكرنا الشكل الغريب المميز هنا لعربات الثيران؟ والتي صُنِعَت أسقفها من الخيزران المنسوج بدِقة، بينما صُنِعت الجوانب من الألواح المغطاة بالأزهار، كما كانت هناك رائحة أطباق بورما النفاذة، كل ذلك كان جديدًا تمامًا بالنسبة للمغول، لكن على الرغم من كل ذلك كان هناك الوضع السياسي اليائس في المدينة مما ذكرهم كثيرًا بـ«دلهي» التي تركوها وراءهم للتو.

حيث إنه في أبريل ١٨٥٢ - في اليوم نفسه الذي تزوج فيه «جيوان بخت» من «شاه زماني بيجوم»، وتقدم في زهو عبر شوارع دلهي المغولية - كانت هناك مجموعة من القوات التابعة لشركة الهند الشرقية، بالإضافة إلى مجموعة من السيخ، قاموا بغزو «رانجون» بسبب اتهام حاكم ميناء «رانجون» لقبطانين بحريين بريطانيين بقتل بعض الهنود العمال من طاقميهما. فاخترقت المدفعية البحرية البريطانية الدفاعات ودُحِرت القوات البورمية مرة أخرى نحو مدينة «ماندالاي»، وانطلق جامعو الغنائم ينهبون الأضرحة المقدسة ويكسرون تماثيل الآلهة المقدسة بحثًا عن الأحجار الكريمة. كما هي الحال في «دلهي»، حَدَثت كثيرٌ من أعمال النهب غير الرسمية، وفقًا لجريدة «الإنجليزي في كالكوتا»: «تم الاستيلاء على كل ما في المكان من آثار، وكان يوجد كثيرٌ منها، ولكن على ما يبدو ليس بتنسيق مع جامعي الغنائم، بل بشكل غير رسمي تمامًا حيث باعت المدفعية الأوروبية أعدادًا كبيرة من الآثار

الفضية وأحجار الياقوت التي عُثِر عليها بالداخل.». كما قامت مجموعة من اللصوص بحفر نفق عميق في أسس معبد «شويداجون» العظيم، مصممين على العثور على الأحجار الكريمة التي قالت الأسطورة إنها مدفونة هناك، وعسكرت مجموعة من السيخ في بلاط معبد «شويداجون» وقد دنَّسوه تمامًا، كما قام أبناء عمومتهم بإشعال النار للطهو في أروقة المسجد الجامع بـ«دلهي». علاوة على ذلك، قبل وصول السجناء مباشرة، بدأ البريطانيون يجتاحون قرية الصيد القديمة «مون» على واجهة «رانجون» البحرية، التي امتلأت بمئات المعالم البوذية القديمة ومزارات الحج، حيث قرروا تدميرها وإزالة الأنقاض أو إقامة - على أنقاضها - بلدة استعمارية جديدة بخطط منظَّمة. وعندما وصل «ظفر» إلى شاطئ «رانجون»، كانت تنتظره برامج مماثلة للتدمير وإعادة البناء الاستعماري في المدينة، كتلك التي بدأت إزالة معظم المعالم المألوفة والجميلة للعاصمة المغولية السابقة التي كان قد تركها وراءه للتو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كتب «غالب» عن ذلك في «دلهي»: «يبدو وكأن المدينة بأكملها تتدمَّر من حولنا، بعض أكبر الأسواق وأشهرها، والتي كان كل واحد منها بمثابة مدينة صغيرة فعليًا، اختفوا فجأة دون أن يتركوا خلفهم أثرًا. لا يمكنك حتى تصديق أنهم كانوا هنا يومًا ما، أو حتى أين كانوا! لم يعد بإمكان أصحاب المنازل والمتاجر تحديد أماكن منازلهم ومتاجرهم.. صار كل شيء من حولنا غالي الثمن، وله قيمة.. عدا الموت، عدا حياة الإنسان، فهي رخيصة للغاية.» ما كان يصفه «غالب» كان في الواقع نسخةٌ مختصرةٌ للغاية من الخطة التي طرحتها في الأصل جريدة «سجلات لاهور»، لتسوية دلهي تمامًا بالأرض عقابًا لها لكونها مركزَ التمرُّد المهزوم. كان هناك كثيرٌ من المؤيدين الأقوياء لتلكُم الخطة في الهند ولندن، أحدهم كان اللورد «بالمرستون»، والذي كتب: «يجب حذف «دلهي» من على الخريطة، ويجب أن تتم تسوية كل مبنى مدني مرتبط بالتقاليد الإسلامية بالأرض بغض النظر عن قيمته الأثرية أو الفنية.».

أما اللورد «كانينج»، والذي كان في البداية موافقًا تمامًا على اقتراحات الجريدة، إلا أنه في النهاية، وعلى مضض، اقتنع بعدم إصدار الأوامر بتسوية المدينة بالأرض، وكان من أقنعه بهذا هو «جون لورانس»؛ إذ قضى «لورانس» عدة سنوات في بداية حياته المهنية في «دلهي»، وشغل منصب مساعد السير «توماس ميتكالف»، وكان مولعًا بالعاصمة المغولية. قام «جون» بالعمل بإخلاص لمؤازرة الانتصار البريطاني عام ١٨٥٧، ولهذا كان يتحدث من موقف قوة عندما جادل زملاءه بخصوص خططهم للدمار الشامل وإضفاء الشرعية على القتل الجماعي، وكلاهما كان يحدث حاليًا تحت ستار القصاص العادل.

كان أحد الإجراءات الأولى لـ«لورانس» عندما نُقلت إدارة «دلهي» رسميًّا إلى حكومة البنجاب في فبراير ١٨٥٨، هو العمل على إرسال «ثيو ميتكالف» إلى إنجلترا في إجازة طويلة، وهو ما حققه أخيرًا في ٢ مارس ١٨٥٨ عن طريق تقديم طلب مباشر إلى «كانينج» في «كالكوتا»، اتهم فيه «ثيو» بارتكاب «مذابح بالجملة». وبحلول أبريل، أعلن: «أوقفتُ كثيرًا من الضباط المدنيين الذين كانوا يتصرفون بإرادتهم وحسب أهوائهم، وهو ما جعل الأمور تتحسَّن بشكل كبير وازادت الثقة بيننا وبين المواطنين بشكل ضخم، كم كان الأمر مؤسفًا للغاية عندما كان «ميتكالف» في مركز السلطة في دلهي! فقد تسبَّبَ في قدر كبير من الأذى، ومع ذلك فكل هذا قد انتهي الآن مع عودته إلى الوطن.» في الرسالة نفسها، بدأ «لورانس» الضغط من أجل العفو العام عن أي شخص لم يقتل مدنيين بريطانيين شخصيًّا بدم بارد. وهي الفكرة التي استمر في مناقشتها لاحقًا مع «كانينج»؛ مشيرًا إلى أن هناك بعض البريطانيين الذين يتصرَّفون كما لو كانوا منخرطين الآن في «حرب إبادة». وبدلًا من ذلك، أوصى بالعفو الكامل: «طالما أن جميع المتمردين يتم عقابهم بالشكل نفسه، فإنهم كلهم سوف يتماسكون ويقاومون ويحاربوننا حتى الموت، ولن ينتهي القتال أبدًا». كان هناك مؤيد غير متوقَّع لخطة «لورانس»، وهو «دزرائيلي»، الذي صُدم هو الآخر بشدة من شهوة البريطانيين لإراقة الدماء، وهي الشهوة التي أثارتها الانتفاضة.. قال: «أنا أحتجُّ على مواجهة الفظائع بالفظائع.. لقد سمعت أشياء، واطلعت على أخرى، مما يجعلني أعتقد أننا بدلًا من التقرب ليسوع، نعبد الإله «مولوخ»».(23)

أصبحت فكرة العفو العام في نهاية المطاف سياسة رسمية، وأُعلن في الهند الصفح العام باسم الملكة «فيكتوريا» في الأول من نوفمبر ١٨٥٨. وفي الوقت نفسه، تولى التاج البريطاني أخيرًا جميع المسئوليات الحكومية التي كانت في يد شركة الهند الشرقية، ودُمجت قوتها العسكرية - والتي بلغ قوامها ٢٤٠٠٠ رجل - إلى الجيش البريطاني، وبهذا خسرت هندوستان المغول، الذين ظلوا في الحكم منذ ما يقرب من ثلاثمائة عام، واكتسبت حكمًا استعماريًّا، لكن على الأقل مشكل بشكل صحيح بدلًا من شركة جَشعة متعددة الجنسيات تتصرف - على الأقل جزئيًّا - لصالح أعضائها من حَمَلة الأسهم. استغرق إنقاذ دلهي، والحد من عمليات التطهير الممنهجة وقتًا طويلًا، وفي وقت متأخر، بعام ١٨٦٣، قام خليفة «سوندرز» بمنصب مفوض دلهي بمناقشة أن: «مواطنو مدينة «دلهي» المتمردة، ليس لهم الحق في المطالبة بحقوقهم التي فقدوها بالكامل بالانضمام إلى الانتفاضة..». ومع ذلك، استخدم «لورانس» نفوذه لتقليل عمليات الهدم المخطط لها، بحجة أن «دلهي» «موقع رائع الأهمية ويجب أن نحافظ عليها..» وأشار أيضًا، بشكل لا يتوافق مع وجهة النظر السائدة وقتها، أن «أعتقد أن كل ما حدث كان ذنبنا

نحن مثلما هو ذنب مواطني «دلهي»، فكل ما رأيته وسمعته يجعلني لا أصدق بكونها مؤامرة إسلامية كما قيل، بل كانت هناك مشكلة في إدارة الجيش وهي ما نتج عنها كل ما حدث.».

كان «كانينج» قد أعطى بالفعل أوامر بتدمير أسوار ودفاعات دلهي، لكن «لورانس» قد تمكن من إلغاء الأوامر، بحجة عدم وجود ذخيرة كافية في دلهي لنسف كل هذا الكم من الأسوار. وبحلول نهاية عام ١٨٥٩، وافق «كانينج» على خطة «لورانس»، بأن يتم فقط هدم ما يكفي لجعل الدِّفاع عن القلعة والمدينة أكثر سهولة. وبحلول عام ١٨٦٣، أوقفت عملية الهدم المخطط لها في النصف الشرقي من «تشاندني تشوك» وصولًا إلى «داريبا». ومع ذلك، فإن مساحات شاسعة من المدينة - خاصة حول القلعة الحمراء - تم تدميرها، كما سجل «غالب» في سلسلة من الرسائل الحزينة إلى مراسليه عبر هندوستان: «صارت المنطقة الواقعة بين بوابة راج - على حافة المدينة الشرقية، التي تواجه نهر يامونا - والمسجد الجامع بدون مبالغة كومة كبيرة من الأحجار والحطام» ولرصف الطرق، دُمِّر كل ما في الطريق بين بوابة «كالكوتا» وبوابة «كابول»، وتكرر الشيء نفسه بالنسبة لبلدة «كاترا» البنجابية، و«دوبيوارا»، ومنطقة «رمجي جانج»، ومنزل «مبارك بيجوم» - أرملة «أوكتيلروني» - وبيت «رام صاحب» وحديقته، فكلهم تمت تسويتهم بالأرض.

رثَّت رسائل أخرى «لغالب» تدمير بعض أروع المساجد في المدينة، مثل مسجد «أكبر أباد»، ومسجد «كشميري كاترا»؛ والأضرحة الصوفية الرائعة مثل ضريح الشيخ «كليم الله جيهان أباد»؛ وقاعة الصلاة الشيعية «بيت الإمام» التي بناها الشيخ «محمد باقر»؛ وبيت «بولاقي بيجوم»؛ كما تم تدمير البوابة الرئيسة لـ«داريبا»؛ وإنشاء مساحة مفتوحة بعرض ٧٠ ياردة حول المسجد الجامع. بالإضافة إلى تدمير أربعة من أروع قصور دلهي؛ قصر حُكَّام «جهجار»؛ «بهادور جاره» و«فاروخ ناجار»، وكذلك «بالاب جاره». كما هُدم القصر العظيم الذي بنته «جهانارا» ابنة «شاه جهان»، وبيعت الحدائق المغولية الرائعة للفلاحين للاستخدام الزراعي، وحتى الحدائق التي لم تتدمر، تمت إعادة تسميتها، على سبيل المثال حدائق البيجوم أصبح اسمها حدائق الملكة!

بشكل مأساوي، تدخَّل «لورانس» بعد فوات الأوان لإنقاذ حملات تدمير القلعة الحمراء بالكامل، وبالكاد تمكن من إنقاذ المسجد الجامع وجدران القلعة، بحجة أنها ستخدم البريطانيين كما خدمت المغول، لكن جاء هذا بعد تدمير ٨٠٪ من القلعة المغولية العظيمة.

كانت «هارييت تايتلر» لا تزال تشعر بالفزع والاشمئزاز من تصرفات البريطانيين في دلهي، وقررت رسم منظر بانورامي للمدينة قبل أن تختفي. كتبت في مذكراتها: «لقد صارت «دلهي» الآن حقًّا مدينة الموتى، يلفّها صمت القبور من كل جهة، لا ترى فيها إلا المنازل الفارغة، ولا تسمع إلا السكون المطلق، مشهد حزين لدرجة لا توصف، بدا كما لو أننا فقدنا شيئًا ما بين ليلة وضحاها.. شيئًا سنفتقدُه».

بدأت عمليات الهدم من مباني حمامات الملكات في نوفمبر ١٨٥٧، واستمرت في معظم أنحاء القصر، لتدمر منطقة كبيرة تبلغ مساحتها ضعف مساحة «إسكوريال»(24) كما أشار المؤرخ المعماري الغاضب «جيمس فيرجسون» بعد عشرين عامًا: «كانت مساحة شقق الحريم في القصر كبيرة جدًّا، إذ يبلغ قياسها حوالي ألف قدم في كل اتجاه، وهي ضعف مساحة أي قصر في أوروبا. وفقًا للمخطوطات الأصلية التي أمتلكها - التي لا أرى سببًا لكي لا أثق بها - احتوت على ثلاث ساحات من الحدائق، وثلاثة عشر أو أربعة عشر فناء، لكن ليس لدينا أيَّة وسيلة لمعرفة كيف كان شكلهم بالضبط، لأنه لم يتبقَّ ولا واحدة منهم حتى الآن، إذ تم تدمير كل شقق الحريم الملحقة بالقصر لإفساح المجال لثكنة بريطانية بشعة المنظر، دون أن يفكر من ارتَكَب هذا التخريب المخيف أنه من المفيد الحفاظ على أي ذكرى لأروع قصر في العالم.»

في أواخر مارس ١٨٥٩، كان «جورج واجنتريبير» سعيدًا بالتدوين في جريدة دلهي الرسمية أن «أعمالًا تفجيرية كبرى كانت لا تزال مستمرة في القصر». وقد تدمرت بعض أرقى المباني مثل «تشوتا رانج محل»، وتم تجريف حدائق «ظفر» المفضلة مثل «بخش باغ» و«مهتاب باغ»، وأن كلَّ ما تبقى بحلول نهاية العام كان حوالي خُمس المكان الأصلي؛ وعددٌ قليل من القطع الرخامية المتناثرة هنا وهناك على طول شاطئ نهر «يامونا»، ويعود سبب الحِفاظ عليها إلى أنها كانت تُستخدم كمكاتب وطاولات طعام من قِبَل قوات الاحتلال البريطانية، لكنها فقدتْ قيمتها المعمارية تمامًا بمجرد خلعها من الساحات التي كانوا في الأصل جزءًا منها. كما أزيلت جميع القباب المَطلِية بالذهب ومعظم القطع الرخامية وبيعها بواسطة جامعي الغنائم.. كما لاحظ «فيرجسون»: «عندما استولينا على القصر، بدا أنهم جميعًا قد نهب ما بوسعه نهبه، ومن بين هؤلاء كان الكابتن «جون جونز» - الذي فجَّر بوابة «لاهور» في أثناء احتلال الحصن - وقام بخلع جزء كبير من التركيبات الرخامية بالمكان ليستخدمها كطاولات، وقد عاد بمنضدتين من تلك النوعية للديار وباعها إلى الحكومة مقابل ٥٠٠ جنيه إسترليني، وتم وضعها في المتحف الهندي.».

تضمَّنت هذه الأجزاء الرخامية اللوحة الرائعة من الفسيفساء التي وضعها «شاه جيهان» خلف عرشه، ليصبح في النهاية ما تبقى من القلعة الحمراء المغولية ثكنات عسكرية بريطانية. فـ«النقار خانة» –قاعة الاحتفالات - حيث كانت الطبول والأبواق تحتفل في الماضي بوصول السفراء من أصفهان والقسطنطينية، صارت الآن مقر الرقيب الأول البريطاني. وأصبح الديوان العام جناح للضباط، بينما أصبح مدخل الإمبراطور الخاص مقصف، وأما قاعة الطعام «رانج محل» فقد حُوِّلت لمعظم للضباط. كما حُوِّل «ممتاز محل» إلى سجن عسكري. أما بوابة «لاهور» الرائعة تم تغيير اسمها إلى بوابة «فيكتوريا» وأصبحت سوقًا لجنود القلعة الأوروبيون. والجزء الذي بناه «ظفر» بالقصر وأسماه ظفر محل - وهو جناح عائم من الحجر الرملي الأحمر - فقد أصبح حمام السباحة للضباط، بينما حُوِلت الأجزاء المتبقية منة «بخش باغ» والتي نجت من الدمار إلى دورات مياه. بينما كان كل هذا يحدث، طوال عام ١٨٥٨، كان الهندوس يعودون ببطء إلى المدينة، لكن المسلمين ظلُّوا ممنوعين تمامًا من عبور الأسوار. كما كتب «غالب»: «من المستحيل أن يتخطَّى عدد المسلمين في دلهي حوالي ألف مسلم من ضمنهم أنا، وكأن المسلمين لم يسكنوها يومًا، حيث يعيش الأثرياء - المهجَّرين قسرًا - على التلال في أكواخ مصنوعة من الطين ومسقوفة بالقش، متمنيين العودة إلى دلهي.».

وعطفًا على هذا، أصيب أحد الرحالة في عام ١٨٦٠ بالرعب من «المسلمين العجائز الذابلين وبقايا المغول الذين يهيمون على وجوههم مثل الغجر ويخيمون بالخارج عند ضريح «قطب»». حتى «ماتيلدا سوندرز» المستبدة كانت مدركة أن «أعدادًا ضخمة من الناس يموتون يوميًّا من الجوع ودون مأوى.». في ديسمبر ١٨٥٩، التمس مسلمو «دلهي» من الحكومة أن يُسمح لهم بالعودة إلى منازلهم. كتبوا إلى الملكة «فيكتوريا» يستجدونها (بحسب الترجمة التي طلبها «تشارلز سوندرز») بأن يُسمح لهم بالعودة إلى منازلهم في «دلهي». حيث كانوا يمرُّون بظروف يائسة، ومستبعدين بشكل صارم من المدينة، دون مأوى أو أيَّة وسيلة تعينهم على العيش. يلفهم على التلال البرد القارس، ويخشون التعرض إلى مضاعفاته بسبب وضعهم الحالي من العوز واليأس. كانوا يطمعون في أن تتبع صاحبة الجلالة أسلافها الملوك والنبلاء، وتعفو عن آثامهم وتسمح لهم بالعودة إلى منازلهم القديمة.. وإن رفضت فإنهم يخشون أنه لن يكون أمامهم حلٌّ إلا التسول.

لكن، حتى عندما تمت الاستجابة لطلباتهم ومُنحوا الإذن بالعودة في عام ١٨٦٠، وجد عديد من المسلمين الذين لم يتمكنوا من إثبات ولائهم أنه قد تمت مصادرة منازلهم؛ ساءت الأمور لدرجة أنه حتى بعض الصحف البريطانية في الهند بدأت تتعاطف مع مسلمي «دلهي»، كتبت إحدى الجرائد في يونيو

١٨٦٠: «متى تهدأ أعصاب أوروبا؟ ومتى يسكن غضبها؟ لقد فاقت النتائج حدود الأسباب، يذلون الناس بجوعهم وخوفهم وفقرهم. الآلاف من المسلمين يتجولون بلا مأوى أو سكن؛ بينما الهندوس - مستغلين ولاءهم المفترض - يتبخترون في الشوارع بكل فخر. هل مازال أحد يعتقد أن كل هذا العقاب الذي أنزلناه بـ«دلهي» لم يكن كافيًا؟ فليتجول في الشوارع الفارغة، والمنازل المنهوبة، والقصور التي نهشتها النيران، ليعرف أن المدينة قد لاقت عقابها بما يكفي.».

كانت معظم الممتلكات الإسلامية المصادرة معروضة للبيع بالمزاد من قبل البريطانيين، وقد تم شراؤها بأعداد كبيرة من قبل الهندوس والمصرفيين في المدينة، مثل «شونا مال» و«رامجي داس» وغيرهم، من سكان «دلهي» الذين كان لايزال بحوزتهم مالًا، حيث قاموا برشوة جامعي الغنائم بدفع مبلغ كبير بعد وقت قصير من سقوط المدينة. قام هؤلاء التجار والمصرفيون الهندوس بشراء اثنين من أشهر المساجد في المدينة، حيث اشترى «شونا مال» مسجد «فتح بوري»، بينما اشترى الآخر مسجد «زينة المساجد» الجميل، والذي كان واحدًا من مراكز الجهاد الرئيسة في أثناء الانتفاضة. كل هذا أدى إلى تفاقم التحول المفاجئ للسلطة من النخبة المسلمة، الذين سيطروا على المدينة قبل الانتفاضة، إلى المصرفيين الهندوس، الذين صاروا يشكلون معظم المواطنين الأثرياء بعد ذلك. كتب «إدوارد كامبل» في عام ١٨٥٨: «صارت العاصمة فقط في يد رجل أو اثنين، وهما «شونا مال» و«رامجي داس».».

ما تبقى من حاشية البلاط والطبقة الأرستقراطية المغولية، كانوا مفلسين تمامًا، وعاش قليلٌ منهم اعتمادًا على أجر زهيد حيث عملوا معلمين في المدارس. وبالنسبة لكثيرين، مثل الشيخ «زكاة الله،» كان انقلابًا لعالمهم شديد القسوة، واعترف «زكاة الله» لاحقًا بأنه لفترة من الوقت استسلم للحزن واليأس من كل شيء.. كما كتب «غالب» إلى صديق في يناير ١٨٦٢: «مع الأسف يا ولدي العزيز، هذه ليست دلهي التي وُلِدت فيها، وليست دلهي التي تعلمت أنت فيها، واعتدت أن تذهب فيها معي إلى دروسك، وليست كذلك دلهي التي قضيتُ فيها واحدًا وخمسين عامًا من حياتي.. صارت معسكرًا.. ثكنات عسكرية في كل مكان. المسلمون الوحيدون هنا هم الحرفيون أو خدم السلطات البريطانية. أما الباقون فكلهم من الهندوس. أحفاد الملك المخلوع من الذكور - الذين نجوا من الإعدام - يصرف لهم راتب خمس روبيات في الشهر. أما الإناث، إن كن كبيرات في السن، فتصبحن عاهرات، وصغيرات السن فتصبحن من البغايا..».

ما لم يقله «غالب» هو أن عديدًا من نساء «دلهي» قد وُضِعن على بداية الطريق للعمل بالدعارة من خلال عمليات الاغتصاب الجماعي التي أعقبت سقوط المدينة. صدَّقَ الضباط البريطانيون أن النساء البريطانيات في دلهي تعرضن للاعتداء الجنسي عند اندلاع الانتفاضة، وهي الشائعة التي ثبت لاحقًا أنها خاطئة تمامًا، حيث تم إجراء تحقيق كامل بتكليف من «سوندرز» لاحقًا، لكن على الرغم من إيضاح أنها كانت شائعة، لم يمنع الضباط البريطانيون رجالَهم من اغتصاب نساء دلهي؛ وفي الوقت نفسه الذي برَّأ فيه تحقيق «سوندرز» المتمردين من اغتصاب نساء بريطانيات، وجد تحقيق آخر أنه: «ربما يصل إلى ثلاثمائة سيدة هندية من البيت الملكي - لا يشمل ذلك المحظيات السابقات في القصر - اغتصبن بعد سقوط دلهي، وأن عديدًا منهن الآن يكتسبن رزقهن بممارسة الدعارة ما لم يتم سبيهن من قبل الجنود البريطانيين.». كان من الواضح أن مصير نساء العائلة المالكة شيئًا صدم «غالب» بشدة، وذكره مرارًا في رسائله.. قال لصديقه «ميرزا تافتا»: «لو كنت هنا، لرأيت سيدات القلعة تتنقلن في المدينة - دون مبالغة - بوجوه صافية كالقمر وملابس قذرة ونعال متآكلة..».

مع خسارة البلاط المغولي، تبخَّرت سمعة المدينة باعتبارها مركزًا للثقافة والتعلم؛ إذ تم نهب مكتباتها، وفُقدت المخطوطات الثمينة. كما أغلقت المدارس الدينية كلها تقريبًا، وتم شراء أغلب مبانيها –قبل أن تُهدم - من قبل المرابين الهندوس. فأشهرها على الإطلاق، المدرسة الرحيمية، التي بِيعَت بالمزاد العلني لـ«رامجي داس»، الذي استخدمها متجرًا. وبحلول عام ١٨٥٩ كان «غالب» يشتكي من أنه لم يستطع العثور على بائع كتب واحدٍ، أو خطاطٍ في هذه المدينة التي كانت ذات يوم من الأيام من أكثر المدن ازدحامًا بالكتب، وقال: «وأما الشعراء، فقد كان عددهم قليل جدًّا، أين «ممنون»؟ أين «زوق»؟ وأين «مؤمن»؟ لا يوجد غير اثنين من الشعراء على قيد الحياة. أحدهما هو «أزوردا» الغارق في صمته، والآخر «غالب» الغارق في صدمته، لا أحد يكتب الشعر، ولا أحد هنا ليتذوقه.».

لجعل الأمور أسوء بالنسبة لـ«غالب»، فقد ضاعت معظم أشعاره، أعظم إنجاز صنعه في حياته، إذ لم يحتفظ بنسخٍ من قصائده، وكانت كلتا المكتبتين الخاصتين اللتين قام فيهما أصدقاؤه بتخزين قصائده فيها، تدمرتا على يد البريطانيين. كتب في رسالة: «قبل أيام قليلة، قابلت رجلًا فقيرًا ذا صوت رخيم، كان قد وجد واحدة من قصائدي فقام بغنائها، أتعرف؟ حين سمعتها، شعرت بالدموع تهطل من عيني».

كتب «غالب» اليائس إلى صديق في عام ١٨٦١: «المدينة كلها أصبحت صحراء.. لا يزال سكان «دلهي» يتحدثون باللغة الأوردية! يا له من شيء مثير

للشفقة! يا عزيزي، عندما تختفي أسواق مباريات الشعر، فأين اللغة الأوردية؟ أقول لك، إنها مشيئة الله، لم تعد دلهي مدينة، لكنها صارت أقرب إلى مخيم أو معسكر. لا قلعة، لا أسواق، ولا بحيرات..»

كتب إلى صديق آخر استفسر عن أحوال «دلهي» هذه الأيام: «إن دلهي هي أربعة أشياء، القلعة، والحشود اليومية في المسجد الجامع، والتمشيات الأسبوعية إلى جسر يامونا، والمعرض السنوي للزهور. لم ينجُ أي من تلك الأشياء، فكيف يمكن أن تكون هناك «دلهي»؟ نعم، كانت هناك كانت ذات يوم مدينة بهذا الاسم في مملكة الهند، لكنها اختفت..».

في مثل هذه الموقف، غالبًا ما سأل «غالب» عن الهدف من الاستمرار بينما انتهى كل شيء عاش من أجله. كتب: «لا يستطيع الرجل أن يروي ظمأه بالدموع.. فعندما يصل اليأس إلى الأعماق، لا يبقى شيء سوى الاستسلام لمشيئة الله. لا يمكن لشيء أن يؤثر فيَّ بعد، وأعيش انتظارًا للموت!».

كتب في يونيو١٨٦٢: «تسكن روحي في جسدي هذه الأيام قلقة، مثل طائر محبوس في قفص.».

بدون كلية دلهي والمدارس الدينية العظيمة، بدون المطابع والصحف الأوردية، وبدون بلاط المغول، الذين عوضت هيبتهم الثقافية الهائلة دائمًا عن افتقارهم المادي إلى سلطاتهم الفعلية على رعاياهم، والأهم من ذلك كله، بدون وجود الإمبراطور، ذهبت القوة الدافعة وراء نهضة دلهي وازدهارها الفني. القلب النابض للحضارة الهندو - إسلامية اقتُلِع، ولا يمكن استبداله. كتب «غالب» مع اقترابه من الموت: «كانت هذه الأشياء لتستمر فقط، لو أن الملك ظل على عرشه.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ١ أبريل ١٨٥٩، قام «إدوارد أوماني» بتوديع «ظفر» وعائلته، وانطلق عائدًا إلى الهند مع كتيبته؛ عاد معه أربعة آخرون من مرافقي ظفر الهنود الذين وجدوا في أنفسهم حنينًا إلى الوطن في بورما ورغبوا في العودة إلى عائلاتهم في الهند. بعد ثلاثة أسابيع نُقِل «ظفر» مسافة قصيرة عبر المعسكر إلى مقره الجديد، على بعد نصف ميل أسفل معبد «شويداجون». ذكر سجَّان «ظفر» الجديد، الكابتن «نيلسون ديفيز»: «يقع المنزل على بعد بضعة ياردات من الحرس الرئيس، ومثل المنازل الخشبية في البلاد، كان مرتفِعًا بشكل كبير عن الأرض، ومساحته تبلغ حوالي مائة قدم مربع، ويطوِّقه سياج خشبي بارتفاع عشر أقدام.».

يتكون السكن من أربع غرف، مساحة كل منها ١٦ قدمًا مربعًا، إحداها مخصصة للملك السابق، والأخرى لـ«جيوان بخت» وزوجته الشابة، والثالثة

استحوذت عليها «زينَّت محل»، وقد ألحقت كل غرفة من هذه الغرف بدورة مياه. أما «شاه عباس» وأمه فقد سكنا الغرفة المتبقية. استراح المرافقان إما حول الشرفات وإما في أي أماكن مجهزة لهم تحت المنزل، وهي شقق مغطاة بالطوب المجروش للحفاظ على جفاف المكان، كما كان هناك حمامان إضافيان لاستخدام الخدم، بالإضافة لمطبخ للطهي فيه. وقد امتلأت الشرفات في الطوابق العليا من المنزل بالدجاج، حيث اعتاد الملك وأبناؤه الجلوس بشكل عام، وبالنظر إلى أرضية الطابق العلوي المرتفعة عن مستوى السياج المحيط، فقد كانوا يتمتعون بنسيم البحر القوي، والمنظر المبهج الممتد أمامهم كذلك، كما كانت مشاهدة المارة على طريق، ومراقبة سفن الشحن، تخفف إلى حد ما من رتابة الحياة في سجنهم هذا، وساعدتهم على تحمل وضعهم الحالي. وصف «ديفيز» الترتيبات الأمنية لحراسة العائلة المالكة: «حارسان يحرسان نهارًا، وعادةً ثلاثة في الليل.. كما أقوم بزيارة السجناء والاطمئنان عليهم مرتين في اليوم. وبالنسبة لتكلفة طعام الإمبراطور وعائلته، فقد كانت تفوق بكثير ما كان عليه الحال في الهند، بمتوسط حوالي إحدى عشرة روبية في اليوم، ومع ارتفاع الأسعار الحالي فمن المحتمل أن النفقات اليومية سوف تتجاوز هذا المبلغ. منذ أن توليتُ المسئولية، سمحت لهم بروبية إضافية كل يوم أحد، وفي الأول من كل شهر تضاف روبيتان. وهذا يسمح لهم بتلبية بعض طلباتهم، مثل شراء مناشف للمرحاض، دون ضرورة لأن يطلبوا مني كل مرة يحتاجون فيها لشراء أيَّة تفاهات قد يحتاجونها. لكن طبعًا الأقلام الجافة، والحبر، والورق، كلهم كانوا ممنوعين منعًا باتًّا. قبل أن أقوم بتولي المسئولية كانوا قد زودوا أنفسهم بعديد من الضروريات الصغيرة التي يحتاجونها، كما كانوا قد اشتروا ملابسهم التي يرتدونها الآن بالكامل من مواردهم الخاصة، ولكن الآن يزعمون أن جميع أموالهم قد انتهت، وهو الشيء الذي أعترف أنني أشك به.

أتأكد يوميًّا من خلال الفحص الشخصي والاستفسار منهم عن أن الطعام المقدم لهم كافٍ وجيد، كما تم إمدادهم ببعض الملابس الجديدة مؤخرًا، ولكن ملابسهم القديمة أصبحت في حالة سيئة للغاية، وسأكون مضطرًا حاليًا إلى جلب مزيد من الملابس الجديدة لهم. وبالنظر إلى البيت الذي تم الاحتفاظ بالسجناء فيه فهو بيت صغير للغاية. وبالنسبة للخدم، فهناك موظف مسئول عن شراء إمداداتهم اليومية، وهو نوع من الوسيط بيني وبينهم، رجل من بورما، لكنه يتحدث اللغة الهندوستانية بشكل جيد بما يكفي لتلقي أوامر السجناء فيما يتعلق بمتطلبات السوق الخاصة بهم. راتبه أعلى مما يمكن أن يحصل عليه أي هندي، لكنني اعتقدت أنه من المستحسن توظيف رجل من عِرق مختلف، حيث كان هذا التغيير المستمر مطلوبًا. الخدم الآخرون الوحيدون العاملون بالمكان هم «بيشتي - حامل مياه»، و«دوبي - غسال

ملابس»، وكنَّاس.. كل هؤلاء بالضرورة رجال هندوسيون، لكنهم جميعًا مرتبطون بخدمتي وألزمهم جميعًا بالعيش في مجمَّعِيَ السكني المجاور لمسكن السجناء، إذ يبقون بالقرب مني لأحافظ على مراقبتهم بشكل جيد. غير مسموح بالطبع للجمهور بالالتقاء بالأسرى، والخدم لا يُسمح لهم بهذا إلا بعد الحصول على تصريح مني يتم إصداره يوميًّا ويجب أن يتم فحصه من قِبَل ضابط الحرس الرئيس قبل أن يُسمح لهم بالدخول. ولمزيد من الأمان تتم طباعة هذه التصريحات وفحصها بواسطة نظام ترقيم بالإضافة إلى كل توقيع.».

ذهب «ديفيز» لمناقشة صحة «ظفر»، والتي وصفها بأنها: «جيدة بشكل مقبول، منذ رحيله من سجنه السابق، تحسَّنت صحته بشكل ملحوظ، وعلى الرغم من ضعفه الشديد، إلا أنه ليس أكثر مما هو متوقع من مواطن هندي يبلغ من العمر ٨٦ عامًا. وعندما يسترسل في أفكاره تبدو ذاكرته جيدة، ولكن نُطقه غير واضح نتيجة فقدان أسنانه. هو بالتأكيد الآن لا يقدر على القيام بأي مجهود ذهني أو جسدي، ولكن بشكل عام العجز لا يؤثر فيه بشكل كبير، ويبدو أنه يتحمل سنه المتقدمة بشكل جيد، لكن أحيانًا يمضي أيامه فاتر الهمَّة، مُظهرًا لامبالاة شديدة لجميع الشئون ما عدا الأمور المتعلقة بالحياة الأخرى الأبدية بعد البعث. من الواضح أن هذه كانت حالته الطبيعية منذ فترة طويلة، وربما تستمر لبعض الوقت في المستقبل، حتى تنتهي حياته، وهو الأمر الذي إن حدث فلن يفاجئ أحدًا.».

لم يتمكن «ديفيز» من رؤية «زينَّت محل»، التي بقيت في عزلتها، لكنه أرسل زوجه للاستفسار عنها. وصفتها السيدة «ديفيز»، التي زارت من حين لآخر كلتا المرأتين: «هي امرأة في منتصف العمر، تتمتع بصحة جيدة جدًّا. لقد أجريت عدة محادثات معها من وراء حجاب، وهي تحكي كثيرًا عن الخطوة التي اتخذتها وقت اندلاع الانتفاضة في دلهي عندما راسلت الراحل السيد «كولفين»، الملازم أول حاكم الأقاليم الشمال غربية، تتوسل إليه ليأتي لمساعدتها، مما يعني أنه في ذلك الوقت كانت العائلة المالكة تحت رحمة المتمردين، وهي تؤكد باستمرار أنهم كانوا بالتالي عاجزين حتى عن حماية الفتاة الأوروبية تعيسة الحظ التي لجأت إليهم ملتمسة الحماية. كما أنها كثيرًا ما تلمِّح إلى فقدان كنزها الخاص وجواهرها، وتذكر أن الرائد «هودسون» تعهد بكلمته وأعطاها وثيقة مكتوبة كضمان لسلامة ممتلكاتها الشخصية، لا أعرف التفاصيل الدقيقة، لكنني أروي نسختها هي - السيدة «زينَّت محل» - من الأحداث.. تقول إن ممتلكاتها لم يصبها مكروه إلا بعد وفاة الرائد «هودسون»، عندها طُلِب منها التخلي عن الوثيقة التي أعطاها لها «هودسون» كحماية. ثم جرَّدها السيد «سوندرز»، مفوض دلهي، من جميع ممتلكاتها الثمينة التي تصل قيمتها إلى مائتي ألف جنيه إسترليني، ورفض أن

يعيد لها الوثيقة. لقد شرحتُ لها أن زوجها مُدان بدعم التمرد ولهذا انتقلت جميع ممتلكات الأسرة إلى الحكومة، وأن كونها كانت تقيم ببيت خاص بها بالهند، وكونها تقيم الآن بغرفة منفصلة عن الملك، كل هذا ليس له علاقة ولن يغير شيئًا في الأحداث. لكنها بدت مع ذلك تعتقد أن مصادرة ممتلكاتها الشخصية تتعارض إلى حد ما مع العرف. ومع ذلك فلم أحاول إعطاءها أي آمال كاذبة في أن يتم وضعها في وضع يسمح لها بامتلاك الثروة ثانية، إن كانت تفكر في هذا، لأنها بدت لي امرأة ذات عقل وطريقة تفكير غريبة، انطلاقًا من أحاديثها وتصرفاتها. من بين الاثنين، أظنها هي أكثر من غيرها التي ربما كان لديها ما تحكيه وتقوله عن مؤامرات المتمردين، أكثر من زوجها المخبول.».

ثم كشف «ديفيز» عن الدرجة التي ألقى بها «ظفر» و«زينَّت محل» اللوم على حالتهما الراهنة على الطبيب الشخصي المقرب السابق ورئيس الوزراء، المدعو الحكيم «إحسان الله خان» - وهو ما أكده عدد من شهود العيان، من بينهم الموثوق فيه بشكل لا تشوبه شائبة، «ظهير دهلوي» - بأن الحكيم هو الذي ضغط على «ظفر» بالتوقف عن منع محاولات المتمردين لقتل الأسرى الأوروبيين في القلعة، لكن بينما كانت المجزرة هي إحدى التهم الرئيسة ضد «ظفر»، فقد نجا الحكيم من الشنق أو حتى السجن مقابل وقوفه أمام المحكمة والإدلاء بالشهادة ضد مخدومه السابق. كتب «ديفيز»: «يجب بالطبع أن يتم التعامل مع أقوال السجناء بحذر، ولكن فيما يتعلق بفقدان كنزها، هناك شخص معين قيل إنه يدعى «إحسان الله خان»، كان له يد في هذا، وجميع السجناء يلعنونه في مرارة ويؤكدون أن هذا الشخص، الذي كان حكيم الملك ومستشاره، هو الشخص الرئيس الذي قام بتقديم المشورة الخبيثة لذبح السجناء الأوروبيين. لست متأكدًا مما إذا كان هذا الأمر صحيحًا أما لا، ربما قدَّم الرجل بعض المعلومات المتعلقة بالكنز السِرِّي، وتسبب هذا في عداوة حزب الملكة فتكاثرت عليه الأقاويل. مهما كان ما حدث، يبدو أن هذا الحكيم قد اكتسب ثقة السلطات البريطانية في دلهي، بلا شك لسبب وجيه وكافٍ، والغضب الذي تظهره «زينَّت محل» ورفاقها، يؤكد هذا الرأي.».

ثم حوَّل «ديفيز» انتباهه إلى «شاه زماني بيجوم» التي يصفها - من المفترض مرة أخرى أنه يستعمل الأوصاف التي قدمتها زوجه له - بأنها: «امرأة شابة وجميلة، ربما لا يزيد عمرها عن خمسة عشر عامًا، على الرغم من أنها أمٌّ لطفلين بالفعل. يبدو أنها تشعر بقيود السجن مدى الحياة أكثر من الآخرين. ممكن أن يكون هذا جزئيًّا نتيجة للحالة الصحية الحساسة التي أصابتها بعد وقت قصير من وصولها إلى هنا. فهمت من الملازم «أوماني» أنها ولدت طفلًا ذكرًا ميتًا.. كان الملك الشيخ وزوج ابنه مغرميْن بشكل خاص بطلب خدمات الطبيب في كل مناسبة تافهة، وكانت السيدة الشابة حريصة جدًّا على أن

يُسمح لها بالخروج للهواء الطلق من حين لآخر. أما الابنان «ميرزا جيوان بخت» و«شاه عباس»، فكلاهما شابَّان يتمتعان بصحة جيدة، مختلفان إلى حد ما في الاتجاه والأسلوب. يُظهر أكبرهما، «جيوان بخت»، صورة الرجل شديد الكبرياء. ربما نتج هذا على الأرجح عن موقعه الحالي المعترف به في الأسرة، وليس بسبب أي تميز في شخصيته وإنجازاته، لأنه وُلد أميرًا، في حين أن أخاه غير الشقيق الأقل حظًّا ليس سوى ابن خادمة. كلاهما جاهل للغاية، إنجازات الأكبر سنًّا لا تزيد عن مجرد معرفة طفيفة بالقراءة والكتابة باللغة الفارسية، وعندما يتم سؤالهما حول أكثر الموضوعات اعتيادية، فإن افتقارهما للمعرفة يمسي واضحًا جدًّا. حتى حدود وطنهما غير معروفة لهما تمامًا.

أشعر أنه واجبي، باعتباري الوسيط الوحيد الذي يمكن أن يتلقى رغباتهما، بأن أعلن رغبة الشابين في التعلم وتوصيلها للحكومة، حيث أعربَا في كثير من الأحيان عن الرغبة الجادة في اكتساب معرفة باللغة الإنجليزية خاصة، ويبدو أنهما يدركان تمامًا أنه من خلال القيام بذلك سيزيلان العار المصاحب لحالة جهلهما الحالية، ويذكران أنهم أعربا عن رغبتهما لمفوض دلهي، بأن يتم إرسالهما إلى إنجلترا أكثر من أي مكان آخر. تحدث والدا الفتيان معي حول الموضوع، ويبدو أن جميعهم يرغبون في أن يتم هذا بأقرب وقت، حيث يمتلك الفتيان ما يكفي من الذكاء للأمل في التقدم السريع، وقد وعداني بالالتزام بالأمر إذا أخذت الحكومة الأمر بجدية. قلت لهما إنني سوف أنقل رغباتهما للحكومة ليتم النظر فيها.».

في الرسالة التوضيحية، بالغ «ديفيز» في وصف آماله بالنسبة للشابين، مقترحًا أنه من خلال إرسال الأميرين إلى إنجلترا، يمكنهم تحويلهم إلى أميرين من المغول موالين لإنجلترا. وأضاف «ديفيز» أن «ظفر» و«زينَّت محل» قد منحا مباركتهما لهذه الخطة.. كتب: «لقد تجنبت بجدية إعطاء أي تشجيع يدفعهما للاعتقاد بأن الحكومة ستوافق.. ولكن مع اقتراب حياة والدهما من نهايتها، فهناك احتمال كبير لتغير بعض ظروف الشابين في أيَّة فترة قريبة. في مثل هذه الحالة لا يمكن إنكار أن اهتمامنا بتنفيذ رغبتهما في الحصول على التعليم الأوروبي من شأنه أن يوفر مزيَّات سياسية ضخمة. ربما تكون الطريقة الوحيدة لنزع انتمائهما لتلك البلاد، وبالتالي تحقيق نتيجة مفيدة للغاية لنا، مثل استيعاب الآمال الكامنة لورثة سلالة خضعت لقوة أجنبية. تحدَّث معي والدا الشابين حول هذا الموضوع وهما متحمسان لبدء العمل فيه فورًا.. يبدو أن مثل هذا الاستنتاج من جانبهم يقدم أفضل فرصة لإتمام هذا الفصل بينهما وبين مواطنيهم، والتي سيتم تسهيلها إلى حد كبير عن طريق إزالتهما تمامًا من عالم الحياة الهندية الضيِّقة بكل ما فيها من تحيُّزات وعبث.

وفائدة مثل هذا التغيير، العمل على صنع عقل نافع فعال، كما حدث بحالة مهراجا دوليب سينغ؛ وفي الوقت الحاضر هذين الشابين، الذين في العمر الذي تتكون فيه الانطباعات الجيدة بسهولة وتُزرع المواهب الطبيعية، ويمكن غرس المبادئ بصعوبة قليلة، واقتلاع الرذائل المتأصِّلة، عند معرفتهم أن الأخلاق لا غنى عنها للسعادة الحقيقية، وربما يكون هذا دافعًا لهما للأبد، والتطبيق العملي لتلك الأخلاق ربما يتم زرعه فيهما وبتدريسهما المستمر ورؤيتهما لهذه الأخلاق على أرض الواقع، تصبح أخلاقًا معتادة. لا يمكن التغاضي عن أنه سيحل وقت سيصل فيه هذان الشابان السجينان إلى مرحلة النضج، وأولئك الذين لهم السلطة عليهما، هم من سيكون لهم القدرة على تحديد مستقبلهما. أليس من الواجب علينا الترتيب لمثل هذا الموقف؟ لذلك فإن الشرط الأول والأكثر أهمية هو إعطاء الفتيان فرصة للتنفس، وفصلهما تمامًا عن جو التعصُّب والجهل الخرافي الذي يحيط بهما في الوقت الحاضر من صحبة متواضعة الثقافة لم يحظوا بتعليم مناسب؛ من حثالة الحريم الآسيوي المخفض، وما يترتب على اختلاطهما بهم من تدهور.».

وقد اختتم «ديفيز» رسالته بكتابة مزيد عن مرافقي «ظفر» الذين اختاروا بقاءهم في المنفى والسجن معه، الذين على الرغم من ولائهم الجميل هذا لم يحركوا أي عواطف داخل «ديفيز». كتب: «فيما يتعلق بالمرافقين، كل ما يمكنني قوله هو أنهم مجموعة قليلة العدد، قذرة العادات، ومستواهم أقل بكثير من خدم المنازل في منازل الضباط البريطانيين. الاستثناء الوحيد ربما يكون أحمد بك، الذي يبدو أنه شيخ محترم، ولا يمكن أن يكون لديه دافع لمرافقة الملك السابق بخلاف الإخلاص. أما بخصوص مرافق «زينَّت محل» المدعو «عبد الرحمن»، فالموضوع مختلف بعض الشيء. إنه رفيق دنيء وماكر، ولست راضيًا تمامًا عن العلاقة التي تجمعه بالملكة، أهو مجرد خادم، أم أكثر!».

لكن فكرة «ديفيز» بإمكانية إرسال الأمراء إلى إنجلترا رُفِضت بشكل قاطع على الفور من قبل رؤسائه في «كالكوتا»، الذين منعوه من أن يقوم في المستقبل بـ«ذكر في خطاباته ويومياته مثل تلك الأمور التافهة التي لا تهم الحكومة أن تعرفها..».

كما تم لوم «ديفيز» أيضًا لقيامه باستخدام مثل هذه التعبيرات: «الملك السابق»، و«العائلة المالكة السابقة»، و«بيجوم». وقد طلب الحاكم العام في المجلس أن يتم توجيه النقيب «ديفيز» لتجنب هذه التعبيرات في المستقبل. فتم توجيهه للإشارة فقط إليهم بصفتهم «سجناء دلهي». عندما وجد الشابان أنهما ممنوعان من مغادرة مكان احتجازهما في «رانجون»، ولم يعد لهما أيَّة أهمية الآن بالنسبة للحكومة البريطانية في «كالكوتا»، لم يكن أمامهما خيار

سوى التفكير في «ديفيز» لمساعدتهما في موضوع التعليم.. استمرَّا في زيارة منزله بانتظام، وقيل إنهما يحرزان تقدمًا ممتازًا في تعلم اللغة الإنجليزية، على الرغم من أن «ديفيز» اعترف بأنه وجد صعوبة في فعل أي شيء لكسر البلادة في طريقة تفكيرهما: «يأتيان من حين لآخر ويتحدثان مع السيدة «ديفيز»، فيشتكيان لها مشكلاتهما المريرة، على الرغم من هذا، فقد ظهر الجد والاجتهاد أكثر على «شاه عباس»، وبالتالي هو في مرحلة متقدمة من التعليم، على عكس تصرف جيوان بخت البليد، حتى إن «شاه عباس» أصبح بإمكانه –في غياب فرص أفضل - التحدث مع الحراس الأوروبيين.».

كما ألمحت رسائل أخرى إلى استياء «جيوان بخت» المتزايد. كتب «ديفيز»: «يوجد لدى «شاه عباس» رؤية واضحة لضرورة وجود قواعد، ويخضع لها في طاعة، ويقوم بالتمشية كل الصباح إلى الحدائق مع حارس. لكن «جيوان بخت»، الذي ربما يرى النظام والقواعد رجعية إلى حد ما، يرفض الخروج على الإطلاق، ولم يمارس أي تمرين في الشهرين الماضيين. هذا العناد، إذا استمر، لن يكون جيدًا لصحته. لكن لدي شعور بأنه سيكون في مزاج أفضل مع مرور الوقت..».

في هذه الأثناء، جلس «ظفر» بصمت يراقب السُّفن المارَّة من شرفة غرفته في «رانجون»، ولم يُسمح له بحيازة أقلام أو أوراق، لذا لا يمكن معرفة رد فعله على عزلته ونفيه إلا تخمينًا. وأعتقد أنه أصبح من الواضح الآن أن كل تلك الأبيات الشهيرة التي نُسِبت إليه –كذِبًا - في المنفى، والتي يعبر فيها عن حزنه ومرارته، ليسوا نتاج يده، على الرغم من قول «ويليام هوارد راسل» بوضوح أن ظفر قد كتب بعض الأبيات على جدران سجنه بعصًا محترقة، وأنه ليس من المستحيل أن يتم تسجيلها بطريقة ما وحفظها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول عام ١٨٦٢، وصل «ظفر» إلى سن السابعة والثمانين. «على الرغم من أنه كان ضعيفًا، وعلى الرغم من أن الأطباء كانوا يتوقعون وفاته الوشيكة منذ عقدين من الزمن، فلم تظهر عليه أيَّة علامات على الاستسلام إلى تنبؤاتهم، باستثناء بعض الشعور بالمرض والشلل البسيط في اللسان».

مع ذلك، في أواخر أكتوبر ١٨٦٢، مع نهاية فترة الرياح الموسمية، أصبحت حالة «ظفر» فجأة أسوء بكثير؛ فلم يكن قادرًا على ابتلاع طعامه أو الاحتفاظ به بفمه، وكتب «ديفيز» في مذكراته أن نهاية حياته صارت وشيكة الآن.. فكان يتم إطعامه المرق بالملعقة، ولكن بحلول الثالث من نوفمبر صار من الصعب عليه حتى فعل هذا. في اليوم الخامس، كتب «ديفيز» أن «الطبيب المدني لا يعتقد أن ظفر يستطيع أن يعيش لعدة أيام.» في اليوم التالي ذكر

«ديفيز» عن الشيخ «من الواضح أنه يغرق في حالة من التدهور الخالص والشلل في منطقة حلْقِه.».

استعدادًا للوفاة، أمر ديفيز أن يُجمع الطوب والجير، وتُصنع بقعة منعزلة في الجزء الخلفي من غرفة «ظفر»، وتجهيزها للدفن. بعد صراع طويل ليلًا، لفظ ظفر أنفاسه الأخيرة في الساعة الخامسة صباح يوم الجمعة الموافق السابع من نوفمبر ١٨٦٢. على الفور عملت الإمبراطورية على التأكد من أن وفاة المغولي الأخير ستكون سريَّة وهادئة قدر الإمكان. ربما تكون وفاة «ظفر» علامة على نهاية سلالة حاكمة عظيمة عمرها ٣٥٠ عامًا، لكن «ديفيز» كان عازمًا على أن يشهد هذه اللحظة التاريخية الحزينة أقل عدد ممكن من الأشخاص. كتب «ديفيز»: «كل شيء كان جاهزًا، وتم الدفن في الساعة الرابعة عصرًا من اليوم نفسه في الجزء الخلفي من مكان الحرس الرئيس في قبر من الطوب، مغطى بسطح من العشب ساواه مع الأرض.».

لاحظ ديفيز كيف حضر ولداه وخادم والدهم الدفن، لكن النساء، وفقًا للعرف الإسلامي، لم تفعلن. قال في الختام: «أحاط سياج من الخيزران بالقبر لمسافة كبيرة، وفي وقت ما، ستبلى السياج، وسيكون العشب قد غطّى مرة أخرى البقعة بشكل كامل، ولن يبقى أي أثر لتمييز مكان رقود آخر المغول العظماء.».

في اليوم التالي، كتب «ديفيز» تقريره الرسمي عن نهاية مهمته، وقد ظهر مدى ارتياحه: «لم يترك هذا الحدث سوى انطباعًا طفيفًا سواء على الأقارب أم على سكان هذه المدينة المسلمين.. تجمَّع حوالي بضع مئات من المتفرجين في وقت الجنازة، وكان أغلبهم من السيَّاح القادمين من سوق «سودر» المجاور، الذين جاءوا إلى المدينة لمشاهدة السباقات التي كانت تتم بعد ظهر اليوم بالقرب من مكان إقامة السجناء.».

أضاف: «يمكننا القول إن وفاة الملك السابق لم يكن لها تأثير على النسبة الإسلامية من سكان «رانجون»، ربما باستثناء قلة من المتعصبين الذين يشاهدون ويصلون من أجل النصر النهائي للإسلام».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلت أخبار وفاة «ظفر» إلى «دلهي» بعد أسبوعين من وفاته، في العشرين من نوفمبر. قرأ «غالب» الخبر في جريدة «أخبار أفادا»، في اليوم نفسه الذي أُعلن فيه أنه سيتم أخيرًا إعادة «المسجد الجامع» إلى مسلمي «دلهي». ولكون مشاعر غالب خُدِّرَت من كثرة أخبار الوفيات والمآسي الأخرى، كان رد فعله صامتًا وهادئًا، كتب: «في يوم الجمعة السابع من

نوفمبر، والرابع عشر من شهر جمادى الأول، تحرر أبو ظفر سراج الدين بهادور شاه من رباط الدنيا وقيود الجسد. إِنَّا لِلَّهِ وَإنا إليه راجعون».

كان رد فعل «غالب» نموذجًا لما تلَي وفاة الملك؛ لم تتناول أيَّة صحيفة بريطانية أو هندية خبر وفاة «ظفر» بأي تفاصيل. كان هناك كثير من إراقة الدماء، وبالتالي عديد من الجنازات، وإلى حد ما كانوا قد حزنوا على «ظفر» بالفعل وقت نفيه، ثم نُسِيَ.. بعد كل شيء، لقد مرت خمس سنوات منذ طُرِد من المدينة وأُرسِل إلى المنفى في بورما. لكن تدريجيًّا، وبإدراك متأخر، ظهر مدى الفراغ الذي خلَّفه تدمير وتشتيت بلاط «ظفر». الطريقة الدرامية التي احتشد بها الهندوس والمسلمون في العاصمة المغولية عند اندلاع الانتفاضة أظهرت درجة قُدُسية الأسرة الحاكمة، والتي ظلَّت حية إلى حد كبير بعد أكثر من قرن من الزمان من توقف المغول عن ممارسة أيَّة قوة سياسية أو اقتصادية أو عسكرية حقيقية. على عكس كل التوقعات، فإن فكرة الإمبراطور المغولي، خليفة الله، وملك العالم، والبادشاه، وسيد العالم، كانت لا تزال تلقى صدى عبر هندوستان في ذلك الوقت. والأكثر إثارة للدهشة، وعلى عكس عديد من الافتراضات الحديثة، فمن الواضح أن تلكم الفكرة كانت ذات صدى قوي بالنسبة للهندوس كما هي بالنسبة للمسلمين. كما كتب «مارك ثورنهيل»، الذي كان في «ماثورا» بعد وقت قصير من وصول السيبويين من ميروت، بعدما استمع إلى موظفي مكتبِه يناقشون بحماسة إحياء عرش المغول: «كان حديثهم كله عن احتفال القصر وكيف سيتم إعادة إحياء الإمبراطورية. تكهَّنوا بخصوص من سيكون المسئول عن غرف الملك الرئيسة، الرئيس، ومن سيحرس البوابات المختلفة، ومن سيكون الاثنان والخمسون راجا «أميرًا» الذين سوف يجتمعون لوضع الإمبراطور على العرش. عندما استمعت أدركت - كما لم أفعل من قبل - الانطباع العميق الرائع الذي تركه البلاط القديم على الخيال الشعبي، وكم كانت التقاليد عزيزة عليهم، وكيف احتفظوا بها بإخلاص غير معتاد.».

كشف اندلاع الانتفاضة عن أن البلاط المغولي لم يكن يُنظر إليه عبر شمال الهند على أنه نوع من الحكام المسلمين الأجانب المفروضين عليهم - كما ينظر بعضهم، وخاصة من الجناح اليميني الهندوسي، إلى المغول اليوم - وإنما كانوا ينظرون إليهم مصدرًا رئيسًا للشرعية السياسية، وبالتالي مركز المقاومة الطبيعي ضد الحكم الاستعماري البريطاني.

ومع ذلك، بالرغم من أن الانتفاضة قد أظهرت قوة اسم المغول، فقد سلَّط المسار الكارثي للانتفاضة الضوء بشكل كبير على أوجه القصور، وعجزِ ذلك النظام الإقطاعي المغولي القديم. قد يكون «ظفر» قد حظي بالولاء الاسمي للسيبويين كما حظي بولاء شعبه، لكن هذا الولاء لم يمتد إلى الطاعة

المباشرة أو الخضوع، ولا سيما عندما تبيَّن أن خزينة كنزه كانت فارغة، وأصبح ضعف سلطة «ظفر» الشخصية واضحًا. الفشل الحاسم في إجبار المناطق النائية من «دلهي» على الخضوع لأوامر «ظفر»، أو تنظيم جهاز مناسب لإطعام القوات التي تجمَّعت داخل الجدران، مما تسبَّب في أن الجيش الضخم - ومعظمه من الهندوس - الذي تجمع بسرعة وبشكل لافت للنظر في «دلهي» سرعان ما نفد منه الطعام، ولم يمر وقت طويل قبل أن يصلوا إلى حافة المجاعة.

لهذا السبب، عند دخول البريطانيين عبر بوابة «كشمير»، أتت الضربة القاضية، وعندما سقطت «دلهي» في سبتمبر ١٨٥٧ لم تتدمر المدينة وبلاط «ظفر» فقط، ولكن دُمِّرت الثقة في العالم المغولي السياسي والثقافي الأوسع وسلطته في جميع أنحاء الهند. انهالت أسواط الخراب، والهزيمة، وعمق الذُّل الذي عُرِّضُوا له، على المغول المهزومين، فقلَّلوا بشدة من هيبة النظام الأرستقراطي القديم، وأيضًا - إلى حدٍ ما على الأقل - مركب الحضارة الهندوسية الإسلامية، والتي كان بلاط «ظفر» رائدًا فيها، والتي لا تزال قصائد «غالب» تشكل مثالًا رائعًا لافتًا للنظر على مدى تطورها وتسامحها وانفتاحها. بالنسبة للبريطانيين بعد عام ١٨٥٧، أصبح المسلم الهندي مخلوقًا ذا مكانة أقل من البشر، ليتم تصنيفه في الأدب الإمبريالي العنصري بلا حرج إلى جانب العينات المحتقرة الأخرى، مثل الأيرلنديين الكاثوليك أو اليهود المشردين. ويظهر القاع الذي وصل إليه المسلمون الهنود في نظر البريطانيين في إصدار ألبوم ظهر عام ١٨٦٨ بعنوان «سكان الهند»، والذي احتوى على صور لمختلف الطوائف والقبائل في جنوب آسيا، تتراوح ما بين التبتيين والسكان الأصليين لولاية بيهار. تظهر فيه صورة «المسلمين» من خلال صورة لعامل حرفي من مدينة «عليكره» وقد ورد عليه التعليق التالي: «ملامحه تشابه ملامح المسلمين الغريبة، ويجسد بطريقة قوية التزمت والشهوانية، والجهل والتعصب الأعمى لفئته التي ينتمي لها. ربما يكون من الصعب تصور صفات أكثر إثارة للاشمئزاز..».

الازدراء العميق الذي عبَّر عنه البريطانيون صراحةً تجاه الهنود المسلمين والثقافة المغولية أثبت أنه مُعْدٍ، ولا سيما للهندوس الجدد، الذين شدَّدوا مواقفهم تجاه كل ما هو إسلامي، وأيضًا تجاه عديدٍ من الشباب المسلمين، الذين آمنوا أن الحضارة الإسلامية العزيزة قد فقدت مصداقيتها بشكل لا رجعة فيه. حتى إن بعضهم شارك القناعة الأولية لسيد أحمد خان بأن المسلمين الهنود لن يعودوا أبدًا للازدهار أو «تلقي التقدير». كتب السيد «أحمد خان»: «لبعض الوقت، لم أستطع تحمل الحالة اليائسة لشعبي.. صارعت حزني، وصدِّقني لقد جعل هذا مني شيخًا.».

تمامًا كما أثبتت جيوش الهواة التي قادها المغول أنها غير قادرة على منافسة الجنرالات البريطانيين والأسلحة البريطانية، وكما أثبتت إدارة ميرزا مغول المتعثرة أنها لا تضاهي بيروقراطية حكم شركة الهند الشرقية، وفي السنوات التي أعقبت هذا، سرعان ما توقف طراز البناء المعماري المغولي التقليدي، والمعتمد على المنمنمات، والتي كانت لا تزال حية ومزدهرة، وتراجع في مواجهة العمارة القوطية الاستعمارية وغيرها من أشكال الفن الفيكتوري. كما اعتُبرت آداب المجتمع المغولي والأخلاق الهندية الإسلامية مجرد مفارقة تاريخية. أما العالم الشعري الذي تمثله «المشاعرة»، أو «التجمعات الشعرية» الخاصة بظفر، فقد وجد صعوبة متزايدة في جذب المثقفين الهنود الشباب الذين اجتذبهم نداء الشعر البريطاني المتمثل في «ألفريد تينيسون»، أو مذهب «ووردزورث»، الذي يُدرَّس الآن في المدارس الإنجليزية المتوسطة.

كتب ابن الشيخ «محمد باقر»، الشاعر والناقد «آزاد»: «إن مجد المنتصرين وثروتهم الحقيقية يكمن في إعطاء كل ما يخصهم - حتى لباسهم، ومشيتهم، وأحاديثهم - جاذبية تجعلها مرغوبة. والناس لا يتبنونها فقط، وإنما يصيرون فخورين بتبنِّيها». لم تكن كل التغييرات، بالطبع، بالضرورة نحو الأسوأ، إذ تلقَّت الهياكل السياسية الاستبدادية لحكم المغول ضربة قاضية مدمرة. هناك تسعون عامًا تفصل بين الانتصار البريطاني على أبواب دلهي عام ١٨٥٧ وبين طرد البريطانيين من جنوب آسيا عبر بوابة الهند عام ١٩٤٧. لكن في حين أن ذكريات الفظائع البريطانية في عام ١٨٥٧ ربما ساعدت في ولادة القومية الهندية، وكذلك الشك المتبادل بين الحكام والرعية بعد الانتفاضة، لم يكن القليلون الباقون على قيد الحياة من أحفاد المغول، ولا أي من الحكام الأمراء والإقطاعيين القدامى، مسئولين بأي شكل من الأشكال عن مسيرة الهند نحو الاستقلال. بدلًا من ذلك، كانت حركة الحرية الهندية هي محض خدمة قدمها المستعمر الإنجليزي، حيث قام بها المتشبهون بالإنجليز، الذين تخرَّجوا في المدارس الإنجليزية بعد عام ١٨٥٧، والذين على العموم استخدموا الهياكل والأساليب الديمقراطية الغربية الحديثة - مثل الأحزاب السياسية، والإضرابات والمسيرات الاحتجاجية - لنيل حريَّتهم.. حتى بعد الاستقلال، لم تستعد الفنون التي زرعها المغول - مثل تقاليد رسم المنمنمات، والقصائد الغزلية والأشكال الدقيقة للعمارة المغولية - أبدًا حيويتها الكاملة أو هيبتها الفنية، وبقيت - على الأقل في بعض الأوساط - مشوَّهة السمعة مثل الأباطرة الذين كانوا يرعونها بالماضي.

اليوم، إذا قمت بزيارة مدينة «آجرا» المغولية القديمة، ربما لرؤية «تاج محل»، أعظم الإنجازات المعمارية للعهد المغولي، ستلاحظ كيف تمتلئ الممرات الدائرية بتماثيل للحكام القدامى مثل «راني جانسي»،

و«شيفاجي»، وحتى «سوبهاش شاندرا بوز»، لكنك لن تجد صورة واحدة لأي إمبراطور مغولي في أي مكان في المدينة منذ الاستقلال. على الرغم من أن طريق «بهادور شاه ظفر» لا يزال موجودًا في «دلهي»، كما هي الحال مع الطرق التي سميت على اسم كل المغول العظماء الآخرين، فإنه بالنسبة لعديد من الهنود اليوم، سواء أكان عن حق أم خطأ، لا يزال يُنظر للمغول المسلمين كما ينظر لهم البريطانيون ويقومون بتصويرهم في الدعاية الإمبراطورية التي يقومون بتدريسها في المدارس الهندية بعد عام ١٨٥٧: كغزاة متعصبين، منحطِّين، يقومون بتدمير المعابد الهندوسية، وهو الشيء الذي أظهرته بقوة حادثة هدم مسجد بابوري في أيودهيا عام ١٩٩٢.

لا تلقَى الحضارة المتطورة والليبرالية والتعددية العميقة التي دافع عنها الإمبراطور «أكبر»، أو الإمبراطور «دارا شكوه»، أو الأباطرة المغول اللاحقون له، إلا صدى محدود للغاية عند الطبقة الوسطى الحضرية في الهند الحديثة.

لكن الآن، كثير من هؤلاء متناقضون بشدة حول إنجازات المغول، حتى إن كانوا يلتهمون بسعادة وجبات مغولية في أثناء يومهم، أو يتدفقون على صالات السينما لمشاهدة ملحمة مغولية من إنتاج بوليوود، أو يتوجَّهون إلى القلعة الحمراء للاستماع إلى رئيس وزرائهم وهو يقدم خطاب عيد الاستقلال السنوي عند الأسوار أمام بوابة «لاهور».

أما «ظفر»، فظل مذكورًا في أذهان كثيرين ممن يشعرون بالحنين إلى الماضي، خاصة - وإن لم يكن حصريًّا - المسلمين الهنود. ولكن الشوق الرومانسي للإمبراطورية الضائعة لم يكن كافيًا لحماية ثقافة المغول التي جسدها «ظفر» أو الحفاظ عليها. ويرجع هذا بشكل خاص إلى موقفه المُلَتبِس من الانتفاضة، التي لم يدعمها إلا جزئيًّا فقط في أثناء صعودها، ثم رفضها نهائيًّا في حالة الهزيمة، لذا لم يعد هناك شيء يتشبث به أنصاره، ولا حتى فكرة سياسية متماسكة.

بوفاته، ووفاة «غالب» الذي لحق به بعد سبع سنوات، تلاشى احترام الذَّات والثقة في تلك الحضارة بأكملها، لذا فقدت مصداقيتها بطريقة لا تترك أملًا في إعادة إحيائها. في العام نفسه الذي توفي فيه «غالب» في «دلهي»، ١٨٦٩، وُلد في بوربندر في ولاية غوجارات، صبي اسمه «موهانداس كرمشاند غاندي» وبفضل الحركات السياسية التي قادها «غاندي» هذا، وليس بسبب تلك التي يمثلها «ظفر»، أو التي يمثلها اللورد «كانينج» لنكون أدقَّ في الوصف، كمُن مستقبل الهند..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بوفاة «ظفر»، سرعان ما تفرَّق من نجوا من العائلة المالكة المغولية، كتب الكابتن «ديفيز» في تقريره التالي إلى كالكوتا، المغول الآن قد صاروا مثل الحضارة التي يمثلونها، أشلاء بيت. تمثل البيجوم «زينَّت محل» حزبًا في نفسها، وحتى وقت قريب كانت هي وزوج ابنها في نزاع مميت، بينما مثَّل «جيوان بخت» وزوجه الحزب الثاني، وأما «شاه عباس»، وأمه، وجدته، فيمثلون الحزب الثالث. احتفظت الثلاثة أحزاب بأماكن إقامة منفصلة، وقاموا بطهي وجباتهم وتناولها بشكل منفصل، وأصبح لديهم قليل من التواصل مع بعضهم بعضًا، أو لا تواصل على الإطلاق.

مع مرور السنين، ساءت الأمور. في عام ١٨٦٧ سُمح للعائلة بمغادرة حبس السجن والاستقرار في مكان آخر في معسكر «رانجون». لكنهم حصلوا على بعض الممتلكات اليائسة بحلول عام ١٨٧٠، بعد ثماني سنوات من وفاة «ظفر»، كان المنزل الذي تقاسمه «جيوان بخت» مع والدته و«شاه زماني» وُصِف بأنه «يائس.. مجرد كوخ متواضع ومزدحم للغاية». عندما كانت فتاة صغيرة لا تزيد عن عشر سنوات، طافت «شاه زماني بيجوم» بفخر وكبرياء في شوارع دلهي المغولية على ظهر الفيل لتتزوج من «ميرزا جيوان بخت». والآن انقلب كل شيء، وصارت مثقلة بخيبة الأمل من المسار الذي سارت فيه حياتها، وأصبحت «مريضة بشكل خطير، وتعاني من حالة اكتئاب شديدة، مما أثار قلق المسئولين البريطانيين الذين كان من المفترض أن يعتنوا بها، وبدأت تفقد بصرها!».

مُنح «جيوان بخت» وزوجته منزلًا آخر ليس ببعيد عن سجن «رانجون»، على أمل أن يكون من شأن هذا أن يحسن الأمور. ولكن على الرغم من الفقر، ظل «جيوان بخت» ينفق أكثر مما في حدود إمكانياته على الشراب، وقام مسئول حكومي بإبلاغ «كالكوتا» أن معاشه «بالكاد يكفي لتلبية الاحتياجات الفعلية للأسرة.. وهكذا، كلما أسرف «جيوان بخت» في أمواله، أو قام بإنفاق النقود على ملذاته، فإن زوجه وأولاده هم الوحيدون الذين يعانون في الحقيقة. كانت «شاه زماني» هي عُضوة عائلة «دلهي» الوحيدة البريئة تمامًا، ومع ذلك كانت هي أكثرهم معاناة. وفي أكثر من مناسبة اضطرت هذه السيدة العمياء إلى رهن ثيابها والحلي القليلة التي بقيت معها لتوفير الطعام لها ولأطفالها؛ فيما أغرق «جيوان بخت» أي ندم قد يشعر به في نوبات من شرب الخمر.. أنا حقًّا عاجز عن التدخل، لأن أي تدخل لن يؤدي إلا إلى تهديده لزوجه وإرهابها ومعاملتها بقسوة شديدة.

بحلول عام ١٨٧٢، ورد أن «شاه زماني» قد صارت عمياء تمامًا وعاجزة، لقد كان سلوك هذه السيدة مثاليًّا؛ ومصائبها التي ظُلِمت فيها من دون خطأ من جانبها، كانت شديدة. على الرغم من أن سلوك «جيوان بخت» تحسَّن بشكل

كبير في الآونة الأخيرة، فلابد أن اعتمادها المطلق عليه كان في بعض الأحيان مُتعبًا جدًّا بالنسبة إليها في كثير من الأحيان.. إنها موضع شفقة كبيرة».

تزوج ميرزا شاه عباس في النهاية من فتاة من «رانجون» - ابنة تاجر مسلم محلي - ويبدو أنه نجا من بعض اليأس. في هذه الأثناء، عاشت «زينَّت محل» بمفردها؛ «بطريقة مقتصدة للغاية تكاد تكون شديدة الفقر، في منزل خشبي اشترته بنفسها، مع خادمتين أو ثلاث خادمات، تعيش هذه الأرملة - في حالة يرثى لها - حياة هادئة بكرامة، على الرغم من كون المنزل الذي تسكنه الآن متداعٍ..».

تقدمت بطلب للسماح لها بالعودة إلى الهند عندما تقدمت بالعمر، قائلة إن ابنها «جيوان بخت» كان يضطهدها.. راحتها وعزاؤها الوحيدان كانا في الأفيون، الذي ازداد إدمانها له قرب نهاية حياتها، وتوفيت عام ١٨٨٢، بعد زوجها بعشرين عامًا. بحلول وقت وفاتها، كان المكان المحدد لقبر «ظفر» قد نُسِيَ بالفعل ولا يمكن تحديد موقعه، لذلك دُفنت بالتقريب في موقع مشابه، بالقرب من شجرة ذُكِرَّ أنها كانت قريبة من قبره. بعد سنتين، أصيب «ميرزا جيوان بخت» بجلطة دماغية شديدة وتبعها إلى القبر، وكان في عمر اثنين وأربعين عامًا فقط. عندما جاء وفد من الزائرين من الهند في عام ١٩٠٣ ليقدموا احتراماتهم في مكان دفن «ظفر»، كان حتى الموقع الدقيق لقبر «زينَّت محل» قد نُسِيَ، على الرغم من أن بعض المرشدين المحليين أشاروا إلى شجرة اللوتس الذابلة التي من المفترض أنها تشير للمكان.

في عام ١٩٠٥، كان هناك احتجاج من قِبَل مسلمي «رانجون» يطالبون بضرورة وضع علامة على قبر «ظفر»، لأنه، على حد قولهم في الالتماس الذي قدموه: «إن مجتمع المسلمين في رانجون مضطربٌ بسبب مثوى آخر ملوك سلالة المغول العظيمة.. كرجل أو كملك، لم يكن «بهادور شاه» محل إعجاب، لكن يجب أن نتذكَّره. نطالب بأن تسمح لنا الحكومة بشراء مساحة كافية من الأرض المحيطة بالقبر المقصود، للسماح ببناء نُصب يليق بـ«بهادور شاه» فوقها.».

لم تكن الاستجابة البريطانية الأولية مواتية، فتمَّت إعادة توجيه الالتماس إلى كالكوتا، حيث أُرسِل الرد مباشرة أن: «يظن نائب الملك أنه سيكون من غير المناسب للحكومة فعل أي شيء من شأنه تقديم الاحترام لذكرى «بهادور شاه»، أو للسماح بإقامة قبر فوق رفاته، مما قد يتحوَّل مع مرور الوقت ليصبح مكانًا للحج..».

لكن بعد سلسلة طويلة من المقالات الصحفية، وافقت السلطات البريطانية أخيرًا في عام ١٩٠٧ على إقامة حجر محفور بسيط منقوش عليه: ««بهادور

شاه»، ملك «دلهي» السابق. توفي في «رانجون» في ٧ نوفمبر ١٨٦٢، ودُفِن بالقرب من هذه البقعة.» كما سُمح بإنشاء السياج حول الموقع المفترض للمقبرة، ووفقًا لصحيفة «رانجون تايمز» في ٢٦ أغسطس ١٩٠٧، تم عقد اجتماع في قاعة «فيكتوريا»، لتسجيل موافقة مجتمع المسلمين لتشييد النصب التذكاري. وقد أنشئ نصبًا تذكاريًّا لـ«زينَّت محل» فأضيف لاحقًا في العام نفسه.

بحلول عام ١٩٢٥، أصبح ما داخل السياج مزارًا مؤقتًا، مغطى بسقف من الحديد. بعد ثمانية عشر عامًا، قام اليابانيون على الطريق بجوار المزار الأساسي (الضريح) بتجميع قوات الجيش الوطني الهندي في الحرب العالمية الثانية. لم يكن من الواضح ما إذا كان متعمدًا أم لا، ولكن واحدة من هذه المجموعات تمركزت مباشرة بجوار الضريح، وهي لواء «جانسي»، والذي سُمِّيَ على اسم واحدة من قادة انتفاضة ١٨٥٧، التي ألهمت جزئيًّا المنكوبين (من وجهة نظر نهرو وغاندي، الخاطئان) الذين حاولوا تحرير الهند من الحكم البريطاني من خلال التكاتف مع الغزاة اليابانيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي ١٦ فبراير عام ١٩٩١، قام العُمَّال بحفر مصرف مياه في الجزء الخلفي من الضريح، فكشفوا عن قبر مبطَّن بالطوب. كان تحت الأرض بحوالي ثلاث أقدام وبعيدًا بحوالي ٢٥ قدمًا عن الضريح، وقد عُثِر على الهيكل العظمي للمغولي الأخير سليمًا تمامًا في داخله.

اليوم، يُعد قبر «بهادور شاه» المبني من الطوب، والذي يقع الآن في قبو أسفل الضريح القديم، مكانًا شهيرًا للحج بالنسبة لسكان «رانجون» المسلمين. إذ يعتبر المسلمون المحليون «ظفر» قدِّيسًا صوفيًّا قويًّا، ويأتون ناشدين بركاته والدعاء لقضاء بعض مصالحهم الدنيوية، كل ذلك مما لا شك فيه كان ليسعده، لأنه كان يستمتع باستقبال المريدين (تلاميذ صوفيون) عندما كان حيًّا. كما يتلقَّى «ظفر» زيارات منتظمة إلى حد ما من السياسيين الذين أتوا من جنوب آسيا، وكذلك تتنافس كبار الشخصيات من الهند وباكستان وبنجلاديش على إغداق القبر بالهدايا، وأكثر تلك الهدايا سخاءً هي سجادة كبيرة، على الرغم من أنها بعيدة عن الجمال، قدمها «راجيف غاندي».

على الرغم من ذلك، فإن لـ«ظفر» قليل من المؤيدين في كتب التاريخ الحديث. من زاوية معينة، يمكن النظر إلى حياته مثالًا على الفشل؛ بعد كل شيء، فهو قد رأس الانهيار الكبير للحضارة الهندية الإسلامية، ومساهمته في انتفاضة ١٨٥٧ لم تكن بطولية. يلومه بعض المؤرخين القوميين على التواصل مع البريطانيين في أثناء القتال، أو لفشله في قيادة المتمرِّدين إلى النصر. ومع ذلك، فمن الصعب التفكير فيما كان بإمكان «ظفر» أن يفعله أكثر من

هذا وهو في الثانية والثمانين من العمر. كان ضعيفًا جسديًّا، وكان يعاني من الشيخوخة جزئيًّا، ولم تكن لديه نقود لدفع رواتب الجنود الذين توافدوا لخدمته.. وبالكاد يمكن لمن في عمره أن يقود سلاحَ الفرسان. لقد حاول قدر استطاعته، لكنه كان عاجزًا حتى عن وقف نهب «دلهي» من قبل جيش المتمردين الذي أثبت أنه يمثل تهديدًا كبيرًا لرعايا «ظفر»، كما هو يمثل تهديدًا لأعدائه. ومع ذلك، فإن أوراق التمرد تحمل شهادة بليغة على الطاقة التي بذلها في محاولة حماية شعبه ومدينته. لكن ربما لم يكن «ظفر» بالتأكيد بطلًا أو زعيمًا ثوريًّا، لكنه يبقى، مثل سلفه الإمبراطور «أكبر»، رمزا جذَّابًا للحضارة الإسلامية في أوج عصورها تسامحًا وتعددية. هو نفسه كان شاعرًا بارزًا وخطَّاطًا؛ إذ احتوى بلاطه على بعض أكثر الفنيين والشخصيات الأدبية موهبة في تاريخ جنوب آسيا الحديث؛ ودلهي التي رأسها كانت تمر بواحدة من أعظم فترات التعلم، والثقة بالنفس، والتفاهم الشعبي، والازدهار. إنه بالتأكيد شخصية ليبرالية ومحبوبة بشكل لافت للنظر عندما يُقارن مع الإنجيليين الفيكتوريين الذين تسببت عدم حساسيتهم وغطرستهم بقيام انتفاضة ١٨٥٧، التي حطَّت على رأسهم، ورأس الشعب، ورأس بلاط دلهي على حد سواء، لتجتاح شمال الهند بأكملها حرب دينية شعواء رهيبة.

قبل كل شيء، ركَّز «ظفر» دائمًا بشكل كبير على دوره كحامٍ للهندوس، ووسيط لمطالب المسلمين. لم ينسَ قط أهمية الحفاظ على الرابطة بين رعاياه الهندوس والمسلمين، والتي طالما أدرك أنها الخيط المركزي الذي يبقي عاصمته كُتلة واحدة. طوال فترة الانتفاضة، كان رفضه إبعاد رعاياه الهندوس استجابة لمطالب الجهاديين هو سياسته الأكثر ثباتًا، لم يكن هناك شيء حتميٌّ بشأن زوال المغول، وهو ما أظهره الاندفاع الدراماتيكي للسيبويين الهندوسيين نحو بلاط دلهي. ولكن في السنوات التالية، والتي سقطت فيها مكانة المسلمين وتراجع تعليمهم، وتزايدت قوة الهندوس وثرواتهم وتعليمهم وسلطتهم، تزايدت الهوة بين الهندوس والمسلمين بشكل تدريجي، حيث وجدت السياسات البريطانية القائمة على «فرق تسد» متعاونين من المتعصبين من الديانتَيْن. انفتح الخَرْق في النسيج المنسوج بشكل وثيق من ثقافة دلهي المركبة في عام ١٨٥٧، واتسع ببطء ليصبح جرحًا كبيرًا، وعند التقسيم في عام ١٩٤٧ انفصلوا أخيرًا إلى قسمين.

عندما هاجرت النخبة المسلمة الهندية بشكل جماعي إلى باكستان، أتى بعدها بفترة قصيرة وقت يكاد يكون من المستحيل فيه تخيُّل أن الهندوس السيبويين يمكن أن يكونوا قد اجتمعوا في القلعة الحمراء، أو انضموا يومًا إلى إخوانهم المسلمين، في محاولة لإحياء إمبراطورية المغول. وبعد سحق الانتفاضة واقتلاع بلاط دلهي وتدميره، انقسم المسلمون الهنود أنفسهم أيضًا إلى قسمين متعارضين: بدأ أحدهما، والذي رأسه «السيد أحمد خان» الموالي

للإنجليز، والذي كان يعتقد أن المسلمين الهنود لا يمكنهم إحياء حضارتهم إلا من خلال احتضان التعليم الغربي. مع وضع ذلك في الاعتبار، أسس «كلية عليكرة الإسلامية الأنجلو - شرقية» (لاحقًا صارت جامعة عليكرة الإسلامية)، وحاول إنشاء جامعة «أوكسبريدج» «خليطٌ من اسم جامعتي أوكسفورد وكامبريدج» في سهول هندوستان.

النهج الآخر، الذي اتَّبعه الناجون من المدرسة الرحيمية القديمة، كان يرفض الغرب كليًّا، وينشد العودة إلى ما اعتبروه الجذور الإسلامية النقية. لهذا السبب أسَّسَ تلاميذ مدرسة «شاه ولي الله» المحبطين، ومنهم الشيخ محمد قاسم ناناوتاوي - الذي أقام لفترة وجيزة في عام ١٨٥٧ دولة إسلامية مستقلة شمال ميروت في مدينة شاملي - مدرسةً مؤثرةً لكنها ضيقة الأفق تشبه المدارس الوهابية في مدينة ديوبند، وتقع على بُعد مائة ميل شمال العاصمة المغولية السابقة. كانوا في موقف يائس، فكان رد فعلهم قويًّا ضد ما رأوه على أنه الطرق المنحطة والفاسدة للنخبة المغولية القديمة. فنادت مدرسة «ديوبند» بالعودة إلى أساسيات القرآن وتجريده بصرامة من أي شيء هندوسي أو أوروبي. بعد مائة وأربعين عامًا، خارج المدارس «الديوبندية» في باكستان وأفغانستان، ظهرت حركة «طالبان» لخلق أكثر النظم الإسلامية رجعية في التاريخ الحديث، وهو النظام الذي بدوره قدَّم البوتقة التي انبثقت منها حركة القاعدة، والهجوم الإسلامي المتشدد الأكثر تطرُّفًا الذي واجهه الغرب الحديث حتى الآن.

اليوم، يواجه الغرب والشرق بعضهما بعضًا مرة أخرى باضطراب وتعصب؛ فتحت ما يظنه كثيرون حربًا دينيَّة، يقاتل المجاهدون ضد أعدائهم المسيحيين وفقًا لما يعتبرونه دفاعًا عن دينهم، ومرة أخرى تُذبح النساء والأطفال الأبرياء المدنيين. وكأن التاريخ يعيد نفسه، فمازال يصفهم السياسيون الإنجيليون الغربيون بـ«الشياطين». مرة أخرى تشعر البلدان الغربية - العمياء عن تأثير سياساتها الخارجية على العالم الأوسع من حولها - بالظُّلم لأنهم تتم مهاجمتهم - كما يفسرون الموقف - من قبل متعصبين طائشين.

وفي ظل هذه الازدواجية الباردة، هناك كثير مما يستحق التقدير في موقف «ظفر» السِّلمي والمتسامح من الحياة؛ وهناك أيضًا كثيرٌ للندم عليه في الطريقة التي استخدمتها بريطانيا لتجتاح جذور حضارة المغول التعددية والفلسفية المركبة وتجْتثها. وهو ما يؤكده عصرنا الحالي، فلا شيء يهدد الجانب الليبرالي والمعتدل من الإسلام بقدر التدخل الغربي العدواني في الشرق، الذي يثير التطرُّفَ بشكل كبير في المسلم العادي ويُغذى قوة المتطرفين، فطالما كان تاريخ التشدد الإسلامي والإمبريالية الغربية قريبَيْن جدًّا ومتشابكين بشكل خطِر.. أو كما صاغها «إدموند بورك»، الذي كان هو

نفسه من أشد منتقدي العدوان الغربي في الهند: «هناك دروس واضحة في تلك القصة، ومن يفشل في فهْم التاريخ ودروسه، سيكون مقدَّرًا له تكراره.».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

لينك القنــــاة – Link

المحتويات

عن الكتاب..

مقدمة

الشخصيات
المغول
أ - العائلة الإمبراطورية المغولية
ب - سكان قصر الإمبراطور
ج - جيش الثوار:
د - آخرون من مدينة دلهي:
٢. البريطانيون.
البريطانيون في دلهي:
قوة دلهي الميدانية.
ملك على رقعة الشطرنج
مؤمنون وكفرة
موازنة صعبة
اقتراب العاصفة
سيف الغضب الإلهي
وصف التخريب والشغب
موقف مؤقت
الدم بالدم
انقلاب المَدِّ
القتل للجميع!
مدينة الموتى
المغولي الأخير

Notes

[←1]

(1) شركة كانت تحكم الهند نيابة عن سلطة التاج البريطاني.

[2←]
(2) جائزة معيار السمكة الذهبية وهي جائزة تقديرية مغولية.

[3←]

(3) كلمة من أصل فارسي وتعني في الوقت الحالي قائد الجيش أو الشرطة.

[←4]

(4) جنود محليون من داخل الهند.

[5←]

(5) جائزة تقديرية مغولية على شكل سمكة ذهبية.

[6←]

(6) هندسة بالاديو هي أسلوب أوروبي من الهندسة المعمارية اشْتُقَّ من تصاميمِ المهندس الإيطالي أندريا بالاديو

[7←]

(7) بطل أسطوري تشترك فيه إيران والهند.

[8→]

(8) رداء شرفي ورمز للطبقة الراقية.

[←9]

(9) تابع مخلص لـ«شاه علم».

[←10]

(10) مثلٌ شعبي شهير له قصة، ومعناه أن ابن آوي قد يأتي متنكرًا بصورة كلب أصفر فتنطلي على الجميع الخدعة.

[←11]

(11) تعني قلبي سعيد.

[←12]

(12) الماسة التي حصل عليها البريطانيون عام ١٨٤٩ من المغول والتي تعلو الآن تاج الملكة إليزابيث، وهي أعظم ممتلكات المغول، ومازالت الهند تطالب باسترجاعها في كل مناسبة رسمية، كما تتصارع عليها ثلاث قوى أخرى وهي باكستان وإيران وأفغانستان لاعتبارات تاريخية عديدة.

[←13]

(13) رواية للكاتب أنتوني ترولوب نُشرت عام ١٨٥٧، تتحدث الرواية عن العلاقة بين رجال الدين والطبقة الراقية في كاتدرائية بارشيستر (مدينة متخيلة) من نواحٍ سياسية واجتماعية ودينية، أما عبيدة سلوب فهو شخص متملق قام الممثل ألان ريكمان بتمثيل دوره في فيلم يحمل الاسم نفسه - قد أكسبه قليلًا من الأصدقاء وكثيرًا من الأعداء.

[←14]

(14) حج هندوسي يحدث أربع مرات كل ١٢ سنة يتنقل فيه الحجاج بين أربع مواقع، ويحضره على الأقل ٢٥ مليون شخص. ويعود أصل مهرجان كومبه ميلا إلى أسطورة هندوسية تروي أن الإله فيشنو انتزع وعاءً ذهبيًّا يحتوي على رحيق الخلود من الشياطين. وخلال ١٢ يومًا من الصراع على الوعاء سقطت أربع قطرات إلى الأرض في مدن براياجراج وهاريدوار وأوجاين وناشيك ويقام بهذه المواقع طقوس الحج لهذا السبب.

[←15]

(15) نُسَّاك هندوس أجسادهم ملطخة بالرماد وشعورهم مجدولة وعراة إلا من عقود الخرز وبتلات الزهور ويدخنون غلايين خشبية، يعيش بعضهم في كهوف بعد أن أقسموا على التبتل والزهد في المتاع الدنيوي.

[←16]

(16) نظام إسلامي صوفي نسبة إلى مدينة شيشت.

[←17]

(17) فرقة تدعي الانتساب لمذهب أبي حنيفة في المسائل الفقهية الفرعية. نشأت في شبه القارة الهندية في مدينة بريلي بالهند أيام الاستعمار البريطاني.

[←18]

(18) نسبة إلى تيلانجا في شرق الهند.

[←19]

(19) قاعة الصلاة.

[←20]

(20) تعبير يستخدم لوصف عضو مختلف عن المجموعة.